تفسير البغوي

(معالم التنزيل)

للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي

(المتوفى ٥١٦هـ)

حققه وخرج أحاديثه

محمد عبد الله النمر — د. عثمان جمعة ضميرية — سليمان مسلم الحرش

المجلد الثالث

الكهف - ص

دار طيبة

تفسير البغوي

(معالم التنزيل)

للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي
(المتوفى ٥١٦ هـ)

حققه وخرج أحاديثه

محمد عبد الله النمر — د. عثمان جمعة ضميرية — سليمان مسلم الحرش

المجلد الثالث

الكهف - ص

دار طيبة للنشر والتوزيع

ح دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البغوي، الحسين بن مسعود

تفسير البغوي: معالم التنزيل. / الحسين بن مسعود البغوي، سليمان مسلم الحرش وآخرون- ط٢ - الرياض، ١٤٢٧هـ

٤مج، ٢٨×٢٠سم

ردمك: ٩ ـ ٨٧ ـ ٨٩١ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)

٩ ـ ٩٠ ـ ٨٩١ ـ ٩٩٦٠ (ج٣)

١ ـ القرآن ـ التفسير بالمأثور أ ـ الحرش، سليمان محمد (محقق)

ب ـ العنوان

ديوي: ٢٢٧,٣٢ ١٤٢٧/٣٢٠٢

الإصدار الأول

الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ ـ ١٤١٢هـ)

الطبعة الخامسة (١٤٢٠هـ)

الإصدار الثاني

الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ)

الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م)

دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق

ص. ب ٧٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٢٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٣٧٧

تفسير البغوي

(معالم التنزيل)

٣

سورة الكهف

مائة وعشر آيات / وهي مكية. ١/٢١٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أثنى الله[1] على نفسه بإنعامه على خلقه، وخصَّ رسوله ﷺ بالذكر؛ لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾.

﴿قَيِّمًا﴾ فيه تقديم وتأخير، معناه: أنزل على عبده الكتاب قيِّمًا، ولم يجعل له عوجًا، «قَيِّمًا»، أي: مستقيمًا، قال ابن عباس: عدلًا، وقال الفراء: قيمًا على الكتب كلها، أي: مصدقًا لها ناسخًا لشرائعها. وقال قتادة: ليس على التقديم والتأخير، بل معناه: أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، ولكن جعله قيمًا، ولم يكن مختلفًا، على ما قال الله تعالى: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا»[النساء: ٨٢]، وقيل: معناه: لم يجعله مخلوقًا، ورُوي عن ابن عباس في قوله: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ»[الزمر: ٢٨]، أي: غير مخلوق.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر ببأسٍ شديد ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ أي: الجنة.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ أي: مقيمين فيه.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

---

(١) لفظ الجلالة ساقط من «ب».

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾
فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا
عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: قالوه عن جهل لا عن علم ﴿كَبُرَتْ﴾ أي: عظمت ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، يقال تقديره: كبرت الكلمةُ كلمةً، وقيل: من كلمة، فحذف «مِنْ» فانتصب ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: تظهر من أفواههم ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ من بعدهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ أي: حزنًا، وقيل: غضبًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ فإن قيل: أي: زينة في الحيّات والعقارب والشياطين؟

قيل: فيها زينة على معنى أنها تدل على وحدانية الله تعالى.

وقال مجاهد: أراد به الرجال خاصة، وهم زينة الأرض، وقيل: أراد بهم العلماء والصلحاء، وقيل: الزينة بالنبات والأشجار والأنهار، كما قال: «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ»[يونس: ٢٤].

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ أي: أصلح عملًا، وقيل: أيهم أترك للدنيا.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ فالصعيد: وجه الأرض، وقيل: هو التراب، «جُرُزًا»: يابسًا أملس لا ينبت شيئًا، يقال: جرزت الأرض إذا أُكل نباتها.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ يعني: أظننتَ يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا، أي: هم عجب من آياتنا.

وقيل: معناه: إنهم ليسوا بأعجب من آياتنا، فإن ما خَلَقْتُ من السموات والأرض وما فيهن من العجائب أعجب منهم.

و«الكهف»: هو الغار في الجبل، واختلفوا في «الرقيم»، قال سعيد بن جبير: هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم[1] ـ وهذا أظهر الأقاويل ـ ثم وضعوه على باب الكهف، وكان اللوح من رصاص، وقيل: من حجارة، فعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم، أي: المكتوب، والرَّقْم: الكتابة.

(١) زيادة من «ب».

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

وحكي عن ابن عباس أنه اسم للوادي الذي فيه أصحاب الكهف، وعلى هذا هو من رقمة الوادي، وهو جانبه.

وقال كعب الأحبار: هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف.

وقيل: اسم للجبل الذي فيه الكهف، ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف، فقال:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: صاروا إليه، واختلفوا في سبب مصيرهم إلى الكهف[1]:

فقال محمد بن إسحاق بن يسار: مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروح يقال له: «دقيانوس» عبد الأصنام وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه، وكان ينزل قرى الروم، ولا يترك في قرية نزلها أحدًا إلّا فتنه حتى يعبد الأصنام ويذبح للطواغيت

---

(١) ذكر هذه الروايات التي ساقها المصنف: الطبري في «التفسير»: (١٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠٥)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٣٦٣ ـ ٣٧٠، ٣٧٣)، والقرطبي: (١٠/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠)، والخازن: (٤/ ١٦٠ ـ ١٦٥). وهذه الروايات بهذا التفصيل فيما يتعلق بخروج الفتية وأسمائهم واسم كلبهم ... إلخ بجملتها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا، وحمله عنهم بعض الصحابة والتابعين وحكوه عنهم لغرابته والعجب منه. ونضع هنا كلمات لبعض العلماء المحققين والمفسرين حيال هذه الروايات تغنينا عن التعليق على التفسير في مواضع كثيرة:

قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٧٦ ـ ٧٩): (... ولم يخبرنا الله تعالى بمكان هذا الكهف، ولا في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه، ولا قصد شرعي، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالًا ... والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه ... فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه).

وبعد أن عرض لبعض الأقوال عن كلب أصحاب الكهف ولونه قال: (واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها، ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب).

وقال عن أسماء الفتية: (... وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فلا تمار فيهم إلّا مراء ظاهرًا﴾ أي: سهلًا هينًا، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة).

وقال في «البداية والنهاية» (٢/ ١١٥): (... وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبرًا طويلًا، أكثره متلقى من الإسرائيليات، وكثير منها كذب، ومما لا فائدة فيه، كاختلافهم في اسمه ولونه).

وقال الأستاذ سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» (١٥/ ٢٢٦٠ ـ ٢٢٦١): (تجيء قصة أصحاب الكهف، فتعرض نموذجًا للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئن به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة.

وفي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة، فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى، ونحن نقف فيها عند ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن، ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح، وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها، وعن المراء فيها والجدل رجمًا بالغيب).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٢٠): (واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم، وفي أي محل من الأرض كانوا، كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها). وراجع: «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبو شهبة: ص٢٣٥ ـ ٢٣٧.

أو قتله، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف، وهي «أفسوس»، فلما نزلها كبر على أهل الإيمان، فاستخفَوا منه، وهربوا في كل وجه، وكان «دقيانوس» حين قدمها أمر أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له، واتخذ شرطًا من الكفار من أهلها، يتَّبعون أهل الإيمان في أماكنهم فيخرجونهم إلى «دقيانوس» فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب في الحياة، ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل، فلما رأى ذلك أهل الشدة في الإيمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل، فيقتلون ويقطعون ثم يربط ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة، فلما رأى ذلك الفتيةُ حزنوا حزنًا شديدًا، فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء، وكانوا من أشراف الروم، وكانوا ثمانية نفر، بكوا وتضرعوا إلى الله وجعلوا يقولون: ربنا رب السموات والأرض، لن ندعو من دونه إلهًا، لقد قلنا إذًا شططًا إن عبدنا غيره، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة، وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك، فبينما هم على مثل ذلك، وقد خلوا في مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم وهم سجود على وجوههم، يبكون ويتضرعون إلى الله، فقالوا لهم: ما خلَّفكم عن أمر الملك؟ انطلِقوا إليه، ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى «دقيانوس»، فقالوا: تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزئون بك ويعصون أمرك! فلما سمع بذلك بعث إليهم، فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفَّرة وجوههم بالتراب، فقال لهم: ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة لسادات من أهل مدينتكم؟ اختاروا: إما أن تذبحوا لآلهتنا، وإما أن أقتلكم، فقال «مكسلمينا» وهو أكبرهم: إنَّ لنا إلهًا ملأ السموات والأرض عظمة، لن ندعو من دونه إلهًا أبدًا، له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصًا أبدًا، إيَّاه نعبد وإيَّاه نسأل النجاة والخير، فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدًا، فاصنع بنا ما بدا لك، وقال أصحاب «مكسلمينا» لـ «دقيانوس» مثل ما قال «مكسلمينا»، فلما قالوا ذلك أمر فنزع عنهم لبوسًا كان عليهم من لبوس عظمائهم ثم قال: سأفرغ لكم فأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة، وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم إلَّا أني أراكم شبانًا حديثة أسنانكم، فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلًا تذكرون فيه وتراجعون عقولكم، ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم، ثم أمر بهم فأُخرِجوا من عنده.

وانطلق «دقيانوس» إلى مدينة سوى مدينتهم قريبًا منهم لبعض أموره، فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه، وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم (وأن يعذبهم)[1] فأتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها، ويتزودوا بما بقي، ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له:

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

«بخلوس»، فيمكثون فيه ويعبدون الله حتى إذا جاء «دقيانوس» أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء، فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها، ثم انطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف، فلبثوا فيه.

قال كعب الأحبار: مروا بكلب فتبعهم فطردوه ففعل ذلك مرارًا، فقال لهم الكلب: يا قوم، ما تريدون مني؟ لا تخشون جانبي، أنا أُحب أحباب الله، فناموا حتى أحرسكم.

وقال ابن عباس: هربوا ليلًا من «دقيانوس»، وكانوا سبعة فمروا براعٍ معه كلب فتبعهم على دينهم، وتبعه كلبه، فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد.

قال ابن إسحاق: فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلّا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد ابتغاء وجه الله، وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له: «يمليخا» فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرًّا، وكان من أجملهم وأجلدهم، وكان إذا دخل المدينة يضع ثيابًا كانت عليه حسانًا ويأخذ ثيابًا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها، ثم يأخذ ورقه فينطلق إلى المدينة فيشتري لهم طعامًا وشرابًا، ويتجسس لهم الخبر هل ٢١٥/ب ذكر هو وأصحابه بشيء، ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما لبثوا، / ثم قدم «دقيانوس» المدينة فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت، ففزع من ذلك أهل الإيمان، وكان «يمليخا» بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل، وأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة، وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة، ففزعوا ووقعوا سجودًا يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة، ثم إن «يمليخا» قال لهم: يا إخوتاه، ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم، فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع، فطعموا، وذلك غروب الشمس، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضًا، فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم النوم في الكهف، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف، فأصابه ما أصابهم، وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم.

فلما كان من الغد فقدهم «دقيانوس» فالتمسهم فلم يجدهم، فقال لبعضهم: لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا، لقد كانوا ظنوا أن بي غضبًا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري، ما كنت لأحمل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي، فقال عظماء المدينة: ما أنت بحقيق أن ترحم قومًا فجرة مردة عصاة قد كنت أجّلت لهم أجلًا ولو شاءوا لرجعوا في ذلك الأجل، ولكنهم لم يتوبوا، فلما قالوا ذلك غضب غضبًا شديدًا، ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم، فقال: أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني، (وتوعدهم بالقتل)[1]، فقالوا له: أما نحن فلم نَعْصِك، فلِمَ تقتلنا بقومٍ مردة قد ذهبوا بأموالنا، فأهلكوها في أسواق

(١) ساقط من «ب».

المدينة، ثم انطلقوا وارتقوا إلى جبل يدعى بخلوس؟ فلما قالوا له ذلك خلَّى سبيلهم، وجعل لا يدري ما يصنع بالفتية، فألقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم، وأراد الله أن يكرمهم ويجعلهم آية لأُمة تستخلف من بعدهم، وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور، فأمر «دقيانوس» بالكهف أن يسد عليهم، وقال: دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعًا وعطشًا ويكون كهفهم الذي اختاروا قبرًا لهم، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم، وقد توفَّى الله أرواحهم وفاة النوم، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم، يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال.

ثم إن رجلين مؤمنين في بيت الملك «دقيانوس» يكتمان إيمانهما اسم أحدهما «يندروس» واسم الآخر «روناس» ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوحٍ[(١)] من رصاص ويجعلاه في تابوت من نحاس، ويجعلا التابوت في البنيان، وقالا: لعلَّ الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قومًا مؤمنين قبل يوم القيامة، فيعلم من فتح عنهم حين يقرأ هذا الكتاب خبرهم[(٢)]، ففعلا وبنيا عليه، فبقي «دقيانوس» ما بقي، ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك.

وقال عبيد بن عمير: كان أصحاب الكهف فتيانًا مطوقين مسورين ذوي ذوائب، وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي عظيم[(٢)] وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها، وقد قذف الله في قلوب الفتية الإيمان، وكان أحدهم وزير الملك، فآمنوا وأخفى كل واحد منهم إيمانه فقالوا في أنفسهم: نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم، لا يصيبنا عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة، فجلس فيه، ثم خرج آخر فرآه جالسًا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك، ثم خرج الآخر فاجتمعوا إلى مكان، فقال بعضهم لبعض: ما جمعكم؟ وكل واحد يكتم صاحبه إيمانه مخافةً على نفسه، ثم قالوا: ليخرج كل فتى فيخلوَ بصاحبه[(٣)] ثم يفشي كل واحد سرَّه إلى صاحبه، ففعلوا فإذا هم جميعًا على الإيمان، وإذا كهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض: فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وفقدهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح: فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح[(٣)] في خزانة الملك، وقالوا: ليكونن لهذا شأن، ومات ذلك الملك، وجاء قرن بعد قرن.

وقال وهب بن منبه: جاء حواري عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنمًا لا يدخلها أحد إلَّا سجد له فكره أن يدخلها، فأتى حمامًا قريبًا من المدينة فكان يؤاجر

(١) في «ب»: (لوحين). (٢) ساقط من «ب». (٣) زيادة من «ب».

نفسه من الحمامي ويعمل فيه، ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة وعَلِقَه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا وصدقوه، وكان شرط على صاحب الحمام أنَّ الليل لي لا يحول بيني وبينه ولا بين الصلاة أحد، وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيَّره الحواري، وقال: أنت ابن الملك وتدخل مع هذه؟ فاستحيا وذهب فرجع مرة أخرى، فقال له مثل ذلك فسبه وانتهره ولم يلتفت إلى ذلك حتى دخلا معًا فماتا في الحمام، وأتى الملك فقيل له: قتل صاحبُ الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه وهرب(١)، فقال: مَن كان يصحبه؟ فسمَّوا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم على مثل إيمانهم فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه(١)، وقالوا: (نلبث هاهنا إلى الليل)(٢) ثم نصبح إن شاء الله تعالى، فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم، فخرج الملك في أصحابه يبتغونهم حتى وجدوهم، فدخلوا الكهف، فلما أراد رجل منهم دخوله أرعب فلم يطق أحد أن يدخله، فقال قائل منهم: أليس لو قدرت عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف (واتركهم فيه يموتون جوعًا وعطشًا، ففعل.

قال وهب: (فعبر زمان بعد زمان)(١) بعدما سدَّ عليهم باب الكهف، ثم إن راعيًا أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحت هذا الكهف وأدخلت غنمي فيه من المطر لكان حسنًا، فلم يزل يعالجه حتى فتح وردَّ الله عليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا.

وقال محمد بن إسحاق: ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له: «بيدروس»، فلما ملك بقي في ملكه ثمانيًا وستين سنة فتحزب الناس في ملكه فكانوا أحزابًا، منهم من يؤمن بالله، ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذِّب بها، فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع إلى الله وحزن حزنًا شديدًا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق، ويقولون: لا حياة إلَّا حياة الدنيا، وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فجعل «بيدروس» يرسل إلى من يظن فيه خيرًا وأنهم أئمة في الخلق، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملَّة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه، ولبس مسحًا وجعل تحته رمادًا فجلس عليه، فدأب ليله ونهاره زمانًا يتضرع إلى الله تعالى ويبكي، ويقول: أي رب، قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث إليهم آية تبين لهم (بطلان ما هم عليه)(١)، ثم إن الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة العباد أراد أن يظهر الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ويستجيب لعبده الصالح «بيدروس» ويتم نعمته عليه، وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف، وكان اسم

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (نبيت هنا الليلة).

ذلك الرجل «أولياس» أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف فيبني به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا[1] ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة، حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله عن الناس بالرعب، فلما فتحا باب الكهف أذن الله ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض، فكأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون فيها إذا أصبحوا من ليلتهم، ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه كهيئتهم حين رقدوا، وهم يرون أن «دقيانوس» في طلبهم، فلما قضوا صلاتهم قالوا لـ «يمليخا» صاحب نفقاتهم: أنبئنا ما الذي قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار؟ وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون، وقد تخيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون، حتى يتساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض: كم لبثتم نيامًا؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، ثم قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم، وكل ذلك في أنفسهم يسير، فقال لهم «يمليخا»: التُمِسْتُمْ في المدينة فلم توجدوا، وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم، فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل، فقال لهم «مكسلمينا»: يا إخوتاه، اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله، ثم قالوا لـ «يمليخا»: انطلِقْ إلى المدينة فتسمَّعْ ما يقال علينا بها، وما الذي يذكر عند «دقيانوس»، وتلطَّفْ ولا تشعرنَّ بك أحدًا، وابتع لنا طعامًا فائتنا به، وزدنا على الطعام الذي جئتنا به، فقد أصبحنا جياعًا، ففعل «يمليخا» كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي يتنكر فيها وأخذ وَرِقًا (من نفقتهم التي كانت معهم والتي ضربت بطابع «دقيانوس»، فكانت كخفاف الربع، فانطلق «يمليخا» خارجًا)[2]، فلما مرَّ بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة / عن باب الكهف فعجب منها ثم مرَّ ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيًا فصدَّ عن الطريق تخوفًا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن «دقيانوس» وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة، فلما أتى «يمليخا» باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان إذا كان الإيمان ظاهرًا فيها، فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيًا وجعل ينظر يمينًا وشمالًا، ثم ترك ذلك الباب فتحول إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف، ورأى ناسًا كثيرًا محدثين لم يكن يراهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران، ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول: يا ليت شعري ما هذا؟ أما عشية أمس كان المسلمون يخفون[3] هذه العلامة ويستخفون بها، وأما اليوم فإنها ظاهرة، لعلِّي نائم؟! ثم يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظَهْرَي سوقها

٢١٦/أ

(١) ساقط من «أ».
(٢) ساقط من «ب».
(٣) في «ب»: (يخبئون).

فيسمع ناسًا يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده فَرَقًا ورأى أنه حيران، فقام مسندًا ظهره إلى جدار من جدر المدينة، يقول في نفسه: والله ما أدري ما هذا، أما عشية أمس فليس على ظهر الأرض إنسان يذكر عيسى ابن مريم إلّا قتل، وأما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر اسم عيسى ولا يخاف أحدًا، ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا، فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟ قال: اسمها «أفسوس»، فقال في نفسه: لعل بي مَسًّا أو أمرًا أذهب عقلي، والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبني شرٌّ فأهلك ثم إنه أفاق فقال: والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بي لكان أيسر[(١)] بي، فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الوَرِقَ التي كانت معه فأعطاها رجلًا منهم، فقال: بعني بهذه الوَرِق طعامًا فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونَقْشِها فعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه فنظر إليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل يتعجبون منها، ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض: إن هذا أصاب كنزًا خبيئًا في الأرض منذ زمان ودهر طويل، فلما رآهم «يمليخا» يتشاورون من أجله فرق فَرَقًا شديدًا، وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه، وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم «دقيانوس»، وجعل أُناس آخرون يأتونه فيتعرفونه (فلا يعرفونه)[(٢)]، فقال لهم وهو شديد الفَرَق منهم: افضلوا عليَّ قد أخذتم ورقي فأمسكوها، وأما طعامكم فلا حاجة لي به، فقالوا له: من أنت يا فتى، وما شأنك؟ والله لقد وجدتَ كنزًا من كنوز الأولين، وأنت تريد أن تخفيه عنا[(٢)]، فانطلِقْ معنا وأرِنا وشاركنا فيه، نُخْفِ عليك ما وجدت، فإنك إن لم تفعل نأت بك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك، فلما سمع قولهم قال في نفسه[(٢)]: قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه، فقالوا: يا فتى، إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت، فجعل «يمليخا» لا يدري ما يقول لهم وما يرجع إليهم، وفرق حتى ما (وجد ما)[(٢)] يخبر إليهم شيئًا، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه، ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة (صغيرهم وكبيرهم)[(٣)] حتى سمع به مَن فيها (فسألوه: ما الخبر؟)[(٢)]، فقيل: هذا رجل عنده كنز، فاجتمع إليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه، ويقولون: والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة، وما رأيناه فيها قط وما نعرفه قط، فجعل «يمليخا» لا يدري ما يقول لهم، فلما اجتمع إليه أهل المدينة فرق فسكت فلم يتكلم، وكان مستيقنًا أن أباه وإخوته بالمدينة، وأن حَسَبه ونسبه من أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينا هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومدبريها

---

(١) في «ب»: (أكيس).
(٢) ساقط من «أ».
(٣) ساقط من «ب».

اللذين يدبران أمرها، وهما رجلان صالحان اسم أحدهما «أريوس» واسم الآخر «طنطيوس»[1]، فلما انطلق به إليهما ظن «يمليخا» أنه ينطلق به إلى «دقيانوس» الجبار، فجعل يلتفت يمينًا وشمالًا، وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون، وجعل «يمليخا» يبكي، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال في نفسه[2]: اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ اليوم عليَّ صبرًا وأولج معي روحًا منك تؤيدني به عند هذا الجبار، وجعل يبكي ويقول في نفسه: فرق بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ولو أنهم يعلمون فيأتوني فنقوم جميعًا بين يدي هذا الجبار، فإنا كنا تواثقنا لنكوننَّ معًا، لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئًا، فرق بيني وبينهم فلن يروني ولن أراهم أبدًا، وكنَّا تواثقنا أن لا نفترق في حياة ولا موت أبدًا، يحدِّث به نفسه «يمليخا»، فيما أخبر أصحابه حين رجع إليه، حتى انتهى إلى الرجلين الصالحين «أريوس» و«طنطيوس»[1] فلما رأى «يمليخا» أنه لا يذهب به إلى «دقيانوس» أفاق وذهب[3] عنه البكاء، فأخذ «أريوس» و«طنطيوس»[1] الوَرِقَ فنظرا إليها وعجبا منها، ثم قال له أحدهما: أين الكنز الذي وجدت يا فتى؟ فقال «يمليخا»: ما وجدت كنزًا، ولكن هذا وَرِق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم، فقال أحدهما: فمن أنت؟ فقال «يمليخا»: أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة، فقالوا: ومن أبوك ومن يعرفك فيها، فأنبأهم باسم أبيه، فلم يجدوا أحدًا يعرفه ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق، فلم يدر «يمليخا» ما يقول لهم، غير أنه نكس رأسه (وأطرق بصره)[4] إلى الأرض، فقال بعض من حوله: هذا رجل مجنون، وقال بعضهم: ليس بمجنون، ولكنه يحمق نفسه عمدًا لكي ينفلت منكم، فقال له أحدهما ونظر إليه نظرًا شديدًا: أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق وضربها أكثر من ثلثمائة سنة، وإنما أنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شمط كما ترى، وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار، وإني لأظنني سآمر بك فتعذب عذابًا شديدًا، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته، فلما قال ذلك قال لهم «يمليخا»: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه، فإن فعلتم صدقتكم عمَّا عندي، قالوا: سل لا نكتمك شيئًا، قال لهم: ما فعل الملك «دقيانوس»؟ قالوا: لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكًا يسمى «دقيانوس»، ولم يكن إلَّا ملك هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة، فقال «يمليخا»: إني إذًا لحيران وما يصدقني أحد من الناس بما أقول، لقد كنَّا فتية (على دين واحد وهو الإسلام)[2]،

---

(١) في «أ»: (أسطيوس).
(٢) ساقط من «أ».
(٣) في «أ»: (وسكن).
(٤) ساقط من «ب».

وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجت لأشتري لهم طعامًا وأتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف الذي في جبل بنجلوس أريكم أصحابي، فلما سمع «أريوس» ما يقول «يمليخا»، قال: يا قوم، لعلَّ هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يدي هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه يرنا أصحابه، فانطلق معه «أريوس» و«أسطيوس» وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم، ولما رأى الفتية أصحاب الكهف «يمليخا» قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي به ظنوا أنه قد أخذ فذهب به إلى ملكه «دقيانوس»، فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلب الخيل مصعدة نحوهم، فظنوا أنهم رسل الجبار «دقيانوس» بعث إليهم ليؤتى بهم، فقاموا إلى الصلاة وسلَّم بعضهم على بعض، وأوصى بعضهم بعضًا، وقالوا: انطلقوا بنا نأت أخانا «يمليخا» فإنه الآن بين يدي الجبار ينتظر متى نأتيه، فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهري الكهف لم يروا إلَّا «أريوس» وأصحابه وقوفًا على باب الكهف، وسبقهم «يمليخا» فدخل عليهم وهو يبكي، فلما رأوه يبكي بكوا معه، ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم، وقصَّ عليهم النبأ كله، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نيامًا بأمر الله ذلك الزمان كله بأمر الله، وإنما أُوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقًا للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم دخل على إثْر «يمليخا» «أريوس» فرأى تابوتًا من نحاس مختومًا بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجلًا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم[1]، فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبًا فيهما: أن «مكسلمينا، ومحشلمينا، ويمليخا، ومرطونس، وكشطونس، ويبرونس، وديموس، ويطيوس، وحالوش كانوا فتية هربوا من مهلكهم «دقيانوس» الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف، فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم، فلما قرءوه وعجبوا، وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثم دخلوا على الفتية إلى الكهف فوجدوهم جلوسًا بين ظهرانيهم مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم، فخرَّ «أريوس» وأصحابه سجودًا، وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته، ثم كلم بعضهم بعضًا وأنبأهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم «دقيانوس» (من إكراههم على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت وإخفاء إيمانهم عنه وهربهم إلى الكهف)[2]، / ثم إن ٢١٦/ب
«أريوس» وأصحابه بعثوا بريدًا إلى ملكهم الصالح «بيدروس» أن عجل إلينا لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله في ملكك، وجعلها آية للعالمين لتكون لهم نورًا وضياءً وتصديقًا للبعث، فاعجل إلى فتية بعثهم الله عزَّ وجلَّ، وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة، فلما أتى الملك الخبر رجع إليه عقله وذهب همُّه

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

فقال: أحمدك الله ربَّ السموات والأرض، وأعبدك، وأسبح لك، تطوَّلت عليَّ ورحمتني فلم تطفىء النور الذي كنت جعلته لآبائي للعبد الصالح «اسطنطينوس» الملك، فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة «أفسوس»، فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف، فلما رأى الفتية «بيدروس» فرحوا به وخرُّوا سُجَّدًا على وجوههم، وقام «بيدروس» فاعتنقهم وبكى، وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه، ثم قال الفتية لـ «بيدروس»: نستودعك الله (إيمانك وخواتيم أعمالك)(١) والسلام عليك ورحمة الله، حفظك الله وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شرِّ الإنس والجن، فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله تعالى أنفسهم، وقام الملك إليهم فجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب، فلما أمسى ونام أتوه في المنام، فقالوا له: إننا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه، فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم، فأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدًا يصلى فيه وجعل لهم عيدًا عظيمًا وأمر أن يؤتى كل سنة.

وقيل: إن «يمليخا» لما حمل إلى الملك الصالح قال له الملك: من أنت؟ قال: أنا رجل من أهل هذه المدينة، وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام، وذكر منزله وأقوامًا لم يعرفهم أحد، وكان الملك قد سمع أن فتية فقدوا في الزمن الأول وأن أسماءهم مكتوبة على اللوح بالخزانة، فدعا باللوح وقد نظر في أسمائهم فإذا هو من أولئك القوم، وذكر أسماء الآخرين فقال «يمليخا» هم أصحابي، فلما سمع الملك ذلك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال «يمليخا»: دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم، فدخل فبشَّرهم، فقبض الله أرواحهم وأعمى عليهم أثرهم فلم يهتدوا إليهم، وذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: صاروا إلى الكهف، يقال: أوى فلان إلى موضع كذا، أي: اتخذه منزلًا إلى الكهف، وهو غار في جبل بنجلوس واسم الكهف: «خيرم»(٢).

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ومعنى الرحمة: الهداية في الدين، وقيل: الرزق ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ يسر لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: ما يلتمس من رضاك وما فيه رشدنا، وقال ابن عباس: رشدًا، أي: مخرجًا من الغار في سلامة.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) راجع فيما سبق: ص٧، تعليق (١) من نفس السورة.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ
وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ
لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم، وقيل: معناه: منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه ﴿ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: أنمناهم سنين معدودة، وذكر العدد على سبيل التأكيد، وقيل: ذكره يدل على الكثرة، فإن القليل لا يعد في العادة.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ يعني: من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ أي: علم المشاهدة ﴿ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أي: الطائفتين ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ وذلك أن أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف، واختلفوا في قوله عزَّ وجلَّ: «أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟»، أحفظ لما مكثوا في كهفهم نيامًا، «أَمَدًا» أي: غاية، وقال مجاهد: عددًا، ونصبه على التفسير.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ (نقرأ عليك)(١) ﴿ نَبَأَهُم ﴾ خبر أصحاب الكهف ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ شبان ﴿ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ إيمانًا وبصيرة.

﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ شددنا ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ بالصبر والتثبيت، وقوَّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العزِّ وخصب العيش، وفرُّوا بدينهم إلى الكهف ﴿ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ بين يدي دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ﴿ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ قالوا ذلك؛ لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان ﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ يعني: إن دعونا غير الله لقد قلنا إذًا شططًا، قال ابن عباس: جورًا، وقال قتادة: كذبًا، وأصل الشطط والإشطاط مجاوزة القدر والإفراط.

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ﴾ يعني: أهل بلدهم ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي: من دون الله ﴿ ءَالِهَةً ﴾ يعني: الأصنام يعبدونها ﴿ لَّوْلَا ﴾ أي: هلا ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ أي: على عبادتهم ﴿ بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ بحجة واضحة (تبين وتوضح أن الأصنام لا تستحق العبادة من دون الله)(٢) ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ وزعم أن له شريكًا وولدًا.

---

(١) ساقط من «أ». (٢) ساقط من «ب».

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾

ثم قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ يعني: قومهم[1] ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قرأ ابن مسعود «وما تعبدون من دون الله»، وأما القراءة المعروفة فمعناها: أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان، يقولون[2]: وإذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلَّا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادته ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ فالجأوا إليه ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾ يبسط لكم ﴿رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم﴾ يسهل لكم ﴿مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ أي: ما يعود إليه يسركم ورفقكم، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عمر «مرفقًا» بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الآخرون بكسر الميم وفتح الفاء، ومعناهما واحد، وهو ما يرتفق به الإنسان.

قوله تعالى: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «تزْوَرّ» بسكون الزاي وتشديد
١/٢١٧ الراء على وزن تَحْمَرّ، وقرأ أهل الكوفة: بفتح الزاي خفيفة وألف بعدها، وقرأ الآخرون بتشديد الزاي، / وكلها بمعنى واحد، أي: تميل وتعدل ﴿عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: جانب اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ أي: تتركهم وتعدل عنهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أصل القرض: القطع ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: متسع من الكهف، وجمعها: فجوات، قال ابن قتيبة: كان كهفهم مستقبل بنات نعش، لا تقع فيه الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا فيما بين ذلك، قال: اختار الله لهم مضجعًا[3] في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم بحرّها وتغير ألوانهم، وهم في متسع ينالهم برد الريح ونسيمها، ويدفع عنهم كرب الغار وغمومه. وقال بعضهم[4]: هذا القول خطأ، وهو أن الكهف كان مستقبل بنات نعش فكانت الشمس لا تقع عليهم، ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم، ألا ترى أنه قال:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ من عجائب صنع الله ودلالات قدرته التي يعتبر بها ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ أي: مَن يضلله الله، ولم يرشده ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا﴾ معينًا ﴿مُّرۡشِدٗا ١٧﴾.

---

(١) في «ب»: (قومكم).
(٢) في «ب»: (يقول).
(٣) في «ب»: (مضطجعًا).
(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١١٧ـ١١٨).

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ أي: منتبهين، جمع: يَقِظ ويَقُظ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام، جمع: راقد، مثل: قاعد وقعود، وإنما اشتبه حالهم؛ لأنهم كانوا مفتَّحي الأعين[(١)] يتنفسون ولا يتكلمون.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر، قال ابن عباس: كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم، وقيل: كان يوم عاشوراء يوم تقلبهم، وقال أبو هريرة: كان لهم في كل سنة تقلبان.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب.

وروي عن ابن جريج: أنه كان أسدًا، وسُمي الأسد كلبًا، فإن النبي ﷺ دعا على عُتبة بن أبي لهب فقال: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» فافترسه أسد[(٢)]. والأول أصح[(٣)].

قال ابن عباس: كان كلبًا أغر.

ويُروى عنه: فوق القلطي[(٤)] ودون الكردي، (والقلطي: كلب صيني)[(٥)].

وقال مقاتل: كان أصفر، وقال القرظي: كان شدة[(٥)] صفرته تضرب إلى الحمرة، وقال الكلبي: لونه كالخلنج، وقيل: لون الحجر.

قال ابن عباس: كان اسمه قطمير، وعن علي: اسمه ريان، وقال الأوزاعي: بتور، وقال السدي: تور، وقال كعب: صهيلة[(٦)].

قال خالد بن معدان: ليس في الجنة شيء من الدواب سوى كلب أصحاب الكهف، وحمار بلعام.

قوله: ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ قال مجاهد والضحاك: «والوصيد»: فناء الكهف، وقال عطاء: «الوصيد» عتبة الباب، وقال السدي: «الوصيد» الباب، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس.

فإن قيل: لم يكن للكهف باب ولا عتبة؟

قيل: معناه موضع الباب والعتبة، كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم.

---

(١) في «ب»: (مفتحة أعينهم).

(٢) صححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٥٣٩) ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: (٤/ ٣٩)، وعزاه أيضًا للبيهقي في «الدلائل». انظر: «الكافي الشاف»: ص١٦٠.

(٣) في «ب»: (المعروف).

(٤) في «الدر المنثور»: (القبطي)، والقَلَطِيّ: القصير من الناس والسنانير والكلاب.

(٥) ساقط من «ب».

(٦) انظر: التعليق (١) ص٧ من السورة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

قال السدي: كان أصحاب الكهف إذا انقلبوا انقلب الكلب معهم، وإذا انقلبوا إلى اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها، وإذا انقلبوا إلى الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد، حتى يبلغ الكتاب أجله، فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ خوفًا، قرأ أهل الحجاز بتشديد اللام، والآخرون بتخفيفها.

واختلفوا في أن الرعب كان لماذا[(١)]، قيل: من وحشة المكان.

وقال الكلبي: لأن أعينهم كانت[(٢)] مفتحة، كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم، وهم نيام.

وقيل: لكثرة شعورهم، وطول أظفارهم، ولتقلبهم من غير حس ولا إشعار.

وقيل: إن الله تعالى منعهم بالرعب؛ لئلا يراهم أحد.

ورُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس - رضي الله عنهم -: لقد منع ذلك من هو خير منك، فقال: «لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا»، فبعث معاوية ناسًا فقال: اذهبوا فانظروا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأخرجتهم[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم في الكهف، وحفظنا أجسادهم من البلى على طول الزمان، فكذلك[(٤)] بعثناهم من النومة التي تشبه الموت ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضًا، واللام فيه لام العاقبة؛ لأنهم لم يبعثوا للسؤال.

---

(١) في «ب»: (ماذا).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وإسناده صحيح. ورواه الواحدي في تفسيره «الوسيط»، وذكره الثعلبي. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٣٠١)، «الكافي الشاف»: ص١٠٣، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٣٨٩).

(٤) ساقط من «أ».

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو رئيسهم «مكسلمينا»: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومكم؟ وذلك أنهم استنكروا طول نومهم، ويقال: إنهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك.

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ وذلك أنهم دخلوا الكهف غدوة، فقالوا (حين انتبهوا)[1] عشية: لبثنا يومًا، ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقية، فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فلما نظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وقيل: إن رئيسهم «مكسلمينا» لما سمع الاختلاف بينهم قال: دعوا الاختلاف، ربكم أعلم بما لبثتم ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني: «يمليخا». قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «بورْقكم» ساكنة الراء، والباقون بكسرها، ومعناهما واحد، وهي الفضة مضروبةً كانت أو غير مضروبة ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ قيل: هي «طرسوس»، وكان اسمها في الجاهلية «أفسوس»، فسموها في الإسلام «طرسوس».

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أحلُّ طعامًا حتى لا يكون من غصب أو سبب حرام، وقيل: أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا يكون من ذبيحة من يذبح لغير الله، وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم، وقال الضحاك: أطيب طعامًا، وقال مقاتل بن حيان: أجود طعامًا، وقال عكرمة: أكثر، وأصل الزكاة: الزيادة، وقيل: أرخص طعامًا ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوت وطعام تأكلونه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليترفق في الطريق وفي المدينة، وليكن في ستر وكتمان / ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ من الناس. ٢١٧/ب

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعلموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال ابن جريج: يشتمونكم ويؤذونكم بالقول، وقيل: يقتلوكم، وقيل: كان من عاداتهم القتل بالحجارة، وهو أخبث القتل، وقيل: يضربوكم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: إلى الكفر ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ إن عدتم إليه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يقال: عَثَرْتُ على الشيء: إذا اطلعت

---

(١) ساقط من «أ».

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

عليه، وأعثرْتُ غيري، أي: أطلعته ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: قوم[1] «بيدروس»، الذين أنكروا البعث ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتنازعون في البنيان، فقال المسلمون: نبني عليهم مسجدًا يصلي فيه الناس؛ لأنهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم[2] بنيانًا؛ لأنهم من أهل نسبنا.

وقال عكرمة: تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: البعث للأجساد والأرواح معًا، وقال قوم: للأرواح دون الأجساد، فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح.

وقيل: تنازعوا في مدة لبثهم، وقيل: في عددهم.

﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ «بيدروس» الملك وأصحابه: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ رُوي أن «السيد» و«العاقب» وأصحابهما من نصارى أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد ـ وكان يعقوبيًا ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب ـ وكان نسطوريًا ـ: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين بعد ما حكى قول النصارى، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾[3]، أي: ظنًّا وحَدْسًا من غير يقين، ولم يقل هذا في حق السبعة، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: المسلمين ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

اختلفوا في الواو في قوله: «وَثَامِنُهُمْ»، قيل: تركها وذكرها سواء.

وقيل: هي واو الحكم والتحقيق، كأنه حكى اختلافهم، وتم الكلام عند قوله: «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ»، ثم حقق هذا القول بقوله: «وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» والثامن لا يكون إلّا بعد السابع.

وقيل: هذه واو الثمانية، وذلك أن العرب تعدّ فتقول: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية؛

---

(١) في «ب»: (أصحاب).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٢٤)، القرطبي: (١٠/ ٣٨٢).

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾

لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة، نظيره قوله تعالى[1]: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[التوبة: ١١٢]، وقال في أزواج النبي ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم: ٥].

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: بعددهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: إلّا قليل من الناس، قال ابن عباس: أنا من القليل، كانوا سبعة.

وقال محمد بن إسحاق: كانوا ثمانية، ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، أي: حافظهم، والصحيح هو الأول.

وروي عن ابن عباس أنه قال: هم «مكسلمينا»، و«يمليخا»، و«مرطونس»، و«بينونس»، و«سارينونس»، و«ذو نوانس»، و«كشفيططنونس» وهو الراعي، والكلب «قطمير»[2].

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ إلّا بظاهر ما قصصنا عليك، يقول: حسبك ما قصصت عليك، فلا تزد عليه، وقِفْ عنده ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا ۝٢٢﴾ أي: لا ترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: إذا عزمت على أن تفعل غدًا شيئًا، فلا تقل: أفعل غدًا، حتى تقول: إن شاء الله، وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غدًا، ولم يقل: إن شاء الله، فلبث الوحي أيامًا ثم نزلت هذه الآية[3].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن.

وجوَّز ابنُ عباس الاستثناءَ المنقطع، وإن كان إلى سنة، وجوَّزه الحسن ما دام في المجلس، وجوَّزه

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٢٥)، القرطبي: (١٠/ ٣٨٢-٣٨٣).
(٢) انظر فيما سبق: ص٧، تعليق (١).
وقال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٥٠٥): «في النطق بهذه الأسماء اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء».
وهذه الأسماء عن ابن عباس فيما رواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد صحيح.
انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٣)، «الفتح السماوي»: (٢/ ٧٩٣).
(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٣٧)، «زاد المسير»: (٥/ ١٢٧)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٧٢-٧٣).

بعضهم إذا قرب الزمان، فإن بَعُدَ فلا يصح، ولم يجوِّزه[(١)] جماعة حتى يكون متصلًا بالكلام[(٢)].

وقال عكرمة: معنى الآية: واذكر ربك إذا غضبت[(٣)].

وقال وهب: مكتوب في الإنجيل: ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب.

وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا الحسن بن أحمد المخلدي، حدثنا أبو العباس السراج، حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «من نسي صلاة فَلْيُصَلِّها إذا ذكرها»[(٤)].

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد[(٥)].

---

(١) في «أ»: (يجوِّز الاستثناء).

(٢) قال الطبري في «التفسير» (٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠): (وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: واذكر ربك إذا تركت ذكره؛ لأن أحد معاني النسيان في كلام العرب: التَّرْك.

فإن قال قائل: أفجائز للرجل أن يستثني في يمينه، إذ كان معنى الكلام ما ذكرت بعد مدة من حال حلفه؟

قيل: بل الصواب أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينه، فيقول: إن شاء الله ليخرج بقيله ذلك مما ألزمه الله في ذلك بهذه الآية، فيسقط عنه الحرج بتركه ما أمره بقيله من ذلك، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال، إلَّا أن يكون استثناؤه موصولًا بيمينه).

ثم وجَّه رأي ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، ورأي من قال بأن له الاستثناء ما دام في مجلسه، فقال: (إن معناهم في ذلك نحو معنانا في أن ذلك له، ولو بعد عشر سنين، وأنه باستثنائه وقيله إن شاء الله بعد حين من حال حلفه، يسقط عنه الحرج الذي لو لم يقله كان له لازمًا له، فأما الكفارة: فله لازمة بالحنث بكل حال، إلَّا أن يكون استثناؤه كان موصولًا بالحلف، وذلك: أنا لا نعلم قائلًا ممن قال: له الثُّنْيا بعد حين يزعم أن ذلك يضع عنه الكفارة إذا حنث، ففي ذلك أوضح الدليل على صحة ما قلنا في ذلك . . .)، وهذا ما رجحه ابن كثير أيضًا: (٣/ ٨٠).

وقال الجصاص في «أحكام القرآن» (٥/ ٤١ ـ ٤٢): (هذا الضرب من الاستثناء يدخل لرفع حكم الكلام حتى يكون وجوده وعدمه سواء؛ وذلك لأن الله تعالى ندبه الاستثناء بمشيئة الله تعالى لئلا يصير كاذبًا بالحلف، فدلَّ على أن حكمه ما وصفنا. ويدل عليه أيضًا قوله عزَّ وجلَّ حاكيًا عن موسى عليه السلام: «ستجدني إن شاء الله صابرًا» فلم يصبر ولم يك كاذبًا؛ لوجود الاستثناء في كلامه، فدل على أن معناه ما وصفنا من دخوله في الكلام لرفع حكمه، فوجب أن لا يختلف حكمه في دخوله على اليمين أو على إيقاع الطلاق أو على العتاق . . .).

ثم رجح أن الاستثناء لا يصح ولا يكون له هذا الأثر الذي وصفه إلَّا بأن يكون متصلًا باليمين ـ وهي نقطة الاتفاق مع تأويل الطبري ـ وهو قول إبراهيم وعطاء والشعبي؛ (لأن الاستثناء بمنزلة الشرط، لا يصلح ولا يثبت حكمه إلَّا موصولًا بالكلام من غير فصل، مثل قوله: أنت طالق إن دخلت الدار. فلو قال: أنت طالق، ثم قال: إن دخلتِ الدار بعدما سكت، لم يوجب ذلك تعلق الطلاق بالدخول، ولو جاز هذا لجاز أن يقول لامرأته: أنت طالق ثلاثًا، ثم يقول بعد سنة: إن شاء الله فيبطل الطلاق، ولا تحتاج إلى زوج ثانٍ في إباحتها للزوج الأول، وفي تحريم الله تعالى إياها عليه بالطلاق الثلاث إلَّا بعد زوج دلالة على بطلان الاستثناء بعد السكوت . . .).

وانظر قصة احتجاج أبي حنيفة لذلك على المنصور في: «أضواء البيان» للشنقيطي: (٤/ ٧٩)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٣٠٣)، وراجع القرطبي: (١٠/ ٣٨٦)، فقد رجح أن الآية ليست في اليمين بشيء»، وإنما هي استفتاح كلام، على الأصح.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٤٢)، ونقل الطبري: (١٥/ ٢٢٩) عن عكرمة أيضًا: اذكر ربك إذا عصيت (بالعين والصاد المهملتين).

(٤) أخرجه البخاري في المواقيت، باب من نسي صلاة فليصلِّ إذا ذكر: (٢/ ٧٠)، ومسلم في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها برقم ٥٩٧: (٢/ ٢٤١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٤١).

(٥) وهذا ما اعتمده ابن كثير، ولم يذكر غيره.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥﴾

وقيل: أمر الله نبيه أن يذكره إذا نسي شيئًا، ويسأله أن يهديه لما هو خير له من ذكر ما نسيه[١].

ويقال: هو أن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله عزَّ وجلَّ أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدلُّ لهم من قصة أصحاب الكهف، وقد فعل، حيث آتاه من علم الغيب المرسلين ما كان أوضح لهم في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف[٢].

وقال بعضهم: هذا شيء أمر أن يقوله مع قوله: «إن شاء الله» إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان، وإذا نسي الإنسان «إن شاء الله» فتوبته من ذلك أن يقول: «عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدًا»[٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ يعني: أصحاب الكهف، قال بعضهم: هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك، ولو كان خبرًا من عند الله عزَّ وجلَّ عن قدر لبثهم لم يكن لقوله: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ» وَجْهٌ، وهذا قول قتادة، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: «وقالوا لبثوا في كهفهم» ثم ردَّ الله تعالى عليهم فقال: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ»[٤].

وقال الآخرون: هذا إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف وهو الأصح.

(وأما قوله: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ»، فمعناه: أن الأمر من مدة لبثهم)[٥] كما ذكرنا، فإن نازعوك فيها فأجبهم، وقل: الله أعلم بما لبثوا، أي: هو أعلم منكم، وقد أخبرنا بمدة لبثهم.

وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن هذه المدة من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلثمائة وتسع سنين، فردَّ الله عليهم، وقال: «قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ»، يعني: بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلَّا الله. / ١/٢١٨

قوله تعالى: ﴿ثَلَثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «ثلاثَ مائةِ» بلا تنوين، وقرأ الآخرون بالتنوين.

فإن قيل: لِمَ قال ثلثمائةٍ سنين (ولم يقل سنة؟)[٦].

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١١٦).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٢٩)، «البحر المحيط»: (٦/ ١١٦).

(٣) وهذا ما اعتمده الطبري: (١٥/ ٢٣٠).

(٤) وفي هذا الذي قاله قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة، من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله تعالى قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُواْ تِسْعًا﴾، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله، لا حكاية عنهم - كما في القول الآتي الذي رجحه المصنف - وهو اختيار الطبري رحمه الله.

ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور، فلا يحتجّ بها، والله أعلم.

«تفسير ابن كثير»: (٣/ ٨٠ - ٨١)، وانظر: الطبري: (١٥/ ٢٣١ - ٢٣٢).

(٥) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٦) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

قيل: نزلَ قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ»، فقالوا: أيامًا أو شهورًا أو سنين؟ فنزلت «سِنِينَ».

قال الفرَّاء: ومن العرب من يضع سنين في موضع سنة.

وقيل: معناه: ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة.

﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ قال الكلبي[1]: قالت نصارى نجران: أما ثلثمائة فقد عرفنا، وأما التسع فلا علم لنا بها، فنزلت.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ رُوي عن علي أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة شمسية، والله تعالى ذكر ثلثمائة قمرية، والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون في ثلاثمائة تسع سنين، فلذلك قال: «وَازْدَادُوا تِسْعًا».

﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالغيب ما يغيب عن إدراكك، والله عزَّ وجلَّ لا يغيب عن إدراكه شيء.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع! أي: لا يغيب عن سمعه وبصره شيء.

﴿مَا لَهُم﴾ أي: ما لأهل السموات والأرض ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «ولا تشركْ» بالتاء على المخاطبة والنهي، وقرأ الآخرون بالياء، أي: لا يشركُ الله في حكمه أحدًا، وقيل: «الحُكْم» هنا عِلْمُ الغيب، أي: لا يشرك في علم غيبه أحدًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتْلُ﴾ أي: واقرأ يا محمد ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن، واتبع ما فيه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال الكلبي: لا مغيِّر للقرآن، وقيل: لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنت ﴿مِن دُونِهِ﴾ إن لم تتبع القرآن ﴿مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حرزًا، وقال الحسن: مدخلًا، وقال مجاهد: ملجأ، وقيل: مَعْدِلًا، وقيل: مهربًا، وأصله من الميل.

---

(١) الكلبي: هو محمد بن السائب، ضعيف. وانظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٣١).

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ...﴾ الآية، نزلت في عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم، وعنده جماعة من الفقراء، فيهم سلمان وعليه شملةٌ قد عرق فيها، وبيده خوصة يشقها ثم ينسجها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أمَا يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم الناس، وما يمنعنا من اتّباعك إلَّا هؤلاء فنحّهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا ولهم مجلسًا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾[1]، أي: احبس يا محمد نفسك ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ طرفي النهار ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ أي: يريدون الله، لا يريدون به عَرَضًا من الدنيا.

قال قتادة: نزلت في أصحاب الصُّفَّة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع، يصلُّون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم»[2].

﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ أي: لا تصرف ولا تتجاوز ﴿عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: طلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا.

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا، يعني: عيينة بن حصن، وقيل: أمية بن خلف ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: مراده في طلب الشهوات ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ قال قتادة ومجاهد: ضياعًا، وقيل: معناه: ضيع عمره[3]، وعطَّل أيامه، وقيل: ندمًا.

وقال مقاتل بن حيان: سرفًا، وقال الفراء: متروكًا، وقيل: باطلًا، وقيل: مخالفًا للحق، وقال الأخفش: مجاوزًا للحد[4]، قيل: معنى التجاوز في الحد، هو قول عيينة: إن أسلمنا أسلم الناس، وهذا إفراط عظيم.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢)، الطبري: (١٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٤٤ ـ ٣٤٥، «زاد المسير»: (٥/ ١٣٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٨٠)، «أسباب النزول»: ص٣٤٥، ابن كثير: (٣/ ٨٢).

(٣) في «ب»: (أمره).

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٣٣).

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والقرآن، معناه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس (قد جاءكم من ربكم الحق)[(١)] وإليه التَّوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، ليس إليَّ من ذلك شيء ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا على طريق التهديد والوعيد، كقوله: «ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ»[فصلت: ٤٠][(٢)].

وقيل معنى الآية: وقل الحق من ربكم، ولست بطارد المؤمنين لِهَواكم، فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا، فإن كفرتم فقد أعدَّ لكم ربكم نارًا أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم فلكم ما وصف الله عزَّ وجلَّ لأهل طاعته[(٣)]. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى الآية: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر[(٤)]، وهو قوله: «وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ»[الإنسان: ٣٠].

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيَّأنا، من الإعداد[(٥)]: وهو العدة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ السُّرادق: الحجرة التي تطيف[(٦)] بالفساطيط.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أنبأنا عبد الله بن المبارك، عن رشدين ابن سعد، حدثني عمرو بن الحارث، عن دراج بن أبي السمح، عن أبي الهيثم بن عبد الله، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «سرادق النار أربعة جُدُر كُثُف، كل جدار مثل مسيرة أربعين سنة»[(٧)].

---

(١) في «ب»: (الحق من ربكم).

(٢) قاله الزجاج. انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٣٤)، ابن كثير: (٣/ ٨٢).

(٣) وهو ما اعتمده الطبري: (١٥/ ٢٣٧).

(٤) أخرجه الطبري عن ابن عباس: (١٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٥) في «ب»: (العتاد).

(٦) في «ب»: (تحيط).

(٧) أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: (٧/ ٣٠٦)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين، وفي رشدين بن سعد مقال)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٢٩)، وأبو يعلى: (٢/ ١٨٤)، والحاكم: (٤/ ٦٠١)، والطبري: (١٥/ ٢٣٩)، وابن المبارك في «الزهد»: ص٣١٦، وذكره ابن الجوزي في «العلل»: (٢/ ٤٥٣)، ورواه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٤٥)، وإسناده ضعيف لضعف رشدين، ودرَّاج ضعيف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾

قال ابن عباس: هو حائط من نار.

وقال الكلبي: هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار الحظيرة.

وقيل: هو دخان يحيط بالكفار، وهو الذي ذكره الله تعالى: «ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ»[المرسلات: ٣٠].

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمد، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن رِشْدين / بن سعد، ٢١٨/ب حدثنا عمرو بن الحارث، عن دراج بن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ»، قال: «كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه»[(١)].

وقال ابن عباس: هو ماء غليظ مثل دُرْدِيِّ الزيت.

وقال مجاهد: هو القيح والدم.

وسئل ابن مسعود عن «المهل»، فدعا بذهب وفضة فأوقد عليهما النار حتى ذابا، ثم قال: هذا أشبه شيء بالمهل[(٢)].

﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ ينضج الوجوه من حرّه.

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ﴾ النار ﴿مُرۡتَفَقًا ۝٢٩﴾ قال ابن عباس: منزلًا، وقال مجاهد: مجتمعًا، وقال عطاء: مقرًّا، وقال القتيبي: مجلسًا، وأصل «المرتفق»: المُتَّكأ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ فإن قيل: أين جواب قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ»؟

قيل: جوابه قوله: «أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي»، وأما قوله: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» فكلام معترض[(٤)].

وقيل: فيه إضمار، معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجرهم بل نجازيهم، ثم ذكر الجزاء فقال[(٤)]:

---

(١) أخرجه الترمذي في الموضع السابق: (٧/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦)، وأحمد: (٣/ ٧٠ ـ ٧١)، والحاكم: (٤/ ٦٠٤)، وابن المبارك: ص٣١٦، وابن حبان والبيهقي في «البعث والنشور»، وأبو يعلى في «مسنده»، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٤٥)، بنفس الإسناد، وهو ضعيف. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٣٠٢).

(٢) انظر هذه الأقوال في: «زاد المسير»: (٥/ ١٣٥).

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٣٦).

(٤) «زاد المسير»: (٥/ ١٣٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي: إقامة، يقال: عَدَنَ فلان بالمكان إذا أقام به، سمِّيتْ عَدْنًا؛ لخلود المؤمنين فيها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ قال سعيد بن جبير: يحلى كل واحد منهم ثلاث أساور: واحد من ذهب، وواحد من فضة، وواحد من لؤلؤ ويواقيت ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ﴾ وهو ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ وهو ما غلظ منه، ومعنى الغلظ في ثياب الجنة: إحكامه، وعن أبي عمران الجوني قال: السندس هو الديباج المنسوج بالذهب ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ في الجنان ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ وهي السُّرُر في الحِجَال، واحدتُها: أرِيكَة ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي: نِعْمَ الجزاء ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ الجنان ﴿مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ أي: مجلسًا ومقرًّا.

﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ...﴾ الآية، قيل: نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم، أحدهما مؤمن: وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل[1] (وكان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، والآخر كافر: وهو الأسود بن عبد الأسد بن عبد ياليل)[2].

وقيل: هذا مَثَلٌ لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه، شبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين، أحدهما مؤمن واسمه «يهوذا»، في قول ابن عباس، وقال مقاتل: «يمليخا»، والآخر كافر واسمه: «قطروس»، وقال وهب: «قطفير»، وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة «الصافات»، وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكين لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل: كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها، فعمد أحدهما فاشترى أرضًا بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلانًا قد اشترى أرضًا بألف دينار، فإني أشتري منك أرضًا في الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه بنى دارًا بألف دينار، فقال هذا: اللهم إن فلانًا بنى دارًا بألف دينار، فإني أشتري منك دارًا في الجنة بألف دينار، فتصدق بذلك، ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال هذا المؤمن: اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم اشترى صاحبه خدمًا ومتاعًا بألف دينار، فقال هذا: اللهم إني أشتري منك متاعًا وخدمًا في الجنة بألف دينار، فتصدق

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١٢٤).
(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

بألف دينار، ثم أصابته حاجة شديدة، فقال: لو أتيتُ صاحبي لعلَّه ينالني منه معروف، فجلس على طريقه حتى مرَّ به في حشمه، فقام إليه فنظر إليه الآخر فعرفه، فقال: فلان؟ قال: نعم، فقال: ما شأنك؟ قال: أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتصيبني بخير، فقال: ما فعل مالك وقد اقتسمنا مالًا واحدًا[1] وأخذت شطره؟ فقصَّ عليه قصته، فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا[2]؟ اذهب فلا أعطيك شيئًا، فطرده فقضي لهما أن توفيا، فنزل فيهما: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾[الصافات: ٥٠-٥١].

وروي أنه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أموال نفسه، فنزل فيهما[3]:

﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ اذكر لهم خبر رجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: أطفناهما من جوانبهما بنخل، والحِفَاف: الجانب، وجمعه: أَحِفَّة، يقال: حفَّ به القوم، أي: طافوا بجوانبه ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: جعلنا حول الأعناب النخيل، ووسط الأعناب الزرع.

وقيل: ﴿بَيْنَهُمَا﴾، أي: بين الجنتين زرعًا، يعني: لم يكن بين الجنتين موضع خراب.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ أي: أعطتْ كلُّ واحدة من الجنتين ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها تامًا ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾ لم تنقص ﴿مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا﴾ قرأ العامة بالتشديد، وقرأ يعقوب بتخفيف الجيم ﴿خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ يعني: شققنا وأخرجنا وسطهما نهرًا.

﴿وَكَانَ لَهُ﴾ لصاحب البستان ﴿ثَمَرٌ﴾ قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب «ثَمَر» بفتح الثاء والميم، وكذلك: «بثمره»، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء ساكنة الميم، وقرأ الآخرون بضمهما.

فمن قرأ بالفتح هو جمع ثَمَرَة، وهو ما تخرجه الشجرة من الثمار المأكولة.

ومن قرأ بالضم فهي الأموال الكثيرة المثمَّرة من كل صنف، جمع ثمار، وقال مجاهد: ذهب وفضة، وقيل: جميع الثمرات.

قال الأزهري: «الثَّمَرَة» تجمع على «ثَمَر»، ويجمع الثَّمَر على «ثِمار»، ثم تجمع «الثِّمار» على «ثُمُر»[4].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٥/١٣٨ ـ ١٣٩)، «البحر المحيط»: (٦/١٢٤)، «تفسير القرطبي»: (١٠/٣٩٩ ـ ٤٠٠)، والقصة من رواية الكلبي، وهو ضعيف.

(٤) انظر: «لسان العرب»: (٤/١٠٧)، مادة: «ثمر».

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾

﴿فَقَالَ﴾ يعني: صاحب البستان ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يخاطبه ويجاوبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: عشيرة ورهطًا، وقال قتادة: خدمًا وحشمًا، وقال مقاتل: ولدًا، تصديقه قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾[الكهف: ٣٩].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ يعني: الكافر، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به فيها ويريه أثمارها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بكفره ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ تهلك ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ قال أهل المعاني: راقَهُ حُسنها وغرَّتْهُ زهرتُها، فتوهَّم أنها لا تفنى أبدًا، وأنكر البعث، فقال:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ قرأ أهل الحجاز والشام هكذا على التثنية، يعني: من الجنتين، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون «منها»، أي: من الجنة التي دخلها «منقلبًا»، أي: مرجعًا.

إن قيل: كيف قال: «ولئن رددت إلى ربي»، وهو منكر البعث؟

قيل: معناه: ولئن رددت إلى ربي ـ على ما تزعم أنت ـ يعطيني هنالك خيرًا منها، فإنه لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلّا ليعطيني في الآخرة أفضل منها.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك من تراب
﴿ثُمَّ﴾ خلقك ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: عدلك بشرًا / سويًا ذكرًا. ١/٢١٩

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «لكنّا» بالألف في الوصل، وقرأ الباقون بلا ألف، واتفقوا على إثبات الألف في الوقف، وأصله: «لكن أنا»، فحذفت الهمزة طلبًا للتخفيف، لكثرة استعمالها، ثم أدغمت إحدى النونين في الأخرى، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، مجازه: لكن الله هو ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: هلا إذ دخلت جنتك ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمر ما شاء الله،

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن
لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

وقيل: جوابه مضمر، أي: ما شاء الله كان، وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: لا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلّا (بإذن الله)[1].

وروي عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئًا يعجبه أو دخل حائطًا من حيطانه، قال: ما شاء الله لا قوة إلّا بالله[2].

ثم قال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ و«أنا» عماد، ولذلك نصب أقلَّ[3]، معناه: إن ترني أقل منك مالًا وولدًا فتكبرت وتعظمت عليَّ.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ فلعلَّ ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾ يعطيني في الآخرة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ قال قتادة: عذابًا، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نارًا، وقال القتيبي: مرامَي[4] ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي مثل صاعقة أو شيء يهلكها، واحدتها: «حسبانة» ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: أرضًا جرداء ملساء لا نبات فيها، وقيل: تزلق فيها الأقدام، وقال مجاهد: رملًا هائلًا.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا منقطعًا ذاهبًا، لا تناله الأيدي ولا الدِّلاء، و«الغور»: مصدرٌ وُضع موضع الاسم، مثل: زور وعدل ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ يعني: إن طلبته لم تجده.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أحاط العذاب بثمر جنته، وذلك أن الله تعالى أرسل عليها نارًا فأهلكتها وغار ماؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صاحبها الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: يصفق بيده على الأخرى، ويقلب كفيه ظهرًا لبطن، تأسفًا وتلهفًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ ممتنعًا منتقمًا، أي: لا يقدر على الانتصار لنفسه، وقيل: لا يقدر على ردِّ ما ذهب عنه.

---

(١) في «ب»: (بالله).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٩١).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ٢٤٩)، «زاد المسير»: (٥/ ١٤٥).

(٤) في «ب»: (مراملًا).

هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ يعني: في القيامة، قرأ حمزة والكسائي «الولاية» بكسر الواو، يعني: السلطان، وقرأ الآخرون بفتح الواو، من: الموالاة والنصر، كقوله تعالى: «ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا»[البقرة: ٢٥٧]، قال القتيبي: يريد أنهم يولّونه يومئذ ويتبرءون مما كانوا يعبدون.

وقيل: بالفتح: الربوبية، وبالكسرة: الإمارة.

﴿ ٱلْحَقِّ ﴾ برفع القاف: أبو عمرو والكسائي على نعت الولاية، وتصديقه قراءة أُبي «هنالك الولاية الحق لله»، وقرأ الآخرون بالجر على صفة الله، كقوله تعالى: «ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ»[الأنعام: ٦٢].

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، فهو خير إثابة، «وعاقبة»: طاعة، قرأ حمزة وعاصم «عُقْبًا» ساكنة القاف، وقرأ الآخرون بضمها.

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ يا محمد، أي: لقومك ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني: المطر ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ خرج منه كل لون وزهرة ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ عن قريب ﴿ هَشِيمًا ﴾ يابسًا، قال ابن عباس وقال الضحاك: كسيرًا، والهشيم: ما يبس وتفتت من النباتات فأصبح هشيمًا ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ﴾ قال ابن عباس: تثيره[1] الرياح، وقال أبو عبيدة: تفرقه، وقال القتيبي: تنسفه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ قادرًا.

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ ﴾ التي يفتخر بها عتبة وأصحابه الأغنياء ﴿ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ليست من زاد الآخرة.

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: المال والبنون حَرْث الدنيا، والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام.

﴿ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ ﴾ اختلفوا فيها، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هي قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، وقد روينا أن النبي ﷺ قال:

---

(١) في «ب»: (تذيره).

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

«أفضل الكلام أربع كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»[(١)].

أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي، أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن الحيري، أخبرنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس»[(٢)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد ابن عبد الجبار، أنبأنا حميد بن زنجويه، حدثنا عثمان، عن أبي صالح، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ (قال: «الملة»، قيل: وما هي يا رسول الله؟)[(٣)]، قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم»[(٤)].

وقال سعيد بن جبير ومسروق وإبراهيم: «الباقيات الصالحات» هي: الصلوات الخمس. ويروى هذا عن ابن عباس[(٥)].

وعنه رواية أخرى: أنها الأعمال الصالحة[(٦)]، وهو قول قتادة.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء، المراد ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: ما يأمله الإنسان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «تُسَيَّرُ» بالتاء وفتح الياء «الجبالُ» رفعٌ، دليله: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[التكوير: ٣].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في الأيمان والنذور: (١١/ ٥٦٦)، ووصله النسائي من طريق ضرار بن مرة عن أبي صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعًا بلفظه، وأخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب: (٣/ ١٦٧٥) بلفظ: «أحب» بدل: «أفضل»، وأخرجه ابن حبان من هذا الطريق بلفظ: «أفضل»، ولحديث أبي هريرة طرق أخرى أخرجها النسائي، وصححها ابن حبان. انظر: «فتح الباري»: (١١/ ٥٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم٢٦٩٥: (٤/ ٢٠٧٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٦٠).

(٣) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٧٥)، وابن حبان: ص٥٧٩ من «موارد الظمآن»، والحاكم: (١/ ٥١٢)، وقال: (هذا أصح إسناد المصريين فلم يخرجاه)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٨٧): (رواه أحمد وأبو يعلى ... وإسنادهما حسن)، وعزاه المنذري في «الترغيب والترهيب»: (٢/ ٤٣١) لأحمد وأبي يعلى والنسائي وابن حبان والحاكم ونقل تصحيحه له.
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٦٤ ـ ٦٥)، وفيه دراج عن أبي الهيثم، وهو ضعيف لكن للحديث شواهد.

(٥) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٩٩)، «زاد المسير»: (٥/ ١٤٩).

(٦) «الدر المنثور»: (٥/ ٣٩٩).

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

وقرأ الآخرون بالنون وكسر الياء، «الجبالَ» نصبٌ، وتسييرُ الجبال: نقلُها من مكان إلى مكان.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة، ليس عليها شجر، ولا جبل، ولا نبات، كما قال: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[طه: ١٠٦-١٠٧].

قال عطاء: هو بُروز ما في باطنها من الموتى وغيرهم، فترى باطن الأرض ظاهرًا.

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ جميعًا إلى الموقف والحساب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ﴾ أي: نترك منهم ﴿أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي: صفًّا صفًّا فوجًا فوجًا، لا أنهم صف واحد، وقيل: قيامًا، ثم يقال لهم، يعني الكفار: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: أحياءً، وقيل: فُرادى كما ذكر في سورة الأنعام[1]، وقيل: غرلًا ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ يوم القيامة، يقوله لمنكري البعث.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن
٢١٩/ب إسماعيل، حدثنا معلى بن أسد، حدثنا وهب، عن ابن طاووس، عن أبي هريرة ـ رضي / الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ الناسُ على ثلاثِ طرائقَ، راغبينَ وراهبينَ، واثنان على بعير، وثلاثةٌ على بعير، وأربعةٌ على بعير، وعَشَرَةٌ على بعير، وتحشر بَقِيَّتَهُم النارُ، تَقِيل معهم حيث قالوا، وتَبيتُ معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أَمْسَوا»[2].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان بن المغيرة بن النعمان، حدثني سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غُرْلًا»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، وأول من يُكْسَى يومَ القيامة إبراهيمُ، وإن ناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدِّين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3][المائدة: ١١٧-١١٨].

---

(١) انظر: تفسير الآية (٩٤) من سورة الأنعام: (٢/ ٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الحشر: (١١/ ٣٧٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم ٢٨٧١: (٤/ ٢١٩٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٢٤-١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: (٦/ ٣٨٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان يوم الحشر برقم ٢٦٨٠: (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٢٣).

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، (أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي)[١]، أخبرنا أبو القاسم جعفر بن محمد ابن المغلِّس ببغداد، حدثنا هارون بن إسحاق الهمذاني، أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن حاتم بن أبي صغير، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يحشر الناس يوم القيامة؟ قال: «عُراةً حفاةً»، قالت: قلت: والنساء؟! قال: «والنساء»، قالت: قلت: يا رسول الله، نستحي، قال: «يا عائشة، الأمر أشد من ذلك أن يَهُمَّهُم أن ينظر بعضُهم إلى بعضٍ»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني: كتب (أعمال العباد)[٣] توضع في أيدي الناس، في أيمانهم وشمائلهم، وقيل: معناه توضع بين يدي الله تعالى ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيئة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا، و«الويل» و«الويلة»: الهلكة، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء: تنبيه المخاطبين ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا، قال ابن عباس: «الصغيرة»: التبسم، و«الكبيرة»: القهقهة، وقال سعيد بن جبير: «الصغيرة»: اللمم واللمس والقبلة، و«الكبيرة»: الزنا ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ عدَّها[٤]، قال السدي: كتبها وأثبتها، قال مقاتل بن حيان: حفظها.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام، أنبأنا أبو الحسن أحمد بن يسار القرشي، حدثنا يوسف بن عدي المصري، حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض، عن أبي حازم قال: لا أعلمه إلّا عن سهل بن سعدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم ومحقَّراتِ الذنوب، فإنما مَثَلُ محقَّراتِ الذنوب مَثَلُ قومٍ نزلوا بطنَ وادٍ فجاء هذا بعودٍ وجاء هذا بعودٍ، فأنضجوا خُبْزَتَهُمْ، وإنَّ محقراتِ الذنوبِ لَمُوبِقاتٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مكتوبًا مثبتًا في كتابهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: لا ينقص ثواب أحد عمل خيرًا.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر برقم ٢٨٥٩: (١٥/ ١٢٤).

(٣) في «ب»: (أعمالهم).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٣١)، ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة. انظر: «مجمع الزوائد»: (١٠/ ١٩٠). وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٩٩).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

وقال الضحاك: لا يؤاخذ أحدًا بجرم لم يعمله.

وقال عبد الله بن قيس: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما العرضتان: فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة: فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه، وآخذ بشماله» ورفعه بعضهم عن أبي موسى[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ يقول: واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال ابن عباس: كان من حي من الملائكة يقال لهم: الجن، خُلقوا من نار السموم[(٢)]، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس[(٣)] ﴿فَفَسَقَ﴾ أي: خرج ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ عن طاعة ربه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ يعني: يا بني آدم ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي: أعداء.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في العرض: (٧/ ١١١) عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعًا، وقال: (ولا يصح هذا الحديث من قِبَل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة [فهو منقطع] وقد رواه بعضهم عن عليّ بن علي، وهو الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ).
ومن هذا الوجه رواه ابن ماجه في الزهد برقم٤٢٧٧ : (٢/ ١٤٣٠)، قال في «الزوائد»: (إسناد رجاله ثقات إلَّا أنه منقطع . . .)، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٤١٤).
وأخرجه البيهقي في «البعث» بسند حسن عن عبد الله بن مسعود موقوفًا.
انظر: «فتح الباري»: (١١/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه الطبري: (١/ ٥٠٢) دار المعارف.

(٣) أخرجه الطبري: (١/ ٥٠٦)، وقال ابن كثير (٣/ ٨٩): (هذا إسناد صحيح عن الحسن)، هذا وقد رجح الطبري كَلَّلَهُ الرأي الأول، وكأنه رجح غير الراجح كما فعل المصنف في: (١/ ٣٥) من هذه الطبعة.
وظاهر القرآن أن إبليس كان من الجن، وأنه خلق من نار، وإذا أطلقت كلمة الجن فإنها تنصرف إلى الجن المعهودين، وليس إلى قبيل من الملائكة اسمهم «الجن»، وإن كان غير مستنكر أن يخلق الله خلقًا من الملائكة يقال لهم: «الجن» من نار السموم، ولكن لم يقم الدليل على صحة ذلك . . . ولذلك بعد أن عرض الحافظ ابن كثير الروايات في ذلك قال (٣/ ٩٠): (وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف ـ إشارة إلى الروايات عن ابن عباس أن إبليس من الملائكة الذين خلقوا من نار واسمهم الجن ـ وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد الذين دوَّنوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر ﷺ، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم).

روى مجالد عن الشعبي قال: إني لقاعد يومًا إذ أقبل رجل فقال: أخبرني هل لإبليس زوجة؟ قلت: إن ذلك العرس ما شهدته، ثم ذكرت قوله تعالى: «أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى»، فعلمت أنه لا تكون الذرية إلّا من الزوجة، فقلت: نعم.

وقال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم.

وقيل: إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين.

قال مجاهد: من ذرية إبليس: «لاقيس» و«ولهان»، وهما صاحبا الطهارة والصلاة، و«الهفاف» و«مُرَّة» وبه يكنى، و«زَلَنْبُور» وهو صاحب (الأسواق، يزين اللغو والحلف الكاذبة ومدح السلع، و«ثبر» وهو صاحب المصائب)[1]، يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب، و«الأعور» وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجز المرأة، و«مطوس» وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس، لا يجدون لها أصلًا، و«داسم» وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحتبس موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه[2].

قال الأعمش: ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم، فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر اسم الله فأقول: داسم داسم[3].

ورُوي عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للوضوء شيطانًا يقال له: الولهان، فاتقوا وسواس الماء»[4].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، حدثنا يحيى بن خلف الباهلي، أنبأنا عبد الأعلى، عن سعيد الجُرَيْرِيِّ، عن أبي العلاء أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرج ذلك عن مجاهد الطبريُّ: (١٥/ ٢٦٢)، وذكرها ابن الجوزي: (٥/ ١٥٤) وغيره، وفي هجاء بعض الأسماء خلاف لم نشر إليه، إذ لا فائدة في ذلك، وكل هذه الروايات لا يصح لها إسناد إلى المعصوم فنحن في غنية عنها، والله أعلم.

(٣) الطبري: (١٥/ ٢٦٢)، أي: يقول في نفسه إن «داسم» هو الذي بصَّره بالمتاع.

(٤) أخرجه الترمذي في الطهارة، باب كراهية الإسراف في الماء: (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩)، وابن ماجه في الطهارة، باب ما جاء في القصد في الوضوء: (١/ ١٤٦)، وأحمد في «المسند»: (٥/ ١٣٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٥٣).

قال الترمذي في الموضع السابق: (حديث أُبيّ حديث غريب، وليس إسناده بالقويّ، والصحيح عند أهل الحديث؛ لأنا لا نعلم أحدًا أسنده غيرَ خارجة. وقد روي هذا الحديث من غير وجهٍ عن الحسن من قوله، ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء، وخارجة ليس بالقوي عند أصحابنا، وضعفه ابن المبارك).

وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٦٢٥): (خارجة بن مصعب: وهَّاه أحمد، وقال ابن معين: ليس بثقة، كذاب . . . انفرد بخبر «إن للوضوء شيطانًا يقال له الولهان».

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾

حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي، يَلْبِسُها عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خِنْزِبٌ، فإذا أحْسَسْتَه فتعوَّذْ بالله منه، واتفُلْ عن يسارك ثلاثًا»، قال: ففعلتُ ذلك فأذهبه الله عنّي[1].

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو كريب محمد بن علاء، أنبأنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عَرْشَه على الماء ثم يبعث سَرَايَاه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فتنةً، يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئًا، قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فَرَّقْتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت»، قال الأعمش: أُراه قال: «فَيَلْتَزِمُه»[2].

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ قال قتادة: بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم.

1/220 ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ما أحضرتهم، وقرأ أبو / جعفر «ما أشهدناهم» بالنون والألف على التعظيم، أي: أحضرناهم، يعني: إبليس وذريته، وقيل: الكفار، وقال الكلبي: يعني: الملائكة ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: ما أشهدتهم خلقًا فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ أي: الشياطين الذين يضلون الناس عضدًا، أي: أنصارًا وأعوانًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ قرأ حمزة بالنون، والآخرون بالياء، أي: يقول الله لهم يوم القيامة: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ يعني: الأوثان ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فاستغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوهم، ولم ينصروهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ يعني: بين الأوثان وعبدتها، وقيل: بين أهل الهدى وأهل الضلالة ﴿مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ مهلكًا، قاله عطاء والضحاك: وقال ابن عباس: هو وادٍ في النار، وقال مجاهد: واد في جهنم.

وقال عكرمة: هو نهر في النار، يسيل نارًا، على حافته حيَّات مثل البغال الدُّهْم.

(١) أخرجه مسلم في السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة برقم ٢٢٠٣: (٤/ ١٧٢٨ ـ ١٧٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه برقم ٢٨١٣: (٤/ ٢١٦٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤١٠).

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

قال ابن الأعرابي: وكل حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق، وأصله: الهلاك، يقال: أوبقه، أي: أهلكه.

قال الفراء: وجعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكًا لهم في الآخرة، و«البين» على هذا القول التواصل، كقوله تعالى: «لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ»[الأنعام: ٩٤]، على قراءة مَن قرأ بالرفع(١).

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي: المشركون ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها وواقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ معدلًا؛ لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بيَّنَّا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ خصومة في الباطل.

قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن.

قال الكلبي: أراد به أُبي بن خلف الجمحي(٢). وقيل: المراد من الآية الكفار، لقوله تعالى: «وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ»[الكهف: ٥٦]. وقيل: هي على العموم، وهذا أصح.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أنبأنا علي بن الحسين أن الحسين بن علي أخبره: أن عليًا أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً، فقال: «ألا تُصلِّيان»؟ فقلت: يا رسول الله، إن أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ له ذلك ولم يُرْجِعْ إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول: «وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا»(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ القرآن، والإسلام، والبيان من الله عزَّ وجلَّ، وقيل: إنه الرسول ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: سنتنا في إهلاكهم إن لم يؤمنوا.

---

(١) انظر في هذه الأقوال: «زاد المسير»: (٥/ ١٥٨ـ ١٥٩).

(٢) «زاد المسير»: (٥/ ١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب: (٣/ ١٠).

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟
بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن
تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم
بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

وقيل: إلَّا طَلَبُ أن تأتيهم سنة الأولين من معاينة العذاب، كما قالوا: «ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»[الأنفال: ٣٢].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ قال ابن عباس: أي: عيانًا من المقابلة، وقال مجاهد: فجأة، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة «قُبُلًا» بضم القاف والباء، جمع: قبيل[1]، أي: أصناف العذاب نوعًا نوعًا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ومجادلتهم قولهم: «أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا»[الإسراء: ٩٤]، «لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»[الزخرف: ٣١]، وما أشبهه ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ ليبطلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وأصل الدحض: الزلق، يريد: ليزيلوا به الحق ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ فيه إضمار، يعني: وما أنذروا به وهو القرآن، هزوًا، أي: استهزاء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وُعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ما عمل من المعاصي من قبل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: يفهموه، يريد: لئلا يفهموه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صممًا وثقلًا ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الدين ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ذو النعمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ يعاقب الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ يعني: البعث والحساب[2] ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ ملجأ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ كفروا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: أجلًا، قرأ أبو بكر «المَهْلَكِهم» بفتح الميم واللام، (وقرأ حفص

---

(١) اختار المؤلف قراءة نافع وابن كثير وابن عامر: «قِبَلًا»، ثم أشار بعد إلى قراءة الباقين، وهي قراءة حفص عن عاصم.

(٢) في «ب»: (النشور).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾

بفتح الميم وكسر اللام، وكذلك في النمل «مهلك» أي: لوقت هلاكهم[1]، وقرأ الآخرون بضم الميم وفتح اللام، أي: لإهلاكهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عامة أهل العلم قالوا: إنه موسى بن عمران، وقال بعضهم: هو موسى بن ميشا من أولاد يوسف، والأول أصح.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا البَكَالِيَّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله[2]، حدثنا أُبَيُّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه، إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مِكْتَل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سَرَبًا، وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق[3]، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبًا، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به[4]، وقال له فتاه: أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلَّا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبًا، قال: فكان للحوت سربًا ولموسى ولفتاه عجبًا، وقال موسى: ذلك ما كنا نبغ، قال: رجعا يقصَّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلَّم عليه موسى، فقال الخضر عليه السلام:
وأنَّى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى، قال: موسى بني / إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت ٢٢٠/ب
رشدًا، قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا يا موسى، إني على علم من علم الله علَّمَنِيهِ لا تعلمه أنت، وأنت

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) قال الحافظ ابن حجر نقلًا عن ابن التين: (لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله، ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق، فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه، وحقيقته غير مرادة). ثم قال ابن حجر: (ويجوز أن يكون ابن عباس اتهم نوفًا في صحة إسلامه، فلهذا لم يقل في حقِّ الحر بن قيس هذه المقالة مع تواردهما عليه). «فتح الباري»: (١/ ٢١٩).

(٣) الطاق: عقد البناء، وما عقد أعلاه من البناء وبقي تحته خاليًا، أو هي: الكوة.

(٤) في «ب»: (أمره الله به).

على علمٍ من علم الله علمك الله، لا أعلمُه، فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِث لك منه ذكرًا، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْلٍ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلّا والخضر قد قلع[1] لوحًا من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نَوْلٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئًا إمرًا! قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تُرهقني من أمري عُسرًا»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا (والوسطى شرطًا والثالثة عمدًا)»[2]، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نَقْرَةً فقال له الخضر: ما نقص[2] علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله[3]، فقال له موسى: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس؟! لقد جئت شيئًا نكرًا، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: وهذه أشد من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغتَ من لَدُنِّي عذرًا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبَوْا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض، فأقامه، قال: كان مائلًا، فقال الخضر بيده فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، قال: «هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا»، فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أنَّ موسى كان صبر حتى يُقَصَّ علينا من خبرهما»[4].

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة[3] غصبًا»، وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين»[5].

وعن سعيد بن جبير في رواية أخرى عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب، قال رسول الله ﷺ: «(قام موسى)[2] رسول الله فذكَّر الناسِ يومًا حتى إذا فاضتِ العيون ورقَّتِ القلوب ولَّى فأدركه رجل فقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، ـ فعَتَبَ الله عليه، إذ لم يردَّ العلمَ إلى الله ـ قيل: بلى (عبدنا الخضر)[6]، قال: أي ربِّ وأين؟ قال: بمجمع البحرين، (قال: ربِّ اجعل لي علمًا أعلم بك

---

(١) في «ب»: (خرق).

(٢) ساقطة من «أ».

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم، فيكل العلم إلى الله: (١/٢١٧ ـ ٢١٨)، ومسلم في الفضائل، باب فضائل الخضر: (٤/١٨٤٧ ـ ١٨٥٠).

(٥) «صحيح مسلم»: (٤/١٨٥٠).

(٦) زيادة من «أ»، وليست في «الصحيح».

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

منه)[١]، قال: خذ حوتًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح، وفي رواية قيل له: تزود حوتًا مالحًا فإنه حيث تفقد الحوت، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل»[٢].

رجعنا إلى التفسير، قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير[٣] ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال قتادة: بحر فارس وبحر[٣] الروم، مما يلي المشرق، وقال محمد بن كعب: طنجة، وقال أُبي بن كعب: أفريقية[٤].

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ وإن كان حُقُبًا، أي: دهرًا طويلًا وزمانًا، وجمعه: أحقاب، والحُقب: جمع الحَقب، قال عبد الله بن عمر: والحقب ثمانون سنة، فحملا خبزًا وسمكة مالحة حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين ليلًا، وعندها عين تسمى ماء الحياة لا يصيب ذلك الماء شيئًا إلَّا حَيِيَ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده[٥] اضطربت في المكتل وعاشت ودخلت البحر.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ يعني: موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين البحرين ﴿نَسِيَا﴾ تركا ﴿حُوتَهُمَا﴾ وإنما كان الحوت مع يوشع، وهو الذي نسيه، وأضاف النسيان إليهما؛ لأنهما جميعًا تزوَّداه لسفرهما، كما يقال: خرج القوم إلى موضع كذا، وحملوا من الزاد كذا، وإنما حمله واحد منهم.

﴿فَاتَّخَذَ﴾ أي: الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي: مسلكًا، (وروي عن أُبيِّ بن كعب عن رسول الله ﷺ: «انجاب الماء عن مسلك[٦] الحوت فصار كوة لم يلتئم، فدخل موسى الكوة على إثْر الحوت فإذا هو بالخضر»[٧].

قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلَّا يبس حتى صار صخرة[٨].

وقال الكلبي: توضأ يوشع بن نون من عين الحياة، فانتضح على الحوت المالح في المكتل من ذلك الماء فعاش، ثم وثب في ذلك الماء فجعل يضرب بذنبه، فلا يضرب بذنبه شيئًا من الماء وهو ذاهب إلَّا يبس.

---

(١) ما بين القوسين من «صحيح البخاري».
(٢) أخرج هذه الرواية البخاري في تفسير سورة الكهف، باب ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا...﴾: (٨/ ٤١١-٤١٢).
(٣) ليست في «أ».
(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٦٤)، قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٤١٠): (والسند إلى أُبي بن كعب ضعيف، وهذا اختلاف شديد).
(٥) ساقط من «ب».
(٦) ما بين القوسين ساقط من «ب».
(٧) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤٢٣)، ابن كثير: (٣/ ٩٣).
(٨) «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٩٣).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾

وقد روينا أنهما لما انتهيا إلى الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج وسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى إذا كان من الغد[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: ذلك الموضع، وهو مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: طعامنا، والغداء ما يعد للأكل غدوة، والعشاء ما يعد للأكل عشية ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ أي: تعبًا وشدة، وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة؛ ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه.

﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكّر: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ وهي صخرة كانت بالموضع الموعود، قال معقل بن زياد: هي الصخرة التي دون نهر الزيت ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: تركته وفقدته، وذلك أن يوشع حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى فيخبره، فنسي أن يخبره، فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد.

قيل: في الآية إضمار، معناه: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت إلّا الشيطان، وقرأ حفص «أنسانيهُ» وفي «الفتح»: «عليهُ الله» بضم الهاء، وقيل: معناه: أنسانيه لئلا أذكره.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾ قيل: هذا من قول يوشع، ويقول: طفر الحوت إلى البحر، فاتخذ فيه مسلكًا، فعجبت من ذلك عجبًا.

وروينا في الخبر: كان للحوت سربًا ولموسى وفتاه عجبًا[٢]. وقيل: هذا من قول موسى لما قال له يوشع: واتخذ سبيله في البحر، قال له موسى: عجبًا، كأنه قال: أعجب عجبًا.

قال ابن زيد: أي شيء أعجب من حوت يؤكل منه جهرًا[٣]، ثم صار حيًا بعدما أُكِلَ بعضُه؟

---

(١) انظر: البخاري: (٨/ ٤٢٣).

(٢) في رواية البخاري: (... فوجدنا في البحر كالطّاق ممرّ الحوت، فكان لفتاه عجبًا، وللحوت سرَبًا) كتاب التفسير، باب: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾: (٨/ ٤٢٣).

(٣) في «ب»: (دهرًا).

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ أي: نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: رجعا يقصان الأثر الذي جاء منه، أي: يتبعانه، فوجدا عبدًا من عبادنا، قيل: كان مَلَكًا من الملائكة، والصحيح الذي جاء في التواريخ، وثبت عن النبي ﷺ / أنه الخضر[1]، واسمه: بَلْيَا بنُ مَلْكَان[2]، قيل: كان من نسل بني ١/٢٢١
إسرائيل، وقيل: كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا في الدنيا، والخضر لقب له سمي بذلك لِما:

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمي خَضِرًا؛ لأنه جلس على فروةٍ بيضاء فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء»[3].

قال مجاهد: سمي خضرًا؛ لأنه إذا صلى اخضرَّ ما حوله.

ورُوينا: أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا[4].

وفي رواية أخرى: لقيه مسجى بثوب مستلقيًا على قفاه، بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه، وفي رواية: لقيه وهو يصلي.

ويروى لقيه على طنفسة خضراء على كبد البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة ﴿مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: علم الباطن إلهامًا، ولم يكن الخضر نبيًّا عند أكثر أهل العلم[5].

---

(١) تقدم ذلك في الأحاديث السابقة، وانظر: «صحيح البخاري»، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام: (٦/ ٤٣١-٤٣٣)، وهو بفتح الخاء وكسر الضاد، ويجوز إسكان الضاد مع كسر الخاء وفتحها.

(٢) انظر: «المعارف» لابن قتيبة: ص٤٢، «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: (١/ ١٧٦)، «فتح الباري»: (٦/ ٤٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى: (٦/ ٤٣٣).

(٤) تقدم تخريج هذه الرواية والتي تليها.

(٥) بين أهل العلم خلاف في شأن الخضر، هل هو نبي أم لا؟ وفي كونه باقيًا "، الآن ثم إلى يوم القيامة، ومال ابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثارًا عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث ـ أي: بقاؤه حيًّا ـ ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيف، ورجح آخرون من المحدثين خلاف ذلك، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه، ولو كان حيًّا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى=

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

فلما ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يقول: جئتك لأتبعك وأصحبك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب «رَشَدًا» بفتح الراء والشين، وقرأ الآخرون: بضم الراء وسكون الشين، أي: صوابًا، وقيل: علمًا ترشدني به.

وفي بعض الأخبار أنه لما قال له موسى هذا قال له الخضر: كفى بالتوراة علمًا وببني إسرائيل شغلًا، فقال له موسى: إن الله أمرني بهذا فحينئذ:

﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ وإنما قال ذلك؛ لأنه علم أنه يرى أمورًا منكرة، ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات، ثم بيَّن عذره في ترك الصبر، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: علمًا.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ إنما استثنى؛ لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: لا أخالفك فيما تأمر.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني، ولكن جعل الاختيار إليه إلَّا أنه شرط عليه شرطًا فقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون، والآخرون بسكون اللام وتخفيف النون ﴿عَن شَىْءٍ﴾ أعمله مما تنكره ولا تعترض عليه ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ حتى أبتدىء لك بذكره فأبيِّن لك شأنه.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها، فقال أهل السفينة: هؤلاء لصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: ما هم بلصوص، ولكني أرى وجوه الأنبياء.

= وعيسى حين لما وسعهما إلَّا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل. انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٠٠ ـ ١٠١)، «تفسير القرطبي»: (١١/ ٤١ ـ ٤٤)، «المنار المنيف» لابن القيم: ص٦٧ ـ ٧٦، مع تعليق المحقق، «فتح الباري»: (٦/ ٤٣٤ ـ ٤٣٦)، «الزهر النضر في نبأ الخضر» للحافظ ابن حجر العسقلاني، وهي رسالة منشورة في «مجموعة الرسائل المنيرية»: (٢/ ١٩٥ ـ ٢٣٤)، «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

وروينا عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخَضِرَ، فحملوهم بغير نَوْل، فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأسًا فخرق لوحًا من السفينة»(١) فذلك قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ﴾ له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي «لِيَغْرَق» بالياء وفتحها وفتح الراء، «أهلُها» بالرفع على اللزوم، وقرأ الآخرون بالتاء ورفعها وكسر الراء، «أهلَها» بالنصب على أن الفعل للخضر.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي: منكرًا، والإمر في كلام العرب: الداهية، وأصله: كلُّ شيء شديد كثير(٢)، يقال: أَمِرَ القومُ: إذا كثروا، واشتدَّ أمرهم.

وقال القتيبي: «إِمْرًا»، أي: عجبًا.

ورُوي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء، وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق، وروي أن الخضر أخذ قدحًا من الزجاج ورقع به خرق السفينة.

﴿قَالَ﴾ العالِم، وهو الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ قال ابن عباس: إنه لم يَنْسَ، ولكنه من معاريض الكلام، فكأنه نسي شيئًا آخر(٣)، وقيل: معناه: بما تركت من عهدك، والنسيان: الترك، وقال أُبيُّ بن كعب عن النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا»(٤) ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ ولا تغشني ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ وقيل: لا تكلفني مشقة، يقال: أرهقته عسرًا، أي: كلفته ذلك، يقول: لا تضيّق علي أمري، وعامِلْني باليسر، ولا تعاملني بالعسر.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرَّا بغلمانٍ يلعبون، فأخذ الخضر غلامًا ظريفًا وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، قال السدي: كان أحسنهم وجهًا، كان وجهه يتوقد حسنًا.

---

(١) تقدم تخريجه، وهو في البخاري، كتاب العلم: (١/ ٢١٨).

(٢) في «ب»: (كبير).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١٥٠)، القرطبي: (١١/ ٢٢).

(٤) تقدم تخريجها ضمن رواية كعب في «الصحيحين»، وانظر: البخاري: (٥/ ٣٢٦)، مسلم: (٤/ ١٨٤٧ ـ ١٨٥٠).

وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده، وروى عبد الرزاق هذا الخبر، وأشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى، وقلع رأسه. وروي أنه رضخ رأسه بالحجارة. وقيل: ضرب رأسه بالجدار فقتله[1].

قال ابن عباس: كان غلامًا لم يبلغ الحنث، وهو قول الأكثرين، قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: أقتلت نفسًا زكية إلَّا وهو صبي لم يبلغ.

وقال الحسن: كان رجلًا، وقال شعيب الجبائي: كان اسمه «حيسور».

وقال الكلبي: كان فتى يقطع ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه[2].

وقال الضحاك: كان غلامًا يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه[3].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، أنبأنا عبد الله بن مسلمة بن معتب، حدثنا معمر بن سليمان، عن أبيه، عن رقبة بن مصقلة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طُبِعَ كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا»[4].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو: «زاكية» بالألف، وقرأ الآخرون: «زكية»، قال الكسائي والفراء: معناهما واحد، مثل: القاسية والقَسِيَّة، وقال أبو عمرو بن العلاء: «الزاكية»: التي لم تذنب قط، و«الزكية»: التي أذنبت ثم تابت.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل نفسًا بشيء)[5] وجب به عليها القتل.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: منكرًا، قال قتادة: النكر أعظم من الإمْرِ؛ لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك.

وقيل: «الإمر»: أعظم؛ لأنه كان فيه تغريق جمع كثير.

قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر هاهنا: «نُكُرًا» وفي سورة الطلاق بضم الكاف، والآخرون بسكونها.

---

(١) في البخاري أنه ذبح بالسكين، وفي «الصحيحين» والترمذي أن الخضر أخذ برأسه فاقتلعه بيده فقتله، وفي لفظ أنه أخذ حجرًا فضرب به رأسه، قال القرطبي (١١/ ٢١): (ولا اختلاف بين هذه الأحوال، فإنه يحتمل أن يكون دفعه أولًا بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه، والله أعلم بما كان من ذلك، وحسبك بما جاء في «الصحيح»).

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (١/ ١٥٠): (واختلف في اسم هذا الغلام واسم أبيه واسم أمه، ولم يرد شيء من ذلك في الحديث).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة» برقم ٢٦٦١: (٤/ ٢٠٥٠).

(٥) زيادة من «ب».

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿۞ قَالَ﴾ يعني: الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قيل: زاد «لك»: لانه نقض العهد مرتين، وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى: يا نبي / الله، اذكر العهد الذي أنت عليه. ٢٢١/ب

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وفارقني، وقرأ يعقوب «فلا تصحبني» بغير ألف من الصحبة ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وأبو بكر «من لَدُني» خفيفة النون، وقرأ الآخرون بتشديدها، قال ابن عباس: أي: قد أعذرتَ فيما بيني وبينك.

وقيل: حذرتني أني لا أستطيع معك صبرًا، وقيل: اتضح لك العذر في مفارقتي.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن عبد الله القيسي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رقبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى»، وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه، «لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذَمَامَةٌ[١]»، قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، فلو صبر لرأى العجب»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: «أنطاكية»، وقال ابن سيرين: هي «الأُبُلَّة»، وهي أبعد الأرض من السماء، وقيل: «برقة»، وعن أبي هريرة: بلدة بالأندلس[٣] ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

قال أُبيُّ بن كعب عن النبي ﷺ: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئامًا فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما»[٤].

---

(١) أي: حياء وإشفاق، من الذم واللوم.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام برقم ٢٣٨٠/ ١٧٢: (٤/ ١٨٥١).

(٣) أقوال مضطربة، بحسب اختلاف المفسرين في أي ناحية من الأرض كانت القصة، والله أعلم بحقيقة ذلك.
انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١٥١)، القرطبي: (١١/ ٢٤).

(٤) قطعة من الحديث السابق.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

وَرُوي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافوهم فلم يضيفوهما.

قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف. وروي عن أبي هريرة قال: أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما، فدعا لنسائهم ولعن رجالهم.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط، وهذا من مجاز كلام العرب؛ لأن الجدار لا إرادة له، وإنما معناه: قَرُبَ ودنا من السقوط، كما تقول العرب: داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: سوَّاه، وروي عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ فقال الخضر بيده فأقامه(1)، وقال سعيد بن جبير: مسح الجدار بيده فاستقام، وروي عن ابن عباس: هدمه ثم قعد يبنيه، وقال السدي: بلَّ طينًا وجعل يبني الحائط.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «لَتَخِذْتَ» بتخفيف التاء وكسر الخاء، وقرأ الآخرون «لَتَّخَذْتَ» بتشديد التاء وفتح الخاء، وهما لغتان، مثل: اتبع وتبع، «عَلَيْهِ» يعني: على إصلاح الجدار، «أَجْرًا» يعني: جعلًا، معناه: إنك قد علمت أنا جياع، وأن أهل القرية لم يطعمونا، فلو أخذت على عملك أجرًا.

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ يعني: هذا وقت فراق بيني وبينك، وقيل: هذا الإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا، وقال الزجاج: معناه: هذا فراق بيننا، أي: فراق اتصالنا، وكرر «بين» تأكيدًا.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سوف أخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ وفي بعض التفاسير أن موسى أخذ بثوبه، فقال: أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني، فقال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قال كعب: كانت لعشرة إخوة: خمسة زَمْنَى(2)، وخمسة يعملون في البحر، وفيه دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئًا فلا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: يؤاجرون ويكتسبون بها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب.

---

(1) أي: أشار بيده فأقامه، وهذا تعبير عن الفعل بالقول، وهو شائع، وهذا قطعة من حديث أُبي السابق عند مسلم، وبهذا يترجح هذا القول على الأقوال الأخرى. وانظر: الطبري: (١٥/ ٢٩٠ـ٢٩١).

(2) أي: مصابون بمرض مزمن، يقال: (زَمِنَ) الشخص (زَمَنًا) و(زَمَانَة) فهو (زَمِنٌ) من باب تَعِب، وهو مرض يدوم زمانًا طويلًا، والقوم (زَمْنَى) مثل: مرضى.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أي: أمامهم ﴿مَّلِكٌ﴾ كقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦].

وقيل: «وراءهم» خلفهم، وكان رجوعهم في طريقهم عليه، والأول أصح، يدل عليه قراءة ابن عباس «وكان أمامهم ملك»(١).

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ أي: كل سفينة صالحة غصبًا، وكان ابن عباس يقرأ كذلك، فخرقها وعيَّبها الخضر حتى لا يأخذها الملك الغاصب، وكان اسمه الجلندي وكان كافرًا.

قال محمد بن إسحاق: اسمه «متوله بن جلندي الأزدي».

وقال شعيب الجبائي: اسمه «هُدَدُ بنُ بُدَد»(٢).

وروي أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب، ولم يكونوا يعلمون بخبره، وقال: أردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها(٢)، فإذا جاوزه أصلحوها فانتفعوا بها، قيل: سدُّوها بقارورة، وقيل: بالقار.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ﴾ أي: فعلمنا، (وفي قراءة ابن عباس: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين فخشينا» أي: فعلمنا)(٣) ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشيهما، وقال الكلبي: يكلفهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ قال سعيد بن جبير: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو بالتشديد هاهنا وفي سورة «التحريم» و«القلم»، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان، وفرق بعضهم فقال: «التبديل»: تغيير الشيء، أو تغيير حاله وعين الشيء قائم، و«الإبدال»: رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه ﴿رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: صلاحًا وتقوى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء، والباقون بجزمها، أي: عطفًا من الرحمة، وقيل: هو من الرَّحِم والقرابة، قال قتادة: أي: أوصل للرحم وأبر بوالديه(٤).

قال الكلبي: أبدلهما الله جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيًا، فهدى الله على يديه أُمة من الأُمم.

---

(١) انظر: الطبري: (١٦/ ١ ـ ٢)، «زاد المسير»: (٥/ ١٧٨).

(٢) انظر: البخاري، تفسير سورة الكهف: (٨/ ٤٢١).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) قال الطبري (١٦/ ٤): (ولا وجه للرَّحم في هذا الموضع؛ لأن المقتول كان الذي أبدل الله منه والديه ولدًا لأبوي المقتول، فقرابتهما من والديه، وقربهما منه في الرَّحم سواء).

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: أبدلهما الله جارية ولدت سبعين نبيًّا[(١)].

وقال ابن جريج: أبدلهما بغلام مسلم[(٢)].

قال مطرف: فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤٌ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ وكان اسمهما أصرم وصريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختلفوا في ذلك الكنز: روي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان ذهبًا وفضة»[(٣)].

وقال عكرمة: كان مالًا[(٤)]. وعن سعيد بن جبير: كان الكنز صحفًا فيها علم[(٥)].

وعن ابن عباس أنه قال: كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: «عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجبًا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل! عجبًا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب! عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف ينصب! عجبًا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلَّا الله محمد رسول الله»، وفي الجانب
٢٢٢/أ الآخر مكتوب: «أنا الله لا إله إلَّا أنا وحدي لا شريك لي، خلقت الخير والشر، فطوبى / لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه»[(٦)]، وهذا قول أكثر المفسرين[(٧)]، ورُوي أيضًا ذلك مرفوعًا.

---

(١) قال ابن عطية: (وهذا بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلَّا في بني إسرائيل، ولم تكن هذه المرأة منهم). «البحر المحيط»: (٦/ ١٥٥).

(٢) انظر هذه الأقوال في الطبري: (١٦/ ٣ ـ ٤)، «زاد المسير»: (٥/ ١٨٠)، وقد مال الطبري إلى أن المقصود بالآية أن الله تعالى أبدلهما بالغلام جارية.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الكهف: (٨/ ٦٠٠)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٦٩)، وأخرجه البخاري في «تاريخه»، والطبراني. «تحفة الأحوذي»: (٨/ ٦٠١)، ويزيد بن يوسف الصنعاني ضعيف، قال الذهبي: (متروك)، وإن كان حديثه أشبه بمعنى الكنز.

(٤) أخرجه عنه الطبري: (١٦/ ٦)، وهو بمعنى حديث أبي الدرداء.

(٥) أخرجه الحاكم وصححه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (٢/ ٣٦٩).

(٦) أخرجه الطبري: (١٦/ ٥ ـ ٦)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٠٠).

(٧) وهذا يتنافى مع ظاهر الآية الكريمة ومع إطلاق لفظ «الكنز» الذي ذكره المصنف أيضًا عن الزَّجاج عند الإطلاق، ولعل الراجح هو القول الأول، وإن كان الحديث فيه ضعيفًا لكنه يتسق مع ظاهر الآية وإطلاق اللفظ، وسائر الأخبار ليست مرفوعة، ولذلك قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (١٦/ ٦): (وأولى التأويلين في ذلك بالصواب: القول الذي قال به عكرمة؛ لأن المعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يكنز من مال، وأن كل ما كنز فقد وقع عليه اسم كنز، فإن التأويل مصروف إلى الأغلب من استعمال المخاطبين بالتنزيل، ما لم يأت دليل يجب من أجله صرفه إلى غير ذلك . . .).

قال الزجاج: الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز المال، ويجوز عند التقييد أن يقال عنده كنز علم، وهذا اللوح كان جامعًا لهما.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ قيل: كان اسمه «كاسح»، وكان من الأتقياء، قال ابن عباس: حُفِظا بصلاح أبويهما. وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء(١).

قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده (وولد ولده)(٢)، وعترته وعشيرته وأهل دويراتٍ حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

قال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: يبلغا ويعقلا، وقيل: أن يدركا شدتهما وقوتهما، وقيل: ثمان عشرة سنة ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا﴾ حينئذ ﴿ كَنزَهُمَا رَحْمَةً﴾ نعمة ﴿ مِّن رَّبِّكَ﴾.

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ أي: لم تطق عليه صبرًا، و«استطاع» و«اسطاع» بمعنًى واحد.

روي أن موسى لما أراد أن يفارقه قال له: أوصني، قال: لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به.

واختلفوا في أن الخضر حيّ أم ميت(٣)؟

قيل: إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم(٤)، وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة، وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمات لطلب عين الحياة، وكان الخضر على مقدمته، فوقع الخضر على العين فنزل واغتسل وتوضأ(٥) وشرب وصلى شكرًا لله عزَّ وجلَّ، وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد(٦).

وذهب آخرون إلى أنه ميت؛ لقوله تعالى: « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ»[الأنبياء: ٣٤].

وقال النبي ﷺ بعدما صلى العشاء ليلة: «أرأيتكُمْ ليلتكُم هذه؟ فإنَّ على رأس مائةِ سنةٍ منها لا يبقى ممن هو اليوم حيٌّ على ظهر الأرض أحدٌ»(٧)، ولو كان الخضر حيًّا لكان لا يعيش بعده.

---

(١) انظر في هذين القولين: «زاد المسير»: (٥/ ١٨٢).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) انظر: فيما سبق التعليق على الآية (٦٥) من السورة.

(٤) خبر ضعيف. انظر: «الزهر النضر» لابن حجر: (٢/ ٢٠١) «مجموعة الرسائل المنيرية».

(٥) زيادة من «ب».

(٦) المرجع السابق: (٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١)، وانظر: ابن كثير: (٣/ ١٠١)، وأشار إلى ضعف القصة من رواية الطبري بنحوه، القرطبي: (١١/ ٤١)، وقال: (هذه الروايات كلها لا تقوم على ساق).

(٧) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء: (٢/ ٧٣ ـ ٧٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة» برقم ٢٥٣٧: (٤/ ١٩٦٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣). =

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ خبرًا، واختلفوا في نبوته، فقال بعضهم: كان نبيًّا[١].

(وقال أبو الطفيل: سئل علي ـ رضي الله عنه ـ عن ذي القرنين أكان نبيًّا)[٢] أم ملكًا؟ قال: لم يكن نبيًّا ولا ملكًا، ولكن كان عبدًا أحبَّ الله وأحبه الله، ناصَحَ الله فناصحه الله[٣].

وروي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: تسميتم بأسماء النبيين فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة[٤].

والأكثرون على أنه كان مَلِكًا عادلًا صالحًا[٥].

واختلفوا في سبب تسميته بـ «ذي القرنين»:

قال الزهري: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقيل: لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة.

وقيل: لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس.

وقيل: لأنه كانت له ذؤابتان حسنتان.

وقيل: لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة.

وروى أبو الطفيل عن علي أنه (قال: سمي «ذا القرنين»؛ لأنه)[٦] أمر قومه بتقوى الله، فضربوه على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله، ثم أمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات، فأحياه الله[٧].

= وانظر: «الزهر النضر» لابن حجر: (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧) «مجموعة الرسائل المنيرية»، قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في الرواية نفسها: فَوَهَل الناس من مقالة النبي ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث، عن مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»، يريد بذلك: أن ينخرم ذلك القرن، أي: ينقطع وينقضي.

(١) قاله عبد الله بن عمرو والضحاك بن مزاحم.
انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٨٤)، «البداية والنهاية»: (٢/ ١٠٣).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) انظر: الطبري: (١٦/ ٨).

(٤) ذكره السهيلي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ، وقال الحافظ ابن كثير: (إنه غريب) «البداية والنهاية»: (٢/ ١٠٣)، وذكر مثله القرطبي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: (١١/ ٤٦).

(٥) وهو مروي عن ابن عباس، ورجحه أيضًا الحافظ ابن كثير، ورواه الطبري عن علي رضي الله عنه.

(٦) زيادة من «ب».

(٧) انظر هذه الأقوال وأقوالًا أخرى في تسميته: الطبري: (١٦/ ٨ ـ ٩)، «زاد المسير»: (٥/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، «الدر المنثور»: (٥/ ٤٣٦، وما بعدها)، «تفسير القرطبي»: (١١/ ٤٧ ـ ٤٨)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٠٢)، «البداية والنهاية»: (٢/ ١٠٣).

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ۝٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾

واختلفوا في اسمه، قيل: اسمه «مرزبان بن مرزبة اليوناني» من ولد يونان بن يافث بن نوح، وقيل: اسمه «الاسكندر بن فيلفوس بن ياملوس(١) الرومي»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أوطأنا، والتمكين: تمهيد الأسباب، قال علي: سخر له السحاب فحمله عليه، ومدَّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكينه في الأرض، وهو أنه سهل عليه السير فيها، وذلَّل له طُرقَها.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق.

وقيل: من كل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء.

﴿سَبَبٗا ۝٨٤﴾ أي: علمًا يتسبب به إلى كل ما يريد، ويسير به في أقطار الأرض، والسبب: ما يوصل الشيء إلى الشيء.

وقال الحسن: بلاغًا إلى حيث أراد، وقيل: قربنا إليه أقطار الأرض(٣).

﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ أي: سلك وسار، قرأ أهل الحجاز والبصرة «فاتَّبع» و«ثم اتَّبَعَ» موصولًا مشددًا، وقرأ الآخرون بقطع الألف وجزم التاء، وقيل: معناهما واحد.

والصحيح: الفرق بينهما، فمن قطع الألف فمعناه: أدرك ولحق، ومن قرأ بالتشديد فمعناه: سار، يقال: ما زلت أتّبعه حتى اتبعته، أي: ما زلت أسير خلفه حتى لحقته.

وقوله: «سببًا»، أي: طريقًا، وقال ابن عباس: منزلًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «حامية» بالألف غير مهموزة، أي: حارَّة، وقرأ الآخرون «حَمِئة» مهموزًا بغير الألف، أي: ذات حَمْأَةٍ، وهي الطينة السوداء.

وسأل معاوية كعبًا ـ رضي الله عنه ـ: كيف تجد في التوراة أين تغرب الشمس؟ قال: نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين.

---

(١) في «ب»: (الاسكندر بن فيليس بن فيلوس الرومي).

(٢) انظرها مع أقوال أخرى في: «زاد المسير»: (٥/ ١٨٣)، «البداية والنهاية»: (٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥).
هذا، وليس على هذه الأقوال، ولا على سابقتها، خبر صحيح عن المعصوم ﷺ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير (٣/ ١٠٢): (. . . وهكذا ذو القرنين، يسَّر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأرض، وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إلى مثله سببًا، والله أعلم).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ۝٨٨﴾

قال القتيبي: يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾، أي: عندها عين حمئة، أو في رأي العين.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ﴾ أي: عند العين أُمَّة، قال ابن جريج: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب[١].

﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ يستدل بهذا من زعم أنه كان نبيًّا، فإن الله تعالى خاطبه، والأصح: أنه لم يكن نبيًّا، والمراد منه: الإلهام[٢].

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ يعني: إمَّا أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ۝٨٦﴾ يعني: تعفو وتصفح، وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدى[٢]. خيَّره اللهُ بين الأمرين.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: كفر ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨٧﴾ أي: منكرًا، يعني: بالنار، والنار أنكر من[٣] القتل.

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب «جزاءً» منصوبًا منونًا، أي: فله الحسنى، «جزاءً» نصب على المصدر، (وهو مصدر وقع موقع الحال، أي: فله الحسنى مجزيًّا بها)[٤].

وقرأ الآخرون بالرفع على الإضافة، فالحسنى: الجنة، أضاف الجزاء إليها، كما قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾[النحل: ٣٠]، والدار هي الآخرة.

وقيل: المراد بـ«الحسنى» على هذه القراءة: الأعمال الصالحة، أي: له جزاءُ الأعمال الصالحة.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ۝٨٨﴾ أي: نلين له القول، ونعامله باليسر من أمرنا، وقال مجاهد: «يسرًا»، أي: معروفًا.

---

(١) في «ب»: (تغيب). وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٠٣)، وقد أشار إلى أنها من الإسرائيليات.

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ١٨٩).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) ساقط من «ب».

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي: سلك طرقًا ومنازل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ/ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: موضع طلوعها ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ ٢٢٢/ب
قال قتادة والحسن: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، فكانوا يكونون في أسرابٍ لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم.

وقال الحسن: كانوا إذا طلعت الشمس يدخلون الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا يتراعون[1] كالبهائم.

وقال الكلبي: هم قوم عراة، يفترش أحدهم إحدى أذنيه، ويلتحف بالأخرى[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قيل: معناه: كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها، والصحيح أن معناه: كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس كذلك حكم في الذين هم عند مطلع الشمس ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ يعني: بما عنده ومعه[3] من الجند والعدة والآلات، «خبرًا»، أي: علمًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وحفصٌ «السدين» و«سدًّا» هاهنا بفتح السين، وافق حمزة والكسائي في «سَدًّا»، (وقرأ الباقون: بضم السين، وفي يسٓ «سدًّا» بالفتح حمزة والكسائي وحفص)[4]، وقرأ الباقون بالضم، منهم من قال: هما لغتان، معناهما واحد، وقال عكرمة: ما كان من صنعة بني آدم فهو السَّد بالفتح، وما كان من صنع الله فهو سُدٌّ[4] بالضم، وقاله أبو عمرو، وقيل: «السَّد» بالفتح مصدر، وبالضم اسم، وهما هاهنا: جبلان، سدَّ ذو القرنين ما بينهما حاجزًا بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ يعني: أمام السَّدين ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي «يُفْقِهُون» بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يفقهون غيرهم قولًا، وقرأ الآخرون بفتح الياء والقاف، أي: لا يفقهون كلام غيرهم، قال ابن عباس: لا يفقهون كلام أحد، ولا يفهم الناس كلامهم.

---

(١) في «ب»: (فتراعوا).

(٢) ليس على هذه الأقوال دليل ثابت، وهي قضية غيبية تحتاج إلى نصٍّ عن المعصوم.

(٣) ساقط من «أ».

(٤) زيادة من «ب».

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فإن قيل: كيف قالوا ذلك وهم لا يفقهون؟

قيل: كلَّم عنهم مترجم، دليله: قراءة ابن مسعود: «لا يكادون يفقهون قولًا قال الذين من دونهم يا ذا القرنين».

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قرأهما عاصم بهمزتين (وكذلك في الأنبياء، «فتحت يأجوج ومأجوج»)[١]، والآخرون بغير همز (في السورتين)[٢]، وهما لغتان، أصلهما من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، شُبِّهوا به لكثرتهم وشدتهم. وقيل: بالهمزة من شدة[٢] أجيج النار، وبترك الهمز اسمان أعجميان، مثل: هاروت وماروت، وهم من أولاد يافث بن نوح.

قال الضحاك: هم جيل من الترك، قال السدي: الترك سرية من يأجوج ومأجوج، خرجت فضرب ذو القرنين السد، (فبقيت خارجه، فجميع الترك منهم، وعن قتادة: أنهم اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السدَّ)[١] على إحدى وعشرين قبيلة فبقيت قبيلة واحدة فهم الترك، سموا الترك؛ لأنهم تُركوا خارجين.

قال أهل التواريخ: أولاد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج، قال ابن عباس في رواية عطاء: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء، روي عن حذيفة مرفوعًا: إن يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم، يسيرون إلى خراب الدنيا، وقيل[٣]: هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز، شجر بالشام، طوله عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم (إحدى أذنيه)[٤] ويلتحف الأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلَّا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشارق وبحيرة طبرية[٥].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة من «ب».

(٣) يبدو أن في الرواية سقطًا، فقد جاء في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٧): قيل: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم ثلاثة أصناف . . . ».

(٤) في «ب»: (أذنه).

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٤٥٧) لابن أبي حاتم، وابن مردويه وابن عدي وابن عساكر وابن النجار.

وعن علي أنه قال: منهم من طوله شبر، ومنهم من هو[1] مفرط في الطول.

وقال كعب: هم نادرة في ولد آدم، وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم[2].

وذكر وهب بن منبه: أن ذا القرنين كان رجلًا من الروم ابن عجوز، فلما بلغ كان عبدًا صالحًا، قال الله له: إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمتان بينهما طول الأرض: إحداهما عند مغرب الشمس، يقال لها: «ناسك»، والأخرى عند مطلعها، يقال لها: «منسك»، وأمتان بينهما عرض الأرض، إحداهما: في القطر الأيمن، يقال لها: «هاويل»، والأخرى في قطر الأرض الأيسر، يقال لها: «تاويل»، وأمم في وسط الأرض منهم: الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فقال ذو القرنين بأي قوة أكابرهم؟ وبأي جمع أكاثرهم؟ وبأي لسان أناطقهم؟ قال الله عزَّ وجلَّ: إني سأطوقك وأبسط لك لسانك، وأشد عضدك فلا يهولنَّك شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك، يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك، فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعًا وعددًا لا يحصيه إلَّا الله، فكابرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد، فدعاهم إلى الله وعبادته، فمنهم من آمن، ومنهم من صدَّ عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت في أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته، فجنَّد من أهل المغرب جندًا عظيمًا فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى «هاويل» فعمل فيهم كعمله في «ناسك»، ثم مضى حتى انتهى إلى «منسك» عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجنَّد منها جنودًا كفعله في الأمتين، ثم أخذ ناحية الأرض اليسرى فأتى «تاويل» فعمل فيها كعمله فيما قبلها، ثم عمد إلى الأمم التي في وسط الأرض، فلما دنا مما يلي منقطع الترك نحو المشرق، قالت له أمة صالحة من الإنس: ياذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقًا أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش، (لهم أنياب وأضراس)[3] كالسباع، يأكلون الحيات والعقارب، وكل ذي روح، خلق في الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم، ولا شك أنهم سيملؤون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها، فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا، قال: ما مكَّني فيه ربي خير، قال: أعدوا إليَّ الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم، فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم

---

(١) في «ب»: (طوله).

(٢) قال الحافظ ابن كثير (٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥): (وقد حكى النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منيٍّ خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك.
فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من آدم وحواء، وهذا قول غريب جدًّا، ثم لا دليل عليه، لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم).

(٣) زيادة من «ب».

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

مخاليب كالأظفار في أيدينا وأنياب وأضراس كالسباع، ولهم هُلْب[1] من الشعر في أجسادهم ما يواريهم ويتقون به من الحر والبرد، ولكل واحد منهم أُذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى يصيف في
١/٢٢٣ إحداهما ويشتو في / الأخرى، يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا، فلما عاين ذلك ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين، فقاس ما بينهما، فحفر له الأساس حتى بلغ الماء وجعل حشوه الصخر وطينه النحاس، يذاب فيصب عليه، فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض[2].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الكلبي: فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئًا أخضر إلَّا أكلوه، ولا شيئًا[3] يابسًا إلَّا احتملوه وأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديدًا وقتلًا.

وقيل: فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس.

وقيل: معناه أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم[4].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأ حمزة والكسائي «خراجًا» بالألف، وقرأ الآخرون «خرجًا» بغير ألف، وهما لغتان بمعنًى واحد، أي: جُعْلًا وأجرًا من أموالنا.

وقال أبو عمرو: «الخرج»: ما تبرعت به، و«الخراج»: ما لزمك أداؤه، وقيل: «الخراج»: على الأرض، و«الخرج»: على الرقاب، يقال: أدِّ خَرْجَ رأسك وخراج مدينتك.

﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: حاجزًا، فلا يصلون إلينا.

﴿قَالَ﴾ لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير «مكنني» بنونين ظاهرين، وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة على الإدغام، أي: ما قوّاني عليه ﴿رَبِّي خَيْرٌ﴾ من جعلكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ معناه: إني لا أريد المال، بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: سدًّا، قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فَعَلَةٌ وصُنَّاع يحسنون البناء والعمل، والآلة، قالوا: وما تلك الآلة؟ قال:

---

(١) الهلب: شعر الخنزير الذي يخرز به، وكذلك ما غلظ من شعر الذنب وغيره. «الصحاح» للجوهري.

(٢) أخرجه الطبري عن وهب بن منبه: (١٦/ ١٧ ـ ٢١)، وعقَّب عليه الحافظ ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ١٠٥) فقال: (ذكر ابن جرير هنا أثرًا غريبًا طويلًا عجيبًا في سير ذي القرنين وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة، في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم، وقصر بعضهم، وآذانهم، وروى ابن أبي حاتم في ذلك عن أبيه أحاديث غريبة، لا تصح أسانيدها، والله أعلم).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) وهو ما رجحه الطبري: (١٦/ ٢٢).

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾

﴿ءَاتُونِي﴾ أعطوني، وقرأ أبو بكر: «ائتوني»، أي: جيئوني ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ﴾ أي: قِطَع الحديد، واحدتها: زُبْرَة، فأتوه بها وبالحطب، وجعل بعضها على بعض، فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضم الصاد والدال، وجزم أبو بكر الدال، وقرأ الآخرون بفتحها، وهما الجبلان، «سَاوَىٰ»، أي: سوى بين طرفي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ وفي القصة: أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد، ثم قال: انفخوا، يعني: في النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ أي: صار الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ﴾ قرأ حمزة وأبو بكر وصلًا، وقرأ الآخرون بقطع الألف ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ أي: آتوني قطرًا أفرغ عليه، و«الإفراغ»: الصبّ، و«القِطر»: هو النحاس المذاب، فجعلت النار تأكل الحطب، ويصير النحاس[1] مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس.

قال قتادة: هو كالبُرْدِ المحبَّر، طريقة سوداء وطريقة حمراء، وفي القصة: أن عرضه كان خمسين ذراعًا وارتفاعه مائتي ذراع، وطوله فرسخ.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ من أسفله؛ لشدَّته ولصلابته، وقرأ حمزة «فما اسطَّاعوا» بتشديد الطاء أدغم تاء الافتعال في الطاء.

﴿قَالَ﴾ يعني: ذا القرنين ﴿هَٰذَا﴾ أي: السد ﴿رَحۡمَةٞ﴾ أي: نعمة ﴿مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ قيل: القيامة، وقيل: وقت خروجهم ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ قرأ أهل الكوفة «دكاء» بالمد والهمز، أي: أرضًا ملساء، وقرأ الآخرون بلا مدّ، أي: جعله مدكوكًا مستويًا مع وجه الأرض ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ وروى قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة يرفعه: «أن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا فيعيده الله كما كان، حتى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله، واستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه فيخرجون على الناس، فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فيرجع فيها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

فيبعث الله عليها نَغَفًا في أقْفَائِهِم[١] فيهلكون، وإن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَرُ[٢] من لحومهم شكرًا»[٣].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن مهران الرازي، حدثنا الوليد ابن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن يحيى بن جابر الطائيِّ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر، عن أبيه جبير بن نفير، عن النوَّاس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفَّض فيه ورفَّع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم»؟ قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال ذات غداة فخفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غيرُ الدجَّالِ أخوفني عليكم؟ إنْ يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىءٍ حجيجُ نفسه، والله خليفتي على كلِّ مسلم، إنه شاب قَطَطٌ[٤] عينه اليمنى[٥] طافية، كأني أشبهه بعبد العُزَّى بن قَطَنٍ، فمَنْ أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالًا، يا عباد الله! فاثبتوا»، قلنا: يا رسول الله، فما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يومًا: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقْدُرُوا له قَدْرَه»، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبَرَتْهُ الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سَارِحَتُهُم أطول ما كانت ذُرًا وأسبغه ضُروعًا وأمدَّه خواصر[٦]، ثم يأتي

---

(١) «النَّغف» بفتح النون والغين المعجمة: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، مفرده: «نَغَفَة». و«الأقفاء»: جمع «قفا»، وهو وراء العنق.

(٢) يقال: شكرت الناقة ـ من باب سَمِع ـ إذا امتلأ ضرعها باللبن، وشكرت الدابة: إذا سمنت.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير: (٨/ ٥٩٧ ـ ٥٩٩)، وقال: (هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه . . .)، وابن ماجه في الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم . . . برقم٤٠٨٠: (٢/ ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥)، وابن حبان: ص٤٧٠ من «موارد الظمآن»، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٤/ ٤٨٨)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٥١٠).

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٠٦): (إسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلَّا القليل، فيقولون: غدًا نفتحه، فيأتون من الغد، وقد عاد كما كان . . . مرتين، ويلهمون أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا متجه، ولعلَّ أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كان كثيرًا ما كان يجالسه ويحدِّثه، فحدَّث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه، والله أعلم).

(٤) «قَطَط»: شديد جعودة الشعر، مباعد للجعودة المحبوبة.

(٥) ساقط من «ب».

(٦) «تروح»: ترجع آخر النهار، و«السارحة»: هي الماشية التي تسرح، أي: تذهب أول النهار إلى المرعى، و«الذُّرا»: الأعالي والأسنمة، جمع ذروة، بالضم وبالكسر، و«أسبغه ضروعًا»: أطْوَله لكثرة اللَّبَن، وكذا «أمَدّه» خواصر، لكثرة امتلائها من الشِّبَع.

القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، قال: فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين[١] ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبَةِ، فيقول لها: أَخرِجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النَّحْل[٢]، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلتين رمية الغَرَض[٣]، ثم يدعوه فيُقْبِل ويتهلَّل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذْ بعث الله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقيَّ باب دمشق، بين مَهْرُودَتَيْن[٤]، واضِعًا كفَّيْه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قَطَرَ، وإذا رفعه تحدَّر منه مثل جُمَانِ اللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافر يجد من ريح نَفَسِه إلَّا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذْ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت / عبادًا لي لا يَدَانِ لأحد بقتالهم ٢٢٣/ب فحَرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ[٥]، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلون، فيمر أوائلُهم على بحيرة طبريَّةَ فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقول: لقد كان بهذه مرةً ماء، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدِكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلَّا مَلأه زَهَمُهُم[٦] ونَتْنُهُم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخْتِ[٧] فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يَكُنُّ[٨] منه بيتُ مدرٍ ولا وَبَرٍ فيغسل الأرضَ، حتى يتركها كالزَّلَفَةِ[٩]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرُّمَّانة، ويستظلُّون بقِحْفها، ويُبَارَك في الرِّسْل حتى أن اللِّقْحَة[١٠] من

---

(١) أي: أصابهم المَحْل، وهو الجدب والقحط.

(٢) هي ذكور النحل، أو جماعة النحل، لا ذكورها خاصة، لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب، وهو أميرها.

(٣) «الجَزْلة» ـ بالفتح، ويحكى بالكسر ـ: القطعة. ومعنى «رمية الغرض»: أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رمية. هذا هو الظاهر المشهور، وقيل غير ذلك.

(٤) «مهرودتين» ـ بالدال المهملة، وروي بالمعجمة ـ ومعناه: لابس مهرودتين، أي: ثوبين مصبوغين بوَرْس ثم بزعفران، وقيل: هما شقتان، والشقة: نصف الملاءة.

(٥) «يدان»: تثنية يد، معناه: لا قدرة ولا طاقة، «فحرِّز»، أي: ضمّهم، واجعله لهم حِرزًا، يقال: أحرزت الشيء أحرزه إحرازًا، إذا حفظته وضممته إليك، وصنته عن الأخذ.

(٦) «زهمهم»، أي: دسمهم.

(٧) «البُخْت»: قال ابن منظور في «لسان العرب»: البخت والبختية، دخيل في العربية، أعجمي معرَّب، وهي: الإبل الخراسانية، تنتج من عربية وفالج، وهي جمال طوال الأعناق.

(٨) أي: لا يمنع نزول الماء.

(٩) وروي بلفظ: «الزَّلَقَة»، وبلفظ: «الزُّلْفة»، وكلها صحيحة، قيل معناه: كالمرآة، وقيل: كمصانع الماء؛ لأن الماء يستنقع فيها حتى تصير كالمصنع الذي يجتمع فيه الماء، وقيل: كالإجانة الخضراء، وقيل: كالروضة.

(١٠) «الرِّسْل»: هو اللبن، و«اللِّقحة» ـ بالكسر وبالفتح ـ: القريبة العهد بالولادة.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾

الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللِّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفَخِذَ من النَّاسَ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيِّبةً، فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كلِّ مؤمنٍ وكل مسلم، ويبقى شِرَارُ الناس يَتَهارَجُونَ تَهَارُجَ الحُمُرِ[1]، فعليهم تقوم الساعة»[2].

وبهذا الإسناد حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا علي بن حجر السعدي، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر والوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر بهذا الإسناد نحو ما ذكرنا وزاد بعد قوله «لقد كان بهذه مرة ماء»: «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمْرِ[3] وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا مَنْ في الأرض، هَلُمَّ فلنقتل مَنْ في السماء، فيرمون بنُشَّابهم[4] إلى السماء، فيرُدُّ الله عليهم نُشَّابهم مخضوبةً دمًا»[5].

وقال وهب: إنهم كانوا يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الخشب والشجر، ومن ظفروا به من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أحمد، أنبأنا أبي، أنبأنا إبراهيم، عن الحجاج بن حجاج، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «ليحجنَّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»[6].

وفي القصة: أن ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفي بشهر زور، وذكر بعضهم: أن عمره كان نيفًا وثلاثين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قيل: هذا عند فتح السد، يقول: تركنا يأجوج ومأجوج يموج، أي: يدخل بعضهم في بعض كموج الماء، ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم.

وقيل: هذا عند قيام الساعة، يدخل الخلق بعضهم في بعض، ويختلط إنسيهم بجنيِّهم حيارى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ في صعيد واحد.

---

(١) أي: يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس، كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك، و«الهَرْج» - بإسكان الراء -: الجماع.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة ما معه برقم ٢١٣٧: (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥).

(٣) في «أ»: (أحمر)، وفي «ب»: (الحمر) بالمهملة، والمثبت من «صحيح مسلم»: و«الخمر» هو الشجر الملتف الذي يستر مَن فيه، وقد فسَّره في الحديث بأنه جبل بيت المقدس، لكثرة شجره.

(٤) أي: سهامهم، والواحدة: «نشابة».

(٥) أخرجه مسلم في الموضع السابق: (٤/ ٢٢٥٥).

(٦) أخرجه البخاري في الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾: (٣/ ٤٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٨٣).

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أبرزنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ حتى يشاهدوها عيانًا.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ أي: غشاء، و«الغطاء»: ما يغطى به الشيء ويستره ﴿عَن ذِكْرِي﴾ يعني: عن الإيمان والقرآن، وعن الهدى والبيان، وقيل: عن رؤية الدلائل.

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: سَمْعَ القَبُولِ والإيمانِ؛ لغلبة الشقاوة عليهم.

وقيل: لا يعقلون، وقيل: كانوا لا يستطيعون، أي: لا يقدرون أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يتلوه عليهم؛ لشدة عداوتهم له، كقول الرجل: لا أستطيع أن أسمع من فلان شيئًا؛ لعداوته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أفظن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أربابًا، يريد بالعباد: عيسى والملائكة، كلا بل هم لهم أعداء ويتبرءون منهم.

قال ابن عباس: يعني: الشياطين أطاعوهم من دون الله.

وقال مقاتل: الأصنام سُمُّوا[1] عبادًا، كما قال: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ» [الأعراف: ١٩٤]، وجواب هذا الاستفهام محذوف.

قال ابن عباس: يريد: إني لأغضب لنفسي، يقول: أفظنَّ الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم.

وقيل: أفظنوا أنهم ينفعهم أن يتخذوا عبادي[2] من دوني أولياء.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: منزلًا، قال ابن عباس: هي مثواهم، وقيل: النزل ما يهيأ للضيف، يريد[3]: هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ يعني: الذين أتعبوا أنفسهم في عملٍ يرجون به فضلًا ونَوالًا، فنالوا هلاكًا وبوارًا، كمن يشتري سلعة يرجو عليها ربحًا، فخسر وخاب سعيه.

واختلفوا فيهم، قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص: هم اليهود والنصارى، وقيل: هم الرهبان

---

(١) في «ب»: (سميت).
(٢) ساقط من «أ».
(٣) ساقط من «أ».

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾ حبسوا أنفسهم في الصوامع، وقال علي بن أبي طالب: هم أهل حروراء(١) ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ بطل عملهم واجتهادهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: عملًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي: لا نجعل لهم خطرًا وقدرًا.

تقول العرب: «ما لفلان عندي وزن»، أي: قدرٌ؛ لخسَّته.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أحمد، عن محمد بن يوسف، عن محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن مريم، أنبأنا المغيرة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيَأْتِيَ الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة»، وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»(٢).

قال أبو سعيد الخدري: يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العِظَم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئًا، فذلك قوله تعالى: «﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ من حبوط أعمالهم وخسة أقدارهم، ثم ابتدأ فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ يعني: القرآن ﴿وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: سخرية ومهزوءًا بهم.

---

(١) ومعنى هذا عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كُلِّ مَنْ عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول، وهو مخطىء وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارًا حامية﴾، وقال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا﴾.
انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٠٨).
وهو ما قاله الطبري أيضًا حيث رجح أنه عني بها كل عامل عملًا يحسبه فيه مصيبًا، وأنه لله بفعله ذلك مطيع مرضٍ، وهو بفعله ذلك لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان به جائر، كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة، من أهل أي دين كانوا.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ...﴾: (٨/ ٤٢٦)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٧٨٥: (٤/ ٢١٤٧).

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ روينا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(1).

قال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر(2).

وقال قتادة: «الفردوس»: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها(3).

قال كعب: «الفردوس»: هو البستان الذي فيه الأعناب(4).

وقال مجاهد: هو البستان بالرومية، وقال عكرمة: هي الجنة بلسان الحبش(5)، وقال الزَّجَّاج: هو بالرومية منقول إلى / لفظ العربية، وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة الأشجار، وقيل: هي الروضة المستحسنة. وقيل: ١/٢٢٤
هي التي تنبت ضروبًا من النبات، وجمعه: فراديس.

﴿نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ قيل أي: منزلًا، وقيل: ما يهيأ للنازل على معنى: كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلًا، ومعنى «كانت لهم» أي: في علم الله قبل أن يُخلقوا.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ﴾ لا يطلبون ﴿عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: تحولًا إلى غيرها، قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: (يا محمد)(6)، تزعم أنَّا قد أُوتينا الحكمة، وفي كتابك «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا»، ثم تقول: «وما أُوتيتم من العلم إلَّا قليلًا»؟ فأنزل الله هذه الآية(7).

---

(1) قطعة من حديث أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿وكان عرشه على الماء، وهو ربُّ العرش العظيم﴾: (١٣/ ٤٠٤).
(2) أخرجه الطبري: (١٦/ ٣٦).
(3) الطبري: (١٦/ ٣٦)، ورواه أيضًا مرفوعًا عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب: (١٦/ ٣٨).
(4) المرجع السابق: (١٦/ ٣٦).
(5) انظر: الطبري: (١٦/ ٣٦)، وساق جملة أحاديث تؤيد أن المعنى بالآية: إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقروا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه، وعملوا بطاعته، كانت لهم بساتين الفردوس، والفردوس معظم الجنة. انظر: (١٦/ ٣٧-٣٨).
(6) ساقط من «ب».
(7) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٤٦، «تفسير القرطبي»: (١١/ ٦٨)، «البحر المحيط»: (٦/ ١٦٨)، «تفسير الخازن»: (٤/ ١٩٢).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

وقيل: لما نزلت: «وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلًا»، قالت اليهود: أُوتينا التوراة وفيها علم كل شيء، فأنزل الله تعالى(١): «قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا» سُمي المداد مدادًا؛ لإمداد الكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء.

قال مجاهد: لو كان البحر مدادًا للقلم والقلم يكتب ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: ماؤه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «ينفد» بالياء لتقدم الفعل، والباقون بالتاء ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ أي: علمه وحكمه ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ معناه: لو كان الخلائق يكتبون، والبحر يمدُّهم لنفد البحر، ولم تنفد كلمات ربي(٢)، ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته مددًا أو زيادة (و«مددًا» منصوب على التمييز)(٣) نظيره: قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ» [لقمان: ٢٧].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قال ابن عباس: علَّم الله رسوله التواضع؛ لئلا يزهو على خلقه، فأمره أن يقر فيقول: إني آدمي مثلكم، إلّا أني خُصصت بالوحي وأكرمني الله به، يوحى إليَّ أنّما إلهكم إله واحد لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخاف المصير إليه، وقيل: يأمل رؤية ربه، فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعًا، قال الشاعر:

ولا كُلُّ ما تَرْجُو مِنَ الخَيْرِ كَائِنٌ   ولا كُلّ ما ترجُو مِنَ الشَّرِّ واقِعُ

فجمع بين المعنيين.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ أي: لا يُرائي بعمله.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أبو نعيم، أخبرنا سفيان، عن سلمة هو ابن كهيل قال: سمعت جُنْدُبًا يقول: قال النبي ﷺ: «من سمَّعَ سمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به»(٤).

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٠١).

(٢) في «ب»: (الله).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرياء والسمعة: (١١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦)، ومسلم في البر والصلة، باب إذا أُثني على الصالح فهي بشرى لا تضره برقم ٢٦٤٢: (٤/ ٢٠٣٤ ـ ٢٠٣٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٢٣).

ورُوينا عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[١].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنبأنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبي، حدثنا شعيب قال: حدثنا الليث، عن أبي الهاد، عن عمرو، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء، هو للذي عمله»[٢].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، عن قتادة، حدثنا سالم بن أبي الجعد الغطفاني، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء، يرويه، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال»[٣].

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه، حدثنا أبو الأسود، حدثنا ابن لهيعة، عن زياد، عن سهل ـ هو ابن معاذ ـ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورًا من قدميه إلى رأسه[٤]، ومن قرأها كلها كانت له نورًا من الأرض إلى السماء»[٥][٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٥/٤٢٨، ٤٢٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٢٤)، قال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح)، وقال المنذري: (إسناده جيد، ورواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الزهد، وغيره. ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ، ولم يصح له منه سماع فيما أرى، وقد خرّج أبو بكر بن خزيمة حديث محمود المتقدم في «صحيحه» مع أنه لا يخرج فيه شيئًا من المراسيل. وذكر ابن أبي حاتم: أن البخاري قال: له صحبة، قال: وقال أبي: لا يعرف له صحبة، ورجح ابن عبد البر أن له صحبة، وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود ابن لبيد عن رافع بن خديج، وقيل: إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع فيه، والله أعلم). انظر: «الترغيب والترهيب»: (١/ ٦٩)، «مجمع الزوائد»: (١/ ١٠٢)، وقارن بـ «النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد»: ص٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله برقم ٢٩٨٥: (٤/ ٢٢٨٩) بلفظ: «. . . تركته وشركه»، ورواه ابن ماجه في الزهد، باب الرياء والسمعة برقم ٤٢٠٢: (٢/ ١٤٠٥)، وقال في «الزوائد»: (إسناده صحيح)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٢٥)، وانظر: «الترغيب والترهيب»: (١/ ٦٩)، وراجع: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٠٩ ـ ١١١)، فقد ساق جملة أحاديث في الرياء.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم ٨٠٩: (١/ ٥٥٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٦٩).

(٤) في «أ»: (من قرنه إلى قدميه).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٣٩)، قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد يحسّن حديثه). انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٢). وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠).

(٦) في آخر نسخة مكتبة الحرم المكي: (تم النصف الأول من تفسير البغوي بحمد الله وعونه، وافق الفراغ منه بقدس الشريف في مدرسة الصلاحية ـ عمرها الله تعالى ـ يوم الثالث عشر من شوال من شهور سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية. كاتبه العبد الفقير إلى الله الغني: سليمان بن أحمد بن سليمان الحدادي القرشي حامدًا لله تعالى ومصليًا على نبيه محمد وآله وأصحابه وأزواجه، يتلوه النصف الثاني: أول سورة مريم ـ غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين، آمين).

ثم يلي هذا سطر فيه تملك النسخة لراجي عفو ربه وغفرانه: محمد بن محمد الحريري عفا الله عنه.

سورة مريم

مكية، وهي ثمان وتسعون آية(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وضدُّه ابنُ عامرٍ وحمزة، ويكسرهما: الكسائي وأبو بكر، والباقون بفتحهما، ويظهِرُ الدال عند الذال من «صاد ذكر» ابنُ كثيرٍ ونافع وعاصم ويعقوب(٢)، والباقون بالإدغام(٣). قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: اسم للسورة، وقيل: هو قَسَمٌ أقسم الله به.

ويروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: «كٓهيعٓصٓ»، قال: الكاف من كريم وكبير، والهاء من هادٍ، والياء من رحيم، والعين من عليم، والصاد من صادق.

وقال الكلبي: معناه: كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم ببريَّته، صادق في وعده(٤).

﴿ذِكْرُ﴾ رفع بالمضمر، أي: هذا الذي نتلوه عليك ذكر ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ (وفيه تقديم وتأخير)(٥) معناه: ذكر ربك ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ برحمته.

---

(١) سورة مريم مكية بالإجماع، فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج الإمام أحمد وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل» عن أم سلمة: أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب: هل معك مما جاء به ـ يعني: رسول الله ﷺ ـ من الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدرًا من «كهيعص» فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى لَيَخْرج من مشكاة واحدة. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤٧٦)، «تفسير القرطبي»: (١١/ ٧٢ـ٧٣).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي: (٥/ ٢٠٤ـ٢٠٥)، «البحر المحيط»: (٦/ ١٧٢).

(٤) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٦/ ٤١ ـ ٤٥)، «الدر المنثور»: (٥/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦)، وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح السور فيما سبق: (١/ ٥٨ ـ ٥٩)، وراجع: «تفسير الطبري»: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٢٤)، «تفسير الواحدي»: (١/ ٢٥ـ٢٦).

(٥) ساقط من «أ».

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبَّهُۥ﴾ في محرابه ﴿نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ دعا سرًّا من قومه في جوف الليل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ﴾ ضَعُفَ ورقَّ ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ من الكِبَر، قال قتادة: اشتكى سقوط الأضراس ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾ أي: ابيضَّ شعر الرأس ﴿شَيْبًا﴾ شمطًا ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ يقول: عوَّدتني الإجابة فيما مضى ولم تخيِّبني.

وقيل: معناه لما دعوتني إلى الإيمان آمنت ولم أشقَ بترك الإيمان[1].

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ و«الموالي»: بنو العم، قال مجاهد: العصبة، وقال أبو صالح: الكلالة، وقال الكلبي: الورثة[2] ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: من بعد موتي.

قرأ ابن كثير «من وراءِيَ» بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ أعطني من عندك ﴿وَلِيًّا ۝٥﴾ ابنًا.

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قرأ ابن عمرو والكسائي بجزم الثاء فيهما، على جواب الدعاء، وقرأ الآخرون بالرفع على الحال والصفة، أي: وليًّا وارثًا.

واختلفوا في هذا الإرث، قال الحسن: معناه: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة.

وقيل: أراد ميراث النبوة والعلم، وقيل: أراد إرث الحبورة؛ لأن زكريا كان رأس الأحبار[3].

قال الزَّجَّاج: والأَوْلى أن يحمل على ميراث غير المال؛ لأنه يبعد أن يشفق زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يرثه بنو عمه ماله.

والمعنى: إنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه وليًّا[4] صالحًا يأمنه على أُمَّتِهِ، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين،

---

(١) اعتمد الطبري القول الأول ولم يذكر غيره، وهو ما ذكره عامة المفسرين.

(٢) هذه المعاني متقاربة، فالورثة هم العصبة، وبنو العم من الورثة، والكل من الأقارب.

(٣) انظر هذه الأقوال في: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٧ ـ ٤٨)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، «الدر المنثور»: (٥/ ٤٨٠).

(٤) في «ب»: (ولدًا).

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما[١].

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ أي: برًّا تقيًّا مرضيًّا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ وفيه اختصار، معناه: فاستجاب الله دعاءه، فقال: يا زكريا إنا نبشرك ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ بولد ذكر[٢] ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ قال قتادة والكلبي: لم يُسَمَّ أحد قبله يحيى[٣].

وقال سعيد بن جبير وعطاء: لم نجعل له شبهًا ومثلًا، كما قال الله تعالى: «هل تعلم له سميًّا»، أي: مثلًا.

والمعنى: أنه لم يكن له مثل؛ لأنه لم يعص ولم يهمَّ بمعصية قط

وقيل: لم يكن له مثل في أمر النساء؛ لأنه كان سيِّدًا وحصورًا.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أي: لم تلد العواقر مثله ولدًا.

وقيل: لم يرد الله به اجتماع الفضائل كلها ليحيى، إنما أراد بعضها؛ لأن الخليل والكليم كانا قبله، وهما أفضل منه.

---

(١) وهذا الذي مال إليه المصنف كَلَلَهُ هو ما رجحه ابن كثير وأيَّده من وجوه، فقال (٣/ ١١٢): (وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدًا يكون نبيًّا من بعده، ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة، وأجلُّ قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حدُّه، وأن يأنف من وراثة عصابته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، هذا وجه.

والوجه الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالًا، ولاسيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

والوجه الثالث: أنه قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة»، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فهب لي من لدنك وليًّا يرثني﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿ويرث من آل يعقوب﴾، كقوله: ﴿وورث سليمان داود﴾، أي: النبوة، إذ لو كان في المال لما خصَّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل: أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها.

وكل هذا يقرره ويثبته ما صحَّ في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

ثم ساق ـ ابن كثير ـ بعض الآثار والروايات فيها ما يدل على أن الوراثة وراثة مال، وقال عنها: (وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح) والله أعلم. وانظر: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص٢٠٩.

(٢) زيادة من «ب».

(٣) رجح الطبري هذا التأويل في «التفسير»: (١٦/ ٥٠)، فإن اعترض معترض فقال: ما وجه المِدْحَة باسمٍ لم يُسَمَّ به أحد قبله، ونرى كثيرًا من الأسماء لم يسبق إليها؟

فالجواب: أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولَّى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه، فسمَّاه باسم لم يُسْبق إليه.

انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢١٠ـ٢١١).

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ
عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ
شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ
سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ أي: وامرأتي عاقر[1] ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾﴾ أي: يبسًا، قال قتادة: يريد نحولَ العظمِ، يقال: عَتَا الشيخ يَعْتُو عِتِيًّا وعِسِيًّا: إذا انتهى سنُّه وكبر، وشيخ عاتٍ وعاسٍ: إذا صار إلى حالة اليبس والجفاف.

وقرأ حمزة والكسائي «عتيًّا وبكيًّا وصليًّا وجثيًّا» بكسر أوائلهن، والباقون برفعها، وهما لغتان.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ يسير ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «خلقناك» بالنون والألف على التعظيم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل يحيى ﴿وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ دلالة على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾﴾ أي: صحيحًا سليمًا من غير ما بأس ولا خَرَس.

قال مجاهد: أي: لا يمنعك من الكلام مرض.

وقيل: ثلاث ليال سويًّا، أي: متتابعات، والأول أصح[2].

وفي القصة: أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس، فإذا أراد ذكر الله تعالى انطلق لسانه[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون، إذْ خرج عليهم زكريا متغيِّرًا لونه، فأنكروه وقالوا: مالك يا زكريا؟ ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فأومأ إليهم، قال مجاهد: كتب لهم في الأرض ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ أي: صلُّوا لله[4] ﴿بُكۡرَةٗ﴾ غدوة ﴿وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾﴾ ومعناه: أنه كان يخرج على قومه بكرةً وعشيًّا فيأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته

---

(١) وعلى هذا فـ «كانت»: توكيد للكلام، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾[آل عمران: ١١٠]، أي: أنتم خير أمة. وقيل معنى الآية: أنها كانت منذ كانت عاقرًا، لم يحدث ذلك بها، ذكر هذين القولين ابن الأنباري، واختار الأول منهما. انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢١١).

(٢) وهو أيضًا ما رجحه الطبري: (١٦/ ٥٢)، وحكى القول الثاني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من رواية العوفي.
وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١١٣).

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: حبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلِّم أحدًا، وهو في ذلك يسبِّح ويقرأ التوراة، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤٨٣)، «البحر المحيط»: (٦/ ١٧٦)، وراجع فيما سبق: (١/ ٣٥٠).

(٤) ساقط من «أ».

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾

ومنع الكلام حتى[١] خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ قيل: فيه حذف معناه: ووهبنا له يحيى وقلنا له: يا يحيى ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجد ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: النبوَّة ﴿صَبِيّٗا ١٢﴾ وهو ابن ثلاث سنين، وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب[٢]، فقرأ التوراة وهو صغير.

وعن بعض السلف: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيًّا[٣].

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ رحمة من عندنا، قال الحطيئة لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ:

تَحَنَّنْ عليَّ هَداكَ المَلِيكُ ... فإنَّ لكلِّ مقامٍ مَقَالَا[٤]

أي: ترحَّم.

﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص.

وقال قتادة ـ رضي الله عنه ـ: هي العمل الصالح، وهو قول الضحاك.

ومعنى الآية: وآتيناه رحمةً من عندنا وتحننًا على العباد؛ ليدعوهم إلى طاعة ربهم ويعمل عملًا صالحًا في إخلاص.

وقال الكلبي: يعني: صدقة تصدق الله بها على أبويه.

﴿وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣﴾ مسلمًا مخلصًا مطيعًا، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا همَّ بها[٥].

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أي: بارًّا لطيفًا بهما محسنًا إليهما ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ و«الجبَّار»: المتكبر، وقيل: «الجبار»: الذي يضرب ويقتل على الغضب، و«العَصِيُّ»: العاصي.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) وهو الراجح عند الطبري وغيره من العلماء.

(٣) أخرجه ابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس مرفوعًا، وأخرجه ابن أبي حاتم والديلمي موقوفًا على ابن عباس أيضًا. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤٨٥)، «كشف الخفاء» للعجلوني: (٢/ ٨٦)، «كنز العمال»: برقم (٢٤٥٢).

(٤) انظر: «ديوان الحطيئة»: ص٢٢٢، «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٧)، «البحر المحيط»: (٦/ ١٧٧).

(٥) أخرج الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٥٨)، وأحمد في «الزهد»، وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان سعيد بن المسيب يقول: قال النبي ﷺ: «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلَّا ذا ذنب، إلَّا يحيى بن زكريا»، وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «ما أذنب يحيى بن زكريا قطُّ ولا همَّ بامرأة». وكلاهما مرسل. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١١٤ ـ ١١٥)، فقد ساق هذه الروايات وغيرها وأشار إلى ضعفها.

وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أي: سلامة له ﴿يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ قال سفيان بن عيينة: أوحش

٦/ب /[1] ما يكون الإنسان في هذه الأحوال: يوم ولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم يرَ مثله، فخصَّ يحيى بالسلامة في هذه المواطن[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآن ﴿مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ تنحَّت واعتزلت ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ من قومها ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾﴾ أي: مكانًا في الدار مما يلي المشرق، وكان يومًا شاتيًا شديد البرد، فجلست في مشرقه تفلي رأسها، وقيل: كانت طهرت من المحيض، فذهبت لتغتسل.

قال الحسن: ومن ثَم اتخذت النصارى المشرقَ قبلة[3].

﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾ فضربتْ ﴿مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سترًا.

وقيل: جلست وراء جدار، وقال مقاتل: وراء جبل.

وقال عكرمة: إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي تغتسل من المحيض قد تجردت، إذْ عرض لها جبريل في صورة شابٍّ أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، سويِّ الخلق، فذلك قوله:

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾﴾ وقيل: المراد من الروح: عيسى عليه السلام، جاء في صورة بشر فحملت به، والأول أصح، فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد، فـ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾﴾ مؤمنًا مطيعًا. فإن قيل: إنما يستعاذ من الفاجر، فكيف قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا؟ قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمنًا فلا تظلمني، أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعًا من الظلم، كذلك هاهنا.

معناه: ينبغي أن تكون تقواك مانعًا لك من الفجور[4].

---

(١) (٦/ب) بداية الصفحة الأولى في المجلد الثاني لمخطوط الظاهرية.

(٢) أخرجه الطبري عن سفيان بن عيينة: (١٦/ ٥٨ ـ ٥٩).

(٣) انظر في هذه الأقوال وغيرها: الطبري: (١٦/ ٥٩ ـ ٦٠)، «الدر المنثور»: (٥/ ٤٩٤)، «زاد المسير»: (٦/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٤) انظر بتفصيل أوسع: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص٢١٠ ـ ٢١١.

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا
قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

﴿قَالَ﴾ لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ قرأ نافع وأهل البصرة «ليهب لك» بالياء، أي: ليهب لك ربُّك، وقرأ الآخرون: «لأهب لك» أسند الفعل إلى الرسول، وإن كانت الهبة من الله؛ لأنه أرسل به ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب.

﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لم يقربني زوج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ فاجرة؟ تريد أن الوليد يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن هنا واحد منهما.

﴿قَالَ﴾ جبريل: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ قيل: معناه: كما قلت يا مريم، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وقيل: هكذا قال ربك ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: خلْق ولد بلا أب ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ علامة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ودلالة على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ونعمة لمن تبعه على دينه ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ محكومًا مفروغًا عنه لا يُرَدُّ ولا يبدَّل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾ قيل: إن جبريل رفع درعها فنفخ في جيبه[1] فحملت حين لبست.

وقيل: مدَّ جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب، وقيل: نفخ في كم قميصها، وقيل: في فيها.

وقيل: نفخ جبريل عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ نفخًا من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى في الحال[2] ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي: تنحَّتْ بالحمل وانفردت ﴿مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ بعيدًا من أهلها.

---

(١) في «ب»: (جيبها).

(٢) قال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٢٤١): (أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها، فوصل النفخ إلى فرجها، فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[الأنبياء: ٩١].

والذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، ولا ينافي ذلك إسنادُ الله جلَّ وعلا النفخَ المذكور لنفسه في قوله: «فنفخنا»؛ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلَّا بمشيئته جلَّ وعلا ـ أسنده إلى نفسه.

وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط، بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فرارًا من قومها أن يعيّروها بولادتها من غير زوج.

واختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة، وقيل: كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء، وقيل: كان مدة حملها ثمانية أشهر، وكان ذلك آية أخرى؛ لأنه لا يعيش ولد يولد لثمانية أشهر، وولد عيسى لهذه المدة وعاش، وقيل: ولدت لستة أشهر، وقال مقاتل بن سليمان: حملته مريم في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وهي بنت عشر سنين[(١)]، وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى[(٢)].

﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أي: ألجأها وجاء بها ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وهو وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وكانت نخلة يابسة في الصحراء، في شدة الشتاء، لم يكن لها سعف.

وقيل: التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تمنت الموت استحياءً من الناس وخوف الفضيحة ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ قرأ حمزة وحفص «نَسْيًا» بفتح النون، (والباقون بكسرها)[(١)]، وهما لغتان: الوَتْر والوِتْر، والجَسْر والجِسْر، وهو الشيء المنسي، و«النسيُ» في اللغة: كل ما أُلقي ونُسي ولم يذكر لحقارته.

﴿مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ أي: متروكًا، قال قتادة: شيء لا يعرف ولا يذكر، قال عكرمة والضحاك ومجاهد: جيفة ملقاة، وقيل: تعني: لم أخلق.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أوصل بعض المفسرين الأقوال في مدة حملها إلى سبعة أقوال، والظاهر من الآية المتبادر من التعقيب بحرف الفاء هو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حيث قال: لم يكن إلَّا أن حملت فوضعت. واستغربه ابن كثير ﷺ؛ لأن الفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه.
ثم رجح رأي الجمهور فقال: فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قدير، أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهنَّ، وإن كان منشؤه خارقًا للعادة، والسياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته، هل كان حملًا عاديًا كما تحمل النساء، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة، فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟
إن هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدّت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية.
كما أن من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصارًا، ويعقبها تكوُّن الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة، وليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلًا وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها، والله أعلم.
انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢١٩)، ابن كثير: (٣/ ١١٧)، «في ظلال القرآن»: (٤/ ٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧)، طبعة دار الشروق، «أضواء البيان»: (٤/ ٢٤٤).

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفصٌ «مِنْ تحتِها» بكسر الميم والتاء، يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت مريم على أَكَمَةٍ وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها.

وقرأ الآخرون بفتح الميم والتاء، وأراد جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا، ناداها من سفح الجبل.

وقيل: هو عيسى لما خرج من بطن أمه ناداها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ وهو قول مجاهد والحسن(١).

والأول قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والسدي وقتادة والضحاك وجماعة: أن المنادي كان جبريل لما سمع كلامها وعرف جزعها ناداها: ألا تحزني.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ و«السَّرِيّ»: النهر الصغير.

وقيل: تحتك، أي: جعله الله تحت أمرك إن أمرتيه أن يجري جرى، وإن أمرتيه بالإمساك أمسك.

قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: ضرب جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ـ ويقال: ضرب عيسى عليه الصلاة والسلام ـ برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى(٢).

وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله سبحانه وتعالى فيه الماء وحييت النخلة اليابسة، فأورقت وأثمرت وأرطبت.

وقال الحسن: «تحتك سريًا»، يعني: عيسى، وكان والله عبدًا سريًا، يعني: رفيعًا(٣).

---

(١) واختار هذا التفسير ابن زيد وابن جرير الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٦٨)، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فردُّه على الذي هو أولى من ردِّه على الذي هو أبعد منه، ألا ترى في سياق قوله: «فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًا»، يعني به: فحملت عيسى فانتبذت به، ثم قيل: «فناداها» نسقًا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه، ولعلّةٍ أخرى، وهي قوله: «فأشارت إليه» ولم تشر إليه إن شاء الله إلَّا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: «أن لا تحزني قد جعل ربك تحت سريًا»، وما أخبر الله عنه أنه قال لها: أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولًا من جبرائيل، لكان خليقًا أن يكون في ظاهر الخبر، مبينًا أن عيسى سينطق، ويحتج عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله.

(٢) انظر: «تفسير الخازن»: (٤/ ١٩٧).

(٣) ورجح الطبري: (١٦/ ٧١) القول الأول، فقال: (وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: عني به الجدول، وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها: «وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا فكلي» من هذا الرطب، «واشربي» من هذا الماء «وقرّي عينًا» بولدك. و«السَّرِيُّ» معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير).

وقد رويت أحاديث مرفوعة في ذلك لا يصح منها شيء، وإن كان هو الأقرب إلى الصواب من قول من قال أن المراد بالسري «عيسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كان من معاني «السَّري»: الرفيع مكانةً.

انظر: «الكافي الشاف»: ص١٠٥ ـ ١٠٦، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١١٨)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٤ ـ ٥٥)، «أضواء البيان» للشنقيطي: (٤/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ يعني قيل لمريم: حرِّكي ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ تقول العرب: هزَّه وهزَّ به، كما يقول: حزّ رأسه وحزَّ برأسه، وأمْدَدَ الحبل وأمدَدَ به ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾ القراءة المعروفة بفتح التاء والقاف وتشديد السين، أي: تتساقط، فأُدغمتْ إحدى التاءين في السين، أي: تسقط عليك النخلة رطبًا، وخفف حمزة السين وحذف التاء التي أدغمها غيره.

وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف خفيف على وزن تُفَاعِل، وتساقط بمعنى أسقط، والتأنيث لأجل النخلة.

وقرأ يعقوب: «يساقط» بالياء مشددة، ردَّه إلى الجذع.

﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ مجنيًا، وقيل: الجني هو الذي بلغ الغاية، وجاء أوان اجتنائه، قال الربيع بن خُثَيْم: ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل[1].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ أي: فكلي يا مريم من الرُّطَب، واشربي من ماء[2] النهر ﴿وَقَرِّي
١/٧ عَيۡنٗاۖ﴾ أي: طيبي نفسًا، وقيل: قري عينك بولدك عيسى، يقال: أقر الله عينك، / أي: صادف فؤادك ما يرضيك، فتقر عينك من النظر إلى غيره، وقيل: أقر الله عينه: يعني أنامها، يقال: قرَّ يقرّ إذا سكن.

وقيل: إن العين إذا بكت من السرور فالدمع بارد، وإذا بكت من الحزن فالدمع يكون حارًا، فمن هذا قيل: أقرَّ الله عينه وأسخن الله عينه.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي: تري، فدخل عليه نون التأكيد فكسرت الياء لالتقاء الساكنين.

معناه: فإما ترين من البشر أحدًا فيسألك عن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي: صمتًا، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رضي الله عنه.

والصوم في اللغة: الإمساك عن الطعام والشراب[2] والكلام[3].

قال السدي: كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام، كما يصوم عن الطعام، فلا يتكلم حتى يمسي. وقيل: إن الله تعالى أمرها أن تقول هذا إشارةً.

وقيل: أمرها أن تقول هذا القدر نطقًا، ثم تمسك عن الكلام بعده.

﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ يقال: كانت تكلم الملائكة، ولا تكلم الإنس.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٠٥).

(٢) ساقط من «أ». (٣) انظر: «لسان العرب»: (١٢/ ٣٥٠-٣٥١).

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ قيل: إنها ولدته، ثم حملته في الحال إلى قومها.

وقال الكلبي: حمل يوسف النجار مريم وابنها عيسى عليه السلام[1] إلى غار، ومكثت أربعين يومًا حتى طهرت من نفاسها[2]، ثم حملته مريم - عليها السلام - إلى قومها، فكلمها عيسى عليه السلام في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بَكَوا وحزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين[3] ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ عظيمًا منكرًا، قال أبو عبيدة: كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فَرِيّ.

قال النبي ﷺ في عمر: «فلم أرَ عبقريًّا يفري فريه»[4]، أي: يعمل عمله.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يريد: يا شبيهة هارون، قال قتادة وغيره: كان هارون رجلًا صالحًا عابدًا في بني إسرائيل، رُوي أنه اتبع جنازته يوم مات أربعون ألفًا كلهم يسمى «هارون» من بني إسرائيل سوى سائر الناس، (شبهوها به على)[1] معنى: إنا ظننا أنك مثله في الصلاح، وليس المراد منه الأخوّة في النسب، كما قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ»[الإسراء: ٢٧]، أي: أشباههم.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى، أخبرنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا ابن إدريس، عن أبيه، عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون: «يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ»، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا! فلمّا قدمت على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[5].

وقال الكلبي: كان هارون أخا مريم من أبيها، وكان أَمْثَل رجل في بني إسرائيل.

وقال السدي: إنما عنوا به هارون أخا موسى؛ لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) عزاه السيوطي في «الدر»: (٥/ ٥٠٦) لسعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس، دون أن يذكر يوسف النجار، وتقدم أن الكلبي ضعيف.

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٦/ ٦٢٩ - ٦٣٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل عمر رضي الله عنه برقم ٢٣٩٣: (٤/ ١٨٦٢).

(٥) أخرجه مسلم في الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم برقم ٢١٣٥: (٣/ ١٦٨٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٢٨).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

وقيل: كان هارون رجلًا[١] فاسقًا في بني إسرائيل عظيم الفسق فشبهوها به[٢].

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: زانيًا ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنَّة ﴿بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أي: زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

﴿فَأَشَارَتْ﴾ مريم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام: أن كلِّموه.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لما لم يكن لها حجة أشارت إليه؛ ليكون كلامه حجةً لها[٣].

وفي القصة: لما أشارت إليه غضب القوم، وقالوا: مع ما فعلت تسخرين بنا[٤]؟

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ أي: من هو في المهد، وهو حجرها.

وقيل: هو المهد بعينه، و«كان» بمعنى: هو، وقال أبو عبيدة: «كان» صلة، أي: كيف نكلم صبيًّا في المهد، وقد يجيء «كان» حشوًا في الكلام لا معنى له كقوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٣]، أي: هل أنا[٥]؟

قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم.

وقيل: لما أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره، وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وقال وهب: أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود، فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يومًا ـ وقال مقاتل: بل هو يوم ولد ـ إني عبد الله، أقرَّ على نفسه بالعبودية لله عزَّ وجلَّ أول ما تكلم لئلا يتخذ إلهًا[٦] ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ قيل: معناه: سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيًّا.

وقيل: هذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ، كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيًّا؟ قال:

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر في هذه الأقوال: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٧٧ـ٧٨)، «الدر المنثور»: (٥/ ٥٠٧ـ٥٠٨)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٢٧).
قال الطبري: (والصواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله ﷺ الذي ذكرناه، وأنها نسبت إلى رجل من قومها).

(٣) انظر: «تفسير الخازن»: (٤/ ١٩٨).

(٤) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ١٨٧).

(٥) انظر في هذا كله: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٧٩)، «البحر المحيط»: (٦/ ١٨٧)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٢٨).

(٦) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٢٨)، «البحر المحيط»: (٦/ ١٨٧).

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي
وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾
ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

«كنتُ نبيًّا وآدم بين الروح والجسد»[1].

وقال الأكثرون: أُوتِيَ الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال.

وعن الحسن: أنه قال: أُلْهِم التوراة وهو في بطن أُمه[2].

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: نفّاعًا حيث ما توجهت، وقال مجاهد: معلّمًا للخير، وقال عطاء: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته، وقيل: مباركًا على من تبعني.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي: أمرني بهما.

فإن قيل: لم يكن لعيسى مال، فكيف يؤمر بالزكاة؟

قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال، وقيل: بالاستكثار من الخير.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: وجعلني برًّا بوالدتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: عاصيًا لربّه، قيل: «الشَّقِيّ»: الذي يذنب ولا يتوب.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ أي: السلامة عند الولادة من طعن الشيطان ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ أي: عند الموت من الشرك ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ من الأهوال، ولما كلَّمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى عليه السلام، فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (قال الزجاج: أي: ذلك الذي قال: إني عبد الله عيسى ابن مريم)[3] ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب «قولَ الحق» بنصب اللام وهو نصب على المصدر، أي: قالَ قَوْلَ الحقِّ ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يختلفون، فقائل يقول: هو ابن الله، وقائل يقول: هو الله، وقائل يقول: هو ساحر كاذب.

---

(١) صححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٦٠٩)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٧٩)، والبخاري في «تاريخه»: (٧/ ٣٧٤)، ورواه الطبراني والبزار. انظر: «مجمع الزوائد»: (٨/ ٢٢٣).

(٢) والصواب في ذلك أنه سبحانه وتعالى عبَّر في الآية بالفعل الماضي عن المستقبل تنزيلًا لتحقق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن، فيكون التأويل الأول هو الراجح وما عداه فهو ضعيف. انظر: «أضواء البيان»: (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

وقرأ الآخرون برفع اللام، يعني: هو قولُ الحق، أي: هذا الكلام هو قولُ الحق، أضاف القولَ إلى الحق، كما قال: «حق اليقين»، و«وعْد الصدق».

وقيل: هو نعت لعيسى ابن مريم، يعني: ذلك عيسى ابن مريم كلمة الله، والحق: هو الله «ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ»: يشكُّون، ويختلفون، ويقولون غير الحق، ثم نفى عن نفسه الولد فقال:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي: ما كان من صفته اتخاذ الولد، وقيل: اللام منقولة، أي: ما كان الله ليتخذ من ولد ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ إذا أراد أن يحدث أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «أن الله» بفتح الألف، يرجع إلى قوله: «وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ»، وبأن الله ربي وربكم، وقرأ أهل الشام والكوفة ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف / ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾. ٧/ب

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ يعني: النصارى، سُمُّوا أحزابًا؛ لأنهم تحزَّبوا ثلاث فرقٍ في أمر عيسى: النسطورية، والملكانية، واليعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ يعني: يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم[1] السمع والبصر! أخبرَ أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا في الدنيا.

قال الكلبي: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين[2] يقول الله تعالى لعيسى: «ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ»[المائدة: ١١٦] ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: في خطأ بيِّنٍ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذبح الموت.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا عمرو بن حفص بن غياث، أخبرنا أبي، أنبأنا الأعمش، أخبرنا أبو صالح، عن

---

(١) في «ب»: (لا ينفع). (٢) ساقط من «أ».

أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرفون[(١)] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرفون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

ورواه أبو عيسى، عن أحمد بن منيع، عن النضر بن إسماعيل، عن الأعمش بهذا الإسناد، وزاد: «فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحًا، ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار الحياة والبقاء لماتوا ترحًا»[(٣)].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا معاذ بن أسد، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عمر بن محمد بن زيد، عن أبيه أنه حدثه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهلُ الجنة إلى[(٤)] الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»[(٥)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنة إلّا أُري مقعدَه من النار لو أساء ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحدٌ إلّا أُري مقعدَه من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»[(٦)].

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداوودي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا الحسين بن الحسن، أخبرنا ابن

---

(١) في «ب»: (فيشرئبون).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾: (٨/ ٤٢٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون . . . برقم ٢٨٤٩: (٤/ ٢١٨٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٩٨).

(٣) «سنن الترمذي»، كتاب التفسير، باب سورة مريم: (٨/ ٦٠٢ـ ٦٠٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

(٤) ساقط من «أ».

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار: (١١/ ٤١٥)، ومسلم في الجنة، الموضع السابق: (٤/ ٢١٨٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٩٩).

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار: (١١/ ٤١٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٠٠).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾

المبارك، أخبرنا يحيى بن عبيد الله[1] قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلّا ندم»، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسنًا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون نزع»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: عمَّا يُفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ لا يصدقون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعًا، ويبقى الربُّ وحده فيرثهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ فنجزيهم بأعمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾ «الصِّدِّيق»: الكثير الصدق القائم عليه، وقيل: من صدَّق الله في وحدانيته، وصدَّق أنبياءه ورسله، وصدَّق بالبعث، وقام[3] بالأوامر فعمل بها، فهو الصديق، و«النَّبِيّ»: العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إيَّاه.

﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر، وهو يعبد الأصنام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ صوتًا ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئًا ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ﴾ أي: لا يكفيك ﴿شَيْـًٔا ۝٤٢﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالله والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ على ديني ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ مستقيمًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تطعه فيما يزيِّن لك من الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ عاصيًا، «كان» بمعنى الحال، أي: هو كذلك.

---

(١) في «أ»: (عبد الله)، والذي أثبتناه ما جاء في «شرح السنة»، وكذلك أبو الحسن عبد الحميد بن محمد الداوودي، هكذا جاء في المخطوط، والذي أثبتناه في «شرح السنة».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في ذهاب البصر: (٧/ ٨٤)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ويحيى بن عبيد الله قد تكلم فيه شعبة).
قال ابن حجر في «التقريب» ص٥٩٤: (متروك، وأفحش الحاكم فرماه بالوضع).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٣) ساقط من «أ».

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ أي: أعلم ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ يصيبك ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: إن أقمتَ على الكفر ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ قرينًا في النار.

﴿قَالَ﴾ أبوه مجيبًا له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ لئن لم تسكت وترجع عن عيبك آلهتنا وشتمك إيَّاها ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ قال الكلبي ومقاتل والضحاك: لأشتمنَّك، ولأُبعِدَنَّك عني بالقولِ القبيح[(١)].

قال ابن عباس: لأضربنَّك، وقال عكرمة: لأقتلنَّك بالحجارة.

﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾ قال الكلبي: اجتنبني طويلًا، وقال مجاهد وعكرمة: حينًا.

وقال سعيد بن جبير: دهرًا، وأصل «الحين»: المكث، ومنه يقال: فمكثت حينًا، و«المَلَوان»: الليل والنهار، وقال قتادة وعطاء: سالمًا، وقال ابن عباس: اعتزلني سالمًا لا تصيبك مني معرَّة، يقال: فلان مليٌّ بأمر كذا: إذا كان كافيًا[(٢)].

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ أي: سلمت مني لا أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره.

وقيل: هذا سلام هجران ومفارقة، وقيل: سلام برٍّ ولطفٍ، وهو جواب الحليم للسفيه، قال الله تعالى: «وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا»[الفرقان: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ قيل: إنه لما أعياه أَمْرُهُ ووعده أن يراجع الله فيه، فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له، معناه: سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها المغفرة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾ برًّا لطيفًا، قال الكلبي: عالمًا يستجيب لي إذا دعوته، قال مجاهد: عوَّدني الإجابة لدعائي.

---

(١) وهو ما مال إليه الطبري، ولم يذكر غيره: (١٦/ ٩٠ـ ٩١).

(٢) ساق الطبري هذه الأقوال (١٦/ ٩٢)، ثم قال: (وأولى القولين بتأويل الآية عندي قول من قال: معنى ذلك: واهجرني سويًّا، سليمًا من عقوبتي؛ لأنه عقيب قوله: «لئن لم تنته لأرجمنَّك»، وذلك وعيد منه له إن لم ينته عن ذكر آلهته بالسوء أن يرجمه بالقول السيء، والذي هو أولى بأن يتبع ذلك التقدم إليه بالانتهاء عنه قبل أن تناله العقوبة، فأما الأمر بطول هجره فلا وجه له).

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعتزل ما تعبدون من دون الله، قال مقاتل: كان اعتزاله إيَّاهم أنه فارقهم من «كوثى» فهاجر منها إلى الأرض المقدسة ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: أعبدُ ربي ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝٤٨﴾ أي: عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام.

وقيل: عسى أن يجيبني إذا دعوته ولا يخيبني.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فذهب مهاجرًا ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد الهجرة ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ آنسنا وحشته (من فراقهم)[1]، وأقررنا عينه بأولادٍ كرام على الله عزَّ وجلَّ ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ يعني: إسحاق ويعقوب.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ قال الكلبي: المال والولد، وهو قول الأكثرين، قالوا: ما بسط لهم في الدنيا
1/8 من سعة الرزق، وقيل: الكتاب والنبوّة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ/ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ يعني: ثناءً حسنًا رفيعًا في كل أهل الأديان، فكلُّهم يتولَّونهم، ويثنون عليهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ غير مُراءٍ، أخلص العبادة والطاعة لله عزَّ وجلَّ[2]، وقرأ أهل الكوفة «مخلَصًا» بفتح اللام، أي: مختارًا اختاره الله عزَّ وجلَّ، وقيل: أخلصه الله من الدنس ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ يعني: يمين موسى[3]، والطور: جبل بين مصر ومدين، ويقال: اسمه «الزُّبَيْر»، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار نودي: «أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ» [القصص: ٣٠].

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ أي: مناجيًا، فالنجي المناجى، كما يقال: جليس ونديم.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) هذا التفسير لقراءة «مخلِصًا» بكسر اللام ثم قال المصنف: (وقرأ أهل الكوفة . . . بفتح اللام . . .)، فكأن الأصل أنه قدم القراءة بكسر اللام وفسر الآية عليها أولاً.

(٣) نقل ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٢٣٩) عن ابن الأنباري قال: (إنما خاطب الله العربَ بما يستعملون في لغتهم، ومن كلامهم: عن يمين القبلة وشمالها، يعنون: مما يلي يمين المستقبل لها وشماله، فنقلوا الوصف إلى ذلك اتّساعًا عند انكشاف المعنى؛ لأن الوادي لا يد له فيكون له يمين. وقال المفسرون: جاء النداء عن يمين موسى، فلهذا قال: «الأيمن»، ولم يُرِدْ به يمين الجبل).

وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾

قال ابن عباس: معناه: قرَّبه فكلَّمه، ومعنى التقريب: إسماعه كلامه.

وقيل: رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم[١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ وذلك حين دعا موسى فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى﴾[طه: ٢٩-٣٠]، فأجاب الله دعاءه وأرسل هارون، ولذلك سماه هبة له[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو إسماعيل بن إبراهيم جدُّ النبي ﷺ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ قال مجاهد: لم يَعِدْ شيئًا إلَّا وفَّى به.

وقال مقاتل: وعد رجلًا أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل.

وقال الكلبي: انتظره حتى حَالَ عليه الحَوْل[٣].

﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى جُرْهم ﴿نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ مخبرًا عن الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: قومه، وقيل: أهله وجميع أمته ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ قال ابن عباس: يريد التي افترضها الله تعالى عليهم، وهي الحنيفية التي افترضت علينا ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ قائمًا بطاعته، قيل: رضيه الله عزَّ وجلَّ لنبوته ورسالته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ وهو جَدّ أبي نوح، واسمه: «أخنوخ»، سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، وكان خياطًا وهو أول من خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وكانوا من قبله يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح، وقاتل الكفار، وأول من نظر في علم النجوم[٤] والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٦/ ٩٤-٩٥)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) قال الطبري (١٦/ ٩٥) يقول: ووهبنا لموسى رحمة منا أخاه هارون «نبيًّا»، يقول: أيدناه بنبوته وأعنَّاه بها.
وعن ابن عباس قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

(٣) انظر: الطبري: (١٦/ ٩٦)، ابن كثير: (٣/ ١٢٦)، ففيهما جملة آثار، وقال ابن جريج: لم يَعِدْ ربَّه عِدَةً إلَّا أنجزها، يعني: ما التزم عبادة بنذر قط إلَّا قام بها ووفَّاها حقها.

(٤) زيادة من «ب».

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ قيل: يعني: الجنة، وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا، وقيل: هو أنه رفع إلى السماء الرابعة[١].

روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج[٢].

وكان سبب رفع إدريس (إلى السماء)[١] على ما قاله كعب وغيره: أنه سارَ ذات يومٍ في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا رب أنا مشيت يومًا، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد! اللَّهمَّ خفِّفْ عنه من ثقلها وحرّها[٣]، فلما أصبح المَلَك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال[٤]: يا رب ما الذي قضيت فيه؟ فقال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته، فقال: رب اجعل بيني وبينه خُلَّة، فأذن له حتى أتى إدريس، فكان يسأله إدريس، فقال له: إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند مَلَك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزداد شكرًا وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها، وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: لي حاجة إليك، صديقٌ لي من بني آدم تشفَّع بي إليك لتؤخر أجله، قال: ليس ذلك إليَّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله، فيقدم لنفسه، قال: نعم، فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبدًا، قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلَّا عند مطلع الشمس، قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: فانطلق فلا أراك تجده إلَّا وقد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء، فرجع الملك فوجده ميتًا[٥].

واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت؟ فقال قوم: هو ميت، وقال قوم: هو حي[٦]، وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء، اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري: (٧/ ٢٠١ـ٢٠٢)، ومسلم: (١/ ١٤٩ـ١٥١)، وقد تقدم تخريجه في سورة الإسراء.

(٣) يعني به: الملك الموكل بالشمس.

(٤) أي: المَلَك الموكل بها.

(٥) ساق هذه الرواية القرطبي في «التفسير»: (١١/ ١١٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير»: (٥/ ٢٤٣)، وقال: (وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وكعب في آخرين).

وعقَّب ابن كثير على هذه الروايات وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة، وهي من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات.

انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٢٧).

(٦) القول الأول هو الذي يتفق مع الروايات، والثاني مروي عن مجاهد قال: إدريس رفع ولم يمت، كما رفع عيسى، فإن أراد: أنه لم يمت إلى الآن ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حيًّا إلى السماء ثم قبض هناك، فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار، والله أعلم.

انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: (١/ ١٠٠).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾

وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربَّه عزَّ وجلَّ في زيارته، فأذن له فأتاه في صورة بني آدم، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه، ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس، فقال له الليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت استأذنت ربِّي أن أصحبك، قال: فلي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: تقبض روحي، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة، قال له ملك الموت: ما في سؤالك من قبض الروح؟ قال: لأذوق كرب الموت وغمته فأكون أشد استعدادًا له، ثم قال إدريس له: إن لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار، فأذن الله في رفعه، فلما قرب من النار قال: لي حاجة أخرى[1]، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكًا حتى يفتح لي أبوابها فأردها ففعل، ثم قال: فكما أريتني النار فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة (فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة)[1]، ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكًا حكمًا بينهما، فقال له الملك: مالك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾[آل عمران: ١٨٥]، وقد ذقته، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾[مريم: ٧١]، وقد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[الحجر: ٤٨]، فلست أخرج، فأوحى الله إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج، (فهو حي هناك)[2]، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يعني: إدريس ونوحًا ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ أي: ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، يريد: إبراهيم؛ لأنه ولد من سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يريد: إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

قوله: ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، وهم: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

قوله: ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ هؤلاء كانوا ممن أرشدنا واصطفينا ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ «سُجَّدًا»: جمع ساجد، و«بكيًا»: جمع باكٍ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا.

---

(١) ساقط من «أ». (٢) في «أ»: (فهو فيها حيٌ).

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥١٩-٥٢٣)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٤١-٢٤٢)، وهذا الخبر من الإسرائيليات وقد أشار إلى ذلك ابن كثير رحمه الله.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾

٨/ب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ/ خَلۡفٌ﴾ أي: من بعد النبيين المذكورين خَلْف، وهم قوم سوء، و«الخَلَفُ» ـ بالفتح ـ: الصالح، وبالجزم: الطالح[1].

قال السدي: أراد بهم اليهود ومن لحق بهم، وقال مجاهد وقتادة: هم في هذه الأمة[2].

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوا الصلاة المفروضة[3].

وقال ابن مسعود وإبراهيم: أخّروها عن وقتها.

وقال سعيد بن المسيب: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا العصر حتى تغرب الشمس[4].

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أي: المعاصي، وشرب الخمر، يعني: آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله، وقال مجاهد: هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة.

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ قال وهب: «الغيّ»: نهر في جهنم، بعيدٌ قعره، خبيثٌ طعمه.

---

(١) وهو قول ابن الأعرابي، واستشهدوا له بقول لَبِيد:

ذَهَبَ الذين يُعَاشُ في أكْنَافِهِم ... وبَقِيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْرَبِ

ومنه قيل للردي من الكلام: خَلْف، ومنه المثل السائر: «سكت ألفًا ونطق خَلْفًا»، فخلْفٌ في الذم بالإسكان، وخَلَفٌ بالفتح في المدح، هذا هو المستعمل المشهور، قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلَف عدوله» رواه البيهقي، وقال الإمام أحمد: لا بأس به.

وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، قال حسان بن ثابت:

لنا القَدَمُ الأولَى إليك وخَلْفُنا ... لأوّلِنا في طاعةِ الله تابعُ

وقال آخر:

إنا وجدنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ ... أغلقَ عنّا بابَه ثم حلفْ

لا يُدْخِلُ البوابُ إلّا مَنْ عرفْ ... عبدًا إذا ما ناء بالحِمْل وقفْ

انظر: «تفسير القرطبي»: (٧/ ٣١٠ـ٣١١)، وراجع فيما سبق: تفسير سورة الأعراف، الآية (١٦٩).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي»: (١١/ ١٢٢)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٤٥)، وساق السيوطي جملة روايات في ذلك: (٥/ ٥٢٦).

وكونهم من أمة محمد ﷺ ليس بوجيه ـ عند الشيخ الشنقيطي ـ لأن قوله تعالى: «فخلف من بعدهم» صيغة تدل على الوقوع في الزمن الماضي، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلّا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى، والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحيهم قبل نزول الآية، فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكورين في هذه الآية، واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة. انظر: «أضواء البيان»: (٤/ ٣٠٨).

(٣) وهو مروي عن محمد بن كعب القرظي واختاره الزجاج. انظر: الطبري: (١٦/ ٩٨)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٤٥)، «الدر المنثور»: (٥/ ٥٢٦).

(٤) وهو مروي عن القاسم بن مخيمرة وعمر بن عبد العزيز والنخعي ومجاهد.

هذا، وكل ما روي عن السلف ـ رحمهم الله ـ في تأويل الآية داخل في معناها؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها ـ وهذه كلها أقوال في تفسير الآية ـ كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت. انظر: «تفسير القرطبي»: (١١/ ١٢٢ـ١٢٥)، «أضواء البيان»: (٤/ ٣٠٨).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

وقال ابن عباس: «الغي»: وادٍ في جهنم، وإن أودية[١] جهنم لتستعيذ من حرّه، أُعد للزاني المصرّ عليه، ولشارب الخمر المدمن عليها، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور[٢].

وقال عطاء: «الغيُّ»: وادٍ في جهنم يسيل قيحًا ودمًا.

وقال كعب: هو وادٍ في جهنم أبعدها قعرًا، وأشدها حرًّا، في بئر تسمى «الهيم»، كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فيسعر بها جهنم[٢].

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد الحارثي، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، وأخبرنا عبد الله بن المبارك، عن هشيم بن بشير، أخبرنا زكريا بن أبي مريم الخزاعي قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: «إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة سبعين خريفًا من حَجَرٍ يهوي، أو قال: صَخْرَةٍ تهوي، عظمها كعشر عُشَرَاوات عظام سمان، فقال له مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم، غي وآثام»[٣].

وقال الضحاك: غيًّا وخسرانًا، وقيل: هلاكًا، وقيل: عذابًا[٤].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، ليس معناه يرون فقط، بل معناه الاجتماع والملابسة[٥] مع الرؤية.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ولم يروها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ يعني: آتيًا، مفعول بمعنى فاعل.

وقيل: لم يقل آتيًا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، والعرب لا تفرق بين قول القائل: «أتت عليَّ خمسون سنة» وبين قوله: «أتيت على خمسين سنة»، ويقول: «وصل إليَّ الخير»، و«وصلت إلى الخير».

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر: القرطبي: (١١/ ١٢٥).

(٣) أخرج نحوه عن أبي أمامة مرفوعًا: الطبري في «التفسير»: (١٦/ ١٠٠)، وزاد السيوطي نسبته لابن مردويه والبيهقي في «البعث» والطبراني. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٩): (وفيه ضعفاء، وقد وثقهم ابن حبان وقال: يخطئون).
وقال ابن كثير (٣/ ١٢٩): (هذا حديث غريب ورفعه منكر).

(٤) قال الطبري (١٦/ ١٠): (وكل هذه الأقوال متقاربات المعاني، وذلك أن من ورد البئرين اللتين ذكرهما النبي ﷺ، والوادي الذي ذكره ابن مسعود في جهنم، فدخل ذلك، فقد لاقى خسرانًا وشرًّا، حَسْبُهُ به شرًّا)!

(٥) في «ب»: (الملامسة).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

وقال ابن جرير: «وعده»، أي: موعده، وهو الجنة، «مأتيًا»: يأتيه أولياؤه (أهل الجنة)[1]، وأهل طاعته[2].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ باطلًا وفحشًا وفضولًا من الكلام.

وقال مقاتل: هو اليمين الكاذبة.

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناءٌ من غير جنسه، يعني: بل يسمعون فيها سلامًا، أي: قولًا يسلمون منه، و«السلام»: اسم جامع للخير؛ لأنه يتضمن السلامة.

معناه: أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤثمهم، إنما يسمعون ما يسلمهم.

وقيل: هو تسليم بعضهم على بعض، وتسليم الملائكة عليهم.

وقيل: هو تسليم الله عليهم.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ قال أهل التفسير: ليس في الجنة ليل يعرف به البكرة والعشي، بل هم في نور أبدًا، ولكنهم يأتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار.

وقيل: إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب، ووقت الليل بإرخاء الحجب.

وقيل: المراد منه رفاهية العيش، وسعة الرزق من غير تضييق.

وكان الحسن البصري يقول: كانت[3] العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي، فوصف الله عزَّ وجلَّ جنته بذلك[4].

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نعطي وننزل، وقيل: يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ أي: المتقين من عباده.

---

(١) زيادة من «ب»، وليست في الطبري.

(٢) عبارة الطبري في «التفسير» (١٦/ ١٠١): («إن الله كان» وعده في هذا الموضع: موعوده، وهو الجنة «مأتيًا» يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يدخلهموها الله.

وقال بعض نحويي الكوفة: (خرج الخبر على أن الوعد هو المأتي، ومعناه: أنه هو الذي يأتي، ولم يقل: وكان وعده آتيًا؛ لأن كل ما أتاك فأنت تأتيه، وقال: ألا ترى أنك تقول: أتيتُ على خمسين سنة وأتَتْ عليَّ خمسون سنة، وكل ذلك صواب . . .).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) انظر هذه الأقوال وجملة آثار في ذلك في: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٢٠ ـ ١٢١).

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا خلاد بن يحيى، أخبرنا عمر بن ذر قال: سمعت أبي يحدِّث، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا» فنزلت: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا...» الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ(١).

وقال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال: «أخبركم غدًا» ولم يقل: إن شاء الله، حتى شقَّ على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام، فقال له رسول الله ﷺ: «أبطأت عليَّ حتى ساء ظني واشتقت إليك»، فقال له جبريل: إني كنت أشْوَق، ولكني عبد مأمور، إذا بُعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فأنزل الله: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»، وأنزل: «وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ»(٢).

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: له علم ما بين أيدينا، واختلفوا فيه، فقال سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا»: من أمر الآخرة والثواب والعقاب، «وَمَا خَلْفَنَا»: ما مضى من الدنيا، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: ما يكون من هذا الوقت إلى قيام الساعة(٣).

وقيل: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا»: ما بقي من الدنيا، «وَمَا خَلْفَنَا»: ما مضى منها، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: أي: ما بين النفختين، وبينهما أربعون.

وقيل: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا»: ما بقي من الدنيا، «وَمَا خَلْفَنَا»: ما مضى منها، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: مدة سنة، وقيل: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا»: بعد أن نموت، «وَمَا خَلْفَنَا»: قبل أن نخلق، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: مدة الحياة(٤).

وقيل: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا»: الأرض إذا أردنا النزول إليها، «وَمَا خَلْفَنَا»: السماء إذا نزلنا منها، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: الهواء، يريد: أن ذلك كله لله عزَّ وجلَّ، فلا نقدر على شيء إلَّا بأمره.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ أي: ناسيًا، يقول: ما نسيك ربك، أي: ما تركك، والناسي: التارك.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم، باب ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾: (٨/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، وفي التوحيد، باب ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾: (١٣/ ٤٤٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/ ١٠٣ ـ ١٠٤)، وابن إسحاق: (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) «سيرة ابن هشام»، وعزاه ابن حجر في «الكافي الشاف»: ص١٠٧ لأبي نعيم في «الدلائل»، وقال: وذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك.
وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٣٠)، «تفسير القرطبي»: (١١/ ١٢٨)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٤٨.

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٣١).

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٥٠).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر على أمره ونهيه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مِثْلًا[1]، وقال الكلبي: هل تعلم أحدًا يُسمى «الله» غيره[2]؟

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: أُبَيّ بن خلف الجمحي، كان منكرًا للبعث[3]، قال: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ قاله استهزاءً وتكذيبًا للبعث.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ أي: يتذكر ويتفكر[4]، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب «يَذْكُر» خفيف، «الإنسانُ» يعني: أبي بن خلف ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ أي: لا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه، فيستدل به على الإعادة، ثم أقسم بنفسه، فقال:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنَّهم في المعاد، يعني: المشركين المنكرين للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ مع
١/٩ الشياطين، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ قيل: في جهنم / ﴿جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: جماعات، جمع جثوة، وقال الحسن والضحاك: جمع «جاثٍ»، أي: جاثين على الرُّكَب.

قال السدي: قائمين على الرُّكَبِ لضيق المكان.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ لنخرجنَّ ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: من كل أمة وأهل دين من الكفار ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ عتوًا، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: جرأة، وقال مجاهد: فجورًا، يريد: الأعتى فالأعتى.

---

(١) انظر: الطبري: (١٦/ ١٠٦)، «الدر المنثور»: (٥/ ٥٣١).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٥١).

(٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٤٨، والقرطبي: (١١/ ١٣١)، وقال المهدوي: نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه، وهو قول ابن عباس وعن ابن جريج أنها نزلت في العاص بن وائل.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٣٢)، القرطبي: (١١/ ١٣١).

(٤) هذا تفسير لقراءة «يذكر» بالتشديد بدليل ما بعده، وكأن المصنف رحمه الله يرجع أو يقدم هذه القراءة، ثم فسّر الآية على القراءة بالتخفيف فيما بعد.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

وقال الكلبي: قائدهم ورأسهم في الشر، يريد: أنه يقدم في إدخال من هو أكبر جرمًا وأشد كفرًا.

وفي بعض الآثار: أنهم يحشرون جميعًا حول جهنم مسلسلين مغلولين، ثم يقدم الأكفر فالأكفر.

ورفع «أيهم» على معنى: «الذي»، يقال لهم: أيُّهم أشد على الرحمن عتيًّا.

وقيل: على الاستئناف ثم لننزعن (يعمل في موضع «من كل شيعة»)[1].

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾، أي: أحق بدخول النار، يقال: صلى يصلى صِلِيًّا، مثل: لقي يلقى لِقِيًّا، وصلى يَصْلِي صُلِيًّا، مثل: مضى يمضي مُضيًّا، إذا دخل النار وقاسى حرَّها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وما منكم إلَّا واردها، وقيل: القسم فيه مضمر، أي: والله، ما منكم من أحد إلَّا واردها، والورود هو: موافاة المكان.

واختلفوا في معنى الورود هاهنا، وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله: «واردها»، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو قول الأكثرين: معنى الورود هاهنا هو الدخول، والكناية راجعة إلى النار، وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر، ثم ينجي الله المتقين[2]، فيخرجهم منها.

والدليل على أن الورود هو الدخول: قول الله عزَّ وجلَّ حكاية عن فرعون: «يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ»[هود: ٩٨].

وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرقَ مَارَى ابن عباس - رضي الله عنهما - في الورود، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الدخول، وقال نافع: ليس الورود الدخول، فتلا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ» [الأنبياء: ٩٨] أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع أما والله أنت وأنا سَنَرِدُها، وأنا أرجو أن يخرجني الله، وما أرى الله عزَّ وجلَّ أن يخرجك منها بتكذيبك[3].

وقال قوم: ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا: النار لا يدخلها مؤمن أبدًا، لقوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا» [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، وقالوا:

---

(١) جاءت العبارة في «ب» هكذا: (تعمل، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيًّا) في موضع: (من كل شيعة).

(٢) في «ب»: (الذين اتقوا).

(٣) أخرجه الطبري: (١٦/ ١١١)، وهنَّاد في الزهد: (١/ ٢٣١)، والمروزي في «زوائد الزهد»: ص٤٩٩، والبيهقي في «البعث»، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وسنده حسن. وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٣٥)، ابن كثير: (٣/ ١٣٣).

كل من دخلها لا يخرج منها، والمراد من قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾: الحضور والرؤية، لا الدخول، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[القصص: ٢٣] أراد به الحضور[١].

وقال عكرمة: الآية في الكفار، فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها[٢].

وروي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: القيامة[٣]، والكناية راجعة إليها.

والأول أصح، وعليه أهل السنة، أنهم جميعًا يدخلون النار ثم يخرج الله عزّ وجلّ منها أهل الإيمان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: اتقوا الشرك، وهم المؤمنون، والنجاة إنَّما تكون مما دخلت فيه[٤].

وقرأ الكسائي ويعقوب «نُنْجِي» بالتخفيف، والآخرون بالتشديد.

والدليل على هذا: ما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا عبد الرحيم بن منيب، أخبرنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلَّا تحلَّة القسم»[٥].

وأراد بالقسم قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

---

(١) وهو قول عبيد بن عمير. انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٥٦).

(٢) انظر: الطبري: (١٦/ ١١١)، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس.

(٣) اختلفت الرواية عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في الآية فنقل عنه هذا، ونقل أنه فسَّرها بدخول النار، وفسَّرها ثالثة بالمرور على الصراط.
انظر: الطبري: (١٦/ ١١١)، «فتح القدير» للشوكاني: (٣/ ٣٤٦)، «تفسير الخازن»: (٤/ ٢٠٧).

(٤) اختلف المفسرون في تفسير الورود ورجوع الضمير ـ على ما رأيت ـ وهذا الذي رجحه المصنف رحمه الله وقال: إنه مذهب أهل السنة، ردَّه أبو حيان والطبري وغيرهما. وأصول الأقوال في ذلك:
١ ـ أن الخطاب للكافرين، وعلى هذا فهم الذين يدخلون النار.
٢ ـ الخطاب عام في حق المؤمنين والكافرين واختلفوا في تفسير الورود على أقوال خمسة، أحدها: الدخول، الثاني: المرور عليها، الثالث: الحضور، الرابع: أن ورود المسلمين عليها هو مرورهم على الصراط، وورود المشركين: دخولهم النار، والخامس: أن ورود المؤمنين إليها: ما يصيبهم من الحمى في الدنيا.
انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٧).
وأرجح هذه الأقوال: ما ذهب إليه الطبري رحمه الله حيث قال (١٦/ ١١٢): (يَرِدُها الجميع ثم يصد عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار، وورودهموها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم فناج مسلَّم ومكدس فيها...) ثم ساق الأحاديث.
وهو أيضًا ما رجحه صاحب «شرح العقيدة الطحاوية»، فقال ص٤٧٨: (والأظهر الأقوى: أنه المرور على الصراط). وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٤)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٥) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: (١١/ ٥٤١)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه برقم ٢٦٣٢: (٤/ ٢٠٢٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٥١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا هشام، أخبرنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار مَن قال لا إله إلّا الله وفي قلبه وزن شعيرة مِن خير، ويخرج من النار مَن قال لا إله إلّا الله وفي قلبه وزن بُرَّة مِن خير، ويخرج مِن النار مَن قال لا إله إلّا الله وفي قلبه وزن ذرة مِن خير»(١)، وقال أبان عن قتادة: «مِن إيمان» مكان «خير».

أخبرنا أبو المظفر محمد بن إسماعيل بن علي الشجاعي، أخبرنا أبو نصر النعمان بن محمد بن محمود الجرجاني، أخبرنا أبو عثمان عمرو بن عبد الله البصري، أخبرنا محمد بن عبد الوهاب، أخبرنا محمد بن الفضل أبو النعمان، أخبرنا سلام بن مسكين، أخبرنا أبو الظلال، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ: «أن رجلًا في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان، فيقول الله عزَّ وجلَّ لجبريل: اذهب فائتني بعبدي هذا، قال: فذهب جبريل فوجد أهل النار منكبِّين يبكون، قال: فرجع فأخبر ربه عزَّ وجلَّ، قال: اذهب فإنه في موضع كذا وكذا، قال: فجاء به، قال: يا عبدي كيف وجدتَ مكانك ومقيلك؟ قال: يا رب، شرّ مكان وشرّ مقيل، قال: ردوا عبدي، قال: ما كنت أرجو أن تعيدني إليها إذْ أخرجتني منها، قال الله تعالى لملائكته: دعوا عبدي»(٢).

وأما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٢]، قيل: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنهم لا يسمعون حسيسها، فيجوز أن يكونوا قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة؛ لأنه لم يقل: لم يسمعوا حسيسها، ويجوز أن لا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إيّاها؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يجعلها عليهم بردًا وسلامًا.

وقال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة ألم يَعِدْنَا ربُّنا أن نرد النار؟ فيقال: بلى، ولكنكم مررتم بها، وهي خامدة(٣).

وفي الحديث: تقول النار للمؤمن: «جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لهبي»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصه: (١/ ١٠٣)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم ١٩٣: (١/ ١٨٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٩١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٢٣٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٩٣ ـ ١٩٤). وفيه أبو ظِلال، واسمه: هلال القَسْمَليّ البصري، ضعفه ابن معين وأبو داود والنسائي، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات. «التهذيب»: (١١/ ٧٥ ـ ٧٦).

(٣) رواه ابن إسحاق، وأبو عبيد في «الغريب»، وابن المبارك في «الزهد» عن خالد بن معدان. انظر: «الكافي الشاف»: ص١٠٧.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية»: (٩/ ٣٢٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٥/ ١٩٤)، (٩/ ٢٣٣)، والطبراني في «الكبير»، وابن عدي في «الكامل»، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول». وفي سنده: سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.
انظر: «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٣٦٠)، «كشف الخفاء»: (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾

وروي عن مجاهد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: مَنْ حُمَّ من المسلمين فقد وردها[(١)].

وفي الخبر: «الحمى كير من جهنم، وهي حظُّ المؤمن من النار»[(٢)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا محمد بن المثنى أخبرنا يحيى عن هشام أخبرني أبي عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»[(٣)].

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ أي: كان ورودكم جهنم حتمًا لازمًا ﴿مَّقْضِيًّا﴾: قضاه الله عليكم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: اتقوا الشرك، وقرأ الكسائي «نُنْجِي» بالتخفيف، والباقون بالتشديد ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ جميعًا، وقيل: جاثين على الركب، وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتقين، وترك فيها الظالمين، وهم المشركون.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب»، قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأُمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله
٩/ب عزَّ وجلَّ فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: / أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم، ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز[(٤)] من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ إلّا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلِّمْ سلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلّا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو، حتى إذا أراد

---

(١) رواه الطبراني: (١٦/ ١١١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد: (٥/ ٢٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (٣/ ٦٨)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٤/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨). وانظر: «الكافي الشاف»: ص١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في الطب، باب الحمى من فيح جهنم: (١٠/ ١٧٤)، ومسلم في السلام، باب لكل داء دواء برقم ٢٢١٠: (٤/ ١٧٣٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ١٥٣).

(٤) ساقط من «أ».

الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يُخرجوا مَن كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلَّا أثر السجود، فيُخرجون من النار قد امْتَحَشُوا(١)، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحِبّة في حَمِيْل السيل(٢)، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولًا الجنة، مقبل بوجهه قِبَلَ النار، فيقول: يا ربِّ اصرف وجهي عن النار، قد قَشَبَنِي ريحها وأحرقني ذُكاؤها(٣)، فيقول: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا، وعزَّتِك، فيعطي الله ما شاء من عهدٍ وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا ربِّ قدمني عند باب الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت، فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزَّتِك لا أسألك غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها ورأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخِلني الجنة، فيقول الله تعالى: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسألني غير الذي أُعطيتَ؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمنَّ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أُمنيتُه، قال الله تعالى: تمنَّ كذا وكذا، أقبل يُذكّره ربه، حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد لأبي هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ـ تعالى ـ: لك ذلك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلَّا قوله: «لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد: إني سمعته يقول: «ذلك لك وعشرة أمثاله»(٤).

ورواه محمد بن إسماعيل، عن محمود بن غيلان، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي هريرة بمعناه، وقال: فيأتيهم الله عزَّ وجلَّ في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه(٥).

---

(١) احترقوا.

(٢) «الحِبّة» هي بزر البقول والعشب تنبت في البراري وجوانب السيول، وجمعها «حِب» و«حميل السيل»: ما جاء به السيل من الطين أو غثاء.

(٣) «قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها» معناها: سمَّني وآذاني وأهلكني لهبها وشدة وهجها.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة . . .﴾: (١٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية برقم ١٨٢: (١/ ١٦٣ ـ ١٦٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٧٣).

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الصراط جسر جهنم: (١١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا محمد بن حماد، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعَذَّبُ أُناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حُمَمًا، ثم تدركهم الرحمة، قال: فيُخرون فيُطرحون على أبواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما تنبتُ الغثاء في حِمَالةِ السيل، ثم يدخلون الجنة»(١).

أخبرنا أبو محمد بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا هناد بن السَّري، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَبِيْدَة السلماني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، رجل يخرج منها زحفًا فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب ليدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيرجع فيقول: يا رب، قد أخذ الناس المنازل، فيقال: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تمنَّ، فيتمنى، فيقال له: فإن لك الذي تمنيته وعشرة أضعاف الدنيا، قال: فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»(٢).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا محمد بن حماد، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النارَ إن شاء الله أحدٌ شهد بدرًا والحديبية»، قال: قلت: يا رسول الله، الله أليس قد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟ قال: «أفلم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء أن للنار نَفَسَيْنِ وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد: (٧/ ٤٣٢٤ ـ ٤٣٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والإمام أحمد: (٣/ ٧٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٢) رواية الترمذي هذه، أخرجها في صفة جهنم، باب ما جاء أن للنار نَفَسين: (٧/ ٢٢١ ـ ٢٢٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والحديث أخرجه أيضًا: البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار: (١١/ ٤١٨ ـ ٤١٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب ذكر البعث: (٢/ ١٤٣١)، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٢٨٥)، وهنّاد في الزهد: (١/ ٣٢٨)، وابن جرير في «التفسير»: (١٦/ ١١٢)، وابن أبي عاصم في «السنة»: (٢/ ٤١٤)، وأخرجه من طريق أخرى الإمام مسلم في فضائل الصحابة بنحوه برقم ٢٤٩٦: (٤/ ١٩٤٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٤٢٠)، وأخرجها المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ١٩٣).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: النضر بن الحارث وذويه من قريش ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يعني: فقراء[1] أصحاب النبي ﷺ، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خشونة، وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعورهم، ويدهنون رؤوسهم ويلبسون حرير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلًا ومسكنًا، (وهو موضع الإقامة.

وقرأ ابن كثير «مُقامًا» بضم الميم، أي: إقامة)[2].

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ أي: مجلسًا، ومثله: النادي، فأجابهم الله تعالى فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ أي: متاعًا وأموالًا، وقال مقاتل: لباساً وثيابًا ﴿وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ قرأ أكثر القراء بالهمز، أي: منظرًا، من «الرؤية»، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ونافع غير ورش: «ورِيًّا» مشددًا بغير همز، وله تفسيران: أحدهما هو الأول، بطرح الهمز، والثاني: من الرِّي، الذي هو ضد العطش، ومعناه: الارتواء من النعمة، فإن المتنعم يظهر فيه ارتواء النعمة، والفقير يظهر عليه ذبول الفقر.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ هذا أمر بمعنى الخبر، معناه: يدعه في طغيانه ويمهله في كفره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ وهو الأسر والقتل في الدنيا ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني: القيامة، فيدخلون النار ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلًا ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ أقل ناصرًا، أهم أم المؤمنون؟ لأنهم في النار، والمؤمنون في الجنة وهذا ردٌّ عليهم في قوله: «أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

١/١٠ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ أي: إيمانًا وإيقانًا على يقينهم / ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ عاقبة ومرجعًا.

---

(١) في «أ»: (فقرا من).
(٢) ساقط من «أ».

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عمرو بن حفص، أخبرنا أبي، أخبرنا الأعمش بن مسلم، عن مسروق، حدثنا خباب قال: كنت قَيْنًا فعملت للعاص بن وائل، فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموتَ ثم تُبْعَثَ فَلَا، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لي ثَمَّ مال وولد فأقضيك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس: أنظرَ في اللوح المحفوظ؟ وقال مجاهد: أَعَلِمَ علم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ يعني قال: لا إله إلَّا الله، وقال قتادة: يعني: عملًا صالحًا قدَّمه، وقال الكلبي: أَعُهِدَ إليه أن يدخل الجنة؟

﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه، يعني: لم يفعل ذلك ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾ (فنجازيه به في الآخرة، وقيل: نأمر به الملائكة حتى يكتبوا ما يقول)[(٢)] ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ أي: نزيده عذابًا فوق العذاب، وقيل: نطيل مدة عذابه.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيَّاه وإبطال ملكه وقوله ما يقول؛ لأنه زعم أنَّ له مالًا وولدًا (في الآخرة)[(٢)]، أي: لا نعطيه ونعطي غيره فيكون الإرث راجعًا إلى ما تحت القول لا إلى نفس القول، وقيل: معنى قوله: «وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ»، أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به.

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ يوم القيامة، بلا مال ولا ولد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يعني: مشركي قريش، اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ أي: منعة، حتى يكونوا لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة مريم، باب ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾: (٨/ ٤٣٠ ـ ٤٣١)، وانظر: «أسباب النزول»: ص٣٤٩.

(٢) ساقط من «أ».

كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾

﴿ كَلَّاۚ ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ ﴾ أي: تجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادةَ المشركين ويتبرءون منهم، كما أخبر الله تعالى: «تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ»[القصص: ٦٣].

﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ أي: أعداءً لهم، وكانوا أولياءهم في الدنيا.

وقيل: أعوانًا عليهم، يكذبونهم ويلعنونهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي: سلَّطناهم عليهم، وذلك حين قال لإبليس: « وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ»[الإسراء: ٦٤] ﴿ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ ﴾ تزعجهم إزعاجًا من الطاعة إلى المعصية، و«الأزُّ» و«الهزُّ»: التحريك، أي: تحركهم وتحثهم على المعاصي.

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي: لا تعجل بطلب عقوبتهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾ ﴾ قال الكلبي: يعني: الليالي والأيام والشهور الأعوام.

وقيل: الأنفاس التي يتنفسون بها في الدنيا إلى الأجل الذي أجل لعذابهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: اذكر لهم يا محمد، اليوم الذي يجمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى الرحمن، إلى جنته وفدًا، أي: جماعات، جمع «وافد»، مثل: راكب وركب، وصاحب وصحب.

وقال ابن عباس: ركبانًا، وقال أبو هريرة: على الإبل.

وقال علي بن أبي طالب: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوقٍ، رحالها الذهب، ونجائبَ سرجها يواقيت، إن همُّوا بها سارت، وإن همُّوا بها طارت(١).

﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: مشاة، وقيل: عطاشًا، قد تقطعت أعناقهم من العطش، و«الوِرْدُ»: جماعة يردون الماء، ولا يرد أحدٌ الماءَ إلَّا بعد عطش.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٠٨: (رواه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في «زيادات المسند»، والطبري وابن أبي حاتم من رواية عبد الرحمن بن إسحاق بن النعمان بن سعد بن علي، نحوه. وأخرجه ابن أبي داود في «كتاب البعث» من هذا الوجه مرفوعًا. ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا أيضًا).
وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، ففيه جملة روايات في ذلك.

لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾
لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ
هَدًّا ﴿٩٠﴾

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ يعني: لا إله إلَّا الله.

وقيل: معناه لا يشفع الشافعون إلَّا لمن اتخذ عند الرحمن عهدًا، يعني: المؤمنين، كقوله: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ»[الأنبياء: ٢٨].

وقيل: لا يشفع إلَّا من شهد أن لا إله إلَّا الله، أي: لا يشفع إلَّا المؤمن(١).

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ يعني: اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله.

وقرأ حمزة والكسائي «وُلْدًا» بضم الواو وسكون اللام، هاهنا وفي الزخرف وسورة نوح، ووافق ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح، والباقون بفتح الواو واللام، وهما لغتان مثل: العَرَب والعُرْب، والعَجَم والعُجْم.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس: منكرًا، وقال قتادة ومجاهد: عظيمًا، وقال مقاتل: لقد قلتم قولًا عظيمًا، و«الإدّ» في كلام العرب: أعظم الدواهي(٢).

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قرأ نافع «يكاد» بالياء هاهنا وفي «حمٓ عٓسٓقٓ» لتقدم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السموات ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ هاهنا وفي «حمٓ عٓسٓقٓ» بالنون من الانفطار، أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وافق ابن عامر وحمزة هاهنا لقوله تعالى: «إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ»[الانفطار: ١]، و«ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ»[المزمل: ١٨]، وقرأ الباقون بالتاء من التفطر، ومعناهما واحد، يقال: انفطر الشيء وتفطر، أي: تشقق.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ أي: تنكسر كسرًا.

---

(١) وهذه الأوجه كلها حقٌّ، وكل واحد منها يشهد له آيات كريمة وأحاديث شريفة، فالمجرمون لا يملكون الشفاعة، أي: لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب، وبالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم؛ لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم غيرهم لكفرهم فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى.

وكذلك: لا يملك الشفاعة إلَّا المؤمنون الذين اتخذوا عند الله عهدًا بشهادة التوحيد وبالعمل الصالح ـ وما في معنى هذا ـ فإنهم يشفع بعضهم في بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ وقد بين في مواضع أخر أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعة، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. انظر: «أضواء البيان»: (٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥)، وراجع: ابن كثير: (٣/ ١٣٩)، القرطبي: (١١/ ١٥٤).

(٢) والعرب تقول لكل أمر عظيم: «إدّ» و«إمر»، وفي «الإدّ» ثلاث لغات: «إد» بكسر الألف، و«أد» بفتح الألف، و«آد» بفتح الألف ومدها. انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٢٩).

أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾

وقيل: «وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ»، أي: تنخسف بهم، و«الانفطار» في السماء: أن تسقط عليهم، «وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا» أي: تنطبق عليهم.

﴿أَن دَعَوۡاْ﴾ أي: من أجل أن جعلوا ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾ قال ابن عباس وكعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلَّا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولدًا[1].

ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال:

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: إلَّا آتيه يوم القيامة ﴿عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ ذليلًا خاضعًا، يعني: أن الخلق كلهم عبيده.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾﴾ أي: عدَّ أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، فلا يخفى عليه شيء.

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ وحيدًا ليس معه من الدنيا شيء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ أي: محبة، قال مجاهد: يحبهم الله، ويحبِّبُهم إلى عباده المؤمنين.

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداوودي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن سهيل ابن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل: قد أحببتُ فلانًا فأحبَّهُ، فيحبه جبرائيل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله عزَّ وجلَّ قد أحب فلانًا فأَحِبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يُوْضَعُ له القَبُول في الأرض، وإذا أبغض العبد»، قال مالك: لا أحسبه إلَّا قال في البغض مثل ذلك[2].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٣٠)، فقد روى أثرًا مطولًا عن ابن عباس وآخر عن كعب، وقد جمع بينهما المصنف هنا باختصار.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الشعر، باب المتحابِّين في الله: (٢/ ٩٥٣)، والبخاري في الأدب، باب المِقَةُ (المحبة) من الله: (١٠/ ٤٦١)، ومسلم في البر والصلة والأدب، باب إذا أحب الله عبدًا حبَّبه إلى عباده برقم٢٦٣٧: (٤/ ٢٠٣٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٥٥). وانظر: «فتح الباري»: (١٠/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

قال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عزَّ وجلَّ إلَّا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سهَّلنا القرآن بلسانك يا محمد ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ شدادًا في الخصومة، جمع «الألدّ».

وقال الحسن: صمًّا عن الحق[٢].

١٠/ب قال مجاهد: / «الألدُّ»: الظالم الذي لا يستقيم[٣].

قال أبو عبيدة: «الألدُّ» الذي لا يقبل الحق، ويدَّعي الباطل.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ﴾ هل ترى، وقيل: هل تجد ﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ أي: صوتًا، و«الرِّكز»: الصوت الخفي[٤]، قال الحسن: بادوا جميعًا، فلم يبق منهم عين ولا أثر[٥].

* * *

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٣٣).

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/ ١٣٤).

(٣) الطبري: (١٦/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٤) كما قال الشاعر لبيد بن ربيعة العامري:

فتوجَّسَتْ رِكْزَ الأنيسِ فَراعَها ... عن ظَهْرِ غَيْبٍ، والأنيسُ سَقَامُها

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٣٥).

(٥) أخرجه عبد بن حميد بنحوه. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٤٧).

سورة طه

مكية(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي(٢)، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرَّيَّاني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا ابن أبي أويس، حدثني أبي، عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأُعطيتُ طهَ والطواسين من ألواح موسى، وأُعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش، وأُعطيت المُفَصَّل نافلةً»(٣).

﴿طه ①﴾ قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء، ويكسرهما حمزة والكسائي وأبو بكر، والباقون بفتحهما.

قيل: هو قَسَمٌ(٤)، وقيل: اسم من أسماء الله تعالى(٥).

وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك: معناه: يا رجل.

وقال قتادة: هو «يا رجل» بالسريانية.

وقال الكلبي: هو «يا إنسان» بلغة عك(٦).

---

(١) مكية كلها في قول الجميع، فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة طه بمكة. وأخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٤٨)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٦٨)، «تفسير القرطبي»: (١١/ ١٦٣).

(٢) جاء هذا الحديث في نسخة «ب» عقب الآية الأولى.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٥٤٨) لابن مردويه، وفيه أبو بكر الهذلي، قال عنه ابن حجر: (إخباري متروك الحديث). وأخرجه مطولاً عن معقل بن يسار: البيهقي في «السنن»: (١٠/ ٩)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٥٦١، ٥٦٨)، و(٢/ ٢٥٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»: ص٣٢٢، وفيه عبيد الله بن أبي حميد وهو متروك. وانظر: «فيض القدير» للمناوي: (١/ ٥٦٤).

(٤) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٠٥، ٢٧٠).

(٥) الطبري: (١٦/ ١٣٦)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٢٤)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٧٠).

(٦) انظر: الطبري: (١٦/ ١٣٥ - ١٣٦)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٧٠)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٢٤).
وهذا القول رجحه الطبري؛ لأنها كلمة معروفة في قبيلة عك، وأن معناها فيهم، يا رجل. وأنشدت لمتمم بن نُوَيرة:

هَتَفْتُ بطَـهَ في القتـال فلـم يُجِـبْ ... فَخِفْـتُ عليـه أن يكـون مُـوَائِـلا

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾

وقال مقاتل بن حيان: معناه: طَإِ الأرضَ بقدميك، يريد: في التهجد[١].

قال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله عزَّ وجلَّ بِطَوْله وهدايته[٢].

قال سعيد بن جبير: الطاء افتتاح اسمه الطاهر، والهاء افتتاح اسمه هادٍ[٣].

وقال الكلبي: لما نزل على رسول الله ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه، وكان يصلي الليل كلَّه، فأنزل الله هذه الآية[٤]، وأمره أن يخفف على نفسه فقال: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾.

وقيل: لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا: ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلَّا لشقائك، فنزلت: «مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ»[٥]، أي: لتعنى وتتعب، وأصل الشقاء في اللغة العناء.

﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ (أي: لكن أنزلناه عظة لمن يخشى، وقيل: تقديره: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ما أنزلناه إلَّا تذكرة لمن يخشى)[٦].

---

(١) نقله عنه أيضًا: ابن الجوزي في «زاد المسير»: (٥/ ٢٧٠).
وروى عبد بن حميد في «تفسيره»، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رِجْل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى: «طه»، يعني: طإِ الأرض بقدميك يا محمد.
وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن علي: لما نزل «يا أيها المزمل» قام الليل كله حتى ورمت قدماه، فجعل يرفع رجلًا ويضع الأخرى فهبط عليه جبريل فقال: طه طإِ الأرض بقدميك يا محمد.
وأخرجه البزار من وجه آخر عن علي رضي الله عنه.
وأخرجه البيهقي في «الشُّعَب» من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما.
انظر: «الكافي الشاف» لابن حجر: ص١٠٨، ابن كثير: (٣/ ١٤٢).

(٢) وهذا القول قريب المعنى من قول ابن عباس الذي رواه علي بن أبي طلحة. انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٧٠).

(٣) وأخرج البزار عن علي نحوه: قال الهيثمي (٧/ ٥٦): (وفيه يزيد بن بلال، وقال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو: وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح).

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، وقارن بـ «أضواء البيان»: (٤/ ٤٠٠)، فقد ضعف هذا القول، وتقدم أن الطبري رجح أن المراد بها: يا رجل، ولم يعهد هذا النداء في الكتاب الكريم؛ ولذلك رجح أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٤): (أن «طه» من الحروف المقطعة نحو «يس» و«الر» وما أشبهها).
وقال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٣٩٩): (وأظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة جاءتا في مواضع أُخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة، أما الطاء ففي فاتحة الشعراء «طسم» وفاتحة النمل «طسٓ» وفاتحة القصص، وأما الهاء ففي فاتحة مريم في قوله تعالى: «كهيعص» . . . وخير ما يفسر به القرآن القرآن».

(٥) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٣٧)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٥١، القرطبي: (١١/ ١٦٧).

(٦) ساقط من «ب».

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾

﴿تَنزِيلًا﴾ بدل من قوله: «تذكرة» ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: من الله الذي خلق الأرض ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ يعني: العالية الرفيعة، وهي جمع «العليا»، كقوله: كبرى وكُبَر، وصغرى وصُغَر.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: الهواء ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ والثرى هو: التراب الندي، قال الضحاك: يعني: ما وراء الثرى من شيء.

وقال ابن عباس: إن الأرضين على ظهر النون، والنون على بحر، ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء، خضرةُ السماءِ منها، وهي الصخرة التي ذكر الله في قصة لقمان: «فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ»[لقمان: ١٦]، والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما تحت الثرى لا يعلمه إلّا الله عزَّ وجلَّ، وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله عزَّ وجلَّ البحار بحرًا واحدًا سالت في جوف ذلك الثور، فإذا وقعت في جوفه يبست[(١)].

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ (أي: تعلن به)[(٢)] ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ قال الحسن: «السِّرُّ»: ما أسرَّ الرجل إلى غيره، «وأخفى» من ذلك: ما أسرَّ في نفسه.

وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: «السِّرُّ» ما تُسِرُّ في نفسك، «وأخفى» من السر: ما يلقيه الله عزَّ وجلَّ في قلبك من بُعْدٍ، ولا تعلم أنك ستحدِّث به نفسك؛ لأنك تعلم ما تسرُّ به اليوم ولا تعلم ما تسرُّ به غدًا، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرُّ به غدًا.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «السِّرُّ»: ما أسرَّ ابن آدم في نفسه، «وأخفى»: ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعلمه.

وقال مجاهد: «السِّرُّ»: العمل الذي تسرون من الناس، «وأخفى»: الوسوسة.

---

(١) ذكر هذه الرواية القرطبي: (١١/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، وهذه الرواية من الإسرائيليات التي لا يعوَّل عليها في تفسير كتاب الله تعالى، ولو صحت نسبتها لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؛ لأن صحة نسبتها إليه لا تعني صحتها في واقع الأمر؛ لأنها متلقاة من الإسرائيليات.
وانظر ما كتبه الحافظ ابن كثير في «التفسير»: (٤/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

(٢) ساقط من «أ».

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾

وقيل: «السِّرُّ»: هو العزيمة، («وأخفى»: ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه.

وقال زيد بن أسلم: «يعلم السر»)[1] وأخفى»، أي: يعلم أسرار العباد، وأخفى سرَّه من عباده، فلا يعلمه أحد[2].

ثم وحَّدَ نفسه، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩﴾ أي: قد أتاك، استفهام بمعنى التقرير.

﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ وذلك أن موسى استأذن شعيبًا في الرجوع من مدين إلى مصر؛ لزيارة والدته وأُخته، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكان أيام الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافةَ ملوكِ الشام، وامرأته في سقمها، لا تدري أليلًا أم نهارًا، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطَّلْقُ، فقدح زنده فلم يُوره.

وقيل: إن موسى كان رجلًا غيورًا، فكان يصحب الرفقة بالليل ويفارقهم بالنهار، لئلا ترى امرأته، فأخطأ مرةً الطريق في ليلة مظلمةٍ شاتية، لما أراد الله عزَّ وجلَّ من كرامته، فجعل يقدح الزند فلا يوري، فأبصر نارًا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾[3]: أقيموا، قرأ حمزة بضم الهاء هاهنا[4] وفي «القصص» ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أي: أبصرت ﴿نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ شعلة من نار، والقبس: قطعة من النار تأخذها في طرف عمود من معظم النار ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ أي: أجد عند النار من يدلني على الطريق.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٦/ ١٣٩ ـ ١٤١)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٧١).

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: معناه يعلم السر وأخفى من السر؛ لأن ذلك هو الظاهر من الكلام، ولو كان معنى ذلك ما تأوله ابن زيد لكان الكلام: وأخفى الله سرَّه؛ لأن أخفى فعل واقع متعدٍ، إذ كان بمعنى «فعل» ـ على ما تأوله ابن زيد ـ، وفي انفراد «أخفى» من مفعوله ـ والذي يعمل فيه لو كان بمعنى فعل ـ الدليل الواضح على أنه بمعنى «أفعل»، وأن تأويل الكلام: فإنه يعلم السرَّ وأخفى منه، فإذا كان ذلك تأويله فالصواب من القول في معنى أخفى من السر، أن يقال: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد ولم يعلموه، مما هو كائن ولما يكن؛ لأن ما ظهر وكان فغير سرٍّ، وأن ما لم يكن وهو غير كائن، فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن: فهو أخفى من السر؛ لأن ذلك لا يعلمه إلَّا الله ثم من أعلمه ذلك من عباده.

(٣) انظر: الطبري: (١٦/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، القرطبي: (١١/ ١٧١)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٣٠).

(٤) أي: هاء الضمير في قوله: «أهلهُ».

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ رأى شجرة خضراء من أسفلها (إلى أعلاها، أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، فلا ضوء النار يغيّر)[١] خضرة الشجرة، ولا خضرة الشجرة تغيِّر ضوء النار.

قال ابن مسعود: كانت الشجرة سَمُرَة خضراء، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: كانت من العوسج، وقال وهب: كانت من العليق، وقيل: كانت شجرة العناب، رُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

قال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه موسى نارًا، بل كان نورًا، ذكر بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارًا.

وقال أكثر المفسرين: إنه نور الرب عزَّ وجلَّ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما.

وقال سعيد بن جبير: هي النار بعينها، وهي إحدى حجب الله تعالى، يدلُّ عليه: ما روينا عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «حجابُهُ النار لو كشفَها لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِهِ»[٣].

وفي القصة أن موسى أخذ شيئًا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة، وكان كلما دنَا نأَتْ منه النار، وإذا نأى دنتْ، فوقف متحيرًا، وسمع تسبيح الملائكة، وأُلْقِيَتْ عليه السكينة[٤].

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو «أني» بفتح الألف، على معنى: نودي بأني، وقرأ الآخرون بكسر الألف، أي: نودي، فقيل: إني أنا ربُّك.

قال وهب: نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى، فأجاب سريعًا ما يدري مَنْ دعاه، فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ / قال: أنا فوقك ومعك، وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من ١١/أ
نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلَّا لله، فأيقن به[٥].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وكان السبب فيه ما رُوي عن ابن مسعود مرفوعًا في قوله: «﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾»، قال: كانتا من جلد حمار ميت، ويروى غير مدبوغ[٦].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر: الطبري: (١٦/ ١٤٣)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٣٠)، القرطبي: (١١/ ١٧١).
وهذه الأقوال في الشجرة مما لم يرد نص عن النبي ﷺ في تعيينها، وقد أعرض الحافظ ابن كثير عنها فلم يذكر شيئًا منها في تفسير الآية.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله لا ينام...» برقم ١٧٩: (١/ ١٦١ـ١٦٢).

(٤) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٢٣٠).

(٥) عزاه السيوطي: (٥/ ٥٥٤ـ٥٥٥) للإمام أحمد في الزهد، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الصوف: (٥/ ٤١٠)، وقال: (هذا حديث غريب، لا نعرفه إلَّا من حديث حميد الأعرج، وحميد هو ابن علي الأعرج منكر الحديث). =

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾

وقال عكرمة ومجاهد: أمر بخلع النعلين ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدسة، فيناله بركتها؛ لأنها قُدِّست مرتين، فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي[1].

﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهر ﴿طُوًى ﴿١٢﴾﴾ وطوى اسم الوادي، وقرأ أهل الكوفة والشام: «طوًى» بالتنوين هاهنا وفي سورة «النازعات»، وقرأ الآخرون بلا تنوين؛ لأنه معدول عن «طاوٍ»، فلما كان معدولًا عن وجهه كان مصروفًا عن إعرابه، مثل: عُمَرَ وزُفَرَ، وقال الضحاك: «طوىٰ» وادٍ مستدير عميق مثل الطوي في استدارته.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك برسالاتي، قرأ حمزة «وأنّا» مشددة النون، «اخترناك» على التعظيم ﴿لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ إليك:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ قال مجاهد: أقم الصلاة لتذكرني فيها، وقال مجاهد: إذا تركت الصلاة ثم ذكرتها فأقمها.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو عمرو بكر بن محمد المزني، أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله الحفيد، أخبرنا الحسين بن الفضل البجلي، أخبرنا عفان، أخبرنا قتادة، عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «من نسي صلاةً فَلْيصلِّها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلَّا ذلك»[2]، ثم قال: سمعته يقول بعد ذلك: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي».

= ورواه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٧٩)، وصححه على شرط البخاري، فتعقبه الذهبي بقوله: (بل ليس على شرط البخاري، وإنما غرّه أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ، إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي أو ابن عمار، أحد المتروكين، فظنه المكيَّ الصادق).

(١) قال الطبري مرجحًا: (وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: أمر الله ـ تعالى ذكره ـ بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان واديًا مقدسًا، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب؛ لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار، ولا لنجاستهما، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن في قوله: «إنك بالوادي المقدس» بعقبه دليلًا واضحًا على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا).

انظر: الطبري: (١٦/ ١٤٤)، وانظر المعنى نفسه عند أبي حيان: (١٦/ ٢٣١).

ونقل الحافظ ابن كثير: (٣/ ١٤٤) عن سعيد بن جبير أنه عليه السلام أمر بخلع نعليه كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة.

وأبدى الشيخ الشنقيطي (٤/ ٢٩٢) حكمة أخرى فقال: (وأظهر الأقوال ـ والله تعالى أعلم ـ أن الله أمره بخلع نعليه من قدميه ليعلّمه التواضع لربه حين ناداه، فإن نداء الله لعبده أمر عظيم يستوجب من العبد كمال التواضع والخشوع، والله تعالى أعلم).

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر . . . : (٢/ ٧٠)، ومسلم في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها برقم ٦٨٤: (١/ ٤٧٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٤١).

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قيل: معناه: إن الساعة آتية أخفيها، و«أَكَادُ» صلة، وأكثر المفسرين قالوا: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، وكذلك في مصحف أُبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها مخلوق.

وفي بعض القراءات: فكيف أظهرها لكم، وذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون: كتمت سرَّك من نفسي، أي: أخفيته غايةَ الإخفاء، والله عزَّ اسمه لا يخفى عليه شيء.

وقال الأخفش: أكاد، أي: أريد، ومعنى الآية: أن الساعة آتية أريد أخفيها.

والمعنى في إخفائها التهويلُ؛ لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذرٍ منها كلَّ وقت.

وقرأ الحسن بفتح الألف، أي: أظهرها، يقال: خفيت الشيء: إذا أظهرته، وأخفيته: إذا سترته.

قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: بما تعمل من خير وشر.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ مراده، خالف أمر الله ﴿فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: فتهلك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قَلَبها حيةً علم أنه معجزة عظيمة، وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد: أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه.

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ قيل: وكانت لها شعبتان، وفي أسفلها سنان، ولها محجن، قال مقاتل: اسمها نبعة.

﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها: إذا مشيت، وإذا أعييت، وعند الوثبة ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم.

وقرأ عكرمة «وأهس» بالسين غير المعجمة، أي: أزجرُ بها الغنم، و«الهَسُّ»: زجر الغنم.

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ حاجات ومنافع أخرى، جمع «مأربة» بفتح الراء وضمها، ، ولم يقل: «أُخَر» لرؤوس الآي، وأراد بالمآرب: ما يستعمل فيه العصا في السفر، وكان يحمل بها الزاد ويشدُّ بها الحبل[1] فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السِّباع، ويستظلُّ بها إذا قعد، وغير ذلك.

---

(١) في «ب»: (الدلو).

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾

وروي عن ابن عباس: أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تماشيه وتحدِّثه، وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومَهُ، ويركزها فيخرج الماء، فإذا رفعها ذهب الماء، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصنت غصن الشجرة وأورقت وأثمرت، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقي، وكانت تضيء بالليل بمنزلة السراج، وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه[1].

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩﴾ انبذها، قال وهب: ظن موسى أنه يقول ارفضها.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ على وجه الرفض[2]، ثم حانت منه نظرة ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ صفراء من أعظم ما يكون من الحيَّات ﴿تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ تمشي بسرعة على بطنها، وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[النمل: ١٠]، وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم، وقال في موضع: «ثعبان»، وهو أكبر ما يكون من الحيَّات.

فأما الحية: فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى، وقيل: «الجانّ»: عبارة عن ابتداء حالها، فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانًا، و«الثعبان»: عبارة عن انتهاء حالها.

وقيل: إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان.

قال محمد بن إسحاق: نظر موسى فإذا العصَا حيّة من أعظم ما يكون من الحيات صارت شعبتاها شدقين لها، والمحجنُ عنقًا وعرفًا، تهتزُّ كالنيازك، وعيناها تتقدان كالنَّار تمرّ بالصخرة العظيمة مثل الخَلِفَةِ من الإبل، فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها، ويسمع لأسنانها صريف عظيم، فلما عاين ذلك موسى ولَّى مُدْبِرًا وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نُودي: أنْ يا موسى أقْبِل وارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف[1].

﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ هيئتها الأولى، أي: نَرُدُّها عصًا كما كانت، وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلَّها بعِيْدَانٍ، فلما قال الله تعالى: ﴿خُذْهَا﴾، لَفَّ طرف المدرعة على يده، فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشف.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير (٣/ ١٤٦): (وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأقوال الخارقة للعادة. والظاهر: أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانًا، فما كان يفرُّ منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية).

(٢) في «ب»: (الأرض).

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾

وذكر بعضهم: أنَّه لمَّا لفَّ كم المدرعة على يده قال له مَلَكٌ: أرأيت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئًا؟ قال: لا، ولكن ضعيف، ومن ضعفٍ خُلِقْتُ، فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت، ويده في شعبتها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكا[1].

١١/ب قال المفسرون: أراد الله عزَّ وجلَّ أن يُري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا / يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

وقوله: ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ نصب بحذف «إلى»، يريد: إلى سيرتها الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إبطك، قال مجاهد: تحت عضدك، وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ نيرة مشرقة ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عيب، والسوء هاهنا بمعنى البرَص، قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: دلالة أخرى على صدقك سوى العصا.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ ولم يقل الكُبَر لرؤوس الآية، وقيل: فيه إضمار، معناه: لنريك من آياتنا الكبرى، دليله قوله ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: جاوز الحدّ في العصيان والتمرد، فادعه إلى عبادتي.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ وسِّعْه للحق، قال ابن عباس: يريد: حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفًا شديدًا لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدرًا بما كُلِّف من مقاومة فرعون وحده، فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحدًا لا يقدر على مضرَّته إلَّا بإذن الله، وإذا علم ذلك لم يَخَفْ فرعونَ وشدَّةَ شوكته وكثرة جنوده.

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ أي: سهِّلْ عليَّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره، فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: إن هذا عدوي وأراد أن يقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل ولا يميِّز. وفي رواية أن أمَّ موسى لما فطمته رَدَّتْهُ، فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته آسية يربيانه،

---

(١) انظر: التعليق السابق.

يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ
أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ
سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

واتخذاه ولدًا، فبينما هو يلعب يومًا بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون، فغضب فرعون وتطيَّرَ بضربه، حتى همَّ بقتله، فقالت آسية: أيها الملك، إنه صغير لا يعقل فَجَرِّبْه إن شئت، وجاءت بطستين: في أحدهما الجمر، وفي الآخر الجواهر، فوضعتهما بين يدي موسى فأراد أن يأخذ الجوهر، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها في فمه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة[1].

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ يقول: احْلُلِ العقدة كي يفقهوا كلامي.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ مُعِينًا وظهيرًا ﴿مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾ والوزير: من يوازرك ويعينك ويتحمل عنك بعض ثقل عملك، ثم بيَّن من هو فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين، وكان أفصح منه لسانًا وأجمل وأوسم وأبيض اللون، وكان موسى آدم أقنى جعدًا.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ قوِّ به ظهري.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أي: في النبوة وتبليغ الرسالة، وقرأ ابن عامر «أَشدد» بفتح الألف، و«أُشركه» بضمها على الجواب، حكايةً عن موسى، أي: أفعل ذلك، وقرأ الآخرون على الدعاء والمسألة عطفًا على ما تقدم من قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾.

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ قال الكلبي: نصلي لك كثيرًا.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ خبيرًا عليمًا.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ أعطيتَ ﴿سُؤْلَكَ﴾ جميع ما سألته ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) جزء من حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفًا عليه، رواه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧)، وعزاه الهيثمي لأبي يعلى، وقال: (رجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان).
وقال ابن كثير: (رواه النسائي في «السنن الكبرى»، وأخرجه أبو جعفر ابن جرير وابن أبي حاتم في «تفسيريهما»، كلهم من حديث يزيد بن هارون، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلَّا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضًا).
انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٦٦)، و«تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٥٤)، و«تفسير النسائي»: (١/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧).

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ
فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى
وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ
أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ
أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ يعني: قبل هذه المرة، وهي:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وحي إلهام ﴿مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ ما يلهم، ثم فسر ذلك الإلهام وعدَّد نعمه عليه:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: ألهمناها أنِ اجعليه في التابوت ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يعني: نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ يعني: شاطيء النهر، لفظه أمرٌ ومعناه خبر، مجازه: حتى يلقيه اليم بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني: فرعون، فاتخذت تابوتًا وجعلت فيه قطنًا محلوجًا ووضعت فيه موسى، وقيَّرت رأسه وخصاصه ـ يعني: شقوقه ـ ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذا بتابوت يجيء به الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهًا، فلما رآه فرعون أحبَّه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال ابن عباس: أحبه وحبَّبه إلى خلقه، قال عكرمة: ما رآه أحد إلَّا أحبه، قال قتادة: ملاحة كانت في عيني موسى، ما رآه أحد إلَّا عشقه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ يعني: لتُربَّى بمرأى ومنظرٍ مني، قرأ أبو جعفر «ولتصنع» بالجزم.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ واسمها: مريم، متعرفةً خبره ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؟ أي: على امرأة ترضعه وتضمُّه إليها؛ وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فلما قالت ذلك لهم أخته، قالوا: نعم، فجاءت بالأم فقَبِلَ ثديها، فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: لأن يذهب عنها الحزن.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان قتل قبطيًا كافرًا، قال كعب الأحبار: كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: من غم القتل وكربه ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اختبرناك اختبارًا، وقال الضحاك ومقاتل: ابتليناك ابتلاءً، وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصًا.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾

وعن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير: أنَّ الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلَّصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلَّا من ثدي أمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى همَّ بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي، وخروجه إلى مدين خائفًا، فكان ابن عباس يقص القصة على سعيد بن جبير، فعلى هذا معنى «وَفَتَنَّٰكَ»: خلصناك من تلك المحن، كما يفتن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث فيه(١)، و«الفتون» مصدر.

﴿فَلَبِثۡتَ﴾ فمكثت، أي: فخرجت من مصر فلبثت ﴿سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ يعني: ترعى الأغنام عشر سنين، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثماني مراحل من مصر، هرب إليها موسى.

وقال وهب: لبث عند شعيب عليه السلام ثمانيًا وعشرين سنة، عشر سنين منها مهر ابنته «صفيرا» بنت شعيب، وثماني عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له.

﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ قال مقاتل: على موعد، ولم يكن هذا الموعد مع موسى، وإنما كان موعدًا في تقدير الله، قال محمد بن كعب: جئت على القدر الذي قدرت أنك تجيء.

وقال عبد الرحمن بن كيسان: على رأس أربعين سنة، وهو القدر الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، وهذا معنى قول أكثر المفسرين، أي: على الموعد الذي وعده الله وقدره أنه يوحى إليه بالرسالة، وهو أربعون سنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ أي: اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي، يعني:
لتنصرف على إرادتي / ومحبتي؛ وذلك أن قيامه بأداء الرسالة (تصرف على)(٢) إرادة الله ومحبته. ١/١٢

قال الزجاج: اخترتك لأمري، وجعلتك القائم بحجتي، والمخاطب بيني وبين خلقي، كأني الذي أقمت(٣) بك عليهم الحجة وخاطبتهم.

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ بدلائلي، وقال ابن عباس: يعني الآيات التسع التي بعث بها موسى ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تضعفا، وقال السدي: لا تفتُرا، وقال محمد بن كعب: لا تقصرا ﴿فِي ذِكۡرِي ۝٤٢﴾.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ قرأ أبو عمرو وأهل الحجاز: «النفسيَ اذهب»، «وذكريَ اذهبا»، و«إن قوميَ اتخذوا»[الفرقان: ٣٠]، «من بعديَ اسمه»[الصف: ٦] بفتح الياء فيهن، ووافقهم أبو بكر: «من بعديَ اسمه»، وقرأ الباقون بإسكانها.

---

(١) انظر: التعليق السابق. (٢) في «ب»: (تصرفه إلى). (٣) في «ب»: (احتججت).

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ يقول: دارياه وارفقا معه، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا تعنفا في قولكما.

وقال السدي وعكرمة: كنّياه فقولا: يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد.

وقال مقاتل: يعني القول اللين: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[النازعات: ١٨ ـ ١٩].

وقيل: أمر باللطافة في القول لما له من حق التربية.

وقال السدي: القول الليّـن: أن موسى أتاه ووعده على قبول الإيمان شبابًا لا يهرم، وملكًا لا ينزع منه إلّا بالموت، وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وإذا مات دخل الجنة، فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمرًا دون هامان، وكان غائبًا فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى، وقال أردت أن أقبل منه، فقال له هامان: كنت أرى أن لك عقلًا ورأيًا، أنت ربٌّ، تريد أن تكون مربوبًا؟ وأنت تُعْبَدُ، تريد أن تَعْبُدَ؟ فقلبه عن رأيه[1].

وكان هارون يومئذٍ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي بهارون وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلةٍ، وأخبره بما أوحي إليه[2].

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ أي: يتعظ ويخاف فيسلم.

فإن قيل: كيف قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾، وقد سبق عِلْمُه أنه لا يتذكر ولا يسلم؟

قيل: معناه: اذهبا على رجاءٍ منكما وطمع، وقضاءُ الله وراء أمركما.

وقال الحسين بن الفضل: هو ينصرف إلى غير فرعون، مجازه: لعله يتذكر متذكِّرٌ، ويخشى خاشٍ إذا رأى بِرِّي وألطافي بِمَنْ خلقتُه وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية.

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق: «لعلَّ» من الله واجب[3]، ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية، وذلك حين ألجمه الغرق، قال: آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين.

---

(١) انظر في هذه الأقوال ونسبتها: الطبري: (١٦/ ١٦٩)، «الدر المنثور»: (٥/ ٥٨٠)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨).
وأقرب هذه الأقوال في تفسير القول اللين: أن الله تعالى أمرهما أن يقولا كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يغضب وينفِّر. وقد بيَّن الله جل وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، وهذا غاية لين الكلام ولطافته ورقته، وهو قول مقاتل كما تقدم.
انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٥٤)، «أضواء البيان»: (٥/ ٤١٣).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٢٨٩).

(٣) «تفسير القرطبي»: (١١/ ٢٠١). وانظر: «الإتقان» للسيوطي: (٢/ ٢٧٥ـ ٢٧٦)، ففيه معاني حرف «لعل» في القرآن الكريم.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ
وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ
بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ
هَدَىٰ ۝٥٠﴾

وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ هذه الآية: «فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا» فبكى يحيى، وقال: إلهي هذا رفقك[1] بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقك[1] بمن يقول أنت الإله؟![2].

﴿قَالَا﴾ يعني: موسى وهارون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يعجل علينا بالقتل والعقوبة، يقال: فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه، وفرط منه أمرٌ، أي: بدرَ وسبقَ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ أي: يجاوز الحد في الإساءة إلينا.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه، لست بغافلٍ عنكما، فلا تهتما.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خلِّ عنهم وأطلقهم عن أعمالك ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده، لها شعاع كشعاع الشمس ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ ليس المراد منه التحية، إنما معناه: سَلِم من عذاب الله من أسلم.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ من إلهكما الذي أرسلكما؟

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ قال الحسن وقتادة: أعطى كلَّ شيء صلاحَه، وهداه لما يصلحه، وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان، ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح.

وقال الضحاك: أعطى كل شيء خلقه: يعني اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع.

---

(١) في «ب»: (برك). (٢) «تفسير القرطبي»: (١١/ ٢٠١).

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

وقال سعيد بن جبير: «أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ»، يعني: زوج، للإنسان: المرأة، وللبعير: الناقة، وللحمار: الأتان، وللفرس: الرمكة، «ثُمَّ هَدَىٰ» أي: ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى[1].

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ ومعنى «البال»: الحال، أي: ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، مثل: قوم نوح وعاد وثمود، فيما تدعوني إليها[2]، فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: أعمالها محفوظة عند الله يجازي بها.

وقيل: إنما ردَّ موسى علم ذلك إلى الله؛ لأنه لم يعلم ذلك، فإن التوراة أنزلت بعد هلاك فرعون وقومه.

﴿فِي كِتَٰبٍۖ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يخطىء، وقيل: لا يضلُّ[3] عنه شيء ولا يغيب عن شيء ﴿وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ (أي: لا يخطىء)[4] ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم، وقيل: لا ينسى، أي: لا يترك، فينتقم من الكافر ويجازي المؤمن.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ قرأ أهل الكوفة «مهدًا» هاهنا وفي الزخرف، فيكون مصدرًا، أي: فرشًا، وقرأ الآخرون «مهادًا»، كقوله تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا»[النبأ: ٦]، أي: فراشًا، وهو اسم لما يفرش، كالبساط: اسمٌ لما يبسط.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (السلك: إدخال الشيء في الشيء، والمعنى: أَدْخَلَ في الأرض لأجلكم طرقًا تسلكونها)[4]، قال ابن عباس: سهَّل لكم فيها طرقًا تسلكونها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر.

---

(١) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٦/ ١٧١ ـ ١٧٢)، «الدر المنثور»: (٥/ ٥٨١ ـ ٥٨٢)، وقد اختار الطبري أن المعنى: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجًا، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجًا، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه، فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الجن، ثم هداهم للمأتى الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك . . . ؛ لأنه سبحانه لا يعطي المعطى لنفسه، بل إنما يعطي ما هو غيره؛ لأن العطية تقتضي المُعْطَى والعطية والمُعْطي، ولا تكون العطية هي المُعْطَى، وإذا لم تكن هي هو، وكانت غيره، وكانت صورة كل خلق بعض أجزائه، كان معلومًا أنه إذا قيل: أعطى الإنسان صورته إنما يعني أنه أعطى بعض المعاني التي به مع غيره دُعِي إنسانًا. وإن كان هذا الذي اختاره الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا ينفي إرادة بعض المعاني الأخرى التي تدل عليها الآية كما في قول الضحاك، والله أعلم.

(٢) في «ب»: (تدعواني إليه).

(٣) في «ب»: (لا يغيب).

(٤) ساقط من «أ».

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا
لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

تم الإخبار عن موسى، ثم أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ بذلك الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ مختلف الألوان والطعوم والمنافع من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس ومنها للدواب.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾ (أي: وارتعوا)[1] ﴿أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ تقول العرب: رعيت الغنم فَرَعَتْ، أي: أسيموا أنعامكم ترعى.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ لذوي العقول، واحدتها: «نُهْيَة» سميت نهية؛ لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي.

قال الضحاك: «لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ»: الذين ينتهون عمَّا حُرِّم عليهم. قال قتادة: لذوي الورع.

﴿۞ مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ يعني: أباكم آدم.

١٢/ب وقال / عطاء الخراساني[2]: إن المَلَك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله من التراب ومن النطفة[3]، فذلك قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: عند الموت والدفن ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ يوم البعث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ﴾ يعني: فرعون ﴿ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني: الآيات التسع التي أعطاها الله موسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ بها، وزعم أنها سحر ﴿وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أن يُسْلِم.

﴿قَالَ﴾ يعني فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ أي: تريد أن تغلب على ديارنا، فيكون لك الملك وتخرجنا منها.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٨٤).

قال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (٥/ ٥٢٤): وهذا القول خلاف التحقيق؛ لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة، فهي غير مقارنة لها، بدليل الترتيب بينهما بـ «ثم» في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ...﴾.

(٣) قال الطبري (١٦/ ١٧٥): (من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجسامًا ناطقة، وفي الارض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيِّركم ترابًا كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرًا سويًّا).

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ
كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم
بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: فاضرب بيننا أجلًا وميقاتًا ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ (قرأ أبو جعفر «لا نخلفْه» بجزم، لا نجاوزه)[1] ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب «سُوًى» بضم السين، وقرأ الآخرون بكسرها، وهما لغتان، مثل: عِدًى وعُدًى، وطُوًى وطِوًى.

قال مقاتل وقتادة: مكانًا عدلًا بيننا وبينك.

وعن ابن عباس: نَصَفًا، ومعناه: تستوي مسافة الفريقين إليه.

قال مجاهد: منصفًا، وقال الكلبي: يعني: سوى هذا المكان.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان يوم عيدٍ لهم، يتزينون فيه، ويجتمعون في كل سنة، وقيل: هو يوم النيروز.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: يوم عاشوراء[2].

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ أي: وقت الضحوة نهارًا جهارًا، ليكون أبعد من الريبة.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ مكره وحيلته وسحرته ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ الميعاد.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ يعني: للسحرة الذين جمعهم فرعون، وكانوا اثنين وسبعين ساحرًا، مع كل واحد منهم حبل وعصا. وقيل: كانوا أربعمائة، وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفًا، وقيل: أكثر من ذلك.

﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «فيُسحِتكم» بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء، وهما لغتان[3]، قال مقاتل والكلبي: فيهلككم، وقال قتادة: فيستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تناظروا وتشاوروا ـ يعني: السحرة ـ في أمر موسى سرًّا من فرعون.

قال الكلبي: قالوا سرًّا: إن غَلَبَنا موسى اتبعناه.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) انظر هذه الأقوال في الطبري: (١٦/ ١٧٧)، «الدر المنثور»: (٥/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥).

(٣) وعلى الأول من «أسْحَتَ» رباعيًا، والثانية من «سَحَتَ» ثلاثيًا.

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾

وقال محمد بن إسحاق: لما قال لهم موسى: لا تفتروا على الله كذبًا، قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ أي: المناجاة، يكون مصدرًا واسمًا، ثم ﴿قَالُوٓاْ﴾ وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يعني: موسى وهارون.

قرأ ابن كثير وحفص «إنْ» بتخفيف النون، «هذان» أي: ما هذان إلّا ساحران، كقوله: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[الشعراء: ١٨٦]، أي: ما نظنك إلّا من الكاذبين، ويُشَدِّد ابن كثير النون من «هذانّ».

وقرأ أبو عمرو «إنَّ» بتشديد النون، «هذين» بالياء على الأصل.

وقرأ الآخرون «إنَّ» بتشديد النون، «هذان» بالألف، واختلفوا فيه:

فروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أنه خطأ من الكاتب[١].

وقال قوم: هذه لغة الحارث بن كعب وخثعم وكنانة، فإنهم يجعلون الاثنين في الرفع والنصب والخفض بالألف، يقولون: أتاني الزيدان، (ورأيت الزيدان)[٢]، ومررت بالزيدان، (فلا يتركون)[٣] ألف التثنية في شيء منها[٤]، وكذلك يجعلون كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفًا، كما في التثنية، يقولون: كسرت يداه

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٥٢ـ٢٥٦): (وهذا الكلام ممتنع لوجوه:
منها: تعدد المصاحف واجتماع جماعةٍ على كل مصحف، ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون القرآن، ويعتبرون ذلك بحفظهم، والإنسان إذا نسخ مصحفًا غلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظة القرآن وسائر المصاحف، فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفًا ثم نسخ سائر الناس منه من غير اعتبار للأول والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا، وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة، ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم، ولو قُدِّر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلّا بلسان قريش، ولم يكن لحنًا، فامتنعوا أن يكتبوه بلسان قريش، فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا: «إن هذان» وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم، كما زعم بعضهم؟! . . .
وأيضًا: فإن القراء قرأوا بما سمعوه من غيرهم، والمسلمون كانوا يقرءون سورة «طه» على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وهي من أول ما نزل من القرآن، وهي مكية باتفاق الناس . . . فالصحابة لابد أن قد قرءوا هذا الحرف، ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرءوه بالياء كأبي عمرو، فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلّا بالياء، فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرءونها بالألف كما قرأها الجمهور . . . فهذا مما يعلم به قطعًا أن عامة الصحابة إنما قرءوها بالألف كما قرأ الجمهور، وكما هو مكتوب . . .).
وانظر فيما سبق تعليقًا: (١/ ٦٢١)، والمراجع المشار إليها هناك، وراجع: «زاد المسير»: (٥/ ٢٥١ـ٢٥٢).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) ساقط من «أ».

(٤) وهذه اللغة وافقتها لغة قريش.

وركبت علاه، يعني: يديه وعليه، وقال شاعرهم[(١)]:

تـزود منـي بين أذنـاه ضربـة		دعتـه إلى هـابي التراب عقيـم

يريد: بين أذنيه.

وقال آخر[(٢)]:

إنَّ أَبَــاهَــا وأَبَــا أَبَــاهَــا		قَـدْ بَلَغَـا فِي المَجْـدِ غَـايَتَـاهَـا

وقيل: تقدير الآية: إنه هذان، فحذف الهاء[(٣)].

وذهب جماعة إلى أن حرف «أن» هاهنا بمعنى: نعم، أي: نعم هذان[(٤)]، روي أن أعرابيًا سأل ابن الزبير شيئًا فحرمه، فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إنَّ وصاحبها، أي: نعم.

وقال الشاعر[(٥)]:

بَكَـــرَتْ عليَّ عَـــوَاذِلِي		يَلْحِيْنَنِـــي وأَلُـــومُهُنَّـــه

وَيَقُلْـــنَ شَيْـــبٌ قـــد عَـــلَا		كَ وقـد كَبُـرْتَ فقلـتُ إِنَّـهْ

أي: نعم.

﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ مصر[(٦)] ﴿ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ قال ابن عباس: يعني: بسراة قومكم وأشرافكم، يقال: هؤلاء طريقة قومهم، أي: أشرافهم[(٧)] و« ٱلْمُثْلَىٰ » تأنيث «الأمثل»: وهو الأفضل، حدَّث الشعبي عن علي، قال: يَصْرِفان وجوهَ الناس إليها[(٧)].

قال قتادة: طريقتهم المُثْلَى يومئذ بنو إسرائيل كانوا أكثرَ القوم عددًا وأموالًا، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهم[(٨)].

= وانظر بالتفصيل والشواهد الشعرية في: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٨٠ ـ ١٨١)، و«البحر المحيط»: (٦/ ٢٥٥)، «زاد المسير» لابن الجوزي: (٥/ ٢٩٨)، «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري: (٢/ ٨٩٥)، «شرح الكافية الشافية» لابن مالك الطائي: (١/ ١٨٨ ـ ١٩٠).

(١) «تفسير القرطبي»: (١١/ ٢١٧).

(٢) ينسب هذا الرجز إلى أبي النجم العجلي «الفضل بن قدامة» كما ينسب إلى رؤبة بن العجاج، وأنشده أبو زيد في «نوادر اللغة».
عن المفضّل الضبّي قال: أنشدني أبو الغول لبعض أهل اليمن . . .
انظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك»: (١/ ١٨٤) مع التعليق.

(٣) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري: (٢/ ٨٩٥)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٥٥).

(٤) قال أبو حيان (٦/ ٢٥٥): (ثبت ذلك في اللغة، فتحمل الآية عليه، و«هذان لساحران» مبتدأ وخبر. وانظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٩٩).

(٥) هو عبد الله بن قيس الرقيات. انظر: «القرطبي»: (١١/ ٢١٨).

(٦) ساقط من «ب».

(٧) الطبري: (١٦/ ١٨٣).

(٨) الطبري: (١٦/ ١٨٢).

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ
أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾

وقيل: «بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ» أي: بسُنَّتكم ودينكم الذي أنتم عليه[1]، و«ٱلْمُثْلَىٰ»: نعت الطريقة، تقول العرب: فلان على الطريقة المُثْلَى، يعني: على الهدى المستقيم.

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو «فاجْمَعُوا» بوصل الألف وفتح الميم، من الجمع، أي: لا تَدَعوا شيئًا من كيدكم إلَّا جئتم به، بدليل قوله: «فجمع كيده»، وقرأ الآخرون بقطع الألف وكسر الميم، فقد قيل: معناه الجمع أيضًا، تقول العرب: أجمعتُ الشيء وجمعتُه بمعنًى واحد.

والصحيح أن معناه: العزم والإحكام، أي: أعزموا كلكم على كيده مجتمعين له، ولا تختلفوا فيختل أمركم.

﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: جميعًا، قاله مقاتل والكلبي، وقال قوم: أي مصطفين مجتمعين ليكون أشدَّ لهيبتكم، وقال أبو عبيدة: الصف المجمع، ويسمى المصلَّى صفًّا، معناه: ثم ائتوا المكان الموعود.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ أي: فاز مَنْ غلب.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: السحرة: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ عصاه.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أولًا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ وفيه إضمار، أي: فألقوا فإذا حبالهم ﴿وَعِصِيُّهُمْ﴾ جمع العصا ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب «تخيل» بالتاء ردًّا إلى الحبال والعصي، وقرأ الآخرون بالياء ردوه إلى الكيد والسحر ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾.

وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصيَّ أخذوا أعين الناس، فرأى موسى والقوم كأنَّ الأرض امتلأت حيَّات، وكانت قد أخذت ميلًا من كل جانب ورأوا أنها تسعى[2].

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ أي: وجد، وقيل: أضمر في نفسه خوفًا، واختلفوا في خوفه، قيل: خوف طبع البشرية، وذلك أنه ظنَّ أنها تقصده.

وقال مقاتل: خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكُّوا في أمره فلا يتبعوه.

﴿قُلْنَا﴾ لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ أي: الغالب، يعني: لك الغلبة والظفر.

---

(١) رواه الطبري عن ابن زيد: (١٦/ ١٨٣)، وقال: (وإن كان له وجه يحتمل الكلام، فإن تأويل أهل التأويل خلافه، فلا أستجيز لذلك القولَ به.

(٢) ذكره الطبري عن وهب بن منبه: (١٦/ ١٨٦).

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني العصا ﴿تَلْقَفْ﴾ تلتقم وتبتلع ﴿مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ قرأ ابن عامر «تلقفُ» برفع الفاء هاهنا، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الأمر ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ إن الذي صنعوا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٖۖ﴾ أي: حيلة سحر، هكذا قرأ حمزة والكسائي بكسر السين بلا ألف[1]، وقرأ الآخرون «ساحر»؛ لأن إضافة الكيد
1/13 / إلى الفاعل أولى من إضافته إلى الفعل، وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ من الأرض، قال ابن عباس: لا يسعد حيث كان، وقيل: معناه: حيث احتال.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لرئيسكم ومعلِّمكم ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل[2] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا﴾ أنا على إيمانكم به، أو رَبُّ موسى على ترك الإيمان به؟ ﴿وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ أي: أدوم.

﴿قَالُواْ﴾ يعني السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: الدلالات، قال مقاتل: يعني اليد البيضاء[3] والعصا.

وقيل: كان استدلالهم أنهم قالوا: لو كان هذا سحرًا فأين حبالنا وعصينا.

وقيل: «مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ»، يعني: من التبيين والعلم.

---

(١) وهذا إشارة إلى أن المصنف رحمه الله فسَّر الآية أولًا على قراءة «كيد سِحر» بدليل ما بعده.

(٢) كما قال الشاعر «سويد بن أبي كاهل اليشكري»:

هُمُ صَلَبُوا العَبْدِيَّ في جِذْعِ نَخْلَةٍ ... فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إلَّا بِأَجْدَعَا

يعني: على جذع نخلة.

وإنما قيل: «في جذوع»؛ لأن المصلوب على الخشبة يرفع في طولها، ثم يصير عليها، فيقال: صُلب عليها.

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ١٨٨).

(٣) ساقط من «ب».

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

حكي عن القاسم بن أبي بَزَّة أنه قال: إنهم لما أُلْقُوا سُجَّدًا ما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلها، ورأوا منازلهم في الجنة، فعند ذلك قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: لن نؤثرك على الله الذي فطرنا، وقيل: هو قسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أمرك وسلطانك في الدنيا، وسيزول عن قريب.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ فإنه قيل: كيف قالوا هذا، وقد جاؤوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة؟! قيل: روي عن الحسن أنه قال: كان فرعون يُكره قومًا على تعلم السحر لكيلا يذهب أصله، وقد كان أكرههم في الابتداء.

وقال مقاتل: كانت السحرة اثنين وسبعين، اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل، كان فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلم السحر، فذلك قولهم: «وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ».

وقال عبد العزيز بن أبان: قالت السحرة لفرعون: أرنا موسى إذا نام، فأراهم موسى نائمًا وعصاه تحرسه، فقالوا لفرعون: إن هذا ليس بساحر، إن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى عليهم إلَّا أن يعملوا، فذلك قوله تعالى: «وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ».

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ قال محمد بن إسحاق: خير منك ثوابًا، وأبقى عقابًا.

وقال محمد بن كعب: خير منك ثوابًا[1] إن أُطِيعَ، وأبقى منك عذابًا إن عُصِي، وهذا جواب لقوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ».

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيل: هذا ابتداء كلام من الله تعالى، وقيل: من تمام قول السحرة ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مشركًا، يعني: مات على الشرك ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ حياة ينتفع بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر وقالُون ويعقوب، وقرأ الآخرون بالإشباع ﴿مُؤْمِنًا﴾ مات على الإيمان ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ الرفيعة، و«ٱلْعُلَىٰ»: جمع، و«العليا» تأنيث الأعلى.

---

(١) ساقط من «أ».

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي: تطهَّر من الذنوب، وقال الكلبي: أعطى زكاة نفسه، وقال: لا إله إلَّا الله.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد السمسار، أخبرنا أبو أحمد حمزة بن محمد بن عباس الدهقان، أخبرنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم مَنْ تحتهم كما ترون الكوكب الدُّرّي في أُفق من آفاق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأَنْعَمَا»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سِرْ بهم ليلًا من أرض مصر ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: اجعل لهم طريقًا في البحر بالضرب بالعصا ﴿يَبَسٗا﴾ يابسًا: ليس فيه ماء ولا طين، وذلك أن الله أيبس لهم الطريق في البحر ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ قرأ حمزة «لا تخفْ» بالجزم على النهي، والباقون بالألف والرفع على النفي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ قيل: لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك، ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك.

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ فلحقهم ﴿فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وقيل معناه: أمر فرعون جنوده أن يتبعوا موسى وقومه ـ والباء فيه زائدة ـ وكان هو فيهم ﴿فَغَشِيَهُم﴾ أصابهم ﴿مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾﴾ وهو الغرق، (وقيل: غشيهم: علاهم وسترهم بعض ماء اليم لا كله)(٢).

وقيل: غشيهم من اليم ما غشيهم قوم موسى فغرقوا هم، ونجا موسى وقومه.

﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ما أرشدهم، وهذا تكذيب لفرعون في قوله: «وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ»[غافر: ٢٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في الحروف: (٦/٨)، والترمذي في المناقب، مناقب أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: (١٠/١٤١، ١٤٢)، وقال: (هذا حديث حسن)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ برقم٩٦: (١/٣٧)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/٢٧)، وأشار إليه الدارمي في الرقاق، باب في غرف الجنة: (٢/٣٣٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/٩٩) عن عطية العوفي، وقد تابعه أبو الودّاك عند الإمام أحمد: (٣/٢٦).

(٢) زيادة من «ب».

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢ ۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ قرأ حمزة والكسائي «أنجيتكم»، و«واعدتكم»، و«رزقتكم» بالتاء على التوحيد، وقرأ الآخرون بالنون والألف على التعظيم، ولم يختلفوا في «ونزلنا»؛ لأنه مكتوب بالألف.

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ قال ابن عباس: لا تظلموا[1]، قال الكلبي: لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين، وقيل: لا تنفقوا في معصيتي، وقيل: لا تدخروا، ثم ادخروا فتدود ﴿فَيَحِلَّ﴾ قرأ الأعمش والكسائي «فيحُلّ» بضم الحاء، «ومن يَحْلُل» بضم اللام، أي: ينزل، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: يجب ﴿عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾ هلك وتردّى في النار.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ قال ابن عباس: تاب من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ ووحّد الله وصدّقه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أدى الفرائض ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ قال عطاء وابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله، وقال قتادة وسفيان الثوري: يعني: لزم الإسلام حتى مات عليه، قال الشعبي ومقاتل والكلبي: علم أن لذلك ثوابًا، وقال زيد بن أسلم: تعلم العلم ليهتدي به كيف يعمل، قال الضحاك: استقام، وقال سعيد بن جبير: أقام على السنة والجماعة[2].

﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ أي: وما حملك على العجلة ﴿عَن قَوۡمِكَ﴾ وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلًا حتى يذهبوا معه إلى الطور، ليأخذوا التوراة، فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقًا إلى ربّه عزَّ وجلَّ، وخلّف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل، فقال الله تعالى له: ﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾.

---

(١) لم يذكر الطبري غير هذا القول، وأعرض عن سائر الأقوال التي لا يساعد عليها السياق.

(٢) ذكر الطبري هذه الأقوال في «التفسير»: (١٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، واختار أن معنى قوله تعالى: «ثم اهتدى» يقول: ثم لزم ذلك فاستقام ولم يضيع شيئًا منه، من أجل أن الاهتداء هو الاستقامة على هدًى، ولا معنى للاستقامة عليه إلّا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه، فلا شك في اهتدائه.

قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لربه تعالى: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: هم بالقرب مني يأتون من بعدي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ لتزداد رضًا.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي: ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفًا ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي: من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ أي: دعاهم وصرفهم إلى / عبادة العجل، وأضافه إلى السامري؛ لأنهم ضلوا بسببه. ١٣/ب

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حزينًا ﴿أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا﴾ صدقًا: أنه يعطيكم التوراة ﴿حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ﴾ مدة مفارقتي إياكم ﴿ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أردتم أن تفعلوا فعلًا يجب عليكم به الغضب من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم «بِمَلْكِنَا» بفتح الميم، وقرأ حمزة والكسائي بضمها، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: ونحن نملك أمرنا، وقيل: باختيارنا، ومن قرأ بالضم فمعناه: بقدرتنا وسلطاننا، وذلك أن المرء إذا وقع في البلية والفتنة لم يملك نفسه.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب: «حَمَلْنَا» بفتح الحاء، وتخفيف الميم، وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم، أي: جعلونا نحملها وكلفنا حملها ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ من حُلي قوم فرعون، سمَّاها أوزارًا؛ لأنهم أخذوها على وجه العارية، فلم يردوها، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حليًّا من القبط، وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر.

وقيل: إن الله تعالى لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذوها، وكانت غنيمة، ولم تكن الغنيمة حلالًا لهم في ذلك الزمان، فسماها أوزارًا لذلك.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ قيل: إن السامري قال لهم: احفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾
أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ
مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن
نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

قال السدي[١]: قال لهم هارون: إن تلك غنيمة لا تحل، فاحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى، فيرى رأيه فيها، ففعلوا[٢]، قوله: «فَقَذَفْنَٰهَا»، أي: طرحناها في الحفرة ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ ما معه من الحلي فيها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أوقد هارون نارًا وقال: اقذفوا فيها ما معكم، فألقوه فيها، ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل[٣].

قال قتادة: كان قد أخذ قبضة من ذلك التراب في عمامته.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: تركه موسى هاهنا، وذهب يطلبه، وقيل: أخطأ الطريق وضل[٤].

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم، ولا يجيبهم إذا دعوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ وقيل: إن هارون مرَّ على السامري وهو يصوغ العجل فقال له: ما هذا؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي، فقال هارون: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، فألقى التراب في فم العجل، وقال: كن عجلًا يخور فكان كذلك بدعوة هارون.

والحقيقة أن ذلك كان فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾ ابتليتم بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى﴾ على ديني في عبادة الله ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ في ترك عبادة العجل.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ﴾ أي: لن نزال ﴿عَلَيْهِ﴾ على عبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفًا من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾﴾ أشركوا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ﴾ أي: أن

(١) ساقط من «أ». (٢) انظر: الطبري: (١٦/ ٢٠٠). (٣) انظر: الطبري: (١٦/ ٢٠١).
(٤) انظر فيما سبق: ص١٢٠، تخريج حديث «الفتون». وراجع: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٦٣).

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾

تتبعني و«لا» صلة، أي: تتبع أمري ووصيتي، يعني: هلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم.

وقيل: «أن لا تتبعني»، أي: ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم، فتكون مفارقتك إياهم زجرًا لهم عمَّا أتوه ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ أي: خالفت أمري.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ أي: بشعر رأسي، وكان قد أخذ ذوائبه ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لو أنكرتُ عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضًا ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزابًا يتقاتلون، فتقول أنت: فرَّقت بين بني إسرائيل[1] ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: اخلفني في قومي وأصلح، أي: ارفق بهم[2]، ثم أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟ ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ رأيت ما لم يروا، وعرفت ما لم يعرفوا.

قرأ حمزة والكسائي «ما لم تبصروا» بالتاء على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من تراب أثر فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها في فم العجل. وقال بعضهم: إنما خار لهذا؛ لأن التراب كان مأخوذًا من تحت حافر فرس جبريل.

فإن قيل: كيف عرفه ورأى جبريل من بين سائر الناس؟ قيل: لأن أُمه لما ولدته في السنة التي يقتل فيها البنون وضعته في الكهف حذرًا عليه، فبعث الله جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ أي: زينت[4] ﴿لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾.

---

(١) ذكر الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٢٠٤) أقوالًا أخر زيادة على ما ذكره المصنف ورجح ما نسبه إلى ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن موسى عذل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول: فرقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم. وانظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣١٦).

(٢) انظر: الطبري: (١٦/ ٢٠٤)، «الدر المنثور»: (٦/ ٥٩٦).

(٣) روى الطبري: (١٦/ ٢٠٤ - ٢٠٥) عن ابن جريج قال: لما قتل فرعون الوِلْدان قالت أم السامري: لو نحيته عني حتى لا أراه، ولا أدري قتله، فجعلته في غار، فأتى جبريل، فجعل كف نفسه في فيه، فجعل يرضعه العسل واللبن، فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه، فمن ثم معرفته إياه حين قال: «فقبضت قبضة من أثر الرسول». وانظر: «القرطبي»: (١١/ ٢٣٩ - ٢٤٠).

(٤) ساقط من «أ».

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ﴾ أي: ما دمت حيًا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تخالط أحدًا، ولا يخالطك أحد، وأمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه، ولا يقربوه.

قال ابن عباس: لا مساس لك ولولدك، و«المساس» من المماسة، معناه: لا يمس بعضنا بعضًا، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد، عاقبه الله بذلك، وكان إذا لقي أحدًا يقول: «لا مساس»، أي: لا تقربني ولا تمسني.

وقيل: كان إذا مس أحدًا أو مسه أحد حُمَّا جميعًا، حتى إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإذا مسَّ أحد من غيرهم أحدًا منهم حُمَّا جميعًا في الوقت(١).

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامري ﴿مَوْعِدًا﴾ لعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «لن تخلِفه» بكسر اللام، أي: لن تغيب عنه، ولا مذهب لك عنه، بل توافيه يوم القيامة، وقرأ الآخرون بفتح اللام، أي: لن تكذبه ولن يخلفك الله، ومعناه: أن الله تعالى يكافئك على فعلك ولا تفوته(٢).

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾ بزعمك ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: ظلت ودمت عليه مقيمًا تعبده، والعرب تقول: ظلت أفعل كذا بمعنى ظللت، ومستُ بمعنى مسستُ.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار، قرأ أبو جعفر بالتخفيف من الإحراق ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ﴾ لنذرينه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر ﴿نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ روي أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم؛ لأنه كان قد صار لحمًا ودمًا(٣)، ثم حرقه بالنار، ثم ذراه في اليم، قرأ ابن محيصن «لَنَحرُقنَّه» بفتح النون وضم الراء لنبردنه بالمبرد، ومنه قيل للمبرد المحرق، وقال السدي: أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم.

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ وسع علمُه كلَّ شيء.

---

(١) انظر: القرطبي: (١١/ ٢٤١)، «زاد المسير»: (٥/ ٣١٩).

(٢) ذكر الطبري القولين: (١٦/ ٢٠٦ـ٢٠٧)، وقال: (والقول عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى؛ لأنه لا شك أن الله موفٍ وعده خلقه بحشرهم لموقف الحساب، وأن الخلق موافون ذلك اليوم، فلا الله مخلفهم ذلك، ولا هم مخلفوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك.

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٩٧)، القرطبي: (١١/ ٢٤٢ـ٢٤٣).

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من الأمور ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ يعني: القرآن.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن القرآن، فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ حملًا ثقيلًا من الإثم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في عذاب الوزر ﴿وَسَآءَ/ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: بئس ما حملوا على ١٤/أ أنفسهم من الإثم كفرًا بالقرآن.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ قرأ أبو عمرو «نَنْفُخ» بالنون وفتحها وضم الفاء لقوله: «ونحشر»، وقرأ الآخرون بالياء وضمها وفتح الفاء على غير تسمية الفاعل ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ والزرقة: هي الخضرة: في سواد العين، فيحشرون زرق العيون سود الوجوه، وقيل: «زرقًا»[1]، أي: عميًا، وقيل: عطاشًا ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون بينهم، ويتكلمون خفية ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي: عشر ليال، وقيل: في القبور، وقيل: بين النفختين، وهو أربعون سنة؛ لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين، استقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا[2].

قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: يتسارُّون[3] بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أوفاهم عقلًا وأعدلهم قولًا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة، وقيل: نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ قال ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ فقال: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله هذه الآية[4].

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن رجلًا أتاه فقال: أرأيت قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وأخرى عميًا؟ قال: إن يوم القيامة فيه حالات: يكونون في حال زرقًا، وفي حال عميًا. «الدر المنثور»: (٥/ ٥٩٨). وانظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢١٠).

(٢) ذكر هذه الأقوال صاحب «زاد المسير»: (٥/ ٣٢١). وذكر ابن جرير أنه اللبث في الدنيا. الطبري: (١٦/ ٢١١).

(٣) في «ب»: (يتشاورون). (٤) انظر: «روح المعاني»: (١٦/ ٢٦١).

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾

والنسف هو: القلع، أي: يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورًا.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيدع أماكن الجبال من الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ أي: أرضًا ملساء مستوية لا نبات فيها، و«القاع»: ما انبسط من الأرض، و«الصفصف»: الأملس.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ قال مجاهد: انخفاضًا وارتفاعًا.

وقال الحسن: «العِوَجُ»: ما انخفض من الأرض، و«الأمْتُ»: ما نشز من الروابي، أي: لا ترى واديًا ولا رابيًا.

قال قتادة: لا ترى فيها صدعًا ولا أكمة[(١)].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ أي: صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، وذلك أنه يضع الصور في فيه، ويقول: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمُّوا إلى عرض الرحمن[(٢)].

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لدعائه، وهو من المقلوب، أي: لا عوج لهم عن دعاء الداعي، لا يزيغون عنه يمينًا وشمالًا، ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعًا.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: سكنت وذلت وخضعت، ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ يعني: صوت وطء الأقدام إلى المحشر، و«الهمس»: الصوت الخفي كصوت أخفاف الإبل في المشي، وقال مجاهد: هو تخافت الكلام وخفض الصوت.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تحريك الشفاه من غير نطق[(٣)].

---

(١) ساق الطبري الأقوال في معنى ﴿عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾: (١٦/ ٢١٣)، وقال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بالعوج: الميل، وذلك أن ذلك هو المعروف من كلام العرب، فإن قال قائل: وهل في الأرض اليوم من عوج؟ فيقال: لا ترى فيها يومئذ عوجًا، قيل: إن معنى ذلك: ليس فيها أودية وموانع تمنع الناظر أو السائر فيها عن الأخذ على الاستقامة كما يحتاج اليوم من أخذ في بعض سبلها إلى الأخذ يمينًا، وأحيانًا شمالًا، لما فيها من الجبال والأودية والبحار، وأما الأمت فإنه عند العرب: الانثناء والضعف، مسموع منهم، فالواجب إذا كان ذلك معنى «الأمت» عندهم أن يكون أصوب الأقوال في تأويله: ولا ارتفاع ولا انخفاض).

(٢) انظر: «روح المعاني»: (١٦/ ٢٦٤)، «أضواء البيان»: (٤/ ٥١٦).

(٣) انظر تفصيلًا في نسبة هذه الأقوال: ابن كثير: (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧)، والطبري: (١٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، «زاد المسير»: (١٦/ ٢٦٤)، و«البحر المحيط»: (٦/ ٢٨٠).

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ يعني: لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يعني: إلَّا من أذن له أن يشفع ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ يعني: ورضي قوله، قال ابن عباس يعني: قال لا إله إلَّا الله[(١)]، وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ الكناية راجعة إلى الذين يتَّبعون الداعي، أي: يعلم الله ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ما قدموا ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ ما خلفوا من أمر الدنيا.

وقيل: «ما بين أيديهم» من الآخرة، «وما خلفهم» من الأعمال.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ قيل: الكناية ترجع إلى «ما»، أي: هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم لا يعلمونه، وقيل: الكناية راجعة إلى الله؛ لأن عباده لا يحيطون به علمًا.

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ ذلت[(٢)] وخضعت، ومنه قيل للأسير: عانٍ، وقال طَلْق بن حبيب: هو السجود على الجبهة للحي القيوم ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١﴾ قال ابن عباس: خسر من أشرك بالله، والظلم هو الشرك.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير «فلا يخف» مجزومًا على النهي جوابًا لقوله تعالى: «وَمَن يَعۡمَلۡ»، وقرأ الآخرون «فلا يخاف» مرفوعًا على الخبر، ﴿ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ قال ابن عباس: لا يخاف أن يزاد عليه في سيئاته، ولا ينقص من حسناته.

وقال الحسن: لا ينقص من ثواب حسناته، ولا يحمل عليه ذنب مسيء[(٣)].

وقال الضحاك: لا يؤخذ بذنب لم يعمله، ولا تبطل حسنة عملها[(٤)]، وأصل الهضم: النقص والكسر، ومنه هضم الطعام.

---

(١) انظر: «روح المعاني»: (١٦/ ٢٦٥)، «البحر المحيط»: (٦/ ٢٨٠).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) ذكر القولين ابن جرير: (١٦/ ٢١٨)، وأخرج السيوطي قول ابن عباس عن ابن المنذر وابن أبي حاتم. «الدر المنثور»: (٥/ ٦٠١).

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٢٤).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيّنا في هذه السورة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: أنزلنا هذا الكتاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يعني: بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: صرَّفنا القول فيه بذكر الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يجتنبون الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ أي: يجدد لهم القرآن عبرةً وعظة فيعتبروا ويتعظوا بذكر عقاب الله للأمم الخالية.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ جلَّ الله عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أراد: النبيَّ ﷺ، كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه، قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة، ومخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله عن ذلك[1]، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تعجل بقراءته ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ، نظيره قوله تعالى: «لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ»[القيامة: ١٦]، وقرأ يعقوب «نَقْضِيَ» بالنون وفتحها وكسر الضاد، وفتح الياء: «وَحْيَهُ» بالنصب.

قال مجاهد وقتادة: معناه: لا تُقْرِئه أصحابك، ولا تُمْلِه عليهم حتى يتبين لك معانيه[2].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ يعني: بالقرآن ومعانيه، وقيل: علمًا إلى ما علمت.

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية، قال: اللهم زدني علمًا وإيمانًا ويقينًا[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: يعني: أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: «لعلهم يتقون» ﴿فَنَسِىَ﴾ فترك الأمر، والمعنى: أنهم نقضوا العهد، فإن آدم أيضًا عهدنا إليه فنسي ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ قال الحسن: لم نجد له صبرًا عمَّا نُهي عنه، وقال عطية العوفي: حفظًا لما أُمر به.

وقال ابن قتيبة: رأيًا معزومًا حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له، و«العزم» في اللغة: هو توطين النفس على الفعل.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٦٠٢)، وقاله صاحب «أضواء البيان»: (٤/ ٥١٩).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٢٦).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» لسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن مسعود: (٥/ ٦٠٥).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

قال أبو أمامة الباهلي: لو وزن حلم آدم بحلم جميع ولده لرجح حلمه[1]، وقد قال الله: «ولم نجد له عزمًا».

فإن قيل: أتقولون إن آدم كان ناسيًا لأمر الله حين أكل من الشجرة؟

قيل: يجوز أن يكون نسي أمره، ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعًا عن الإنسان، بل كان مؤاخذًا به، وإنما رفع عنّا[2]، وقيل: نسي عقوبة الله، وظن أنه نهي تنزيهًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ أن يسجد.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ يعني: تتعب وتنصب، ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك، قال السدي: يعني: الحرث والزرع والحصيد والطحن والخبيز.

١٤/ب وعن سعيد / بن جبير: قال أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسح العرق عن جبينه، فذلك (شقاؤه[3].

ولم يقل: «فتشقيا» رجوعًا به إلى آدم؛ لأن تعبه أكثر، فإن الرجل)[4] هو الساعي على زوجته.

وقيل: لأجل رؤوس الآي.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَأَنَّكَ﴾ قرأ نافع وأبو بكر بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالفتح نسقًا على قوله: «ألا تجوع فيها» ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟﴾ لا تعطش ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ يعني: لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها، وقال عكرمة: لا تصيبك الشمس وأذاها[5]؛ لأنه ليس في الجنة شمس، وأهلها في ظل ممدود.

---

(١) ذكر بعض هذه الأقوال الطبري: (١٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، وقال: (وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء؛ لأنه لا يجزع جازع إلّا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ﴿ولم نجد له عزمًا﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزمَ قلب على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه).

(٢) انظر تفصيلًا لهذا في: «أضواء البيان»: (٤/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢).

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٢٨).

(٤) ساقط من «أ».

(٥) عزاه السيوطي لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة: (٥/ ٦٠٥).

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني: على شجرةٍ إن أكلت منها بقيت مخلدًا ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ لا يبيد ولا يفنى.

﴿فَأَكَلَا﴾ يعني: آدم وحواء عليهما السلام ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ يعني: فعل ما لم يكن له فعله، وقيل: أخطأ طريق الجنة[1]، وضلَّ حيث طلب الخلد بأكل ما نهي عن أكله، فخاب ولم ينل مراده.

قال ابن الأعرابي: أي: فسد عليه عيشه، وصار من العزِّ إلى الذل، ومن الراحة إلى التعب.

قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال عصى آدم، ولا يجوز أن يقال: آدم عاصٍ؛ لأنه إنما يقال عاصٍ لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه، يقال: خاط ثوبه، ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده[2].

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، أخبرنا أبو معاذ الشاه بن عبد الرحمن المزني، أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري ببغداد، أخبرنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس سمعَ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أفتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى»[3].

ورواه عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة وزاد: «قال آدم: يا موسى، بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربَّه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة»؟ قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى»[3].

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره واصطفاه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ بالعفو ﴿وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ هداه إلى التوبة حين قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا.

---

(١) في «ب»: (الحق).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٢٩-٣٣٠)، القرطبي: (١١/ ٢٥٥-٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله: (١١/ ٥٠٥)، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم موسى عليهما السلام برقم ٢٦٥٢: (٤/ ٢٠٤٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٢٤).

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ يعني: الكتاب والرسول ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة، ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: «فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ»[١]. وقال الشعبي عن ابن عباس: أجار الله تعالى تابعَ القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية[٢].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ يعني: القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقًا، روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: هو عذاب القبر، قال أبو سعيد: يضغط حتى تختلف أضلاعه[٣].

وفي بعض المسانيد مرفوعًا: «يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال يعذب حتى يبعث»[٤].

وقال الحسن: هو الزقوم والضريع والغسلين في النار، وقال عكرمة: هو الحرام، وقال الضحاك: هو الكسب الخبيث.

وعن ابن عباس قال: الشقاء، ورُوي عنه أنه قال: كل مالٍ أعطى العبد قلَّ أم كثر فلم يتَّقِ الله فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن أقوامًا أعرضوا عن الحق وكانوا أُولي سعة من الدنيا مكثرين، فكانت معيشتهم ضنكًا، وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف عليهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله.

قال سعيد بن جبير: يسلبه القناعة حتى لا يشبع[٥].

---

(١) أخرجه الطبري: (١٦/ ٢٥٥)، وعزاه السيوطي في «الدر»: (٥/ ٦٠٧) لابن أبي شيبة والطبراني وأبي نعيم في «الحلية» وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر»: (٥/ ٦٠٧) للفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري: (١٦/ ٢٢٧ـ٢٢٨)، وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٦٠٧ـ٦٠٩).

(٤) قطعة من حديث أبي هريرة المطول في سؤال الميت في قبره، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (٣/ ٣٨٣)، والطبري: (١٣/ ٢١٥)، (١٦/ ٢٢٧ـ٢٢٨)، وصححه ابن حبان: ص١٩٧ ـ ١٩٨ من «موارد الظمآن»، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٧٩)، وهنَّاد في الزهد: (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢٢، ٤٤٢)، ورواه مختصرًا: الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٣٦٤)، وله متابعات وشواهد، انظرها في التعليق على «الزهد» لهناد: (١/ ٤٢١ـ٤٢٣).

(٥) انظر في هذه الأقوال ونسبتها: الطبري: (١٦/ ٢٢٥ ـ٢٢٨)، «الدر المنثور»: (٥/ ٦٠٧ ـ٦٠٩)، «زاد المسير»: (٥/ ٣٣٠ـ٣٣٢).

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ
لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: أعمى البصر، وقال مجاهد: أعمى عن الحجة.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ بالعين أو بصيرًا بالحجة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ فتركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ تترك في النار، قال قتادة: نُسُوا من الخير ولم يُنْسَوْا من العذاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ أشرك ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ مما يعذبهم به في الدنيا والقبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ وأدوم.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يبيِّن لهم القرآن، يعني: كفار مكة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ديارهم ومنازلهم إذا سافروا، والخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلَكين من أصحاب الحِجْر وثمود وقريات لوط ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ لذوي العقول.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزامًا، والكلمة: الحكم بتأخير العذاب عنهم، أي: ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم، أي: ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان لزامًا، أي: لكان العذاب لازمًا لهم كما لزم القرون الماضية الكافرة.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ نسختها آية القتال[1]، و﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ بأمر ربك، وقيل: صلِّ لله بالحمد له والثناء عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتها، واحدها: إِنَى[2] ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء، قال ابن عباس:

---

(١) انظر فيما سبق: (١/ ٦٥٣)، تعليق (١).

(٢) إِنىً على وزن إِلى وعلى، كما في «القاموس».

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

يريد أول الليل ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني: صلاة الظهر، وسمى وقت الظهر أطراف النهار؛ لأن وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأول انتهاء، وطرف النصف الآخر ابتداء.

وقيل: المراد من آناء الليل صلاة العشاء، ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب؛ لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار، وفي أول الطرف الآخر، فهو في طرفين منه، والطرف الثالث غروب الشمس، وعند ذلك يصلى المغرب.

١٥/أ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: ترضى / ثوابه في المَعَاد، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم «تُرْضَى» بضم التاء، أي: تعطى ثوابه، وقيل: «ترضى» أي: يرضاك الله تعالى، كما قال: «وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا»[مريم: ٥٥]، وقيل: معنى الآية: لعلك ترضى بالشفاعة، كما قال: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ»[الضحى: ٥].

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الخطيب الحميدي، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني إملاء، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله السعدي، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كنّا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودي فقال لي: «قلْ له: إن رسول الله ﷺ يقول لك بِعْني كذا وكذا من الدقيق وأسلفني إلى هلال رجب» فأتيته فقلت له ذلك، فقال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلّا برهن، فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «والله لئن باعني وأسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض، اذهبْ بدرعي الحديد إليه» فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾(٢) لا تنظر ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أعطينا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر: (٢/٣٣)، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما برقم ٦٣٣: (١/٤٣٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/٢٢٤).

(٢) أخرجه إسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والطبري والطبراني وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو متروك، «الكافي الشاف»: ص١٠٩، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٥٢، وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/٣٥٤-٣٥٦)، القرطبي: (١١/٢٦٣) فقد أيد بطلان هذه الرواية.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢
وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣ وَلَوْ أَنَّآ
أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾

زينتها وبهجتها، وقرأ يعقوب «زهرة» بفتح الهاء، وقرأ العامة بجزمها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفرًا وطغيانًا ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ في المعاد، يعني: الجنة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ قال أبي بن كعب: من لم يتعزَّ بعزة الله تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس يطل حزنه، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قلَّ علمه وحضر عذابه.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي: قومك، وقيل: من كان على دينك، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ﴾[مريم: ٥٥] ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: اصبر على الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لا نكلفك أن ترزق أحدًا من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك، وإنما نكلفك عملًا ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ﴾ الخاتمة الجميلة المحمودة ﴿لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾ أي: لأهل التقوى، قال ابن عباس: الذين صدَّقوك واتبعوك واتقوني.

وفي بعض المسانيد أن النبي ﷺ: «كان إذا أصاب أهله ضُرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية»[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: المشركين ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: الآية المقترحة، فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ﴾ قرأ أهل المدينة والبصرة وحفص عن عاصم «تأتهم» لتأنيث البينة، وقرأ الآخرون بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن البينة هي البيان فردَّ إلى المعنى ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣﴾ أي: بيان ما فيها، وهو القرآن أقوى دلالة وأوضح آية. وقيل: أولم يأتهم بيان ما في الصحف الأولى: التوراة والإنجيل وغيرهما، من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، كيف عجَّلنا لهم العذاب والهلاك، فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل إرسال الرسل وإنزال القرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا، أي: لقالوا يوم القيامة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾ بالعذاب والذل والهوان والخزي والافتضاح.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله ثقات. «مجمع الزوائد»: (٧/ ٦٧).

قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر دوائر الزمان، وذلك أن المشركين قالوا: نتربص بمحمد حوادث الدهر، فإذا مات تخلصنا، قال الله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ فانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟

* * *

سورة الأنبياء

مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ قيل: اللام بمعنى «من»، أي: اقترب من الناس حسابهم، أي: وقت محاسبة الله إيَّاهم على أعمالهم، يعني: يوم القيامة، نزلت في منكري البعث ﴿حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ عن التأهب له.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ يعني: ما يُحدِث الله من تنزيل شيء من القرآن يُذَكِّرهُم ويعظُهم به، قال مقاتل: يُحدِث الله الأمر (بعد الأمر)[1]، وقيل: الذكر المحدَثُ ما قاله النبي ﷺ وبيَّنه من السُّننِ والمواعظ سوى ما في القرآن، وأضافه إلى الربِّ عزَّ وجلَّ؛ لأنه قال بأمر الرب ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتَّعِظون.

﴿لَاهِيَةً﴾ ساهيةً غافلة ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ معرضةً عن ذكر الله، وقوله: «لَاهِيَةً» نعتٌ تقدَّم الاسم، ومن حق النعت أن يتبعَ الاسم في الإعراب، وإذا تقدَّم النعتُ الاسمَ فله حالتان: فصلٌ ووصلٌ، فحالتُه في الفصل النصبُ كقوله: «خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ»[القمر: ٧]، «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا»[الإنسان: ١٤]، و«لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ»، وفي الوصل حالة ما قبله من الإعراب كقوله: «أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا»[النساء: ٧٥] ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، أي: أشركوا، قوله: «وَأَسَرُّوا۟» فعل تقدم الجمع وكان حقه «وأسرَّ»، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، أراد: والذين ظلموا أسروا النجوى.

(١) زيادة من «ب».

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

وقيل: محل «الذين» رفعٌ على الابتداء، معناه: وأسروا النجوى، ثم قال: وهم الذين ظلموا.

وقيل: رفع على البدل من الضمير في أسروا، قال المبرِّد: هذا كقولك: إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، على البدل مما في انطلقوا ثم بيَّن سرهم الذي تناجَوْا به فقال: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أنكروا إرسال البشر، وطلبوا إرسال الملائكة.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: تحضرون السحر وتقبلونه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ تعلمون أنه سحر.

﴿قَالَ﴾ لهم يا محمد: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «قال ربي» على الخبر عن محمد ﷺ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ بأفعالهم.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ أباطيلُها وأقاويلها[1] وأهاويلُها رآها في النوم ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه

١٥/ب ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يعني: أن المشركين اقتسموا القول / فيه وفيما يقوله، قال بعضهم: أضغاث أحلام، وقال بعضهم: بل هو فِرْية، وقال بعضهم: بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ إنْ كان صادقًا ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ من الرسل بالآيات.

قال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أهلكناهم بالتكذيب ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ إن جاءتهم آية معناه: أن أولئك لم يؤمنوا بالآيات لمَّا أتتهم أفيؤمنُ هؤلاء؟

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ هذا جواب لقولهم: «هل هذا إلَّا بشر مثلكم»، يعني: إنَّا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالًا نوحي إليهم ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يعني: أهل التوراة والإنجيل، يريد: علماء أهل الكتاب، فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرًا، وإن أنكروا نبوة محمد ﷺ، وأمر المشركين بمسألتهم؛ لأنهم إلى تصديق من لم يؤمن بالنبي ﷺ أقرب منهم إلى

---

(١) زيادة من «ب».

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ
فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١
فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣﴾

تصديق من آمن به، وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن(١)، أراد: فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: الرسل ﴿جَسَدًا﴾ ولم يقل أجسادًا؛ لأنه اسم الجنس ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ هذا ردٌّ لقولهم: «مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ»[الفرقان: ٧]، يقول: لم نجعل الرسل ملائكة، بل جعلناهم بشرًا يأكلون الطعام ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي: أنجينا المؤمنين الذين صدَّقوهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ أي: المشركين المكذبين، وكلُّ مشركٍ مسرفٌ على نفسه.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ يا معشر قريش ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم، كما قال: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ»[الزخرف: ٤٤]، وهو شرف لمن آمن به. قال مجاهد: فيه حديثكم، وقال الحسن: فيه ذكركم، أي: ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا، والقَصْم: الكسر ﴿مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي: أحدثنا بعد هلاك أهلها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: رأوا(٢) عذابنا بحاسة البصر ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾ أي: يسرعون هاربين.

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي: قيل لهم: لا تركضوا، لا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: نَعِمتم به ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣﴾ قال ابن عباس: عن قتل نبيكم، وقال قتادة: من دنياكم شيئًا، نزلت هذه الآية في أهل «حصورا»، وهي قرية باليمن، وكان أهلها العرب، فبعث الله إليهم نبيًّا يدعوهم إلى الله فكذَّبوه وقتلوه، فسلط الله عليهم «بختنصر»، حتى قتلهم وسباهم(٣)، فلما استمر فيهم القتلُ ندِموا وهربوا وانهزموا، فقالت الملائكة لهم استهزاءً: لا تركضوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسألون.

---

(١) انظر: الطبري: (١٧/ ٥). (٢) زيادة من «ب». (٣) انظر: الطبري: (١٧/ ٩).

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوًا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾

قال قتادة: لعلكم تسئلون شيئًا من دنياكم، فتعطون مَنْ شئتم وتمنعون مَنْ شئتم، فإنكم أهل ثروة ونعمة، يقولون ذلك استهزاءً بهم، فاتَّبعهم «بختنصر» وأخذتهم السيوف، ونادى منادٍ من جو السماء: يا ثارات الأنبياء، فلما رأوْا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤)﴾.

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: تلك الكلمة وهي قولهم: يا ويلنا، دعاؤهم يدعون بها ويرددونها.

﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا﴾ بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿خَٰمِدِينَ (١٥)﴾ ميتين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦)﴾ أي: عبثًا وباطلًا.

﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوًا﴾ اختلفوا في اللهو، قال ابن عباس في رواية عطاء: اللهو المرأة، وهو قول الحسن وقتادة، وقال في رواية الكلبي: اللهو الولد، وهو قول السدي، وهو في المرأة أظهر؛ لأن الوطء يسمى لهوًا في اللغة، والمرأة محل الوطء ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض، وقيل: معناه لو كان جائزًا ذلك في صفته لم يتخذه بحيث يظهر لهم ويستر ذلك حتى لا يطلعوا عليه.

وتأويل الآية: أن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رَدَّ الله عليهم بهذا وقال: «لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ»؛ لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧)﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج: «إن» للنفي، أي: ما كنا فاعلين، وقيل: للشرط، أي: إن كنَّا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا، ولكنا لم نفعله؛ لأنه لا يليق بالربوبية.

﴿بَلۡ﴾ أي: دع ذلك الذي قالوا، فإنه كذب وباطل ﴿نَقۡذِفُ﴾ نرمي ونسلِّط ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بالإيمان ﴿عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ على الكفر، وقيل: الحق قول الله، أنه لا ولد له، والباطل قولهم: اتخذ الله ولدًا ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ فيهلكه، وأصل الدَّمْغ: شجُّ الرأس حتى يبلغَ الدماغ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ ذاهب، والمعنى: أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يضمحل ويذهب، ثم أوعدهم على كذبهم فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾ يا معشر الكفار ﴿مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾ الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد، وقال مجاهد: مما تكذبون.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا وملكًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يأنفون عن عبادته، ولا يتعظَّمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ لا يعيون، يقال: حَسِرَ واستَحْسَرَ إذا تَعِبَ وأعيا، وقال السدي: لا ينقطعون[1] عن العبادة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لا يضعفون ولا يسأمون، قال كعب الأحبار: التسبيح لهم كالنَّفَسِ لبني آدم.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً﴾ استفهام بمعنى الجحد، أي: لم يتخذوا ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الأصنام من الخشب والحجارة، وهما من الأرض ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ يُحْيُون الأموات، ولا يستحق الإلهية إلَّا مَنْ يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النِّعم.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: من السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتا، وهلك مَن فيهما بوجود التمانع من الآلهة؛ لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام، ثم نزَّه نفسه فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: عما يصفه به المشركون من الشريك والولد.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ويحكم على خلقه؛ لأنه الرب ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: الخلق يسئلون عن أفعالهم وأعمالهم[2]؛ لأنهم عبيد. / ١/١٦

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حجتكم على ذلك، ثم قال مستأنفًا ﴿هَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿وَذِكْرُ﴾ خبر ﴿مَن قَبْلِى﴾ من الأمم السالفة، ما فُعل بهم في الدنيا، وما يُفعل بهم في الآخرة، وعن ابن عباس في رواية عطاء: «ذكر مَن معي»: القرآن، «وذكر من قبلي»: التوراة والإنجيل، ومعناه: راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أنَّ الله اتخذ ولدًا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) في «أ»: (لا يتعظمون). (٢) في «ب»: (وأقوالهم).

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾
وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ
وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ
وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ
جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «نُوحِىٓ» بالنون وكسر الحاء على التعظيم؛ لقوله: «وَمَآ أَرْسَلْنَا»، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ وحّدون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ نزّه نفسه عمّا قالوا ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ أي: هم عباد، يعني: الملائكة ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ لا يتقدمونه بالقول، ولا يتكلمون إلّا بما يأمرهم به ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ معناه: أنهم لا يخالفونه قولًا وعملًا.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي: ما عملوا، وما هم عاملون، وقيل: ما كان قبل خلقهم، وما يكون بعد خلقهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ قال ابن عباس: أي لمن قال لا إله إلّا الله، وقال مجاهد: أي: لمن رضي عنه[1] ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ خائفون، لا يأمنون مكره.

﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ قال قتادة: عنى به إبليس، حيث دعا إلى عبادة نفسه، وأمر بطاعة نفسه، فإن أحدًا من الملائكة لم يقل إنّي إلهٌ من دون الله ﴿ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ قرأ ابن كثير «أَلَمْ يَرَ» (بغير واو)[2]، وكذلك هو في مصاحفهم، معناه: ألم يعلم الذين كفروا ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعطاء وقتادة: كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ فصلنا بينهما بالهواء، والرَّتْقُ في اللغة: السدّ، والفتق: الشق.

---

(١) ذكر القولين الطبري: (١٧/ ١٦ ـ ١٧).
(٢) زيادة من «ب».

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

قال كعب: خلق الله السمواتِ والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحًا فوسطها[1] ففتحها بها.

قال مجاهد والسدي: كانت السماوات مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانتا مرتقة طبقة واحدة فجعلها سبع أرضين.

قال عكرمة وعطية: كانت السماء رتقًا لا تمطر والأرض رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، وإنما قال: «رَتْقًا» على التوحيد، وهو من نعت السماوات والأرض؛ لأنه مصدر وُضع موضع الاسم، مثل الزور والصوم ونحوهما.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا[2] ﴿مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي، أي: من الحيوان، ويدخل فيه النبات والشجر، يعني: أنه سبب لحياة كل شيء، والمفسرون يقولون: يعني: أن كل شيء فهو مخلوق من الماء، كقوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ»[النور: ٤٥]، قال أبو العالية: يعني[3]: النطفة، فإن قيل: قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء؟ قيل: هذا على وجه التكثير، يعني: أن أكثر الأحياء في الأرض مخلوقة من الماء أو بقاؤه بالماء ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالًا ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (يعني: كي لا تميد بهم)[2] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الرواسي: ﴿فِجَاجًا﴾ طرقًا ومسالك، والفج: الطريق الواسع بين الجبلين، أي: جعلنا بين الجبال طرقًا حتى يهتدوا إلى مقاصدهم ﴿سُبُلًا﴾ تفسير للفجاج ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ من أن تسقط، دليله قوله تعالى: «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»[الحج: ٦٥]، وقيل: محفوظًا من الشياطين بالشهب، دليله قوله: «وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ»[الحجر: ١٧] ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الكفار ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾ ما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء، وإنما قال: «يَسْبَحُونَ»، ولم يقل يسبح على ما يقال لما لا يعقل؛ لأنه ذكر عنها فعل العقلاء من الجري والسبح، فذكر على ما يعقل.

---

(١) في «ب»: (بوسطها).
(٢) ساقط من «ب».
(٣) زيادة من «ب».

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

والفَلَكُ: مدار النجوم الذي يضمها، والفَلَكُ في كلامِ العرب: كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك، ومنه فلك المغزل، وقال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فَلَكَةِ المغزل: يريد: أن الذي يجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة، وقال بعضهم: الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب، فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه، وهو معنى قول قتادة، وقال الكلبي[1]: الفلك استدارة السماء.

وقال آخرون: الفلك موج مكفوف دون السماء يجري فيه الشمس والقمر والنجوم[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ دوام البقاء في الدنيا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: أفهم الخالدون إن مت؟ نزلت هذه الآية حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون[3].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالشدة والرخاء، والصحة والسَّقَم، والغنى الفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ (ما يتخذونك)، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ سخريًا[4]، قال السدي: نزلت في أبي جهل مرَّ به النبي ﷺ فضحك، وقال: هذا نبيُّ بني عبد مناف[5] ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: أهذا الذي ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيبها، يقال: فلان يذكر فلانًا، أي: يعيبه، وفلان يذكر الله، أي: يُعظِّمه ويُجلُّه ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: لا نعرف الرحمن إلّا مسيلمة، و«هُم» الثانية صلة.

---

(١) في «ب»: (الضحاك).

(٢) ذكر بعض هذه الأقوال وغيرها الطبري: (١٧/ ٢٣)، ثم قال: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وجائز أن يكون ذلك الفَلَكُ كما قال مجاهد: كحديدة الرحى، وكما ذُكر عن الحسن كطاحونة الرحى، وجائز أن يكون موجًا مكفوفًا، وأن يكون قطب السماء، وذلك أن الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر، فجمعه أفلاك، وقد ذكرت قول الراجز: (باتَتْ تُناجي الفُلْكَ الدَّوَّارا) وإن كان كل ما دار في كلامها، ولم يكن في كتاب الله، ولا في خبر عن رسول الله ﷺ، ولا عمن يُقطع بقوله العذر، دليل يدل على أي ذلك هو من أي كان الواجب أن نقول فيه ما قاله، ونسكت عما لا علم لنا به.

فإذا كان الصواب في ذلك من القول عندنا ما ذكرنا، فتأويل الكلام: والشمس والقمر، كل ذلك في دائر يسبحون.

(٣) ذكره صاحب «زاد المسير»: (٥/ ٣٥٠). (٤) ساقط من «ب». (٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٦٣٠) لابن أبي حاتم.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ اختلفوا فيه، فقال قوم: معناه أن بنيته وخلقته من العَجَلَةِ وعليها طُبع، كما قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١]. / ١٦/ب

قال سعيد بن جبير والسدي: لما دخلت الروح في رأس آدم وعينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلًا إلى ثمار الجنة فوقع، فقيل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والمراد بالإنسان: آدم، وأورث أولاده العجلة، والعرب تقول للذي يكثر في الشيء: خلقت منه، كما تقول العرب: خلقت في لعب، وخلقت في غضب، يراد: المبالغة في وصفه بذلك، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

وقال قوم: معناه: خُلق الإنسانُ ـ يعني: آدم ـ من تعجيل في خلق الله إيَّاه؛ لأن خَلْقَه كان بعد خلق[(١)] كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس.

قال مجاهد: فلما أحيا الروحُ رأسه قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس، وقيل: بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خَلْقَ سائر الآدميين من النطفة والعلقة والمضغة وغيرها[(٢)].

وقال قوم: من عَجَلٍ، أي: من طين، قال الشاعر:

والنَّبعُ في الصخرةِ الصَّمَّاءِ مُنبتةٌ ... والنخلُ ينبتُ بينَ الماء والعَجَلِ[(٣)]

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ (نزل هذا في المشركين)[(٤)]، كانوا يستعجلون العذاب ويقولون: أمطِرْ علينا حجارة من السماء، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث[(٥)]، فقال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أي: مواعيدي، فلا تستعجلون، أي: فلا تطلبوا العذاب من قبل وقته، فأراهم يوم بدر، وقيل: كانوا يستعجلون القيامة.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) أورد هذه الأقوال الطبري: (١٧/ ٢٦ ـ ٢٧)، ثم قال: والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عمن قال معناه: خُلق الإنسان من عجل في خَلْقه، أي: على عجل وسرعة في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك؛ لأنه بُودر بخلقه مغيب الشمس في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح.

وإنما قلنا أولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، لدلالة قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ على ذلك، وأن أبا كريب حدثنا قال: حدثنا ابن إدريس قال: أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجمعة لساعة يُقَلِّلُهَا، قال: لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلَّا آتاه اللهُ إيَّاه»، فقال عبد الله بن سلام: قد علمت أي ساعة هي، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، قال الله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

(٣) البيتُ لبعض الحِمْيريين، والعَجَل بلغتهم: الطين.

(٤) في «ب»: (هذا في جواب قول المشركين).

(٥) ذكر القول صاحب «زاد المسير»: (٥/ ٣٥١).

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾
بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾
وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فقال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ ﴾ لا يدفعون ﴿ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ قيل: ولا عن ظهورهم السياط، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ يُمنعون من العذاب، وجواب «لو» في قوله: «لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ» محذوف، معناه: ولو علموا لَمَا أقاموا على كفرهم، ولَمَا استعجلوا، ولا قالوا: متى هذا الوعد؟

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ يعني: الساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي: تُحيِّرهم، يقال: فلان مبهوت، أي: متحيِّر ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يمهلون.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: جزاء استهزائهم.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم ﴿ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ إن أنزل بكم عذابه، وقال ابن عباس: من يمنعكم من عذاب الرحمن ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم ﴾ عن القرآن ومواعظ الله ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ ﴾ «أم» صلة «فيه»، وفي أمثاله ﴿ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، ثم وصف الآلهة بالضعف، فقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ منع أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قال ابن عباس: يمنعون.

وقال عطية: عنه يُجَارون.

تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، أي: مُجِيْر منه.

وقال مجاهد: ينصرون.

وقال قتادة: ولا يصحبون من الله بخير.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ في الدنيا، أي: أمهلناهم، وقيل: أعطيناهم النعمة ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: امتدَّ بهم الزمانُ فاغتروا.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ يعني: ما ننقص من أطراف المشركين، ونزيد في أطراف المؤمنين، يريد ظهورَ النبي ﷺ وفتحه ديارَ الشرك أرضًا فأرضًا ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أم نحن.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ أي: أخوفكم بالقرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ قرأ ابن عامر بالتاء وضمها وكسر الميم، «الصم» نصب، جعل الخطاب للنبي ﷺ، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها وفتح الميم، «الصم» رفعٌ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يُخوَّفون.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طَرَفٌ، وقيل: قليلٌ، قال ابن جريج: نصيبٌ، من قولهم: نفح فلان لفلان من ماله، أي: أعطاه حظًّا منه، وقيل: ضربة، من قولهم: نَفَحَتِ الدابةُ برجلها، أي: ضربت ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ياهلاكنا، إنَّا كنَّا مشركين، دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالشرك.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ذوات القسط، والقسط: العدل ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ لا ينقص من ثواب حسناته، ولا يزاد على سيئاته، وفي الأخبار: إن الميزان له لسان وكفتان[1].

روي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب، فغُشي عليه، ثم أفاق فقال: يا إلهي مَن الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود، إني إذا[2] رضيت على عبدي ملأتها بتمرة[3].

---

(١) أخرج اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (٦/ ١١٧٣) عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان. ويدل على ذلك أحاديث كثيرة. وانظر: «شرح الطحاوية»: ص٤٨٠ـ٤٨٤، «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني: (٢/ ١٨٤ـ١٨٦).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) ذكره القرطبي في «التذكرة». انظر: «لوامع الأنوار البهية»: (٢/ ١٨٤).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ أهل المدينة «مثقال» برفع اللام هاهنا وفي سورة لقمان، أي: وإن وقع مثقال حبة، ونصبها الآخرون على معنى: وإن كان ذلك الشيء مثقالَ حبة، أي: زنة حبة من خردل ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها لنجازي بها.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ قال السدي: مُحصين، والحَسْبُ معناه: العدّ، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عالمين حافظين؛ لأن من حسب شيئًا علمه وحفظه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: الكتاب المفرّق بين الحق والباطل، وهو التوراة، وقال ابن زيد: الفرقان النصر على الأعداء، كما قال الله تعالى: «وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ» [الأنفال: ٤١]، يعني يوم بدر؛ لأنه قال: ﴿وَضِيَآءً﴾ أدخل الواو فيه، أي: آتينا موسى النصر والضياء وهو التوراة.

ومن قال: المراد بالفرقان التوراة، قال: الواو في قوله: «وَضِيَآءً» زائدة مقحمة، معناه: آتيناه التوراة ضياء، وقيل: هو صفة للتوراة ﴿وَذِكْرًا﴾ تذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخافونه ولم يروه ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ خائفون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، وهو ذكر لمن يذكر به، مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ جاحدون(1)؟ وهذا استفهام توبيخ وتعيير.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ قال القرظي أي: صلاحه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى وهارون، وقال المفسرون: رشده، أي: هداه / من قبل، أي: من قبل البلوغ، وهو حين خرج من السرب وهو صغير، يريد: هديناه صغيرًا كما قال تعالى ليحيى عليه السلام: «وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا» [مريم: ١٢] ١٧/أ

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أنه أهل للهداية والنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الصور، يعني: الأصنام ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: على عبادتها مقيمون.

---

(1) ساقط من «ب».

قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾
قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن
تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فاقتدينا بهم.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ خطأ بيِّن بعبادتكم إيَّاها.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يعنون: أجادٌّ أنت فيما تقول أم (أنت من اللاعبين؟)[1].

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: على أنه الإله الذي لا يستحق العبادةَ غيرُه، وقيل: من الشاهدين على أنه خالق السموات والأرض.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأمكرنَّ بها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: بعد أن تُدْبِروا منطلقين إلى عيدكم.

قال مجاهد وقتادة: إنما قال إبراهيم هذا سرًّا من قومه، ولم يسمع ذلك إلَّا رجل واحد فأفشاه عليه، وقال: إنا سمعنا فتًى يذكرهم يُقالُ له إبراهيم.

قال السدي: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم، لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك دينُنا، فخرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال: إني سقيم، يقول: أشتكي رجلي، فلما مَضَوْا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس: «وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم» فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهنَّ في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغرُ منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعامًا فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم ـ على طريق الاستهزاء ـ: ألا تأكلون؟ فلما لم تجبه، قال: ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضربًا باليمين، وجعل يكسرهنَّ في يده حتى إذا لم يبق إلَّا الصنم الأكبر علَّق الفأس في عنقه ثم خرج[2]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

---

(١) في «ب»: (لاعب).

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٣٨)، وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ قرأ الكسائي «جِذاذًا» بكسر الجيم، أي: كِسَرًا وقِطعًا جمع جذيذ، وهو الهشيم، مثل: خفيف وخفاف، وقرأ الآخرون بضمه، مثل: الحُطام والرُّفات ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسره ووضع الفأس على عنقه، وقيل: ربطه بيده، وكانت اثنين وسبعين صنمًا بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وشَبَّة وخشب وحجر، وكان الصنم الكبير من الذهب مكللًا بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قيل: معناه: لعلَّهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل: لعلَّهم إليه يرجعون فيسألونه، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم جُذاذًا. ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: من المجرمين.

﴿قَالُوا﴾ يعني: الذين سمعوا قول إبراهيم «وتالله لأكيدن أصنامكم»: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويسبهم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ هو الذي نظن صنع هذا، فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ قال نمرود، يقول: جيئوا به ظاهرًا بمرأى من الناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ عليه أنه الذي فعله، كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، قال الحسن وقتادة والسدي، وقال محمد ابن إسحاق: «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، أي: يحضرون عقابه، وما يصنع به، فلما أتوا به ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾؟

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهنَّ، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، فذلك قوله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ حتى يخبروا من فعل ذلك بهم. قال القتيبي: معناه: بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون على سبيل الشرط، فجعل النطق شرطًا للفعل، أي: إن قدروا على النطق قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق، وفي ضمنه[1] أنا فعلت.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾

وروي عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ﴾ ويقول: معناه: فعله[١] من فعله، والأول أصح لما رُوي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾[الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾، وقوله لساره: هذه أختي»[٢]، وقيل في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾، أي: سأسقم، وقيل: سقم القلب، أي: مغتم بضلالتكم، وقوله لسارة: هذه أختي، أي: في الدين، وهذه التأويلات لنفي الكذب عن إبراهيم، والأولى هو الأول للحديث فيه، ويجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ أذن له في ذلك؛ لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم، كما أذن ليوسف حتى[٣] أمر مناديه فقال لإخوته: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠]، ولم يكونوا سرقوا.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: فتفكروا بقلوبهم، ورجعوا إلى عقولهم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ ما نراه إلّا كما قال: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ يعني: بعبادتكم مَنْ لا يتكلم، وقيل: أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤالكم إيّاه، وهذه آلهتكم حاضرة فاسئلوها.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ قال أهل التفسير: أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، فهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، يقال: نكس المريض إذا رجع إلى حاله الأول، وقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾ فكيف نسألهم؟ فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ إن عبدتموه ﴿وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ إن تركتم عبادته ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ﴾ أي: تبًا وقذرًا لكم ﴿وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ أي: أليس لكم عقل تعرفون هذا؟ فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ/ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ أي: إن كنتم ناصرين لها. ١٧/ب

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾: (٦/ ٣٨٨)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ برقم ٢٣٧١: (٤/ ١٨٤٠).

(٣) في «ب»: (حين).

قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إن الذي قال هذا رجل من الأكراد(١)، وقيل: اسمه «هيزن» فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة(٢).

وقيل: قاله نمرود، فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام، حبسوه في بيت، وبنوا له بنيانًا كالحظيرة(٣).

وقيل: بنوا أتونًا بقرية يقال لها: «كُوثَى»(٤)، ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول: لئن عافاني الله لأجمعنَّ حطبًا لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب: لئن أصابته لَتحطِبَنَّ في نار إبراهيم، وكان الرجل يُوصي بشراء الحطب وإلقائه فيه، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها، فتلقيه فيه احتسابًا(٥) في دينها.

قال ابن إسحاق: كانوا يجمعون الحطب شهرًا، فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب فاشتعلت النار واشتدت حتى أن كان الطير ليمرّ بها فيحترق من شدة وهجها، فأوقدوا عليها سبعة أيام.

روي أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها، فجاء إبليس فعلمهم عمل المنجنيق فعملوا، ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيّدوه، ثم وضعوه في المنجنيق مقيدًا مغلولًا(٦)، فصاحت السماء والأرض ومَن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلَّا الثقلين صيحة واحدة: أيْ ربنا، إبراهيم خليلك يُلقَى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره، فأذنْ لنا في نصرته، فقال الله عزَّ وجلَّ: إنه خليلي ليس لي خليل غيره، وأنا إلهه وليس له إله غيري، فإن استغاث بشيء منكم أو دعاه، فلْينصرْه فقد أذِنت له في ذلك، وإن لم يدعُ غيري فأنا أعلم به، وأنا وليه فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه فقال: إن أردتَ أخمدتُ النار(٧)، وأتاه خازن الرياح فقال: إن شئتَ طيَّرتُ النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم، حسبي الله ونعم الوكيل(٨).

وروي عن أُبيِّ بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار: لا إله إلَّا أنت سبحانك رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٣)، وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٦٣٩).

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٨٥).

(٣) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٣)، وانظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٣٢٨).

(٤) بضم أوله، وبالثاء المثلثة، وهي بالعراق، ولد فيها إبراهيم عليه السلام.

(٥) انظر: الطبري: (١٧/ ٤٤)، «الدر المنثور»: (٥/ ٦٤١).

(٦) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٣٢٨).

(٧) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٦٤٠) للإمام أحمد في الزهد، ولعبد بن حميد.

(٨) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٣٢٨) وقد عزاه لابن عباس، و«الدر المنثور»: (٥/ ٦٤١)، وعند البخاري: (٨/ ٢٢٩) بلفظ: «كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل».

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

لك الحمد ولك الملك لا شريك لك[1]، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، واستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا[2]، قال جبريل: فاسأل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي[3].

قال كعب الأحبار: جعل كل شيء يطفىء عنه النار إلّا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار[4].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبيد الله بن موسى وابن سلام عنه، أخبرنا ابن جريج، عن عبد الحميد بن بن جبير، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ النار على إبراهيم»[5].

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ قال ابن عباس: لو لم يقل سلامًا لمات إبراهيم من بردها، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلّا طفئت، فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم، ولو لم يقل وسلامًا على إبراهيم بقيت ذات برد أبدًا[6].

قال السدي: فأخذت الملائكة بضَبْعَي إبراهيم فأقعدوه على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس[7].

قال كعب: ما أحرقت النار في إبراهيم إلّا وثاقه[8]، قالوا: وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام[9].

قال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم: ما كنت أيامًا قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار[10].

قال ابن يسار: ويعث الله عزَّ وجلَّ ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم يؤنسه، قالوا: وبعث الله جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه[7]، وقال جبريل: يا إبراهيم، إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٥).
(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٥)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٨٥).
(٣) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة»: (١/ ٢٥٠) بلفظ: «علمه بحالي يغني عن سؤالي» حكاية عن الخليل عليه السلام، وقال: (قال ابن تيمية: موضوع).
(٤) انظر: القرطبي: (١١/ ٣٠٤).
(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: (٦/ ٣٨٩)، ومسلم في باب السلام، باب استحباب قتل الوزغ برقم ٢٢٣٧: (٤/ ١٧٥٧).
(٦) ذكر هذه الأقوال صاحب «أضواء البيان»: (٤/ ٥٨٩).
(٧) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٦٧).
(٨) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٤).
(٩) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٦٧)، القرطبي: (١١/ ٣٠٤).
(١٠) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٤)، وابن كثير في «التفسير»: (٤/ ١٨٥).

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له، فرآه جالسًا في روضة والملك قاعد إلى جنبه، وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه: يا إبراهيم، كبيرٌ إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا، قال: فقم فاخرج منها، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه قال له: يا إبراهيم، مَنِ الرجل الذي رأيتُه معك في صورتك قاعدًا إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظل، أرسله إليَّ ربي ليؤنسني فيها، فقال نمرود: يا إبراهيم، إني مقرب إلى ألهك قربانًا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلّا عبادته وتوحيده، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له إبراهيم: إذًا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه إلى ديني، فقال: لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سوف أذبحها له، فذبحها له نمرود ثم كف عن إبراهيم، ومنعه الله منه[1]، قال شعيب الجبائي: ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ قيل: معناه: أنهم خسروا السعي والنفقة، ولم يحصل لهم مرادهم، وقيل: معناه: إن الله عزَّ وجلَّ أرسل على نمرود وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت واحدة في دماغه فأهلكته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا﴾ من نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ يعني: الشام، بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار، ومنها بعث أكثر الأنبياء، وقال أُبي بن كعب: سماها مباركة؛ لأنه ما من ماء عذب إلّا وينبع أصله من تحت الصخرة التي هي ببيت المقدس.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة: أن عمر بن الخطاب قال لكعب: ألا تتحول إلى المدينة؟ فيها مهاجَرُ رسول الله ﷺ وقبرُهُ، فقال كعب: إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين: أن الشام كنزُ الله من أرضه، وبها كنزه من عباده[3].

---

(١) ذكره صاحب «زاد المسير»: (٥/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٤٥).

(٣) أخرجه معمر في «الجامع»: (١١/ ٢٥١) من «مصنف عبد الرزاق»، وعزاه المتقي في «كنز العمال»: (١٤/ ١٤٣) لابن عساكر.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أخبرنا محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحاق الديري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن شهر ابن حوشب، عن عبد / الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرةٌ 1/18
بعد هجرة، فخيار الناس إلى مهاجَر إبراهيم»[1].

وقال محمد بن إسحاق: استجاب لإبراهيم رجال قومه حين رأوْا ما صنع الله به من جعل النار عليه بردًا وسلامًا على خوف من نمرود وملئهم وآمن به لوط، وكان ابن أخيه، وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم، وكان لهما أخ ثالث يقال له: ناخور بن تارخ، وآمنت به أيضًا سارة، وهي بنت عمه، وهي سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم، فخرج من كوثى من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه، ومعه لوط وسارة، كما قال الله تعالى: «۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ »[العنكبوت: ٢٦]، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه، حتى نزل «حَرَّان» فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل «السَّبْع»[2] من أرض فلسطين، وهي برية الشام، ونزل لوط بـ «المؤتفكة» وهي من «السبع» على مسيرة يوم وليلة وأقرب، فبعثه الله نبيًا، فذلك قوله تعالى: «وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ»[3].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة: العطية، وهما جميعًا من عطاء الله نافلة، يعني: عطاء، قال الحسن والضحاك: فضلًا، وعن ابن عباس وأُبي بن كعب وأبي زيد وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ: النافلة هو يعقوب؛ لأن الله عزَّ وجلَّ أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال: «هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ»[الصافات: ١٠٠]، وزاد يعقوب (ولد الولد)[4]، والنافلة: الزيادة ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، بابٌ في سكنى الشام: (٣/٣٥٣ـ٣٥٤)، والحاكم: (٤/٤٨٦ـ٤٨٧)، وأحمد: (٢/١٩٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/٢٠٩)، وشهر بن حوشب تكلم فيه غير واحد.

(٢) قال ياقوت: والسَّبْع ـ بسكون الباء ـ: ناحية في فلسطين، بين بيت المقدس والكرك، فيه سبع آبار، سمي الموضع بذلك، وكان ملكًا لعمرو بن العاص أقام به لما اعتزل الناس، قال: وأكثر الناس يروي هذا بفتح الباء.

(٣) وأخرجه الطبري عن ابن إسحاق: (١٧/٤٧) مع أقوال أخر، ثم قال مرجحًا أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام: وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك؛ لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مُقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطنًا لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

(٤) في «ب»: (ولدًا لولده).

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي
رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدعون الناس إلى ديننا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ العمل بالشرائع ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ يعني: المحافظة عليها ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ إعطاءها[1] ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ موحدين.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ﴾ أي: وآتينا لوطًا، وقيل: واذكر لوطًا آتيناه ﴿حُكْمًا﴾ يعني: الفصل بين الخصوم بالحق ﴿وَعِلْمًا﴾ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني: «سدومًا»، وكان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم مع أشياء أخر، كانوا يعملون من المنكرات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى﴾ دعا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم ولوط ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ قال ابن عباس: من الغرق، وتكذيب قومه، وقيل: لأنه كان أطول الأنبياء عمرًا وأشدهم بلاء، والكرب: أشد الغم[2] ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ منعناه ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أن يصلوا إليه بسوء، وقال أبو عبيدة: أي على القوم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ اختلفوا في الحرث، قال ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهم - وأكثر المفسرين: كان الحرث كرمًا قد تدلَّت عناقيدُه، وقال قتادة: كان زرعًا ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: رعته ليلًا فأفسدته، والنفش: الرعي بالليل، والهمل: بالنهار، وهما الرعي بلا راع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: كان ذلك بعلمنا ومرأى منَّا لا يخفى علينا علمه،

(١) زيادة من «ب». (٢) ساقط من «ب».

قال الفراء: جمع اثنين، فقال: لحكمهم، وهو يريد: داود وسليمان؛ لأن الاثنين جمع، وهو مثل قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾[النساء: ١١]، وهو يريد: أخوين.

قال ابن عباس وقتادة والزهري: وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما: صاحب حرث، والآخر: صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلًا ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبقَ منه شيء، فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه، فقال سليمان: لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا.

وروي أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين، فأخبر بذلك داود فدعاه فقال: كيف تقضي؟ ويروى أنه قال: بحق النبوة والأبوة إلَّا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين، قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أُكل دُفع إلى أهله، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت، وحكم بذلك[١].

وقيل: إن سليمان يوم حكم كان ابن إحدى عشرة سنة، وأما حكم الإسلام (في هذه المسألة)[٢]: أن ما أفسدت الماشية المرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان على ربها، وما أفسدت بالليل ضمنه ربها؛ لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار، والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن ابن شهاب، عن حرام بن سعد بن محيصة: أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطًا فأفسدت فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمانه على أهلها[٣]، وذهب أصحاب الرأي أن المالك إذا لم يكن معها فلا ضمان عليه فيما أتلفت ماشيته ليلًا كان أو نهارًا.

---

(١) أخرج هاتين الروايتين الطبري: (١٧/ ٥١ ـ ٥٤)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٨٧).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع، باب: المواشي تفسد زرع قوم: (٥/ ٢٠٢)، وعزاه المنذري للنسائي في «الكبرى»، وابن ماجه في الأحكام، باب الحكم فيما أفسدت المواشي برقم ٢٣٣٢: (٢/ ٧٨١)، ورواه الإمام مالك في «الموطأ» مرسلًا: (٢/ ٧٤٧ـ٧٤٨)، وأحمد: (٤/ ٢٩٥)، وعبد الرزاق: (١٠/ ٨٢)، والبيهقي: (٨/ ٣٤١ـ٣٤٢).

قال ابن عبد البر في «التمهيد»: (١١/ ٨١ ـ ٨٢)، هكذا رواه جميع رواة «الموطأ» ـ فيما علمت ـ مرسلًا، وكذلك رواه أصحاب بن شهاب عن ابن شهاب مرسلًا إلَّا أن ابن عيينة رواه عن الزهري عن سعيد بن المسيب وحرام بن سعد بن محيصة . . . ثم قال: هذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدث به الثقات واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة به العمل، وقد زعم الشافعي أنه تتبع مراسيل سعيد بن المسيب فألفاها صحاحًا وأكثر الفقهاء يحتجون بها.

وقال ابن التركماني في «الجوهر النقي» (٨/ ٣٤٢): (اضطرب إسناد هذا الحديث اضطرابًا شديدًا، واختلف فيه على الزهري على سبعة أوجه ذكرها ابن القطان).

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ أي: علمناه القضية، وألهمناها سليمان ﴿وَكُلًّا﴾ يعني: داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصَوَابه، وأثنى على هذا باجتهاده[1]، واختلف العلماء في أن حكم داود كان بالاجتهاد أم بالنص، وكذلك حكم سليمان.

فقال بعضهم: فَعَلَا بالاجتهاد، وقالوا: يجوز الاجتهاد للأنبياء؛ ليدركوا ثواب المجتهدين إلَّا أن داود أخطأ وأصاب سليمان، وقالوا: يجوز الخطأ على الأنبياء إلَّا أنهم لا يقرون عليه، فأما العلماء فلهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة، وإذا أخطأوا فلا إثم عليهم[2]، (فإنه موضوع عنهم)[3]، لما
١٨/ب أخبرنا عبد الوهاب بن محمد / الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد العزيز بن محمد، عن يزيد بن عبد الله بن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن بشر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[4].

وقال قوم: إن داود وسليمان حكما بالوحي، وكان حكم سليمان ناسخًا لحكم داود، وهذا القائل يقول: لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد؛ لأنهم مستغنون عن الاجتهاد بالوحي، وقالوا: لا يجوز الخطأ

---

(١) انظر: القرطبي: (١١/٣٠٩).

(٢) انظر تفصيلًا في: «تفسير القرطبي»: (١١/٣٠٨ـ٣١٠)، و«أضواء البيان»: (٤/٥٩٦ـ٥٩٧)، وقد رجح الشيخ الشنقيطي رحمه الله أن حكمهما ـ داود وسليمان عليهما السلام ـ كان باجتهاد لا بوحي، إذ يقول: (وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ولم يستوجب لومًا ولا ذمًّا بعدم إصابته، كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، فدل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ على أنهما حكما فيها معًا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيًا لما ساغ الخلاف، ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهمًا إياها كما ترى، فقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاده، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك.
والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ الآية يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا أنه أنزل عليه فيه وحيًا جديدًا ناسخًا؛ لأنه قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أليق بالأول، من الثاني كما ترى.

(٣) زيادة من «ب».

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ: (١٣/٣١٨)، ومسلم في الأقضية، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ برقم١٧١٦: (٣/١٣٤٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/١١٥).

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾

على الأنبياء[1]، واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر الآية وبالخبر، حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ، وهو قول أصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيبًا، بل إذا اختلف اجتهاد مجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه، ولو كان كل واحد مصيبًا لم يكن للتقسيم معنى، وقوله عليه السلام: «إذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، لم يُرِدْ به أنه يؤجر على الخطأ، بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق؛ لأن اجتهاده عبادة، والإثم في الخطأ عنه موضوع إذا لم يألُ جهده[2].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان وأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر. قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير، وقال قتادة: يسبحن، أي: يصلين معه إذا صلى، وقيل: كان داود إذا فتر يُسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ يعني: ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ والمراد باللبوس هنا: الدروع؛ لأنها تلبس، وهو في اللغة: اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها، وهو بمعنى الملبوس، كالجلوس والركوب، قال قتادة: أول من صنع الدروع وسردها وحلقها داود، وكانت من قبل صفائح، والدرع يجمع الخفة والحصانة ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ لتحرزكم وتمنعكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: حرب عدوكم، قال السدي: من وقع السلاح فيكم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب «لتحصنكم» بالتاء، يعني: الصنعة، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون لقوله: «وَعَلَّمْنَٰهُ»، وقرأ الآخرون بالياء، جعلوا الفعل لـ «اللَّبوس»، وقيل: ليحصنكم الله عزَّ وجلَّ ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ يقول لداود وأهل بيته.

---

(١) انظر: القرطبي: (١١/٣٠٨ـ٣١٠). (٢) انظر: القرطبي: (١١/ ٣١١).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: (٦/ ٤٥٨)، ومسلم في الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين برقم ١٧٢٠: (٣/ ١٣٤٣).

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

وقيل: يقول لأهل مكة: فهل أنتم شاكرون نعمي بطاعة الرسول.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: ومسخرنا لسليمان الريح، وهي هواء متحرك، وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحسِّ بحركته، والريح يذكر ويؤنث، عاصفة شديدة الهبوب، فإن قيل: قدقال في موضع آخر: تجري بأمره رُخاءً، والرخاء اللين؟ قيل: كانت الريح تحت أمره، إن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانَتْ ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ﴾ يعني: الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ علمناه ﴿عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ بصحة التدبير فيه علمنا أن ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه عزَّ وجلَّ.

قال وهب بن منبه: كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، وكان امرءًا غزَّاءً قلَّ ما يقعد عن الغزو، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلَّا أتاه حتى يذله، كان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فضرب بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصفة من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمر به شهرًا في روحته وشهرًا في غدوته إلى حيث أراد، وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها، ولا تثير ترابًا ولا تؤذي طائرًا. قال وهب: ذُكر لي أن منزلًا بناحية دجلة مكتوب فيه، كتبه[1] بعض صحابة سليمان إما من الجن وإما من الإنس: نحن نزلناه، وما بنيناه، مبنيًا وجدناه، غدونا من «اصطخر» فقلناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله فبائتون بالشام[2].

قال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطًا فرسخًا في فرسخ ذهبًا في إبريسم، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه، وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، يقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح[3].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٥٥-٥٦).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٣٣٣).

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

وعن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس الإنس فيما يليه، ثم يليهم الجن، ثم تظلهم الطير، ثم تحملهم الريح[(١)].

وقال الحسن: لما شغلت الخيل نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى فاتته صلاة العصر غضب لله عزَّ وجلَّ فعقر الخيل، فأبدله الله مكانها خيرًا منها وأسرع، الريح تجري بأمره كيف يشاء، فكان يغدو من «إيلياء» فيقيل بـ «اصطخر»، ثم يروح / منها فيكون رواحها «بكابل»[(٢)]. ١٩/أ

وقال ابن يزيد: كان له مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت، يركب معه فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب، وإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، لا يدري القوم إلَّا وقد أظلهم معه الجيوش[(٣)].

(وروي أن سليمان سار من أرض العراق غاديًا فقال بمدينة «مرو»، وصلى العصر بمدينة «بلخ»، تحمله وجنوده الريح، وتظلهم الطير، ثم سار من مدينة بلخ متخللًا بلاد الترك، ثم جاوزهم إلى بلاد الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك، ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى على أرض «القندهار»، وخرج منها إلى أرض «مكران» و«كرمان»، ثم جاوزها حتى أتى أرض «فارس» فنزلها أيامًا وغدا منها فقال بـ «كسكر» ثم راح إلى الشام، وكان مستقره بمدينة «تدمر»، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر، وفي ذلك يقول النابغة:

ألا سليمانَ إذْ قال المليكُ له ... قُمْ في البَرِيَّةِ فاحددْها عن الفَنَد
وجَيِّشِ الجنَّ أني قد أذِنْتُ لهم ... يبنونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[(٤)]

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وسخرنا له من الشيطان ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الغوص، وهو ما ذكر الله عزَّ وجلَّ: «يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ..» الآية[سبأ: ١٣] ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ حتى لا يخرجوا من أمره، وقال الزَّجَّاج: معناه: حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا، وفي القصة أن

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره»: (٣/ ١٨٨).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٧٧) لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٦٥١) لابن أبي حاتم.

(٤) زيادة من «ب».

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾

سليمان كان إذا بعث شيطانًا مع إنسان ليعمل له عملًا، قال له: إذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر؛ لئلا يفسد ما عمل، وكان من عادة الشياطين أنهم إذا فرغوا من العمل ولم يشتغلوا بعمل آخر خربوا ما عملوا وأفسدوه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعا ربه، قال وهب بن منبه: كان أيوب عليه السلام رجلًا من الروم، وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيس بن إسحق بن إبراهيم وكانت أمه من أولاد لوط بن هاران، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا، وكانت له البَثَنِية من أرض الشام، كلها سهلها وجبلها، وكان له فيها من أصناف المال كله، من البقر والإبل والغنم والخيل والحمر ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدة والكثرة، وكان له خمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة، وفوق ذلك، وكان الله عزَّ وجلَّ أعطاه أهلًا وولدًا من رجال ونساء، وكان برًّا تقيًّا رحيمًا بالمساكين، يطعم المساكين، ويكفل الأرامل والأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكرًا لأنعم الله مؤديًا لحق الله، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغِرَّة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه، رجل من أهل اليمن، يقال له: «اليقن»، ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما: «يلدد» والآخر: «صافر» وكانوا كهولًا، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيث ما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع سموات، فلما بعث محمد ﷺ حجب من الثلاث الباقية، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، فصعد سريعًا حتى وقف من السماء موقفًا كان يقفه، فقال: إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدًا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عمَّا هو عليه من شكرك وعبادتك، ولخرج من طاعتك، قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ماله فانقضَّ عدوُّ الله إبليس حتى وقع إلى الأرض، ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين، وقال لهم ماذا عندكم من القوة؟ فإني قد سُلِّطتُ على مال أيوب، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فقال عفريت من الشياطين: أُعطيتُ من القوة ما إذا شئت تحولتُ إعصارًا من نار وأحرقتُ كُلَّ شيءٍ آتي عليه، قال له إبليس: فأتِ الإبل ورعاءَها، فأتى الإبلَ حين وضعت رؤوسها وثبتت في مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصارٌ من نار لا يدنو منها أحد إلَّا احترق فأحرق الإبل ورعاءها، حتى أتى على آخرها، ثم جاء عدو الله إبليس في صورةٍ قبيحةٍ على قعود إلى أيوب فوجده قائمًا يصلي، فقال: يا أيوب، أقبلتْ نارٌ حتى غَشِيَتْ

إبِلَكَ فأحرقتْها ومَنْ فيها غيري، فقال أيوب: الحمد لله الذي هو أعطاها وهو أخذها، وقديمًا ما وطنت مالي ونفسي على الفناء، فقال إبليس: فإنَّ ربَّك أرسل عليها نارًا من السماء فاحترقت فتركتِ الناسَ مبهوتين يتعجبون منها، منهم من يقول: ما كان أيوب يعبدُ شيئًا وما كان إلَّا في غرور، ومنهم من يقول: لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئًا لمنع وليه[1]، ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه.

قال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عُريانًا خرجت من بطن أمي، وعُريانًا أعود في التراب، وعُريانًا أُحشر إلى الله، ليس لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبضَ عاريتَه منك، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرًا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرتَ شهيدًا، ولكنه علم منك شرًّا فأخَّرك، فرجع إبليس إلى أصحابه خائبًا[2] خاسئًا ذليلًا، فقال لهم: ماذا عندكم من القوة؟ فإني لم أُكْلِم قلبَهُ، قال عفريت: عندي من القوة ما لو شئت صحتُ صيحة لا يسمعها ذو روح إلَّا خرجت مهجةُ نفسه، قال إبليس: فأْتِ الغنمَ ورعاتها، فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمتْ أمواتًا عن آخرها ومات رعاؤها، ثم جاء إبليسُ متمثلًا بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلي، فقال له مثل القول الأول، فردَّ عليه أيوب مثل الرد الأول، ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب، فقال عفريت: عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحًا عاصفًا تنسف كل شيء تأتي عليه، قال فأْتِ الفَدَّادِين والحرث فانطلق ولم يشعروا حتى هبت ريح عاصف، فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن، ثم جاء إبليس متمثلًا بقهرمان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلي، فقال: له مثل القول الأول، فردَّ عليه أيوب مثل رده الأول، كلما انتهى إلى هلاك مال من أمواله حمدَ الله وأحسن الثناء عليه، ورضي منه القضاء، ووطن نفسه بالصبر على البلاد، حتى لم يبق له مال.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله صعد (إلى السماء)[3] فقال: إلهي، إن أيوب يرى / أنك ما متعته ١٩/ب
بولده فأنت معطيه المال فهل مسلطي على ولده، فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال، قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ولده، فانقض عدو الله حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل، حتى إذا مثل بهم كل مُثلة رفع القصر فقلبه فصاروا منكسين، وانطلق إلى أيوب متمثلًا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مخدوش الوجه يسيل دمه ودماغه فأخبره، وقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم، ولو رأيت كيف شُقَّتْ بطونهم وتناثرت أمعاؤهم

---

(١) في «ب»: (عن وليه أيوب). (٢) زيادة من «ب». (٣) ساقط من «أ».

لقُطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، وقال: ليت أمي لم تلدني، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعًا بالذي كان من جزع أيوب مسرورًا به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر، وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم، فوقف إبليس ذليلًا فقال: يا إلهي إنما هوَّن على أيوب المال والولد أنه يرى منك أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده؟ فقال الله عزَّ وجلَّ: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه، وكان الله عزَّ وجلَّ أعلم به لم يسلطه عليه إلَّا رحمة له ليُعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم، ليتأسوا به في الصبر ورجاءً للثواب، فانقض عدو الله سريعًا فوجد أيوب ساجدًا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها سائر[1] جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل إليات الغنم، فوقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه وتقطع وتغير وأنتن، وأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشًا، فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته، وهي رحمة بنت أفراثيم بن يوسف بن يعقوب كانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم: «يقن» و«يلدد» و«صافر» ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكَّتوه ولاموه وقالوا له: تبْ إلى الله من الذنب الذي عوقبت به، قال: وحضره معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه، فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول، وكنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمم أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم، وحرمة من انتهكتم، ومَنْ الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته من خلقه وصفوته من أهل الأرض إلى يومكم هذا، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله من أمره على أنه قد سخط عليه شيئًا من أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئًا من الكرامة التي أكرمه بها، ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم، ولكنها كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلَّا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل[2] أخاه عند البلاء، ولا يُعيِّره بالمصيبة، ولا يَعيبه بما لا يعلم

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «ب»: (يعتزل).

وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكي معه، ويستغفر له، ويحزن لحزنه، ويدله على مراشد أمره، وليس بحليم ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم، ويكسر قلوبكم، ألم تعلموا أن لله عبادًا أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم إعظامًا وإجلالًا لله عزَّ وجلَّ، فإذا استفاقوا من ذلك استبَقوا إلى الله عزَّ وجلَّ بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين، وإنهم لأبرار برءاء، ومع المقصرين والمفرطين، وأنهم لأكياس أقوياء، فقال أيوب: إن الله عزَّ وجلَّ يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيمًا في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثًا به متضرعًا إليه، فقال: ربّ لأي شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني، يا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت وجهك الكريم عني، لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي الكرام، فالموت كان أجمل بي، ألم أكن للغريب دارًا، وللمسكين قرارًا، ولليتيم وليًّا، وللأرملة قيمًا، إلهي أنا عبدك إن أحسنت فالمنّ لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني غَرَضًا، وللفتنة نصبًا، وقد وقع عليَّ بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي وإن قضاءك هو الذي أذلني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنْحَل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي بما كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي، ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه، لا نظر إلي فرحمني، ولا دنا مني (ولا أدناني)[1] فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم / عن نفسي[2]، ٢٠/أ

---

(١) زيادة من «أ».

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٦٥ ـ ٦٨)، دون أن يعلق بشيء على ما في الرواية من الإسرائيليات كما قال صاحب «أضواء البيان» (٤/ ٦٨١): (ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين: أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء لأيوب، فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكها بأظافره حتى دُميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه، وغالب ذلك من الإسرائيليات) انتهى.

وقال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»: ص٣٩١ ـ ٣٩٢ بعد أن ساق عدة روايات في ابتلاء أيوب عليه السلام: (والمحققون من العلماء على أن نسبة هذا إلى المعصوم ﷺ إما من عمل بعض الوضاعين الذين يركبون الأسانيد للمتون، أو من غلط بعض الرواة، وأن ذلك من إسرائيليات بني إسرائيل وافترائهم على الأنبياء . . .)، ثم قال: (وقد دلك كتاب الله الصادق، على لسان نبيه محمد الصادق على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ ابتلى نبيه أيوب عليه السلام في جسده وأهله وماله، وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال في ذلك . . . والذي يجب أن نعتقده أنه ابتلي، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب، من أنه أصيب بالجذام وأن جسمه أصبح قرحة، وأنه ألقي على كناسة بني إسرائيل، يرعى في جسده الدود، وتعبث به دواب بني إسرائيل، أو أنه أصيب بمرض الجدري، وأيوب ـ عليه=

فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب أليم، ثم نودي: يا أيوب، إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبًا قم فأدْلِ بعذرك، وتكلم ببراءتك، وخاصم عن نفسك، واشدد أزرك، وقم مقام جبار يخاصم جبارًا إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلَّا جبار مثلي، لقد منتك نفسك يا أيوب أمرًا ما تبلغ بمثل قوتك، أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها، هل كنت معي تمد بأطرافها؟ هل علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفًا في الهواء لا تعلق بسبب مِنْ فوقها ولا يقلها دعم من تحتها؟ هل تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسيّر نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين أنت مني يوم نبعت الأنهار وسكرت البحار، أسلطانك حبسَ أمواج البحار على حدودها؟ أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل تدري على أي شيء أرسيتها؟ وبأي مثقال وزنتها؟ أم هل لك من ذراع تطيق حملها؟ أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ أم هل تدري من أي شيء أنشيء السحاب؟ أم هل تدري أين خزائن الثلج؟ أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار (وخزانة النهار بالليل)[1]؟ وأين خزانة الريح؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار؟ ومن جعل العقول في أجواف الرجال؟ ومن شق الأسماع والأبصار؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته؟ وقسم الأرزاق بحكمته؟ في كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب، فقال أيوب: صغر شأني وكَلَّ لساني وعقلي ورائي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي تعرض لي يا إلهي، قد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت، لا يعجزك شيء ولا يخفى عليك خافية إذ لقيني البلاء، يا إلهي فتكلمت ولم أملك لساني وكان البلاء هو الذي أنطقني، فليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي، وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني، وسكت حين سكت لترحمني، كلمة زلت مني فلن أعود، قد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني، وألصقت بالتراب خدي، أعوذ بك اليوم منك، وأستجيرك من جهد البلاء فأجرني، وأستغيث بك من عقابك فأغثني، وأستعين بك على أمري فأعني، وأتوكل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني، وأستغفرك فاغفر لي، فلن أعود لشيء تكرهه مني، قال الله تعالى: يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم؛ لتكون لمن خلفك آية، وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين،

= صلوات الله وسلامه ـ أكرم على الله من أن يلقى على مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته، ويقززهم منه، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحال المزرية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله).

(١) زيادة من «ب».

فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فيه شفاؤك وقرب عن أصحابك قربانًا فاستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة متلددة[١]، ثم قالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟ قال لها: هل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: نعم، وما لي لا أعرفه، فتبسم وقال: أنا هو، فعرفته بضحكه فاعتنقته. قال ابن عباس: فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مرَّ بهما كل مال لهما وولد[٢]، فذلك قوله تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله: أني مسني الضر، وفي مدة بلائه.

روى ابن شهاب عن أنس يرفعه أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة[٣].

وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يومًا[٤].

وقال كعب: كان أيوب في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبع أيام.

وقال الحسن: مكث أيوب مطروحًا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرًا، تختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق، وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب على ذلك لا يفتر عن ذكر الله والصبر على ابتلائه[٥]، فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ما حزنك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالًا ولا ولدًا فلم يزد إلَّا صبرًا، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا يقربه إلَّا امرأته، فاستعنت بكم لتعينوني عليه، فقالوا له: أين مكرك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليَّ، قالوا: نشير عليك، من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال: من قبل امرأته، قالوا: فشأنك بأيوب من قبل امرأته، فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال: أصبتم، فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق فتمثَّلَ لها في صورة رجل، فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو ذاك يحك قروحه، وتتردد الدواب في جسده، فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع، فوسوس إليها وذكَّرها ما كانت فيه من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر وأن ذلك لا ينقطع عنهم أبدًا، قال الحسن: فصرخت، فلما صرخت علم أن قد جزعت، فأتاها بسخلة وقال: ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ، فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى

---

(١) متلددة: متلفتة يمينًا وشمالًا.

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/٦٨-٦٩).

(٣) أخرجه الحاكم: (٢/٥٨١) إلَّا أنه ذكر مدة البلاء خمس عشرة سنة، وابن حبان في «موارد الظمآن»: ص٥١١، وعزاه السيوطي: (٥/٦٥٩) لابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير: (٣/١٨٩) من رواية ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك وقال: رفع هذا الحديث غريب جدًا.

(٤) أخرجه الطبري: (١٧/٦٦).

(٥) أخرجه الطبري: (١٧/٦٩).

يعذبك ربك، أين المال، أين الولد، أين الصديق، أين لونك الحسن، أين جسمك الحسن[١]، اذبح هذه
٢٠/ب السخلة واسترح، قال أيوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك، ويلك أرأيت ما تبكين / عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت: الله، قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة، قال: فمنذ كم ابتلانا؟ قالت: منذ سبع سنين وأشهر، قال: ويلك ما أنصفت، ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة آمرتني أن أذبح لغير الله، طعامك وشرابك الذي أتيتني به عليَّ حرام (أو حرام عليَّ)[٢] أن أذوق شيئًا مما تأتيني به بعد إذ قلت لي هذا، فاغربي عني فلا أراك، فطردها فذهبت، فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق[٣] خرَّ ساجدًا وقال: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك، اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلَّا سقط وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلَّا خرج فقام صحيحًا وكُسي حُلَّة، قال: فجعل يلتفت فلا يرى شيئًا مما كان له من أهل ومال إلَّا وقد أضعفه الله حتى والله ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادًا من ذهب فجعل يضمه بيده، فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك؟ قال: بلى، ولكنها بركتك فمن يشبع منها، قال: فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت: أرأيتك إن كان طردني إلى من أَكِلهُ؟ أدعه يموت جوعًا ويضيع فتأكله السباع لأرجعنَّ إليه، فرجعت فلا كناسة ترى ولا تلك الحالة التي كانت، وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عنه، فدعاها أيوب فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذًا على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل، فقال أيوب: ما كان منك فبكت، وقالت: بعلي، قال: فهل تعرفينه إذا رَأيتِهِ؟ فقالت: وهل يخفى على أحد رآه؟ ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه، ثم قالت: إما أنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا أيوب الذي أمرتني أن أذبح لإبليس، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله سبحانه فردَّ عليَّ ما ترين[٤].

وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوبُ إبليسَ ولم يستطع منه شيئًا اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من[٥] مراكب الناس له

---

(١) في «ب»: (الصحيح).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) أخرجه الطبري: (١٧/ ٧٠ـ٧١).

(٤) أخرجه الطبري: (١٧/ ٧١ـ٧٢).

(٥) في «ب»: (في صورة).

عظم وبهاء وكمال، فقال لها: أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى؟ قالت: نعم، قال: فهل تعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا إله الأرض، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت؛ لأنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي، ثم أراها إيَّاهم ببطن الوادي الذي لقيها فيه، قال وهب: وقد سمعت أنه إنما قال لها: لو أن صاحبك أكل طعامًا ولم يسم الله عليه لعوفي مما به من البلاء[1]، والله أعلم.

وفي بعض الكتب: إن إبليس قال لها: اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والأولاد وأعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها (وما أراها)[2]، قال: لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم (إن عافاه الله)[3] ليضربنَّها مائة جلدة، وقال عند ذلك: مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له، ودعائه إياها وإيَّاي إلى الكفر، ثم إن الله عزَّ وجلَّ رحم رحمة[4] امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء، وخفف عليها وأراد أن يبرّ يمين أيوب، فأمره أن يأخذ ضِغْثًا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

وروي أن إبليس اتخذ تابوتًا وجعل فيه أدوية وقعد على طريق امرأته يداوي الناس، فمرت به امرأة أيوب فقالت: (يا شيخ)[4]، إن لي مريضًا أفتداويه؟ قال: نعم، والله[4] لا أريد شيئًا إلَّا أن يقول إذا شفيته أنت شفيتني، فذكرت ذلك لأيوب فقال: هو إبليس قد خدعك، وحلف إن شفاه الله أن يضربها مائة جلدة.

وقال وهب وغيره: كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته، فلما طال عليه البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد، التمست له يومًا من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئًا، فجزت قرنًا من رأسها فباعته برغيف فأتته به؟ فقال لها: أين قرنك؟ فأخبرته[5]، فحينئذ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقال قوم: إنما قال ذلك حين قصدت الدود إلى قلبه ولسانه، فخشي أن يفتر عن الذكر والفكر.

وقال حبيب بن أبي ثابت: لم يدعُ الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء، أحدها: قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا إليه ولم يبق له إلَّا عيناه ورأيا أمرًا عظيمًا فقالا: لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا، والثاني: أن امرأته طلبت طعامًا فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعامًا، والثالث: قول إبليس إني أداويه على أن يقول أنتَ شفيتني.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٧/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: (إن كان الله عافاه).

(٤) زيادة من «ب».

(٥) ذكره الطبري: (١٧/ ٦٦) عن وهب بن منبه.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾

وقيل: إن إبليس وسوس إليه أن امرأتك زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره، فدعا وحلف ليضربنَّها مائة جلدة، وقيل: معناه: مسني الضر من شماتة الأعداء. حتى روي أنه قيل له: (بعدما عُوفي)[1] ما كان أشد عليك في بلائك، قال: شماتة الأعداء، وقيل: قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها إلى موضعها.

وقال: كُلي، قد جعلني الله طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان.

فإن قيل: إن الله سماه صابرًا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله: «أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ»، و«مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ»[ص: ٤١]، قيل: ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى: «فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ»، على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق، فأما الشكوى إلى الله عزَّ وجلَّ فلا يكون جزعًا ولا تركَ صبرٍ كما قال
١/٢١ يعقوب: «إِنَّمَآ/ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ»[يوسف: ٨٦]، قال سفيان بن عيينة: وكذلك من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله لا يكون ذلك جزعًا، كما روي أن جبريل دخل على النبي ﷺ في مرضه فقال: كيف تجدك؟ قال: «أجدني مغمومًا وأجدني مكروبًا»[2].

وقال لعائشة حين قالت: وارأساه: «بل أنا وارأساه»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ وذلك أنه قال: اركض برجلك، فركض برجله فنبعت عينُ ماء[1]، فأمره أن يغتسل منها، ففعل فذهب كلُّ داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى، ففعل فنبعت عين ماء بارد، فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجملهم.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ واختلفوا في ذلك، فقال ابن مسعود وقتادة وابن عباس والحسن وأكثر المفسرين: ردَّ الله عزَّ وجلَّ إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله له وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن[4].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه الطبري في «المعجم الكبير»: (٣/ ١٣٩)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»(٩/ ٣٥): (فيه عبد الله بن ميمون القداح، وهو ذاهب الحديث).

(٣) أخرجه البخاري في المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول: أني وجع أو وارأساه. . . : (١٠/ ١٢٣).

(٤) أخرج الطبري هذه الأقوال: (١٧/ ٧٢_٧٣).

قال الحسن: آتاه الله المثل من نسل ماله الذي رده الله (إليه وأهله)[١]، يدل عليه ما روى الضحاك وابن عباس أن الله عزَّ وجلَّ ردَّ إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرًا[٢].

قال وهب: كان له سبع بنات وثلاثة بنين.

وقال ابن يسار: كان له سبع بنين وسبع بنات.

وروي عن أنس يرفعه: أنه كان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله عزَّ وجلَّ سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض[٣].

وروي أن الله تعالى بعث إليه ملكًا وقال: إن ربك يُقرِئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك، فخرج إليه فأرسل الله عليه جرادًا من ذهب فطارت واحدة فاتبعها وردها إلى أندره، فقال له الملك: أما يكفيك ما في أندرك؟ فقال: هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركته[٤].

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال: أخبرنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه: (يا أيوب)[٥] ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك»[٦].

وقال قوم: آتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فإنهم لم يُردوا عليه في الدنيا[٧]، قال عكرمة: قيل لأيوب: إن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا[٨]، فعلى هذا يكون معنى الآية: وآتيناه أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا، وأراد بالأهل الأولاد ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: نعمة من عندنا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: عظة وعبرة لهم.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٦٦٠) لابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الحاكم: (٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢) وصححه على شرط الشيخين.

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٦٦٠) لابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٥) زيادة من «ب».

(٦) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ...﴾: (٦/ ٤٢٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٨/ ٧).

(٧) ذكره الطبري: (١٧/ ٧٢).

(٨) أخرجه الطبري: (١٧/ ٧٢).

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ يعني: ابن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ وهو أخنوخ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ على أمر الله، واختلفوا في «ذي الكفل».

قال عطاء: إن نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه: أني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل لا يفتر، ويصوم بالنهار ولا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل ووفَّى به، فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل[1].

وقال مجاهد: لما كبر الْيَسع قال: لو[2] أني أستخلف رجلًا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل، قال: فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاث أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فردّه ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه، فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل والنهار[2] إلّا تلك النومة فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم، فقام ففتح الباب، فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا وفعلوا، فجعل يطوّل حتى حضر الرواح، وذهبت القائلة، فقال: إذا رحت فائتني فإني[2] آخذ حقك، فانطلق وراح، فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يبتغيه، فلما كان الغد جلس يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ المظلوم، ففتح (له الباب)[3] فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فائتني؟ فقال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني، قال: فانطلق فإذا رحت فائتني، ففاتته القائلة وراح فجعل ينظر فلا يراه فشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق عليَّ النوم، فلما كان تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل، فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت يدق الباب من داخل، فاستيقظ فقال: يا فلان، ألم آمرك، فقال: أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أُتيت، فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت، فقال: أتنام والخصومُ ببابك؟ فعرفه فقال: أعدو الله؟ قال: نعم أعييتني ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله، فسمي ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر فوفَّى به[4].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٢) ساقط من «أ». (٣) ساقط من «ب». (٤) أخرجه الطبري: (١٧/ ٧٤).

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وقيل: إن إبليس جاءه وقال: إن لي غريمًا يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه، فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب، وروي: أنه اعتذر إليه، وقال: إن صاحبي هرب.

وقيل: إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلي كل ليلة مائة ركعة / إلى أن يقبضه الله فوفى به. ٢١/ب

واختلفوا في أنه كان نبيًا، فقال بعضهم: كان نبيًا[(١)]، وقيل: هو إلياس، وقيل: زكريا، وقال أبو موسى: لم يكن نبيًا ولكن كان عبدًا صالحًا[(٢)].

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ يعني: ما أنعم الله عليهم من النبوة، وصيرهم إليه في الجنة من الثواب ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: اذكر صاحب الحوت، وهو يونس بن متى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ اختلفوا في معناه:

فقال الضحاك: مغاضبًا لقومه، وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفًا وبقي سبط ونصف، فأوحى الله إلى شعياء النبي أنْ سِرْ إلى حزقيا الملك، وقل له حتى يوجه نبيًا قويًا فإني ألقي الرعب[(٣)] في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك: فمن ترى، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال: يونس، إنه قوي أمين، فدعا الملك يونس فأمره أن يخرج، فقال له يونس: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، فهل سماني لك؟ قال: لا، قال: فهاهنا غيري أنبياء أقوياء، فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبًا للنبي وللملك ولقومه، فأتى بحر الروم فركبه[(٤)].

---

(١) قال ابن كثير (٣/ ١٩١): (... وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلَّا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلًا صالحًا وكان ملكًا عادلًا وحكمًا مقسطًا، وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم).

وقال ابن جرير (١٧/ ٧٣): (... ويذي الكفل: رجلًا تكفل من بعض الناس، إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك بعمل من الأعمال، فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عباده، مع حمد صبره على طاعة الله، وبالذي قلنا في أمره جاءت الأخبار عن سلف العلماء).

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٧٥).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٣٨١).

وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة: ذهب عن قومه مغاضبًا لربه إذ كشف عن قومه العذاب بعدما أوعدهم، وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم، واستحيا منهم، ولم يعلم السبب الذي به رفع العذاب، وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده، وأنه يسمى كذابًا لا كراهية لحكم الله تعالى[(١)].

وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب، فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب، والمغاضبة هاهنا كالمفاعلة التي تكون من واحد، كالمسافرة والمعاقبة، فمعنى قوله مغاضبًا، أي: غضبان.

وقال الحسن: إنما غاضب ربَّه عزَّ وجلَّ من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه؛ لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل ربَّه أن ينظره؛ ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعلًا يلبسها فلم ينظر[(٢)]، وكان في خلقه ضيق (فذهب مغاضبًا)[(٣)].

وعن ابن عباس، قال: أتى جبريل يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، فغضب فانطلق إلى السفينة.

وقال وهب بن منبه: إن يونس بن متى كان عبدًا صالحًا، وكان في خلقه ضيق، فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع[(٤)] تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده، وخرج هاربًا منها، فلذلك أخرجه الله من أولي العزم من الرسل، وقال لنبيه (محمد ﷺ)[(٤)]: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾[(٥)] [القلم: ٤٨].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لن نقضي بالعقوبة، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي، وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال: قدَّر الله الشيءَ تقديرًا وقَدَر يَقْدُر قدْرًا بمعنى واحد، ومنه قوله: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾[الواقعة: ٦٠] في قراءة من قرأها بالتخفيف، دليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز

---

(١) سبق تخريجه (سورة يونس).

(٢) انظر: الطبري: (١٧/ ٧٧).

(٣) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٤) ولد الناقة أول ما يُحمل عليه.

(٥) أخرج القولين الطبري: (١٧/ ٧٧ ـ ٧٨)، ثم قال: (وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه شيء إلَّا وهو دون ما وصفه بما وصفه الذين قالوا: ذهب مغاضبًا لقومه؛ لأن ذهابه عن قومه مغاضبًا لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم، ليبلغهم رسالته، ويحذرهم بأسه وعقوبته على تركهم الإيمان به والعمل بطاعته لاشك أن فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان ﷺ أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه، ويصفه بالصفة التي وصفه بها، فيقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾[القلم: ٤٨]، ويقول: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الصافات: ١٤٢ ـ ١٤٤]).

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾

والزهري: «فظن أن لن نقدِّر عليه» بالتشديد، وقال عطاء وكثير من العلماء: معناه: فظنَّ أن لن نضيق عليه الحبس، من قوله تعالى: «ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ»[الرعد: ٢٦]، أي: يضيق، وقال ابن زيد: هو استفهام معناه: أفظن أنه يُعجزُ ربَّه، فلا يقدر عليه، وقرأ يعقوب «يُقدر» (بضم الياء)[(١)] على المجهول خفيف.

وعن الحسن قال: بلغني أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبًا لربه واستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه، وكان له سلف وعبادة، فأبى الله أن يدعه للشيطان، فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة[(٢)]، وقال عطاء: سبعة أيام، (وقيل: ثلاثة أيام)[(٣)]، وقيل: إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة، وقيل: بلغ به تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه تعالى في بطن الحوت، وراجع نفسه فقال: لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، حين عصيتك وما صنعت من شيء فلن أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته، والتأويلات المتقدمة أولى بحال الأنبياء أنه ذهب مغاضبًا لقومه أو للملك ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

وروي عن أبي هريرة مرفوعًا: أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحمًا ولا تكسر له عظمًا، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه: أن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة، وفي رواية: صوتًا معروفًا من مكان مجهول، فقال: ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له، عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل[(٤)]، كما قال الله تعالى: «۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ»[الصافات: ١٤٥].

فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ يعني: أجبناه ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ من تلك الظلمات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ من كل كرب إذا دعونا واستغاثوا بنا، قرأ ابن عامر وعاصم برواية

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٧٩).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) أخرجه الطبري: (١٧/ ٨١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٨): (رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمّه، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات). وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٩٣)، «البداية والنهاية»: (١/ ٢٣٤).

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

أبي بكر: «نُجِّي» بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء؛ لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، واختلف النحاة في هذه القراءة، فذهب أكثرهم إلى أنها لحن؛ لأنه لو كان على ما لم يسم فاعله لم تسكن الياء ورفع المؤمنون، ومنهم من صوبها، وذكر الفراء أن لها وجهًا آخر: وهو إضمار المصدر، أي: نجا النجاء المؤمنين، ونصب المؤمنين كقولك: ضرب الضرب زيدًا، ثم تقول: ضرب زيدًا بالنصب على إضمار المصدر، وسكن الياء في «نجي» كما يسكنون في «بقي» ونحوها، قال القتيبي: من قرأ بنون واحدة والتشديد فإنما
١/٢٢ أراد ننجي من التنجية إلَّا أنه أدغم وحذف نونًا؛ طلبًا للخفة ولم / يرضه النحويون؛ لبعد مخرج النون من الجيم، والإدغام يكون عند قرب المخرج، وقراءة العامة «ننجي» بنونين من الإنجاء، وإنما كتبت بنون واحدة؛ لأن النون الثانية كانت ساكنة والساكن غير ظاهر على اللسان فحذفت كما فعلوا في «إلَّا» حذفوا النون من «إن» لخفائها[1].

واختلفوا في أن رسالة يونس متى كانت؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل أن الله عزَّ وجلَّ ذكره في سورة الصافات: «۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ»[الصافات: ١٤٥]، ثم ذكر بعده: «وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ»[الصافات: ١٤٧]، وقال: الآخرون: إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى: «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ»[الصافات: ١٣٩-١٤٠].

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ دعا ربَّه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ وحيدًا لا ولد لي، وارزقني وارثًا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ثناء على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه أفضل من بقي حيًّا.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ولدًا ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: جعلناها ولودًا بعد ما كانت عقيمًا، قاله أكثر المفسرين، وقال بعضهم: كانت سيئة الخلق فأصلحها له بأن رزقها حسن الخلق ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: الأنبياء الذين سماهم في هذه السورة ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ طمعًا ﴿وَرَهَبًا﴾ خوفًا، رغبًا في رحمة الله، ورهبًا من عذاب الله ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: متواضعين، قال قتادة: ذللًا لأمر الله، قال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم في القلب.

---

(١) ذكر هذه الوجوه في القراءات الطبريُّ: (١٧/ ٨٢)، ثم قال: (والصواب من القراءة التي لا أستجيز غيرها في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار، من قراءته بنونين، وتخفيف الجيم لإجماع الحجة من القراء عليها، وتخطئتها خلافه).

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظت من الحرام، وأراد: مريم بنت عمران ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها، وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضاف الروح إليه تشريفًا لعيسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب، ولم يقل آيتين وهما آيتان؛ لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية؛ ولأن الآية كانت فيهما واحدة، وهي أنها أتت به من غير فحل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملتكم ودينكم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينًا واحدًا وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان، وأصل الأمة: الجماعة التي هي على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمة واحدة؛ لاجتماع أهلها على مقصد واحد، ونصب أمة على القطع ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفوا في الدين فصاروا فرقًا وأحزابًا، قال الكلبي: (فرَّقوا دينهم بينهم)[1]، يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض، والتقطع هاهنا بمعنى: التقطيع ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فنجزيهم بأعمالهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ لا يُجحد ولا يبطل سعيه، بل يُشكر ويُثاب عليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ لعمله حافظون، وقيل: معنى الشكر من الله المجازاة.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «وحِرْمٌ» بكسر الحاء بلا ألف، وقرأ الباقون بالألف «حرام»، وهما لغتان، مثل: حلٌّ وحلال.

قال ابن عباس: معنى الآية: وحرام على قرية، أي: أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أن يرجعوا بعد الهلاك، فعلى هذا تكون «لا» صلة، وقال آخرون: الحرام بمعنى الواجب، فعلى هذا تكون «لا» ثابتًا معناه: واجب على أهل قرية أهلكناهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ إلى الدنيا.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾

وقال الزجاج: معناه: وحرام على أهل قرية أهلكناهم، أي: حكمنا بهلاكهم، أن تتقبل أعمالهم؛ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون، والدليل على هذا المعنى أنه قال في الآية التي قبلها: «فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ»، أي: يتقبل عمله، ثم ذكر هذه الآية عقيبه، وبيَّن أن الكافر لا يتقبل عمله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب «فُتِّحت» بالتشديد على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف ﴿يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ يريد: فتح السدّ عن يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ أي: نشز وتل، والحدب: المكان المرتفع ﴿يَنسِلُونَ ٩٦﴾ يسرعون النزول من الآكام والتلال كنسلان الذئب، وهو سرعة مشيه، واختلفوا في هذه الكناية، فقال قوم: عنى بهم يأجوج ومأجوج، بدليل ما روينا عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون»[(١)].

وقال قوم: أراد جميع الخلق، يعني: أنهم يخرجون من قبورهم، ويدل عليه قراءة مجاهد «وهم من كل جدث» بالجيم والثاء كما قال: «فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ»[يس: ٥١].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن حجاج، أخبرنا أبو خيثمة زهير بن حرب، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن فرات القزاز، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطَّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ، فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: «نذكر الساعة»، قال: «إنها لن تقوم حتى ترَوْا قبلها عشرَ آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمغرب وخسفٌ بالمشرق وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: القيامة، قال الفراء وجماعة: الواو في قوله:

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال برقم٢١٣٧: (٤/ ٢٢٥٠_٢٢٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، باب الآيات التي تكون قبل الساعة برقم٢٩٠١: (٤/ ٢٢٢٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٤٥).

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَٱقْتَرَبَ﴾ مقحمة، فمعناه: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب[1] الوعد الحق، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾[الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، أي: ناديناه، والدليل عليه ما روي عن حذيفة قال: لو أن رجلًا اقتنى فلوًا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة[2]. وقال قوم: لا يجوز طرح الواو، وجعلوا جواب «حتى إذا فتحت» في قوله: «ياويلنا»، فيكون مجاز الآية: «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق، قالوا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا».

قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وفي قوله: «هي» ثلاثة أوجه:

٢٢/ب أحدها: أنها كناية عن الإبصار، ثم أظهر الإبصار بيانًا، معناه: فإذا / الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا.

والثاني: أنَّ «هي» تكون عمادًا، كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن﴾[الحج: ٤٦].

والثالث: أن يكون تمام الكلام عند قوله: «هي» على معنى: فإذا هي بارزة، يعني: من قربها كأنها حاضرة، ثم ابتدأ: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، على تقديم الخبر على الابتداء، مجازها أبصار الذين كفروا شاخصة، قال الكلبي: شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله، يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ بوضعنا العبادة في غير موضعها.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها، وقال مجاهد وقتادة: حطبها، والحصب في لغة أهل اليمن: الحطب، وقال عكرمة: هو الحطب بلغة الحبشة، قال الضحاك: يعني: يرمون بهم في النار كما يرمي بالحصباء، وأصل الحصب: الرمي، قال الله تعالى عزَّ وجلَّ: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾[القمر: ٣٤]، أي: ريحًا ترميهم بحجارة، وقرأ علي بن أبي طالب: «حطب جهنم» ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: فيها داخلون.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: الأصنام ﴿ءَالِهَةً﴾ على الحقيقة ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: ما دخل عابدوها النار ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يعني: العابد والمعبودين.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ٩٢).

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ قال ابن مسعود: في هذه الآية إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى (ثم تلك التوابيت في توابيت أخر)[١] عليها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئًا ولا يرى أحد منهم أن في النار أحدًا يعذب غيره، ثم استثنى فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال بعض أهل العلم: «إنَّ» هاهنا بمعنى «إلَّا» الذين سبقت لهم منَّا الحسنى، يعني: السعادة، والعِدَة الجميلة بالجنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ قيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة، وقال أكثر المفسرين: عنى بذلك كل من عُبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ثم تلا عليه: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» الآيات الثلاثة، ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ فقال عبد الله: أمَا والله لو وجدته لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعري: أنت قلت: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم»؟ قال: «نعم»، قال: أليست اليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد المسيح، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشياطين»، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ»[٢]، يعني: عزيرًا والمسيح والملائكة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، وأنزل في ابن الزبعري: «وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»[الزخرف: ٥٨]، وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام؛ لأن الله تعالى قال: «وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ»، ولو أراد به الملائكة والناس لقال: ومن تعبدون من دون الله[٣].

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١١١: (ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد، ولم أجده هكذا إلَّا ملفقًا، فأما صدره ففي «الطبراني الصغير» من حديث ابن عباس . . . وأما قوله: وكانت صناديد قريش، فقصة أخرى ذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريق ابن عباس، وروى ابن مردويه والواحدي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . .﴾ شق ذلك على قريش . . . فذكره نحوه). انظر: الطبري: (١٧/ ٩٧)، «أسباب النزول»: للواحدي: ص٣٥٣ـ ٣٥٤، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٦٨ـ ٦٩).

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١١١ ـ ١١٢: (اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال: ما أجهلك بلغة قومك، فإني قلت: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ وهي لما لا يعقل، ولم أقل ومن تعبدون) اهـ.
وهو شيء لا أصل له ولا يوجد لا مسندًا ولا غير مسند.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ يعني: صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة، والحسُّ والحسيس: الصوت الخفي ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ مقيمون، كما قال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[الزخرف: ٧١].

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس: الفزع الأكبر: النفخة الأخيرة، بدليل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[النمل: ٨٧]، قال الحسن: حتى يؤمر بالعبد إلى النار، وقال ابن جريج: حين يذبح الموت، ويُنادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو أن تطبق عليهم جهنم، وذلك بعد أن يُخرج الله منها من يريد أن يخرجه[١] ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم، ويقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ قرأ أبو جعفر «تُطْوَى» بالتاء وضمها وفتح الواو و«السماءُ» رفع على المجهول، وقرأ العامة بالنون وفتحها وكسر الواو، و«السماءَ» نصب ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «للكتب»، وقرأ الآخرون «للكتاب» على الواحد، واختلفوا في «السجل»، فقال السدي: السجل ملك يكتب أعمال العباد، واللام زائدة، أي: كطي السجل الكتب، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[النمل: ٧٢]، اللام فيه زائدة، وقال ابن عباس ومجاهد والأكثرون: السجل: الصحيفة، للكتب، أي: لأجل ما كتب، معناه: كطي الصحيفة على مكتوبها، والسجل: اسم مشتق من المساجلة وهي المكاتبة، والطي هو: الدرج الذي هو ضد النشر ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلًا، كذلك نعيدهم يوم القيامة، نظيره:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام: ٩٤].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري: (١٧/٩٨ ـ ٩٩)، ثم رجح قائلًا: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر، وأمن منه، فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلًا»، ثم قرأ: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ»[1]، ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ يعني: الإعادة والبعث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد: «الزبور» جمع الكتب المنزلة، و«الذكر»: أم الكتاب الذي عنده، والمعنى: من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ.

وقال ابن عباس والضحاك: «الزبور»: التوراة، و«الذكر»: الكتب المنزلة من بعد التوراة.

وقال الشعبي: الزبور: كتاب داود، (والذكر: التوراة، وقيل: الزبور: زبور داود)[2]، والذكر: القرآن،

١/٢٣ و«بعد» بمعنى «قبل»، كقوله تعالى: «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ»[الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم، / «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا»[النازعات: ٣٠] قبله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يعني: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ قال مجاهد: يعني: أمة محمد ﷺ، دليله قوله تعالى: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ»[الزمر: ٧٤]، وقال ابن عباس: أراد: أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون، وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز المسلمين، وقيل: أراد بالأرض: الأرض المقدسة.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: في هذا القرآن ﴿لَبَلَاغًا﴾ وصولًا إلى البغية، أي: من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجوه من الثواب، وقيل: بلاغًا، أي: كفاية، يقال: في هذا الشيء بلاغ وبُلغة، أي: كفاية، والقرآن زادُ الجنةِ كبلاغ المسافر ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: المؤمنين الذين يعبدون الله، وقال ابن عباس: عالمين، وقال كعب الأحبار: هم أمة محمد ﷺ أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ قال ابن زيد: يعني: رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم، (وقال ابن عباس: هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن، فمن آمن فهو رحمةٌ له)[2] في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم، وقد قال النبي ﷺ: «إنَّما أنا رحمةٌ مهداة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلًا﴾: (٦/ ٣٨٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة برقم ٢٨٦٠: (٤/ ٢١٩٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٣) أخرجه الدارمي عن أبي صالح مرسلًا، في المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ: (١/ ٩)، ووصله الحاكم: (١/ ٣٥)، وصححه على شرط الشيخين، وقال: (فقد احتجا جميعًا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول)، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في «شعب=

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: أسلموا.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم بالحرب، وأن لا صلح بيننا ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: إنذار بيِّن يستوي في علمه لا استبدادًا به دونكم لتتأهبوا لما يُراد بكم، أي: آذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به، وقيل: لتستووا في الإيمان ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي: وما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ يعني: القيامة.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعل تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور ﴿فِتْنَةٌ﴾ اختبار ﴿لَّكُمْ﴾ ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: تتمتعون إلى انقضاء آجالكم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ قرأ حفص عن عاصم «قال رب احكم»، والآخرون «قل رب احكم» افصل بيني وبين من كذبني بالحق، فإن قيل: كيف قال: «احكم بالحق» والله لا يحكم إلّا بالحق؟ قيل: الحق هاهنا بمعنى العذاب، كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يومَ بدر، نظير: قوله تعالى: «رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ»[الأعراف: ٨٩]، وقال أهل المعاني: معناه: رب احكم بحكمك الحق، فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه، والله تعالى يحكم بالحق طُلِب أو لم يُطلب، ومعنى الطلب: ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ من الكذب والباطل.

* * *

= الإيمان»: (٣/ ٥٧٧) مرسلًا من طريق الأعمش عن أبي صالح مرفوعًا، ثم قال: (رواه زياد بن يحيى الحساني عن مالك بن سعير عن الأعمش موصولًا بذكر أبي هريرة فيه، ثم ساقه بإسناده)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١١/ ٥٠٤)، وابن سعد في «الطبقات»: (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣) من طريق وكيع مرسلًا، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٥٧): (رواه البزار والطبراني في «الصغير»، ورجال البزار رجال الصحيح»، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (١/ ٨٠٣_٨٠٥).

سورة الحج

مكيّة غير آيات من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى
ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أي: احذروا عقابه بطاعته ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ والزلزلة والزِّلْزال: شدة الحركة على الحال الهائلة، واختلفوا في هذه الزلزلة:

فقال علقمة والشعبي: هي من أشراط الساعة، (وقيل: قيام الساعة)(١).

وقال الحسن والسدي: هذه الزلزلة تكون يوم القيامة.

وقال ابن عباس: زلزلة الساعة قيامها فتكون معها.

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ يعني: الساعة، وقيل: الزلزلة ﴿ تَذْهَلُ﴾ قال ابن عباس: تشغل، وقيل: تنسى، يقال: ذهلت عن كذا، أي: تركته واشتغلت بغيره ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: كل امرأة معها ولد ترضعه، يقال: امرأة مرضع، بلا هاء، إذا أريد به الصفة، مثل حائض وحامل، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم.

قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام، وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا؛ لأن بعد البعث لا يكون حمل.

ومن قال: تكون في القيامة، قال: هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته، كقولهم: أصابنا أمر يشيب فيه الوليد، يريد: شدته.

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (١٧/ ١١٤).

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي «سكرى وما هم بسكرى» بلا ألف، وهما لغتان في جمع السكران، مثل: كسلى وكسالى.

قال الحسن: معناه: وترى الناس سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب.

وقيل: معناه: وترى الناس كأنهم سكارى ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي العبسي، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: يا آدم، قم فابعثْ بَعْثَ النار، قال فيقول: لبيك وسعديك والخير كله في يديك، يا رب وما بعث النار؟ قال فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فحينئذ يشيب المولود، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس[1] سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، قال: فيقولون: وأينا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد»، فقال الناس: الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، قال: فكبَّر الناس، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم يومئذ في الناس إلَّا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو الشعرة السوداء في الثور الأبيض»[2].

٢٣/ب وروي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما: أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني / المصطلق ليلًا، فنادى[1] منادي رسول الله ﷺ فحَثُّوا المطيَّ حتى كانوا حول رسول الله ﷺ، فقرأها عليهم فلم يُرَ أكثر باكيًا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدرًا، والناس ما بين باكٍ أو جالس حزين متفكر، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي يوم ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم: قم فابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم: من كلٍّ كم؟ فيقول الله عزَّ وجلَّ: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة»، قال: فكَبُرَ ذلك على المسلمين وبَكَوْا وقالوا: فمن ينجو إذًا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلَّا كثَّرتاه: يأجوج ومأجوج»، ثم قال: «إني لأرجو (أن تكونوا)[1] ثلث أهل الجنة»، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة، وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفًا، ثمانون منها أُمتي،

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: (٦/ ٣٨٢)، ومسلم في الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» برقم ٢٢٢: (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾

وما المسلمين في الكفار إلَّا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة، بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»، ثم قال: «ويدخل من أمتي سبعون ألفًا الجنة بغير حساب»، فقال عمر: سبعون ألفًا؟ قال: «نعم، ومع كل واحد سبعون ألفًا»، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت منهم»، فقام رجل من الأنصار فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «سبقك بها عكاشة»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ نزلت في النضر بن الحارث[2]، كان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: يتبع في جداله في الله بغير علم ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ والمَرِيد: المتمرد المستمر في الشر.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ قُضي على الشيطان ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ يعني: الشيطان ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ أي: يضل من تولاه ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ في شك ﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ يعني: أباكم آدم الذي هو أصل

---

(١) أخرجه من حديث عمران الترمذي: (٩/ ١٢ ـ ١٣) حتى قوله: «في ذراع الدابة»، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في «التفسير»: (٢/ ٨٢ ـ ٨٣)، والإمام أحمد: (٤/ ٤٣٥) حتى قوله: «أو الرقمة في ذراع الدابة»، والحاكم: (١/ ٢٨)، (٢/ ٣٨٥)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي. وعزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف»: (٢/ ٣٧٨)، وابن حجر في «الكافي الشاف»: ص١١٢ للثعلبي والبغوي، قال ابن حجر: (وأما آخره فلم أره)، وأما حديث أبي سعيد فقد أخرجه البخاري ومسلم، كما سبق في الصفحة السابقة.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٨) لابن أبي حاتم.

النسل ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: ذريته، والنطفة: هي المنيُّ، وأصلها الماء القليل وجمعها نِطاف ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الغليظ المتجمد، وجمعها عَلَق، وذلك أن النطفة تصير دمًا غليظًا ثم تصير لحمًا ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: «مخلَّقة»، أي: تامة الخلق، «وغير مخلَّقة» غير تامة، أي: ناقصة الخَلْق، وقال مجاهد: مصورة وغير مصورة، يعني: السقط، وقيل: «المخلَّقة» الولد الذي تأتي به المرأة لوقته، «وغير مخلَّقة» السقط.

روي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها مَلَك بكفِّه وقال: أيْ ربِّ مخلَّقة أو غير مخلَّقة؟ فإن قال: غير مخلَّقة، قذفها الرحم دمًا ولم تكن نسمة، وإن قال: مخلَّقة، قال الملك: أيْ ربِّ أذَكَرٌ أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ ما الأجل ما العمل ما الرزق وبأي أرض تموت؟ فيقال له: اذهب إلى أُمِّ الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك، فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها، فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته»(١).

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة، وقيل: لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه في العبادة.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فلا تمجه ولا تسقطه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي: صغارًا، ولم يقل: أطفالًا؛ لأن العرب تذكر الجمع باسم الواحد، وقيل: تشبيهًا بالمصدر، مثل: عَدْل وزَوْر ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ يعني: الكمال والقوة.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ من قبل بلوغ الكبر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: الهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: يبلغ من السن ما يتغير عقله فلا يعقل شيئًا.

ثم ذكر دليلًا آخر على البعث فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: يابسة، لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات، وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت، وقيل: فيه تقديم وتأخير معناه: ربت واهتزت وربا نباتها، فحذف المضاف، والاهتزاز في النبات أظهر، يقال: اهتز النبات، أي: طال، وإنما أُنِّث لذكر الأرض، وقرأ أبو جعفر «وربأت» بالهمزة، وكذلك في «حَمَ السجدة»، أي: ارتفعت وعلت.

﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤﴾ أي: صنف حسن يبهج به من رآه، أي: يُسَرُّ، فهذا دليل آخر على البعث.

---

(١) أخرجه الترمذي في «نوادر الأصول» وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٩).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: النضر بن الحارث ﴿وَلَا هُدًى﴾ بيان ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: متبخترًا لتكبُّره، وقال مجاهد وقتادة: لاوِي عنقه، قال عطية وابن زيد: معرضًا
عمَّا يدعى إليه تكبرًا، وقال ابن جريج: يعرض عن الحق تكبرًا، والعِطْف: الجانب، وعِطْفَا الرجل:
جانباه عن يمين وشمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان، أي: يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء،
نظيره قوله تعالى: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا»[لقمان: ٧]، وقال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ
لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ»[المنافقون: ٥] ﴿لِيُضِلَّ عَن/ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ عذاب ١/٢٤
وهوان، وهو القتل ببدر، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط يوم بدر صبرًا ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ ويقال له: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ فيعذبهم بغير ذنب، وهو
جلَّ ذكره على أي وجه شاء تصرف في عبده، فحكمه عدل وهو غير ظالم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية نزلت في قوم من الأعراب، كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصحَّ بها جسمه ونُتِجَتْ بها فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حسنٌ وقد أصبت فيه خيرًا، واطمأن إليه، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأُجهضت رماكه(١) وقلَّ مالُه، قال: ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلَّا شرًا، فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة(٢)، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) مفردها «رَمَكَة» بفتحتين، وهي الأنثى من البراذين، وجمعها رماك. انظر: «مختار الصحاح» مادة: ر م ك.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٥٥ عن المفسرين، وأخرجه الطبري: (١٧/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، وأخرج البخاري نحوه في التفسير: (٨/ ٤٤٢) عن ابن عباس.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أكثر المفسرين قالوا: على شك، وأصله من حَرْف الشيء وهو طرفه، نحو حرف الجبل، والحائط الذي كالقائم عليه غير مستقر، فقيل للشَّاكِّ في الدين: إنه يعبد الله على حرف؛ لأنه على طرف وجانب من الدين لم يدخل فيه على الثبات والتمكن، وأصله كالقائم على حرف الجبل مضطرب غير مستقر، يعرض أن يقع في أحد جانبي الطرف لضعف قيامه، ولو عبدوا الله في الشكر على السراء، والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف، قال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ صحةٌ في جسمه، وسعةٌ في معيشته ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ أي: رضي به وسكن إليه ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ بلاء في جسده، وضيق في معيشته ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: هذا الشاك خسر الدنيا بفوات ما كان يؤمل ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ بذهاب الدين، والخلود في النار، قرأ يعقوب «خاسر» بالألف، «والآخرة» جرٌّ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ الظاهر.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن عصاه ولم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ إن أطاعه وعبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾ عن الحق والرشد.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ هذه الآية من مشكلات القرآن، وفيها أسئلة:

أولها: قالوا: قد قال الله في الآية الأولى: «يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ»، وقال هاهنا: «لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ» فكيف التوفيق بينهما؟

قيل: قوله في الآية الأولى «يدعو من دون الله ما لا يضره»، أي: لا يضره ترك عبادته، وقوله: «لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ»، أي: ضر عبادته.

فإن قيل: قد قال: «لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ» ولا نفع في عبادة الصنم أصلًا؟ قيل: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون لما لا يكون أصلًا: بعيدٌ، كقوله تعالى: «ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ»[ق: ٣]، أي: لا رجع أصلًا، فلما كان نفع الصنم بعيدًا، على معنى: أنه لا نفع فيه أصلًا، قيل: ضره أقرب؛ لأنه كائن.

السؤال الثالث: قوله: «لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ» ما وجه هذه اللام؟ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هي صلة، مجازها يدعو من ضره أقرب[1]، وكذلك قرأها ابن مسعود، وقيل: «لمن ضره»، أي: إلى الذي ضره أقرب من نفعه، وقيل: «يدعو» بمعنى «يقول» والخبر محذوف، أي: يقول لمن ضره أقرب من نفعه هو إله.

(١) انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها»: ص٢٧٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

وقيل: معناه: يدعو لمن ضره أقرب من نفعه يدعو، فحذف يدعو الأخيرة اجتزاء بالأولى، ولو قلت: يضرب لمن خيره أكثر من شره يضرب، ثم يحذف الأخير جاز، وقيل: على التوكيد، معناه: يدعو والله لَمَن ضره أقرب من نفعه، وقيل: «يدعو من» صلة قوله: «ذلك هو الضلال البعيد»، يقول: ذلك هو الضلال البعيد يدعو، ثم استأنف فقال: «لمن ضره أقرب من نفعه»، فيكون «مَن» في محل رفع بالابتداء، وخبره: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: الناصر، وقيل: المعبود ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ أي: الصاحب والمخالط، يعني: الوثن، والعرب تسمي الزوج عشيرًا؛ لأجل المخالطة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني: نبيه محمدًا ﷺ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بالسماء: سقف البيت، على قول الأكثرين، أي: ليشد حبلًا في سقف بيته فليختنق به حتى يموت ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ الحبل بعد الاختناق، وقيل: «ثم ليقطع»، أي: ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقًا ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ صنيعه وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ «ما» بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنَّ كيدُه وحيلتُه غيظَه، معناه: فليختنقْ غيظًا حتى يموت، وليس هذا على سبيل الحتم، أي: أن يفعله؛ لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت، ولكنه كما يقال للحاسد: إن لم تَرْضَ هذا فاختنق ومُتْ غيظًا.

وقال ابن زيد: المراد من السماء: السماء المعروفة.

ومعنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه، ويكيد في أمره ليقطعه عنه، فليقطعه من أصله، فإن أصله من السماء، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبي ﷺ الوحي الذي يأتيه فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل.

وروي أن هذه الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان، دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، وكان بينهم وبين اليهود حلف، وقالوا: لا يمكننا أن نُسْلِم؛ لأنا نخاف أن لا يُنصر محمدٌ ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود، فلا يميروننا ولا يؤووننا، فنزلت هذه الآية[1].

---

(١) ذكره الطبري: (١٧/ ١٢٨) بدون سند.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

٢٤/ب وقال مجاهد: «النصر» بمعنى الرزق، / والهاء راجعة إلى «من»، ومعناه: من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة. نزلت فيمن أساء الظن بالله عزَّ وجلَّ، وخاف ألا يرزقه الله، «فليمدد بسبب إلى السماء»، أي: إلى سماء البيت، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، وهو خيفة أن لا يرزق.

وقد يأتي النصر بمعنى الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله، أي: من يعطني أعطاه الله، قال أبو عبيدة: تقول العرب: أرض منصورة، أي: ممطورة.

قرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر ويعقوب «ثم لِيقطع» «ثم لِيقضوا» بكسر اللام، والباقون بجزمها؛ لأن الكل لام الأمر، زاد ابن عامر «﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾»[الحج: ٢٩] بكسر اللام فيهما، ومن كسر في «ثم ليقطع» وفي «ثم ليقضوا» فرَّق بأن ثَمَّ مفصول من الكلام، والواو كأنها من نفس الكلمة كالفاء في قوله: «فلينظر».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك، يعني: ما تقدم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يحكم بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، وقيل: «ألم ترَ»: تقرأ[1] بقلبك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها، وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلَّا يقع ساجدًا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، وقيل: سجودها بمعنى الطاعة، فإنه ما من جماد إلَّا وهو مطيع لله خاشع له

(١) زيادة من «ب».

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

مسبح له، كما أخبر الله تعالى عن السموات والأرض ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١]، وقال في وصف الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]، وهذا مذهبٌ حسن موافق لقول أهل السنة.

قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من هذه الأشياء كلها تسبح الله عزَّ وجلَّ، ﴿وكثير من الناس﴾، يعني: المسلمين ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهم الكفار؛ لكفرهم وتركهم السجود، وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عزَّ وجلَّ، والواو في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ واو الاستئناف.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ أي: يهنه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: من يذله الله فلا يكرمه أحدٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ أي: يكرم ويهين، فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: جادلوا في دينه وأمره، والخصم اسم شبيه بالمصدر، فلذلك قال: «اختصموا» بلفظ الجمع كقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[ص: ٢١]، واختلفوا في هذين الخصمين:

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبر محمد بن إسماعيل، أخبرنا يعقوب بن إبراهيم، أخبرنا هشيم، أخبرنا أبو هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عُباد قال: سمعت أبا ذر يقسم قسمًا أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة(١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا حجاج بن منهال، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعتُ أبي قال: أخبرنا أبو مجلز، عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس، وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل: (٧/ ٢٩٧)، ومسلم في التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ برقم ٣٠٣٣: (٤/ ٢٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل: (٧/ ٢٩٦).

قال محمد بن إسحاق: خرج ـ يعني: يوم بدر ـ عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة: عوذ ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا حين انتسبوا: أكفاء كرام، ثم نادى مناديهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب، فلما دَنَوْا قالوا: مَنْ أنتم؟ فذكروا وقالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدةَ، وكان أسن القوم عتبةُ، وبارز حمزةُ شيبةَ، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة، فأما حمزةُ فلم يُمهل أن قتل شيبةَ، وعليٌّ الوليدَ، واختلف عبيدةُ وعتبةُ بينهما ضربتان كلاهما أثبتَ[1] صاحبَهُ، فكرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبةَ فذفَّفَا عليه واحتملا عبيدةَ إلى أصحابه، وقد قُطعت رجلُه ومخُّها يسيل، فلما أتَوْا بعبيدةَ إلى رسول الله ﷺ قال: ألستُ شهيدًا يا رسول الله؟ قال: «بلى»، فقال عبيدةُ: لو كان أبو طالب حيًا لعلمَ أنًا أحقُّ بما قال منه[2] حيث يقول:

ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس وقتادة: نزلت الآية في المسلمين وأهلِ الكتاب، فقال أهلُ الكتاب: نحن أولى بالله وأقدمُ منكم كتابًا، ونبيُّنا قبلَ نبيِّكم، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله، آمنا بنبينا محمد ﷺ ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبيَّنا وكتابَنا وكفرتم به حسدًا، فهذه خصومتهم في ربهم[3].

وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والكلبي: هم المؤمنون والكافرون كلُّهم من أي ملةٍ كانوا[4].

وقال بعضهم: جعل الأديان ستة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ...﴾ الآية[المائدة: ٦٩]، فجعل خمسة للنار وواحدًا للجنة، فقوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ ينصرف إليهم: فالمؤمنون / خَصْمٌ، وسائرُ الخمسة خصمٌ. ٢٥/أ

وقال عكرمة: هما الجنة والنار اختصمتا كما أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد حسين القطان أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: أُوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالتِ الجنةُ: فما لي لا يدخلني إلَّا ضعفاءُ الناس وسقَطُهم وغرَّتُهم؟ قال الله عزَّ وجلَّ للجنة: إنما أنتِ رحمتي أرحمُ بك مَنْ أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابي أُعذِّبُ بك مَنْ أشاء من عبادي،

(١) في «ب»: (أثخن).
(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام مع «الروض الأنف»: (٢/ ٦٧ ـ ٦٨).
(٣) أخرجه الطبري: (١٧/ ١٣٢) عن ابن عباس.
(٤) انظر: الطبري: (١٧/ ١٣٢).

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾

ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤها، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضعَ الله فيها رجله فتقول قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله عزَّ وجلَّ ينشىء لها خَلْقًا»[1]، ثم بيَّن الله عزَّ وجلَّ ما للخصمين فقال:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس مذاب، وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حرًّا منه وسُمي باسم الثياب؛ لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب.

وقال بعضهم: يلبس أهل النار مُقَطّعات من النار ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩﴾ الحميم: هو الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يذاب بالحميم ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ يقال: صهرتُ الإليةَ والشحم بالنار ـ إذا أذبتهما ـ أصهرُها صهرًا، معناه: يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم حتى يسقط ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء ﴿وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ أي: يشوي حرُّها جلودَهم فتتساقط.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن زيد، عن أبي السمح، عن أبي حجيرة واسمه عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الحميمَ لَيصب على رؤوسهم فينفذُ الجمجمةَ حتى يَخْلُصَ إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرقَ من قدميه، وهو الصهر، ثم يُعادُ كما كان»[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ سياطٌ من حديد، واحدتها: مَقْمعة، قال الليث: المقمعة شبه الجرز من الحديد، من قولهم: قمعتُ رأسه، إذا ضربته ضربًا عنيفًا، وفي الخبر: «لو وضع مقمع من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلّوه من الأرض»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وتقول هل من مزيد﴾: (٨/ ٥٩٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء برقم٢٨٤٦: (٤/ ٢١٨٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٥٦ـ٢٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي في صفة أهل جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: (٧/ ٣٠٢ـ٣٠٣)، وقال: (هذا حديث غريب صحيح)، والإمام أحمد: (٢/ ٣٧٤)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٨٧)، والطبري: (١٧/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٤٤)، وقد ضعف الألباني إسناده في تعليقه على «المشكاة»: (٣/ ١٥٨١).

(٣) أخرجه الحاكم: (٤/ ٦٠٠) من رواية دراج عن أبي الهيثم، والإمام أحمد: (٣/ ٢٩)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٨): (رواه أحمد وأبويعلى، وفيه ضعفاء وثِّقوا).

وانظر: «الكافي الشاف»: ص١١٢، «الترغيب والترهيب»: (٤/ ٤٧٤).

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ أي: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكَرْبِ الذي يأخذ بأنفاسهم ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: رُدُّوا إليها بالمقامع، وفي التفسير: إن جهنم لَتجيشُ بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانيةُ بمقامع من الحديد فيهوون فيها سبعين خريفًا ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ أي: تقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب الحريق، أي: المُحْرِق، مثل: الأليم والوجيع.

قال الزَّجَّاج: هؤلاء أحد الخصمين، وقال في الآخر، وهم المؤمنون:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ جمع: سوَار ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم «ولؤلؤاً» هاهنا وفي سورة الملائكة بالنصب، وافق يعقوب هاهنا على معنى ويحلَّوْن لؤلؤاً؛ ولأنها مكتوبة في المصاحف بالألف، وقرأ الآخرون بالخفض عطفًا على قوله «من ذهب»، ويترك الهمزة الأولى في كل القرآن: أبو جعفر وأبو بكر، واختلفوا في وجه إثبات الألف فيه، فقال أبو عمرو: أثبتوها كما أثبتوا في: قالوا وكانوا، وقال الكسائي: أثبتوها للهمزة؛ لأن الهمزة حرف من الحروف ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ أي: يلبسون في الجنة ثياب الإبريسم وهو الذي حرم لبسه في الدنيا على الرجال.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن قتادة، عن داود السَّرَّاج، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يُلبسْهُ الله إيَّاه في الآخرة، فإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يَلْبسْهُ هو»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ قال ابن عباس: هو شهادةُ أن لا إله إلَّا الله، وقال ابن زيد: لا إله إلَّا الله والله أكبر والحمد لله (وسبحان الله)[2]، وقال السدي: أي: القرآن، وقيل: هو قول

---

(١) أخرجه الحاكم: (٤/ ١٩١) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو داود الطيالسي: ص٢٩٤، وأخرجه أيضًا عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: ص١٠، وأخرجه الشيخان عن أنس بن مالك بلفظ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»: البخاري في اللباس، باب لبس الحرير للرجال: (١٠/ ٢٨٤)، ومسلم في اللباس، باب تحريم الذهب والحرير على الرجال وإباحته للنساء برقم ٢٠٧٣: (٣/ ١٦٤٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٠ـ٣١).

(٢) زيادة من «ب».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

أهل الجنة: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ»[الزمر: ٧٤] ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ إلى دين الله وهو الإسلام، و«الحميد»: هو الله المحمود في أفعاله.

قوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطف المستقبل على الماضي؛ لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي كما قال تعالى في موضع آخر: «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ»[النساء: ١٦٧]، معناه: إن الذين كفروا فيما تقدم، ويصدون عن سبيل الله في الحال، أي: وهم يصدون ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ويصدون عن المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ قبلةً لصلاتهم ومَنْسكًا ومُتعبدًا كما قال: «وُضِعَ لِلنَّاسِ»[آل عمران: ٩٦] ﴿سَوَآءً﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب «سواء» نصبًا بإيقاع الجعل عليه؛ لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين، وقيل: معناه: مستويًا فيه ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبر، وتمام / الكلام عند قوله «للناس»، وأراد بالعاكف: المقيم فيه، والبادي: الطارىء ٢٥/ب
المنتاب إليه من غيره.

واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: «سواء العاكف فيه والباد»، أي: في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه، وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة، وقالوا: المراد منه نفس المسجد الحرام، ومعنى التسوية: هو التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت.

وقال آخرون: المراد منه جميع الحرم، ومعنى التسوية: أن المقيم والبادي سواء في النزول به، ليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواء في البيوت(١) والمنازل.

وقال عبد الرحمن بن سابط: كان الحُجَّاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم، وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم، وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وعلى القول الأول ـ وهو الأقرب إلى الصواب ـ يجوز؛ لأن الله تعالى قال: «ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم»[الحج: ٤٠]، وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»(٢)، فنسب الدار إليه نسب ملك، واشترى عمر دارًا للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم، فدل على جواز بيعها، وهذا قول طاووس وعمرو بن دينار، وبه قال الشافعي.

---

(١) في «ب»: (السوق).

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب فتح مكة برقم ١٧٨٠: (٣/ ١٤٠٥ ـ ١٤٠٧).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أي: في المسجد الحرام، بإلحاد بظلم: وهو الميل إلى الظلم، الباء في قوله «بإلحاد» زائدة، كقوله: « تَنبُتُ بِالدُّهْنِ»[المؤمنون: ٢٠]، ومعناه: من يرد فيه إلحادًا بظلم، قال الأعشى: «ضمنت برزق عيالنا أرماحُنا»، أي: رزق عيالنا، وأنكر المبرِّد أن تكون الباء زائدة، وقال: معنى الآية: من تكن إرادته فيه بأن يلحد بظلم.

واختلفوا في هذا الإلحاد، فقال مجاهد وقتادة: هو الشرك وعبادة غير الله، وقال قوم: هو كل شيء كان منهيًا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم، وقال عطاء: هو دخول الحرم غير محرم، أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم: من قتل صيد، أو قطع شجر، وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه من لا يقتلك، أو تظلم فيه من لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك، وعن مجاهد أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات، وقال حبيب بن أبي ثابت: هو احتكار الطعام بمكة.

وقال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾، قال: لو أن رجلًا همَّ بخطيئةٍ لم تكتب عليه ما لم يعملْها، ولو أن رجلًا همَّ بقتل رجلٍ بمكةَ وهو بعدن أبين، أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم، وقال السدي: إلَّا أن يتوب.

وروي عن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان، أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الآخر، فسئل عن ذلك فقال: كنَّا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: وطَّأنا، قال ابن عباس: جعلنا، وقيل: بيَّنَّا، قال الزجاج: جعلنا مكان البيت (مبوءًا لإبراهيم.

وقال مقاتل بن حيان: هيأنا، وإنما ذكرنا مكان البيت)[(٢)]؛ لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمان الطوفان، ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت لم يدرِ أين يبني فبعث اللهُ ريحًا خجوجًا فكنَّست له ما حول البيت على الأساس[(٢)].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الطبري: (١٧/ ١٣٨ - ١٤٢)، ثم قال: (وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب: القول الذي ذكرناه عن ابن مسعود وابن عباس من أنه معنيٌّ بالظلم في هذا الموضع: كل معصية لله، وذلك أن الله عمَّ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، ولم يُخصِّص به ظلمًا دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ
عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾

وقال الكلبي: بعث الله سحابةً بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم: يا إبراهيم، ابْنِ على قَدَري، فبنى عليه[1]، قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ أي: عهدنا إلى إبراهيم، وقلنا له: لا تشرك بي شيئًا ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ يعني: الذين يطوفون بالبيت ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾ أي: المقيمين ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ أي: المصلين.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: أعلِمْ ونادِ في الناس ﴿بِٱلۡحَجِّ﴾ فقال إبراهيم: وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذانُ وعليَّ البلاغُ، فقام إبراهيم على المَقام فارتفع المقامُ حتى صار كأطول الجبال، فأدخل أصبعيه في أذنيه، وأقبل بوجهه يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، وقال: يا أيها الناس، ألا إن ربَّكم قد بنى بيتًا وكتب عليكم الحجَّ إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه كل مَنْ كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك[2]، قال ابن عباس: فأول من أجابه أهل اليمن، فهم أكثر الناس حجًا.

وروي أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى[3]، وقال ابن عباس: عنى بالناس في هذه الآية: أهل القبلة، وزعم الحسن أن قوله: «وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ» كلام مستأنف، وأن المأمور بهذا التأذين محمد ﷺ، أُمِرَ أن يفعل ذلك في حجة الوداع.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا»[4].

قوله تعالى: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ مشاة على أرجلهم، جمع: راجل، مثل: قائم وقيام وصائم وصيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أي: ركبانًا على كل ضامر، والضامر: البعير المهزول ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ أي: من كل طريق بعيد، وإنما جمع «يأتين» لمكان «كل»، وإرادة النوق.

﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ قال سعيد بن المسيب ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة، وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس، قال: الأسواق، وقال مجاهد: التجارة،

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٠).
(٢) انظر: الطبري: (١٧/ ١٤٤).
(٣) عزاه السيوطي: (٦/ ٣٥) لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٤) أخرجه مسلم في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر برقم ١٣٣٧: (٢/ ٩٧٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ٣).

وما يَرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة[1] ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ يعني: عشر ذي الحجة، في قول أكثر المفسرين، قيل لها: «معلومات»؛ للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج
١/٢٦ في آخرها، ويروى عن علي / ـ رضي الله عنه ـ: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق، وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق[2] ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني: الهدايا والضحايا، تكون من النعم: وهي الإبل والبقر والغنم.

واختار الزجاج أن الأيام المعلومات: يوم النحر وأيام التشريق؛ لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها، ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أمر إباحة وليس بواجب، وإنما قال ذلك؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئًا، واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعًا يجوز للمهدي أن يأكل منه، وكذلك أُضحية التطوع لِمَا:

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال في قصة حجة الوداع: وقدم عليٌّ ببدن من اليمن، وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثًا وستين بدنة بيده ونحر عليٌّ ما بقي، ثم أمر النبي ﷺ أن تؤخذ بَضْعةٌ من كل بدنة فتجعل في قدر، فأكلا من لحمها وحسيا من مرقها[3].

واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع، هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئًا؟ مثل: دم التمتع والقِرَان والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد؟

فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئًا، وبه قال الشافعي، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر، وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر، ويأكل مما سوى ذلك، وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلَّا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور، وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتع والقِرَان ولا يأكل من واجب سواهما.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ يعني: الزَّمِن الفقير الذي لا شيء له، و«البائس»: الذي اشتد بؤسه، والبؤس: شدة الفقر.

---

(١) ذكر هذه الأقوال: الطبري: (١٧/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، ثم قال مرجحًا: (وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عمَّ لهم منافع جميع ما يَشْهَد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيء من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت).

(٢) سبق تخريج هذه الأقوال في: (١/ ١٩٠)، هامش (١).

(٣) قطعة من حديث جابر، أخرجه مسلم برقم١٢١٨: (٢/ ٨٩٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ١٥٠).

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ التفث: الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظافر والشَّعَث، تقول العرب لمن تستقذره: ما أتفثك، أي: ما أوسخك، والحاج أشعث أغبر، لم يحلق شعره ولم يقلم ظفره، فقضاء التفث: إزالة هذه الأشياء ليقضوا تفثهم، أي: ليزيلوا أدرانهم، والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وقلم الأظفار ولبس الثياب، قال ابن عمر وابن عباس: «قضاء التفث»: مناسك الحج كلها، وقال مجاهد: هو مناسك الحج، وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظافر، وقيل: التفث هاهنا رمي الجمار، قال الزجاج: لا نعرف التفث ومعناه إلَّا من القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال مجاهد: أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج، أي: ليتموها بقضائها، وقيل: المراد منه: الوفاء بما نذر على ظاهره، وقيل: أراد به الخروج عما وجب عليه، نذر أو لم ينذر، والعرب تقول لكل من خرج عن الواجب عليه: وَفَّى بنذره، وقرأ عاصم برواية أبي بكر «ولْيَوَفُّوا» بنصب الواو وتشديد الفاء.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ أراد به: الطواف الواجب عليه، وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق.

والطواف ثلاثة: طواف القدوم، وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعًا يرمل ثلاثًا من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعًا، وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أحمد هو أبو عيسى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشي أنه سأل عروة بن الزبير فقال: قد حج النبي ﷺ فأخبرتني عائشة أنه أول شيء بدأ به حين قدم أنه توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة، ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم يكن عمرة، ثم عمر مثل ذلك، ثم حج عثمان فرأيته أول شيء بدأ به الطواف بالبيت[1].

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا أنس بن عياض، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم يسعى ثلاثة أطواف ويمشي أربعًا،

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب الطواف على وضوء: (٣/ ٤٩٦)، ومسلم في الحج، باب ما يلزم من طاف بالبيت وسعى برقم ١٢٣٥: (٢/ ٩٠٦-٩٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ١٠١-١٠٢).

ثم يصلي سجدتين، ثم يطوف بين الصفا والمروة سبعًا[١].

والطواف الثاني: هو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق، وهو واجب لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأتِ به.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، أخبرنا الأعمش، أخبرنا إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: حاضت صفية ليلة النفر فقالت: ما أراني إلّا حابستكم، قال النبي ﷺ: «عَقرى حلقى أطافت يوم النحر؟ قيل: نعم، قال: فانفري»[٢]، فثبت بهذا أنَّ من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر.

والطواف الثالث: هو طواف الوداع، لا رخصة فيه لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعًا، فمن تركه فعليه دم إلّا المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع.

٢٦/ب أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز أحمد الخلال، / أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان، عن سليمان الأحول، عن طاووس، عن ابن عباس قال: أُمر الناس أن يكون آخرَ عهدهم الطواف بالبيت إلّا أنه رُخِّصَ للمرأة الحائض[٣].

والرَّمَل مختص بطواف القدوم، ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع.

قوله: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٢٩﴾ اختلفوا في معنى «العتيق»، قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة: سمي عتيقًا؛ لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبارٌ قط، وقال سفيان بن عيينة: سمي عتيقًا؛ لأنه لم يُملك قطُّ، وقال الحسن وابن زيد: سُمي به؛ لأنه قديم، وهو أول بيت وضع للناس، يقال: دينار عتيق، أي: قديم، وقيل: سمي عتيقًا؛ لأن الله أعتقه من الغرق، فإنه رُفع أيام الطوفان[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب من طاف بالبيت إذا قدم مكة: (٣/ ٤٧٧)، ومسلم في الحج، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة برقم١٢٦١: (٢/ ٩٢٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ١٠٤)، والشافعي في «المسند»: (١/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب الإدلاج من المحصب: (٣/ ٥٩٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب طواف الوداع: (٣/ ٥٨٥)، ومسلم في الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض برقم١٣٢٨، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ٢٣٢)، والشافعي في «المسند»: (١/ ٣٦٤).

(٤) ذكر هذه الأقوال الطبري: (١٧/ ١٥١ـ ١٥٢)، ثم قال: (ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه في قوله: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ وجه صحيح، غير أن الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر، غير أن الذي رُوي عن ابن الزبير أولى بالصحة، إن كان ما حدثني به محمد ابن سهل البخاري ـ قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن الزهري، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه قط» ـ صحيحًا).

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، يعني: ما ذكر من أعمال الحج ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: معاصي الله وما نهى عنه، وتعظيمها: ترك ملابستها، قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها، وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات هاهنا: المناسك، بدلالة ما يتصل بها من الآيات، وقال ابن زيد: الحرمات هاهنا: البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام والإحرام(١) ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: تعظيم الحرمات، خير له عند الله في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أن تأكلوها إذا ذبحتموها، وهي الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه، وهو قوله في سورة المائدة: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ...» الآية[المائدة: ٣] ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي: عبادتها، يقول: كونوا على جانب منها فإنها رجس، أي: سبب الرجس، وهو العذاب، والرجس بمعنى: الرجز، وقال الزجاج: «من» هاهنا للتجنيس، أي: اجتنبوا الأوثان التي هي رجس ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني: الكذب والبهتان، وقال ابن مسعود: شهادة الزور، وروي أن النبي ﷺ قام خطيبًا فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله»، ثم قرأ هذه الآية(٢)، وقيل: هو قول المشركين في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك لبيك إلَّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ قال قتادة: كانوا في الشرك يحجون، ويحرِّمون البنات والأمهات والأخوات، وكانوا يُسمون حنفاء، فنزلت: «حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ»، أي: حجاجًا لله مسلمين موحدين، يعني: مَنْ أشرك لا يكون حنيفًا.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي:

---

(١) انظر: الطبري: (١٧/ ١٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في شهادة الزور: (٥/ ٢١٧)، والترمذي في الشهادات: (٦/ ٥٨٥)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد - يعني: حديث خريم بن فاتك - وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعًا من النبي ﷺ)، وابن ماجه في الأحكام، باب شهادة الزور برقم ٢٣٧٢: (٢/ ٧٩٤)، والإمام أحمد: (٤/ ١٧٨).

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾

تستلبه الطير وتذهب به، والخطف والاختطاف: تناول الشيء بسرعة، وقرأ أهل المدينة «فتخَطّفه» بفتح الخاء وتشديد الطاء، أي: يتخطفه ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تميل وتذهب به ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ أي: بعيد، معناه: أنَّ بُعْدَ من أشرك من الحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير، أو هَوَتْ به الريح، فلا يصل إليه بحال، وقيل: شبَّه حال المشرك بحال الهاوي من السماء، في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تُسقطه الريح، فهو هالك لا محالة، إما باستلاب الطير لحمه، وإما بسقوطه إلى المكان السحيق، وقال الحسن: شبَّه أعمال الكفار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ قال ابن عباس: «شعائر الله» البُدْن والهدي، وأصلها من الإشعار، وهو إعلامها ليعرف أنها هدي، وتعظيمها: استسمانها واستحسانها، وقيل: «شعائر الله» أعلام دينه، «فإنها من تقوى القلوب»، أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في البُدْنِ قبل تسميتها للهدي ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو أن يسميها ويوجبها هديًا، فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها، هذا قول مجاهد، وقول قتادة والضحاك، ورواه مقسم عن ابن عباس.

وقيل: معناه: لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديًا، بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة «إلى أجل مسمى»، يعني: إلى أن تنحروها، وهو قول عطاء بن أبي رباح.

واختلف أهل العلم في ركوب الهدي:

فقال قوم: يجوز له ركوبُها والحمل عليها غير مضرٍّ بها، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، لِما أخبر أبو الحسن السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يسوق بدنة فقال له: «اركبها»، فقال: يا رسول الله، إنها بدنة، فقال: «اركبها، ويلك»، في الثانية أو الثالثة، وكذلك قال له: «اشرب لبنها بعدما فضل عن رَيّ ولدها»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب ركوب البدن: (٣/ ٥٣٦)، ومسلم في الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها برقم ١٣٢٢: (٢/ ٩٦٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ١٩٥).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وقال أصحاب الرأي: لا يركبها، وقال قوم: لا يركبها إلّا أن يضطر إليه، وقال بعضهم: أراد بالشعائر: المناسك ومشاهد مكة، «لكم فيها منافع» بالتجارة والأسواق «إلى أجل مسمى» وهو الخروج من مكة، وقيل: «لكم فيها منافع» بالأجر والثواب في قضاء المناسك، «إلى أجل مسمى»، أي: إلى انقضاء أيام الحج.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي: منحرها ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: منحرها عند البيت العتيق، يريد: أرض الحرم كلها، كما قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[التوبة: ٢٨]، أي: الحرم كله.

٢٧/أ وروي عن جابر في قصة حجة الوداع أن رسول الله ﷺ / قال: «نحرتُ هاهنا ومِنَى كلها منحر، فانحروا في رحالكم»[(١)].

ومن قال: «الشعائر» المناسك، قال: معنى قوله: «ثم محلها إلى البيت العتيق»، أي: محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر.

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: جماعة مؤمنة، سلفت قبلكم ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر السين هاهنا وفي آخر السورة، على معنى الاسم، مثل: المجلس والمطلع، أي: مذبحًا، وهو موضع القربان، وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر، مثل: المدخل والمخرج، أي: إراقة الدماء وذبح القرابين ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ (عند نحرها وذبحها، وسماها بهيمة)[(٢)]؛ لأنها لا تتكلم، وقال: «بهيمة الأنعام» وقيدها بالنَّعم؛ لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير، لا يجوز ذبحها[(٣)] في القرابين.

قال الله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: سموا على الذبائح اسم الله وحده، فإن إلهكم إله واحد ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ انقادوا وأطيعوا ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة: المتواضعين، وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله عزَّ وجلَّ، و«الخَبْتُ»: المكان المطمئن من الأرض، وقال الأخفش: الخاشعين، وقال النخعي: المخلصين، وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس: هم الذي لا يَظلِمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف برقم ١٢١٨: (٢/ ٨٩٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ١٥٠).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٣) في «أ»: (دخولها).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البلاء والمصائب ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: المقيمين للصلاة في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يتصدقون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَةٍ، سميت بدنة؛ لعظمها وضخامتها، يريد: الإبل العظام الصحاح الأجسام، يقال: بَدُنَ الرجل بَدْنًا وبدانةً إذا ضخم، فأما إذا أسَنَّ واسترخى، يقال: بَدَّن تبدينًا، قال عطاء والسدي: البُدْن: الإبل والبقر، أما الغنم فلا تسمى بدنة ﴿جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام دينه، سُميت شعائر؛ لأنها تُشعَر، وهو أن تُطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ النفع في الدنيا، والأجر في العقبى ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند نحرها ﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قيامًا على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها، ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن مسلمة، أخبرنا يزيد بن زريع، عن يونس، عن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بَدَنَةً ينحرها، قال: ابعثها قيامًا مقيدةً سنةَ محمدٍ ﷺ(١).

وقال مجاهد: «الصواف» إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث قوائم.

وقرأ ابن مسعود «صوافن» وهي أن تعقل منها يد وتنحر على ثلاث، وهو مثل: صواف، وقرأ أُبي والحسن ومجاهد: «صوافي» بالياء، أي: صافية خالصة لله لا شريك له فيها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض، وأصل الوجوب: الوقوع، يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمر إباحة ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ اختلفوا في معناها:

فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة: «القانع»: الجالس في بيته، المتعفف يقنع بما يُعطى ولا يسأل، و«المعتر»: الذي يسأل.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب نحر الإبل مقيدة: (٣/٥٥٣)، ومسلم في الحج، باب نحر البدن قيامًا مقيدة برقم ١٣٢٠: (٢/٩٥٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/١٩٨).

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

وروى العوفي عن ابن عباس: «القانع»: الذي لا يتعرض ولا يسأل، و«المعتر»: الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل، فعلى هذين التأولين يكون «القانع»: من القناعة، يقال: قنع قناعة إذا رضي بما قُسم له.

وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي: «القانع»: الذي يسأل، و«المعتر»: الذي يتعرض ولا يسأل، فيكون «القانع»: من قنع يقنع قنوعًا إذا سأل.

وقرأ الحسن: «والمعتري» وهو مثل المعتر، يقال: عرّه واعترّه وعرّاه واعتراه إذا أتاه يطلب معروفه، إما سؤالًا أو تعرضًا.

وقال ابن زيد: «القانع»: المسكين، و«المعتر»: الذي ليس بمسكين، ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم[1].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفنا من نحرها قيامًا ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ نعمة منا لتتمكنوا من نحرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله، فأنزل الله هذه الآية: «لن ينال الله لحومُها ولا دماؤُها»، قرأ يعقوب «تنال» و«تناله» بالتاء فيهما، وقرأ العامة بالياء، قال مقاتل: لن يُرفع إلى الله لحومُها ولا دماؤُها ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن تُرفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى والإخلاص وما أريد به وجه الله ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ يعني: البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، وهو أن يقول: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قال ابن عباس: الموحدين.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة «يدفع»، وقرأ الآخرون

---

(١) ذكر هذه الأقوال وغيرها الطبري: (١٧/ ١٦٧ ـ ١٧٠)، ثم قال: (وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بالقانع: السائل؛ لأنه لو كان المعنيّ بالقانع في هذا الموضع: المكتفي بما عنده، والمستغني به لقيل: وأطعموا القانع والسائل ولم يقل: وأطعموا القانع والمعترّ، وفي إتباع ذلك قوله: والمعترّ، الدليل الواضح على أن القانع معنيّ به السائل من قولهم: قنع فلان إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعًا، ومنه قول لبيد:

وأعطاني المَوْلى على حين فقرِهِ ... إذا قال أبصرْ خَلّتي وقُنُوعي

وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قنِعت، بكسر النون، أقنع قناعة، وقنوعًا وقنعانًا، وأما المعتر: فإنه الذي يأتيك معترًا بك لتعطيه وتطعمه).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

«يدافع» بالألف، يريد: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين، ويمنعهم عن المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: خوان في أمانة الله، كفور لنعمته، قال ابن عباس: خانوا الله فجعلوا معه شريكًا وكفروا نعَمه، قال الزجاج: من تقرب إلى الأصنام بذبيحته، وذكر عليها اسم غير الله فهو خوان كفور.

٢٧/ب قوله عزَّ وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ / قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم «أُذن» بضم الألف، والباقون بفتحها، أي: أذن الله، «للذين يُقاتَلون» قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص «يقاتَلون» بفتح التاء، يعني: المؤمنين الذين يقاتلهم المشركون، وقرأ الآخرون بكسر التاء، يعني: الذين أذن لهم بالجهاد «يقاتِلون» المشركين.

قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى النبي ﷺ فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[1]، وهي أول آية أَذِنَ الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية بالمدينة.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا يُمنعون فأذِنَ الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة[2] ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي: بسبب ما ظُلِموا، واعتدوا عليهم بالإيذاء ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بدل عن «الذين» الأولى ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم ربنا الله وحده.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ قرأ أهل الحجاز بتخفيف الدال، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير، فالتخفيف يكون للقليل والكثير، والتشديد يختص بالكثير

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١١٣: (لم أجده هكذا، وعزاه الواحدي في «الوسيط» للمفسرين، قلت ـ ابن حجر ـ: هو منتزع من أحاديث، أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم بمكة، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلما خرج النبي ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾). انظر: «أسباب النزول»: ص٣٧٥، «تخريج الكشاف»: (٢/ ٣٨٨).

(٢) عزاه السيوطي: (٦/ ٥٧) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل».

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ
لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا
وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿صَوَٰمِعُ﴾ قال مجاهد والضحاك: يعني: صوامع الرهبان، وقال قتادة: صوامع الصابئين ﴿وَبِيَعٌ﴾ بِيَع النصارى، جمع: «بيعة»، وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ يعني: كنائس اليهود، ويسمونها بالعبرانية صلوتا ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يعني: مساجد المسلمين من أمة محمد ﷺ.

ومعنى الآية: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البِيَع والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد.

وقال ابن زيد: أراد بالصلوات: صلوات أهل الإسلام، فإنها تنقطع إذا دخل العدو عليهم.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه ونبيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال الزَّجَّاج: هذا من صفة ناصريه، ومعنى «مكانهم في الأرض»: نصرناهم على عدوهم حتى يتمكنوا من البلاد، قال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال الحسن: هم هذه الأمة ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي: آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه، يعني: يبطل كل ملك سوى ملكه، فتصير الأمور إليه بلا منازع ولا مدَّع.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعزّي نبيه ﷺ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتهم وأخَّرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتُهم[1] ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إنكاري، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوف به من يُخالِفُ النبيَّ ﷺ ويكذبه.

﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا﴾ بالتاء[2]، هكذا قرأ أهل البصرة ويعقوب، وقرأ الآخرون «أهلكناها» بالنون والألف على التعظيم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وأهلها ظالمون ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة

---

(١) زيادة من «ب».
(٢) أي: أهلكتها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ (أي: وكم من بئر معطلة)[1] متروكة مخلاة عن أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل: رفيع طويل، من قولهم: شاد بناءه إذا رفعه، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: مجصَّص، من الشيد، وهو الجص، وقيل: إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن، أما القصر فعلى قُلَّة جبل، والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقي البئر والقصر خاليين.

وروى أبو روق عن الضحاك: أن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها: حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح، نجوا من العذاب، أتوا حضرموت ومعهم صالح، فلما حضروه مات صالح، فسمي حضرموت؛ لأن صالحًا لما حضر مات فبنوا حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمَّروا عليهم رجلًا فأقاموا دهرًا وتناسلوا حتى كثروا، ثم إنهم عبدوا الأصنام وكفروا، فأرسل الله إليهم نبيًا يقال له: حنظلة بن صفوان، كان حمالًا فيهم، فقتلوه في السوق فأهلكهم الله، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: كفار مكة، فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا﴾ الهاء عماد ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ ذَكَر «التي في الصدور» تأكيدًا كقوله: «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ»[الأنعام: ٣٨]، معناه: أن العمى الضار هو عمى القلب، فأمَّا عمى البصر فليس بضار في أمر الدين، قال قتادة: البصر الظاهر: بُلْغة ومتعة، وبصر القلب: هو البصر النافع.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر
١/٢٨ علينا حجارة من السماء[3] ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فأُنجز ذلك يوم / بدر ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي «يعدون» بالياء هاهنا لقوله: «يستعجلونك»، وقرأ الباقون بالتاء؛ لأنه أعم؛ لأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين، واتفقوا في تنزيل «السجدة» أنه بالتاء.

قال ابن عباس: يعني: يومًا من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

وقال مجاهد وعكرمة: يومًا من أيام الآخرة، والدليل عليه: ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب». (٢) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٣٧٧). (٣) سبق تخريجه سورة الأنفال عند الآية (٣٢).

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمسمائة سنة»[١].

قال ابن زيد: «وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون» هذه أيام الآخرة، وقوله: «كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون» يوم القيامة، والمعنى على هذا: أنهم يستعجلون بالعذاب، وإن يومًا من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة.

وقيل: معناه: وإن يومًا من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدة كألف سنة مما تعدون، فكيف تستعجلونه؟ هذا كما يقال: أيام الهموم طوال، وأيام السرور قصار.

وقيل: معناه: إن يومًا عنده وألف سنة في الإمهال سواء؛ لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوتُه شيء بالتأخير، فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أمهلتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ الرزق الكريم: الذي لا ينقطع أبدًا، وقيل: هو الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: عملوا في إبطال آياتنا ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «معجّزين» بالتشديد هاهنا وفي سورة «سبأ»، أي: مثبّطين الناس عن الإيمان، وقرأ الآخرون «معاجزين» بالألف، أي: معاندين مشاقين، وقال قتادة: معناه: ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، ومعنى يعجزوننا، أي: يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وهذا كقوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا»[العنكبوت: ٤]، (وقيل: «معاجزين» مغالبين، يريد كلُّ واحد أن يُظهر عجز صاحبه)[٢] ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم، باب في القصص: (٥/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، قال المنذري: (في إسناده المعلى بن زياد، وفيه مقال) ثم ساق شاهدًا من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي وابن ماجه، والإمام أحمد: (٣/ ٦٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٢) ما بين القوسين مؤخر في المخطوط.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ...﴾ الآية، قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين: لما رأى رسول الله ﷺ تولِّي قومه عنه، وشقَّ عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تمنَّى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم، فكان يومًا في مجلس قريش فأنزل الله تعالى سورة «النجم» فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ألقى الشيطان على لسانه بما يحدِّث به نفسه ويتمناه: «تلك الغرانيق العلى وإنَّ شفاعتهم لتُرتَجى»، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله ﷺ في قراءته، فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده، وسجد جميع مَن في المسجد مِن المشركين، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلَّا سجد إلَّا الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها؛ لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود، وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعل لها نصيبًا فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد، ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عزَّ وجلَّ! فحزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا وخاف من الله خوفًا كثيرًا، فأنزل الله هذه الآية يعزيه، وكان به رحيمًا، وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي ﷺ وبلغهم سجود قريش، وقيل: أسلمت قريش وأهل مكة، فرجع أكثرهم إلى عشائرهم، وقالوا: هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلًا، فلم يدخل أحد إلَّا بجوار أو مستخفيًا، فلما نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغيَّر ذلك، وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شرًا إلى ما كانوا عليه، وشدةً على من أسلم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ وهو الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، وكل رسولٍ نبي، وليس كل نبيٍّ رسولًا ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال بعضهم: أي: أحب شيئًا واشتهاه وحدَّث به نفسه ما لم يؤمر به ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: مراده.

وعن ابن عباس قال: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلًا، وما من نبي إلَّا تمنى أن يؤمن به قومه، ولم يتمنَّ ذلك نبي إلَّا ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه، فينسخ الله ما يلقي الشيطان.

وأكثر المفسرين / قالوا: معنى قوله: «تَمَنَّىٰٓ»، أي: تلا وقرأ كتاب الله تعالى، «أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ ٢٨/ب
أُمْنِيَّتِهِۦ»، أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تَمَنَّـى كتــابَ اللهِ أوَّلَ ليلــةٍ   وآخِرَهَا لاقَى حِمَامَ المَقادِرِ

واختلفوا في أنه كان يقرأ في الصلاة أو في غير الصلاة؟ فقال قوم: كان يقرأ في الصلاة، وقال قوم: كان يقرأ في غير الصلاة، فإن قيل كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصومًا من الغلط في أصل الدين، وقال جلّ ذكره في القرآن: «لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ»[فصلت: ٤٢]، يعني: إبليس؟

قيل: قد اختلف الناس في الجواب عنه، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته، فظن المشركون أن الرسول قرأه.

وقال قتادة: أغفى النبي ﷺ إغفاءةً فجرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان، ولم يكن له خبر.

والأكثرون قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان، ولم يلبث أن نبه الله عليه.

وقيل: إن شيطانًا يقال له: أبيض، عمل هذا العمل، وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى يمتحن عباده بما يشاء(١).

---

(١) إن هذه القصة والمعروفة بقصة الغرانيق قد ذكرها أكثر المفسرين دون تعليق، فقد ذكره الطبري: (١٧/ ١٨٦ ـ ١٩٠)، وابن كثير في «تفسيره»: (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، ثم قال: (وقد ذكرها محمد بن إسحاق في «السيرة» بنحو من هذا كلها مرسلات ومنقطعات، والله أعلم).

والذي يتتبع طرق هذه القصة يجد أن جميع طرقها مرسلة أو منقطعة أو معلة أو فيها جهالة، فالطرق مهما كثرت وكانت ضعيفة لا تزيد الرواية إلّا ضعفًا، فإن قاعدة تقوية الحديث بكثرة الطرق لا تقبل على إطلاقها وهذا ما حققه الحافظ أبو عمرو بن الصلاح في مقدمته وغيره من علماء الحديث المحققين.

لقد وقف على هذه القصة غير واحد من العلماء المحققين وبينوا زيف وبطلان هذه المرويات التي أوردها بعض المفسرين. فقد ذكر الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني في «تفسيره»: (٣/ ٤٦٢) عند قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلّا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ فقال: (ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه قال تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾، وقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾، وقوله: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم﴾. قال البزار: هذا حيث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل، وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتابًا).

وللقاضي عياض في كتاب «الشفاء»: (٢/ ٧٥٠) كلام حول نقض هذه القصة فيقول: (فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين:

المأخذ الأول: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح، وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين).

ثم سرد أحاديث بيّن زيفها ورد العلماء عليها. =

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يُبطله ويذهبه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيثبتها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: محنة وبلية، شك ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ﴾ يعني: الجافية ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عن قبول الحق وهم المشركون، وذلك أنهم افتتنوا لما سمعوا ذلك، ثم نُسخ ورفع فازدادوا عُتوًا، وظنوا أن محمدًا يقوله من تلقاء نفسه ثم يندم فيبطل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين ﴿لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي: في خلاف شديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ التوحيد والقرآن، وقال السدي: التصديق بنسخ الله تعالى ﴿أَنَّهُ﴾ يعني: أن الذي أحكم اللهُ من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يعتقدوا أنه من الله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فتسكن إليه قلوبهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: طريق قويم هو الإسلام.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ يقولون: ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها، وقال ابن جريج: «منه»، أي: من القرآن، وقيل: من الدين، وهو الصراط المستقيم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يعني: القيامة، وقيل: الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ قال الضحاك وعكرمة: عذاب يوم لا ليلة له، وهو يوم القيامة.

= ويقول الإمام القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٨٤) عند قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ . . .﴾ بعد أن سرد بعض الروايات: (ومما يدل على ضعفه أيضًا وتوهينه من الكتاب قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتِنُونَك . . .﴾ الآيتين، فإنهما تردان الخبر الذي رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبَّتهُ لكان يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه في أن يفتري، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلًا فكيف كثيرًا) اهـ.

إن هذه الأقاويل يجب تنزيه رسول الله ﷺ منها وقد ثبت بطلان هذه القصة سندًا ومتنًا.

ولمن أراد مزيد اطلاع فلينظر بحثًا قيمًا للأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» فقد سرد جميع الروايات وبين ضعفها وسرد أقوال المحدثين والعلماء المحققين في رد هذه القصة.

انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»: (ص٤٤٠ ـ ٤٥٢) لمحمد بن محمد أبو شهبة، «روح المعاني» للألوسي: (١٧/ ١٧٥ ـ ١٨٤)، «الشفاء» للقاضي عياض: (٢/ ٧٥٠، وما بعده)، «فتح القدير»: (٣/ ٤٦١)، «تفسير القرطبي»: (١٢/ ٧٩، وما بعدها)، «في ظلال القرآن»: (٥/ ٦١١).

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر؛ لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة، وسُمي يوم بدر عقيمًا؛ لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير، كالريح العقيم التي لا تأتي بخير، سحاب ولا مطر، (والعقم في اللغة: المنع، يقال: رجل عقيم إذا مُنع من الولد)[1]، وقيل: لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه، وقال ابن جريج: لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليل حتى قتلوا قبل المساء.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده من غير منازع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ثم بيَّن الحكم، فقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ وهم كذلك، قرأ ابن عامر «قتلوا» بالتشديد ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ والرزق الحسن: الذي لا ينقطع أبدًا هو رزق الجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ قيل: هو قوله: «بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»[آل عمران: ١٦٩].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بنيَّاتهم ﴿حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ عنهم.

﴿۞ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ جازى الظالم بمثل ما ظلمه، قال الحسن: يعني: قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظُلم بإخراجه من منزله، يعني: ما أتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم، نزلت في قوم من المشركين أتوا قومًا من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم، وسألوهم أن يكفوا عن

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

القتال من أجل الشهر الحرام، فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنُصروا عليهم[(١)]، قال الله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ والعقاب الأول بمعنى الجزاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ عفا عن مساوىء المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على ما يشاء، فمن قدرته أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي وحفص بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، يعني: المشركين ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ العالي على كل شيء ﴿ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ العظيم الذي كل شيء دونه.

١/٢٩ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بأرزاق عباده، واستخراج النبات من الأرض ﴿خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ بما في قلوب العباد، واستخراج النبات من الأرض إذا تأخر المطر عنهم ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا ومُلْكًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عباده ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ في أفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخر لكم الفلك ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ / وقيل: «ما في الأرض»: الدوابُّ تركب في البر، و«الفلك» تركب في البحر ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: لكيلا تسقطَ على الأرض ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

---

(١) ذكره الطبري: (١٧/ ١٩٥) بغير سند، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٧١) لابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ أي: أنشأكم ولم تكونوا شيئًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ يوم البعث للثواب والعقاب ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ لنعم الله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ قال ابن عباس: يعني: شريعة هم عاملون بها، وروي عنه أنه قال: عيدًا، قال قتادة ومجاهد: موضع قربان يذبحون فيه، وقيل: موضع عبادة، وقيل: مألفًا يألفونه.

والمنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد لعمل خير أو شر، ومنه «مناسك الحج» لتردد الناس إلى أماكن أعمال الحج.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ يعني: في أمر الذبائح، نزلت في بُدَيل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس، قالوا لأصحاب النبي ﷺ: ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم، ولا تأكلون مما قتله الله[1].

قال الزجاج: معنى قوله: «فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ»، أي: لا تنازعهم أنت، كما يقال: لا يخاصمك فلان، أي: لا تخاصمه، وهذا جائز فيما يكون بين الاثنين، ولا يجوز: لا يضربنك فلان، وأنت تريد: لا تضربه، وذلك أن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلَّا باثنين، فإذا ترك أحدهما فلا مخاصمة هناك.

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ إلى الإيمان بربك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾.

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ فتعرفون حينئذ الحق من الباطل، والاختلاف: ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: علمه لجميع ذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾.

---

(١) انظر: القرطبي: (١٢/ ٩٣).

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ
يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ
ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟
لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني: أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل لا عن علم ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للمشركين ﴿مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ مانع، يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ يعني: الإنكار، يتبين ذلك في وجوههم من الكراهية والعبوس ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبسطون إليهم أيديهم بالسوء، وقيل: يبطشون ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بمحمد وأصحابه، من شدة الغيظ، يقال: سطا عليه وسطا به، إذا تناوله بالبطش والعنف، وأصل السطو: القهر.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: بشرٍّ لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تستمعون ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هي النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ معنى ضُرِب: جُعِل، كقولهم: ضربَ السلطانُ البعثَ على الناس، وضرب الجزيةَ على أهل الذمة، أي: جعل ذلك عليهم، ومعنى الآية: جُعِلَ لي شَبَه، وشُبِّهَ بيَ الأوثان، أي: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها، ومعنى ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: فاستمعوا حالها وصفتها، ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، قرأ يعقوب بالياء، والباقون بالتاء ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ واحدًا في صغره وقلته؛ لأنها لا تقدر عليه، والذباب: واحد، وجمعه القليل: أَذِبَّة، والكثير: ذِبَّان، مثل: غُراب وأَغْرِبَة وغِرْبَان ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لخلقه ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: كانوا يطلُون الأصنام بالزعفران، فإذا جفَّ جاء الذباب فاستلب منه.

وقال السدي: كانوا يضعون الطعام بين يدي الأصنام فتقع الذباب عليه فيأكلن منه.

وقال ابن زيد: كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر، ويطيبونها بألوان الطيب، فربما تسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذباب، فلا تقدر الآلهة على استردادها، فذلك قوله: «وَإِن يَسْلُبْهُمُ

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾

ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا»، أي: وإن يسلب الذبابُ الأصنامَ شيئًا مما عليها لا يقدرون أن يستنقذوه منه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ قال ابن عباس: «الطالب»: الذباب يطلب ما يسلب من الطيب من الصنم، و«المطلوب»: الصنم يطلب الذباب منه السلب، وقيل: على العكس، «الطالب»: الصنم، و«المطلوب»: الذباب، وقال الضحاك: «الطالب»: العابد، و«المطلوب»: المعبود.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عظَّموه حقَّ عظمتِهِ وما عرفوه حقَّ معرفتِهِ، ولا وصفوه حقَّ صفتِهِ إنْ أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا يتصف منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يعني: يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يختار من الناس رسلًا، مثل: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، نزلت حين قال المشركون: «أأُنزلَ عليه الذكر من بيننا»، فأخبر أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ أي: سميع لقولهم، بصير بمن يختارُهُ لرسالته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: ما قدَّموا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما خلَّفوا، وقال الحسن: «ما بين أيديهم»: ما عملوا، «وما خلفهم» ما هم به عاملون من بعد، وقيل: «ما بين أيديهم» ملائكته وكتبه ورسله قبل أن خلقهم، «وما خلفهم» أي: يعلم ما هو كائن بعد فنائهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي: صلُّوا؛ لأن الصلاةَ لا تكونُ إلَّا بالركوع والسجود ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وحِّدوه ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس: / صلة الرحم ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة، واختلف أهلُ العلم في سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية: فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، واحتجوا بما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا ٢٩/ب

---

(١) انظر: القرطبي: (١٢/ ٩٨).

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة، أخبرنا ابن لهيعة، عن مشرح بن هاعان، عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، فُضّلت سورةُ الحج بأنَّ فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدْهما فلا يقرأْهُما»[(١)].

وذهب قوم إلى أنه لا يسجد هاهنا، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

وعدة سجود القرآن أربعةَ عشرَ عند أكثر أهل العلم، منها ثلاث في المفصَّل.

وذهب قوم إلى أنه ليس في المفصل سجود، روي ذلك عن أبي بن كعب وابن عباس وبه قال مالك، وقد صح عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في «اقرأ» و«إذا السماء انشقت»[(٢)]، وأبو هريرة من متأخري الإسلام.

واختلفوا في سجود «صٓ»، فذهب الشافعي: إلى أنه سجود شكر ليس من عزائم السجود، ويروى ذلك عن ابن عباس[(٣)]، وذهب قوم إلى أنه يسجد فيها، روي ذلك عن عمر، وبه قال سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، فعند ابن المبارك وإسحاق وأحمد وجماعة: سجود القرآن خمسَ عشرة سجدة، فعدوا سجدتي «الحج» وسجدة «صٓ»، وروي عن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أقرأه خمسَ عشرةَ سجدةً في القرآن[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن: (٢/ ١١٧)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في السجدة في الحج: (٣/ ١٧٨ـ١٧٩)، وقال: (هذا حديث ليس إسناده بالقوي)، ونقل المنذري قول الترمذي هذا، وقال: (وفي إسناده عبد الله بن لَهِيْعة ومشْرَح بن هاعان، ولا يحتج بحديثهما)، وأخرجه الإمام أحمد: (١/ ١٥١)، والدارقطني: (١/ ٤٠٨)، والحاكم: (٢/ ٣٩٠)، وقال: (هذا حديث لم نكتبه مسندًا إلَّا من هذا الوجه، وعبد الله بن لهيعة أحد الأئمة إنما نُقِم عليه اختلاطه في آخر عمره، وقد صحت الرواية فيه من قول عمر بن الخطاب . . . وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٣٠٤). وانظر: «نصب الراية» للزيلعي: (٢/ ١٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد، باب سجود التلاوة برقم٥٧٨: (١/ ٤٠٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري في سجود القرآن، باب سجدة صٓ: (٢/ ٥٥٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٣٠٦).

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تفريع أبواب السجود: (٢/ ١١٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب عدد سجود القرآن: (١/ ٣٣٥، برقم١٠٥٧)، والحاكم: (١/ ٢٢٣)، وقال: (هذا حديث رواته مصريون قد احتج الشيخان بأكثرهم وليس في عدد سجود القرآن أتم منه ولم يخرجاه).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، قيل: جاهدوا في سبيل الله أعداءَ الله، «حقَّ جهاده» هو استفراغ الطاقة فيه، قاله ابن عباس، وعنه أيضًا أنه قال: لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، كما قال تعالى: «يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ»[المائدة: ٥٤].

وقال الضحاك ومقاتل: اعملوا لله حقَّ عمله، واعبدوه حقَّ عبادته.

وقال مقاتل بن سليمان: نسخها قوله[١]: «فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ»[التغابن: ١٦]، وقال أكثر المفسرين: «حق الجهاد»: أن تكون نيتُه خالصةً صادقةً لله عزَّ وجلَّ، وقال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى.

وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر، وهو حق الجهاد، وقد رُوي أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[٢]، وأراد بالجهاد الأصغر الجهادَ مع الكفار، وبالجهاد الأكبر الجهادَ مع النفس.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم لدينه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، معناه: أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلَّا جعل الله له منه مخرجًا، بعضها بالتوبة، وبعضها برد المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفارات، فليس في دين الإسلام ذنب لا يجد العبد سبيلًا إلى الخلاص من العقاب فيه.

وقيل: من ضيقٍ في أوقات فروضكم، مثل: هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس ذلك عليكم، وسَّع ذلك عليكم حتى تتيقنوا.

وقال مقاتل: يعني: الرُّخَص عند الضرورات، كقصر الصلاة في السفر، والتيمم، وأكل الميتة عند الضرورة، والإفطار بالسفر والمرض، والصلاة قاعدًا عند العجز، وهو قول الكلبي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحَرَجُ ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم، وضعها الله عن هذه الأمة[٣].

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كمِلَّة أبيكم، نصب بنزع حرف الصفة، وقيل: نصب على الإغراء، أي: اتَّبعوا مِلَّة أبيكم إبراهيم، (وإنما أمرنا باتباع ملة إبراهيم)[٤]؛ لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ.

---

(١) انظر فيما سبق: (٣/ ٢، تعليق ١).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١١٤: (ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر، قال: قدم على رسول الله قومٌ غزاة، فقال: قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه»، قال: فيه ضعف، قلت ـ ابن حجر ـ: هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في «الكنى» من قول إبراهيم بن أبي عبلة، أحد التابعين من أهل الشام، ورواه الخطيب البغدادي في «التاريخ»: (١٣/ ٤٩٣)، ونسبه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: (٣/ ٧) للبيهقي، وقال: (هذا إسناد فيه ضعف). انظر: «كشف الخفاء»: (١/ ٥١١)، «ضعيف الجامع الصغير»: (١٤/ ١١٨)، «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة» للقاري: ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٧٨) لابن أبي حاتم بلفظ: «الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم».

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

فإن قيل: فما وجه قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟

قيل: خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم، وقيل: خاطب به جميع المسلمين، وإبراهيم أبٌ لهم، على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه، كما يجب احترام الأب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦]، وقال النبي ﷺ: «إنّما أنا لكم مثل الوالد لولده[١]»[٢].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ يعني: أن الله تعالى سماكم ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في هذا الكتاب، هذا قول أكثر المفسرين، وقال ابن زيد: «هو» يرجع إلى إبراهيم، أي: أن إبراهيم سماكم المسلمين في أيامه، من قبل هذا الوقت، وفي هذا الوقت، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة: ١٢٨] ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة: أن قد بلّغكم ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ أنتم ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أن رسلهم قد بلّغتهم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثقوا بالله وتوكلوا عليه، قال الحسن: تمسَّكوا بدينِ الله، وروي عن ابن عباس قال: سلوا ربكم أن يعصمَكم من كل ما يكره[٣]، وقيل: معناه: ادعوه ليثبّتكم على دينه، وقيل: الاعتصام بالله هو التمسكُ بالكتابِ والسنةِ ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وليكم[٤] وناصركم وحافظكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ الناصر لكم.

* * *

(١) زيادة من «ب».

(٢) قطعة من حديث أخرجه أبو داود في الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة: (١/ ١٨) بلفظ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد»، والنسائي في الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث: (١/ ٣٨)، وابن ماجه في الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروثة والرمة: (١/ ١١٤، برقم٣١٣)، والدارمي: (١١/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، وصححه ابن حبان برقم١٢٨: ص٦٢، وابن خزيمة: (١/ ٤٤)، والشافعي: (١/ ٢٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٣٥٦)، وقال: (هذا حديث صحيح).

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٤٥٧).

(٤) ساقط من «ب».

سورة المؤمنون

مكية[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا محمد بن حماد، أخبرنا عبد / الرزاق، أخبرنا يونس بن سليمان، أملى عليَّ يونس صاحب «أيلة»، ١/٣٠
عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاريء قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على النبي ﷺ الوحي يُسمع عند وجهه دويٌّ كدويِّ النحل، فمكثنا ساعة - وفي رواية: فنزل عليه يومًا فمكثنا ساعة - فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زِدْنا ولا تنقصنا، وأكرِمْنا ولا تُهِنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنَّا»، ثم قال: «لقد أُنزل عليَّ عشرُ آياتٍ من أقامهنَّ دخل الجنة»، ثم قرأ: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . . .» إلى عشر آيات.

ورواه أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وجماعة عن عبد الرزاق، وقالوا: «وأعطنا ولا تحرمنا، وأرْضِنا وارضَ عنَّا»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ «قد» حرف تأكيد، وقال المحققون: «قد» تقرب الماضي من الحال، يدل على أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل، و«الفلاح»: النجاة والبقاء، قال ابن عباس: قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة.

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المؤمنون بمكة، وأخرج عبد الرزاق والشافعي وسعيد بن منصور وابن سعد، وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في «تاريخه» ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والطحاوي وابن حبان والبيهقي في «سننه» عن عبد الله بن ثابت قال: «صلَّى النبي ﷺ بمكة الصبح، فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر عيسى، أخذتْهُ سعلة فركع». انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٨٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: برقم(٦٠٣٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب»: ص٣٤، والترمذي في التفسير، ومن سورة المؤمنون: (٩/ ١٦ - ١٧)، والإمام أحمد: (١/ ٣٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (١/ ٥٣٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٧٧)، وقال: (هذا حديث حسن، ويونس صاحب أيلة: هو يونس بن يزيد الأيلي صاحبُ الزهري).

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ اختلفوا في معنى الخشوع، فقال ابن عباس: مخبتون أذلاء، وقال الحسن وقتادة: خائفون، وقال مقاتل: متواضعون، وقال مجاهد: هو غض البصر وخفض الصوت.

والخشوع قريب من الخضوع إلَّا أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبدن والبصر والصوت، قال الله عزَّ وجلَّ: «وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ»[طه: ١٠٨].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: هو أن لا يلتفت يمينًا وشمالًا، وقال سعيد بن جبير: هو أن لا يعرف مَنْ على يمينه ولا مَنْ على يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله عزَّ وجلَّ.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا مسدد، أخبرنا أبو الأحوص، أخبرنا أشعث بن سليم، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطان من صلاة العبد»(١).

وأخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي ببغداد، أخبرنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي، أخبرنا عبد الغفار بن عبيد الله، أخبرنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن أبي الأحوص، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الله مقبلًا على العبد ما كان في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض عنه»(٢).

وقال عمرو بن دينار: هو السكون وحسن الهيئة، وقال ابن سيرين وغيره: هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك.

وقال أبو هريرة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارَهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزل: «ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ»، رمَوْا بأبصارهم إلى مواضع السجود.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب الالتفات في الصلاة: (٢/ ٢٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٢٥١).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الالتفات في الصلاة: (١/ ٤٢٩)، والنسائي في السهو، باب التشديد في الالتفات في الصلاة: (٣/ ٨)، وابن خزيمة في «صحيحه»: (١/ ٢٤٤)، والإمام أحمد: (٥/ ١٧٢)، والحاكم: (١/ ٢٣٦)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأبو الأحوص هذا مولى بني الليث تابعي من أهل المدينة، وثقه الزهري وروى عنه، وجرت بينه وبين سعد بن إبراهيم مناظرة في معناه)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٢٥٢)، وقال: (صالح بن أبي الأخضر ضعيف، يروي عن الزهري)، وروى هذا الحديث عبد الله بن المبارك وغيره عن يونس عن الزهري قال المنذري: (وأبو الأحوص ـ هذا ـ لا يعرف له اسم، وهو مولى بني ليث، وقيل: مولى بني غفار، ولم يرو عنه غير الزهري، قال يحيى بن معين: ليس هو بشيء، وقال أبو أحمد الكرابيسي: ليس بالمتين عندهم). «مختصر سنن أبي داود»: (١/ ٤٢٩)، وقال النووي في «الخلاصة»: (هو فيه جهالة، لكن الحديث لم يضعفه أبو داود فهو حسن عنده). انظر: «نصب الراية»: (٢/ ٨٩).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا علي بن عبد الله، أخبرنا يحيى بن سعيد، أخبرنا ابن أبي عروبة، أخبرنا قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: قال النبي ﷺ: «ما بالُ أقوامٍ يرفعون أبصارَهم إلى السماء في صلاتهم»، فاشتدَّ قوله في ذلك حتى قال: «ليَنتهُنَّ عن ذلك أو لَتخطَفَنَّ أبصارُهم»(١).

وقال عطاء: هو أن لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة، ورُوي أن النبي ﷺ أبصَرَ رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه»(٢).

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أخبرنا أبو محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا سعيد، عن عبد الرحمن المخزومي، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أبي الأحوص، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدُكم إلى الصلاةِ فلا يمسحِ الحصى فإنَّ الرحمةَ تواجهُهُ»(٣).

وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة، والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ قال عطاء عن ابن عباس: عن الشرك، وقال الحسن: عن المعاصي، وقال الزجاج: عن كل باطل ولهو وما لا يحل من القول والفعل، وقيل: هو معارضة الكفار بالشتم والسب، قال الله تعالى: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا»[الفرقان: ٧٢]، أي: إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ أي: للزكاة الواجبة مؤدُّون، فعبَّر عن التأدية بالفعل؛ لأنه فعل، وقيل: الزكاة هاهنا هو العمل الصالح، أي: والذين هم للعمل الصالح فاعلون.

---

(١) أخرجه البخاري في السهو، باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة: (٢/ ٢٣٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٢٥٨).

(٢) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٨٥٤): (أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» بسند ضعيف من حديث أبي هريرة، وفيه سليمان بن عمرو وهو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث).
وانظر: «إرواء الغليل»: (٢/ ٩٢-٩٣)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (١/ ١٤٣-١٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب مسح الحصى في الصلاة: (١/ ٤٤٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة: (٢/ ٣٨٢)، والنسائي في السهو، باب النهي عن مسح الحصى في الصلاة: (٣/ ٦)، وابن ماجه في الإقامة، باب مسح الحصى برقم١٠٢٧: (١/ ٣٢٨)، وابن حبان في المواقيت، باب فيما ينهى عنه في الصلاة: ص١٣١ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد: (٥/ ١٥٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٥٨).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ الفرج: اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج: التعفف عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: من أزواجهم، و«على» بمعنى «مِن» ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ «ما» في محل الخفض، يعني: أو مما ملكت أيمانهم، والآية في الرجال خاصة بدليل قوله: «أو ما ملكت أيمانهم»، والمرأة لا يجوز أن تستمتعَ بفرج مملوكها ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ يعني: يحفظُ فرجه إلّا من امرأته أو أمته فإنه لا يلام على ذلك، وإنما لا يلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتى، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور وهو على فعله ملوم.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام، / وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء، ٣٠/ب قال ابن جريج: سألت عطاء عنه فقال: مكروه، سمعت أنَّ قومًا يحشرون وأيديهم حُبالى فأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير قال: عذب الله أُمَّةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير «لأمانتهم» على التوحيد هاهنا وفي سورة «المعارج»، لقوله تعالى: «وعهدهم»، والباقون بالجمع، كقوله عزَّ وجلَّ: «﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾»[النساء: ٥٨] ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ حافظون، أي: يحفظون ما ائتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها، والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العبد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، وتكون بين العبيد كالودائع والصنائع، فعلى العبد الوفاء بجميعها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي «صلاتهم» على التوحيد، والآخرون «صلواتهم» على الجمع ﴿يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ أي: يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها، كرر ذكرَ الصلاةِ ليبيِّن أنَّ المحافظةَ عليها واجبةٌ كما أن الخشوع فيها واجبٌ.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠﴾ يرثون منازلَ أهلِ النار من الجنة. وروي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلّا وله منزلان منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإن مات ودخل النار ورثَ أهلُ الجنةِ منزلَه»[1] وذلك قوله تعالى: «﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾».

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب صفة الجنة: (٢/١٤٥٣، برقم ٤٣٤١)، وقال في «الزوائد»: (هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين).

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

وقال مجاهد: لكل واحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدّم منزله الذي له في النار، وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبني منزله الذي في النار.

وقال بعضهم: معنى الوراثة هو أنه يؤول أمرُهم إلى الجنة وينالونها، كما يؤول أمرُ الميراثِ إلى الوارث.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ وهو أعلى الجنة، قد ذكرناه في سورة «الكهف»[1] ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ لا يموتون ولا يُخرجون، وجاء في الحديث: «أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي لا يدخلها مُدْمِنُ خمرٍ، ولا ديوث»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: ولد آدم، و«الإنسان» اسم الجنس، يقع على الواحد والجمع ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء، وقال مجاهد: من بني آدم، وقال عكرمة: هو يسيل من الظهر، والعرب تسمي النطفة سلالةً، والولد سليلًا وسلالة؛ لأنهما مسلولان منه.

قوله: ﴿مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ يعني: طين آدم، والسلالة تولدت من طين خُلق آدم منه، قال الكلبي: من نطفة سلت من طين، والطين آدم عليه السلام، وقيل: المراد من الإنسان هو آدم، وقوله: «من سلالة»، أي: سُلَّ من كل تربة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ يعني: الذي هو الإنسان جعلناه نطفة ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ حريز، وهو الرَّحِمُ مُكّن، (أي: قد هيىء)[3] لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر «عظمًا» «فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ» على التوحيد فيهما، وقرأ الآخرون بالجمع؛ لأن الإنسان ذو عظام كثيرة، وقيل: بين كل خلقين أربعون يومًا ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: ألبسنا ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ اختلف المفسرون فيه،

---

(١) راجع فيما سبق تفسير سورة الكهف.

(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات»: (٢/ ٤٧) مرسلًا، وأشار إلى تضعيفه بقوله: (هذا مرسل، وفيه إن ثبت دلالة على أن الكَتْب هاهنا بمعنى الخلق)، وعزاه في «الكنز»: (٦/ ١٣١) للخرائطي في «مساوىء الأخلاق»: ص١٩٨ للديلمي في «الفردوس»، ونسبه السيوطي لابن أبي الدنيا وأبي الشيخ في «العظمة».

(٣) ساقط من «أ».

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

فقال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية: هو نفخ الروح فيه[1]، وقال قتادة: نبات الأسنان والشعر، وروى ابن جريج عن مجاهد: أنه استواء الشباب، وعن الحسن قال: ذكرًا أو أنثى، وروى العوفي عن ابن عباس: أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع، إلى القعود إلى القيام، إلى المشي إلى الفطام، إلى أن يأكل ويشرب، إلى أن يبلغ الحلم، ويتقلب في البلاد إلى ما بعدها.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المصورين والمقدرين، و«الخلق» في اللغة: التقدير، وقال مجاهد: يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين، يقال: رجل خالق، أي: صانع.

وقال ابن جريج: إنما جمع الخالقين؛ لأنَّ عيسى كان يخلق كما قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين[2].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ والميِّت ـ بالتشديد ـ والمائت الذي لم يمت بعد وسيموت، والميْت ـ بالتخفيف ـ: من مات، ولذلك لم يجز التخفيف هاهنا، كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سموات، سميت طرائق لتطارقها، وهو أن بعضها فوق بعض، يقال: طارقتُ النعلَ إذا جعلت بعضه فوق بعض، وقيل: سميت طرائق؛ لأنها طرائق الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم كما قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وقيل: ما تركناهم سدى بغير أمر ونهي.

وقيل: وما كنا عن الخلق غافلين إذْ بنينا فوقهم سماء، أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب.

---

(١) وهو ما رجحه الطبري في «التفسير»: (١٨/ ١١)، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحول خلقًا آخر إنسانًا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفها الله أنه كان بها من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحول أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خُلِق منها إنسانًا، وخلقًا آخر غير الطين الذي خُلِق منه.

(٢) أخرج الطبري هذين القولين، ورجح قول مجاهد؛ لأن العرب تسمي كل صانع خالقًا ومنه قول زهير:

ولأنتَ تَفْرِي ما خلقتَ وبعـ ... ـضُ القومِ يَخْلُق ثم لا يَفْرِي

انظر: «تفسير الطبري»: (١٨/ ١١)، «زاد المسير»: (٥/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يعلمه الله، قال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: ما يبقى في الغدران والمستنقعات، ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر، وقيل: فأسكناه في الأرض، ثم أخرجنا منها ينابيع، فماء الأرض كله من السماء ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ حتى تهلكوا عطشًا، وتهلكَ مواشيكم، وتخرب أراضيكم، / وفي الخبر: «أن الله عزَّ وجلَّ أنزل أربعة أنهار من الجنة: ١/٣١
سيحان، وجيحان، ودجلة، والفرات»[1].

وروى مقاتل بن حيان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عزَّ وجلَّ أنزل من الجنة خمسة أنهار: جيحون، وسيحون، ودجلة، والفرات، والنيل، أنزلها الله عزَّ وجلَّ من عين واحدة من عيون الجنة، من أسفل درجة من درجاتها، على جناحي جبريل، استودعها الله الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ»، فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض: القرآن، والعلم كله، والحجر الأسود من ركن البيت، ومقام إبراهيم، وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة، فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: «وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ»، فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا»[2].

وروى هذا الحديث الإمام الحسن بن يوسف عن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الإسكندراني عن مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان[3].

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ شتاءً وصيفًا، وخصَّ النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنها أكثر فواكه العرب.

﴿وَشَجَرَةً﴾ أي: وأنشأنا لكم شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي الزيتون، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «سيناء» بكسر السين، وقرأ الآخرون بفتحها، واختلفوا في معناه وفي «سينين» في قوله تعالى: «وَطُورِ سِينِينَ»[التين: ٢]، قال مجاهد: معناه البركة، أي: من جبل مبارك، وقال قتادة: معناه: الحسن، أي: من

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٩٥) لابن أبي الدنيا عن ابن عطاف.
(٢) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٩٥) لابن مردويه والخطيب بسند ضعيف، وانظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٤٠٠).
(٣) مسلمة بن علي الخشني: متروك. انظر: «التقريب» لابن حجر.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

الجبل الحسن، وقال الضحاك: هو بالنبطية، ومعناه: الحسن، وقال عكرمة: هو بالحبشة، وقال الكلبي: معناه: الشجر، أي: جبل ذو شجر، وقيل: هو بالسريانية الملتفة بالأشجار، وقال مقاتل: كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سينا، و«سينين» بلغة النبط، وقيل: هو فيعال من السناء وهو الارتفاع، قال ابن زيد: هو الجبل الذي نُودي منه موسى بين مصر وأيلة، وقال مجاهد: سينا اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده، وقال عكرمة: هم اسم المكان الذي فيه هذا الجبل(١).

﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة ويعقوب «تُنبِت» بضم التاء وكسر الباء، وقرأ الآخرون بفتح التاء وضم الباء، فمن قرأ بفتح التاء فمعناه: تنبت تثمر الدهن وهو الزيتون، وقيل: تنبت ومعها الدهن، ومن قرأ بضم التاء، اختلفوا فيه، فمنهم من قال: الباء زائدة، معناه: تنبت الدهن، كما يقال: أخذت ثوبه وأخذت بثوبه، ومنهم من قال: نبت وأنبت لغتان بمعنى واحد، كما قال زهير:

رَأَيْتُ ذَوِي الحاجاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم قَطِينًا لهم حتى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ(٢)

أي: نبت ﴿وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠)﴾ الصبغ والصباغ: الإدام الذي يلون الخبز إذا غمس فيه وينصبغ، والإدام كل ما يؤكل مع الخبز، سواء ينصبغ به الخبز أو لا ينصبغ، قال مقاتل: جعل الله في هذه الشجرة أدمًا ودُهنًا، فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت، وقال: خُصَّ الطور بالزيتون؛ لأن أول الزيتون نبت بها، ويقال: إن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي: آية تعتبرون بها ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ قرأ نافع بالنون وفتحها(٣)، وقرأ أبو جعفر هاهنا بالتاء وفتحها ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)﴾.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾ أي: على الإبل في البر، وعلى الفلك في البحر.

---

(١) ذكر هذه الأقوال الطبريُّ: (١٨/ ١٣ ـ ١٤)، وقال مرجحًا: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن سيناء اسم أضيف إليه الطور يعرف به، كما قيل جبلا طيء، فأضيفا إلى طيء، ولو كان القول في ذلك كما قال من قال: معناه: جبل مبارك، أو كما قال من قال: معناه: حسن، لكان الطور منونًا، وكان قوله سيناء من نعته، على أن سيناء بمعنى: مبارك حسن، غير معروف في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك ـ إن شاء الله ـ كما قال ابن عباس من أنه جبل عرف بذلك، وأنه الجبل الذي نُودي منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مبارك، لا أن معنى سيناء: معنى مبارك).

(٢) انظر: «شرح ديوان زهير»: ص١١١، «تفسير الطبري»: (١٨/ ١٤)، «لسان العرب» لابن منظور، مادة: (نبت).

(٣) ساقط من «ب».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ
ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وحْدوه ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ معبود سواه ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعًا، وأنتم له تبع ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن لا يعبد سواه ﴿ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ يعني: بإبلاغ الوحي ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي يدعونا إليه نوح ﴿ فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ وقيل: «ما سمعنا بهذا»، أي: بإرسال بشر رسولًا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ أي: جنون ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي: إلى أن يموت فتستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: أعنّي بإهلاكهم لتكذيبهم إياي.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا ﴾ أدخِل فيها، يقال: سلكته في كذا وأسلكته فيه ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي: من سبق عليه الحكم بالهلاك ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ ﴾ اعتدلت ﴿ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: الكافرين ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم «مَنْزِلًا» بفتح الميم وكسر الزاي، أي: يريد موضع النزول، قيل: هو السفينة بعد الركوب، وقيل: هو الأرض بعد النزول، ويحتمل أنه أراد في السفينة، ويحتمل بعد الخروج، وقرأ الباقون «مُنْزَلًا» بضم الميم وفتح الزاي، أي: إنزالًا، فالبركة في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾
أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا
تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

٣١/ب ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: الذي ذكرت من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾ لدلالات على قدرته ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقد كنَّا، وقيل: وما كنَّا إلَّا مبتلين، أي: مختبرين إيَّاهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره/ لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد إهلاكهم ﴿ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني: هودًا وقومه، وقيل: صالحًا وقومه، والأول أظهر ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: المصير إلى الآخرة ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ ﴾ نعَّمْناهم ووسَّعْنا عليهم ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي: مما تشربون منه ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ لمغبونون.

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ من قبوركم أحياءً، وأعاد «أنكم» لما طال الكلام، ومعنى الكلام: أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا مخرجون؟ وكذلك هو في قراءة عبد الله، نظيره في القرآن: « أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا »[التوبة: ٦٣].

﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ قال ابن عباس: هي كلمة بعد، أي: بعيد ما توعدون، قرأ أبو جعفر «هيهاتِ هيهاتِ» بكسر التاء، وقرأ نصر بن عاصم بالضم، وكلها لغات صحيحة، فمن نصب جعله مثل: أين وكيف، ومن رفع جعله مثل: منذ وقط وحيث، ومن كسر جعله مثل أمس وهؤلاء، ووقف عليها أكثر القراء بالتاء، ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء.

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ يعنون: الدنيا ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت، وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء، وقيل: يموت قوم ويحيا قوم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ بمنشَرين بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنون: الرسول ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ بمصدقين بالبعث بعد الموت.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل، و«ما» صلة ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ على كفرهم وتكذيبهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قيل: أراد بالصيحة: الهلاك، وقيل: صاح بهم جبريل صيحة فتصدعت قلوبهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ وهو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، معناه: صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أقوامًا آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تسبق أمةٌ أجلَها، أي: وقت هلاكها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وما يتأخرون عن وقت هلاكهم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: مترادفين، يتبع بعضهم بعضًا غير متواصلين؛ لأن بين كل نبيين زمانًا طويلًا، وهي فعلى من المواترة، قال الأصمعي: يقال: واترت الخبر، أي: أتبعت بعضَه بعضًا، وبين الخبرين هنيهة[1].

واختلف القراء فيه، فقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين، ويقفون بالألف، ولا يميله أبو عمرو، وفي الوقف فيها كالألف في قولهم: رأيت زيدًا، وقرأ الباقون بلا تنوين، والوقف عندهم يكون بالياء، ويميله حمزة والكسائي، وهو مثل قولهم: غضبَى وسكرَى، وهو اسم جمع مثل شتى، وعلى القراءتين التاء الأولى بدل من الواو، وأصل: «وترى» من المواترة والتواتر، فجعلت الواو تاء، مثل: التقوى والتكلان.

---

(١) في «ب»: (مهلة).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالهلاك، أي: أهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: سَمَرًا وقصصًا، يتحدث مَنْ بعدَهم بأمرهم وشأنهم، وهي جمع أحدوثة، وقيل: جمع حديث، قال الأخفش: إنما هو في الشر، وأما في الخير فلا يقال: جعلتهم أحاديث وأحدوثة، إنما يقال: صار فلان حديثًا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥﴾ أي: بحجة بينة، من اليد والعصا وغيرهما.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تعظَّموا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦﴾ متكبرين، قاهرين غيرهم بالظلم.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ يعني: فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعني: موسى وهارون ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ مطيعون متذللون، والعرب تسمي كل من دان للمَلِك: عابدًا له.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨﴾ بالغرق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩﴾ أي: لكي يهتدي به قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ دلالة على قدرتنا، ولم يقل آيتين، قيل: معناه: شأنهما آية، وقيل: معناه: جعلنا كل واحد منهما آية، كقوله تعالى: «كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا»[الكهف: ٣٣] ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض، واختلفت الأقوال فيها، فقال عبد الله بن سلام: هي دمشق، وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل، وقال الضحاك: غوطة دمشق، وقال أبو هريرة: هي الرملة، وقال عطاء عن ابن عباس: هي بيت المقدس، وهو قول قتادة وكعب، وقال كعب: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلًا، وقال ابن زيد: هي مصر، وقال السدي: أرض فلسطين[1] ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ فالمعين: الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر.

(١) ذكر هذه الأقوال الطبري: (١٨/ ٢٥ ـ ٢٧)، ثم قال مرجحًا: (وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة؛ لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومَعين).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ
فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥
نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي وجماعة: أراد به محمدًا ﷺ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة، وقال بعضهم: أراد به عيسى، وقيل: أراد به جميع الرسل عليهم السلام ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلالات ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ الصلاح هو: الاستقامة على ما توجبه الشريعة ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ قرأ أهل الكوفة: «وإن» بكسر الألف على الابتداء، وقرأ الباقون بفتح الألف، وخفف ابن عامر النون وجعل «إن» صلة، مجازه: وهذه ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ وقرأ الباقون بتشديد النون على / معنى «وبأن هذا»، تقديره: بأن هذه أمتكم، أي: ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: ملة واحدة، وهي الإسلام ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ أي: اتقوني لهذا، وقيل: معناه: أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم، فأمركم واحد، «وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ»: فاحذرون، وقيل: هو نصب بإضمار فعل، أي: اعلموا أن هذه أمتكم، أي: ملتكم، أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. ١/٣٢

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ دينهم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: تفرقوا فصاروا فِرَقًا: يهودًا ونصارى ومجوسًا ﴿زُبُرٗا﴾ أي: فرقًا وقطعًا مختلفة، واحدها: زبور، وهو الفرقة والطائفة، ومثله: الزبرة، وجمعها: زُبُر، ومنه: «زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ» [الكهف: ٩٦]، أي: صاروا فرقًا كزبر الحديد، وقرأ بعض أهل الشام «زُبَرًا» بفتح الباء، قال قتادة ومجاهد: «زبرًا»، أي: كتبًا، يعني: دان كل فريق بكتاب غير الكتاب الذي دان به الآخرون، وقيل: جعلوا كتبهم قطعًا مختلفة، آمنوا ببعض، وكفروا بالبعض، وحرفوا البعض ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ بما عندهم من الدين ﴿فَرِحُونَ ٥٣﴾ معجبون ومسرورون.

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ قال ابن عباس: في كفرهم وضلالتهم، وقيل: عمايتهم، وقيل: غفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ إلى أن يموتوا.

﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥﴾ ما نعطيهم ونجعله مددًا لهم من المال والبنين في الدنيا.

﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي: نعجل لهم في الخيرات، ونقدمها ثوابًا لأعمالهم لمرضاتنا عنهم ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ أنَّ ذلك استدراج لهم، ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ أي: خائفون، والإشفاق: الخوف، والمعنى: أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه، قال الحسن البصري: المؤمن من جمع إحساناً وخشية، والمنافق من جمع إساءة وأمناً[^1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ يصدِّقون ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: يعطون ما أعطَوْا من الزكاة والصدقات، وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ «والذين يأتون ما أتوا»[^2]، أي: يعملون ما عملوا من أعمال البر ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وأن أعمالهم لا تُقبل منهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ لأنهم يوقنون أنهم يرجعون إلى الله عزَّ وجلَّ، قال الحسن: عملوا لله بالطاعات (واجتهدوا فيها)[^3]، وخافوا أن ترد عليهم.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا محمد بن حامد، حدثنا محمد بن الجهم، أخبرنا عبد الله بن عمرو، أخبرنا وكيع، عن مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يُقبل منه»[^4].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى الأعمال الصالحات ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ أي: إليها سابقون، كقوله تعالى: «لما نهوا»، أي: إلى ما نهوا، ولما قالوا ونحوها، وقال ابن عباس في معنى هذه الآية: سبقت لهم من الله السعادة، وقال الكلبي: سبقوا الأمم إلى الخيرات.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٨/ ٣٢).

(٢) أخرجه الطبري: (١٨/ ٣٣).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة المؤمنون: (٩/ ١٩ ـ ٢٠)، وابن ماجه في الزهد: (٢/ ١٤٠٤)، والإمام أحمد: (٦/ ١٥٩، ٢٠٦)، والحاكم: (٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي، والطبري: (١٨/ ٣٤)، ورواه ابن أبي شيبة وإسحاق والبيهقي في «شعب الإيمان»، والواحدي في «التفسير» من طرق. وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١٠٥)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٤٠٣).

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، فمن لم يستطع القيام فليصلِّ قاعدًا، ومن لم يستطع الصوم فليفطر ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾: يبين بالصدق، ومعنى الآية: لا يكلف الله نفسًا إلَّا وسعها إلَّا ما أطاقت من العمل وقد أثبتنا عمله في اللوح المحفوظ، فهو ينطق به ويبينه، وقيل: هو كتب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، ثم ذكر الكفار، فقال:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في غفلة وجهالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: من القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: للكفار أعمال خبيثة من المعاصي والخطايا محكومة عليهم من دون ذلك، يعني: من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في قوله: «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون» ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لابد لهم من أن يعملوها، فيدخلوا بها النار، لما سبق لهم من الشقاوة، هذا قول أكثر المفسرين، وقال قتادة: هذا ينصرف إلى المسلمين، وأن لهم أعمالًا سوى ما عملوا من الخيرات هم لها عاملون، والأول أظهر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: أخذنا أغنياءهم ورؤساءهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس: هو السيف يوم بدر، وقال الضحاك: يعني: الجوع، حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وَطْأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنِّي يوسف»[(١)]، فابتلاهم الله عزَّ وجلَّ بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يضجون ويجزعون ويستغيثون، وأصل الجأر: رفع الصوت بالتضرع.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: لا تضجوا ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لا تمنعون منا، ولا ينفعكم تضرعكم.

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ترجعون القهقرى تتأخرون عن الإيمان.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ اختلفوا في هذه الكناية، فأظهر الأقاويل: أنها تعود إلى البيت الحرام، كناية عن غير مذكور، أي: مستكبرين متعظمين بالبيت الحرام، وتعظُّمهم به أنهم كانوا يقولون: نحن أهل حرم الله

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة: (١١/ ١٩٣ ـ ١٩٤)، ومسلم في المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة برقم ٦٧٥: (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧).

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

وجيران بيته، فلا يظهر علينا أحد، ولا نخاف أحدًا، فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف، هذا قول ابن عباس ومجاهد وجماعة، وقيل: «مستكبرين به»، أي: بالقرآن، فلم يؤمنوا به، والأول أظهر، المراد منه: الحرم ﴿سَٰمِرًا﴾ نصب على الحال، أي: أنهم يسمرون بالليل في مجالسهم حول البيت، ووحّد سامرًا وهو بمعنى: السمّار؛ لأنه وضع موضع الوقت، أراد: تهجرون ليلًا، وقيل: وحّد سامرًا، ومعناه الجمع، / كقوله: ٣٢/ب
«ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا»[الحج: ٥] ﴿تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قرأ نافع «تُهجِرون» بضم التاء وكسر الجيم من الإهجار وهو الإفحاش في القول، أي: تفحشون وتقولون الخنا، وذكر أنهم كانوا يسبون النبي ﷺ وأصحابه، وقرأ الآخرون: «تَهجُرون» بفتح التاء وضم الجيم، أي: تعرضون عن النبي ﷺ وعن الإيمان والقرآن، وترفضونها، وقيل: هو من الهجر وهو القول القبيح، يقال: هجر يهجر هجرًا إذا قال غير الحق، وقيل: تهزؤون وتقولون ما لا تعلمون، من قولهم: هجر الرجل في منامه، إذا هذى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾ أي: يتدبروا ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فأنكروا، يريد: إنا قد بعثنا من قبلهم رسلًا إلى قومهم كذلك بعثنا محمدًا ﷺ إليهم، وقيل: «أم» بمعنى «بل»، يعني: جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروا.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ محمدًا ﷺ ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمدًا ﷺ صغيرًا وكبيرًا، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود، وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون، وليس كذلك ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بالصدق والقول الذي لا تخفى صحتُه وحسنُه على عاقل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة: «الحق» هو الله، أي: لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل، وقيل: لو اتبع مرادهم، فسمى لنفسه شريكًا وولدًا كما يقولون «لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ»، وقال الفرّاء والزّجّاج: والمراد بالحق القرآن، أي: لو نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا
مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

والولد على ما يعتقدونه ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بما يذكرهم، قال ابن عباس: أي: بما فيه فخرُهم وشرفُهم، يعني: القرآن، فهو كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[الأنبياء: ١٠]، أي: شرفكم، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف: ٤٤]، أي: شرف لك ولقومك ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم﴾ يعني: عن شرفهم ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على ما جئتهم به ﴿خَرْجًا﴾ أجرًا وجُعلًا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي: «خراجًا» «فخراج» كلاهما بالألف، وقرأ ابن عامر كلاهما بغير ألف، وقرأ الآخرون: «خرجًا» بغير ألف «فخراج» بالألف.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ وهو الإسلام ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ أي: عن دين الحق ﴿لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ لعادلون مائلون ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ قحط وجدوبة ﴿لَّلَجُّوا﴾ تمادَوْا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ولم ينزعوا عنه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وذلك أن النبي ﷺ دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وقال: أنشُدُك الله والرحم، ألستَ تزعُمُ أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى»، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادعُ الله أن يكشفَ عنا هذا القحط، فدعا فكُشِفَ عنهم، فأنزل الله هذه الآية[1] ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم، وأصله: طلب السكون ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضَوْا على تمردهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: القتل يوم بدر، وهو قول مجاهد، وقيل: هو الموت، وقيل: هو قيام الساعة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ آيسون من كل خير.

---

(١) انظر: الطبري: (١٨/ ٤٥)، والنسائي في «التفسير»: (٢/ ٩٩)، والواحدي في «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٦٢-٣٦٣، والطبراني في «الكبير»: (١١/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الدلائل». وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١١١)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٤٠٥)، «الصحيح المسند من أسباب النزول» للشيخ مقبل بن هادي: ص١٠٠.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: أنشأ لكم الأسماع ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: لم تشكروا هذه النعم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ تبعثون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، قال الفرَّاء: جعلهما مختلفين، يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ما ترون من صنعه فتعتبرون.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: كذبوا كما كذب الأولون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لمحشورون، قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ الوعد ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد آباءنا قومٌ ذكروا أنهم رسلُ الله فلم نَرَ له حقيقةً ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أكاذيب الأولين.

﴿قُل﴾ يا محمد مجيبًا لهم، يعني أهل مكة: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من الخلق ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ خالقها ومالكها.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولابدَّ لهم من ذلك؛ لأنهم يقرون أنها مخلوقة ﴿قُلْ﴾ لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومَن فيها ابتداءً يقدر على إحيائهم بعد الموت.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ العامة «لله» ومثله ما بعده، فجعلوا الجواب على المعنى، كقول القائل للرجل: مَن مولاك؟ فيقول: لفلان، أي: أنا لفلان وهو مولاي، وقرأ أهل البصرة فيهما «الله» وكذلك هو في

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

مصحف أهل البصرة، وفي سائر المصاحف، مكتوب بالألف كالأول ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ تحذرون.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الملكوت: الملك، والتاء فيه للمبالغة ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يُؤَمِّنُ مَنْ يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يُؤَمِّنُ مَنْ أخافَه الله، أو يَمنعُ هو من السوء من يشاء، ولا يُمنعُ منه مَن أراده بسوء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ قيل: معناه: أجيبوا إن كنتم تعلمون.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته، والمعنى: كيف يُخيَّلُ لكم الحقُّ باطلًا؟

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فيما يدَّعون من الشريك والولد. / ١/٣٣

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: من شريك ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: تفرَّدَ بما خلقه فلم يرضَ أن يُضافَ خلقُهُ وإنعامُه إلى غيره، ومَنَعَ الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: طلب بعضهم مغالبةَ بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ثم نزَّه نفسَهُ فقال:

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص «عالمُ» برفع الميم على الابتداء، وقرأ الآخرون بجرها على نعت الله في سبحان الله ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: تعظَّم عما يشركون، ومعناه: أنه أعظمُ من أن يُوصفَ بهذا الوصف.

قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أي: إن أريتني ﴿مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: ما أوعدتهم من العذاب.

﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لا تهلكني بهلاكهم.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب لهم ﴿لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع بالخُلُقِ التي هي أحسن، هي الصفح والإعراض والصبر ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يعني: أذاهم، أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة، نسختها آية السيف[1] ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾ يكذبون ويقولون من الشرك.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أمتنعُ وأعتصمُ بك ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧﴾ قال ابن عباس: نزعاتهم، وقال الحسن: وساوسهم، وقال مجاهد: نفخهم ونفثهم، وقال أهل المعاني: دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، وأصل الهمز شدة الدفع.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ في شيء من أموري، وإنما ذكر الحضور؛ لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه، ثم أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾ ولم يقل: ارجعني، وهو يسأل الله وحده الرجعة، على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم، كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، ومثله كثير في القرآن، وقيل: هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله؛ لأنهم استغاثوا بالله أولًا، ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا.

قوله تعالى: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي: ضيَّعتُ أن أقولَ لا إله إلَّا الله، وقيل: أعمل بطاعة الله، قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرءًا عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب.

﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: سؤاله الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ (ولا ينالها)[2] ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: أمامهم وبين أيديهم حاجز ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ والبرزخ الحاجز بين الشيئين، واختلفوا في معناه هاهنا، فقال مجاهد: حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وقال قتادة: بقية

---

(١) تقدم في أكثر من موضع أن العلماء توسعوا في نسخ كثير من آيات الصبر والمسالمة والحسنى بآية السيف، والحق أنه لا نسخ في هذا. انظر فيما سبق: (١/ ٦٥٣)، تعليق (١).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١٠١﴾

الدنيا، وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث، وقيل: هو القبر، وهم فيه إلى يوم يبعثون.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ اختلفوا في هذه النفخة، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها النفخة الأولى «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ»[الزمر: ٦٨] ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١٠١﴾ «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ»[الزمر: ٦٨]، «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ»[الصافات: ٢٧].

وعن ابن مسعود: أنها النفخة الثانية، قال يؤخذ بيد العبدِ والأَمَةِ يوم القيامة فيُنصبُ على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان، فمن كان له قِبَله حق فليأت إلى حقه، فيفرح المرء أن (يكون له)[1] الحق على والده وولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود: «فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ»[2].

وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها الثانية، «فلا أنساب بينهم»، أي: لا يتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا، ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا: مَنْ أنت ومن أي قبيلة أنت؟ ولم يرد أن الأنساب تنقطع.

فإن قيل: أليس قد جاء في الحديث: «كل سبب ونسب ينقطع إلَّا نسبي وسببي»[3].

قيل: معناه: لا يبقى[4] يوم القيامة سبب ولا نسب إلَّا نسبه وسببه، وهو الإيمان والقرآن.

فإن قيل: قد قال هاهنا «وَلَا يَتَسَاءَلُونَ»، وقال في موضع آخر: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ»[الصافات: ٢٧]؟

الجواب: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن للقيامة أحوالًا ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عِظمُ الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقةً فيتساءلون[5].

---

(١) في «ب»: (قد وجب).

(٢) أخرج الروايتين الطبري: (١٨/ ٥٤).

(٣) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٣/ ١٤٢) عن عمر ـ رضي الله عنه ـ، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: (منقطع)، والطبراني: (٣/ ٣٧)، قال الهيثمي (٤/ ٢٧٢): (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)، والبيهقي: (٧/ ١١٤)، وذكره ابن حجر في «المطالب العالية»: (٤/ ١٧٧)، ونسبه لابن أبي عمر، وقال البوصيري: (رواته ثقات)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ١١٧) للبزار والضياء في «المختارة»، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٢٥٧).

(٤) في «ب»: (لا ينفع).

(٥) انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها»: ص٢٣٨.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تسفع، وقيل: تحرق ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ عابسون.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد الحارثي، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ»، قال: «تشويه النار، فتقلِصُ شفتُه العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السفلى حتى تضربَ سرته»[1]، وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك، عن حاجب بن عمر، عن الحكم بن الأعرج قال: قال أبو هريرة: «يعظم الكافر في النار مسيرة سبع ليال، فيصير ضرسه مثل أُحد، وشفاههم عند سررهم، سود زرق خسر مقبوحون»[2]. / ٣٣/ب

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن، تخوَّفون بها ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي: «شقاوتنا» بالألف وفتح الشين، وهما لغتان، أي: غلبت علينا شقوتنا التي كتبت علينا فلم نهتد ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦﴾ عن الهدى.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ﴾ أبعدوا ﴿فِيهَا﴾ كما يقال للكلب إذا طُرِد: اخسأ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ في رفع

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة المؤمنون: (٩/ ٢٠)، وقال: (هذا حديث حسن غريب صحيح)، والإمام أحمد: (٣/ ٨٨)، والحاكم: (٢/ ٣٩٥) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه ابن حجر في «الكافي الشاف»: ص١١٦ للبيهقي في «الشعب» من رواية أبي السمح عن الهيثم بن أبي سعيد، وعزاه السيوطي أيضًا: (٦/ ١١٨) لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في «الحلية»، وعزاه الزيلعي للبيهقي في «البعث والنشور»، ولعل ما في «الكافي الشاف» محرَّف عنه.
وانظر: «الترغيب والترهيب»: (٤/ ٤٨٦)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٢٥٨)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٤٠٨).

(٢) انظر: «كنز العمال»: (١٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

العذاب، فإني لا أرفعه عنكم، فعند ذلك أيس المساكين[1] من الفرج، قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلّا الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يَفْهمون ولا يُفْهمون، روي عن عبد الله بن عمرو: «أن أهل جهنم يدعون مالكًا خازن النار أربعين عامًا[2]: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[الزخرف: ٧٧]، فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[الزخرف: ٧٧]، ثم ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فلا ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلّا الزفير والشهيق. وقال القرطبي: إذا قيل لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض، وأطبقت عليهم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء في «إنه» عماد، وتسمى أيضًا المجهولة ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي «سُخريًّا» بضم السين هاهنا وفي سورة «صٓ»، وقرأ الباقون بكسرهما، واتفقوا على الضم في سورة الزخرف، قال الخليل: هما لغتان، مثل قولهم: «بحر لُجي ولِجي» بضم اللام وكسرها، مثل: كوكب دُري ودِري، قال الفراء والكسائي: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل، واتفقوا في سورة الزخرف بأنه بمعنى التسخير ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ أي: أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم ﴿ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ نظيره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾[المطففين: ٢٩]، قال مقاتل: نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وسلمان والفقراء من الصحابة، كان كفار قريش يستهزئون بهم[3].

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على أذاكم واستهزائكم في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي «إنهم» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتحها، فيكون في موضع المفعول الثاني إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة.

---

(١) في «ب»: (المشركون).

(٢) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٩٥)، وصححه ووافقه الذهبي، لكن بلفظ: «يومًا» بدل «عام».

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٤٢٣).

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «قل كم لبثتم» على الأمر، ومعنى الآية: قولوا أيها الكافرون، فأخرج الكلام مخرج الواحد، والمراد منه الجماعة، إذْ كان معناه مفهومًا، ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحد منهم، أي: قل أيها الكافرون، وقرأ ابن كثير «قل كم» على الأمر، وقال: «أن» على الخبر؛ لأن الثانية جواب، وقرأ الآخرون «قال» فيهما جميعًا، أي: قال الله عزَّ وجلَّ للكفار يوم البعث: كم لبثتم؟ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في الدنيا وفي القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نسوا مدة لبثهم في الدنيا؛ لعظم ما هم بصدده من العذاب ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ سماه قليلًا؛ لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فإنه يكون قليلًا في جنب ما يلبث في الآخرة؛ لأن لبثه في الدنيا وفي القبر متناهٍ ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ قدر لبثكم في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ لعبًا وباطلًا لا لحكمة، وهو نصب على الحال، أي: عابثين، وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: «أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى»[القيامة: ٣٦]، وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عزَّ وجلَّ و ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب «لا تَرجِعون» بفتح التاء وكسر الجيم.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا بشر بن عمر، أخبرنا عبد الله بن لهيعة، أخبرنا عبد الله بن هبيرة، عن حنش أن رجلًا مصابًا مُرّ به على ابن مسعود فرقاه في أذنيه: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا» حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا رقيت في أذنه»؟ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلًا موقنًا قرأها على جبل لزال»(١).

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ١٢٢) للحكيم الترمذي وأبي يعلى وابن أبي حاتم، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»: ص٢٩٨، وأبي نعيم في «الحلية»: (١/ ٧)، وابن مردويه.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾
وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

ثم نزَّه الله نفسه عمَّا يصفه به المشركون، فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ يعني: السرير الحسن، وقيل: المرتفع.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حجة له به ولا بينة؛ لأنه لا حجة في دعوى الشرك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ جزاؤه ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ يجازيه بعمله، كما قال تعالى: «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم»[الغاشية: ٢٦]

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ لا يسعد من جحد وكذب.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

* * *

= وفي إسناده: سلام بن رَزِين، لا يعرف، وحديثه باطل، وذكره الذهبي في «الميزان»: (٢/ ١٧٥)، وقال: (قال العقيلي: حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال ... وساق الحديث، فقال أبي: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين).

سورة النُّور

مدنية[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿سُورَةٌ﴾ أي: هذه سورة ﴿أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «وفرَّضناها» بتشديد الراء، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها، وقيل: معناه: قدَّرنا ما فيها من الحدود، والفرض: التقدير، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[البقرة: ٢٣٧]، أي: قدرتم، ودليل التخفيف قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾[القصص: ٨٥]، وأما التشديد فمعناه: / وفصلناه ١/٣٤
وبيناه، وقيل: هو بمعنى الفرض الذي هو بمعنى الإيجاب أيضًا، والتشديد للتكثير؛ لكثرة ما فيها من الفرائض، أي: أوجبناها عليكم وعلى مَن بعدكم إلى قيام الساعة ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ تتعظون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أراد: إذا كانا حرين بالغين عاقلين بكرين غير محصنين، ﴿فَاجْلِدُوا﴾: فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة، يقال: جلده إذا ضربَ جِلْدَه، كما يقال: رأَسَه وبطَنَه، إذا ضرب رأسه وبطنه، وذكر بلفظ الجلد؛ لئلا يبرّح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم، وقد وردت السنة أنه يجلد مائة ويغرب عامًا[٢]، وهو قول أكثر أهل العلم، وإن كان الزاني محصنًا فعليه الرجم،

---

(١) مدنية كلها بإجماع العلماء، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١٢٤)، «زاد المسير»: (٦/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزاني: (٥/ ٢٥٥)، عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: «أنه أمر فيمن زنى ولم يُحصن بجلد مئةٍ وتغريب عام».

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

ذكرناه في سورة النساء[١].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة ورقَّة، وقرأ ابن كثير «رأَفة» بفتح الهمزة، ولم يختلفوا في سورة الحديد، أنها ساكنة لمجاورة قوله ورحمة، والرأفة: معنى في القلب، لا ينهى عنه؛ لأنه لا يكون باختيار الإنسان.

روي أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت، فقال للجلاد: اضرب ظهرها ورجليها، فقال له ابنه: لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، فقال: يا بنيّ، إن الله عزَّ وجلَّ لم يأمرني بقتلها وقد ضُربت فأوجعت[٢].

واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: لا تأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي، وقال جماعة: معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضربًا، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن، قال الزهري: يجتهد في حد الزنا والفرية ويخفف في حد الشرب، وقال قتادة: يجتهد في حد الزنا ويخفف في الشرب والفرية.

﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ معناه: أن المؤمن لا تأخذه الرأفةُ إذا جاء أمر الله تعالى.

﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ وليحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ حدَّهما إذا أقيم عليهما ﴿طَآئِفَةٌ﴾ نفر ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ قال مجاهد والنخعي: أقله رجل واحد فما فوقه، وقال عكرمة وعطاء: رجلان فصاعدًا، وقال الزهري وقتادة: ثلاثة فصاعدًا، وقال مالك وابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ اختلف العلماء في معنى الآية وحكمها، فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن، وهنَّ يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية[٣] «وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ»، أن يتزوجوا تلك البغايا؛ لأنهنَّ كن مشركات، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري والشعبي، ورواية العوفي عن ابن عباس.

---

(١) انظر فيما سبق: (١/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) أخرجه الطبري: (١٨/ ٦٧)، وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١٢٥-١٢٦).

(٣) قطعة من حديث عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ١٢٧) لابن أبي حاتم.

وقال عكرمة: نزلت في نساء بمكة والمدينة، منهن تسع لهنَّ رايات كرايات البيطار يعرفن بها، منهنَّ أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة، فاستأذن رجل من المسلمين رسول الله ﷺ في نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله هذه الآية[1].

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت بمكة بغي يقال لها عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرَّم الزنا، فقالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد شيئًا، فنزلت: «وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ» فدعاني فقرأها عليَّ وقال لي: لا تنكحها[2].

فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصًا في حق أولئك دون سائر الناس.

وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، ومعناه: الزاني لا يزني إلَّا بزانية أو مشركة، والزانية لا تزني إلَّا بزان أو مشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم، ورواية الوالبي عن ابن عباس، قال يزيد بن هارون: إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك، وإن جامعها وهو مُحرِّم فهو زان، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبدًا، وقال الحسن: الزاني المجلود لا ينكح إلَّا زانية مجلودة، والزانية المجلودة لا ينكحها إلَّا زان مجلود، قال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، فكان نكاح الزانية حرامًا بهذه الآية فنسخها قوله تعالى: «وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ» فدخلت الزانية في أيامى المسلمين[3].

واحتج من جوز نكاح الزانية بما أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أخبرنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، أخبرنا الحسن بن فرج، أخبرنا عمرو ابن خالد الحراني، أخبرنا عبيد الله بن عبد الكريم الجزري عن أبي الزبير، عن جابر أن رجلًا أتى النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٢/ ١٥٩)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٦٤ـ٣٦٦، «تفسير الطبري»: (١٨/ ٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾: (٣/ ٦)، والترمذي في تفسير سورة النور: (٩/ ٢١ ـ ٢٣)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه)، والنسائي في النكاح، باب تزويج الزانية: (٦/ ٦٦ ـ ٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه الحاكم: (٢/ ١٦٦) وأقره الذهبي، والطبري: (١٨/ ٧١).

(٣) ذكر هذه الأقوال الطبري: (١٨/ ٧٤ ـ ٧٥)، ثم قال مرجحًا: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالنكاح في هذا الموضع: الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذْ كان ذلك كذلك، أنه لم يُعْنَ بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلَّا بزانية أو مشركة، وإذْ كان ذلك كذلك فبيِّنٌ أنَّ معنى الآية: الزاني لا يزني إلَّا بزانية لا تستحل الزنا، أو بمشركة تستحله).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

فقال: يا رسول الله، إنَّ امرأتي لا تدفع يَدَ لامِس؟ قال: «طلقها»، قال: فإني أحبها وهي جميلة، قال: «استمتع بها»، وفي رواية غيره: «فأمسكها إذًا»(١).

٣٤/ب وروي أن عمر بن الخطاب ضرب رجلًا وامرأة / في زنى وحرَّض أن يجمع بينهما فأبى الغلام(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أراد بالرمي: القذف بالزنا، وكلُّ من رمى محصنًا أو محصنة بالزنا، فقال له: زنيت أو يا زاني فيجب عليه جلد ثمانين جلدة، إن كان حرًا، وإن كان عبدًا فيجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن، فعلى القاذف التعزير.

وشرائط الإحصان خمسة: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنى، حتى إن من زنى مرة في أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف فلا حدَّ عليه، فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة من الشهود على زناه سقط الحد عن القاذف؛ لأن الحد الذي وجب عليه حد الفرية وقد ثبت صدقه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون بالزنا المحصنات، يعني: المسلمات الحرائر العفائف ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون على زناهنَّ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أي: اضربوهم ثمانين جلدة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة، وفي حكم هذا الاستثناء: فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف، وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته قُبلت شهادته، سواء تاب بعد إقامة الحدِّ عليه أو قبله؛ لقوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا»، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى الشهادة وإلى الفسق، فبعد التوبة تقبل شهادته، ويزول عنه اسم الفسق، يروى ذلك عن ابن عباس وعمر، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن المسيب وسليمان ابن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري، وبه قال مالك والشافعي.

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء: (٣/ ٥)، والنسائي في النكاح، باب تزويج الزانية: (٦/ ٦٧ـ٦٨)، وفي الطلاق، باب ما جاء في الخلع: (٦/ ١٧٠)، وقال: (هذا الحديث ليس بثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون بن رئاب أثبت منه وقد أرسل الحديث، وهارون ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم). وقال السندي في حواشيه على النسائي: (وقيل: هذا الحديث موضوع، وردَّ بأنه حسن صحيح، ورجال سنده رجال الصحيحين، فلا يلتفت إلى قول من حكم عليه بالوضع، والله أعلم).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (٧/ ٢٠٣ـ٢٠٤)، وسعيد بن منصور في «السنن»: (١/ ٢٢٤)، والبيهقي: (٧/ ١٥٥).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾

وذهب قوم إلى أن شهادة المحدود في القذف لا تقبل أبدًا وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: «وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»، وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأي، وقالوا: بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحدّ.

قال الشافعي: وهو قبل أن يُحَدَّ شرّ منه حين يحد؛ لأن الحدود كفارات، فكيف يردونها في أحسن حاليه ويقبلونها في شر حاليه.

وذهب الشعبي إلى أن حد القذف يسقط بالتوبة، وقال: الاستثناء يرجع إلى الكل.

وعامة العلماء على أنه لا يسقط بالتوبة إلّا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط، كالقصاص يسقط بالعفو، ولا يسقط بالتوبة.

فإن قيل: إذا قبلتم شهادته بعد التوبة فما معنى قوله: «أَبَدًا»؟

قيل: معناه: لا تقبل شهادته أبدًا ما دام مُصِرًا على قذفه؛ لأن أبد كل إنسان مدته على ما يليق بحاله، كما يقال: لا تقبل شهادة الكافر أبدًا: يراد ما دام كافرًا[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: يقذفون نساءهم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يشهدون على صحة ما قالوا ﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: غير أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «أربعُ شهادات» برفع العين على خبر الابتداء، أي: فشهادة أحدهم التي تدرأ الحد أربع شهادات، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾ قرأ نافع ويعقوب «أنْ» خفيفة، وكذلك الثانية «لعنةُ الله» رفع، ثم يعقوب قرأ «غضبُ» برفع، وقرأ نافع «غَضِبَ» بكسر الضاد وفتح الباء على الماضي «الله» رفع، وقرأ الآخرون «أنَّ» بالتشديد فيهما، «لعنة» نصب، و«غضَب» بفتح الضاد على الاسم، «الله» جر، وقرأ حفص عن عاصم و«الخامسةَ» الثانية نصب، أي: ويشهد الشهادة الخامسة، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره في أن كالأولى.

وسبب نزول هذه الآية ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي،

---

(١) انظر: تفصيلًا لهذه الأقوال مع الترجيح عند الطبري: (١٨/ ٧٦_٨١).

أخبره أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم، أرأيت لو أن رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ سل لي عن ذلك يا عاصمُ رسولَ الله ﷺ، قال: فسأل عاصم رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ، فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال له: يا عاصم، ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال عاصم لعويمر، لم تأتني بخير، قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي سألته عنها، فقال عويمر: والله، لا أنتهي حتى أسأله عنها، فجاء عويمر ورسول الله ﷺ وسط الناس فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أُنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأْتِ بها»، فقال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، فطلقَّها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

قال مالك: قال ابن شهاب: فكانت تلك بَعْدُ سُنة المتلاعنين[(١)].

وقال محمد بن إسماعيل: أخبرنا إسحاق، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا الأوزاعي، أخبرنا الزهري بهذا الإسناد بمثل معناه وزاد: ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم
١/٣٥ الإليتين خدلج الساقين، فلا أحسب عويمرًا إلّا قد صدق عليها، وإن جاءت به / أحيمر كأنه وحوه[(٢)] فلا أحسب عويمرًا إلّا قد كذب عليها» فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر[(٣)]، فكان بعد ينسب إلى أمه.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا محمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أحمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن بشار، أخبرنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، أخبرنا عكرمة، عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينةُ أو حدٌّ في ظهرك»، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلّا حدٌّ في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق اني لصادق، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحدّ، فنزل جبريل وانزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحد كما كاذب، فهل منكما تائب»؟

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»، باب ما جاء في اللعان برقم٣٤: (٢/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧)، والبخاري في الطلاق، باب اللعان ومَن طلّق بعد اللعان: (٩/ ٤٤٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم في أول باب اللعان برقم١٤٩٢: (٢/ ١١٢٩ ـ ١١٣٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٥٠).

(٢) في «ب»: (وحرة)، والوَحَرَةُ: دُوَيْبَة شبه الوزغة تلزق بالأرض، جمعها: وَحَرٌ، ومنه: وَحَر الصدر، وهو الحقد والغيظ، سُمي به؛ لتشبثه بالقلب، ويقال: فلان وَحِرُ الصدر: إذا دبت العداوة في قلبه كدبيب الوَحَرة.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق، باب التلاعن في المسجد: (٩/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٥٢).

ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين[١]، سابغ الإليتين[٢]، خدلج الساقين[٣]، فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[٤].

وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت «وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ. . .» الآية، قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع، وقد تفخذها رجل لم يكن لي أهيجه حتى آتيَ بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما قال سيدكم»؟ قالوا: لا تلمه، فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قط إلّا بكرًا، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك، فقال النبي ﷺ: «فإن الله يأبى إلّا ذلك»، فقال: صدق الله ورسوله، قال: فلم يلبثوا إلّا يسيرًا، حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقةٍ له، فرأى رجلًا مع امرأته يزني بها، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاءً فوجدت رجلًا مع امرأتي، رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله، إني لأرى الكراهية في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم إني لصادق وما قلت إلّا حقًّا، وإني لأرجو أن يجعل الله لي فرجًا، فهمَّ رسول الله ﷺ بضربه، فقال: واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتُلينا بما قال سعد، يجلد هلال وتبطل شهادته، وإنهم لكذلك، ورسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذْ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل عليه، حتى فرغ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ» إلى آخر الآيات، فقال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجًا»، فقال: لقد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله ﷺ: «أرسِلوا إليها، فجاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل لها فكذّبتْ، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب»؟ فقال هلال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قد صدقتُ وما قلت إلّا حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: «لاعِنُوا بينهما» فقيل

---

(١) شديد سوادهما.

(٢) تام الإليتين، عظيمهما.

(٣) عظيمهما.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور، باب ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: (٨/ ٤٤٩) وفي مواضع أخرى، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

لهلال: اشهدْ، فشهدَ أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال له عند الخامسة: وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله ﷺ، فشهد الخامسة: أنَّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قال للمرأة: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فقال لها عند الخامسة ووقفها: اتقي الله، فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، فتلكأت ساعة وهمّتْ بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت الخامسة: أن غضبَ الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما[1]، وقضى بأن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها، وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه»، فجاءت به غلامًا كأنه جمل أورق، على الشبه المكروه، وكان بعد أميرًا على مصر، لا يدري من أبوه.

وقال ابن عباس ـ في سائر الروايات ـ ومقاتل: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ...﴾ الآية، فقرأها رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: جعلني الله فداك، إن رأى رجل منَّا مع امرأته رجلًا فأخبر بما رأى جُلِدَ ثمانين جلدة، وسماه المسلمون فاسقًا، ولا تقبل شهادته أبدًا، فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومرَّ؟ وكان لعاصم هذا ابن عم

٣٥/ب يقال له عويمر، وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس بن محصن، فأتى عويمر / عاصمًا وقال: لقد رأيت شريك بن السمحاء على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم، وأتى رسول الله ﷺ في الجمعة الأخرى، فقال: يا رسول الله، ما أسرع ما ابتليت بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية من أهل بيتي، فأخبره وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عمِّ عاصمٍ، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعًا، وقال لعويمر: «اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها بالبهتان»، فقال: يا رسول الله، أقسم بالله إني رأيت شريكًا على بطنها، وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإنها حبلى من غيري، فقال رسول الله ﷺ للمرأة: «اتقي الله، ولا تخبري إلَّا بما صنعت»، فقالت: يا رسول الله، إن عويمرًا رجل غيور، وإنه رآني وشريكًا يطيل السمر ونتحدث، فحملته الغيرة على ما قال، فقال رسول الله ﷺ لشريك: «ما تقول»؟ فقال: ما تقوله المرأة كذب، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ...﴾ الآية، فأمر رسول الله ﷺ حتى نودي الصلاة جامعة، فصلى العصر ثم قال لعويمر: «قم» فقام، فقال: أشهدُ بالله بأن خولة لزانية وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثانية: أشهد إني رأيت شريكًا على بطنها، وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثالثة: أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين، ثم قال في الرابعة: أشهد بالله إني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين، ثم قال في الخامسة:

(١) أخرجه مسلم في اللعان برقم١٤٩٨: (٢/ ١١٣٥)، وأخرج بعضه المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٦٥).

لعنة الله على عُويمر ـ يعني: نفسه ـ إن كان من الكاذبين فيما قال، ثم أمره بالقعود، وقال لخولة: «قومي» فقامت، فقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرًا لمن الكاذبين، ثم قالت في الثانية: أشهد بالله إنه ما رأى شريكًا على بطني وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الثالثة: أشهد بالله إني حبلى منه وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الرابعة: أشهد بالله إنه ما رآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الخامسة: غضب الله على خولة ـ تعني: نفسها ـ إن كان من الصادقين، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي»، ثم قال: «تحينوا بها الولادة، فإن جاءت به أصيهب[(١)] أثيبج[(٢)] يضرب إلى السواد فهو لشريك، وإن جاءت به أورق[(٣)]، جَعْدًا جُماليًا[(٤)]، خدلجَّ الساقين[(٥)] فهو لغير الذي رُميت به»، قال ابن عباس: فجاءت بأشبه خلق الله بشريك[(٦)].

والكلام في حكم الآية: أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحدّ عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن لم تكن محصنة، غير أن المخرج منهما مختلف، فإذا قذف أجنبيًا يقام الحدُّ عليه، إلَّا أن يقيم أربعة من الشهود على زناه، أو يقرَّ به المقذوف فيسقط عنه حد القذف، وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاعَنَ يسقط عنه الحد، فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة؛ لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلًا ربما لا يمكنه إقامة البينة عليه، ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه، فقال تعالى: «فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ»، وإذا أقام الزوج البينة على زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحد واللعان، إلَّا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه.

وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما يبدأ فيقيم الرجل ويلقنه كلمات اللعان، فيقول: قل أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به فلانة بالزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه بعينه باللعان، وإن رماها بجماعة سماهم، ويقول الزوج كما يلقنه الإمام، وإن كان ولد أو حَمْل يريد نفيه يقول: وإن هذا الولد أو الحمل لمن الزنا ما هو مني، ويقول في الخامسة: عليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتى بكلمة منها من غير تلقين الحاكم لا تكون محسوبة، فإذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه على التأبيد، وانتفى عنه النسب وسقط عنه حد القذف، ووجب على المرأة حد الزنا، إن كانت محصنة ترجم، وإن كانت غير محصنة تجلد وتغرب، فهذه خمسة أحكام تتعلق كلها بلعان الزوج.

---

(١) الأُصيهب: تصغير الأصهب، وهو الذي يعلوه صهبة، وهي كالشقرة، وفي «أ»: (بأصهب) بدلًا من: (به أصيهب).

(٢) الأُثيبج: تصغير الأثبج، وهو الناتىء الثبج، والثبج: ما بين الكاهل ووسط الظهر، وفي «أ» جاءت العبارة: (أسلع أسحب).

(٣) أورق: يميل لونه للون الرماد.

(٤) جُماليًا: الجمالي: العظيم الخلق، شبه خلقه بخلق الجمل.

(٥) الخدلج: العظيم الساقين.

(٦) أخرجه الطبري مختصرًا: (١٨/ ٨٤).

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾ يدفع ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ وأراد بالعذاب: الحدَّ، كما قال في أول السورة: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، أي: حدَّهما، ومعنى الآية: أن الزوج إذا لاعَنَ وجب على المرأة حد الزنا، وإذا وجب عليها حدُّ الزنا بلعانه فأرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن، فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة: عليَّ غضبُ الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به.

ولا يتعلق بلعانها إلَّا حكم واحد وهو سقوط الحد عنها، ولو أقام الزوج بينة على زناها فلا يسقط الحد عنها باللعان.

وعند أصحاب الرأي: لا حدّ على من قذف زوجته، بل موجبه اللعان، فإن لم يلاعن يحبس حتى يلاعن، فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة عن اللعان حبست حتى تلاعن.

وعند الآخرين: اللعان حجة على صدقه، والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة على صدقه لا يحبس، بل يحد كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة.

وعند أبي حنيفة: موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلَّا بلعان الزوجين جميعًا، وقضاء القاضي.

وفرقةُ اللعان فرقة فسخ عند كثير من أهل العلم، وبه قال الشافعي، وتلك الفرقة متأبدة حتى لو كذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه دون ما له، فيلزمه الحد ويلحقه الولد / ولكن لا يرتفع تأبيد التحريم. ٣٦/أ

وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق، فإذا كذب الزوج نفسه جاز له أن ينكحها.

وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم، وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل في تعلق الحكم به.

وكل من صح يمينه صح لعانه حرًا كان أو عبدًا، مسلمًا أو ذميًّا، وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان ابن يسار والحسن، وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم، وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي: لا يجري اللعان إلَّا بين مسلمين حرَّين غير محدودين، فإن كان الزوجان أو أحدهما رقيقًا أو ذميًّا أو محدودًا في قذف فلا لعان بينهما.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

وظاهر القرآن حجة لمن قال: يجري اللعان بينهما؛ لأن الله تعالى قال: «وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ»، ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره، كما قال: «ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن»[المجادلة: ٢]، ثم يستوي الحر والعبد هنا في الظهار، ولا يصح اللعان إلَّا عند الحاكم أو خليفته.

ويغلَّظ اللعان بأربعة أشياء: بعدد الألفاظ، والمكان، والزمان، وأن يكون بمحضر جماعة من الناس. أما الألفاظ المستحقة فلا يجوز الإخلال بها، وأما المكان فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن، إن كان بمكة فبين الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وفي سائر البلاد ففي المسجد الجامع عند المنبر، والزمان هو أن يكون بعد صلاة العصر، وأما الجَمْع فأقلهم أربعة، والتغليظ بالجمع مستحب، حتى لو لاعَنَ الحاكم بينهما وحده جاز[1]، وهل التغليظ بالمكان والزمان واجب أو مستحب؟ فيه قولان.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ جواب «لولا» محذوف، يعني: لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحدَّ باللعان، وإن الله تواب يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرض من الحدود.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية ما أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفةً من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبتَ له اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديثَ الذي حدثني عن عائشة، وبعضُ حديثهم يُصدِّق بعضًا.

قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه وأيهنَّ خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزل الحجاب، فكنت أُحمل في هودج وأُنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك،

(١) ساقط من «أ».

وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظفار[١] قد انقطع فرجعت، فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يرحلون بي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يَهْبُلْنَ ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلْقَةَ[٢] من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلَمي ثم الذَّكْواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول.

قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبيّ بن سلول، قال عروة: أُخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه.

وقال عروة أيضًا: لم يسم من أهل الإفك أيضًا إلَّا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾، قال: عبد الله بن أُبي بن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإنَّ أبي ووالدَتي وعِرضي لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مِسطح قِبَل المناصعِ وكان متبرزنا، وكنَّا لا نخرج إلَّا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمْرُنا أمر العرب الأول في التبرُّز قبل الغائط، وكنَّا نتأذى بالكنف / أن نتخذها عند بيوتنا. ٣٦/ب

(١) جزع: خرز معروف في سواده بياض كالعروق، قال ابن القطاع: هو واحد لا جمع له، وقال ابن سيده: هو جمع واحده جزعة، وهو بالفتح.

(٢) ما يُجلغ به من العيش.

قالت: فانطلقت، أنا وأُم مِسطح ـ وهي ابنة أبي رهم بن عباد بن المطلب بن عبد مناف وأُمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأُم مِسطح قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أُمُّ مِسطح في مِرْطها، فقالت: تعسَ مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟ فقالت: أي هَنْتاه[١]، أوَلم تسمعي ما قال؟ قالت: فقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت: فأذِنَ لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أُمَّتاه، ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوِّني عليك فوالله لقلَّ ما كانت امرأة قط رَضِيَّة[٢] عند رجل يحبها لها ضرائر إلَّا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله أوَ لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم[٣]، ثم أصبحت أبكي.

قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلَّا خيرًا، وأما علي فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسلِ الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَرِيْرَةَ، فقال: أيْ بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصُه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ (من يومه)[٤] فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلَّا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلَّا خيرًا، وما يدخل على أهلي إلَّا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أُم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبتَ لعَمْر الله

---

(١) أي: حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حين يتزل منزلة البعيد، وهنتاه ـ بفتح الهاء وسكون النون، وقد تفتح بعدها مثناة وآخرها هاء ساكنة، وقد تضم، أي: هذه، وقيل: امرأة، وقيل: بلهى، كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكائد الناس.

(٢) في «ب»: (وضيئة).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) زيادة من «ب».

لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيَّان الأوسُ والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا ورسولُ الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، (قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم)[1]، ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يُوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته فاض[2] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، فقالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنِّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلَّا قول أبي يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨]، ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا أعلم والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه الوحي[1] فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أما والله فقد برأك الله، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلَّا الله، قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (قلص).

وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: «وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ» إلى قوله: «غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، قال أبو بكر الصديق: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجَّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت / عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت ٣٧/أ أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلَّا خيرًا، قالت عائشة، وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أُنثى قط، قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله(١).

ورواه محمد بن إسماعيل، عن يحيى بن بكير، أخبرنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب بإسناد مثله، وقال: وإنْ كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، إلى قوله: فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك(٢).

ورواه أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي، فقالت: لا والله ما علمت عليها عيبًا، إلَّا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، فانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله حتى أسقطوا لها بِهِ، فقالت: سبحان الله والله ما علمت عليها إلَّا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر، وفيه قالت: وأُنزل على رسول الله ﷺ، فرُفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك، فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمده ولا أحمد أحدًا، ولكن أحمد الله الذي برأني، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث الإفك: (٧/ ٤٣١ ـ ٤٣٥)، وفي تفسير سورة النور: (٨/ ٤٥٢ ـ ٤٥٥)، وفي الشهادات: (٥/ ٢٦٩ـ ٢٧٢)، وفي مواضع أُخرى.
وأخرجه مسلم في التوبة، بابٌ في حديث الإفك وقبول توبة القاذف برقم ٢٧٧٠: (٤/ ٢١٢٩ـ ٢١٣٦)، وأخرج المصنف أوله في «شرح السنة»: (٩/ ١٥٣).

(٢) في الموضع السابق من كتاب التفسير، سورة النور: (٨/ ٤٥٢ـ ٤٥٥).

(٣) في رواية البخاري معلقًا بصيغة الجزم، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ...﴾: (٨/ ٤٨٨)، ومسلم في التوبة أيضًا: (٤/ ٢١٣٧ـ ٢١٣٨).

أما تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ بالكذب، والإفكُ: أسوأ الكذب، سُمي إفكًا؛ لكونه مصروفًا عن الحق، من قولهم: أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف، فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: جماعة، منهم: عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيد الله، وغيرهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يا عائشة ويا صفوان، وقيل: هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبي ﷺ ولصفوان، يعني: لا تحسبوا الإفك شرًّا لكم ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ يعني: من العصبة الكاذبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي: تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه، قرأ يعقوب «كبره» بضم الكاف، وقرأ العامة بالكسر، قال الكسائي: هما لغتان، قال الضحاك: قام بإشاعة الحديث، وهو عبد الله بن أبي بن سلول.

وروى الزهري عن عروة عن عائشة «وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ»، قالت: عبد الله بن أُبيّ بن سلول[1]، والعذاب الأليم هو النار في الآخرة.

وقد روى ابن أبي مُليكة، عن عروة، عن عائشة في حديث الإفك، قالت: ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين، وكانت عادتهم أن ينزلوا متنبذين من الناس، فقال عبد الله بن أُبيّ رئيسُهم: مَنْ هذه؟ قالوا: عائشة، قال: والله ما نَجَتْ منه وما نجا منها، وقال: امرأةُ نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها[2]، وشرع في ذلك أيضًا حسان ومسطح وحمنة، فهم الذين تولوا كبره.

وقال قوم: هو حسان بن ثابت.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا بشر بن خالد، أخبرنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سليمان، عن أبي الضحاك، عن مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشد شعرًا يشبب بأبيات له، وقال:

حصـــانٌ رَزانٌ مـــا تُـــزَنُّ بِـــرِيبَـــةٍ ... وتُصبحُ غَرْثَى من لُحومِ الغوافِلِ[3]

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك، قال مسروق: فقلت لها: لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك وقد

---

(١) انظر: البخاري: (٨/ ٤٥٠_٤٥٢)، «صحيح مسلم»: (٤/ ٢١٣١).

(٢) انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٤٦١).

(٣) الحصان: العفيفة، والرزان: الرزينة الثابتة التي لا يستخفها الطيش، وتُزَنّ: ترمى وتتهم، والريبة: التهمة والشك، وغَرْثَى: جائعة، يريد: لا تغتاب النساء، والغوافل: جمع غافلة، وهي التي غفل قلبها عن الشر.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾؟ قالت: وأي عذاب أشد من العمى[(١)]، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ[(٢)].

ويروى أن النبي ﷺ أمر بالذين رَمَوْا عائشة فجُلِدُوا الحدَّ جميعًا ثمانين ثمانين[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّوْلَآ﴾ هلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ بإخوانهم ﴿خَيْرًا﴾ قال الحسن: بأهل دينهم؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩]، ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[النور: ٦١] ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: كذب بيِّن ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: على ما زعموا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

فإن قيل: كيف يصيرون عند الله كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء، ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت؟

قيل: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، وقيل: معناه: كذِّبوهم بأمر الله، وقيل: هذا في حق عائشة، ومعناه: أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ قال ابن عباس، أي: عذاب لا انقطاع له، يعني: في الآخرة؛ لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ/ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقد أصابه، فإنه جُلد وحُدَّ، وروت عمرة عن عائشة ٣٧/ب
أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية حدّ أربعة نفر: عبد الله بن أُبي، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش[(٤)].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ٢٧٣): (ثم الأكثرون على أن المراد بذلك ـ الذي تولى كبر الإفك ـ إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول ـ قبَّحه الله تعالى ولعنه ـ وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك: مجاهد وغير واحد.
وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في «صحيح البخاري» ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب، وأحسن مآثره أنه كان يذبُّ عن رسول الله ﷺ بشعره . . .).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: (٨/ ٤٨٥).

(٣) انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٤٧٩)، «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم: (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

(٤) أخرج الترمذي عن عائشة قالت: «لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا=

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ تقولونه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد ومقاتل: يرويه بعضكم عن بعض، وقال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: بلغني كذا وكذا، يتلقونه تلقِّيًا، وقال الزَّجَّاج: يلقيه بعضكم إلى بعض، وقرأت عائشة «تَلِقُونه» بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ تظنون أنه سهل لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ في الوزر.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾ هذا اللفظ هاهنا معناه التعجب ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ أي: كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمته، وفي بعض الأخبار أن أم أيوب قالت لأبي أيوب الأنصاري: أما بلغك ما يقول الناس في عائشة؟ فقال أبو أيوب: سبحانك هذا بهتان عظيم[(١)]، فنزلت الآية على وفق قوله.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يحرِّم الله عليكم، وقال مجاهد: ينهاكم الله ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمر عائشة وصفوان ﴿حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ حكم ببراءتهما.

= حلدهم»، تفسير سورة النور: (٩/ ٣٧)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث محمد بن إسحاق).
ووقع تسمية هؤلاء الثلاثة: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بن جحش عند أبي داود في الحدود، باب حد القذف: (٦/ ٢٨٣)، وعزاه المنذري للنسائي وقال: (وقد أسنده ابن إسحاق مرة، وأرسله أخرى).
وأخرجه ابن ماجه في الحدود، باب حد القذف: (٢/ ٨٥٧).
وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٢٧٢).
وأخرج الطبراني عن سعيد بن جبير مثل حديث عائشة الذي ساقه المصنف.
وقال الهيثمي: (وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح). «مجمع الزوائد»: (٧/ ٨٠).
وانظر: «فتح الباري»: (٩/ ٤٨١)، «تحفة الأحوذي»: (٩/ ٣٧).
وأخرج البزار وابن مردويه بسندٍ حسن، عن أبي هريرة، وفيه: فحدَّ رسول الله ﷺ مسطحًا، وحمنة، وحسان.
انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١٤٦)، وراجع: «زاد المعاد»: (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٧٣، وانظر: الطبري: (١٨/ ٩٦)، و«الدر المنثور»: (٦/ ١٥٩)، «فتح الباري»: (٩/ ٤٧٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ يعني: تظهر، ويذيع الزنا ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين، والعذاب في الدنيا: الحدُّ، وفي الآخرة: النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كذبهم، وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ جواب «وَلَوْلَا» محذوف، أي: لعاجلكم بالعقوبة، قال ابن عباس: يريد مسطحًا وحسان وحمنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بالقبائح من الأفعال ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما يكرهه الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾ قال مقاتل: ما صلح، وقال ابن قتيبة: ما طهر ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ والآية على العموم عند بعض المفسرين، قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد، وقال قوم: هذا الخطاب للذين خاضوا في الإفك، ومعناه: ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: ما قبل توبة أحد منكم ﴿أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى﴾ يُطَهِّرُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من الذنب بالرحمة والمغفرة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: ولا يحلف، وهو يفتعل من الألية وهي القسم، وقرأ أبو جعفر «يتألَّ» بتقديم التاء وتأخير الهمزة، وهو يتفعل من الألية ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ يعني: أبا بكر الصديق ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: مسطحًا، وكان مسكينًا مهاجرًا بدريًّا ابن خالة أبي بكر، حلف[1] أبو بكر أن لا ينفق عليه ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ عنهم خوضهم في أمر عائشة ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يخاطب أبا بكر ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ فلما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر

(١) ساقط من «ا».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قال: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[1]. وقال ابن عباس والضحاك: أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم، فأنزل الله هذه الآية[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائف ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفواحش ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والغافلة عن الفاحشة، أي: لا يقع في قلبها فعل الفاحشة، وكانت عائشة كذلك، قوله تعالى: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ عذبوا بالحدود، وفي الآخرة بالنار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال مقاتل: هذا في عبد الله ابن أبيٍّ المنافق، روي عن خصيف قال: قلت لسعيد بن جبير: من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة؟ فقال ذلك لعائشة خاصة[3].

وقال قوم: هي لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة دون سائر المؤمنات، روي عن العوام بن حوشب عن شيخ من بني كاهل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ليس فيها توبة، ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: «وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ»، إلى قوله: «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟»، فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة[4].

وقال الآخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ، وكان ذلك[5] حين نزلت الآية التي في أول السورة «وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ»، إلى قوله: «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» فأنزل الله الجلد والتوبة[6].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدم الفعل، وقرأ الآخرون بالتاء ﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وهذا قبل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾: (٨/ ٤٥٥)، ومسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف برقم ٢٧٧٠: (٤/ ٢١٢٩ ـ ٢١٣٦).

(٢) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

(٣) عزاه السيوطي: (٦/ ١٦٤) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني، وقال الهيثمي (٦/ ٧٩): (رواه الطبراني، وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف).

(٤) قال الهيثمي (٦/ ٨٠): (رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذا الإسناد راوٍ لم يسمّ، وبقية رجاله ثقات، وهو أمثلها).

(٥) في «ب»: (كذلك حتى).

(٦) ذكر هذه الأقوال الطبري: (١٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥)، ثم قال مرجحًا: (وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

أن يختم على أفواههم ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ يروى أنه تختم[1] الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا، وقيل: معناه: تشهد ألسنة بعضهم على بعض وأيديهم وأرجلهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ جزاءهم الواجب، وقيل: حسابهم العدل ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا، قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وذلك أن عبد الله بن أبي كان يشك في الدين، فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق / المبين. ١/٣٨

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ قال أكثر المفسرين: الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من القول والكلام[2] ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من القول ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من القول، والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلّا بالخبيث من الناس، والطيب لا يليق إلّا بالطيب من الناس، فعائشة لا يليق بها الخبيثات من القول؛ لأنها طيبة ـ رضي الله عنها ـ فيضاف إليها طيبات الكلام من الثناء الحسن (وما يليق بها)[2].

وقال الزَّجّاج: معناه: لا يتكلم بالخبيثات إلّا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلّا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة، ومدح للذين برؤوها بالطهارة.

قال ابن زيد: معناه: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، (أمثال: عبد الله بن أُبيّ والشّاكّين في الدين)[3]، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، يريد: عائشة طيبها الله لرسوله الطيب ﷺ.

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يعني: عائشة وصفوان، ذكرهما بلفظة الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، أي: إخوان، وقيل: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾، يعني: الطيبين والطيبات منزهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ فالمغفرة: هي العفو عن الذنوب، والرزق الكريم: الجنة.

وروي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها، منها أن جبريل أتى بصورتها في سَرَقَةٍ[4] من حرير، وقال: هذه زوجتك.

---

(١) في «ب»: (يختم على).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) شقة حرير بيضاء، والجمع: سَرَقٌ، مثل: قَصَبَةٍ وَقَصَبٍ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

وروي أنه أتى بصورتها في راحته، وأن النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها، ودُفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله ﷺ وصديقه، وخلقت طيبة، ووُعدت مغفرة ورزقًا كريمًا(١).

وكان مسروق إذا روى عن عائشة يقول: حدثتني الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء(٢).

قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ قيل: معنى قوله: «حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟»، أي: تستأذنوا (وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا)(٣)، ويقول: تستأنسوا خطأ من الكاتب(٤)، وكذلك كان يقرأ أُبيُّ بن كعب، والقراءة المعروفة تستأنسوا وهو بمعنى الاستئذان.

وقيل: الاستئناس طلب الأُنس، وهو أن ينظر هل في البيت إنسان فيؤذنهم إني داخل.

وقال الخليل: الاستئناس الاستبصار، من قوله: آنست نارًا، أي: أبصرت.

وقيل: هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو يتنحنح، يُؤذِن أهل البيت.

وجملة حكم الآية: أنه لا يدخل بيت الغير إلَّا بعد السلام والاستئذان.

واختلفوا في أنه يقدم الاستئذان أم السلام؟ فقال قوم: يقدم الاستئذان فيقول: أأدخل سلام عليكم، لقوله تعالى: «حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟» أي: تستأذنوا «وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا» والأكثرون على أنه يقدم السلام فيقول: سلام عليكم أأدخل، وفي الآية تقديم وتأخير، تقديرها: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود، وروي عن كلدة بن حنبل قال: دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: ارجعْ فقل: السلام عليكم أأدخل(٥).

---

(١) هذه المناقب التي ذكرها المصنف لأمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ثابتة بأحاديث صحاح. انظرها في: «جامع الأصول» لابن الأثير: (٩/ ١٣٢ ـ ١٤٣)، «كنز العمال»: (١٢/ ١٣٣ ـ ١٣٨)، «الدر المنثور»: (٦/ ١٦٨ ـ ١٧٠).

(٢) انظر: «حلية الأولياء»: (٢/ ٤٤).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) انظر فيما سبق تعليقًا: (١/ ٦٢١ ـ ٦٢٢).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كيف الاستئذان: (٨/ ٥٦ ـ ٥٧)، والترمذي في الاستئذان، ما جاء في التسليم قبل الاستئذان: (٧/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلَّا من حديث ابن جريج، ورواه أبو عاصم عن ابن جريج مثل هذا)، والإمام أحمد: (٣/ ٤١٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢٨٤).

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

وروي عن ابن عمر أن رجلًا استأذن عليه فقال: أأدخل؟ فقال ابن عمر: لا، فأمر بعضُهم الرجلَ أن يسلم، فسلم فأذن له[(١)].

وقال بعضهم: إنْ وقع بصره على إنسان قدَّم السلام، وإلا قدَّم الاستئذان، ثم سلم، وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة: يستأذن على ذوات المحارم، ومثله عن الحسن، وإن كانوا في دار واحدة يتنحنح ويتحرك أدنى حركة.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد عبد الله بن بشران، أخبرنا إسماعيل ابن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: سلَّم عبد الله بن قيس على عمر بن الخطاب ثلاث مرات، فلم يأذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال: لم رجعت؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سلم أحدكم ثلاثًا فلم يُجَب فليرجع»، قال عمر: لتأتين على ما تقول ببينة وإلا لأفعلنَّ بك كذا وكذا غير أنه قد أوعده، قال: فجاء أبو موسى الأشعري ممتقعًا لونه وأنا في حلقة جالس، فقلنا: ما شأنك؟ فقال: سلمت على عمر، فأخبرنا خبره، فهل سمع أحد منكم من رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم، كلنا قد سمعه، قال: فأرسلوا معه رجلًا منهم حتى أتى عمر فأخبره بذلك[(٢)].

ورواه بُسر بن سعيد، عن أبي سعيد الخدري، وفيه: قال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يُؤذن له فليرجع»[(٣)].

قال الحسن: الأول إعلام، والثاني مؤامرة، والثالث استئذان بالرجوع.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت أحدًا يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ يعني: إذا كان في البيت قوم فقالوا: ارجع، فليرجع ولا يقف على الباب ملازمًا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ يعني: الرجوع أطهر وأصلح لكم، قال قتادة: إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب / فإن للناس حاجات، وإذا حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرًا جاز. ٣٨/ب

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١٠/ ٣٨٣)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢٨٤).

(٢) انظر الرواية في: «الجامع» للإمام معمر: (١٠/ ٣٨٠)، وهو عند الشيخين كما سيأتي في التعليقة التالية.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا: (١١/ ٢٦ ـ ٢٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم في الآداب، باب الاستئذان برقم ٢١٥٣: (٣/ ١٦٩٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وكان ابن عباس يأتي باب الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج، ولا يستأذن، فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عم رسول الله، لو أخبرتني، فيقول: هكذا أُمرنا أن نطلب العلم[(١)].

وإذا وقف فلا ينظر من شق الباب إذا كان الباب مردودًا.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سهل بن سعد الساعدي أن رجلًا اطَّلع على النبي ﷺ من ستر الحجرة وفي يد النبي ﷺ مَدْرى[(٢)]، فقال: «لو علمت أن هذا ينظرني حتى آتيه لطعنت بالمَدْرى في عينيه، وهلْ جُعل الاستئذان إلَّا من أجل البصر»[(٣)].

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأ اطَّلَعَ عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ من الدخول بالإذن وغير الإذن.

ولما نزلت آية الاستئذان قالوا: كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام وعلى ظهر الطريق، ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾[(٥)]، أي: بغير استئذان ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ يعني: منفعة لكم، واختلفوا في هذه البيوت، فقال قتادة: هي الخانات والبيوت والمنازل المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤووا أمتعتهم إليها، جاز دخولها بغير استئذان، والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر بسنده مطولًا في «جامع بيان العلم وفضله»: ص١٤٠.

(٢) تُطلق على نوعين، أحدهما: صغير، يتخذ من آبنوس أو عاج أو حديد يكون طول المسلة يتخذها لفرق الشَّعر فقط، وهو مستدير الرأس على هيئة نصل السيف، وثانيهما: كبير، وهو عود مخروط من آبنوس أو غيره، وفي رأسه قطعة منحوتة في قدر الكف، ولها مثل الأصابع، أولاهن معوجة مثل حلقة الإبهام المستعمل للتسريح.

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له: (١٢/ ٢٤٣)، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٦: (٣/ ١٦٩٨).

(٤) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له: (١٢/ ٢٤٣)، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٨: (٣/ ١٦٩٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٢٥٤)، والشافعي: (٢/ ١٠١).

(٥) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٧٥، وانظر: القرطبي: (١٢/ ٢١٣).

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقال ابن زيد: هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهي المنفعة.

وقال إبراهيم النخعي: ليس على حوانيت السوق إذن.

وكان ابن سيرين إذا جاء إلى حانوت السوق يقول: السلام عليكم أأدخل؟ ثم يلج.

وقال عطاء: هي البيوت الخربة، والمتاع: هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط، وقيل: هي جميع البيوت التي لا ساكن لها؛ لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يطلع على عورة، فإن لم يخف ذلك فله الدخول بغير استئذان[1] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وقيل: «مِنْ» صلة، أي: يغضوا أبصارهم، وقيل: هو ثابت؛ لأن المؤمنين غير مأمورين بغض البصر أصلًا؛ لأنه لا يجب الغض عما يحل النظر إليه، وإنما أُمروا بأن يغضوا عمَّا لا يحل النظر إليه ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عمَّا لا يحل، قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلَّا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غض البصر وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: خير لهم وأطهر ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ عليم بما يفعلون، روي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تُتبعِ النظرةَ النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة»[2].

وروي عن جرير بن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فقال: «اصرف بصرك»[3].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة، أخبرنا زيد بن الحباب، عن الضحاك بن عثمان قال: أخبرني زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظرُ الرجلُ إلى عورةِ الرجلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفْضِي الرجلُ إلى الرجلِ في ثوبٍ واحد، ولا تُفْضِي المرأةُ إلى المرأةِ في ثوبٍ واحد»[4].

---

(١) ذكر هذه الأقوال: الطبري: (١٨/ ١١٣ ـ ١١٦).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر: (٣/ ٧٠)، والترمذي في الأدب، باب ما جاء في نظرة المفاجأة: (٨/ ٦١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلَّا من حديث شريك)، والدارمي في الرقاق، باب في حفظ السمع: (٢/ ٢٩٨)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٩٤) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: (٥/ ٣٥٣، ٣٥٧)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في الآداب، باب نظرة الفجأة برقم ٢١٥٩: (٣/ ١٦٩٩)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٣).

(٤) أخرجه مسلم في الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات برقم ٣٣٨: (١/ ٢٦٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٠).

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ عمَّا لا يحل ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عمَّن لا يحل، وقيل أيضًا: «يحفظن فروجهن» يعني: يسترنها حتى لا يراها أحد.

وروي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعدما أُمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه»، فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يُبْصِرُنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَفَعَمْيَاوَان أنتما، ألستما تبصرانه»(1)؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يظهرن زينتهن لغير محرم، وأراد بها الزينة الخفية، وهما زينتان: خفية وظاهرة، فالخفية: مثل الخلخال، والخضاب في الرجل، والسوار في المعصم، والقرط والقلائد، فلا يجوز لها إظهارها، ولا للأجنبي النظر إليها، والمراد من الزينة موضع الزينة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أراد به: الزينة الظاهرة.

واختلف أهل العلم في هذه الزينة الظاهرة التي استثناها الله تعالى، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: هو الوجه والكفان، وقال ابن مسعود: هي الثياب بدليل قوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأراد بها الثياب، وقال الحسن: الوجه والثياب، وقال ابن عباس: الكحل والخاتم والخضاب في الكف.

---

(1) أخرجه أبو داود في اللباس، باب قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾: (٦/ ٦٠ـ٦١)، والترمذي في الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال: (٨/ ٦١ ـ ٦٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وعزاه المنذري للنسائي، وأخرجه الإمام أحمد: (٦/ ٢٩٦)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٤)، وقال أبو داود: (هذه لأزواج النبي ﷺ خاصة، ألا ترى إلى اعتداد فاطمة بنت قيس عند ابن أم مكتوم، وقد قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: «اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده»، وانظر: «عون المعبود»: (١١/ ١٧٠).

فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئًا منها غض البصر، وإنما رُخص في هذا القدر أن تبديه المرأة من بدنها؛ لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة، وسائر بدنها عورة يلزمها ستره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ أي: ليلقين بمقانعهنَّ ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وصدورهنَّ (ليسترن بذلك شعورهنَّ وصدورهنَّ)[1] وأعناقهن وأقراطهن، قالت عائشة: / رحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل ١/٣٩
الله عزَّ وجلَّ: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» شققن مروطهنَّ فاختمرن بها[2].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الزينة الخفية التي لم يبح لهنَّ كشفها في الصلاة ولا للأجانب، وهو ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: يعني: لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلَّا لبعولتهن، أي: إلَّا لأزواجهن ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة، ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة، ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلَّا ما بين السرة والركبة كالرجل المحرم، هذا إذا كانت المرأة مسلمة، فإن كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها؟

اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم: يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة؛ لأنها من جملة النساء، وقال بعضهم: لا يجوز؛ لأن الله تعالى قال: «أو نسائهن» والكافرة ليست من نسائنا؛ لأنها أجنبية في الدين، فكانت أبعد من الرجل الأجنبي، كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات[3].

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ اختلفوا فيها، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفًا، وأن ينظر إلى بدن مولاته إلَّا ما بين السرة والركبة، كالمحارم وهو ظاهر القرآن.

وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة، وروى ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه أتى فاطمةَ بعبدٍ قد وهبه لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قَنَّعَتْ به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ ما تَلْقى قال: «إنه ليسَ عليكِ بأسٌ إنما هو أبوكِ وغلامُكِ»[4].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: (٨/ ٤٨٩).

(٣) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٢١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ١٨٣) لسعيد بن منصور والبيهقي وابن المنذر.

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس، باب العبد ينظر إلى شعر مولاته: (٦/ ٥٩)، قال المنذري: (في إسناده أبو جُميع، سالم بن دينار الهُجَيْمي البصري، قال ابن معين: ثقة، وقال أبو زرعة الرازي: مصري ليِّن الحديث، وهو سالم بن أبي راشد)، وأخرجه البيهقي: (٧/ ٩٥)، وصححه الألباني في «الإرواء»: (٦/ ٢٠٦).

وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو قول سعيد بن المسيب، وقال: المراد من الآية الإماء دون العبيد، وعن ابن جريج أنه قال: أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أنه لا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة إلَّا أن تكون تلك المرأة المشركة أَمَةً لها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر «غيرَ» بنصب الراء على القطع؛ لأن «التابعين» معرفة و«غير» نكرة، وقيل: بمعنى «إلَّا» فهو استثناء، معناه: يبدين زينتهن للتابعين إلَّا ذا الإربة منهم فإنهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة.

وقرأ الآخرون بالجر على نعت «التابعين» والإربة والأرب: الحاجة.

والمراد بـ«التابعين غير أولي الإربة» هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم إلَّا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، وهو قول مجاهد وعكرمة والشعبي، وعن ابن عباس أنه الأحمق العنِّين، وقال الحسن: هو الذي لا ينتشر ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن، وقال سعيد بن جبير: هو المعتوه، وقال عكرمة: المجبوب، وقيل: هو المخنث، وقال مقاتل: الشيخ الهرم والعنين والخصي والمجبوب ونحوه.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا محمد بن أحمد ابن محمد بن معقل بن محمد الميداني، أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنَّث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا لا يدخلَنَّ عليكن هذا» فحجبوه[1].

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أراد بالطفل الأطفال، يكون واحدًا وجمعًا، أي: لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها، وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر، وهو قول مجاهد، وقيل: لم يطيقوا أمر النساء، وقيل: لم يبلغوا حدَّ الشهوة.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها، فنهيت عن ذلك.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ من التقصير الواقع في أمره ونهيه، وقيل: راجعوا طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السورة ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ قرأ ابن عامر: «أيهُ المؤمنون» و«يآيهُ الساحر» و«أيهُ الثقلان» بضم الهاء فيهن، ويقف بلا ألف على الخط، وقرأ الآخرون بفتح الهاءات على الأصل.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء عن البيوت، عن أم سلمة: (١٠/ ٣٣٣)، ومسلم في السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب برقم ٢١٨١: (٤/ ١٧١٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ١٢٢).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا وهب بن جرير، أخبرنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي بردة أنه سمع الأغر يحدث عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة»(١).

أخبرنا أبو الحسن عن عبد الرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن حزيم الشاشي، أخبرنا أبو محمد عبد بن حميد الكشي، حدثني ابن أبي شيبة، أخبرنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن محمد بن سوقة، عن نافع، عن ابن عمر قال: إنْ كنَّا لَنَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «ربِّ اغفرْ لي، وتُبْ عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم» مائة مرة(٢).

وجملة الكلام في بيان العورات: أنه لا يجوز للناظر أن ينظر إلى عورة الرجل، وعورته ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المرأة مع المرأة، ولا بأس بالنظر إلى سائر البدن إذا لم يكن خوف فتنة.

وقال مالك وابن أبي ذئب: الفخذ ليس بعورة لما رُوي عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: أجرى نبي الله ﷺ فرسًا في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمس / فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني ٣٩/ب لأنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ(٣).

وأكثر أهل العلم على أن الفخذ عورة، لما أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن أبي كثير، عن محمد بن جحش، قال: مرَّ رسول الله ﷺ على مَعْمَرٍ وفخذاه مكشوفتان، قال: «يا مَعْمَرُ غطِّ فَخِذَيْك، فإن الفخذين عورة»(٤)، وروي عن ابن عباسٍ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه برقم٢٠٧٢: (٤/ ٢٠٧٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار: (٢/ ١٥١)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه: (٩/ ٣٩٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار برقم٣٨١٤: (٢/ ١٢٥٣)، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٢١)، وصححه ابن حبان برقم٢٤٥٩: ص٦٠٩ من «موارد الظمآن»، وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب»: ص٢٥١، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»: ص١٧٩. وانظر: «مجمع الزوائد»: (٢/ ١١٣)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٢/ ٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ: (١/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم في الجهاد، باب غزوة خيبر برقم١٣٦٥: (٤/ ١٤٢٦ ـ ١٤٢٧)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢١).

(٤) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ٢٨٥)، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ١٨٠)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٩٠)، وعلَّقه البخاري: (١/ ٤٧٩)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢١). قال الحافظ في «الفتح»: (وصله أحمد والمصنف في «التاريخ»، والحاكم في «المستدرك»، كلهم من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي كثير مولى محمد بن جحش عنه . . .). وصححه بشواهده الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على «شرح السنة»: (٩/ ٢١ ـ ٢٢).

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

وجَرْهَد بن خويلد، كان من أصحاب الصفة، أن النبي ﷺ قال: إن الفخذ عورة»[1].

قال محمد بن إسماعيل: (وحديثُ أنسٍ أسندُ، وحديث جَرْهَد أحْوط)[2].

أما المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبيةً حرةً: فجميعُ بدنها في حق الأجنبي عورة، ولا يجوز النظر إلى شيء منها إلَّا الوجه والكفين، وإن كانت أمة: فعورتُها مثل عورة الرجل، ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المحارم بعضهم مع بعض. والمرأة في النظر إلى الرجل الأجنبي كهو معها. ويجوز للرجل أن ينظر إلى جميع بدن امرأته وأمته التي تحل له، وكذلك هي منه إلَّا نفس الفرج فإنه يكره النظر إليه، وإذا زوَّج الرجلُ أَمَته حرم عليه النظر إلى عورتها كالأَمَة الأجنبية، ورُوي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زوَّج أحدُكم عَبْدَهُ أَمَتَهُ فلا ينظرنَّ إلى ما دون السرةِ وفوقَ الركبةِ»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ «الأيامى»: جمع أيم، وهو من لا زوج له (من رجل أو امرأة، يقال: رجل أيم وامرأة أيمة، وأيم، ومعنى الآية: زوجوا أيها المؤمنون)[4] من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وهذا الأمر أمر ندب واستحباب.

يستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم، لما أخبرنا أبو بكر محمد بن علي بن الحسين الطوسي، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايني، (أخبرنا أبو بكر محمد بن داود بن مسعود، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أيوب البجلي، أخبرنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان)[5]، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان، باب ما جاء أن الفخذ عورة: (٨/ ٧٨ ـ ٧٩)، وقال: (هذا حديث حسن، ما أرى إسناده بمتصل). ورواه البخاري تعليقًا: (١/ ٤٧٨)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (وحديث جرهد موصول عند مالك في «الموطأ»، والترمذي وحسَّنه، وابن حبان وصححه، وضعفه المصنف في «التاريخ» للاضطراب في سنده، وقد ذكرت كثيرًا من طرقه في «تغليق التعليق»)، وانظر: «مشكل الآثار»: (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦)، «شرح معاني الآثار»: (١/ ٤٧٤).

(٢) في «الموضع السابق»: (١/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس، باب في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾: (٦/ ٦١)، والبيهقي في «السنن»: (٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، و(٧/ ٩٤)، والدارقطني: (١/ ٢٣٠)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء»: (٢/ ٢٠٧)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٥).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٥) ما بين القوسين ساقط من «أ».

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «تناكحوا تكثروا، فإني أُباهي بكم الأُمم حتى بالسقط»(٢).

وقال ﷺ: «من أحب فطرتي فليستنّ بسنتي، ومن سنتي النكاح»(٣).

أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة له أفضل من النكاح (عند الشافعي رحمه الله، وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل)(٤).

قال الشافعي: وقد ذكر الله تعالى عبدًا كرَّمه فقال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٩]، والحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليه، وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن إلى النكاح.

وفي الآية دليل على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء؛ لأن الله تعالى خاطبهم به، كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم، روي ذلك عن عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب الثوري والأوزاعي وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق.

وجوز أصحاب الرأي للمرأة الحرة تزويج نفسها.

وقال مالك: إن كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها، وإن كانت شريفة فلا.

والدليل على أن الولي شرط من جهة الأخبار: ما أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا محمد بن الحسن ابن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أخبرنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا أبو عوانة،

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب قول النبي ﷺ: «من استطاع الباءة فليتزوج»: (٩/ ١٠٦)، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه برقم ١٤٠٠: (٢/ ١٠١٨ ـ ١٠١٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبي هلال مرسلًا.

قال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٣/ ١١٦): (أخرجه صاحب «مسند الفردوس» من طريق محمد بن الحارث عن محمد بن عبد الرحمن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: . . . والمحمدان ضعيفان، وذكر البيهقي عن الشافعي أنه ذكره بلاغًا.

وفي الباب عن أبي أمامة أخرجه البيهقي . . . وفيه محمد بن ثابت وهو ضعيف، وعن أنس صححه ابن حبان . . . وعن حرملة بن النعمان أخرجه الدارقطني في «المؤتلف والمختلف»، وابن قانع في «الصحابة»، وفي «مسند ابن مسعود من «علل الدارقطني» نحوه، وعن عياض ابن غنم أخرجه الحاكم، وإسناده ضعيف . . .) وذكر ألفاظهم. وانظر: «كشف الخفاء»: (١/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق: (٦/ ١٦٩)، وسعيد بن منصور: (١/ ١٣٨) عن عبيد بن سعد مرفوعًا، والبيهقي عن أبي هريرة: (٧/ ٧٨)، قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٥٢): (رواه أبو يعلى ورجاله ثقات إن كان عبيد بن سعد صحابيًا وإلّا فهو مرسل). وانظر: «المطالب العالية» لابن حجر: (٢/ ٣٦)، «الكامل» لابن عدي: (٧/ ٢٥٤٩).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «لا نكاح إلّا بولي»[(١)].

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سعيد بن سالم، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أيّما امرأةٍ نكحت نفسها بغير إذنِ وليها فنكاحُها باطلٌ، ثلاثًا، فإن أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له»[(٢)].

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ قيل: الغنى هاهنا: القناعة، وقيل: اجتماع الرزقين، رزق الزوج ورزق الزوجة، وقال عمر: عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عزّ وجلّ يقول: «إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ»، (وروي عن بعضهم: أن الله تعالى وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى: «إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ»)[(٣)]، وقال تعالى: «وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ» [النساء: ١٣٠].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون مالًا ينكحون

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في الولي: (٣/ ٢٩)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء: لا نكاح إلّا بولي: (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، وابن ماجه في النكاح برقم١٨٨١ : (١/ ٦٠٥)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٦٩)، وابن حبان برقم١٢٤٣ : ص٣٠٤، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٣٩٤). قال الترمذي (٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٤): (وحديث أبي موسى حديث فيه اختلاف . . .) وساق الاختلاف في إسناده، ثم قال: (ورواية هؤلاء الذين رووا عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ: «لا نكاح إلّا بولي» عندي أصح؛ لأن سماعهم من أبي إسحاق في أوقات مختلفة، وإن كان شعبة والثوري أحفظ وأثبت من جميع هؤلاء الذين رووا عن أبي إسحاق هذا الحديث . . .)، ثم قال: (والعمل في هذا الباب على حديث النبي ﷺ: «لا نكاح إلّا بولي» عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، منهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وأبو هريرة وغيرهم. وهكذا روي عن بعض فقهاء التابعين أنهم قالوا: لا نكاح إلّا بولي، منهم: سعيد بن المسيب والحسن البصري وشريح وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وبهذا يقول سفيان الثوري والأوزاعي ومالك وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وانظر: «نصب الراية» للزيلعي: (٣/ ١٨٢ ـ ١٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في الولي: (٣/ ٢٦ ـ ٢٧)، والترمذي في النكاح: (٤/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩)، وقال: (هذا حديث حسن، وقد روى يحيى بن سعيد الأنصاري ويحيى بن أيوب وسفيان الثوري وغير واحد من الحفاظ عن ابن جريج نحو هذا).
وأخرجه ابن ماجه في النكاح برقم١٨٧٩ : (١/ ٦٠٥)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٦٨) على شرط الشيخين، وابن حبان برقم١٢٤٨ : ص٣٠٥ من «موارد الظمآن»، والبيهقي: (٧/ ١٠٥، ١٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٣٩).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

به للصداق والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يوسع عليهم من رزقه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية ما رُوي أن غلامًا لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا فأدَّاها، وقتل يوم حنين في الحرب[(١)].

والكتابة أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال، ويسمي مالًا معلومًا، يؤدي ذلك في نجمين أو نجوم معلومة في كل نجم كذا، فإذا أديت فأنت حر، والعبد يقبل ذلك، فإذا أدى المال عتق، ويصير العبد / أحق بمكاسبه بعد الكتابة، وإذا أعتق بعد أداء المال فما فضل في يده من المال يكون له، ويتبعه ١/٤٠ أولاده الذين حصلوا في حال الكتابة في العتق، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق، وما في يده من المال يكون لمولاه، لِمَا أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن نافع، أخبرنا عبد الله بن عمر كان يقول: «المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته (شيء)»[(٢)].

ورواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعًا: «المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته)[(٣)] درهم»[(٤)].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر إيجاب، يجب على المولى أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيرًا إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وإن سأل على أقل من قيمته فلا يجب، وهو قول عطاء وعمرو بن دينار، ولما رُوي أنَّ سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكا إلى عمر، فعلاه بالدرة وأمره بالكتابة فكاتبه[(٥)].

وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب.

ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي؛ لأنه عقد جُوِّز إرفاقًا بالعبد، ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل، فيحصل المقصود، كالدية في قتل الخطأ، وجبت على العاقلة على سبيل المواساة فكانت عليهم مؤجلة منجمة، وجوَّز أبو حنيفة الكتابة على نجم واحد وحالّة[(٦)].

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٧٥، «الدر المنثور»: (٦/ ١٨٩)، «تفسير القرطبي»: (١٢/ ١٨٤).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» موقوفًا على ابن عمر، كتاب المكاتب، باب القضاء في المكاتب: (٢/ ٧٨٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٣٧٣).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) أخرجه أبو داود في العتاق، باب في المكاتب يؤدي بعض كتابته . . .: (٥/ ٣٨٣)، قال المنذري: (وفيه إسماعيل بن عياش وهو ضعيف)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٥) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٢٦)، وعبد الرزاق في «المصنف»: (٨/ ٣٧٢)، وبمعناه عن قتادة عند البيهقي: (١٠/ ٣١٩)، وعلقه البخاري: (٥/ ١٨٤)، وانظر: «فتح الباري»: (٥/ ١٨٦-١٨٧).

(٦) في «أ»: (فعلّله).

قوله تعالى: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ اختلفوا في معنى الخير، فقال ابن عمر: قوة على الكسب، وهو قول مالك والثوري، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: مالًا، كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾[البقرة: ١٨٠]، أي: مالًا، ورُوي أنَّ عبدًا لسلمان الفارسي قال له كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: لا، قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس، ولم يكاتبه[1].

قال الزجاج: لو أراد به المال لقال: إن علمتم لهم خيرًا، وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة: صدقًا وأمانة[2]، وقال طاووس وعمرو بن دينار: مالًا وأمانة[3].

وقال الشافعي: وأظهر معاني الخير في العبد: الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أخبرنا أبو الحسن بن علي بن شريك الشافعي، أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم، أخبرنا أبو بكر الجوربذي، أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب، أخبرني الليث، عن محمد بن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»[4].

وحكى محمد بن سرين عن عبيدة: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾، أي: أقاموا الصلاة[5].

وقيل: هو أن يكون العبد بالغًا عاقلًا، فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما؛ لأن الابتغاء منهما لا يصح، وجوَّز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي، يجب على المولى أن يحط عن مكاتبه من مال كتابته شيئًا، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي.

ثم اختلفوا في قدره، فقال قوم: يحط عنه ربع مال الكتابة، وهو قول علي، ورواه بعضهم عن علي

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (٨/ ٣٧٤)، والبيهقي: (١٠/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق: (٨/ ٣٧٠، ٣٧١)، والبيهقي: (١٠/ ٣١٨).

(٣) انظر: «مصنف عبد الرزاق»: (٨/ ٣٧٠)، والبيهقي: (١٠/ ٣١٨).

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح . . . : (٥/ ٢٩٦)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي في النكاح، باب معونة الله الناكح الذي يريد العفاف: (٦/ ٦١)، وابن ماجه في العتق، باب المكاتب: (٢/ ٨٤١ - ٨٤٢)، وصححه الحاكم: (٢/ ١٦٠).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٧).

(٥) أخرجه عنه عبد الرزاق في «المصنف»: (٨/ ٣٧١).

مرفوعًا[١]، وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ يحط عنه الثلث، وقال الآخرون: ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء[٢]، وهو قول الشافعي.

قال نافع: كاتب عبد الله بن عمر غلامًا له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم[٣].

وقال سعيد بن جبير: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته، ووضع من آخر كتابته ما أحب[٤].

وقال بعضهم: هو أمر استحباب، والوجوب أظهر.

وقال قوم: أراد بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾، أي: سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات، بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[التوبة: ٦٠]، وهو قول الحسن وزيد بن أسلم[٥].

وقال إبراهيم: هو حث لجميع الناس على معونتهم[٦].

ولو مات المكاتب قبل أداء النجوم، اختلف أهل العلم فيه: فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقًا، وترتفع الكتابة، سواء ترك مالًا أو لم يترك، كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع، وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهري وقتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد.

وقال قوم: إن ترك وفاءً بما بقي عليه من الكتاب كان حرًا، وإن كان فيه فضل، فالزيادة لأولاده الأحرار، وهو قول عطاء وطاووس والنخعي والحسن، وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي.

ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال؛ لأن عتقه معلق بالأداء، وقد وجد وتبعه الأولاد والاكتساب كما في الكتابة الصحيحة، ويفترقان في بعض الأحكام: وهي أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم، (ولا تبطل بموت المولى، ويعتق بالإبراء عن النجوم)[٧]، والكتابة الفاسدة يملك المولى فسخها قبل أداء المال، (حتى لو أدى المال)[٧] بعد الفسخ لا يعتق ويبطل بموت المولى،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن علي موقوفًا: (٧/ ٣٧٥)، والبيهقي: (١٠/ ٣٢٩)، وأخرجه البيهقي من طريق آخر موقوفًا وقال: (هذا هو الصحيح الموقوف)، وكذلك عبد الرزاق: (٧/ ٣٧٦)، والطبري: (١٨/ ١٣١).

(٢) انظر: الطبري: (١٨/ ١٣١)، «المصنف» لعبد الرزاق: (٨/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٣١).

(٤) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٣١)، وعبد الرزاق: (٨/ ٣٧٧)، والبيهقي: (٣/ ٣٣٠).

(٥) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٣١ ـ ١٣٢)، ورجح الطبري هذا القول وهو قول من قال: عني به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة. انظر بالتفصيل: (١٨/ ١٣٢).

(٦) أخرجه عبد الرزاق عن إبراهيم: (٨/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

(٧) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ولا يعتق بالإبراء عن النجوم، وإذا عتق المكاتب بأداء المال لا يثبت التراجع في الكتابة الصحيحة، ويثبت في الكتابة الفاسدة، فيرجع المولى عليه بقيمة رقبته، وهو يرجع على المولى بما دفع إليه إن كان مالًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...﴾ الآية، نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول المنافق، كانت له جاريتان: معاذة ومسيكة، وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما، وكذلك
٤٠/ب كانوا يفعلون في الجاهلية، يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام / قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين، فإن يك خيرًا فقد استكثرنا منه، وإن يك شرًّا فقد آن لنا أن نَدَعه، فأنزل الله هذه الآية[(١)].

وروي أنه جاءت إحدى الجاريتين يومًا ببُرْدٍ وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، قالتا: والله لا نفعل، قد جاء الإسلام وحرَّم الزنا، فأتيا رسول الله ﷺ وشكتا إليه، فأنزل هذه الآية[(٢)]:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي: الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: إذا أردن، وليس معناه الشرط؛ لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا وإن لم يردن تحصنًا، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، (أي: إذا كنتم مؤمنين)[(٣)]، وقيل: شرط إرادة التحصن؛ لأن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصن، فإذا لم ترد التحصن بَغَتْ طوعًا، والتحصن: التعفف.

وقال الحسن بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنًا، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتطلبوا من أموال الدنيا، يريد: من كسبهن وبيع أولادهنَّ ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ يعني: للمكرهات، والوزر على المُكرِه، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: لهنَّ والله، لهنَّ الله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ من الحلال والحرام ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: شبهًا من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر.

---

(١) عزاه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٧٧ للمفسرين، وساق روايات أن الآية نزلت في عبد الله بن أُبي كان يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئًا... وهو في «صحيح مسلم».

(٢) قاله مقاتل. انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٧٧-٣٧٨.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال ابن عباس: هادي أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من الضلالة ينجون.

وقال الضحاك: منوِّر السموات والأرض، يقال: نوَّر السماء بالملائكة، ونوَّر الأرض بالأنبياء.

وقال مجاهد: مدبر الأمور في السموات والأرض[(١)].

وقال أُبَيُّ بن كعب والحسن وأبو العالية: مزيِّن السموات والأرض، زيَّن السماء بالشمس والقمر والنجوم، وزيَّن الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين، ويقال: بالنبات والأشجار. وقيل: معناه الأنوار كلها منه، كما يقال: فلان رحمة، أي: منه الرحمة، وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل:

إذا سَارَ عَبْدُ اللهِ مِنْ مَرْوَ ليلةً ... فقد سَارَ منها نورُها وجمالُها

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدي به، كما قال «فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ»[الزمر: ٢٢]، وكان ابن مسعود يقرأ «مثل نوره في قلب المؤمن»، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثل نوره الذي أعطى المؤمن، وقال بعضهم: الكناية عائدة إلى المؤمن، أي: مثل نور قلب المؤمن، وكان أُبيّ يقرأ: «مثل نور من آمن به» وهو عبد جُعل الإيمانُ والقرآنُ في صدره، وقال الحسن وزيد ابن أسلم: أراد بالنور: القرآن، وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو محمد ﷺ، وقيل: أراد بالنور الطاعة، سمَّى طاعةَ الله نورًا وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلًا ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ وهي الكوة التي لا منفذ لها، فإن كان لها منفذ فهي كوة، وقيل: المشكاة حبشية، قال مجاهد: هي القنديل[(٢)] ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ أي: سراج، أصله من الضوء، ومنه الصبح، ومعناه: كمصباح في مشكاة ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ يعني: القنديل، قال

---

(١) ذكر هذه الأقوال الثلاثة الطبري: (١٨/ ١٣٥)، ورجح القول الأول الذي قال به ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قال الطبري (١٨/ ١٤٠): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك مَثَلٌ ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدَّقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مَثَلُ مشكاةٍ: وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكُوَّة التي تكون في الحيطان التي لا منفذ لها، وذلك مثل القرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصَّدْرَ في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه، واستنارته بنور القرآن واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها ـ بالكوكب الدري فقال: الزجاجة، وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه كأنها كوكب دري).

الزجاج: إنما ذكر الزجاجة؛ لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوؤه يزيد في الزجاج، ثم وصف الزجاجة فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي: «دريء» بكسر الدال والهمزة، وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والهمزة، فمن كسر الدال فهو فعيل من الدرء: وهو الدفع؛ لأن الكوكب يدفع الشياطين من السماء، وشبهه بحالة الدفع؛ لأنه يكون في تلك الحالة أضوَأ وأنورَ، ويُقال: هو من درأ الكوكب إذا اندفع منقبضًا فيتضاعف ضوؤه في ذلك الوقت، وقيل: «دُري» أي: طالع، يقال: درأ النجم إذا طلع وارتفع، ويقال: درأ علينا فلان، أي: طلع وظهر، فأما رفع الدال مع الهمزة كما قرأ حمزة، قال أكثر النحاة: هو لحن؛ لأنه ليس في كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين.

قال أبو عبيدة: وأنا أرى لها وجهًا، وذلك أنها دروء على وزن فعول من دراتُ، مثل: سبوح وقدوس، وقد استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى الكسر، كما قالوا: عتيًا، وهو فعول من عتوت، وقرأ الآخرون «دُرِّيٌّ» بضم الدال وتشديد الياء بلا همز، أي: شديد الإنارة، نُسِبَ إلى الدُّرِّ في صفائه وحسنه، وإن كان الكوكب أكثر ضوءًا من الدر لكنه يَفْضُل الكواكبَ بضيائه، كما يفضل الدرُّ سائرَ الحب.

وقيل: الكوكب الدري واحد من الكواكب الخمسة العظام: وهي زُحَلٌ والمريخ والمشترى والزهرة وعطارد.

وقيل: شبهه بالكوكب، ولم يشبهه بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يلحقها الخسوف.

﴿يُوقَدُ﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «تَوَقَّد» بالتاء وفتحها وفتح الواو والدال وتشديد القاف على الماضي، يعني: المصباح، أي: اتقد، يقال: توقدت النار، أي: اتقدت، وقرأ أهل الكوفة غير حفص «تُوْقَد» بالتاء وضمها وفتح القاف خفيفًا، يعني: الزجاجة، أي: نار الزجاجة؛ لأن الزجاجة لا توقد، وقرأ الآخرون بالياء وضمها خفيفًا، يعني: المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: من زيت
٤١/أ شجرة مباركة، فحذف المضاف بدليل قوله تعالى: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ» وأراد بالشجرة المباركة: الزيتونة / وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة؛ لأن الزيت يسرج منه، وهو أضوأ وأصفى الأدهان، وهو إدام وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجه إلى إعصار بل كل أحد يستخرجه، وجاء في الحديث: «أنه مصحة من الباسور»[1]، وهي شجرة تورق من أعلاها إلى أسفلها.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»: (١٧/ ٢٨١)، وابن أبي حاتم في «العلل»: (٢/ ٢٧٩)، وقال: (قال أبي: هذا كذب)، وذكره الذهبي في «الميزان»: (٣/ ٤٠) في ترجمة عثمان بن صالح، وهو علة هذا الحديث، ليّنه أحمد بن صالح).
قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٠٠): (رواه الطبراني، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، ولكن ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة عثمان عن أبي صالح ونقل عن أبي حاتم أنه كذاب).
وزاد ابن حجر نسبته لأبي نعيم في الطب، والثعلبي. انظر: «الكافي الشاف»: ص١١٩، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (١/ ٢٢٨).

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي، أخبرنا أبو أمية الطرسوسي، أخبرنا قبيصة بن عقبة، أخبرنا سفيان الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الذي كان بالشام، وليس بابن أبي رباح، عن أسد بن ثابت وأبي أسلم الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزيتَ وادَّهِنوا به، فإنه من شجرةٍ مباركة»(١).

قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار، تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ، وهذا كما يقال: فلان ليس بأسود ولا بأبيض، يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص، بل اجتمع فيه كل واحد منهما، وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض، أي: اجتمعت فيه الحلاوة والحموضة، هذا قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي والأكثرين.

وقال السديُّ وجماعة: معناه: أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس، ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا ظل.

وقيل: معناه: أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر، ولا في غرب يضرها البرد.

وقيل: معناه: هي شامية؛ لأن الشام لا شرقي ولا غربي.

وقال الحسن: ليست هذه من أشجار الدنيا، ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره(٢).

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ دهنها ﴿يُضِيٓءُ﴾ من صفائه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: قبل أن تصيبه النار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: نور المصباح على نور الزجاجة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت: (٥/ ٥٨٥ ـ ٥٨٦)، وقال: (هذا حديث غريب من هذا الوجه، إنما نعرفه من حديث عبد الله بن عيسى)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٩٨)، وأخرجه الدارمي في «السنن»: (٢/ ٢٨)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٩٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٣١١).

قال الألباني: (روي من حديث عمر وأبي أسيد وأبي هريرة وعبد الله بن عباس . . .) وساق طرقه إليهم، ثم قال: (وجملة القول أن الحديث بمجموع طريقي عمر وطريق أبي سعيد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره على أقل الأحوال، والله أعلم).

انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (١/ ٦٥٤ ـ ٦٥٧).

(٢) ذكر الطبري هذه الأقوال، ثم قال: (وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك، قول من قال: إنها شرقية غربية)، وقال: (ومعنى الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشيّ دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية وغربية. وإنما قلنا ذلك أولى بمعنى الكلام؛ لأن الله إنما وصف الزيت الذي يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجودة، فإذا كان شجره شرقيًّا غربيًّا، كان زيته لا شكَّ أجود وأصفى وأضوَا). «تفسير الطبري»: (١٨/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

واختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ، قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾؟ فقال كعب: هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار[١].

وروى سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال: المشكاة: جوف محمد، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي جعله الله فيه، لا شرقية ولا غربية: ولا يهودي ولا نصراني، توقد من شجرة مباركة: إبراهيم، نور على نور: قلب إبراهيم، ونور: قلب محمد ﷺ[٢].

وقال محمد بن كعب القرظي: «المشكاة»: إبراهيم، و«الزجاجة»: إسماعيل، و«المصباح»: محمد صلوات الله عليهم أجمعين، سماه الله مصباحًا كما سماه سراجًا، فقال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٦]، «توقد من شجرة مباركة»: وهي إبراهيم، سماه مباركة؛ لأن أكثر الأنبياء من صلبه، «لا شرقية ولا غربية»: يعني: إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرنيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا؛ لأن اليهود تصلي قِبَلَ المغرب، والنصارى تصلي قِبَلَ المشرق، «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار»: تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه، «نور على نور»: نبي من نسل نبي، نور محمد على نور إبراهيم.

وقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن، روى أبو العالية عن أُبيِّ بن كعب قال: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه، والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان، والقرآن في قلبه يوقد من «شجرة مباركة» وهي الإخلاص لله وحده، كمثل الشجرة التي التف بها الشجر خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت، فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال: إن أُعطِيَ شكر، وإن ابْتلي صبرَ، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، يكاد زيتها يضيء، أي: يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه، نور على نور: قال أُبيٌّ: فهو يتقلب في خمسة أنوار: قوله نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة[٣].

قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءًا على ضوئه، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على هدى ونورًا على نور[٤].

قال الكلبي: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، يعني: إيمان المؤمن وعمله، وقال السدي: نور الإيمان ونور القرآن.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ١٩٨) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) عزاه السيوطي في الموضع السابق للطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر.

(٣) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٣٨)، وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١٩٧).

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

وقال الحسن وابن زيد[١]: هذا مثل القرآن، فالمصباح هو القرآن، فكما يُستضاء بالمصباح يُهتدى بالقرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة فمه ولسانه، والشجرة المباركة شجرة الوحي، «يكاد زيتها يضيء» تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ، نور على نور: يعني: القرآن نور من الله عزَّ وجلَّ لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن، فازداد بذلك نورًا على نور[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لدين الإسلام وهو نور البصيرة، وقيل: القرآن ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يبين الله الأشياء للناس تقريبًا للأفهام وتسهيلًا لسبل الإدراك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ﴾ أي: ذلك المصباح في بيوت، وقيل: يوقد في بيوت، والبيوت: هي المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء / لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض». ٤١/ب

وروى صالح بن حيان عن ابن بريدة في قوله تعالى: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ»، قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنها إلّا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان، ومسجد المدينة بناه رسول الله ﷺ، ومسجد قباء أسس على التقوى بناه رسول الله ﷺ[٣].

قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ قال مجاهد: أن تبنى، نظيره قوله تعالى: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ»[البقرة: ١٢٧]، قال الحسن: أي: تعظم، أي: لا يذكر فيه الخَنَا مِنَ القول ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يتلى فيها كتابه ﴿يُسَبِّحُ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر «يُسَبَّح» بفتح الباء على غير تسمية الفاعل، والوقفُ على هذه القراءة عند قوله: «والآصال»، وقرأ الآخرون بكسر الباء، جعلوا التسبيح فعلًا للرجال ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ أي: يصلي له ﴿فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: بالغداة والعشي.

قال أهل التفسير: أراد به الصلوات المفروضات، فالتي تؤدى بالغداة صلاة الصبح، والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين؛ لأن اسم الأصيل يجمعهما، وقيل: أراد به: صلاة الصبح والعصر.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا محمد ابن أحمد بن محمد بن معقل الميداني، حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا همام بن أبي حمزة

---

(١) الطبري: (١٨/ ١٣٧).

(٢) انظر ما سبق نقله عن الطبري في ترجيح أن ذلك مثل ضربه الله تعالى للقرآن في قلب أهل الإيمان به: ص٣٠١.

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٠٣).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾

أن أبا بكر بن عبد الله بن قيس حدثه عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من صلى البَرْدَيْن دخل الجنة»(١).

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: التسبيح بالغدو صلاة الضحى(٢).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعان، أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا الهيثم بن حميد، أخبرني يحيى بن الحارث، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجْرُه كأجر الحاج المحرم، ومن مشى إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلَّا إيَّاه فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»(٣).

﴿رِجَالٌ﴾ قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد؛ لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ قيل: خص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد بالتجارة: الشراء، وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعًا: لأنه ذكر البيع بعد هذا، كقوله: «وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً»[الجمعة: ١١]، يعني: الشراء، وقال الفراء: التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه، قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عن حضور المساجد لإقامة الصلاة ﴿وَإِقَامِ﴾ أي: لإقامة ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حذف الهاء، وأراد: أداءها في وقتها؛ لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس؛ لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت.

روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: «رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ»(٤).

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها، وقيل: هي الأعمال الصالحة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ قيل: تتقلب القلوب عما

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت، باب فضل صلاة الفجر: (٢/ ٥٢)، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر برقم٦٣٥: (١/ ٤٤٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٢٧).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٢٠٦) لابن أبي شيبة والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة: (١/ ٢٩٤)، قال المنذري: (القاسم بن عبد الرحمن فيه مقال)، والإمام أحمد: (٥/ ٢٦٨)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ٤٩)، والطبراني في «الكبير»: (٨/ ١٥٠، ٢٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٥٧)، وانظر: «نصب الراية»: (٣/ ١٥١).

(٤) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٤٦)، وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٠٧).

لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ
شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ
لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ
يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتنفتح الأبصار من الأغطية، وقيل: تتقلب القلوب من الخوف والرجاء تخشى الهلاك وتطمع في النجاة، وتقلب الأبصار من هَوْلِه، أي: ناحية يؤخذ بهم ذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أين يؤتون الكتب من قبل الأيمان أم من قبل الشمائل، وذلك يوم القيامة، وقيل: تتقلب القلوب في الجوف فترتفع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج، وتقلب البصر شخوصه من هول الأمر وشدته.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يريد: أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، أي: بأحسن ما عملوا، يريد: يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوىء أعمالهم لا يجزيهم بها ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ ثم ضرب لأعمال الكفار مثلًا، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ «السراب»: الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري، يشبه الماء الجاري على الأرض، يظنه من رآه ماء، فإذا قرب منه انفشّ فلم يَرَ شيئًا، و«الآل»: ما ارتفع من الأرض، وهو شعاع يرى بين السماء والأرض بالغدوات شبه الملاءة يرفع فيه الشخوص يرى فيه الصغير كبيرًا والقصير طويلًا، و«الرقراق»: يكون بالعشايا، وهو ما ترقرق من السراب، أي: جاء وذهب، و«القيعة»: جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض، وفيه يكون السراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ أي: يتوهمه العطشان ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء ما قد رأى أنه ماء، وقيل: جاء موضع السراب ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ على ما قدره وحسبه، كذلك الكافر يحسب أن عمله نافعه، فإذا أتاه مَلَك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى منه شيئًا ولا نفعه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله، أي: وجد الله بالمرصاد، وقيل: قدم على الله ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: جزاء عمله ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار، يقول: مثل أعمالهم من فسادها وجهالتهم فيها كظلمات، ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وهو العميق الكثير الماء، ولُجّة البحر: معظمه ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يعلوه ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ متراكم ﴿مِّن فَوْقِهِۦ/ سَحَابٌ﴾ قرأ ابن كثير برواية القواس: «سحاب» بالرفع والتنوين،

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۢ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

«ظلماتٍ» بالجر على البدل من قوله: «أو كظلمات»، وروى أبو الحسن البري عنه: «سحابُ ظلماتٍ» بالإضافة، وقرأ الآخرون «سحابٌ ظلماتٌ» كلاهما بالرفع والتنوين، فيكون تمام الكلام عند قوله «سحاب» ثم ابتدأ فقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر، بعضها فوق بعض، أي: ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج فوق الموج، وظلمة السحاب على ظلمة الموج، وأراد بالظلمات: أعمال الكافر، وبالبحر اللجي: قلبه، وبالموج: ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب: الختم والطبع على قلبه.

قال أُبيُّ بن كعب: في هذه الآية الكافر يتقلب في خمسة من الظُّلَم: فكلامُه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[1].

﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ يعني: الناظر ﴿يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ يعني: لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة، وقال الفراء: «يكد» صلة، أي: لم يرها، (قال المبرد: يعني: لم يرها) إلا بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه، ولكن بعد يأس وشدة، وقيل: معناه: قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يقال: كاد النعام يطير ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ قال ابن عباس: مَن لم يجعل الله له دينًا وإيمانًا فلا دين له، وقيل: مَن لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر، والأكثرون على أنه عام في جميع الكفار[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهن بالهواء، قيل: خص الطير بالذكر من جملة الحيوان؛ لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم مَن في السماء والأرض ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ قال مجاهد: الصلاة لبني آدم، والتسبيح لسائر الخلق، وقيل: إن ضَرْب الأجنحة صلاة الطير وصوته تسبيحه، قوله: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ»، أي: كل مصلٍّ ومسبِّح علم الله صلاته وتسبيحه، وقيل: معناه: كل مصلٍّ ومسبِّحٍ منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) الطبري: (١٨/ ١٥١). (٢) ما بين القوسين ساقط من «أ». (٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٤٦٠).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي﴾ يعني: يسوق بأمره ﴿سَحَابًا﴾ إلى حيث يريد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكمًا بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ يعني: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وسطه، وهو جمع الخَلَل، كالجبال جمع الجبل ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ يعني: ينزل البرد، و«من» صلة، وقيل: معناه: وينزل من السماء من جبال، أي: مقدار جبال في الكثرة من البرد، و«من» في قوله: «من جبال» صلة، أي: وينزل من السماء جبالًا من برد، وقيل: معناه: وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد، وقال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: أخبر الله عزَّ وجلَّ أن في السماء جبالًا من برد، ومفعول الإنزال محذوف تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها برد، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه، قال أهل النحو: ذكر الله تعالى «من» ثلاث مرات في هذه الآية، فقوله «من السماء» لابتداء الغاية؛ لأن ابتداء الإنزال من السماء، وقوله تعالى: «من جبال» للتبعيض؛ لأن ما ينزله الله تعالى بعض تلك الجبال التي في السماء، وقوله تعالى: «من برد» للتجنيس؛ لأن تلك الجبال من جنس البرد ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ يعني: بالبرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيهلك زروعه وأمواله ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن﴾ فلا يضره ﴿يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا﴾ يعني: ضوء برق السحاب ﴿بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ من شدة ضوئه وبريقه، وقرأ أبو جعفر «يُذْهِب» بضم الياء وكسر الهاء.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما، يأتي بالليل ويذهب بالنهار، ويأتي بالنهار ويذهب بالليل. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي، أخبرنا سفيان، أخبرنا الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني: في ذلك الذي ذكرت من الأشياء ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ يعني: دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجاثية: (٨/ ٥٧٤)، ومسلم في الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر برقم ٢٢٤٦: (٤/ ١٧٦٢).

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي «خالقُ كُلِّ» بالإضافة، وقرأ الآخرون «خَلَقَ كُلَّ» على الفعل ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ يعني: من نطفة، وأراد به: كل حيوان يشاهد في الدنيا، ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن؛ لأنَّا لا نشاهدهم، وقيل: أصل جميع الخلق من الماء، وذلك أن الله تعالى خلق خلق ماء ثم جعل بعضه ريحًا فخلق منها الملائكة، وبعضه نارًا فخلق منها الجن، وبعضها طينًا فخلق منها آدم ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والحيتان والديدان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ مثل: بني آدم والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع، ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض؛ لأنها في الصورة كالتي يمشي على الأربع، وإنما قال: «مَّن يَمْشِى»، و«مَنْ» إنما تستعمل فيمن يعقل دون من لا يعقل من الحيات والبهائم؛ لأنه ذكر كل دابة، فدخل فيه الناس وغيرهم، وإذا جمع اللفظ من يعقل ومن لا يعقل تجعل الغلبة لمن يعقل ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ إليك ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يعني: المنافقين يقولونه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض عن طاعة الله ورسوله
٤٢/ب ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ / أي: من بعد قولهم: آمنَّا، ويدعو إلى غير حكم الله، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ نزلت هذه الآية في بِشْرٍ المنافق، كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد ﷺ، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإن محمدًا يحيف علينا، فأنزل الله هذه الآية[1].

وقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسولُ بحكم الله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: عن الحكم، وقيل: عن الإجابة.

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٧٨، «البحر المحيط»: (٦/ ٤٦٧)، القرطبي: (١٢/ ٢٩٣)، وراجع فيما سبق: (١/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥)، والقصة من رواية الكلبي وهو ضعيف.

وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾ مطيعين منقادين لحكمه، أي: إذا كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه؛ لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضًا بالحق.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ أي: شكوا، هذا استفهام ذم وتوبيخ، أي: هم كذلك ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بظلم ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى كتاب الله ورسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا ليس على طريق الخبر لكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغي أن يكونوا، ونصب القول على الخبر واسمه في قوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فيما ساءه وسره ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما عمل من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بعد ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ الناجون، قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يتقهْ» ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون، كما في نظائرها ويشبعها الباقون كسرًا، وقرأ حفص «يتَّقْهِ» بسكون القاف واختلاس الهاء، وأهل اللغة إذا سقطت الياء للجزم يسكنون ما قبلها، يقولون: لم أشترْ طعامًا، بسكون الراء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جهد اليمين أن يحلف بالله، ولا حلف فوق الحلف بالله ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت نكن معك، لئن خرجتَ خرجنا، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا، وقد تم الكلام، ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة، أي: أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد ـ رضي الله عنه ـ، وقيل: معناه: طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل، وقال مقاتل بن سليمان: لتكن منكم طاعة معروفة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يعني: على الرسول ما كُلِّف وأمر به من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الإجابة والطاعة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ أي: التبليغ البيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال أبو العالية في هذه الآية: مكث النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه، وأمروا بالصبر على أذى الكفار، وكانوا يُصْبِحُونَ ويُمْسُون خائفين، فقال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فأنزل الله هذه الآية(1): «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ» أدخل اللام لجواب اليمين المضمرة، يعني: والله ليستخلفنَّهم، أي: ليورثنَّهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «كما استخلف» بضم التاء وكسر اللام على ما لم يسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح التاء واللام لقوله تعالى: «وعد الله»، قال قتادة: كما استخلف داود وسليمان وغيره من الأنبياء، وقيل: «كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»، أي: بني إسرائيل، حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: اختار، قال ابن عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها، ويظهر دينهم على سائر الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف من الإبدال، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل، وهما لغتان، وقال بعضهم: التبديل تغيير حال إلى حال، والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه ﴿مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ آمنين ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ فأنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه، وأبدلهم بعد الخوف أمنًا وبسطًا في الأرض.

---

(1) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٥٩ـ١٦٠)، وعزاه السيوطي: (٦/ ٢١٥) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١١٩ ـ ١٢٠: (ووصله الحاكم: ٢/ ٤١٠، وابن مردويه)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٨٣): (رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات). وانظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٧٩، القرطبي: (١٢/ ٢٩٧)، «الصحيح المسند من أسباب النزول» للوادعي: ص١٠٨.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا محمد بن الحكم، أخبرنا النضر، أخبرنا إسرائيل، أخبرنا سعيد الطاهري، أخبرنا محمد بن خليفة، عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة فَلَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلَّا الله»، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، لئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه»، وليَلْقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم، فليقولنَّ له: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالًا / وأفضل عليك؟ ١/٤٣
فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلَّا جهنَّم، وينظر عن يساره فلا يرى إلَّا جهنَّم»، قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلَّا الله، وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه[(١)].

وفي الآية دلالة على خلافة الصديق وإمامة الخلفاء الراشدين.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، أخبرنا علي بن الجعد، أخبرني حماد هو ابن مسلمة بن دينار، عن سعيد بن جمهان، عن سفينة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكونُ مُلْكًا»، ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشرًا، وعثمان اثنتا عشر، وعلي ستة، قال علي: قلت لحماد: سفينةُ القائلُ لسعيدٍ أمسك؟ قال: نعم[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أراد به كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ العاصون لله.

قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلما قتلوه غيَّـر الله ما بهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانًا.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة: (٦/ ٦١٠ ـ ٦١١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٣١ ـ ٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الخلفاء: (٧/ ٢٧)، بلفظ: «ثم يؤتي الله الملك من يشاء ...»، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في الخلافة: (٦/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧)، وقال: (هذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان، ولا نعرفه إلَّا من حديثه)، وصححه ابن حبان: ص٣٦٩ من «موارد الظمآن»، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٢٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٧٤ ـ ٧٥).

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم المعروف بابن أبي نصر، أخبرنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدة المعروف بالطرابلسي، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال قال: قال عبد الله بن سلام في عثمان: إن الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله ﷺ حتى اليوم، فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبدًا، فوالله لا يقتله رجل منكم إلَّا لقي الله أجذم لا يَدَ لَهُ، وإن سيف الله لم يزل مغمودًا عنكم، والله لئن قتلتموه ليسلنَّه الله ثم لا يغمده عنكم، إما قال: أبدًا، وإما قال: إلى يوم القيامة، فما قتل نبي قط إلَّا قتل به سبعون ألفًا، ولا خليفة إلَّا قتل به خمسة وثلاثون ألفًا[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: افعلوها على رجاء الرحمة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ عامر وحمزة «لا يحسبن» بالياء، أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقرأ الآخرون بالتاء، يقول: لا تحسبن يا محمد الذين كفروا معجزين فائتين عنا ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ...﴾ الآية.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وجَّه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالةٍ كره عمر رؤيته ذلك، فأنزل الله هذه الآية[2].

وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد، كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقتٍ كرهته، فأتت

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في الجامع من «المصنف»: (١١/ ٤٥٥)، واختصره ابن سعد في «الطبقات»: (٣/ ٨٣).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٨٠، «الكافي الشاف»: ص١٢٠.

رسولَ الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تعالى[1]: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾، اللام لام الأمر.

﴿ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ يعني: العبيد والإماء ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ﴾ من الأحرار، ليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل الذي عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا.

﴿ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾ أي: ليستأذنوا في ثلاث أوقات ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ يريد: المَقِيْل ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ وإنما خص هذه الأوقات؛ لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، أمر العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات، وأما غيرهم فَلْيستأذنوا في جميع الأوقات ﴿ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «ثلاثَ» بنصب الثاء بدلًا عن قوله: «ثلاثَ مرات»، وقرأ الآخرون بالرفع، أي: هذه الأوقات ثلاثُ عورات لكم، سميت هذه الأوقات عورات؛ لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ جناح ﴿ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ يعني: على العبيد والخدم والصبيان ﴿ جُنَاحٌۢ ﴾ في الدخول عليكم من غير استئذان ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي: بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم ﴾ أي: العبيد والخدم يطوفون عليكم فيترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالهم بغير إذن ﴿ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي: يطوف بعضكم على بعض ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ ﴾ واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: منسوخ[2].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكن للقوم ستور ولا حجاب[3]، فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم ما لا يحبون، فأمروا بالاستئذان، وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور، فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان[4].

وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة، روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قالت: سألت الشعبي عن هذه الآية: ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾، أمنسوخة هي؟ قال: لا والله، قلت: إن الناس لا يعملون بها، قال: الله المستعان[5].

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٢١٧) لابن أبي حاتم، وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٨٠. وانظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٠، وابن كثير: (٣/ ٣٠٤).

(٢) حكي ذلك عن سعيد بن المسيب، وحكاه القرطبي أيضًا عن سعيد بن جبير، وهو خلاف الرواية عنه. انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٦٢)، القرطبي: (١٢/ ٣٠٢).

(٣) في «الدر المنثور» و«القرطبي»: (حجال) جمع حَجَلَة: وهو بيت كالقبة يُسْتَر بالثياب ويكون له أزرار كبار.

(٤) عزاه السيوطي لأبي داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢١٩). قال القرطبي (١٢/ ٣٠٣): (هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد بن جبير، فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حالٍ ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحاري ونحوها).

(٥) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، ونسبه السيوطي: (٦/ ٣١٩) للفريابي.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: إن ناسًا يقولون نسخت، والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: الاحتلام، يريد: الأحرار الذين بلغوا ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ أي: يستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار الكبار، وقيل: يعني: الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلالاته، وقيل: أحكامه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه ﴿حَكِيمٌ ۝٥٩﴾
٤٣/ب بما دبَّرَ لهم. قال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه، فإنما أنزلت / هذه الآية في ذلك[٢]، وسئل حذيفة: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم يفعل رأى منها ما يكره[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكِبَر، لا يلدن ولا يحضن، واحدتها «قاعد» بلا هاء، وقيل: قعدن عن الأزواج، وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يردن الرجال لكبرهن، قال ابن قتيبة: سميت المرأة قاعدًا إذا كبرت؛ لأنها تكثر القعود[٤]، وقال ربيعة الرأي: هنَّ العُجُزُ اللائي إذا رآهن الرجال استقذروهنَّ، فأما من كانت فيها بقية من جمال، وهي محل الشهوة، فلا تدخل في هذه الآية ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ عند الرجال، يعني: يضعن بعض ثيابهن، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار، فأما الخمار فلا يجوز وضعه، وفي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ: «أن يضعن من ثيابهن» ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهنَّ، والتبرُّج: هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تتنزه عنه ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ فلا يلقين الجلباب والرداء ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٦٣).

(٢) الطبري: (١٨/ ١٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (٤/ ٣٩٨)، وفيه آثار أخرى.

(٤) قال ابن قتيبة في «غريب القرآن» (٢/ ٤٣) من «القرطين» لابن مطرف الكناني: (... ولا أراها تسمت قاعدًا إلّا بالقعود؛ لأنها إذا أسنَّت عجزت عن التصرف وكثرة الحركة، وأطالت القعود، فقيل لها: «قاعد» بلا هاء، ليدل بحذف الهاء على أنه قعود كِبَرٍ، كما قالوا: امرأة حامل، بلا هاء، ليدل بحذف الهاء على أنه حَمْل حَبَلٍ، وقالوا في غير ذلك: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها).

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾ الآية، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا أنزل الله عزَّ وجلَّ قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ»[النساء: ٢٩]، تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزَّمنى والعُمي والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهانا اللهُ عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي الطعام، فأنزل الله هذه الآية[(١)].

وعلى هذا التأويل يكون «على» بمعنى «في»، أي: ليس في الأعمى، يعني: ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض.

وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما: كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء؛ لأن الناس يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم، ويقول الأعمى: ربما أكل أكثر، ويقول الأعرج: ربما أخذ مكان اثنين، فنزلت هذه الآية[(٢)].

وقال مجاهد: نزلت الآية ترخيصًا لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمَّى الله في هذه الآية، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل؛ لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك الطعام ويقولون:

---

(١) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٦٨)، وذكره الواحدي: ص٣٨١، وعزاه السيوطي: (٦/ ٢٢٤) أيضًا لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي. وانظر: «مشكل القرآن» لابن قتيبة: ص٣٣٢.

(٢) الطبري: (١٨/ ١٦٨)، الواحدي: ص٣٨١.

ذهب بنا إلى بيت غيره؟ فأنزل الله هذه الآية(١).

وقال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غُيَّب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم(٢).

قال الحسن: نزلت هذه الآية رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد. قال: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كلام منقطع عمَّا قبله(٣).

وقيل: لما نزل قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[النساء: ٢٩]، قالوا: لا يحل لأحدٍ منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾(٤)، أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، قيل: أراد من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج، وقال ابن قتيبة: أراد من بيوت أولادكم، نَسَبَ بيوتَ الأولادِ إلى الآباء(٥)، كما جاء في الحديث: «أنت ومالك لأبيك»(٦)، ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عنى بذلك وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته، ولا يحمل ولا يدخر، وقال الضحاك: يعني: في بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزائن، لقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[الأنعام: ٥٩]، ويجوز أن يكون الذي يفتح به، قال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء

---

(١) الطبري: (١٨/ ١٦٩)، الواحدي: ص٣٨١، وعزاه السيوطي: (٦/ ٢٢٣) لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وإبراهيم وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٨١ ـ ٣٨٢، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، وأخرجه البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة أيضًا، وقال الهيثمي: (رجال البزار رجال الصحيح). انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٢٤)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٨٣).

(٣) انظر: الطبري: (١٨/ ١٦٩)، ولم يعزه للحسن، وإنما عزاه لابن زيد، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير»: (٦/ ٦٤) عن الحسن وابن زيد.

(٤) عزاه السيوطي لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٢٤).

(٥) قال ابن قتيبة في «مشكل القرآن» ص٣٣٣ ـ ٣٣٤ في الكلام على الآية الكريمة: (أراد: ولا على أنفسكم أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم) وقال بعضهم: أراد: أن تأكلوا من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء؛ لأن الأولاد كَسْبُهم، وأموالهم كأموالهم. يدلك على هذا: أن الناس لا يتوقَّون أن يأكلوا من بيوتهم، وأن الله سبحانه عدَّد القرابات وهم أبعد نسبًا من الولد، ولم يذكر الولد).

(٦) أخرجه ابن ماجه عن جابر في التجارات، باب ما للرجل من مال ولده برقم ٢٢٩١: (٢/ ٧٦٩)، قال في «الزوائد»: (وإسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري)، والطبراني في «الأوسط»: (١/ ١٤١)، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ٢٣٠)، ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مطولًا رواه الإمام أحمد: (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود في البيوع، وابن ماجه في التجارات، وابن الجارود في «المنتقى». وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ ٨٧٥ ـ ٨٧٦) مع تعليق المحقق، «إرواء الغليل»: (٣/ ٣٢٣، ٣٢٥)، «كشف الخفاء»: (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

اليسير، وقال السدي: الرجل يولي طعامه غيره يقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه، وقال قوم: «ما ملكتم مفاتحه» ما خزنتموه عندكم، قال مجاهد وقتادة: من بيوت أنفسكم مما أحرزتم وملكتم.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديق الذي صدقك في المودة. قال ابن عباس: نزلت في الحارث بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ خرج غازيًا مع رسول الله ﷺ وخلّف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودًا فسأله عن حاله، فقال: تحرجت أن آكل طعامك بغير إذنك، فأنزل الله هذه الآية[(١)].

وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والتحرم بطعامه من غير استئذان منه في الأكل بهذه الآية.

والمعنى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا»، من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا، من غير أن تتزودوا وتحملوا.

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من بني كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفًا يأكل معه، فربما قعد الرجل والطعامُ بين يديه من الصباح إلى الرَّواح، وربما كانت معه الإبل الحُفَّلُ فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحدًا أكل، هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج[(٢)].

وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه، فيقول: والله إني لأجنح، أي: أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير، فنزلت هذه الآية[(٣)].

١/٤٤ وقال عكرمة وأبو صالح: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف / إلّا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا، جميعًا أو أشتاتًا متفرقين[(٤)].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: يسلم بعضكم على بعض، هذا في دخول الرجل ببيت نفسه يسلم على أهله ومَنْ في بيته، وهو قول جابر وطاووس والزهري وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار[(٥)].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٢٢٥) من رواية الثعلبي عن ابن عباس.

(٢) انظر: الطبري: (١٨/ ١٧٢)، «أسباب النزول»: ص٣٨٢، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٢٥).

(٣) الطبري: (١٨/ ١٧٢).

(٤) الطبري: (١٨/ ١٧٢)، وزاد السيوطي نسبته لابن المنذر، وذكره الواحدي: ص٣٨٢ عن عكرمة.

وقال الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله وضع الحرج عن المسلمين أن يأكلوا جميعًا معًا إذا شاؤوا، أو أشتاتًا متفرقين إذا أرادوا، وجائز أن يكون ذلك نزل بسبب مَن كان يتخوَّف من الأغنياء الأكلَ مع الفقير، وجائز أن يكون نزل بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا لا يطعمون وحدانًا، وبسبب غير ذلك، ولا خبر بشيء من ذلك يقطع العذر، ولا دلالة في ظاهر التنزيل على حقيقة شيء منه، والصواب: التسليم لما دلَّ عليه ظاهر التنزيل، والتوقف فيما لم يقم على صحته دليل).

(٥) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٦٧).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

وقال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلِّمْ على أهلك فهو أحق مَن سلَّمْتَ عليه، وإذا دخلت بيتًا لا أحد فيه فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. حُدِّثنا أن الملائكة ترد عليه[(١)].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس[(٢)] ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: «فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ»، قال: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[(٣)].

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: تحيون أنفسكم تحية ﴿مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حسنة جميلة، وقيل: ذكر البركة والطيبة هاهنا لما فيه من الثواب والأجر ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: مع رسول الله ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يجمعهم من حربٍ حضرت، أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمرٍ نزل ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ لم يتفرقوا عنه، لم ينصرفوا عمَّا اجتمعوا له من الأمر ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد، لحاجةٍ أو عذر، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام يستأذن، فيأذن لمن شاء منهم، قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده[(٤)].

---

(١) عزاه السيوطي: (٦/ ٢٢٨) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٧٤)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ٤٠١)، وزاد السيوطي نسبته لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) قال الطبري (١٨/ ١٧٥): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوت المسلمين فليسلِّم بعضكم على بعض . . . ؛ لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ ولم يخصص من ذلك بيتًا دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: بعضكم على بعض، فكان معلومًا إذْ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معنيٌّ به جميعها، مساجدها وغير مساجدها.
ومعنى قوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ نظير قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾، وانظر: القرطبي: (١٢/ ٣١٨).

(٤) «زاد المسير»: (٦/ ٦٧ ـ ٦٨).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلَّا بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة، أو يجنب رجل، أو يعرض له مرض، فلا يحتاج إلى الاستئذان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: أمرهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ في الانصراف، معناه: إن شئت فأذن، وإن شئت فلا تأذن ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقول: احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه، فإن دعاءه موجب لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره(١).

وقال مجاهد وقتادة: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا: يا محمد، يا عبد الله، ولكن فَخِّمُوه وشرِّفوه، فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله، في لِيْنٍ وتواضع(٢).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي: يخرجون ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يستر بعضهم بعضًا، ويروغ في خيفة فيذهب، و«اللِّواذ» مصدر لاوَذَ يُلاوِذُ مُلاوَذَةً ولواذًا.

قيل: كان هذا في حفر الخندق، فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لواذًا»، أي: يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار.

ومعنى قوله: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ»: للتهديد بالمجازاة.

---

(١) انظر: الطبري: (١٧/ ١٧٧).

(٢) وهو مروي أيضًا عن ابن عباس. انظر: الطبري: (١٧/ ١٧٧)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٣٠)، ونقل ابن كثير القولين في «التفسير»: (٣/ ٣٠٨)، ورجح الطبري قول ابن عباس الأولَ؛ لأن الذي قَبْلَ ذلك نهي من الله للمؤمنين أن يأتوا من الانصراف عنه في الأمر الذي يجمع جميعهم ما يكرهه، والذي بعده وعيد للمنصرفين بغير إذنه عنه، فالذي بينهما بأن يكون تحذيرًا لهم سخطه أن يضطّره إلى الدعاء عليهم، أشبه من أن يكون أمرًا لهم بما لم يَجْرِ له ذِكْر من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم عغتا • ةدو بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾

﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: أمره، و«عن» صلة، وقيل: معناه: يُعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أي: لئلا تصيبهم فتنة، قال مجاهد: بلاء في الدنيا ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ وجيع في الآخرة، وقيل: عذاب أليم عاجل في الدنيا.

ثم عظَّم نفسه فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ملكًا وعبيدًا ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من الإيمان والنفاق، أي: يعلم، و«قد» صلة ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يعني: يوم البعث ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ من الخير والشر ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾﴾.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، حدثنا عبد الله بن محمد بن شيبة، حدثنا محمد بن إبراهيم الكرابيسي، حدثنا سليمان بن توبة، حدثنا أبو داود الأنصاري، أخبرنا محمد بن إبراهيم الشامي، حدثنا شعيب بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنزِلُوا النساء الغرف، ولا تعلِّموهنَّ الكتابة، وعلِّموهنَّ الغَزْلَ وسورةَ النور»[1].

* * *

(١) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٩٦)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، فتعقبه الذهبي فقال: (بل موضوع، وآفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٩٣): (رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدارقطني: كذاب).

وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية».

ونسبه السيوطي أيضًا للبيهقي في «شعب الإيمان» وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ١٢٤).

سورة الفُرْقان

مكية[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة، عن ابن عباس: معناه: جاء بكل بركة، دليله قول الحسن: مجيء البركة من قبله، وقال الضحاك: تعظَّم ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ أي: للجن والإنس، قيل: النذير هو القرآن، وقيل: محمد ﷺ[2].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه صفة المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ فسوَّاه وهيأه لما يصلح له، لا خلل فيه ولا تفاوت، وقيل: قدَّر لكل شيء تقديرًا من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: دفع ضر ولا جلب نفع ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً﴾ أي: إماتةً وإحياءً ﴿وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ أي: بعثًا بعد الموت.

---

(١) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والجمهور، وحكي عن ابن عباس وقتادة في قول آخر عنهما أنها مكية إلَّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، وقال الضحاك: مدنية إلَّا من أولها إلى قوله الآية الثالثة: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ فهو مكي.
وقول الجمهور هو الراجح، ومكية السورة واضحة من موضوعها وأسلوبها، وهذا يتفق مع الرواية الراجحة، والله أعلم. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٣٤)، القرطبي: (١٣/ ١)، «زاد المسير»: (٦/ ٧١)، «البحر المحيط»: (٦/ ٤٨٠)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٥).

(٢) القول الأول حكاه الماوردي، ورجح الطبري أنه النبي ﷺ، وإن لم يكن في الحقيقة تعارض بين المعنيين، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ ينذر به العالمين، ومحمد ﷺ هو رسول الله تعالى للعالمين، والله أعلم. انظر: «الطبري»: (١٩/ ١٨٠)، «زاد المسير»: (٦/ ٧٢).

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾

٤٤/ب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني: المشركين، / يعني: النضر بن الحارث وأصحابه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ كذب ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ قال مجاهد: يعني: اليهود[1]، وقال الحسن: هو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن، وقيل: جبر، ويسار، وعداس بن عبيد، كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمدًا يأخذ منهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ يعني: قائلي هذه المقالة ﴿ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾﴾ أي: بظلم وزور، فلما حذف الباء انتصب، يعني: جاؤوا شركًا وكذبًا بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ يعني: النضر بن الحارث كان يقول: إنَّ هذا القرآن ليس من الله، وإنما هو مما سطَّره الأولون، مثل: حديث رستم واسفنديار[2]، «ٱكۡتَتَبَهَا»: انتسخها محمد من جبر ويسار وعدَّاس، ومعنى «اكتتب» يعني: طلب أن يكتب له؛ لأنه كان لا يكتب ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ يعني: تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾﴾ غدوة وعشيًا، قال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم:

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ يعني: الغيب ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل نحن ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ يلتمس المعاش كما نمشي، فلا يجوز أن يمتاز عنَّا بالنبوة، وكانوا يقولون له: لست أنت بمَلَك ولا بملِك؛ لأنك تأكل والمَلَك لا يأكل، ولست بملِك؛ لأن الملِك لا يتسوق، وأنت تتسوق وتتبذل، وما قالوه فاسد؛ لأن أكله الطعام لكونه آدميًا، ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له، وشيءٌ من ذلك لا ينافي النبوة ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ فيصدقه ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ داعيًا.

---

(١) حكاه الطبري، ولم يذكر غيره. وانظر سائر الأقوال في: «البحر المحيط»: (٦/ ٤٨١)، «زاد المسير»: (٦/ ٧٢ـ٧٣).

(٢) انظر: الطبري: (١٨/ ١٨٢)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٣٦)، «المحرر الوجيز» لابن عطية: (١٢/ ٧).

أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: ينزل عليه كنز من السماء ينفقه، فلا يحتاج إلى التردد والتصرف في طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي «نأكل» بالنون، أي: نأكل نحن منها ﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ مخدوعًا، وقيل: مصروفًا عن الحق.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾ يعني: الأشباه، فقالوا: مسحور، محتاج، وغيره ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ إلى الهدى، ومخرجًا عن الضلالة.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي قالوا، أو أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: يعني: خيرًا من المشي في الأسواق والتماس المعاش[1]. ثم بيَّن ذلك الخير فقال: ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ بيوتًا مشيدة، والعرب تسمي كل بيت مشيّد قصرًا، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر «ويجعلُ» برفع اللام، وقرأ الآخرون بجزمها على محل الجزاء في قوله: «إن شاء جعل لك».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني، أخبرنا أبو طاهر محمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن أيوب، حدثني عبد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن أبي عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، وقال ثلاثًا أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعتُ إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ حمدتُك وشكرتُك»[2].

---

(١) ذكر الطبري القولين: (١٨/ ١٨٥)، ورجح قول مجاهدٍ الأول؛ لأن المشركين استعظموا أن لا تكون له جنة يأكل منها، وأن لا يلقى إليه كنز، واستنكروا أن يمشي في الأسواق، وهو لله رسول، فالذي هو أولى بوعد الله إياه أن يكون وعدًا بما هو خير ما كان عند المشركين عظيمًا، لا مما كان منكرًا عندهم.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه: (٧/ ١٤)، وقال: (هذا حديث حسن، وعلي بن يزيد يضعَّف في الحديث ويكنى أبا عبد الملك)، وأخرجه ابن ماجه في الزهد، باب من لا يؤبه له: (٢/ ١٣٧٩)، وقال في «الزوائد»: (إسناده ضعيف لضعف أيوب ابن سليمان، وصدقه بن عبد الله متفق على تضعيفه)، ورواه الإمام أحمد: (٢/ ٢٥٢)، و(٥/ ٢٥٤)، وابن سعد في «الطبقات»: (١/ ٣٨١)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ١٣٣).

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

حدثنا أبو طاهرٍ المطهَّرُ بن علي بن عبيد الله الفارسيُّ، أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ، أخبرنا أبو يعلى، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا أبو معشر، عن سعيد يعني: المقبري، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب، جاءني مَلَكٌ إن حُجْزَتَهُ لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئتَ نبيًّا عبدًا، وإن شئت نبيًّا مَلِكًا، فنظرت إلى جبريل فأشار إليَّ أنْ ضَعْ نفسك، فقلت: نبيًّا عبدًا» قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ نارًا مستعرة.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال الكلبيُّ والسديُّ: من مسيرة عام، وقيل: من مسيرة مائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة، وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ بين عيني جهنَّم مقعدًا»، قالوا: وهل لها من عينين؟ قال: نعم، ألم تسمعوا قول الله تعالى: «﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾»(٢)، وقيل: إذا رأتهم زبانيتها ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾. غليانًا، كالغضبان إذا غَلَى صدره من الغضب ﴿وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ صوتًا.

فإن قيل: كيف يسمع التغيظ؟ قيل: معناه: رأوا وعلموا أن لها تغيظًا وسمعوا لها زفيرًا، كما قال الشاعر:

ورأيتُ زوجَكِ في الوَغَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا ورُمْحًا

أي: وحاملًا رمحًا(٣).

وقيل: سمعوا لها تغيظًا، أي: صوت التغيظ من التلهب والتوقد، قال عبيد بن عمير: تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل إلَّا خرَّ لوجهه.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قال ابن عباس: تضيق عليهم كما يضيق الزجُّ(٤) في الرمح ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾

---

(١) قال الهيثمي (٩/ ١٩): (رواه أبو يعلى وإسناده حسن)، وعبد الرزاق: (١٠/ ٤١٧)، وأخرج القطعة الأولى منه الخطيب في «تاريخ بغداد»: (١١/ ١٠٢)، والثانية: «إنما أنا عبد . . .» أخرجها عبد الرزاق في «الجامع» عن معمر: (١٠/ ٤١٧)، والإمام أحمد في «الزهد»: ص٥، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٤٨).

(٢) عزاه السيوطي: (٦/ ٢٣٨) للطبراني وابن مردويه، وأخرجه الطبري بلفظ: «من يقول عليَّ ما لم أَقُلْ . . .»: (١٨/ ١٨٧).

(٣) هذا أحد التخريجين، والثاني: تضمين «متقلدًا» معنى: «متسلحًا»، فكذلك الآية، أي: سمعوا لها ورأوا تغيظًا وزفيرًا، أو ضُمِّن معنى أدركوا، فيشمل التغيظ والزفير.
انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٤٨٥).

(٤) الزُّجّ: حديدة في أسفل الرمح.

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧﴾

مصفَّدين، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ قال ابن عباس: ويلًا.

وقال الضحاك: هلاكًا.

وفي الحديث: «إن أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريتُه من خلفه، وهو يقول: يا ثبوراه، وهم ينادون: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار فينادون: يا ثبوراه، وينادي: يا ثبورهم»(١)، فيقال لهم:

١/٤٥ ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ/ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ قيل: أي: هلاكهم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، فادعوا أدعية كثيرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ يعني: الذي ذكرته من صفة النار وأهلها ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ ثوابًا ﴿وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ مرجعًا.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾ مطلوبًا، وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا: «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ»[آل عمران: ١٩٤]، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنة خلد وعدًا، وعدهم على طاعتهم إيَّاه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك، قال محمد بن كعب القرظي: الطلب من الملائكة للمؤمنين، وذلك قولهم: «رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ»[غافر: ٨].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص «يحشرهم» بالياء، وقرأ الباقون بالنون ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: من الملائكة والجن والإنس وعيسى وعزير، وقال عكرمة والضحاك والكلبي: يعني: الأصنام، ثم يخاطبهم ﴿فَيَقُولُ﴾ قرأ ابن عامر بالنون، والآخرون بالياء ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧﴾ أخطأوا الطريق.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٨/ ١٨٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب»: ص٣٦٨، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ١٥٢، ١٥٣)، وفي سنده علي بن زيد، وعزاه السيوطي لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» بسند صحيح، عن أنس مرفوعًا.
انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٤٠)، «تفسير القرطبي»: (١٣/ ٨)، ابن كثير: (٣/ ٣١٢).

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ نزَّهوا الله من أن يكون معه إله ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك، بل أنت ولينا من دونهم، وقيل: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك. وقرأ أبو جعفر «أن نُتَّخَذ» بضم النون وفتح الخاء، فتكون «من» الثاني صلة.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ في الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن، وقيل: تركوا ذكرك وغفلوا عنه ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾﴾ يعني: هلكى، غلب عليهم الشقاء والخذلان، رجل يقال له: «بائر»، وقوم بور، وأصله من البوار: وهو الكساد والفساد، ومنه بوار السلعة وهو كسادها، وقيل: هو اسم مصدر كالزور، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ هذا خطاب مع المشركين، أي: كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم آلهة ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ قرأ حفص بالتاء، يعني: العابدين، وقرأ الآخرون بالياء، يعني: الآلهة ﴿صَرۡفٗا﴾ يعني: صرف العذاب عن أنفسهم ﴿وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ يعني: ولا نصر أنفسهم، وقيل: ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم، وقيل: «الصرف»: الحيلة، ومنه قول العرب: إنه ليصرف، أي: يحتال ﴿وَمَن يَظۡلِم﴾ يشرك ﴿مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، أنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[1]، يعني: ما أنا إلَّا رسول، وما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وهم كانوا بشرًا يأكلون الطعام ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ وقيل: معناه: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلَّا قيل لهم مثل هذا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، كما قال في موضع آخر: «مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ»[فصلت: ٤٣].

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٨٣ ـ ٣٨٤ مطولًا، وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٣٧).

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ أي: بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله؟ والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع، وقال ابن عباس: أي: جعلت بعضكم بلاءً لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى.

وقيل: نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع؛ وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أَنِف، وقال: أُسْلِمُ بعده فيكون له عليَّ السابقة والفضل؟! فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض، وهذا قول الكلبي[1].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث؛ وذلك أنهم لما رأوا أبا ذر وابنَ مسعود وعمارًا وبلالًا وصهيبًا وعامرَ بنَ فهيرة وذويهم، قالوا: نسلم فنكون مثل هؤلاء؟!

وقال: نزلت في ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدًا من موالينا وأراذلنا، فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ يعني: على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى.

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ بمن صبر وبمن جزع، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا زكريا بن يحيى المروزي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فُضِّل عليه في المال والجسم فلينظرْ إلى مَنْ دونه في المال والجسم»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي: لا يخافون البعث، قال الفرَّاء: «الرجاء» بمعنى الخوف، لغةُ تهامة، ومنه قوله تعالى: « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا»[نوح: ١٣]، أي: لا تخافون لله عظمة ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فتخبرنا أن محمدًا صادق ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فيخبرنا بذلك ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي: تعظموا ﴿ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بهذه المقالة ﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ قال مجاهد: «عتوًّا» طغوا في القول، و«العتو»: أشد الكفر وأفحش الظلم، وعتوُّهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به.

---

(١) «البحر المحيط»: (٦/ ٤٩١)، وقال: (والأولى أن قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ يشمل معاني هذه الألفاظ كلها؛ لأن بين الجميع قدرًا مشتركًا.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه: (١١/ ٣٢٢)، ومسلم في الزهد برقم ٢٩٦٣: (٤/ ٢٢٧٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٩٢).

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ عند الموت، وقيل: في القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين، وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة، ويقولون للكفار: لا بشرى لكم، هكذا قال عطية، وقال بعضهم: معناه: أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين، أي: لا بشارة لهم بالجنة، كما يُبَشَّرُ المؤمنون ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ قال عطاء عن ابن عباس: تقول الملائكة حرامًا محرَّمًا أن يدخل الجنة، إلَّا من قال لا إله إلَّا الله.

وقال مقاتل: إذا خرج الكفار من قبورهم قالت لهم الملائكة حرامًا محرَّمًا / عليكم أن يكون لكم البشرى. ٤٥/ب

وقال بعضهم: هذا قول الكفار للملائكة، قال ابن جريج: كانت العرب إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون، قالوا: حجرًا محجورًا، فهم يقولونه إذا عاينوا الملائكة.

قال مجاهد: يعني: عوذًا معاذًا، يستعيذون به من الملائكة(١).

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ وعمدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: باطلًا لا ثواب له، فهم لم يعملوه لله عزَّ وجلَّ.

واختلفوا في «الهباء»، قال علي: هو ما يرى في الكُوَّة إذا وقع ضوء الشمس فيها كالغبار، ولا يمس بالأيدي، ولا يرى في الظل، وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد، و«المنثور»: المتفرّق.

وقال ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير: هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر.

وقال مقاتل: هو ما يسطع من حوافر الدوابِّ عند السير.

وقال: «الهباء المنثور»: ما يرى في الكوة، و«الهباء المنبث»: هو ما تطيره الرياح من سنابك الخيل(٢).

---

(١) ذكر الطبري هذه الأقوال واختار منها أن الملائكة يقولون للمجرمين: حجرًا محجورًا، حرامًا محرَّمًا عليكم اليوم البشري أن تكون لكم من الله.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٩/ ٢-٣).

(٢) انظر هذه الأقوال في الطبري: (١٩/ ٤-٥)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٤٦)، «زاد المسير»: (٦/ ٨٣).
وقال ابن كثير رحمه الله (٣/ ٣١٥): (وحاصل هذه الأقوال: التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحَكَم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا، إذا أنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾)، وقال أيضًا: (أخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين - من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المَرْضِيَّة فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحدٍ من هذين، وقد تجمعهما معًا فتكون أبعدمن القبول حينئذ).

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: من هؤلاء المشركين المتكبرين ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ موضع قائلة، يعني: أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلَّا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة.

قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقرأ «ثم إن مقيلهم لإلىٰ الجحيم» هكذا كان يقرأ[١].

وقال ابن عباس في هذه الآية: الحساب ذلك اليوم في أوله، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة.

قال الأزهري: «القيلولة» و«المقيل»: الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن مع ذلك نوم؛ لأن الله تعالى قال: «وَأَحْسَنُ مَقِيلًا»، والجنة لا نوم فيها، ويُرى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: عن الغمام، الباء وعن يتعاقبان، كما يقال: رميت عن القوس وبالقوس، وتشقق بمعنى تتشقق، أدغموا إحدى التاءين، وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين هاهنا، وفي سورة «ق» بحذف إحدى التاءين، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي: تتشق بالغمام، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلَّا لبني إسرائيل في تيههم ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ قرأ ابن كثير «ونُنْزِلُ» بنونين خفيف ورفع اللام، «الملائكةَ» نصب، قال ابن عباس: تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش[٣].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: الملك[٤] الذي هو الملك الحق حقًّا ملك الرحمن يوم القيامة، قال ابن عباس: يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضي غيره ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ شديدًا، فهذا الخطاب يدل على أنه لا يكون على المؤمنين عسيرًا، وجاء في الحديث:

---

(١) الطبري: (١٩/ ٥).

(٢) أخرجه ابن جرير: (١٩/ ٥) عن سعيد الصواف أنه بلغه أن يوم القيامة . . . إلخ.

(٣) انظر: الطبري: (١٩/ ٦-٧)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٤٨-٢٤٩)، ابن كثير: (٣/ ٢١٧).

(٤) ساقط من «أ».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾

«أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا»[(١)].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أراد بالظالم: عقبةَ بن أبي معيط، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعامًا فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله»، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمدًا رسول الله، فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقًا لأُبيّ بن خلف، فلما أُخبر أُبيُّ بن خلف قال له: يا عقبة صبأتَ؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يأكل طعامي إلّا أن أشهد له، فاستحييتُ أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا إلّا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا ألقاك خارجًا من مكة إلّا علوتُ رأسك بالسيف» فقتل عقبة يوم بدر صبرًا، وأما أُبيّ بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أحد بيده[(٢)].

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت[(٣)].

وقال الشعبي[(٤)]: كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام أنْ بايعت محمدًا، فكفر وارتدَّ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾، يعني: عقبة بن أبي معيط بن عبد شمس بن مناف ﴿ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله بطاعة خليله الذي صده عن سبيل الله، قال عطاء: يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم تنبتان، ثم يأكل هكذا، كلما نبتت يده أكلها تحسرًا على ما فعل.

﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ ليتني اتبعت محمدًا ﷺ، واتخذت معه سبيلًا إلى الهدى، قرأ أبو عمرو: «يا ليتنيَ اتخذت» بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٧٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٣٧): (رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن على ضعف في راويه)، فيه: دراج أبو السمح عن أبي الهيثم، وابن لهيعة، وفيهم ضعف.
وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣١٧).

(٢) أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.
«الدر المنثور»: (٦/ ٢٥٠)، «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ ٨٨٠)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٨٥.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٨٦، القرطبي: (١٣/ ٢٦).

(٤) «أسباب النزول»: ص٣٨٥، الطبري: (١٩/ ٨) باختصار.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني: أُبيّ بن خلف.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن الإيمان والقرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ يعني: الذكر مع الرسول ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو كل متمرد عاتٍ من الإنس والجن، وكل من صدَّ عن سبيل الله فهو شيطان ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: تاركًا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب، وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن العلاء، أخبرنا أبو أسامة، عن يزيد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ
قال: / «مَثَلُ الجليسِ الصالح والسوءِ، كحامل المِسْك ونافخِ الكِيْر، فحاملُ المسك إمَّا أن يُحْذِيَك، وإمَّا ١/٤٦
أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيبة، ونافخُ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا تجد منه ريحًا خبيثة»(١).

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن حياة بن شريح، أخبرني سالم بن غيلان أن الوليد بن قيس التُّجيبي أخبره أنه سمع أبا سعيد الخدري ـ قال سالم: أو عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تصاحب إلَّا مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلَّا تقي»(٢).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن كساب النيسابوري، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا حميد بن عياش الرملي، أخبرنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا زهير بن محمد الخراساني، حدثنا موسى بن وردان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المرءُ على دين خليلِه، فلينظرْ أحدُكم من يُخَالِلُ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح، باب المسك: (٩/ ٦٦٠)، ومسلم في البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين برقم٢٦٢٨: (٤/ ٢٠٢٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب مَن يؤمر أن يجالس: (٧/ ١٨٥)، وسكت عليه أبو داود والمنذري، والترمذي في الزهد: (٧/ ٧٦)، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه)، والدارمي في الأطعمة: (٢/ ١٠٣)، وصححه الحاكم: (٤/ ١٢٨)، وابن حبان برقم٢٠٤٩ من «موارد الظمآن»، وحسنه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٦٨)، وانظر: «فيض القدير» للمناوي: (٦/ ٤٠٥).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب: (٧/ ١٨٦)، قال المنذري: (وفي إسناده موسى بن وردان، وقد ضعفه بعضهم، وقال بعضهم: لا بأس به، ورجح بعضهم في هذا الحديث الإرسال)، والترمذي في الزهد: (٧/ ٤٩)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وصححه الحاكم: =

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني: ويقول الرسول في ذلك اليوم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: متروكًا، فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه.

وقيل: جعلوه منزلة الهجر وهو الهذيان والقول السيء، فزعموا أنه شعر وسحر، وهو قول النخعي ومجاهد. وقيل: قال الرسول، يعني: محمدًا ﷺ يشكو قومه إلى الله: يا رب، إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا، فعزَّاه الله تعالى فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ يعني: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين، قال مقاتل: يقول: لا يَكْبُرَنَّ عليك، فإن الأنبياء قبلك قد لَقِيَتْ هذا من قومهم، فاصبرْ لأمري كما صبروا، فإني ناصرك وهاديك ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فَعَلْتُ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: أنزلناه متفرقًا ليقوى به قلبك فتعيه وتحفظه، فإن الكتب أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل الله القرآن على نبي أُمي لا يكتب ولا يقرأ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور ففرقناه؛ ليكون أوعى لرسول الله ﷺ، وأيسر على العامل به ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ قال ابن عباس: بيَّنَّاه بيانًا، والترتيل: التبيين في ترسل وتثبت، وقال السدي: فصَّلناه تفصيلًا، وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض، وقال النخعي والحسن وقتادة: فرقناه تفريقًا، آيةً بعد آية.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يا محمد، يعني: هؤلاء المشركين ﴿بِمَثَلٍ﴾ يضربونه في إبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بما ترد به ما جاؤوا به من المثل وتبطله، فسمى ما يوردون من الشبه مثلًا، وسمَّى ما يدفع به الشبه حقًّا ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: بيانًا وتفصيلًا، و«التفسير»: تفعيل، من الفَسْر، وهو كشف ما قد غطي، ثم ذكرَ مآل هؤلاء المشركين فقال:

= (٤/ ١٧١)، وأخرجه الإمام أحمد: (٢/ ٣٠٣، ٤٣٤)، وذكره في «المشكاة»: (٣/ ١٣٩٧)، وعزاه أيضًا للبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال النووي: (إسناده صحيح)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٧٠).

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى
ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ
أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ
وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾ (أي: هم الذين)(١) ﴿يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ فيساقون ويجرون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: مكانة ومنزلة، ويقال: منزلًا ومصيرًا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ أخطأ طريقًا.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥﴾ مُعينًا وظهيرًا.

﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: القبط ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ فيه إضمار، أي: فكذبوهما فدمرناهم ﴿تَدۡمِيرٗا ٣٦﴾ أهلكناهم إهلاكًا.

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: الرسول، ومن كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل، فلذلك ذكر بلفظ الجمع ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗ﴾ يعني: لمن بعدهم عبرة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾ سوى ما حلَّ به من عاجل العذاب ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ أي: وأهلكنا عادًا وثمود ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ اختلفوا فيهم، قال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر قعودًا عليها، وأصحابَ مواشي، يعبدون الأصنام، فوجَّه الله إليهم شعيبًا يدعوهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم، وفي أذى شعيب عليه السلام، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر، فخسف بهم وبديارهم ورباعهم، فهلكوا جميعًا، و«الرسُّ»: البئر، وكل ركية لم تُطْوَ بالحجارة والآجر فهو رسٌّ.

وقال قتادة والكلبي: «الرس» بئر بفَلْج اليمامة، قتلوا نبيَّهم فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ.

وقال بعضهم: هم بقية ثمود وصالح، وهم أصحاب البئر التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾[الحج: ٤٥].

وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله تعالى.

وقال كعب ومقاتل والسدي: «الرس»: بئر بإنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار، وهم الذين ذكرهم الله في سورة يسٓ.

---

(١) ساقط من «أ».

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ
مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا
لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

وقيل: هم أصحاب الأخدود، (والرسُّ هو الأخدود)[1] الذي حفروه.

وقال عكرمة: هم قوم رسّوا نبيهم في بئر[2]، وقيل: الرسُّ: المعدن، وجمعه رساس.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: وأهلكنا قرونًا كثيرًا بين عاد وأصحاب الرس.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلَّا بعد الإنذار ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا، وقال الأخفش: كسرنا تكسيرًا، قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتّتّه فقد تبّرته.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني: الحجارة، وهي قريات قوم لوط، وكانت خمس قرى، فأهلك الله أربعًا منها، ونجت واحدة، وهي أصغرها، وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ إذا مروا بهم في أسفارهم فيعتبروا ويتذكروا؛ لأنَّ مدائن قوم لوط كانت على
٤٦/ب طريقهم عند ممرهم إلى الشام ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون ﴿نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ بعثًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ يعني: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: مهزوءًا به، نزلت في أبي جهل، كان إذا مرَّ بأصحابه على رسول الله ﷺ قال مستهزئًا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾[3]؟!

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: قد قارب أن يضلنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ من أخطأُ طريقًا.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) لم يقم على هذه الأقوال في المعنى بأصحاب الرس دليل ثابت، ورجح الطبري أنهم أصحاب الأخدود، وبعض الأقوال السابقة مردودة بنصوص أخرى، والله أعلم. انظر: الطبري: (١٩/ ١٣ ـ ١٥)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، «زاد المسير»: (٦/ ٩٠)، «البحر المحيط»: (٦/ ٤٩٥ ـ ٤٩٨)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٣) ذكره في «البحر المحيط»: (٦/ ٥٠٠)، والآية فيها إخبار عن استهزاء المشركين بالنبي ﷺ وتنقصهم له، وأبو جهل داخل في عموم أولئك المشركين.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى حجرًا أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخر فعبده، وقال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة الله وخالقه ثم هوى حجرًا فعبده ما حاله عندي؟ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: حافظًا، يقول: أفأنت عليه كفيل تحفظه من اتباع هواه وعبادة ما يهوى من دون الله؟ أي: لست كذلك، قال الكلبي: نسختها آية القتال.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ما تقول، سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من الحجج والإعلام ﴿إِنْ هُمْ﴾ ما هم ﴿إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق، ولا يطيعون ربَّهم الذي خلقهم ورزقهم؛ ولأن الأنعام تسجد وتسبح لله وهؤلاء الكفار لا يفعلون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ معناه: ألم ترَ إلى مَدِّ ربِّك الظلَّ، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدودًا؛ لأنه ظل لا شمس معه، كما قال في ظل الجنة: «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ»[الواقعة: ٣٠]؛ إذ لم يكن معه شمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ دائمًا ثابتًا لا يزول ولا تذهبه الشمس، قال أبو عبيدة: «الظل»: ما نسخته الشمس، وهو بالغداة، و«الفيء» ما نسخ الشمس، وهو بعد الزوال، سُمِّي فيئًا؛ لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: على الظل، ومعنى دلالتها عليه: أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ يعني: الظل ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ بالشمس التي تأتي عليه، و«القبض»: جمع المنبسط من الشيء، معناه: أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظلَّ جزءًا فجزءًا «قبضًا يسيرًا»، أي: خفيًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: سترًا تستترون به، ويريد: أن ظلمته تغشى كل شيء كاللباس الذي يشتمل على لابسه ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً لأبدانكم وقطعًا لعملكم، وأصل «السبت»: القطع، والنائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله وحركته ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: يقظة وزمانًا تنتشرون فيه لابتغاء الرزق، وتنتشرون لأشغالكم.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يعني: المطر ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾ وهو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، فهو اسم لما يتطهر به، كالسَّحور اسم لما يتسحر به، والفَطور اسم لما يفطر به، والدليل عليه ما روينا أن النبي ﷺ قال في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»(١)، وأراد به المطهِّر، فالماء مطهر؛ لأنه يطهر الإنسان من الحَدَث والنجاسة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[الأنفال: ١١]، فثبت به أن التطهير يختص بالماء.

وذهب أصحاب الرأي إلى أن «الطهور» هو الطاهر، حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة، مثل الخل وماء الورد والمرق ونحوها(٢).

ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها.

وذهب بعضهم إلى أن «الطهور» ما يتكرر منه التطهير، كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر، والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر، وهو قول مالك، حتى جوَّز الوضوء بالماء الذي توضأ منه مرة(٣).

وإن وقع في الماء شيء غيَّر طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته؟ نظر: إن كان الواقع شيئًا لا يمكن صون الماء عنه، كالطين والتراب وأوراق الأشجار، لا تزول، فيجوز الطهارة به كما لو تغير لطول المكث في قراره، وكذلك لو وقع فيه ما لا يخالطه، كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته يجوز الطهارة به؛ لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة، وإن كان شيئًا يمكن صون الماء منه ويخالطه كالخل والزعفران ونحوهما تزول طهوريته فلا يجوز الوضوء به.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ٢٢)، وأبو داود في باب الوضوء بماء البحر: (١/ ٨٠)، والترمذي في باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور: (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في الطهارة: (١/ ٥٠، ١٧٦)، وابن ماجه في الوضوء بماء البحر: (١/ ١٣٦، ١٣٧)، وصححه الحاكم: (١/ ١٤٠)، وابن حبان: برقم١١٩، وابن خزيمة: (١/ ٥٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٥٥).

قال الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث؟ فقال: هو حديث صحيح.

قال البيهقي: وإنما لم يخرجه البخاري ومسلم بن الحجاج في «الصحيح»؛ لأجل اختلافٍ وقع في اسم سعيد بن سلمة والمغيرة بن أبي بردة.

انظر: «تلخيص الحبير»: (١/ ٩).

(٢) قال الجصاص في «أحكام القرآن»(٥/ ٢٠١): (الطَّهور، على وجه المبالغة في الوصف له بالطهارة وتطهير غيره، فهو طاهر مطهر، كما يقال: رجل ضَروب وقتول، أي: يضرب ويقتل، وهو مبالغة في الوصف له بذلك).

(٣) في «المدونة»(١/ ٤): (وقال مالك: لا يتوضأ بماء قد توضىء به مرة، قال: ولا خير فيه . . .).

قلت: فلو لم يجد رجل ماءً إلّا ما قد توضىء به مرة، أيتيمم أم يتوضأ بما قد توضىء به مرة؟ قال: يتوضأ بذلك الماء الذي قد توضىء به مرة أحبّ إليّ إذا كان الذي توضأ به طاهرًا).

﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

وإن لم يتغير أحد أوصافه، ينظر: إن كان الواقع فيه شيئًا طاهرًا لا تزول)[١] طهوريته، فتجوز الطهارة به، سواء كان الماء قليلًا أو كثيرًا، وإن كان الواقع فيه شيئًا نجسًا، ينظر: فإن كان الماء قليلًا أقل من القلتين ينجس الماء، وإن كان قدر قلتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به، والقلتان: خمس قرب، ووزنه خمسمائة رطل، والدليل عليه ما:

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، حدثنا عبد الرحيم بن المنيب، أخبرنا جرير، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه سئل عن الماء يكون في الفلاة وما يَرِدُه من الدوابِّ والسِّباع؟ فقال: «إذا كان الماء قُلَّتين ليس يحمل الخبث»[٢]، وهذا قول الشافعي وأحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث: أن الماء إذا بلغ هذا الحدّ لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه[٣].

وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه، وهو قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري، واحتجوا بما:

أخبرنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد الحنفي، أخبرنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري، حدثنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم، حدثنا أبو الموجه محمد بن عمرو بن الموجه، حدثنا صدقة بن الفضل، / أخبرنا أبو أسامة، عن الوليد بن كثير، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن رافع بن خديج، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقى فيه الحِيَض ولحوم الكلاب والنتن، فقال رسول الله ﷺ: «إن الماءَ طَهُورٌ لا ينجِّسُه شيء»[٤]. ٤٧/أ

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ولم يقل: «ميتة»؛ لأنه رجع به إلى الموضع والمكان ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: نسقي من ذلك الماء أنعامًا ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: بشرًا

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب ما ينجس من الماء: (١/ ٥٦)، والترمذي في باب الماء لا ينجسه شيء: (١/ ٢١٥)، والنسائي في باب التوقيت في الماء: (١/ ٤٦)، وابن ماجه في مقدار الماء الذي لا ينجس: (١/ ١٧٢)، والدارمي في الوضوء: (١/ ١٨٧)، وابن خزيمة: (١/ ٤٩)، والشافعي في «الأم»: (١/ ٤)، والإمام أحمد: (٢/ ٢٧).

(٣) انظر بالتفصيل: «الأوسط في السنن والإجماع» لابن المنذر: (١/ ٢٦٠، وما بعدها).

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب ما جاء في بئر بُضاعة: (١/ ٧٣)، والترمذي في باب ما جاء أن الماء طهور لا ينجسه شيء: (١/ ٢٠٣-٢٠٥) وقال: (هذا حديث حسن، وقد جوَّد أبو أسامة هذا الحديث فلم يرو أحد حديث أبي سعيد في بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي سعيد)، وأخرجه النسائي في باب ذكر بئر بضاعة: (١/ ١٧٤)، وابن ماجه: (١/ ١٧٣)، والشافعي: (١/ ١٢) من ترتيب «المسند»، والدارقطني: (١/ ١٣)، والإمام أحمد: (٣/ ٣١، ٨٦)، وصححه الحاكم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

كثيرًا، والأناسي: (جمع أنسي، وقيل)[1]: جمع إنسان، وأصله: «أناسين»، مثل: بستان وبساتين، فجعل الياء عوضًا عن النون.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: المطر، مرة ببلدة ومرة ببلد آخر، قال ابن عباس: ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض، وقرأ هذه الآية[2]، وهذا كما روي مرفوعًا: «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلّا السماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء»[2].

وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل ويلغوا به ابن مسعود يرفعه قال: «ليس من سنة بأمطر من أخرى، ولكنَّ الله قسم هذه الأرزاق، فجعلها في السماء الدنيا، في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حوَّل الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعًا صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار»[2].

وقيل: المراد من تصريف المطر تصريفه وابلًا وطلًا ورذاذًا ونحوها، وقيل: التصريف راجع إلى الريح.

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ جحودًا، وكفرانهم: هو أنهم إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك بن أنس، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأمّا من قال: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[3].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) صححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٤٠٣)، وأخرجه الطبري: (١٩/ ٢٢)، من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه الطبري أيضًا من رواية ابن مسعود موقوفًا. قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٢٢: (... وفي الباب عن ابن مسعود، أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه، وقال: لا يتابع على رفعه، ثم أخرجه موقوفًا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة، وقال: هذا أولى، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعًا).
وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٦٤)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه مالك في الاستسقاء، باب الاستمطار بالنجوم: (١/ ١٩٢)، والبخاري في الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذِّبون﴾: (٢/ ٥٢٢) وفي الصلاة والمغازي والتوحيد، ومسلم في الإيمان، باب كفر من قال: مطرنا بالنوء برقم٧١: (١/ ٨٣-٨٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤١٩).

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ رسولًا ينذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها، وحملناك ثقل النذارة جميعها، لتستوجب بصبرك عليه ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ شديدًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلطهما، وأفاض أحدهما في الآخر، وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخلاهما كما يرسل الخيل في المرج، وأصل «المرج»: الخلط والإرسال، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى، وخليتها تذهب حيث تشاء ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، و«الفرات»: أعذب المياه ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، وقيل: «أجاج»، أي: مرّ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا بقدرته؛ لئلا يختلط العذب بالملح، ولا الملح بالعذب ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: سترًا ممنوعًا، فلا يبغيان، ولا يفسد الملحُ العذْبَ.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾ من النطفة ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: جعله ذا نسب وصهر، قيل: «النسب» ما لا يحل نكاحه، و«الصهر»: ما يحل نكاحه، فالنسبُ ما يوجب الحرمة، والصهرُ ما لا يوجبها، وقيل - وهو الصحيح -: النسب: من القرابة، والصهر: الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرم للنكاح، وقد ذكرنا أن الله تعالى حرّم بالنسب سبعًا وبالسبب سبعًا، في قوله[1]: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[النساء: ٢٣]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: هؤلاء المشركين ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ أي: معينًا للشيطان على ربه بالمعاصي، قال الزَّجاج: أي: يعاون الشيطان على معصية الله؛ لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان، وقيل: معناه: وكان الكافر على ربه ظهيرًا، أي: هينًا ذليلًا، كما يقال للرجل: جعلني بظهير، أي: جعلني هينًا، ويقال: ظهرت به، إذا جعله خلف ظهره، فلم يلتفت إليه.

---

(١) انظر فيما سبق: (١/ ٥٠٠).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى
ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ
أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ٦٠﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ أي: منذرًا.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على تبليغ الوحي ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ فتقولوا: إنما يطلب محمدٌ أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتبعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾ هذا من الاستثناء المنقطع، مجازه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا بالإنفاق من ماله في سبيله فعل ذلك، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجرًا، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ أي: صلِّ له شكرًا على نعمه، وقيل: قل سبحان الله، والحمد لله ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ عالمًا، فيجازيهم بها.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ بالرحمن، قال الكلبي: يقول: فاسألِ الخبير (بذلك، يعني: بما ذكرت من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش، وقيل)[1]: الخطاب للرسول والمراد منه غيره؛ لأنه كان مصدقًا به، والمعنى: أيها الإنسان لا ترجع في طلب العلم بهذا إلى غيري، وقيل: الباء بمعنى «عن»، أي: فاسأل عنه خبيرًا وهو الله عزَّ وجلَّ، وقيل: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ما نعرف الرحمن إلَّا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب، كانوا يسمونه رحمن اليمامة ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي «يأمرنا» بالياء، أي: لما يأمرنا محمد بالسجود له، وقرأ الآخرون بالتاء، أي: لما تأمرنا أنت يا محمد ﴿وَزَادَهُمۡ﴾ يعني: زادهم قول القائل لهم: «اسجدوا للرحمن» ﴿نُفُورٗا ۩ ٦٠﴾ عن الدين والإيمان.

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

٤٧/ب قوله عزَّ وجلَّ: / ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة: «البروج»: هي النجوم الكبار، سميت بروجًا لظهورها، وقال عطية العوفي: «بروجًا»، أي: قصورًا فيها الحرس[1]، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨].

وقال عطاء عن ابن عباس: هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشترى، والجدي والدلو بيتا زحل، وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمس، كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦]، وقرأ حمزة والكسائي «سُرُجًا» بالجمع، يعني: النجوم ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ والقمر قد دخل في «السُّرج» على قراءة من قرأ بالجمع، غير أنه خصه بالذِّكر لنوع فضيلة، كما قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[الرحمن: ٦٨]، خصَّ النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في الفاكهة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ اختلفوا فيها، قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني: خلفًا وعوضًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر.

قال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، قال: فاتتني الصلاةُ الليلةَ، فقال: أدرِكْ ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عزَّ وجلَّ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكَّر[2].

(قال مجاهد: يعني: جعل كل واحد منهما مخالفًا لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض[3].

---

(١) ذكر القولين الطبري: (١٩/ ٢٩ ـ ٣٠)، ورجح أن البروج هي قصور في السماء؛ لأن ذلك في كلام العرب، كما في قوله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، وقول الأخطل: (كأنها بُرْجُ روميّ يشيّده ... بانٍ بجصٍّ وآجُرٍّ وأحجار)
يعني بالبروج: القصر.

(٢) أخرجه الطبري: (١٩/ ٣٠)، والجصاص في «أحكام القرآن»: (٥/ ٢١٢).

(٣) الطبري: (١٩/ ٣١)، الجصاص: (٥/ ٢١٢).

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾

وقال ابن زيد وغيره)[١]: يعني: يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان في الضياء والظلمة والزيادة والنقصان[٢].

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ قرأ حمزة بتخفيف الذال والكاف وضمها من الذكر، وقرأ الآخرون بتشديدهما، أي: يتذكر ويتعظ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ قال مجاهد: أي: شكر نعمة ربّه عليه فيهما.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: أفاضل العباد، وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلَّا فالخلق كلهم عباد الله ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين، وإن سُفه عليهم حلموا، و«الهَوْن» في اللغة: الرفق واللين[٣].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ يعني: السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾ قال مجاهد: سدادًا من القول[٤]، وقال مقاتل بن حيان: قولًا يسلمون فيه من الإثم، وقال الحسن: إن جهل عليهم جاهل حلموا ولم يجهلوا، وليس المراد منه السلام المعروف، وروي عن الحسن: معناه: سلموا عليهم، دليله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ﴾[القصص: ٥٥].

قال الكلبي وأبو العالية: هذا قبل أن يؤمر بالقتال، ثم نسختها آية القتال[٥].

وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف نهارهم، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾، قال: هذا وصف ليلهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ يقال لمن أدرك الليل: بات، نام أو لم ينم، يقال: بات فلانًا قَلِقًا، والمعنى: يبيتون لربهم بالليل في الصلاة ﴿سُجَّدًا﴾ على وجوههم ﴿وَقِيَامًا (٦٤)﴾ على أقدامهم، قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا[٦].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو نعيم، عن سفيان، عن عثمان بن حكيم،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٢) الطبري: (١٩/ ٣١)، الجصاص: (٥/ ٢١٢).
(٣) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٩/ ٣٣-٣٤).
(٤) ورجحه الطبري: (١٩/ ٣٤)، والأقوال الآتية لا تنافي ذلك.
(٥) انظر فيما سبق: (١/ ٦٥٣)، تعليق (١).
(٦) انظر: «مجمع الزوائد»: (٢/ ٢٣١).

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: مُلِحًّا دائمًا لازمًا غير مفارقٍ من عذب به من الكفار، ومنه سمي الغريم لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إياه، قال محمد بن كعب القرظي: سأل الله الكفار ثمن نعمه فلم يؤدوا فأغرمهم فيه، فبقوا في النار، قال الحسن: كل غريم يفارق غريمه إلَّا جهنَّم، و«الغَرَام»: الشر اللازم، وقيل: «غرامًا» هلاكًا.

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: بئس موضع قرار وإقامة.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة «يقتروا» بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء، وكلها لغات صحيحة، يقال: أقتر وقتَّرَ بالتشديد، وقتر يَقْتُرُ.

واختلفوا في معنى الإسراف والإقتار، فقال بعضهم: «الإسراف»: النفقة في معصية الله وإن قلَّتْ، و«الإقتار»: منع حق الله تعالى، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج، وقال الحسن في هذه الآية: لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله[٢].

وقال قوم: «الإسراف»: مجاوزة الحد في الإنفاق، حتى يدخل في حد التبذير، و«الإقتار»: التقصير عمَّا لا بدَّ منه، وهذا معنى قول إبراهيم: لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف[٣].

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ قصدًا وسطًا بين الإسراف والإقتار، حسنة بين السيئتين.

قال يزيد بن / أبي حبيب في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ١/٤٨
ولا يلبسون ثوبًا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم،

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة برقم٦٥٦: (١/ ٤٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٣١).

(٢) انظر: الطبري: (١٩/ ٣٧)، الجصاص: (٥/ ٢١٣)، القرطبي: (١٣/ ٧٢-٧٣).

(٣) الطبري: (١٩/ ٣٧-٣٨)، القرطبي: (١٣/ ٧٣)، قال الطبري: (والصواب من القول في ذلك، قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحدَّ الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام: بين ذلك . . .).

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾

ومن الثياب ما يستر عورتهم ويُكِنُّهم من الحر والقر[(١)].

قال عمر بن الخطاب: كفى سرفًا أن لا يشتهي الرجل شيئًا إلَّا اشتراه فأكله[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف بن جريج، أخبرهم قال: قال يعلى وهو يعلى بن مسلم أن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ»[(٣)].

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ ونزل: «قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ»[الزمر: ٥٣]. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ لله نِدًّا وهو خلقك»، قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا»[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: شيئًا من هذه الأفعال ﴿يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنما يريد جزاء الإثم، وقال أبو عبيدة: «الآثام»: العقوبة، وقال مجاهد: «الآثام»: وادٍ في جهنم، يُروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص[(٥)].

---

(١) أخرجه عنه الطبري: (١٩/ ٣٨)، وانظر: القرطبي: (١٣/ ٧٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر بن الخطاب، وهذا منقطع من طريقه، رواه الثعلبي، وأحمد في «الزهد» عن إسماعيل عن يونس عن الحسن كذلك، ورواه ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي في «الشعب» من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، والأول أصح. انظر: «الكافي الشاف» لابن حجر: ص١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، سورة الفرقان: (٨/ ٤٩٤)، ومسلم في الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله برقم١٢٢: (١/ ١١٣)، وفي التفسير برقم١٩: (٤/ ٢٣١٨)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٨٦.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان، باب ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: (٨/ ٤٩٢).

(٥) انظر: الطبري: (١٩/ ٤٤ ـ ٤٥)، وهو أيضًا قول مجاهد وعكرمة، وانظر: «الزهد» للإمام هناد: (١/ ٣٦٩) مع تعليق المحقق.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾

ويروى في الحديث: «الغي والآثام بئران يسيل فيها صديد أهل النار»[1].

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر «يضاعفُ» و«يخلدُ» برفع الفاء والدال على الابتداء، وشدَّد ابنُ عامر «يضعّف»، وقرأ الآخرون بجزم الفاء والدال على جواب الشرط.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ قال قتادة: إلا من تاب من ذنبه، وآمن بربه، وعمل عملًا صالحًا فيما بينه وبين ربه.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله، حدثنا موسى بن محمد، حدثنا موسى بن هارون الحمال، حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي، حدثنا عبد الله بن رجاء، عن عبيد الله بن عمر، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباسٍ قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنتين: «وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...» الآية، ثم نزلت: «إِلَّا مَن تَابَ»، فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط كفرحه بها، وفرحه بـ: «إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»[2] [الفتح: ١-٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدي والضحاك: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا[3].

وقال قوم: يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسناتٍ يوم القيامة[4]، وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول، يدل عليه ما:

---

(١) أخرجه الطبري من حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - مطولًا: (١٩/ ٤٤-٤٥).

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٨٤): (رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثِّقا وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات، وله حديث في «الصحيح» غير هذا)، وزاد السيوطي نسبته لابن المنذر وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٧٩).

(٣) انظر: الطبري: (١٩/ ٤٦-٤٧).

(٤) أخرجه الطبري: (١٩/ ٤٧) عن سعيد، وقال: (وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، قول من تأوله: فأولئك يبدل الله سيئاتهم: أعمالهم في الشرك حسناتٍ في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى... لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القُبح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب - إن فعل ذلك كذلك - أن يصير شرك الكافر الذي كان شركًا في الكفر بعينه إيمانًا يوم القيامة بالإسلام، ومعاصيه كلها طاعة، وذلك ما لا يقوله ذو حِجًا).

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢﴾

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أبي أحمد الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو عمار الحسين بن خريت، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطُوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: ربِّ إنَّ لي ذنوبًا ما أراها هاهنا»، قال أبو ذر: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذه[(١)].

وقال بعضهم: إن الله عزَّ وجلَّ يمحو بالندم جميع السيئات، ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال بعض أهل العلم: هذا في التوبة عن غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا، يعني: من تاب من الشرك وعمل صالحًا، أي: أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يَزْنِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يعود إليه بعد الموت ﴿مَتَابًا ۝٧١﴾ حسنًا يفضل به على غيره ممن قتل وزنى، فالتوبة الأولى وهو قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ رجوعٌ عن الشرك، والثاني رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

وقال بعضهم: هذه الآية أيضًا في التوبة عن جميع السيئات، ومعناه: ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتُبْ لوجه الله.

وقوله: ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خبر بمعنى، أي: ليتب إلى الله، وقيل: معناه: فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال الضحاك وأكثر المفسرين: يعني: الشرك[(٢)]، وقال علي بن طلحة: يعني: شهادة الزور، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، ويطوف به في السوق[(٣)]، وقال ابن جريج: يعني: الكذب[(٤)]، وقال مجاهد: يعني: أعياد المشركين[(٥)]، وقيل: النَّوْح[(٦)]، قال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل / على باطلهم[(٧)]، وقال محمد بن الحنفية: لا يشهدون ٤٨/ب

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم ١٩٠: (١/ ١٧٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٩٢).

(٢) أخرجه الطبري: (١٩/ ٤٨)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك. «الدر المنثور»: (٦/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (٨/ ٣٢٦، ٣٢٧)، والبيهقي في «السنن»: (١٠/ ١٤٢).

(٤) الطبري: (١٩/ ٤٩)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٨٢).

(٥) وهو ما رواه الخطيب عن ابن عباس. «الدر المنثور»: (٦/ ٢٨٢).

(٦) وهو مروي عن الحسن. «الدر المنثور»: (٦/ ٢٨٣).

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في «الدر»: (٦/ ٢٨٣).

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

اللهو والغناء[1]، قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع»[2].

وأصل «الزُّور» تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق[3].

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾ قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد، نظيره قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾[القصص: ٥٥]، قال السدي: وهي منسوخة بآية القتال[4]. قال الحسن والكلبي: «اللغو»: المعاصي كلها، يعني: إذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كرامًا مسرعين معرضين، يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه[5].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ﴾ لم يقعوا ولم يسقطوا ﴿عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾ كأنهم صم عمي، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه، قال القتيبي[6]: لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ قرأ بغير ألفٍ: أبو عمرو والكسائي وأبو بكر، وقرأ الباقون بالألف على الجمع ﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ أي: أولادًا أبرارًا أتقياء، يقولون: اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك، قال القرظي: ليس شيء أقرَّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزَّ وجلَّ،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه البيهقي في «السنن» موقوفًا على ابن مسعود: (١٠/ ٢٢٣)، ورواه في «الشعب» مرفوعًا عن جابر، وروى عبد الرزاق القطعة الأولى منه عن إبراهيم في «المصنف»: (١١/ ٤). قال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٤/ ١٩٩): (رواه أبو داود بدون التشبيه، والبيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعًا، وفيه شيخ لم يُسَمَّ، ورواه البيهقي أيضًا موقوفًا، وفي الباب عن أبي هريرة رواه ابن عدي، وقال ابن طاهر: (أصح الأسانيد في ذلك أنه من قول إبراهيم)، وعزاه الألباني في «تعليقه على المشكاة»: (٣/ ١٣٥٥) لابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» بإسناد ضعيف.
وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني: ص٢٥٤، «كشف الخفاء»: (٢/ ١٠٣).

(٣) قال الطبري عقب ذلك (١٩/ ٤٩): (والشرك قد يدخل في ذلك؛ لأنه محسَّن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء؛ لأنه أيضًا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضًا قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن سامعه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور.
فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئًا من الباطل، لا شركًا، ولا غناء ولا كذبًا ولا غيره، وكلّ ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عمَّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخصَّ من ذلك شيء إلَّا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل).

(٤) راجع فيما سبق التعليق على نحو هذا: (١/ ٦٥٣)، تعليق (١).

(٥) انظر: تأويل الطبري وترجيحه أيضًا: (١٩/ ٥٠).

(٦) انظر: «القرطين» لابن مطرف: (٢/ ٥١ـ ٥٢).

﴿أُولَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾﴾

وقاله الحسن، ووحَّد القُرَّةَ؛ لأنها مصدر، وأصلها من البرد؛ لأن العرب تتأذى من الحر وتستروح إلى البرد، وتذكر قرة العين عند السرور، وسخنة العين عند الحزن، ويقال: دمع العين عند السرور بارد، وعند الحزن حار، وقال الأزهري: معنى قرة الأعين: أن يصادف قلبه من يرضاه، فتقر عينه به عن النظر إلى غيره.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: أئمة يقتدون في الخير بنا، ولم يقل: أئمة، كقوله تعالى: «إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ»[الشعراء: ١٦]، وقيل: أراد أئمة، كقوله: «فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ»[الشعراء: ٧٧]، أي: أعداء، ويقال: أميرنا هؤلاء، أي: أمراؤنا، وقيل: لأنه مصدر كالصيام والقيام، يقال: أمَّ إمامًا، كما يقال: قام قيامًا، وصام صيامًا، قال الحسن: نقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون، وقال ابن عباس: اجعلنا أئمة هداة، كما قال: «وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ»[السجدة: ٢٤]، ولا تجعلنا أئمة ضلالة كما قال: «وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ»[القصص: ٤١]، وقيل: هذا من المقلوب، يعني: واجعل المتقين لنا إمامًا، واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم، وهو قول مجاهد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ﴾ أي: يثابون ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ أي: الدرجة الرفيعة في الجنة، و«الغرفة»: كل بناء مرتفع عالٍ، وقال عطاء: يريد غرف الدر والزبرجد والياقوت في الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على أمر الله تعالى وطاعته، وقيل: على أذى المشركين، وقيل: عن الشهوات ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الياء وتخفيف القاف، كما قال: «فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا»[مريم: ٥٩]، وقرأ الآخرون بضم الياء وتشديد القاف كما قال: «وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا»[الإنسان: ١١]، وقوله: ﴿تَحِيَّةٗ﴾ أي: مُلكًا، وقيل: بقاءً دائمًا ﴿وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ أي: يسلم بعضهم على بعض، وقال الكلبي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام، ويرسل الرب إليهم بالسَّلام، وقيل: «سلامًا»، أي: سلامة من الآفات.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾﴾ أي: موضع قرار وإقامة.

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ قال مجاهد وابن زيد: أي: ما يصنع وما يفعل بكم، قال أبو عبيدة: يقال: ما عبأت به شيئًا، أي: لم أعدّه، فوجوده وعدمه سواء، مجازه: أيّ وزن وأيّ مقدار لكم عنده ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ إيّاه، وقيل: لولا إيمانكم، وقيل: لولا عبادتكم، وقيل: لولا دعاؤه إيّاكم إلى الإسلام، فإذا آمنتم ظهر لكم قدر.

وقال قوم: معناه: قل ما يعبأ بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم إيَّاه، يعني: إنه خلقكم لعبادته، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، وهذا قول ابن عباس ومجاهد.

وقال قوم: «قلْ ما يعبأ» ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة، أو ما يفعل بعذابكم لولا شرككم، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[النساء: ١٤٧].

وقيل: ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إيَّاه في الشدائد، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، وقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام: ٤٢].

وقيل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، يقول: ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلَّا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون، يخاطب أهل مكة، يعني: إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوه ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ۝٧٧﴾ هذا تهديده لهم، أي: يكون تكذيبكم لزامًا، قال ابن عباس: موتًا، وقال أبو عبيدة: هلاكًا، وقال ابن زيد: قتالًا، والمعنى: يكون التكذيب لازمًا لمن كذب، فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله، وقال ابن جرير[1]: عذابًا دائمًا لازمًا وهلاكًا مقيمًا يلحق بعضكم ببعض.

واختلفوا فيه، فقال قوم: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وهو قول عبد الله بن مسعود وأُبيِّ بن كعب ومجاهد ومقاتل، يعني: أنهم قتلوا يوم بدر، واتصل بهم عذاب الآخرة لازمًا لهم.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عمر بن حفص بن غياث، أخبرنا أبي، أخبرنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدُّخَان، والقمر، والرُّوم والبَطْشَةُ، واللِّزام»[2]، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾.

وقيل: اللزام هو عذاب الآخرة.

* * *

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٩/٥٦ـ٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان، باب ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾: (٨/٤٩٦)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان برقم٢٧٩٨: (٤/٢١٥٧).

سورة الشُّعَراء

مكية إلَّا أربع آيات من آخر السورة من قوله تعالى: «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ»[(١)].

وروينا عن ابن عباس / أن النبي ﷺ قال: «أعطيت طه والطواسين من (اللوح المحفوظ)»[(٢)]. ١/٤٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: طِسَمَ، وطِسَ، وحِمَ، ويِسَ بكسر الطاء والياء والحاء، وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر، وقرأ الآخرون بالفتح مع التفخيم، وأظهر النون في يس عند الميم من «طسم»: أبو جعفر وحمزة، وأخفاها الآخرون.

وروي عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «طسٓمٓ» عجزت العلماء عن تفسيرها، وروى علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أنه قَسَمٌ، وهو من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد: اسم للسورة، قال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله[(٣)] بطَوْله وسنائه ومُلكه[(٤)].

---

(١) أخرج ابن مردويه وابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: سورة الشعراء نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٨٨).

(٢) في «ب»: (ألواح موسى). والحديث عزاه السيوطي في «الدر»: (٥/ ٥٤٨) لابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه البيهقي في «السنن»: (١٠/ ٩) مطولًا عن معقل بن يسار، وكذلك الحاكم: (١/ ٥٦١)، قال الذهبي: (عبيد الله بن أحمد تركوا حديثه). قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٠): (رواه الطبراني في «الكبير»، وله إسنادان، في أحدهما: عبد الله بن أبي حميد، وقد أجمعوا على ضعفه، وفي الآخر: عمران القطان، ذكره ابن حبان في «الثقات» وضعّفه الباقون). وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية»: (٣/ ٢٨٣) لأبي يعلى، وذكره ابن حبان في «المجروحين»: (٢/ ٦٥).

(٣) لفظ الجلالة ساقط من «أ».

(٤) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. انظر فيما سبق: (١/ ١١ ـ ١٢).

وساق الحافظ ابن كثير الأقوال في الحروف المقطعة وخلاف العلماء في تفسيرها والحكمة التي اقتضت إيرادها، واستبعد ما لا يساعده الدليل، وقال: (وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازيُّ في «تفسيره» عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبيُّ عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في «كشافه» ونصره أتمَّ نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية). انظر: «تفسير ابن كثير»: (١/ ٣٦ ـ ٣٩).

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه الآيات ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ قاتل نفسك ﴿ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ أي: إن لم يؤمنوا، وذلك حين كذبه أهل مكة فشقَّ عليه ذلك، وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ قال قتادة: لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها، فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله، وقال ابن جريج: معناه: لو شاء الله لأراهم أمرًا من أمره، لا يعمل أحد منهم بعده معصية.

وقوله عزَّ وجلَّ: «خَٰضِعِينَ»، ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق، وفيه أقاويل: أحدها: أراد أصحاب الأعناق، فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم؛ لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، فجعل الفعل أولًا للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال.

وقال الأخفش: ردَّ الخضوع على المضمر الذي أضاف الأعناق إليه.

وقال قوم: ذكَّر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله «هم»، على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث.

وقيل: أراد: فظلوا خاضعين فعبَّر بالعنق عن جميع البدن، كقوله: «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ»[الحج: ١٠]، «أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ»[الإسراء: ١٣].

وقال مجاهد: أراد بالأعناق الرؤساء والكبراء، أي: فظلت كبراؤهم خاضعين، وقيل: أراد بالأعناق الجماعات، يقال: جاء القوم عنقًا عنقًا، أي: جماعات وطوائف.

وقيل: إنما قال خاضعين على وفاق رؤوس الآي ليكون على نسق واحد[1].

(١) قال أبو جعفر الطبري (١٩/ ٦٢): (وأولى الأقوال في ذلك وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك: أن تكون الأعناق هي أعناق الرجال، وأن يكون معنى الكلام: فظلت أعناقهم ذليلة للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء، وأن يكون قوله: «خاضعين» مذكَّرًا؛ لأنه خبر عن الهاء والميم في الأعناق، فيكون ذلك نظير قول جرير:

أرى مرَّ السنينَ أخذْنَ منِّي كما أخذ السِّرارُ من الهلالِ

وذلك أن قوله: «مرّ» لو أسقط من الكلام لأدى ما بقي من الكلام عنه لم يفسد سقوطه معنى الكلام عما كان به قبل سقوطه، وكذلك لو أسقطت الأعناق من قوله: «فظلت أعناقهم» لأدى ما بقي من الكلام عنها، وذلك أن الرجال إذا ذلُّوا، فقد ذلت رقابهم، وإذا ذلت رقابهم فقد ذلّوا).

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ
ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ وعظ وتذكير ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ أي: محدث إنزاله، فهو محدث في التنزيل، قال الكلبي: كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: عن الإيمان به.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي: فسوف يأتيهم ﴿أَنبَاءُ﴾ أخبار وعواقب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف وضرب ﴿كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام، يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها، وناقة كريمة إذا كثر لبنها، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَآيَةً﴾ دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ مصدِّقين، أي: سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون، وقال سيبويه: «كان» هاهنا صلة، مجازه: وما أكثرهم مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ العزيز بالنقمة من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ ذو الرحمة بأوليائه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ واذكر يا محمد، إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ يعني: الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ الا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

﴿قَالَ﴾ يعني: موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إيَّاي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ قال: هذا للعقدة التي كانت على لسانه، قرأ يعقوب «ويضيقَ» «ولا ينطلقَ» بنصب القافين على معنى: وأن يضيق، وقرأ العامة برفعهما ردًّا على قوله: «إني أخاف» ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾﴾ ليؤازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة.

---

(١) أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. «الدر المنثور»: (٦/ ٢٨٩).

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ أي: دعوى ذنب، وهو قتله القبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ أي: يقتلونني به.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لن يقتلوك ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ سامعون ما يقولون، ذكر «معكم» بلفظ الجمع، وهما اثنان، أجراهما مجرى الجماعة، وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ولم يقل: رسولا رب العالمين؛ لأنه أراد الرسالة، أي: أنا ذُو رسالة رب العالمين، كما قال كُثَيِّر:

لقد كَذَبَ الوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِندَهُمْ بِسِـرٍّ ولا أَرْسَلْتُهُـمْ بِـرَسُـولِ[1]

أي: بالرسالة، وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي وهذان وهؤلاء رسولي ووكيلي، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[الكهف: ٥٠]، وقيل: معناه: كل واحد منّا رسول رب العالمين[2].

﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ أي: بأن أرسلْ ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفًا، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك.

وفي القصة: أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصا، والمِكْتَلُ معلّق في رأس العصا، وفيه زاده، فدخل دار نفسه وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون، وأرسلني إليك حتى تدعوَ فرعون
٤٩/ب إلى الله، فخرجتْ أمهما / وصاحت وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك، فلو ذهبتما إليه قتلكما، فلم يمتنع موسى لقولها، وذهبا إلى باب فرعون ليلًا، ودقَّا الباب، ففزع البوَّابون وقالوا: مَن بالباب؟

وروي أنه اطلع البواب عليهما فقال: مَن أنتما؟ فقال موسى: أنا رسول رب العالمين، فذهب البواب إلى فرعون وقال: إنَّ مجنونًا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين، فترك حتى أصبح، ثم دعاهما.

وروي أنهما انطلقا جميعًا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البواب فقال لفرعون: هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه، فدخلا عليه وأدّيا رسالة الله عزَّ وجلَّ، فعرف فرعونُ موسى؛ لأنه نشأ في بيته.

---

(١) البيت هذا لكُثَيِّر عزة، وقد استشهد به الطبري: (١٩/ ٦٥)، وأبو عبيدة: (٢/ ٨٤)، وابن منظور في «اللسان»، مادة: (رسل).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٨). (٣) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٢٩٢).

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ صبيًا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ وهو ثلاثون سنة.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ قال الحسن والسدي: يعني: وأنت من الكافرين بإلهك وكنت على ديننا هذا الذي تعيبه.

وقال أكثر المفسرين: معنى قوله: «وأنت من الكافرين»، أي: من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي، يقول: ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منّا نفسًا، وكفرت بنعمتنا، وهذا رواية العوفي عن ابن عباس، وقال: إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية[1].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أي: فعلت ما فعلت حينئذ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: من الجاهلين، أي: لم يأتني من الله شيء[2]، وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله، وقيل: من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد، وقيل: من المخطئين.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ إلى مدين ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني: النبوة، وقال مقاتل: يعني: العلم والفهم ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ اختلفوا في تأويلها، فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار.

فمن قال هو إقرار، قال عدّها موسى نعمة منه عليه حيث ربّاه، ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل، مجازه: بلى وتلك نعمة عليَّ أن عبّدت بني إسرائيل، وتركتني فلم تستعبدني.

ومن قال: هو إنكار، قال قوله: «وتلك نعمة» هو على طريق[3] الاستفهام، أي: أَوَتلك نعمة؟ حذف ألف الاستفهام، كقوله: «فَهُمُ الْخَالِدُونَ»[الأنبياء: ٣٤]؟ قال الشاعر[4]:

---

(١) وهو ما رجحه الطبري: (١٩/ ٦٦)، فتأويل الكلام إذن: وقتلت الذي قتلت منّا وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه، وقد قيل: معنى ذلك: وأنت الآن من الكافرين لنعمتي عليك وتربيتي إيّاك.

(٢) اعتمده الطبري ولم يذكر غيره: (١٩/ ٦٧).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) هو امرؤ القيس، والبيت في الطبري: (١٦/ ٦٩).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

تَـرُوحُ مـن الحـيِّ أو تَبْتَكِـرْ ... ومـاذا يَضُـرُّكَ لـو تَنْتَظِـرْ؟

أي: أتروح من الحي؟

قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة:

لَـمْ أَنْسَ يومَ الرَّحِيْلِ وقْفَتَها ... وطَـرْفُهـا في دمـوعِهـا غَـرِقُ

وقَـولَهـا والـركـابُ واقفـةٌ ... تَتْـرُكُنِـي هكـذا وتَنْطَلِـقُ؟

أي: أتتركني، يقول: تَمُنُّ عليَّ أن ربَّيتني، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟ أو يريد: كيف تمنّ عليَّ بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه ذُلّ، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إليَّ. وقيل: معناه: تمنّ عليَّ بالتربية، وقوله: «أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ»، أي: باستعبادك بني إسرائيل وقتلك أولادهم، دُفعت إليك حتى ربيتني وكفلتني، ولو لم تستعبدهم وتقتلهم كان لي من أهلي من يربيني ولم يُلقوني في اليمّ، فأي نعمة لك عليَّ؟

قوله: «عَبَّدتَّ»، أي: اتخذتهم عبيدًا، يقال: عبَّدتُ فلانًا، وأعبدته، وتعبدته، واستعبدته، أي: اتخذته عبدًا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إليَّ؟ يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه بـ «ما»، وهو سؤال عن جنس الشيء، والله منزَّه عن الجنسية، فأجابه موسى عليه السلام بذكر أفعاله التي يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أنه خالقهما، قال أهل المعاني: أي: كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها فأيقنوا أنَّ إله الخلق هو الله عزَّ وجلَّ، فلما قال موسى ذلك، تحير فرعون في جواب موسى.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه، قال ابن عباس: كانوا خمس مائة رجل عليهم الأسورة، قال لهم فرعون استبعادًا لقول موسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم، فزادهم موسى في البيان ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعني: فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان:

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعون ـ حين لزمته الحجة وانقطع عن الجواب ـ تكبرًا عن الحق: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ من المحبوسين، قال الكلبي: كان سجنه أشد من القتل؛ لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فردًا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئًا، يهوي به في الأرض.

﴿قَالَ﴾ له موسى حين توعده بالسجن: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أي: وإن جئتك ﴿بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ بآية مبينة، ومعنى الآية: أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بينة؟ وإنما قال ذلك موسى؛ لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

﴿قَالَ﴾ له فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ فإنا لن نسجنك حينئذ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ فقال: وهل غيرها؟ ﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﴿يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ وهو يوم الزينة، وروي عن ابن عباس قال: وافق ذلك اليوم يوم السبت، في أول يوم من السنة، وهو يوم النيروز.

﴿وَقِيلَ/ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة؟

﴿لَعَلَّنَا﴾ لكي ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ لموسى، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا
لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ
لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ
بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ من أهل زماننا.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ يتبعكم فرعون وقومه؛ ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر.

وروي عن ابن جريج قال: أوحى الله تعالى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أهل أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن، فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا يدخلوا بيتًا على بابه دم، وسآمرها فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزًا فطيرًا فإنه أسرع لكم ثم أَسْرِ بعبادي

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾

حتى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري، ففعل ذلك، فلما أصبحوا قال فرعون: هذا عمل موسى وقومه، قتلوا أبكارنا من أنفسنا، وأخذوا أموالنا، فأرسل في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في الكرسي العظيم(١).

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٥٣﴾ يحشرون الناس، يعني: الشُّرَطَ ليجمعوا السحرة، وقيل: حتى يجمعوا له الجيش، وذكر بعضهم: أنه كان له ألف مدينة واثنا عشر ألف قرية، وقال لهم:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ عصابة ﴿قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ والشرذمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها شراذم، قال أهل التفسير: كانت الشرذمة الذين قلَّلهم فرعون ستمائة ألف، وعن ابن مسعود قال: كانوا ستمائة وسبعين ألفًا ولا يحصى عدد أصحاب فرعون(٢).

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥﴾ يقال: غاظه وأغاظه وغيظه إذا أغضبه، والغيظ والغضب واحد، يقول: أغضبونا بمخالفتهم ديننا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منَّا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۝٥٦﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة: «حذرون» و«فرهين» بغير ألف، وقرأ الآخرون «حاذرون» و«فارهين» بالألف فيهما، وهما لغتان.

وقال أهل التفسير: حاذرون، أي: مُؤْدُون ومقوون، أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح(٣) ومعنى «حذرون»، أي: خائفون شرهم، وقال الزجاج: «الحاذر»: المستعد، و«الحَذِر»: المتيقظ، وقال الفرَّاء: «الحاذر»: الذي يحذرك الآن، و«الحَذِر»: المخوف، وكذلك لا تلقاه إلَّا حذرًا، والحَذَر: اجتناب الشيء خوفًا منه.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ﴾ وفي القصة: البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل ﴿وَعُيُونٍ ۝٥٧﴾ أنهار جارية.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني: الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، قال مجاهد: سماها كنوزًا؛ لأنه لم يعط حق الله منها، وما لم يعط حق الله منه فهو كنز، وإن كان ظاهرًا، قيل: كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام، كل غلام على فرس عتيق، في عنق كل فرس طوق من ذهب ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ أي: مجلس حسن.

---

(١) انظر: الطبري: (١٩/ ٧٦)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٩٤).

(٢) الطبري: (١٩/ ٧٦)، «زاد المسير»: (٦/ ١٢٥)، «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٧٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٨٠).

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قال المفسرون: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هي المنابر[1]، وذكر بعضهم: أنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف عليهم الأقبية من الديباج مَخُوصة بالذهب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما وصفنا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ بهلاكهم ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ وذلك أن الله تعالى ردَّ بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لحقوهم في وقت إشراق الشمس، وهو إضاءتها، أي: أدرك قومُ فرعون موسى وأصحابَهُ وقت شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، وكسر حمزة الراء من «تراءى» وفتحها الآخرون ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم.

﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بوعد الله إيَّاه: ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ يدلني على طريق النجاة.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فضربه «فانفلق» فانشقَّ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ قطعة من الماء ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ كالجبل الضخم، قال ابن جريج وغيره[2]: لما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح، والبحر يرمي بموج مثل الجبال، فقال يوشع: يا مكلم الله، أين أُمرتَ فقد غشينا فرعون والبحرُ أمامنا؟ قال موسى: هاهنا، فخاض يوشع الماء وجاز البحر، ما يواري حافر دابته الماءُ، وقال الذي يكتم إيمانه: يا مكلم الله، أين أُمرتَ؟ قال: هاهنا، فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزَّبَدُ من شدقيه، ثم أقحمه البحر، فارتسب في الماء، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك، فلم يقدروا، فجعل موسى لا يدري كيف يصنع، فأوحى الله إليه: أنِ اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتلَّ سَرْجه ولا لِبْدُه.

٥٠/ب / ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ يعني: وقرَّبْنا ﴿ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ يعني: قوم فرعون، يقول: قدمناهم إلى البحر، وقربناهم إلى الهلاك، وقال أبو عبيدة: «وأزلفنا»: جمعنا، ومنه ليلة المزدلفة، أي: ليلة الجَمْع، وفي القصة

---

(١) «معاني القرآن الكريم» للنحاس: (٥/ ٨٢)، «الدر المنثور»: (٦/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الطبري: (١٩/ ٨٠).

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ
يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾

أن جبريل كان بين بني إسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بني إسرائيل، ويقولون: ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل، وكان يَزَعُ قوم فرعون، وكانوا يقولون: ما رأينا أحسن زعة من هذا[1].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦﴾ فرعون وقومه، وقال سعيد بن جبير: كان البحر ساكنًا قبل ذلك، فلما ضربه موسى بالعصا اضطرب فجعل يمد ويجزر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ أي: من أهل مصر، قيل: لم يكن آمن من أهل مصر إلَّا آسية امرأة فرعون وحزبيل المؤمن ومريم بنت ناقوسا التي دلت على عظام يوسف عليه السلام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ العزيز في الانتقام من أعدائه، الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم.

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾ أيَّ شيء تعبدون؟

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾ أي: نقيم على عبادتها، قال بعض أهل العلم: إنما قال: «فنظل»؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، يقال: ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢﴾ قال ابن عباس: يسمعون لكم.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ قيل: بالرزق ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ إن تركتم عبادتها.

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ معناه: إنها لا تسمع قولًا، ولا تجلب نفعًا، ولا تدفع ضرًّا، لكن اقتدينا بآبائنا، فيه إبطال التقليد في الدين.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ الأولون.

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم وعبد بن حميد عن مجاهد. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٠٤).

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ أي: أعداء لي، ووحَّده على معنى أن كلَّ معبودٍ لكم عدو لي. فإن قيل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي جمادات؟ قيل: معناه: فإنهم عدوٌّ لي لو عبدتهم يوم القيامة[1]، كما قال تعالى: «سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»[مريم: ٨٢].

وقال الفرّاء[2]: هو من المقلوب، أراد: فإني عدوٌّ لهم؛ لأن من عاديته فقد عاداك.

وقيل: «فإنهم عدو لي» على معنى: إني لا أتولاهم ولا أطلب من جهتهم نفعًا، كما لا يُتَوَلَّى العدو، ولا يُطْلب من جهته النفع.

قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ اختلفوا في هذا الاستثناء، قيل: هو استثناء منقطع، كأنه قال: فإنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي[3]، وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم: كل ما تعبدون أعدائي إلّا ربَّ العالمين[4]، وقيل: إنهم غير معبود لي إلّا ربَّ العالمين، فإني أعبده، وقال الحسين بن الفضل: معناه: إلّا من عَبَد ربَّ العالمين، ثم وصف معبوده فقال:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: يرشدني إلى طريق النجاة.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي: يرزقني ويغذوني بالطعام والشراب، فهو رازقي ومِنْ عنده رزقي.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله من الله، استعمالًا لحسن الأدب كما قال الخَضِرُ: «فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا»[الكهف: ٧٩]، وقال: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا»[الكهف: ٨٢] ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي: يبرئني من المرض.

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ أدخل «ثم» هاهنا للتراخي، أي: يميتني في الدنيا ويحييني في الآخرة.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ أي: أرجو ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أي: خطاياي يوم الحساب، قال مجاهد: هو قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقوله لسارة: «هذه أختي»، وزاد الحسن وقوله للكواكب: «هذا ربي».

---

(١) جعله النحاس من أصح ما قيل في معنى الآية. «معاني القرآن»: (٥/ ٨٧)، الطبري: (١٩/ ٨٤).

(٢) «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٢٨١)، وردَّه أبو حيان في «البحر»: (٧/ ٢٤).

(٣) وهو قول أكثر النحويين. انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٤)، «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٨٦)، «زاد المسير»: (٦/ ١٢٨).

(٤) قاله ابن زيد. «زاد المسير»: (٦/ ١٢٨).

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص بن غياث، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله: ابنُ جدعان، كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين»[(١)].

وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، وإخبار أنه لا يصلح للإلهية من لا يفعل هذه الأفعال.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه، وقال مقاتل: الفهم والعلم، وقال الكلبي: النبوة[(٢)] ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بمن قبلي من النبيين في المنزلة والدرجة.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ثناء حسنًا، وذكرًا جميلًا، وقبولًا عامًّا في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولَّونه ويثنون عليه، قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة؛ لأن القول يكون به.

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: ممن تعطيه جنة النعيم ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ وقال هذا قبل أنه يتبين له أنه عدو لله، كما سبق ذكره في سورة التوبة.

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ لا تفضحني ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: خالص من الشرك والشك[(٣)]، فأمَّا الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسرين، قال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: «فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»[البقرة: ١٠]، قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة المطمئن على السنة[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل برقم ٢١٤: (١/ ١٩٦).

(٢) اعتمده الطبري ولم يذكره غيره، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس، وانظر: الأقوال في: «زاد المسير»: (٧/ ١٣٠).

(٣) انظر: الطبري: (١٩/ ٨٧)، «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٨٨).

(٤) نقل ذلك كله ابن كثير في «تفسيره»: (٣/ ٣٤١). وانظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٣٠).

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قربت ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت ﴿ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ للكافرين.

١/٥١ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يمنعونكم / من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ لأنفسهم ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ قال ابن عباس: جمعوا، وقال مجاهد: دُهْوِرُوا، وقال مقاتل: قذفوا، وقال الزَّجَّاج: طرح بعضهم على بعض، وقال القتيبي: أُلقوا على رؤوسهم ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤﴾ يعني: الشياطين، قاله قتادة ومقاتل، وقال الكلبي: كفرة الجن.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾ وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس، ويقال: ذريته.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: قال الغاوون للشياطين والمعبودين ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦﴾ مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضًا ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نعدلكم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ فنعبدكم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ أي: ما دعانا إلى الضلال ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾ قال مقاتل: يعني: الشياطين، وقال الكلبي: إلَّا أوَّلونا الذين اقتدينا بهم، وقال أبو العالية وعكرمة: يعني: إبليس وابن آدم الأول، وهو قابيل؛ لأنه أول من سنَّ القتل، وأنواع المعاصي ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠﴾ أي: من يشفع لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ أي: قريب يشفع لنا، يقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، والصديق: هو الصادق في المودة بشرط الدين.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، حدثنا محمد بن الحسين اليقطيني، أخبرنا أحمد بن عبد الله يزيد العقيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا من سمع أبا الزبير يقول: أشهد لسمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان، وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي: فما لنا من شافعين ولا صديقٍ حميم»[1].

قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين، فإن لهم شفاعة يوم القيامة.

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير»: (١٣/ ١١٨)، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة وغيرها، وساقه المصنف بإسناده من طريق الثعلبي، وفيه جهالة مَنْ سمع أبا الزبير.

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ
الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ العزيز الذي لا يغالب، فالله عزيزٌ، وهو في وصف عزته رحيم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أرأيت قوله: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾»، و«كذبت عاد المرسلين»، و«كذبت ثمود المرسلين»، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إن الآخر جاء بما جاء الأول، فإذا كذبوا واحدًا فقد كذبوا الرسل أجمعين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ على الوحي.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ قرأ يعقوب «وأتباعك الأرذلون» السفلة، وعن ابن عباس قال: الصاغة، وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله، ولي منهم ظاهرُ أمرهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ ما حسابهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم، قال الزَّجَّاج: الصناعات لا تضر في الديانات، وقيل: معناه أي: لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم، ويوفقهم ويخذلكم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى
وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ قال مقاتل والكلبي: من المقتولين بالحجارة، وقال الضحاك: من المشتومين.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ ﴾ فاحكم ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ حكمًا ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ أي: أغرقنا بعد إنجاء نوح، وأهله: من بقي من قومه.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ يعني: في النسب لا في الدين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾ على الرسالة، قال الكلبي: أمين فيكم قبل الرسالة، فكيف تتهموني اليوم؟

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ قال الوالبي عن ابن عباس: أي: بكل شرف، وقال الضحاك ومقاتل والكلبي: بكل طريق، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وعن مجاهد قال: هو الفجُّ بين الجبلين، وعنه أيضًا، أنه المنظرة ﴿ ءَايَةً ﴾ أي: علامة ﴿ تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ بمَن مرَّ بالطريق، والمعنى: أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم.

وعن سعيد بن جبير ومجاهد: هذا في بروج الحمام أنكر عليهم هود اتخاذها، بدليل قوله: « تَعْبَثُونَ »، أي: تلعبون، وهم كانوا يلعبون بالحمام.

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

وقال أبو عبيدة: الرِّيع: المكان المرتفع[1].

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قال ابن عباس: أبنية، وقال مجاهد: قصورًا مشيدة، وعن الكلبي: أنها الحصون، وقال قتادة: مآخذ الماء، يعني: الحِيَاض، واحدتها: مصنعة[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: كأنكم تبقون فيها خالدين، والمعنى: أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم وسطوتم ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قتلًا بالسيف وضربًا بالسوط، و«الجبَّار»: الذي يقتل ويضرب على الغضب.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: أعطاكم من الخير ما تعلمون، ثم ذكر ما أعطاهم فقال:

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: بساتين وأنهار.

/ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: إن عصيتموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾. ٥١/ب

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ أي: مُسْتَوٍ عندنا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد، قال الكلبي: نهيتنا أم لم تكن من النَّاهين لنا.

﴿ إِنْ هَٰذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب «خَلْق» بفتح الخاء وسكون اللام، أي: اختلاق الأولين وكذبهم، دليل هذه القراءة قوله تعالى: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا» [العنكبوت: ١٧]، وقرأ الآخرون «خُلُق» بضم الخاء واللام، أي: عادة الأولين من قبلنا، وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

---

(١) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٩/ ٩٣ ـ ٩٤)، «زاد المسير»: (٦/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، وقال ابن كثير (٣/ ٣٤٢): (اختلف المفسرون في «الرِّيع» بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جوادِّ الطرق المشهورة، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا، ولهذا قال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾، أي: معلمًا بناء مشهورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا، لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان، في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة).

(٢) قال الطبري (١٩/ ٩٥ ـ ٩٦): (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع بالعذر بأيِّ ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل، فالصواب أن يقال فيه ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ
طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ أي: في الدنيا ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ من العذاب.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها، يريد: ما يطلع منها من الثمر ﴿هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ قال ابن عباس: لطيف، ومنه: هضيم الكشح، إذا كان لطيفًا، وروى عطية عنه: يانع نضيج، وقال عكرمة: هو اللَّيِّن، وقال الحسن: هو الرخو، وقال مجاهد: متهشم متفتت إذا مُسَّ، وذلك أنه ما دام رطبًا فهو هضيم، فإذا يبس فهو هشيم، وقال الضحاك ومقاتل: قد ركب بعضه بعضًا (حتى هضم بعضه بعضًا)[1]، أي: كسره، وقال أهل اللغة: هو المنضمُّ بعضه إلى بعض في وعائه قبل أن يظهر، وقال الأزهري: الهضيم هو الداخل بعضه في بعض من النضج والنعومة، وقيل: هضيم أي: هاضم يهضم الطعام، وكل هذا للطافته[2].

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وقرىء «فَرِهِينَ» قيل: معناهما واحد[3]، وقيل: فارهين، أي: حاذقين بنحتها، من قولهم: فره الرجل فراهة فهو فاره، ومن قرأ «فرهين» قال ابن عباس: أَشِرين بَطِرِين[4]، وقال عكرمة: ناعمين، وقال مجاهد: شرهين، قال قتادة: معجبين بصنيعكم، قال السدي:

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) ذكر هذه الأقوال: الطبري: (١٩/ ٩٩-١٠٠)، ابن الجوزي: (٦/ ١٣٨)، القرطبي: (١٣/ ١٢٨)، وفي الآية أقوال أخرى، قال الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: «الهضيم»: هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتحيَّفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقُّص منه من رطوبته ولينه إما بمسِّ الأيدي وإما بركوب بعضه على بعض، وأصله مفعول صُرِفَ إلى فعيل).

(٣) ذهب إليه أبو عبيدة في «مجاز القرآن»: (٢/ ٨٩).

(٤) قال أبو جعفر النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٩٧): (وهذا أعرَفُها في اللغة، وهو قول أبي عمرو وأبي عبيدة، فكأن الهاء مبدلة من حاء؛ لأنهما من حروف الحلق).

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾
فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

متجبرين، وقال أبو عبيدة: مرحين، وقال الأخفش فرحين، والعرب تعاقب بين الهاء والحاء، مثل: مدحته ومدهته، قال الضحاك: كَيِّسِينَ[1].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ قال ابن عباس: المشركين، وقال مقاتل: هم التسعة الذين عقروا الناقة.

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ لا يطيعون الله فيما أمرهم به.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قال مجاهد وقتادة: من المسحورين المخدوعين، أي: ممن سُحِر مرة بعد مرة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أي: من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب، يقال: سحره، أي: علله بالطعام والشراب، يريد: إنك تأكل الطعام والشراب ولست بمَلَك، بل:

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ على صحة ما تقول ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ أنك رسول الله إلينا.

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ حظ ونصيب من الماء ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بعقرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ على عقرها حين رأوا العذاب.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

---

(١) قال الطبري بعد أن عرض الأقوال في تفسير القراءتين (١٩/ ١٠١): (والصواب أنهما قراءتان معروفتان، مستفيضة القراءة بكل واحدة منهما، في علماء القراء، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

ومعنى قراءة من قرأ «فارهين»: حاذقين بنحتها، متخيرين لمواضع نحتها، كيِّسين، من الفراهة.

ومعنى قراءة من قرأ «فَرِهين»: مرحين أشِرِين، وقد يجوز أن يكون معنى فاره وفَرِه واحد . . .).

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ
ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ قال مقاتل: يعني: جماع الرجال ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ يعني: من بني آدم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ قال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ معتدون، مجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ من قريتنا.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ المبغضين، ثم دعا فقال:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ من العمل الخبيث.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ وهي امرأة لوط، بقيت في العذاب والهلاك.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: أهلكناهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ قال وهب بن منبه: الكبريت والنار.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، قرأ العراقيون «الأيكة» هاهنا وفي «صۤ» بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء، وقرأ الآخرون «ليكة» بفتح اللام والتاء غير مهموز، جعلوها اسم البلد، وهو لا ينصرف، ولم يختلفوا في سورة «الحجر» و«قۤ» أنهما مهموزان مكسوران، والأيكة: الغيضة من الشجر الملتفّ.

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ
الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين، قال أخاهم شعيبًا؛ لأنه كان منهم، وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم ـ فيما حكى الله عنهم ـ على صيغة واحدة؛ لاتفاقهم
على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة / والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة. ١/١٥٢

﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخليقة ﴿الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ يعني: الأمم المتقدمين، والجبلة، الخَلْق، يقال: جُبل، أي: خُلق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إليَّ وما عليَّ إلّا الدعوة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وذلك أنه أخذهم حرٌّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حرًّا فخرجوا، فأظلّتهم سحابة، وهي الظلة، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، ذكرناه في سورة هود ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص «نزل» خفيف، «الروحُ الأمينُ» برفع الحاء والنون، أي: نزل جبريل بالقرآن، وقرأ الآخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء والنون، أي: نزَّل الله به جبريل، لقوله عزَّ وجلَّ: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ».

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، حتى وعيته ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ المخوِّفين.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (قال ابن عباس: بلسان قريش ليفهموا ما فيه)[1].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ذِكْرُ إنزال القرآن، قاله أكثر المفسرين، وقال مقاتل: ذِكْرُ محمد ﷺ ونعته ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ (قرأ ابن عامر «تكن» بالتاء، «آيةٌ» بالرفع، جعل الآية اسمًا وخبره: «أنْ يعلَمَه»، وقرأ الآخرون بالياء، «آية»)[1] نصب، جعلوا الآية خبر «يكن»، معناه: أوَلم يكن لهؤلاء المنكرين[2] علم بني إسرائيل آية، أي: علامة ودلالة على نبوة محمد ﷺ؛ لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل، كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه[3]، قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا نجد في التوراة نعتَه وصفته، فكان ذلك آية على صدقه[4].

قوله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ يعني: يعلم محمدًا ﷺ ﴿عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ قال عطية: كانوا خمسة: عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد[5].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ جمع الأعجمي، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية، وإن كان عربيًا في النسب، والعجمي: منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحًا، ومعنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٢) في «ب»: (المكبرين).
(٣) وهو مروي عن مجاهد. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٢٢)، الطبري: (١٩/ ١١٣).
(٤) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٤٥).
(٥) نسبه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٣٢٣) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة.

فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾
ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بغير لغة العرب ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وقالوا: ما نفقه قولك، نظيره قوله عزَّ وجلَّ: «وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ»[فصلت: ٤٤]، وقيل: معناه: ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفةً من اتّباعه.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أدخلنا الشرك والتكذيب ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ يعني: عند الموت.

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ يعني: العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ به في الدنيا.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: لنؤمن ونصدق، يتمنون الرجعة والنَّظِرَة، قال مقاتل: لما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب، قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب؟ متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ كثيرة في الدنيا، يعني: كفار مكة، ولم نهلكهم.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ يعني: بالعذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ به في تلك السنين، والمعنى: أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا، فإذا أتاهم العذاب لم يُغنِ عنهم طول التمتع شيئًا، ويكون كأنّهم لم يكونوا في نعيم قط.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ رسل ينذرونهم.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ محلها نصب، أي: ينذرونهم، تذكرة، وقيل: رفع، أي: تلك ذكرى ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ في تعذيبهم، حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ وذلك أن المشركين كانوا يقولون: إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد ﷺ، فقال جلَّ ذكره: «وما تنزلت به»، أي: بالقرآن، الشياطين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أن ينزلوا بالقرآن ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ ذلك.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ أي: عن استراق السمع من السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ أي: محجوبون بالشهب، مرجومون.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يحذِّر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليَّ، ولو اتخذت إلهًا غيري لعذبتك.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ روى محمد بن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، عن عبد الله بن عباس، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ»، دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا علي، إن الله يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعًا وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُّ عليها حتى جاءني جبريل فقال لي: يا محمد، إلَّا تفعل ما تُؤمر يعذبك ربُّك، فاصنع لنا صاعًا من طعام واجعل عليه رِجْل شاةٍ، واملأ لنا عُسًّا من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب؛ حتى أبلغهم ما أُمرتُ به»، قال علي ـ رضي الله عنه ـ: ففعلتُ ما أمرني به رسول الله ﷺ، ثم دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلًا، يزيدون رجلًا أو ينقصونه، فيهم أعمامه: / أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، ٥٢/ب
فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم، فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: «خذوا باسم الله»، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وايمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدمتُ لجميعهم، ثم قال: «اسقِ القومَ» فجئتهم بذلك العُسِّ، فشربوا حتى رووا جميعًا، وايمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ، فقال الغد: «يا علي، إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعتَ من القوم فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فَعُدَّ لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم اجمعهم»، ففعلت ثم جمعتهم فدعاني بالطعام فَقَرَّبْتُه، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا بني عبد المطلب، إني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوَكم إليه، فأيكم يوازرني على أمري هذا؟ ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم عنها جميعًا، فقلت ـ وأنا أحدثهم سنًّا ـ أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، قال: فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع[1].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، والبيهقي في «الدلائل» من طريقه من رواية ابن عباس، وأخرجه البزار وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق عباد بن عبد الله الأسدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٣، وراجع: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٥١ـ ٣٥٢) فقد قال: تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، وهو متروك كذاب شيعي، اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعفه الأئمة رحمهم الله.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ «ورهطك منهم المخلصين» خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتُكم إنْ أخبرتكم أنَّ خيلًا تخرج من صفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلَّا لهذا، ثم قام، فنزلت: «تبتْ يا أبي لهب وقد تبّ» هكذا قرأ الأعمش يومئذ[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، صَعِدَ النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريشٌ، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلَّا صدقًا، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ»، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: «تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «تبت»: (٨/ ٧٣٧) وفي الجنائز وفي سورة الشعراء وسبأ، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ برقم ٢٠٨: (١/ ١٩٣ - ١٩٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٢٧).
قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: (٣/ ٨٢) عند قوله: «ورهطك منهم المخلصين»: (هو بفتح اللام، فظاهر هذه العبارة أن قوله: ورهطك منهم المخلصين، كان قرآنًا أُنزل ثم نسخت تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري).
قلت: بل هي في رواية البخاري في الموضع السابق من التفسير: (٨/ ٨٣٧) من رواية أبي أسامة عن الأعمش.
وقال ابن حجر: (هذه الزيادة وصلها الطبري من وجه آخر عن عمرو بن مُرَّة أنه كان يقرؤها كذلك.
قال القرطبي: لعل هذه الزيادة كانت قرآنًا فنسخت تلاوتها، ثم استشكل ذلك بأن المراد إنذار الكفار، والمُخْلَص صفة المؤمن؟! والجواب عن ذلك: أنه لا يمتنع عطف الخاص على العام، فقوله: «وأنذر عشيرتك» عامّ فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن، ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنويهًا بهم وتأكيدًا). انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥٠٢)، «تفسير القرطبي»: (١٣/ ١٤٣).
وأما قراءة «وقد تبّ» كما في الرواية، فقال عنها ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٠٣): (وليست هذه القراءة فيما نقل القراء عن الأعمش، فالذي يظهر أنه قرأها حاكيًا لا قارئًا، ويؤيده قوله في هذا السياق: «يومئذ» فإنه يشعر بأنه كان لا يستمر على قراءتها كذلك، والمحفوظ أنها قراءة ابن مسعود وحده). وقال البدر العيني في «عمدة القاري» (٢٠/ ٧): (وقوله: «ورهطك منهم المخلصين» إما تفسير لقوله: «عشيرتك»، وإما قراءة شاذة رواها، قال الإسماعيلي: قرأها ابن عباس).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: (٨/ ٥٠١)، وفي سورة تبت: (٨/ ٧٣٧)، ومسلم في الموضع السابق: (١/ ١٩٤)، ولم يذكر الأعمش نزول الآية في الرواية.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فقال: «يا معشر قريش، أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا»(١).

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرني جدي أبو سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن مطرف بن عبد الله بن الشخِّير، عن عياض بن حمار المجاشعي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ أمرني أن أعلمكم ما جَهِلْتُم ممَّا علَّمني يومي هذا، وإنه قال: إن كلَّ مالٍ نَحَلْتُه عبادي فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادي حُنَفَاءَ كلهم، فأتتهم الشياطين فاجْتَالَتْهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركُوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهم عربَهم وعَجَمَهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب، وإن الله تعالى أمرني أن أُحرِّق قريشًا، فقلت: يا رب، إنهم إذًا يَثْلَغُوا رأسي حتى يدعوه خُبْزَةً، فقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وقد أنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه في المنام واليقظة، فاغزهم نُغْزِك، وأنفقْ ننفق عليك، وابعثْ جيشًا نمدِدْك بخمسة أمثالهم، وقاتلْ بمن أطاعك مَنْ عصاك، ثم قال: أهل الجنة ثلاثة: إمام مُقْسِط، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل غني متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا دين له، الذين هم فيكم تَبَعٌ لا يتبعون بذلك أهلًا ولا مالًا، ورجل إن أصبح أصبح يخادعك عن أهلك ومالك، ورجل لا يخفى له طمع ـ وإن دقَّ ـ إلَّا ذهب به، والشِّنْظِيرُ الفاحش، قال: وذكر البخل والكذب»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ من الكفر وعبادة غير الله.

---

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق: (٨/ ٥٠١ ـ ٥٠٢)، وفي الوصايا وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان: (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ضمن روايته لكتاب «الجامع» للإمام معمر بن راشد: (١١/ ١٢٠ ـ ١٢١)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار برقم ٢٨٦٥: (٤/ ٢١٩٧ ـ ٢١٩٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام: «فتوكل» بالفاء، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو «وتوكل» ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ ليكفيك كيد الأعداء.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ إلى صلاتك، / عن أكثر المفسرين، وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت، ١/٥٣
وقيل: حين تقوم لدعائهم.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي: يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك، قال عكرمة وعطية عن ابن عباس: في الساجدين، أي: في المصلين، وقال مقاتل والكلبي: أي: مع المصلين في الجماعة، يقول: يراك حين تقوم وحدك للصلاة، ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة.

وقال مجاهد: يرى تقلب بصرك في المصلين، فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي هاهنا، فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري»(١).

وقال الحسن: «وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ»، أي: تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين.

وقال سعيد بن جبير: يعني: وتصرفك في أحوالك، كما كانت الأنبياء من قبلك، والساجدون: هم الأنبياء.

وقال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة(٢).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ هذا جواب قولهم: تنزل عليه شيطان، ثم بيَّن فقال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ أي: تتنزل ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ فاجر، قال قتادة: هم الكَهَنَةُ، يسترق الجنُّ السمعَ ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس، وهو قوله عزَّ وجلَّ:

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب العمل في الصلاة: (١/ ١٦٧)، والبخاري في الصلاة، باب عظة الإمام في إتمام الصلاة: (١/ ٥١٤)، ومسلم في الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة برقم ٤٢٤: (١/ ٣١٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٨٩).

(٢) ذكر هذه الأقوال: الطبري: (١٩/ ١٢٣ ـ ١٢٥)، السيوطي: (٦/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، ابن الجوزي: (٦/ ١٤٨ ـ ١٤٩).
ورجح الطبري أن أولى الأقوال في تفسير الآية: أنه يرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي: يستمعون من الملائكة مسترقين، فيلقون إلى الكهنة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ لأنهم يخلطون به كذبًا كثيرًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وذكر مقاتل أسماءهم، فقال: منهم عبد الله بن الزبعري السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومشافع بن عبد مناف، وأبو عزة بن عبد الله الجمحي، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب وبالباطل، وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد، وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه، ويروون عنهم ذلك[١].

قوله: «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ»، هم الرواة الذين يروون هجاء (النبي ﷺ و)[٢] المسلمين، وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين.

وقال الضحاك: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، ومع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فنزلت هذه الآية، وهي رواية عطية عن ابن عباس[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ (من أودية الكلام)[٤] ﴿يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ جائرون، وعن طريق الحق حائدون، والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية: في كل لغو يخوضون[٥]، وقال مجاهد: في كل فنٍّ يفتنون، وقال قتادة: يمدحون بالباطل، ويستمعون ويهجون بالباطل[٦]، فالوادي مَثَلٌ لفنون الكلام، كما يقال: أنا في وادٍ وأنت في وادٍ، وقيل: «في كل وادٍ يهيمون»، أي: على كل حرف من حروف الهجاء يصُوغُون القوافي.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي: يكذبون في شعرهم، يقولون: فعلنا وفعلنا، وهم كذبة.

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٥٠).
(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٣) الطبري: (١٩/ ١٢٧)، وعزاه السيوطي أيضًا لابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.
(٤) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٥) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يجوز من الشعر: (١٠/ ٥٣٧) تعليقًا، ووصله الطبري: (١٩/ ١٢٨).
(٦) الطبري: (١٩/ ١٢٨).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن الأعمش، عن ذكوان، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لأن يمتلِئَ جوفُ أحدِكم قَيْحًا، خيرٌ له من أن يمتلِئَ شعرًا»(١).

ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيبون شعراء الجاهلية، ويهجون شعراء الكفار، وينافِحُون عن النبي ﷺ وأصحابه، منهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل! فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّما ترمونهم به نَضْحَ النَّبل»(٢).

أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أبي أحمد الخزاعي، أخبرنا الهيثم ابن كليب، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا إسحاق بن منصور، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بَنِي الكفَّارِ عن سَبيلِه ... اليومَ نضربْكم على تَنْزِيلِه
ضربًا يُزيلُ الهَامَ عن مَقِيلِه ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِه

فقال له عمر: يا ابنَ رواحةَ بين يديْ رسول الله ﷺ وفي حَرَم الله تقول الشعر؟ فقال النبي ﷺ: «خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نَضْحِ النَّبْلِ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدَّه عن ذكر الله والعلم والقرآن: (١٠/ ٥٤٨)، ومسلم في كتاب الشعر برقم٢٢٥٧: (٤/ ١٧٦٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في كتاب الجامع: (١١/ ٢٦٣)، وصححه ابن حبان: ص٤٩٤ من «موارد الظمآن»، والبيهقي في «السنن»: (١٠/ ٢٣٩)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٥٦، ٤٦٠)، (٦/ ٣٨٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٧٨)، وعزاه ابن حجر في «الكافي الشاف»: ص١٢٣، والمناوي في «الفتح السماوي»: (٢/ ٨٨٩) لابن سعد في «الطبقات»، وعزاه في «المطالب العالية»: (٣/ ٤٥٣، ٣٥٥) لأبي يعلى. وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني: رقم١٦٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر: (٨/ ١٣٨ ـ ١٤٠)، وقال: (هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه، وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث أيضًا عن معمر عن الزهري في غير هذا الحديث أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين=

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا شعبة، أخبرني عدي أنه سمع البراء قال: قال رسول الله ﷺ لحسان: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك»(١).

أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري وعلي بن حجر ـ المعنى واحد ـ قالا: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ / يضع لحسان بن ثابت ٥٣/ب
منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح عن رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يُؤَيِّد حسانَ بروح القدس، ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله»(٢).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث حدثني أبي، عن جدي، حدثنا خالد بن زيد، حدثني سعيد بن أبي هلال، عن عمارة بن غزية، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُوا قريشًا فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل»، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهْجُهُمْ» فهجاهم فلم يُرضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه، فجعل يحرّكه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفْرِيَنَّهم بلساني فَرْيَ الأَدِيم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَعْجَل، فإن أبا بكر أعلم قريشٍ بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسبًا حتى يخلص لك نسبي»، فأتاه حسان ثم رجع، فقال: يا رسول الله، قد خلص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القُدُسِ لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله»، وقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى»، قال حسان:

= يديه، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث؛ لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك)، وأخرجه أيضًا في كتابه المفرد «الشمائل المحمدية»: ص١٤٥، وأخرجه النسائي في المناسك، باب إنشاد الشعر في الحرم: (٢/ ٢٥ ـ ٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٦/ ٢٩٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٧٤)، وانظر: «فتح الباري»: (٧/ ٥٠٢)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني: رقم٥٩٣.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: (٦/ ٣٠٤)، وفي المغازي: (٧/ ٤١٦)، وفي الأدب: (١٠/ ٥٤٦)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل حسان برقم٢٤٨٦: (٤/ ١٩٣٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر: (٨/ ١٣٧)، وقال: (هذا حديث حسن غريب صحيح)، وأخرجه في «الشمائل»: ص١٤٧، وصححه الحاكم: (٣/ ٤٨٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٧٧).
وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني: (٣/ ١٧٧).

هَجَوْتَ محمدًا فَأجبتُ عنه ... وعنــدَ الله في ذاكَ الجـزاءُ
هجوتَ محمدًا بَرًّا حَنِيفًا ... رسولَ الله شيمتُه الوفاءُ
فإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لِعِرْضِ محمدٍ منكم وقاءُ
فمَنْ يهجُو رسولَ الله منكم ... ويَمْدَحُهُ وينصرُه سواءُ
وجبريلُ رسولُ الله فينا ... وروحُ القُدُس ليس له كِفَاءُ(١)

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو بكر بن عبد الرحمن: أن مروان بن الحكم أخبره: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره: أن أُبيَّ بن كعب أخبره: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من الشعر لحكمة»(٢).

قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ: الشعر كلام، فمنه حسنٌ، ومنه قبيحٌ، فخذ الحسنَ ودع القبيح(٣).

وقال الشعبي: كان أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول الشعر، وكان عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول الشعر، وكان علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ أشعر الثلاثة(٤).

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده، فروي أنه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي قالها فقال:

أمِن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشده ابن أبي ربيعة القصيدة إلى آخرها، وهي قريبة من سبعين بيتًا، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها، وكان حفظها بمرة واحدة.

﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال مقاتل: انتصروا من المشركين؛ لأنهم بدؤوا بالهجاء.

ثم أوعد شعراء المشركين فقال: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ(٥) ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ أي: مرجعٍ يرجعون بعد الموت، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إلى جهنم والسعير(٦). والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم ٢٤٩٠: (٤/ ١٩٣٥ ـ ١٩٣٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٢٥).
(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز: (١٠/ ٥٣٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣٦٩).
(٣) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٣/ ١٥٠).
(٤) انظر: «المصنف» لابن أبي شيبة: (٨/ ٦٩٨).
(٥) وقيل: المراد بهم أهل مكة، وقيل: الذين ظلموا من المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٥٦).
(٦) قطعة من حديث تقدم تخريجه، أخرجه البخاري في النكاح: (٩/ ١٠٤)، ومسلم في النكاح أيضًا: (٢/ ١٠٢٠).

سورة النَّمل

مكية(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

﴿طسٓ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقد سبق الكلام في حروف الهجاء(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: هذه آيات القرآن ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ أي: وآيات كتاب مبين.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ يعني: هو هدى من الضلالة، وبشرى للمؤمنين المصدِّقين به بالجنة.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة حتى رأوها حسنة ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: يترددون فيها متحيرين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ شدة العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ببدر ﴿وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: تُؤتى القرآن وتلقن ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ أي: وحيًا من عند الله الحكيم العليم.

---

(١) سورة النمل مكية بلا خلاف، أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٤٠)، «البحر المحيط»: (٧/ ٥٢).

(٢) انظر فيما سبق: (١/ ١١ ـ ١٢)، والطبري: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٢٤) بتحقيق محمود شاكر، ابن كثير: (١/ ٣٦ ـ ٣٩).

(٣) راجع فيما سبق: (١/ ١٣ ـ ١٦). (٤) ساقط من «ب».

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: واذكر يا محمد[1] إذ قال موسى لأهله في مسيره من مدين إلى مصر: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ (أي: أبصرت نارًا)[1] ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: امكثوا مكانكم، سآتيكم بخبر عن الطريق، وكان قد ترك الطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ قرأ أهل الكوفة: «بشهابٍ» بالتنوين، جعلوا القبس نعتًا للشهاب، وقرأ الآخرون بلا تنوين على الإضافة، وهو إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الشهاب والقبس متقاربان في المعنى، وهو العود الذي في أحد طرفيه نار، وليس في الطرف الآخر نار، وقال بعضهم: الشهاب هو شيء ذو نور، مثل العمود، والعرب تسمي كلَّ أبيضَ ذي نور شهابًا، والقبس: القطعة من النار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ تستدفئون من البرد، وكان ذلك في شدة الشتاء.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بورك على من في النار أو في مَنْ في النار، والعرب تقول: باركه الله، وبارك فيه، وبارك عليه، بمعنى واحد. وقال قوم: البركة راجعة إلى موسى والملائكة،
١/٥٤ معناه: بورك في من طلب النار، وهو موسى عليه السلام «وَمَنْ حَوْلَهَا» وهم الملائكة / الذين حول النار، ومعناه: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله عزَّ وجلَّ لموسى بالبركة، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور، ذكر بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارًا، و«مَن فِى ٱلنَّارِ» هم الملائكة، وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح «وَمَنْ حَوْلَهَا» هو موسى؛ لأنه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها، وقيل: «مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا» جميعًا الملائكة، وقيل: «مَن فِى ٱلنَّارِ» موسى و«وَمَنْ حَوْلَهَا» الملائكة، وموسى وإن لم يكن في النار كان قريبًا منها، كما يقال: بلغ فلان المنزل، إذا قرب منه، وإن لم يبلغه بعد.

وذهب بعضهم إلى أن البركة راجعة إلى النار، وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: معناه: بُوركتِ النار، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سمعت أُبيًّا يقرأ «بوركت النار ومن حولها»، و«من» قد تأتي بمعنى «ما»، كقوله تعالى: «فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ»[النور: ٤٥]، و«ما» قد يكون صلة في الكلام، كقوله: «جُندٌ مَّا هُنَالِكَ»[ص: ١١]، ومعناه: بورك في النار وفيمن حولها، وهم الملائكة وموسى عليهم السلام، وسمَّى النار مباركة كما سمى البقعة مباركة فقال: «في البقعة المباركة».

---

(١) ساقط من «أ».

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن في قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، يعني: قُدس من في النار، وهو الله، عنى به نفسه، على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها[1]، كما روي: أنه مكتوب في التوراة: «جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعين، واستعلى من جبال فاران»[2]، فمجيئه من سيناء: بعثة موسى منها، ومن ساعين بعثة المسيح منها، ومن جبال فاران بعثة المصطفى منها، وفاران مكة[3].

قيل: كان ذلك نوره عزَّ وجلَّ، قال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها، والنار إحدى حجب الله تعالى، كما جاء في الحديث: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[4]، ثم نزَّه الله نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ ثم تعرف إلى موسى بصفاته، فقال:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ والهاء في قوله «إنه» عماد، وليس بكناية، وقيل: هي كناية عن الأمر والشأن، أي: الأمر والشأن، أي: المعبود أنا[5]، ثم أرى موسى آية على قدرته فقال.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هرب من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، يقال. عقَّب فلان إذا رجع، وكل راجع معقِّب، وقال قتادة: ولم يلتفت، فقال الله عزَّ وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ يريد: إذا آمنتهم لا يخافون، أما الخوف الذي هو شرط الإيمان فلا يفارقهم، قال النبي ﷺ: «أنا أخشاكم لله»[6].

---

(١) ذكر هذه الأقوال: الطبري: (١٩/ ١٣٣ ـ ١٣٥)، وأبو جعفر النحاس في «معاني القرآن»: (٥/ ١١٦)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٣٤١)، والقرطبي: (١٣/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) النص في العهد العتيق، سفر التثنية: ص٣٥٥ طبع الكاثوليكية.
وبلفظ: (ساعير) بدلًا من (ساعين) فيه، وفي النصوص التي نقلت عنه.

(٣) انظر بالتفصيل هذه البشارة ومدلولها ومطابقتها لما جاء في القرآن الكريم: «الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى»، تأليف عثمان جمعة: ص٨١ ـ ٨٣، والمراجع المشار إليها.

(٤) قطعة من حديث أبي موسى أخرجه مسلم في الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام برقم١٧٩: (١/ ١٦١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٧٣).

(٥) راجع: «التبيان» للعكبري: (٢/ ١٠٠٥)، «زاد المسير»: (٧/ ١٥٦).

(٦) قطعة من حديث رواه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٩/ ١٠٤)، ومسلم في الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة برقم١١٠٨: (٢/ ٧٧٩)، بلفظ: «أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له».

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ واختلف في هذا الاستثناء، قيل: هذا إشارة إلى أن موسى حين قتل القبطي خاف من ذلك، ثم تاب فقال: رب إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فغفر له، قال ابن جريج: قال الله تعالى لموسى: إنما أخفتُك لقتلِك النفس، وقال: معنى الآية: لا يخيف الله الأنبياء إلَّا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحًا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله: «إِلَّا مَن ظَلَمَ»، ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الناس كافة، وفي الآية متروك استُغني عن ذكره بدلالة الكلام عليه، تقديره: فمن ظَلَمَ ثم بدَّل حسنًا بعد سوء فإني غفور رحيم[(١)].

وقال بعض العلماء: ليس هذا باستثناء من المرسلين؛ لأنه لا يجوز عليهم الظلم، بل هو استثناء من المتروك في الكلام، معناه: لا يخاف لديَّ المرسلون، إنما الخوف على غيرهم من الظالمين، إلَّا مَن ظلم ثم تاب، وهذا من الاستثناء المنقطع، معناه[(٢)]: لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف، فإن تاب وبدَّل حسنًا بعد سوء فإن الله غفور رحيم، يعني: يغفر الله له ويزيل الخوف عنه[(٣)].

وقال بعض النحويين: «إلَّا» هاهنا بمعنى: «ولا»[(٤)]، يعني: لا يخاف لديَّ المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء، يقول: لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون، كقوله تعالى: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ»[البقرة: ١٥٠]، يعني: ولا الذين ظلموا[(٥)].

ثم أراه الله آية أخرى فقال:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ والجيب حيث جيب من القميص، أي: قطع، قال أهل التفسير: كانت عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تبرق مثل البرق، فذلك

---

(١) هذا القول هو الذي رجحه الطبري: (١٩/ ١٣٧).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله معتمدًا هذا القول (٣/ ٣٥٨): (هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ...﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة جدًّا)، وكذلك رجحه أبو حيان في «البحر المحيط».

(٤) في الطبري والنحاس وغيرهما: (بمعنى الواو).

(٥) وهذا القول حكاه الفراء عن بعض النحويين ولم يرضه، وقال النحاس: (وذا ليس بجيد في العربية)، وقال أبو حيان: (وهذا ليس بشيء؛ لأن معنى «إلا» مباين لمعنى «الواو» مباينة كثيرة، إذ الواو للإدخال و«إلا» للإخراج، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر).
انظر: «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ١١٧)، «البحر المحيط»: (٧/ ٥٧)، «زاد المسير»: (٦/ ١٥٧).

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾

قوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ﴾ من غير برص ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ يقول هذه آية من تسع آيات أنت مرسل بهنَّ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ بيّنة واضحة يبصر بها ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣﴾ ظاهر.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: علموا أنها من عند الله، قوله: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ أي: شركًا وتكبرًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ أي: علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ / نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده[1]، وكان لداود تسعة عشر ابنًا، ٥٤/ب
وأعطي سليمان ما أعطي داود من الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين.

قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكًا من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدًا من سليمان، وكان سليمان شاكرًا لنعم الله تعالى.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ سمَّى صوت الطير منطقًا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس.

روي عن كعب قال[2]: صاح وَرَشان عند سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنُوا للخراب، وصاحت فاختة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال

---

(١) وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يخصّ سليمان وحده من بين سائر أولاد داود . . . والأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك الرسول ﷺ في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة». انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/٣٥٩).

(٢) هذه الروايات عن كعب وغيره وهذه التفصيلات في كلام الطير مما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ متلقاة من أهل الكتاب كرواية كعب هذه، ولا يتوقف فهم الآية عليها، وليس فيها نص صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ، والبحث في هذا مما لا طائل تحته. والله أعلم.

إنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: مَن لا يَرحم لا يُرحم، وصاح صُرَد، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين، قال: وصاحت طوطى، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول: كل حي ميت وكل جديد بال، وصاح خطاف، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: قدِّموا خيرًا تجدوه، وهدرت حمامة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قُمْرى، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: سبحان ربي الأعلى، قال: والغراب يدعو على العشَّار، والحِدَأة تقول: كل شيء هالك إلَّا الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس، والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل لسان.

وعن مكحول قال: صاح دراج عند سليمان، فقال: هل تدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول. الرحمن على العرش استوى.

وعن فرقد السبخي قال: مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا: الله ونبيه أعلم، قال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العَفَاء.

وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس: إنا سائلوك عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا آمنا وصدقنا، قال: سلوا تفقهًا ولا تسألوا تعنتًا، قالوا: أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره، والديك في صقيعه، والضفدع في نقيقه، والحمار في نهيقه، والفرس في صهيله، وماذا يقول الزرزور والدراج؟ قال: نعم، أما القنبر فيقول: اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد، وأما الديك فيقول: اذكروا الله يا غافلين، وأما الضفدع فيقول: سبحان المعبود في لجج البحار، وأما الحمار فيقول: اللهم العن العشار، وأما الفرس فيقول إذا التقى الصفان: سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وأما الزرزور فيقول: اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رازق، وأما الدراج فيقول: الرحمن على العرش استوى، قال: فأسلم اليهود وحسن إسلامهم.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن جده، عن الحسين بن علي قال: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم، عِشْ ما شئت آخره الموت، وإذا صاح العقاب قال: في البعد من الناس أُنس، وإذا صاح القنبر قال: إلهي العن مبغضي آل محمد، وإذا صاح الخطاف، قرأ: الحمد لله رب العالمين، ويمد الضالين كما يمد القارىء.

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُوتى الأنبياء والملوك، قال ابن عباس: من أمر الدنيا والآخرة، وقال مقاتل: يعني: النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾

الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا، وروي أن سليمان عليه السلام أعطي ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطير والسباع[١]، وأعطي على ذلك منطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ في مسير له ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ فهم يكفون، قال قتادة: كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد (أولاها على أخراها)[٣]؛ لئلا يتقدموا في المسير، والوازع الحابس، وهو النقيب، وقال مقاتل: يوزعون: يساقون.

وقال السدي: يوقفون، وقيل: يجمعون، وأصل الوزع: الكف والمنع.

قال محمد بن كعب القرظي: كان معسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلثمائة صريحة[٤]، وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، وأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلّا جاءت به الريح، فأخبرتكَ[٥].

قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ روي عن وهب بن منبه عن كعب قال: كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه، وقد اتخذ مطابخ ومخابز[٦] يُحمل فيها تنانير الحديد وقدور عظام، يسع كل قدر عشر جزائر، وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون، وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم، فسار من اصطخر إلى اليمن فسلك مدينة رسول الله ﷺ، فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه، ورأى حول البيت

---

(١) في هامش نسخة «أ» قوله: (ملك جميع أهل الدنيا . . .) فيه نظر؛ لأنه عليه السلام ما علم بلقيس ولا ملكها إلّا من الهدهد بعدما أخبره به، إلّا أن نقول: ملك بعد ذلك الزمان، والله أعلم.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٥٨٨)، عن جعفر بن محمد، وقال الذهبي: (هذا باطل).

(٣) في «ب»: (أولها على آخرها).

(٤) بمعنى: منكوحة.

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن محمد بن كعب قال: بلغنا أن سليمان . . . : (٢/ ٥٨٩)، وهو ضعيف.

(٦) ساقط من «أ».

١/٥٥ أصنامًا تُعبد من دون الله، فلما جاوز سليمان البيت بكي البيت، / فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ فقال: يا رب، أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مرُّوا عليَّ فلم يهبطوا ولم يصلوا عندي، والأصنام تُعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه أنْ لا تبكِ، فإني سوف أملؤك وجوهًا سُجَّدًا، وأنزل فيك قرآنًا جديدًا، وأبعث منك نبيًّا في آخر الزمان أحب أنبيائي إليَّ، وأجعل فيك عمَّارًا من خلقي يعبدونني، وأفرض على عبادي فريضة يذفون إليك ذفيف النسور إلى وكرها، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضتها، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشياطين[١]، ثم مضى سليمان حتى مرَّ بوادي السدير وادٍ من الطائف، فأتى على وادي النمل، هكذا قال كعب: إنه وادٍ بالطائف.

وقال قتادة ومقاتل: هو أرض بالشام، وقيل: واد كان يسكنه الجن، وأولئك النمل مراكبهم[٢]، وقال نوف الحميري: كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب[٣]، وقيل: كالبخاتي، والمشهور: أنه النمل الصغير، وقال الشعبي: كانت تلك النملة ذات جناحين، وقيل: كانت نملة عرجاء فنادت:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ ولم تقل: ادخلن؛ لأنه لما جعل لهم قولًا كالآدميين خوطبوا بخطاب الآدميين ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسرنكم ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ والحطم: الكسر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فسمع سليمان قولها، وكان لا يتكلم خلق إلَّا حملت الريح ذلك فألقته في مسامع سليمان، قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، قال مقاتل: كان اسمها جرمى[٤].

فإن قيل: كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل: كان جنوده ركبانًا وفيهم مشاة على الأرض تطوى لهم.

وقيل: يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الله الريح لسليمان.

قال أهل التفسير: علم النمل أن سليمان نبي ليس فيه جبرية وظلم.

ومعنى الآية: أنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم ولم يشعروا بكم. ويروى أن سليمان لما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخل النمل بيوتهم.

---

(١) هذه الرواية وأمثالها من الإسرائيليات التي كان يحدث بها وهب وكعب، وليس في ذلك نص صحيح تقوم به الحجة.

(٢) قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٣٦٠): (ومن قال من المفسرين إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها).

(٣) قال ابن كثير في الموضع نفسه: (هكذا رأيته مضبوطًا بالياء المثناة من تحت، وإنما هو بالباء الموحدة، وذلك تصحيف، والله أعلم، والغرض: أن سليمان ﷺ فهم قولها وتبسم ضاحكًا من ذلك، وهذا أمر عظيم جدًّا.

(٤) لا طائل من البحث في صفات هذه النملة واسمها، ولا خبر في ذلك عن الرسول ﷺ يصار إليه، وحسبنا ما أخبرنا الله تعالى به من كلام النملة وفهم سليمان له وما في ذلك من دلالة، والله أعلم. وانظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: (٢/ ١٩).

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقوله: «ضَاحِكًا»، أي: متبسمًا، قيل: كان أوله التبسم وآخره الضحك.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، أخبرنا عمرو هو ابن الحارث، أخبرنا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا قط ضاحكًا حتى أرى منه لَهَوَاتِه، إنما كان يتبسم[(١)].

أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن المغيرة، عن عبد الله بن الحارث بن جَزْء قال: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ[(٢)].

قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبًا؛ لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك، ثم حمد سليمان ربَّه على ما أنعم عليه.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم، قال ابن عباس: يريد: مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين، وقيل: أدخلني الجنة برحمتك مع عبادك الصالحين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: طلبها وبحث عنها، والتفقد: طلب ما فُقِد، ومعنى الآية: طلب ما فقد من الطير ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي: ما للهدهد لا أراه؟ تقول العرب: ما لي أراك كئيبًا؟ أي: مالك؟ والهدهد: طائر معروف، وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه، قيل: إخلاله بالنوبة،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾: (٨/ ٥٧٨)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح برقم٨٩٩: (٢/ ٦١٦ـ٦١٧)، وذكره المصنف في «مصابيح السنة»: (١/ ١٠٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ: (١٠/ ١٢٤)، وقال: (هذا حديث غريب)، وقد روي عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن الحارث بن جزء مثل هذا.
وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٩٠)، وذكره المصنف في «مصابيح السنة»: برقم٣٦٨٦.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢١﴾

وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلًا يظله وجندَه الطيرُ من الشمس، فأصابته الشمس من موضع الهدهد، فنظر فرآه خاليًا. وروي عن ابن عباس: أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض، كما يرى في الزجاجة، ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء.

قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق: يا وصاف، انظر ما تقول، إن الصبي منّا يضع الفخ ويحثو عليه التراب، فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه، فقال له ابن عباس: ويحك، إن القدر إذا جاء حال دون البصر، وفي رواية: إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر[1].

فنزل سليمان منزلًا فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا، فتفقد الهدهد ليدل على الماء، فقال: ما لي لا أرى الهدهد، على تقدير أنه مع جنوده، وهو لا يراه، ثم أدركه الشك في غيبته، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾ يعني: أكان من الغائبين؟ والميم صلة، وقيل: «أم» بمعنى «بل»، ثم أوعده على غيبته، فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ واختلفوا في العذاب الذي أوعده به، فأظهر الأقاويل أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطًا، لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض[2]، وقال مقاتل بن حيان: لأطلينّه بالقطران ولأشمسنّه، وقيل: لأودعنّه القفص، وقيل: لأفرقن بينه وبين إلفه، وقيل: لأحبسنّه مع ضده ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ لأقطعن حلقه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢١﴾ بحجة بينة في غيبته، وعذر ظاهر، قرأ ابن كثير «ليأتينّني»
1/55 بنونين، الأولى / مشددة، وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة.

وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء[3]: أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز للمسير، واستصحب من الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ، فحملهم الريح، فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم، وكان ينحر كل يوم بمقامه بمكة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة[4]، وقال لمن حضره من أشراف قومه: إن هذا مكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا، يعطى النصر على جميع من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا: فبأي دين يدين

---

(١) أخرجه الحاكم: (٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦)، وصححه على شرط الشيخين، والطبري: (١٩/ ١٤٤)، وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٤٨).

(٢) اعتمد الطبري هذا القول ولم يذكر غيره: (١٩/ ١٤٦)، وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٦١).

(٣) ما ذكره المصنف عن العلماء ظاهر أنه من الأخبار التي لا سند لها وهي بهذه التفصيلات غريبة.

(٤) في «ب»: (كبش).

يا نبي الله؟ قال: يدين بدين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وآمن به، فقالوا: كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله؟ قال مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه سيِّد الأنبياء وخاتم الرسل، قال: فأقام بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحًا، وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضًا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغدى، فلما نزل قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول فأرتفع نحو السماء فأنظر إلى طول الدنيا وعرضها، ففعل ذلك، فنظر يمينًا وشمالًا، فرأى بستانًا لبلقيس، فمال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه، وكان اسم هٰذهد سليمان «يعفور»، واسم هٰذهد اليمن «عنفير»، فقال عنفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، فقال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟ قال: أنا من هذه البلاد، قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها بلقيس، وإن لصاحبكم ملكًا عظيمًا ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كلها، وتحت يدها اثنا عشر ألف[1] قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل، فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال: أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني: إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها، وما رجع إلى سليمان إلَّا في وقت العصر، قال: فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة وكان نزل على غير ماء، فسأل الإنس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموا، فتفقد الطير، ففقد الهدهد، فدعا عريف الطير ـ وهو النسر ـ فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك، ما أدري أين هو، وما أرسلته مكانًا، فغضب عند ذلك سليمان، وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا...﴾ الآية، ثم دعا العقاب سيد الطير فقال: عليَّ بالهدهد الساعةَ، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يمينًا وشمالًا فإذا هو بالهدهد مقبلًا من نحو اليمن، فانقضَّ العقاب نحوه يريده، فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده، فقال: بحق الله الذي قوَّاك وأقدرك عليَّ إلَّا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء، قال: فولَّى عنه العقاب، وقال له: ويلك ثكلتك أمك، إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاه النسر والطير، فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك هذا؟ ولقد توعدك نبي الله، وأخبراه بما قال، فقال الهدهد: أوَ ما استثنى رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، قال: فنجوت إذًا، ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعدًا على كرسيه، فقال العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله، فلما قرب الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعًا لسليمان، فلما دنا منه

---

(١) ساقط من «أ».

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

أخذ برأسه فمده إليه، وقال: أين كنت؟ لأعذبنَّك عذابًا شديدًا، فقال الهدهد: يا نبي الله، اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه، ثم سأله فقال: ما الذي أبطأ بك عني؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عنه في قوله:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قرأ عاصم ويعقوب «فمكث» بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان «غير بعيد»، أي: غير طويل ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، يقول: علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ قرأ أبو عمرو والبزي عن ابن كثير من «سبأ» («والسبأ» في سورة سبأ، مفتوحة الهمزة، وقرأ القواص عن ابن كثير)[1] ساكنة بلا همزة، وقرأ الآخرون بالإجراء، فمن لم يجره جعله اسم البلد، ومن أجراه جعله اسم رجل، فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ سئل عن سبأ فقال: «كان رجلًا له عشرة من البنين تَيامَنَ منهم ستة وتشاءم أربعة»[2] ﴿بِنَبَإٍ﴾ بخبر ﴿يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ فقال سليمان: وما ذاك؟ قال:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل، من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملكًا عظيم الشأن، قد ولد له أربعون ملكًا هو آخرهم، وكان يملك أرض اليمن كلها، وكان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوج فيهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقيس، (ولم يكن له ولد غيرها، وجاء في الحديث: إن أحد أبوي بلقيس كان جنيًا[3]، فلما مات أبو بلقيس[1] طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها قوم آخرون، فملَّكوا عليهم رجلًا، وافترقوا فرقتين، كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن، ثم إن الرجل

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة سبأ: (٩/ ٨٨ـ٨٩)، وقال: (هذا حديث غريب حسن)، واختصره أبو داود في الحروف والقراءات: (٦/ ٨) عن فروة بن مسيك، وأخرجه الطبري في «التفسير»: (٢٢/ ٧٦ـ٧٧)، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣١٧)، وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم والحاكم وصححه من حديث ابن عباس، وله روايات في بعضها ضعف ينجبر بتعدد الطرق.
انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥٣٥)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٩٤)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٣١ـ٥٣٢)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر، ترجمة «فروة بن مسيك»: (٥/ ٣٦٩) حيث أشار إلى الحديث وقال: (أخرجه ابن سعد وأبو داود والترمذي وابن السكن مطولًا ومختصرا)، «زاد المسير»: (٦/ ١٦٥) مع حاشية المحقق.

(٣) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه وابن عساكر، عن أبي هريرة مرفوعًا، قال ابن كثير: (هذا حديث غريب وفي سنده ضعف). انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٥١)، «البداية والنهاية» لابن كثير: (٢/ ٢١).

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الذي ملَّكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر بهن، فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت ذلك بلقيس أدركتها الغيرة فأرسلت إليه / تعرض نفسها عليه، فأجابها الملك، ١/٥٦
وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلَّا اليأس منك، فقالت: لا أرغب عنك، كفؤ كريم، فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم، فجمعهم وخطبها إليهم، فقالوا: لا نراها تفعل هذا، فقال لهم: إنها ابتدأتني فأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاءوها، فذكروا لها، فقالت: نعم أحببت الولد، فزوجوها منه، فلما زفت إليه خرجت في أناس كثير من حشمها، فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر، ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلًا ورأسه منصوب على باب دارها، فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكرًا وخديعة منها، فاجتمعوا إليها وقالوا: أنت بهذا الملك أحق من غيرك، فملَّكوها[(١)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا عثمان بن الهيثم، أخبرنا عوف، عن الحسن، عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما بلغ رسولَ الله ﷺ أن أهل فارس ملَّكوا عليهم بنت كسرى، قال: «لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ سرير ضخم كان مضروبًا من الذهب مكللًا بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

قال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعًا في ثلاثين ذراعًا، وطوله في السماء ثلاثون ذراعًا.

وقال مقاتل: كان طوله ثمانين ذراعًا وطوله في السماء[(٣)] ثمانين ذراعًا.

وقيل: كان طوله ثمانين ذراعًا، وعرضه أربعين ذراعًا، وارتفاعه ثلاثين ذراعًا.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أشار الحافظ ابن كثير إلى هذه القصة وعزاها للثعلبي وغيره. انظر: «البداية والنهاية»: (٢/ ٢١).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر: (٨/ ١٢٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٧٦)، وقال: (اتفقوا على أن المرأة لا تصلح أن تكون إمامًا ولا قاضيًا؛ لأن الإمام يحتاج إلى الخروج لإقامة أمر الجهاد، والقيام بأمور المسلمين، والقاضي يحتاج إلى البروز لفصل الخصومات، والمرأة عورة لا تصلح للبروز، وتعجز لضعفها عن القيام بأكثر الأمور؛ لأن المرأة ناقصة، والإمامة والقضاء من كمال الولايات، فلا يصلح لها إلَّا الكامل من الرجال . . .).

(٣) في «ب»: (الهواء).

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي «أَلَا يسجدوا» بالتخفيف، وإذا وقفوا يقفون «ألا يا»: ألا يا أيهم، ثم يبتدئون: «اسجدوا»، على معنى: أَلَا يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه أمرًا من عند الله مستأنفًا، وحذفوا هؤلاء اكتفاءً بدلالة «يا» عليها، وذكر بعضهم سماعًا من العرب: أَلَا يا ارحمونا، يريدون: أَلَا يا قوم، وقال الأخطل:

أَلَا يـا اسْلَمِي يـا هِنْـدَ بَنِي بَكْـرِ وإنْ كانَ حَيَّانَا عِدًا آخِرَ الدَّهْرِ[1]

يريد: أَلَا يا اسلمي يا هند، وعلى هذا يكون قوله «أَلَا» كلامًا معترضًا من غير القصة، إما من الهدهد، وإما من سليمان، قال أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف يعني: يا أيها الناس اسجدوا.

وقرأ الآخرون: «أَلَّا يسجدوا» بالتشديد، بمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم؛ لئلا يسجدوا ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ أي: الخفي المخبأ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما خبأت.

قال أكثر المفسرين: خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات.

وفي قراءة عبد الله: «يخرج الخبء من السموات والأرض»، و«من» و«في» يتعاقبان، تقول العرب: لأستخرجنَّ العلم فيكم، يريد: منكم.

وقيل: معنى «الخبء» الغيب، يريد: يعلم غيب السموات والأرض.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ قرأ الكسائي وحفص عن عاصم بالتاء فيهما؛ لأن أول الآية خطاب على قراءة الكسائي بتخفيف «أَلَا»، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ أي: هو المستحقُّ للعبادة والسجود لا غيره، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيمًا فهو صغير حقير في جنب عرشه عزَّ وجلَّ، تم هاهنا كلام الهدد، فلما فرغ الهدهد من كلامه.

﴿۞ قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾؟ فدلَّهم الهدهد على الماء، فاحتفروا الركايا[2]، وروي الناس والدواب، ثم كتب سليمان كتابًا:

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة: (عدا)، واستشهد به الطبري أيضًا: (١٩/ ١٤٩).

(٢) الركايا: جمع رَكِيَّة، وهي البئر.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ. بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين، قال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه، وقال قتادة: وكذلك الأنبياء كانت تكتب جُمَلًا لا يطيلون ولا يكثرون، فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، فقال للهدهد:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون كسرًا، (والآخرون بالإشباع كسرًا)[1] ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تَنَحَّ عنهم فكنْ قريبًا منهم ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يردُّون من الجواب، وقال ابن زيد: في الآية تقديم وتأخير مجازها: اذهبْ بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم، أي: انصرف إليَّ، فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس، وكانت بأرض يقال لها «مَأرِب» من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها في قصرها وقد غلَّقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلَّقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة.

وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حِجْرها.

وقال ابن منبه وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر، فرمى بالصحيفة إليها، فأخذت بلقيس الكتاب، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم أرعدت وخضعت؛ لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم مُلْكًا منها، فقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد، فجاءت حتى قعدت على سرير مملكتها وجمعت الملأَ من قومها، وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل، وعن ابن عباس قال: كان مع بلقيس مائة ألف (قَيْل، مع كل قَيْل مائة ألف)[1]، والقَيْل الملك دون الملك الأعظم، وقال قتادة ومقاتل: كان أهل / مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، كل رجل منهم على عشرة آلاف، قال: فجاؤوا وأخذوا مجالسهم[2]. ٥٦/ب

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) انظر الأقوال السالفة في: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٥٣ـ٣٥٤).

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾

﴿قَالَتْ﴾ لهم بلقيس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾ قال عطاء والضحاك: سمته كريمًا؛ لأنه كان مختومًا، وروى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كرامة الكتاب ختمه»[1]، وقال قتادة ومقاتل: «كتاب كريم»، أي: حسن، وهو اختيار الزجاج، وقال: حسنٌ ما فيه، ورُوي عن ابن عباس: «كريم»، أي: شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمته كريمًا؛ لأنه كان مصدرًا ببسم الله الرحمن الرحيم[2]، ثم بينت ممَّن الكتاب فقالت:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ وبينت المكتوب فقالت: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾.

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ قال ابن عباس: أي: لا تتكبروا عليَّ، وقيل: لا تتعظموا ولا ترتفعوا عليَّ، معناه: لا تمتنعوا من الإجابة، فإنَّ ترك الإجابة من العلو والتكبر ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ مؤمنين طائعين، قيل: هو من الإسلام، وقيل: هو من الاستسلام.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أشيروا عليَّ فيما عرض لي، وأجيبوني فيما أشاوركم فيه ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ قاضيةً وفاصلةً ﴿أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢﴾ (أي: تحضرون)[3].

﴿قَالُوا۟﴾ مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عند الحرب، قال مقاتل: أرادوا بالقوة كثْرة العدد، وبالبأس الشديد الشجاعةَ، وهذا تعريض منهم بالقتال إنْ أمرتهم بذلك، ثم قالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أيتها الملكة في القتال وتركه ﴿فَٱنظُرِى﴾ من الرأي ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾ تجدينا لأمرك مطيعين.

﴿قَالَتْ﴾ بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ عنوة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خرَّبوها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها، كي يستقيم لهم الأمر، تحذِّرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وتناهى الخبر عنها هاهنا، فصدَّق الله قولها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾ أي: كما قالت هي: يفعلون.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» من رواية محمد بن مروان، وهو السدي الصغير، عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وأخرجه القضاعي في «مسند البيهقي»، ومحمد بن مروان متروك. انظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٥، «مجمع الزوائد»: (٨/ ٩٩).

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري في «التفسير»: (١٩/ ١٥٣).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾

ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ والهدية هي: العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلة إليهم ـ أي: إلى سليمان وقومه ـ بهدية أُصانِعُه بها عن ملكي وأختبره بها أَمَلِكٌ هو أم نبي؟ فإن يكن ملكًا قَبِل الهدية وانصرف، وإن كان نبيًّا لم يقبل الهدية، ولم يُرْضِه منَّا إلَّا أن نتبعه على دينه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ (فأهدت إليه)[1] وصفاء ووصائف، قال ابن عباس[2]: ألبستهم لباسًا واحدًا كي لا يُعْرف ذكر من أنثى، وقال مجاهد: ألبس الغلمان لباس الجواري وألبس الجواري لباس الغلمان.

واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس: مائة وصيف ومائة وصيفة[3]، وقال مجاهد ومقاتل[1]: مائتا غلام ومائتا جارية، وقال قتادة وسعيد بن جبير: أرسلت إليه بلبنة من ذهب في حرير وديباج.

وقال ثابت البناني: أهدت إليه صفائح الذهب في أوعية الديباج، وقيل: كانت أربع لبنات من ذهب.

وقال وهب وغيره: عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الغلمان لباسَ الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفي آذانهم أقراطًا وشنوفًا مرصَّعات بأنواع الجواهر، وألبست الجواري لباس الغلمان، الأقبيةَ والمناطق، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة[4]، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملون، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة، وتاجًا مكللًا بالدر والياقوت المرتفع، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود الألنجوج، وعمدت إلى حقةٍ فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب، ودعت رجلًا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالًا من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت معه كتابًا بنسخة الهدية، وقالت فيه: إن كنتَ نبيًّا فميِّزْ بين الوصائف والوصفاء، وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدر ثقبًا مستويًا، وأدخل خيطًا في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جنّ.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) بعد أن عرض ابن كثير لهذه الروايات التي ساقها البغوي: (٣/ ٣٦٤) قال: (والله أعلم أكان ذلك أم لا؟ وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات)، وقال الشيخ محمد أبو شهبة ص٢٥٢: (وأي ملك في الدنيا يتسع لفرش تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة؟! وفي رواية وهب ما يدل على الأصل الذي جاءت منه هذه المرويات، وأن من روى ذلك من السلف فإنما أخذه عن مسلمة أهل الكتاب وما كان أجدر كتب التفسير أن تنزه عن مثل هذا اللغو والخرافات التي تدسست إلى الرواية الإسلامية فأساءت إليها.

(٣) الوصيفة: الجارية.

(٤) أنثى البغال.

وأمرت بلقيس الغلمان، فقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال.

ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره، فإنَّا أعزّ منه، وإن رأيت الرجل بشاشًا لطيفًا فاعلم أنه نبي مرسل فتفهَّمْ قوله، ورد الجواب.

فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعًا إلى سليمان فأخبره الخبر كله، فأمر سليمان الجنَّ أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميدانًا واحدًا بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطًا، شُرفها من الذهب والفضة، ثم قال: أي الدوابِّ أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟ قالوا: يا نبي الله، إنا رأينا دوابًا في بحر كذا وكذا منقطة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواصٍ، فقال: عليَّ بها الساعة، فأتوا بها، فقال: شدُّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة، وألقُوا لها علوفَتها فيها، ثم قال للجن: عليَّ بأولادكم، فاجتمع خلق كثير، فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفًا فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ،
١/٥٧ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره، فلما دنا القوم من الميدان / ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم ترَ أعينُهم مثلها تروث على لَبِنِ الذهب والفضة، تقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا، وفي بعض الروايات (أن سليمان)[1] لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة، أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر موضع اللبنات التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب، ففزعوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزوا فلا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والهوام والسباع والوحوش، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظرًا حسنًا بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له، وأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه، ثم قال: أين الحقة؟ فأُتي بها فحركها، وجاء جبريل فأخبره بما في الحقة، فقال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجة الثقب، فقال الرسول: صدقتَ فاثقب الدرة، وأدخلِ الخيط في الخرزة، فقال سليمان: من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن، فلم يكن عندهم علم ذلك، ثم سأل الشياطين، فقالوا: ترسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تصيّر رزقي في الشجرة، فقال لك ذلك.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وروي أنه جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت: أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف، فجعل لها ذلك، فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر.

ثم قال: من لهذه الخرزة فيسلكها في الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله، فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تجعل رزقي في الفواكه، قال: لك ذلك، ثم ميَّز بين الجواري والغلمان، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام كما يأخذه من الآنية يضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صبًّا وكان الغلام يحدر الماء على يديه حدرًا، فميَّز بينهم بذلك، ثم ردَّ سليمان الهدية، كما قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ قرأ حمزة ويعقوب «أتمدوني» بنون واحدة مشددة وإثبات الياء، وقرأ الآخرون بنونين خفيفتين، ويثبت الياء أهل الحجاز والبصرة، والآخرون يحذفونها ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ أعطاني الله من النبوة والدين والحكمة والملك ﴿خَيۡرٞ﴾ أفضل ﴿مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها، تفرحون بإهداء بعضكم لبعض فأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي؛ لأن الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحدًا، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد:

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ بالهدية ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾ لا طاقة لهم ﴿بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ أي: من أرضهم وبلادهم: وهي سبأ ﴿أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ذليلون إن لم يأتوني مسلمين.

قال وهب وغيره من أهل الكتب: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت: قد عرفت ـ والله ـ ما هذا بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من سبعة قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب، ووكلت به حراسًا يحفظونه، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قِبَلك وسرير ملكي، لا يخلص إليه أحد ولا يرينَّه حتى آتيك، ثم أمرت مناديًا ينادي في أهل مملكتها يؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن، تحت يدي كلِّ قيل ألوفٌ كثيرة.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾

قال ابن عباس: وكان سليمان رجلًا مهيبًا لا يُبْتَدَأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يومًا فجلس على سرير ملكه، فرأى رهجًا قريبًا منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان، وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس: وكان بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ، فأقبل سليمان حينئذ على جنوده.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾ أي: مؤمنين، وقال ابن عباس: طائعين.

واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها، فقال أكثرهم: لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها[(١)].

وقيل: ليُريها قدرة الله عزَّ وجلَّ وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها[(٢)].

وقال قتادة: لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد، فأحب أن يراه[(٣)].

قال ابن زيد: أراد أن يأمر بتنكيره وتغييره؛ ليختبر بذلك عقلها[(٤)].

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهو المارد القوي، قال وهب: اسمه كوذي[(٥)]، وقيل: ذكوان، قال ابن عباس: العفريت الداهية، وقال الضحاك: هو الخبيث، وقال الربيع: الغليظ، قال الفرَّاء: القوي الشديد، وقيل: هو صخرةُ الجني، وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تقضي فيه، (قال ابن عباس: وكان له كل غداة مجلس يقضي فيه)[(٦)] إلى منتهى النهار ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾ على ما فيه من الجواهر، فقال سليمان: أريد أسرع من هذا.

---

(١) رواه الطبري: (١٩/ ١٦٠) عن قتادة.

(٢) وهو ما رجحه الطبري: (١٩/ ١٦١)، قال: (ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرّفها بذلك قدرةَ الله وعظيمَ شأنه، أنها خلّفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليه من خلقه، وسلّمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوته).
وانظر: القرطبي: (١٣/ ٢٠٢)، ابن كثير: (٣/ ٣٦٤)، «زاد المسير»: (٦/ ١٧٣).

(٣) ذكره القرطبي عن قتادة أيضًا. انظر: (١٣/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه الطبري: (١٩/ ١٦٠ ـ ١٦١)، وانظر: القرطبي: (١٣/ ٢٠٣)، «زاد المسير»: (٦/ ١٧٣)، وهو مروي عن سعيد بن جبير أيضًا.

(٥) في الطبري عن وهب قال: اسمه كوزن، وليس في ذلك خبر صحيح عن المعصوم ﷺ، ولا فائدة من البحث في معرفة هذا الاسم، والله أعلم.

(٦) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾

فـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ / واختلفوا فيه فقال بعضهم[1]: هو جبريل، وقيل: هو ملك ٥٧/ب
من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام.

وقال أكثر المفسرين: هو آصف بن برخيا، وكان صدِّيقًا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى.

روى جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: إن آصف قال لسليمان حين صلى: مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدَّ سليمان عينيه، فنظر نحو اليمين، ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون به خدًّا حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان.

وقال الكلبي: خرَّ آصف ساجدًا ودعا باسم الله الأعظم فغاب عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان، وقيل: كانت المسافة مقدار شهرين.

واختلفوا في الدعاء (الذي دعا به)[2] آصف، فقال مجاهد ومقاتل: يا ذا الجلال والإكرام، وقال الكلبي: يا حي يا قيوم، وروي ذلك عن عائشة، وروي عن الزهري قال: دعاء الذي عنده علم من الكتاب: يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلَّا أنت ائتني بعرشها.

وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان، قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله علمًا وفهمًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال سليمان: هات، قال: أنت النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك، فإن دعوتَ الله وطلبت إليه كان عندك، فقال: صدقت، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت.

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى، وهو أن يصل إليك من كان منك على مدِّ بصرك، قال قتادة: قبل أن يأتيك الشخص من مدِّ البصر، وقال مجاهد: يعني: إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئًا، وقال وهب: تمد عينيك فلا ينتهي طرفك إلى مداه، حتى أمثله بين يديك ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ يعني: رأى[3] سليمان العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ محمولًا إليه من مأرب إلى[3] الشام في قدرِ ارْتدادِ[4] الطرف ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ نعمته ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾

---

(١) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٩/ ١٦٢ـ١٦٣)، «الدر المنثور»: (٦/ ٣٦٠ـ٣٦١)، «زاد المسير»: (٦/ ١٧٥)، ابن كثير: (٣/ ٣٦٥).

(٢) ساقط من «ب». (٣) ساقط من «أ». (٤) في «أ»: (إمداد).

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾

(فلا أشكرها)[(١)] ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: يعود نفع شكره إليه، وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها؛ لأن الشكر قَيْدُ النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ بالإفضال على من يكفر نعمه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ يقول: غيِّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قال قتادة ومقاتل: هو أن يزاد فيه وينقص، وروي أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى عرشها فتعرفه ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ﴾ الجاهلين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾ إليه، وإنما حمل سليمان على ذلك كما ذكره وهب ومحمد بن كعب وغيرهما: أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن وذلك أن أمها كانت جنية، وإذا ولدت له ولدًا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأساؤا الثناء عليها ليزهدوه فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئًا، وإن رجلها كحافر الحمار وأنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح[(٢)].

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ قال مقاتل: عرفته لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، وقال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل: نعم، خوفًا من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفًا من التكذيب، قالت: كأنه هو، فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر.

وقيل: اشتبه عليها أمر العرش؛ لأنها تركته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها، وقيل لها: فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، فقال: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدية والرسل ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ من قبل الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾ منقادين طائعين لأمر سليمان.

وقيل قوله: «وأوتينا العلم من قبلها» قاله سليمان، يقول: وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وكنَّا مسلمين، هذا قول مجاهد[(٣)].

وقيل: معناه: وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنَّا مسلمين طائعين لله عزَّ وجلَّ.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) هذه الروايات من الإسرائيليات المكذوبة على أنبياء الله تعالى، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر بعض الروايات في ذلك (٣/ ٣٦٧): (والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة).

(٣) أخرجه الطبري: (١٩/ ١٦٧)، وهو قول سعيد بن جبير، واستحسنه ابن كثير: (٣/ ٣٦٦)، وأيده بأنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح.

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: منعها ما كانت تعبد من دون الله، وهو الشمس، أن تعبد الله، أي: صدتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله، فعلى هذا التأويل يكون «ما» في محل الرفع[(١)].

وقيل: معناه: (صدها عن عبادة الله لا نقصان عقلها كما قالت الجن: إن في عقلها شيئًا، بل كانت تعبد من دون الله)[(٢)]، وقيل: معناه: وصدها سليمان ما كانت تعبد من دون الله، أي: منعها ذلك وحال بينها وبينه، فيكون محل «ما» نصبًا.

﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ هذا استئناف، أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلَّا عبادة الشمس.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ...﴾ الآية، وذلك أن سليمان أراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها، لَمَّا قالت الشياطين: إن رجليها كحافر الحمار، وهي شَعْراء الساقين، أمر الشياطين فبنوا له صرحًا، أي: قصرًا من زجاج، وقيل: بيتًا من زجاج كأنه الماء بياضًا، وقيل: الصرح صحن الدار، وأجرى تحته الماء، وألقى فيه كل شيء من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وقيل: اتخذ صحنًا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع، فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء.

وقيل: إنما بنى الصرح؛ ليختبر فهمها كما فعلت هي بالوصفاء والوصائف[(٣)] فلمَّا جلس على السرير دعا بلقيس، فلما جاءت قيل لها: ادخلي الصرح.

---

(١) انظر: الطبري: (١٩/ ١٦٧)، «الدر المنثور»: (٦/ ٣٦٢).

(٢) جاءت العبارة في «ب» هكذا: (وصدَّها هذا عن عبادة الله ما كانت تعبد من دون الله).

(٣) راجع ما نقلناه عن ابن كثير تعليقًا على هذه الروايات آنفًا. وقال الطبري (١٩/ ١٦٩): (وجائز عندي أن يكون سليمان أمر باتخاذ الصرح للأمرين؛ الذي قاله وهب، والذي قاله محمد بن كعب القرظي، ليختبر عقلها وينظر إلى ساقها وقدمها، ليعرف صحة ما قيل فيها).
والحق أن سليمان عليه السلام أراد ببنائه الصرح: أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه من الملك، ومن أسباب العمران والحضارة ما لم يعطها، فضلًا عن النبوة التي هي فوق الملك، والتي دونها أية نعمة، وحاشا لسليمان عليه السلام وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكمًا يوافق حكمه ـ أي: الله، فأوتيه ـ أن يتحايل هذا التحايل، حتى ينظر إلى ما حرم الله عليه، وهما ساقاها، وهو أجلُّ من ذلك وأسمى.
ولولا أنها رأت من سليمان ما كان عليه من الدين المتين، والخلق الرفيع، لما أذعنت إليه لما دعاها إلى الله الواحد الحق، ولما ندمت على ما فرط منها من عبادة الكواكب والشمس، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.
انظر: «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبي شهبة: ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

١/٥٨ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ / وهي معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه إلى سليمان، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدمًا وساقًا إلَّا أنَّها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنه وناداها(١)، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس مستو ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ وليس بماء، ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام، وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت و﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر، وقال مقاتل: لما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من الله فقالت: ربِّ إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: أخلصت له التوحيد.

وقيل: إنها لما بلغت الصرح وظنته لجة، قالت في نفسها: إن سليمان يريد أن يغرقني، وكان القتل عليَّ أهون من هذا، فقولها: «ظلمت نفسي» تعني بذلك الظن.

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها، قال عون بن عبد الله: سأل رجل عبد الله بن عتبة: هل تزوجها سليمان؟ قال: انتهى أمرها إلى قولها: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، يعني: لا علم لنا وراء ذلك.

وقال بعضهم: تزوجها، ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها، فسأل الإنس: ما يذهب هذا؟ قالوا: الموسى، فقالت المرأة: لم تمسني حديدة قط، فكره سليمان الموسى، وقال: إنها تقطع ساقيها، فسأل الجن فقالوا: لا ندري، ثم سأل الشياطين فقالوا: إنا نحتال لك حيلة حتى تكون كالفضة البيضاء، فاتخذوا النورة والحمام، فكانت النورة والحمامات من يومئذ(٢)، فلما تزوجها سليمان أحبها حبًّا شديدًا، وأقرَّها على ملكها، وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم يرَ الناسُ مثلها ارتفاعًا وحسنًا، وهي: سلحين وبينون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها، ويقيم عندها ثلاثة أيام، يبتكر من الشام إلى اليمن، ومن اليمن إلى الشام، وولدت له فيما ذكر ورُوي عن وهب قال: زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلًا من قومك أزوجكه، قالت: ومثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان؟ قال: نعم، إنه لا يكون في الإسلام إلَّا ذلك، ولا ينبغي لك أن تحرِّمي ما أحل الله لك، فقالت: زوجني إن كان ولابدَّ من ذلك ذا تُبَّع ملك همذان فزوجه إياها، ثم ردها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على اليمن، ودعا زوبعة أمير جن اليمن، فقال: اعمل لذي تبع ما استعملك فيه، فلم يزل بها ملكًا يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان، فلما أن حال الحول، وتبينت الجن موتَ سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في

(١) ساقط من «أ».

(٢) هذا وأمثاله من مفتريات يهود الذين يصورون الأنبياء وكأنهم لا همَّ لهم إلَّا اللذة والاحتيال لإزالة شعر الساقين إظهارًا للمحاسن وإرواءً للشهوة.

وقد روى ابن أبي شيبة أثرًا في ذلك، قال عنه ابن كثير (٣/ ٣٦٧): (هو منكر غريب جدًّا، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم . . .).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾

جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن، إن الملك سليمان قد مات، فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا، وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان[١].

وقيل: إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ﴾ (أي: أن)[٢] ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ (مؤمن وكافر)[٢] ﴿يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ في الدين، قال مقاتل: واختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف: «قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ»، إلى قوله: «يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ»[الأعراف: ٧٥-٧٧].

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ العافية والرحمة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة من كفركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾ أي: تشاءمنا، وأصله: تطيرنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ قيل: إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم، وقيل: لأنه أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا، فقالوا: أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره، وهو مكتوب عليكم، سمي طائرًا؛ لسرعة نزوله بالإنسان، فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم، قال ابن عباس: الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم، وقيل: طائركم، أي: عملكم عند الله، سمي طائرًا؛ لسرعة صعوده إلى السماء.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قال ابن عباس: تختبرون بالخير والشر، نظيره قوله تعالى: «وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً»[الأنبياء: ٣٥]، وقال محمد بن كعب القرظي: تعذبون.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: مدينة ثمود، وهي الحِجْر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ من أبناء أشرافهم ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة، وهم غواة قوم صالح، ورأسهم قدار بن سالف، وهو الذي تولى عقرها، كانوا يعملون بالمعاصي.

---

(١) انظر ما سبق نقلًا عن الحافظ ابن كثير ﷺ تعليقًا على هذه المرويات.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ تحالفوا، يقول بعضهم لبعض، أي: احلفوا بالله أيها القوم، وموضع «تقاسموا» جزم على الأمر، وقال قوم: محله نصب على الفعل الماضي، يعني: أنهم تحالفوا وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: لنقتلنَّه بيَاتًا، أي: ليلًا ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: وقومه الذين أسلموا معه، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «لتبيتنه» و«لتقولن» بالتاء فيهما وضم لام الفعل على الخطاب، وقرأ الآخرون بالنون فيهما وفتح لام الفعل ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: إهلاكهم، ولا ندري مَنْ قتله، و«مَهلك» فتحَ الميم، فمعناه: هلاك أهله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ في قولنا: ما شهدنا ذلك. ٥٨/ب

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ غدروا غدرًا حين قصدوا تبييت صالح والفتك به ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ جزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا﴾ قرأ أهل الكوفة «أنا» بفتح الألف ردًّا على العاقبة، أي: كانت العاقبة أنَّا دمرناهم، وقرأ الآخرون / «إنَّا» بالكسر على الاستئناف ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ أي: أهلكناهم التسعة.

واختلفوا في كيفية هلاكهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة، فقتلهم، قال مقاتل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم إلى بعض ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم.

﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ أهلكهم الله بالصيحة.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ نصب على الحال، أي: خالية ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: بظلمهم وكفرهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ لعبرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ قدرتنا.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يقال: كان الناجون منهم أربعة آلاف.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾
قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي الفعلة القبيحة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تعلمون أنها فاحشة، وقيل: معناه: يرى بعضكم بعضًا وكانوا لا يستترون عُتُوًّا منهم.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ من أدبار الرجال.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وهو الحجارة ﴿فَسَآءَ﴾ فبئس ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية، وقيل: على جميع نعمه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال مقاتل: هم الأنبياء والمرسلون[1]، دليله قوله عزَّ وجلَّ: «وسلام على المرسلين»، وقال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد ﷺ[2]، وقال الكلبي: هم أمة محمد ﷺ[3]، وقيل: هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين[4].

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قرأ أهل البصرة وعاصم «يشركون» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، يخاطب أهل مكة، وفيه إلزام الحجة على المشركين بعد هلاك الكفار، يقول: آلله خير لمن عبده، أم الأصنام لمن عبدها؟ والمعنى: أن الله نجّى مَنْ عَبَدَهُ مِنَ الهلاك، والأصنام لم تُغْنِ شيئًا عن عابديها عند نزول العذاب.

---

(١) وهو مروي عن عبد الرحمن بن زيد، ورواه أبو صالح عن ابن عباس. انظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٨٤)، ابن كثير: (٣/ ٣٧٠).

(٢) رواه الطبري عن ابن عباس وسفيان الثوري وهو رواية السدي. قال ابن كثير: (ولا منافاة بينهما، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحلّ بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار. انظر: الطبري: (٢٠/ ٢)، «زاد المسير»: (٦/ ١٨٥)، «الدر المنثور»: (٦/ ٣٧٠)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٧٠)، «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ١٤٣).

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٨٥)، فقد عزاه لابن السائب.

(٤) فيما روى عطاء عن ابن عباس: أنهم الذين وحّدوا الله وآمنوا به. انظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٨٥).

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ
وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معناه: آلهتكم خيرٌ أم الذي خلق السموات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ بساتين جمع حديقة، قال الفرَّاء: الحديقة البستان المحاط عليه، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن، والبهجة: الحُسن يبتهج به من يراه ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي: ما ينبغي لكم؛ لأنكم لا تقدرون عليها ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهام على طريق الإنكار، أي: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه؟ بل ليس معه إله ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾ يعني: كفار مكة ﴿يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يشركون.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ لا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها[1] ﴿أَنْهَٰرًا﴾ تطرد بالمياه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ثوابت ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ مانعًا؛ لئلا يختلط أحدهما بالآخر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ توحيد ربهم وسلطانه.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المكروب المجهود ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الضر[2] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ سكانها، يهلك قرنًا وينشىء آخر، وقيل: يجعل أولادكم خلفاءكم، وقيل: جعلكم خلفاء الجن في الأرض ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ قرأ أبو عمرو بالياء، والآخرون بالتاء[3].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) ينبّه الله تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾، أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلَّا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟!

انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، وقد ساق جملة أحاديث في هذا المعنى.

(٣) أي: أإله مع الله يقدر على ذلك؟ أو أإله مع الله بعد هذا؟! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له؟ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: ما أقلّ تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم. انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٧٢).

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: قدام المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من السماء المطر، ومن الأرض النبات ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على قولكم أنَّ مع الله إلهًا آخر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نزلت في المشركين حيث سألوا النبي ﷺ عن وقت قيام الساعة(١) ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو «أدرك» على وزن أفعل، أي: بلغ الحق، كما يقال: أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، يريد: ما جهلوا في الدنيا وسقط علمُه عنهم عِلمُوه في الآخرة، قال مجاهد: يدرك علمهم ﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم، قال مقاتل: بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكُّوا وعمُوا عنه في الدنيا، وهو قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ يعني: هم اليوم في شك من الساعة، وقرأ الآخرون: «بل ادَّارك» موصولًا مشددًا مع ألف بعد الدال المشددة، أي: تدارك وتتابع علمهم في الآخرة وتلاحق.

وقيل: معناه: اجتمع علمهم في الآخرة أنها كائنة، وهم في شك في وقتهم، فيكون بمعنى الأول.

وقيل: هو على طريق الاستفهام، معناه: هل تدارك وتتابع علمهم بذلك في الآخرة؟ أي: لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه؛ لأن في الاستفهام ضربًا من الجحد يدل عليه.

قراءة ابن عباس «بلى» بإثبات الياء، «أَدَّارك» بفتح الألف على الاستفهام، أي: لم يدرك، وفي حرف أُبي «أم تدارك علمهم»، والعرب تضع «بل» موضع «أم»، و«أم» موضع «بل»(٢).

---

(١) راجع: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي» تأليف عثمان جمعة ضميرية: ص٧٨ ـ ٨١، ص٨٦ ـ ٩١.

(٢) انظر في المعاني والقراءات السابقة: الطبري: (٢٠/ ٦ ـ ٨).

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن
قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

وجملة القول فيه: أن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا.

وذكر علي بن عيسى أن معنى «بل» هاهنا: «لو»، ومعناه: لو أدركوا في الدنيا ما أدركوا في الآخرة
/ لم يشكوا. ١/٥٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بل هم اليوم في الدنيا في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ جمع عمٍ، وهو الأعمى القلب، قال الكلبي: يقول: هم جهلة بها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ من قبورنا أحياء، قرأ أهل المدينة: «إذا» غير مستفهم، «أئنَّا» بالاستفهام، وقرأ ابن عامر والكسائي: «أإذا» بهمزتين، («إننا» بنونين، وقرأ الآخرون باستفهامها.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: هذا البعث)[1] ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل محمد، وليس ذلك بشيء ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم إياك، وإعراضهم عنك ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ﴾ أي: دنا وقرب ﴿لَكُم﴾ وقيل: تبعكم، والمعنى: ردفكم، أدخل اللام كما أدخل في قوله: «لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ»[الأعراف: ١٥٤]، قال الفراء: اللام صلة زائدة، كما تقول: نقدته مائة، ونقدت له ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ من العذاب فحلَّ بهم ذلك يوم بدر.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا
الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ
إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال مقاتل: على أهل مكة، حيث لم يعجل عليهم العذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ ما تخفي[1] ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ أي: جملة غائبة من: مكتوم سرٍّ، وخفيِّ أمرٍ، وشيءٍ غائب ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ أي: في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: يبيِّن لهم ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ من أمر الدين، قال الكلبي: إنَّ أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابًا يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ يفصل[1] ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المختلفين في الدين يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ﴾ الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع، فلا يرد له أمر ﴿الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ بأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ البيِّن.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ يعني: الكفار ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ قرأ ابن كثير «لا يَسْمَعُ» بالياء وفتحها وفتح الميم «الصُّمُّ» رفع، وكذلك في سورة الروم، وقرأ الباقون بالتاء وضمها وكسر الميم، «الصُّمَّ» نصب ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ معرضين. فإن قيل: ما معنى قوله: «وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»، وإذا كانوا صمًّا لا يسمعون[1] سواء ولَّوا أو لم يولوا؟ قيل: ذكره على سبيل التأكيد والمبالغة.

وقيل: الأصم إذا كان حاضرًا فقد يسمع برفع الصوت ويفهم بالإشارة، فإذا ولَّى لم يسمع ولم يفهم، قال قتادة: الأصم إذا ولى مدبرًا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان.

---

(١) ساقط من «أ».

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ومعنى الآية: أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصم الذي لا يسمع.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ قرأ الأعمش وحمزة: «تهدي» بالتاء وفتحها على الفعل، «العميَ» بنصب الياء هاهنا وفي الروم، وقرأ الآخرون «بهادي» بالباء على الاسم، «العميِ» بكسر الياء ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ ما تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلَّا من يصدق بالقرآن أنه من الله ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ مخلصون.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وجب العذاب عليهم، وقال قتادة: إذا غضب الله عليهم ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحدٍ: هذا مؤمن، وتقول لآخر: هذا كافر[(١)].

وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قال مقاتل: تكلمهم بالعربية، فتقول: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث.

قرأ أهل الكوفة: «أن الناس» بفتح الألف، أي: بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، أي: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها.

قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر[(٢)].

وقرأ سعيد بن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي: «تَكْلمهم» بفتح التاء وتخفيف اللام من «الكَلْم» وهو الجرح.

قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن هذه الآية: «تُكَلِّمُهم أو تَكْلِمُهم»؟ قال: كل ذلك تفعل، تُكَلِّم المؤمن، وتَكْلِمُ الكافر[(٣)].

---

(١) ذكر أبو حيان القولين في «البحر المحيط»: (٧/ ٩٧).
(٢) الطبري: (٢٠/ ١٤)، «الدر المنثور»: (٦/ ٣٧٧) موقوفًا، وروي مرفوعًا عند ابن مردويه.
(٣) واستحسنه ابن كثير: (٣/ ٣٧٥)، قال: (وهو قول حسن ولا منافاة والله أعلم). وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٧٨).

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا العلاء ابن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادرُوا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، وخاصة أحدكم، وأمر العامة»[(١)].

أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة، أخبرنا محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إنَّ أوَّل الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحًى، وأيّهما كانت قبل صاحبتها فالأُخرى على إثرها قريبًا»[(٢)].

وأخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن فنجويه، أخبرنا أبو بكر بن خرجة، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، أخبرنا هشيم بن حماد، أخبرنا عمرو بن محمد العبقري، عن طلحة بن عمرو، عن عبد الله بن عمير الليثي، عن أبي سريحة الأنصاري، عن النبي ﷺ قال: «يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خروجًا بأقصى اليمن فيفشوا ذكرها بالبادية / ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني: مكة ـ ثم تمكث زمانًا طويلًا، ثم تخرج خرجة أخرى قريبًا من ٥٩/ب
مكة، فيفشو ذكرها بالبادية، ويدخل ذكرها القرية ـ يعني: مكة ـ فبينما الناس يومًا في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عزَّ وجلَّ ـ يعني: المسجد الحرام ـ لم يرعهم إلَّا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو ـ كذا قال ابن عمر ـ وما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك فارفضَّ الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية، ثم ولَّت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي؟ فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه، فيتجاوز الناس في ديارهم، ويصطحبون في أسفارهم، ويشتركون في الأموال، يُعرف الكافر من المؤمن، فيقال للمؤمن: يا مؤمن، ويقال للكافر: يا كافر»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال برقم٢٩٤٧: (٤/ ٢٢٦٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، باب خروج الدجال برقم٢٩٤١: (٤/ ٢٢٦٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٩٣).

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٢٠/ ١٤ ـ ١٥) موقوفًا، ورفعه الحاكم: (٤/ ٤٨٤)، قال الذهبي: (وفيه طلحة بن عمرو، ضعفوه وتركه أحمد)، وقال في «الميزان»: (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢): (ضعفه ابن معين وغيره، وقال البخاري وابن المديني: ليس بشيء)، وأخرجه الطيالسي في «المسند»: ص١٤٤، وعزاه الهيثمي في «المجمع»: (٨/ ٧) للطبراني، وزاد السيوطي في «الدر»: (٦/ ٣٨١) نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث». وانظر: «الفتح السماوي»: (٢/ ٨٩١ ـ ٨٩٢).

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسن بن محمد، أخبرنا أبو بكر بن مالك القطيعي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، أخبرنا أبي، حدثنا بهز، حدثنا حماد هو ابن أبي سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم(1) أنف الكافر بالخاتم، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر»(2).

وروي عن علي قال: ليست بدابة لها ذنب، ولكن لها لحية، كأنه يشير إلى أنه رجل(3)، والأكثرون على أنها دابة.

وروى ابن جريج عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس الثور، وعينها عين الخنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيَّل، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر(4)، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعًا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلَّا نكتته في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء لها وجهه، ولا يبقى كافر إلَّا نكتت وجهه بخاتم سليمان فيسود لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم يا مؤمن؟ بكم يا كافر؟ ثم تقول له الدابة: يا فلان أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية(5).

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني عقيل بن محمد الجرجاني الفقيه، أخبرنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادي، أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أخبرنا أبو كريب، أخبرنا الأشجعي، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن ابن عمر قال: تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها(6).

---

(1) في «أ»: (تختم).

(2) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النمل: (9/ 44)، وقال: (هذا حديث حسن)، وابن ماجه في الفتن، باب دابة الأرض: (2/ 1351 ـ 1352)، والحاكم في «المستدرك»: (4/ 485 ـ 486)، وسكت عنه الذهبي، ورواه الإمام أحمد: (2/ 295)، والطبري في «التفسير»: (20/ 16)، وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(3) انظر: ابن كثير: (3/ 377)، القرطبي: (13/ 236)، وروي عنه غير هذا، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال: قيل لعلي بن أبي طالب: إن ناسًا يزعمون أنك دابة الأرض، فقال: والله إن لدابة الأرض ريشًا وزغبًا، وما لي ريش ولا زغب، وإن لها لحافر، وما لي من حافر. انظر: «الدر المنثور»: (6/ 382).

(4) في «أ»: (بقر).

(5) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، انظر: «الدر المنثور»: (6/ 383).

(6) أخرجه الطبري: (20/ 14)، وعزاه السيوطي: (6/ 382) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن المنذر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وبه عن محمد بن جرير الطبري قال: حدثني (عصام بن داود)[1] بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان ابن سعيد، أخبرنا منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة، قلت: يا رسول الله، من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حرمة على الله، بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضرب الأرض تحتهم، وتنشق الصفا مما يلي المشعر، وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدر منها رأسها ملمعة ذات وبرٍ وريش، لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب، تُسمي الناس مؤمنًا وكافرًا، أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء، وتكتب بين عينيه كافر»[2].

وروي عن ابن عباس: أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم، وقال: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه.

وعن عبد الله بن عمرو قال: تخرج الدابة من شعب، فيمس رأسها السحاب، ورجلاها في الأرض ما خرجتا، فتمر بالإنسان يصلي فتقول: ما الصلاة من حاجتك، فتخطمه[3].

وعن ابن عمر قال: تخرج الدابة ليلة جَمْع، والناس يسيرون إلى مِنًى.

وعن سهيل بن صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بئس الشعب شعب أجياد» مرتين أو ثلاثًا، قيل: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها مَنْ بين الخافقين»[4].

وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، فتخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون[5].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: من كل قرن جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وليس «من» هاهنا للتبعيض؛ لأن جميع المكذبين يحشرون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقوا إلى النار.

---

(١) في «أ»: (عاصم بن رواد).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٠/ ١٥)، وقد تقدم الحديث نفسه من رواية حذيفة بن أسيد، قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٣٧٦): (رواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفًا، والله أعلم، ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعًا، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم وهو يطوف، ولكن إسناده لا يصح). وانظر: «مجمع الزوائد»: (٨/ ٧).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٠/ ١٦)، وعزاه السيوطي: (٦/ ٣٨٣) لنعيم بن حماد في «الفتن» عن عمرو بن العاص.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٥/ ١٨١)، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» والطبراني في «الأوسط»، وفيه رباح بن عبيد الله بن عمر، وهو ضعيف. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٨٢)، «مجمع الزوائد»: (٨/ ٧).

(٥) ويلاحظ في الروايات الآنفة أن فيها تعارضًا واختلافًا وضعفًا في كثير منها، ولذلك قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٩٦ ـ ٩٧): (واختلفوا في ماهيتها ـ الدابة ـ وشكلها، ومحل خروجها، وعدد خروجها، ومقدار ما تخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به، اختلافًا مضطربًا معارضًا بعضه بعضًا، ويكذب بعضه بعضًا، فاطرحنا ذكره؛ لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح وتضييع لزمان نقله).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ الله لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ ولم تعرفوها حق معرفتها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ حين لم تفكروا فيها، ومعنى الآية: أكذبتم بآياتي غير عالمين بها، ولم تفكروا في صحتها بل كذبتم بها جاهلين؟ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب العذاب ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بما أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجة لهم، نظيره قوله تعالى: «هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»[المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقيل: لا ينطقون؛ لأن أفواههم مختومة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خلقنا[(١)] ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا[(١)] يبصر فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ يصدقون فيعتبرون.

٦٠/أ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والصور: قرن ينفخ فيه / إسرافيل، وقال الحسن: الصور هو القرن، وأوّل بعضهم كلامه أن الأرواح تجمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد فتحيا الأجساد، وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فصعق، كما قال في آية أخرى: «فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ»[الزمر: ٦٨]، أي: ماتوا، والمعنى: أنهم يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا، وقيل: ينفخ إسرافيل (في الصور)[(١)] ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين[(٢)].

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اختلفوا في هذا الاستثناء، روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سأل جبريل عن قوله: «إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ»، قال: هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش[(٣)].

وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس: هم الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم[(٤)]، وفي بعض الآثار: «الشهداء ثنية الله عزَّ وجلَّ»[(٥)]، أي: الذين استثناهم الله تعالى.

---

(١) ساقط من «أ». (٢) روى الطبري في ذلك حديثًا مطولًا مرفوعًا: (٢٠/ ١٩).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر»: (٧/ ٢٤٩) لأبي يعلى، والدارقطني في «الأفراد»، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٤) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٢٥٠)، «زاد المسير»: (٦/ ١٩٥).

(٥) عزاه السيوطي: (٧/ ٢٥٠) لسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبي هريرة موقوفًا، وهو مروي أيضًا عن سعيد بن جبير. انظر أيضًا: «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ١٤٩).

وقال الكلبي ومقاتل: يعني: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فلا يبقى بعد النفخة إلَّا هؤلاء الأربعة، ثم يقبض الله روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم روح ملك الموت، ثم روح جبريل فيكون آخرهم موتًا جبريل عليه السلام [(١)].

ويُروى أن الله تعالى يقول لملك الموت: خذ نفس إسرافيل، ثم يقول: من بقي يا ملك الموت؟ فيقول: سبحانك ربي تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام، بقي جبريل وميكائيل وملك الموت، فيقول: خذ نفس ميكائيل، فيأخذ نفسه، فيقع كالطود العظيم، فيقول: من بقي؟ فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت، بقي جبريل وملك الموت، فيقول: مت يا ملك الموت، فيموت، فيقول: يا جبريل من بقي؟ فيقول: تبارك وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني، قال: يا جبريل لابد من موتك، فيقع ساجدًا يخفق بجناحيه فيروى أن فضل خلقه على فضل ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب [(٢)].

ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش [(٣)]، فيقبض روح جبريل وميكائيل، ثم أرواح حملة العرش، ثم روح إسرافيل، ثم روح ملك الموت.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن علي الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينفخ في الصور فيصعق مَن في السموات ومَن في الأرض إلَّا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يرفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله عزَّ وجلَّ أم رفع رأسه قبلي؟ ومن قال: أنا خير من يونس بن مَتَّى فقد كذب» [(٤)].

قال الضحاك: هم رضوان، والحور، ومالك، والزبانية، وقيل: عقارب النار وحياتها [(٥)].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ١٩٥)، «الدر المنثور»: (٧/ ٢٥٠).

(٢) رواه الفريابي وعبد بن حميد وأبو نصر السجزي في «الإبانة» وابن مردويه عن أنس. انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٢٥٠).

(٣) استثناء حملة العرش مروي عن عكرمة في «الدر المنثور»: (٧/ ٢٥١).

(٤) أخرجه البخاري في مواضع كثيرة، منها: تفسير سورة الزمر، وفي الأنبياء، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام برقم ٢٣٧٣: (٤/ ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٠٥)، وقال: (هذا حديث متفق على صحته، أخرجاه من أوجهٍ عن أبي هريرة).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير»: (٦/ ١٩٥) عن ابن شاقلا من الحنابلة، ونقل القرطبي: (١٣/ ٢٤١)، وأبو حيان: (٧/ ١٠٠) عن بعض العلماء أن الصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، والله أعلم. والذي اعتمده الطبري وابن كثير أن المراد بهم الشهداء؛ لأحاديث أخرى وردت في ذلك، إذ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: الذين أحيوا بعد الموت ﴿أَتَوْهُ﴾ قرأ الأعمش وحمزة وحفص «أتوه» مقصورًا بفتح التاء على الفعل، أي: جاؤوا، وقرأ الآخرون بالمد وضم التاء كقوله تعالى: «وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا»[مريم: ٩٥] ﴿دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ صاغرين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ قائمة[١] واقفة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوي بها، وذلك أن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبُعْدِ ما بين أطرافه فهو في حسبان الناظر واقف وهو سائر، كذلك سير الجبال لا يرى يوم القيامة لعظمتها، كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه وهو سائر ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكم ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة بالياء، والباقون بالتاء.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ بكلمة الإخلاص: وهي شهادة أن لا إله إلَّا الله، قال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف ولا يستثني: أن الحسنة لا إله إلَّا الله، وقال قتادة: بالإخلاص، وقيل: هي كل طاعة[٢] ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: فمنها يصل الخير إليه، يعني: له من تلك الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب[١] والأمن من العذاب، أما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا؛ لأنه ليس شيء خيرًا من قوله لا إله إلَّا الله، وقيل: فله خير منها، يعني: رضوان الله، قال تعالى: «وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ»[التوبة: ٧٢]، وقال محمد ابن كعب وعبد الرحمن بن زيد: «فله خير منها»، يعني: الأضعاف، أعطاه الله تعالى بالواحدة عشرًا فصاعدًا[٣]، وهذا حسن؛ لأن للأضعاف خصائص، منها: أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف، ومنها: أن للشيطان سبيلًا إلى عمله وليس له سبيل إلى الأضعاف، ولا مطمع للخصوم في الأضعاف؛ ولأن الحسنة على استحقاق العبد والتضعيف كما يليق بكرم الرب تبارك وتعالى.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ قرأ أهل الكوفة «من فزعٍ» بالتنوين، «يومَئذٍ» بفتح الميم، وقرأ الآخرون بالإضافة؛ لأنه أعم، فإنه يقتضي الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وبالتنوين كأنه فزع دون فزع، ويفتح أهل المدينة الميم من يومئذ.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر: الطبري: (٢٠/ ٢٢ ـ ٢٣)، ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن كلمة التوحيد «شهادة لا إله إلَّا الله» هي كلمة الإخلاص، ولا طاعة إلَّا بإخلاص، والله أعلم.

(٣) راجع فيما سبق تفسير سورة الأنعام: (٢/ ٨٥ ـ ٨٦).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني: ألقوا على وجوههم، يقال: كَبَبْتُ الرجلَ: إذا ألقيتُه على وجهه، فانكبَّ وأكبَّ، وتقول لهم خزنة جهنم: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾ في الدنيا من الشرك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ يقول الله لرسوله ﷺ قل: إنما أمرت ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ يعني: مكة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ جعلها الله حرمًا آمنًا، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيدها، ولا / يختلى خلاها ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خلقًا ومُلكًا ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١﴾ لله. ٦٠/ب

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ يعني: أمرت أن أتلو القرآن ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أي: نفع اهتدائه يرجع إليه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾ من المخوِّفين، فليس عليَّ إلَّا البلاغ. نسختها آية القتال[1].

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: يوم بدر، من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، نظيره قوله عزَّ وجلَّ: («سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ»[الأنبياء: ٣٧]، وقال مجاهد)[2]: سيريكم آياته في السماء والأرض وفي أنفسكم، كما قال: «سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ»[فصلت: ٥٣] ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ يعني: تعرفون الآيات والدلالات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ وعدهم بالجزاء على أعمالهم.

* * *

(١) راجع فيما سبق: (١/٦٥٣)، تعليق (١).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

سورة القَصَص

مكية إلّا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة، وهي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ يصدقون بالقرآن.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ استكبر وتجبَّر وتعظَّم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فِرَقًا وأصنافًا في الخدمة والتسخير ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أراد بالطائفة: بني إسرائيل، ثم فسَّر الاستضعاف فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ سمَّى هذا استضعافًا؛ لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير يقتدى بهم، وقال قتادة: ولاة وملوكًا، دليله: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[المائدة: ٢٠]، وقال مجاهد: دعاة إلى الخير ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ يعني: أملاك فرعون وقومه يخلفونه في مساكنهم.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٨٩)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٠٠).

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نوطِّن لهم في أرض مصر والشام، ونجعلها لهم مكانًا يستقرون فيه ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي «ويرى» بالياء وفتحها، «فرعون وهامان وجنودهما» مرفوعات على أن الفعل لهم، وقرأ الآخرون بالنون وضمها، وكسر الراء، ونصب الياء ونصب ما بعده، بوقوع الفعل عليه ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ والحذر هو التوقي من الضرر، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل فكانوا على وَجَلٍ منه، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وهو وحي إلهام لا وحي نبوة، قال قتادة: قذفنا في قلبها(١)، وأم موسى يوخابذ بنت لاوى بن يعقوب ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ واختلفوا في مدة الرضاع، قيل: ثمانية أشهر، وقيل: أربعة أشهر، وقيل: ثلاثة أشهر، كانت ترضعه في حجرها، وهو لا يبكي ولا يتحرك(٢) ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ يعني: من الذبح ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ واليم: البحر، وأراد هاهنا: النيل ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ قيل: لا تخافي عليه من الغرق، وقيل: من الضيعة ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ على فراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال(٣): إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر، استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، فسلَّط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يدي نبيه.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها، وكانت قابلةٌ من القوابل التي وكَّلهنَّ فرعون بحَبَالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما ضرب بها الطلق أرسلت إليها فقالت: قد نزل بي ما نزل، فلينفعني حبك إيَّاي اليوم، قالت: فعالجت قبالتها، فلما أن وقع موسى بالأرض هَالَها نورٌ بين عيني موسى، فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى قلبها، ثم قالت لها: يا هذه، ما جئت إليك

---

(١) انظر: الطبري: (٢٠/ ٢٩ ـ ٣٠).

(٢) قال الإمام الطبري (٢٠/ ٣٠): (وأولى قيلٍ قيل في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر أم موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليمِّ، وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادها إياه، وأي ذلك كان، فقد فعلت ما أوحى الله إليها فيه، ولا خبر قامت به حجة، ولا فطرة في العقل لبيان أي ذلك كان من أيٍّ، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جلَّ ثناؤه، واليمُّ الذي أُمرت أن تلقيه فيه هو النيل).

(٣) رواية الضحاك عن ابن عباس منقطعة؛ لأنه لم يسمع من ابن عباس شيئًا.

حين دعوتني إلَّا ومن رأيي قتل مولودك، ولكن وجدت لابنك هذا حبًا ما وجدت حب شيء مثل حبه، فاحفظي ابنك فإني أراه هو عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون، فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى، فقالت أخته: يا أُماه هذا الحرس[1] بالباب، فلفَّتْ موسى في خرقة، فوضعته في التنور وهو مسجور، وطاش عقلها، فلم تعقل ما تصنع.

قال: فدخلوا فإذا التنور مسجور، ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت عليَّ زائرة، فخرجوا من عندها، فرجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى: فأين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه بردًا وسلامًا فاحتملته[2].

قال: ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها، فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتًا ثم تقذف التابوت في اليمّ وهو النيل، فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتًا صغيرًا، فقال لها النجار: ما تصنعين بهذا التابوت؟ قالت: ابن لي أخبئه في التابوت، وكرهت الكذب، قال: ولم تقل: أخشى عليه كيد فرعون، فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى، فلما همَّ بالكلام أمسك الله لسانه فلم يطق الكلام، وجعل يشير بيده فلم يدر الأُمناء ما يقول، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم: اضربوه، فضربوه وأخرجوه، فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم، فانطلق أيضًا يريد الأمناء فأتاهم؛ ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئًا، فضربوه وأخرجوه، فوقع في واد يهوي فيه حيران، فجعل لله عليه إن ردَّ لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه يحفظه حيث / ما كان، فعرف الله منه الصدق فردَّ عليه لسانه وبصره فخرَّ لله[3] ٦١/أ
ساجدًا، فقال: يا رب دلَّني على هذا العبد الصالح، فدلَّه الله عليه، فخرج من الوادي فآمن به وصدقه، وعلم أن ذلك من الله عزَّ وجلَّ.

وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها جميعَ الناس، فلم يطَّلع على حَبَلها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمنَّ به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن ففتشن النساء تفتيشًا لم يفتشن قبل ذلك مثله[3]، وحملت أم موسى بموسى[3] فلم يتنأ بطنها، ولم يتغير لونها، ولم يظهر لبنها، وكانت القوابل لا تتعرض لها، فلما كانت

---

(١) في «أ»: (الحارس).

(٢) ذكره القرطبي أيضًا عن وهب، وهو فيما يظهر متلقى عن أخبار أهل الكتاب، فإن وهبًا أدخل في التفسير كثيرًا من مروياتهم كما قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) ساقط من «أ».

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾

الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة، ولم يطلع عليها أحد إلّا أخته مريم، فأوحى الله إليها «أن أرضعيه، فإذا خفت عليه . . .» الآية، فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها، لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه عملت تابوتًا له مطبقًا ثم ألقته في البحر ليلًا.

قال ابن عباس وغيره: وكان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها، وكانت من أكرم الناس عليه، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون، وكان بها برص شديد، وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها، فقالوا له: أيها الملك لا تبرأ إلّا من قِبَل البحر، يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم، وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج، فقال فرعون: إن هذا لشيءٌ في البحر قد تعلق بالشجرة ائتوني به، فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورًا لم يره غيرها، فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في مهده، وإذا نور بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمصه لبنًا، فألقى الله لموسى المحبة في قلب آسية، وأحبه فرعون وعطف عليه، وأقبلت بنت فرعون، فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت، فقبّلته وضمته إلى صدرها، فقال الغواة من قوم فرعون: أيها الملك إنَّا نظن أن ذلك المولود الذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا، رمي به في البحر فرقًا منك فاقتله، فهمَّ فرعون بقتله، قالت آسية: قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه، قال رسول الله ﷺ: «لو قال فرعون يومئذ هو قرة عين لي كما هو لكِ لهداه الله كما هداها»[1]، فقيل لآسية سميه، فقالت: سميته موسى؛ لأنَّا وجدناه في الماء والشجر فمو: هو الماء، وسى هو الشجر[2]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

---

(١) انظر: الطبري: (٢٠/ ٣٢)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٦، ومابعدها)، وقد تقدم تخريج حديث الفتون في تفسير سورة طه، وهذا قطعة منه.

(٢) في «أ»: (البحر).

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك، قرأ حمزة والكسائي «حُزنًا» بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاي، وهما لغتان ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ عاصين[1] آثمين.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ قال وهب: لما وضع التابوت بين يدي فرعون فتحوه فوجد فيه موسى، فلما نظر إليه قال عبراني من الأعداء فغاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلامَ الذبحُ؟ وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وكانت أمًّا للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم، قالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة، وإنما أمرت أن يذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكون قرة عين لي ولك ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ وروي أنها قالت له: إنه أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ أن هلاكهم على يديه، فاستحياه فرعون، وألقى الله عليه محبته وقال لامرأته: عسى أن ينفعك، فأما أنا فلا أريد نفعه، قال وهب: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله، ولكنه أبى، للشقاء الذي كتبه الله عليه[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ أي: خاليًا من كل شيء إلّا من ذكر موسى وهمه، وهذا قول أكثر المفسرين[3].

وقال الحسن: «فارغًا»، أي: ناسيًا للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا تحزن، والعهد الذي عهد أن يرده إليها ويجعله من المرسلين، فجاءها الشيطان فقال: كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنتِ قتله فألقيتِه في البحر وأغرقتِه، ولما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت: إنه وقع في يد عدوه الذي فررت منه، فأنساها عظيم البلاء ما كان من عهد الله إليها.

---

(١) ساقط من «أ».
(٢) انظر: الطبري: (٢٠/ ٣٤).
(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٣٩٤ـ ٣٩٥)، وهو ما رجحه الطبري: (٢٠/ ٣٧).

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾

وقال أبو عبيدة: «فارغًا»، أي: فارغًا من الحزن، لعلمها بصدق وعد الله تعالى، وأنكر القتيبي هذا، وقال كيف يكون هذا والله تعالى يقول: «إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها»؟ والأول أصح.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ قيل: الهاء في «به» راجعة إلى موسى، أي: كادت
٦١/ب لتبدي به أنه ابنها من شدة / وجدها، وقال عكرمة عن ابن عباس: كادت تقول: وابناه، وقال مقاتل: لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها، وقال الكلبي: كادت تظهر أنه ابنها، وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شبَّ: موسى بن فرعون، فشق عليها فكادت تقول: بل هو ابني، وقال بعضهم: الهاء عائدة إلى الوحي، أي: كادت تبدي بالوحي الذي أوحى الله إليها أن يردَّه إليها[1].

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالعصمة والصبر والتثبيت ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ المصدقين لوعد الله حين قال لها: «إنَّا رادُّوه إليك».

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أي: لمريم أخت موسى: ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره؛ حتى تعلمي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بعد، وفي القصة أنها كانت تمشي جانبًا وتنظر اختلاسًا تُري أنها لا تنظره ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ أنها أُخته وأنها ترقبه، قال ابن عباس: إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة، فكلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ والمراد من التحريم: المنع، والمراضع: جمع المرضع ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أم موسى، فلما رأت أختُ موسى التي أرسلتها أمه في طلبه ذلك قالت لهم: هل أدلكم؟ وفي القصة أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثديًا ويصيح، وهم في طلب مرضعة له.

﴿فَقَالَتْ﴾ يعني: أخت موسى ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ أي: يضمنونه[2] ﴿لَكُمْ﴾ ويرضعونه، وهي امرأة قد قتل ولدها، فأحبُّ شيءٍ إليها أن تجد صغيرًا ترضعه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ والنصح ضد الغش، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد، قالوا: نعم فأْتِينا بها.

---

(١) ذكر هذه الأقوال الطبري: (٢٠/ ٣٧ ـ ٣٨)، ثم قال: (والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين ذكرنا قولهم أنهم قالوا: إن كادت لتقول: يا بُنَيَّاه! لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، وأنه عقيب قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾؛ فلأن يكون لو لم يكن ممن ذكرنا في ذلك إجماع على ذلك من ذكر موسى، لقربه منه، أشبه من أن يكون من ذكر الوحي . . .).

(٢) في «أ»: (يضمونه).

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا
مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

قال ابن جريج والسدي: لما قالت أخت موسى: «وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ»، أخذوها وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله، فقالت: ما أعرفه، وقلت هم للملك ناصحون.

وقيل: إنها قالت: إنما قلت هذا؛ رغبة في سرور الملك واتصالنا به.

وقيل: إنها لما قالت: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ»، قالوا لها: من؟ قالت: أمي، قالوا: ولأمك ابن؟ قالت: نعم هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها، قالوا: صدقت، فأتينا بها، فانطلقت إلى أمها وأخبرتها بحال ابنها، وجاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ريح أمه قَبِل ثديها، وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريًّا.

قال السدي: كانوا يعطونها كل يوم دينارًا، فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بردِّ موسى إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: ولئلا تحزن ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ برده إليها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ أن الله وعدها ردَّه إليها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الكلبي: قال الكلبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، (قال مجاهد وغيره: ثلاث وثلاثون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: بلغ أربعين سنة)[1]، ورواه[2] سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقيل: استوى: انتهى شبابه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: الفقه والعقل والعلم في الدين، فعلم موسى وحكم قبل أن يُبعث نبيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يعني: دخل موسى المدينة، قال السدي: هي مدينة «منف» من أرض مصر، وقال مقاتل: كانت قرية «حابين» على رأس فرسخين من مصر، وقيل: مدينة «عين الشمس»[3] ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة، وقال محمد بن كعب القرظي: دخلها فيما بين المغرب والعشاء.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٢) في «ب»: (وهذه رواية).
(٣) في «أ»: (عين شمس).

واختلفوا في السبب الذي من أجله دخل المدينة في هذا الوقت، قال السدي: وذلك أن موسى عليه السلام كان يُسمى ابن فرعون، فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه، فركب فرعون يومًا وليس عنده موسى، فلما جاء موسى قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض «منف» فدخلها نصف النهار، وليس في طرفها أحد، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا».

قال ابن إسحاق: كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يستمعون منه ويقتدون به، فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه، فخالفهم في دينه حتى ذكر ذلك منه وخافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلَّا خائفًا مستخفيًا، فدخلها يومًا على حين غفلة من أهلها.

وقال ابن زيد: لما علا موسى فرعونَ بالعصا في صغره، فأراد فرعون قتله، قالت امرأته: هو صغير، فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل عليهم إلَّا بعد أن كبر وبلغ أشده، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، يعني: عن ذكر موسى، أي: من بعد نسيانهم خبره وأمره لبعد عهدهم به(١).

ورُوي عن علي في قوله: «حين غفلة» كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ يختصمان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من القبط، قيل: الذي كان من شيعته السامري، والذي من عدوه من القبط، قيل: طباخ فرعون، اسمه: فليثون، وقيل: «هذا من شيعته، وهذا من عدوه»، أي: هذا مؤمن، وهذا كافر، وكان القبطي يسخِّر الإسرائيلي؛ ليحمل الحطب إلى المطبخ.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم، فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، والاستغاثة: طلب الغوث، فغضب موسى واشتد غضبه؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلَّا أنه من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني: خلِّ سبيله، فقال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، فنازعه، فقال الفرعوني: / لقد هممت أن أحمله عليك، وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة ١/٦٢
والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وقرأ ابن مسعود: «فلكزه موسى»، ومعناهما واحد، وهو الضرب بجمع الكف، وقيل: «الوكز» الضرب في الصدر، و«اللكز» في الظهر، وقال الفراء: معناهما واحد، وهو الدفع، قال

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري: (٢٠/ ٤٣ ـ ٤٤)، ثم قال: (وأولى الأقوال في الصحة بذلك أن يقال كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ...﴾، ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، أي: حسبنا هذا، إذ لم يرد نص صحيح في سبب دخوله عليه السلام المدينة على حين غفلة من أهلها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

أبو عبيدة: الوكز الدفع بأطراف الأصابع، وفي بعض التفاسير: عقد موسى ثلاثًا وثمانين وضربه في صدره ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله وفرغ من أمره، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه، فندم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يكن قصده القتل، فدفنه في الرمل ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: بيِّن الضلالة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتل القبطي من غير أمر ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عونًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ قال ابن عباس: للكافرين، وهذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرًا، وهو قول مقاتل، قال قتادة: لن أعين بعدها على خطيئة، قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في المدينة التي قتل فيها القبطي ﴿خَآئِفًا﴾ من قتله القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ينتظر سوءًا، والترقُّب: انتظار المكروه، قال الكلبي: ينتظر متى يؤخذ به ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه ويصيح به من بُعْدٍ، قال ابن عباس: أُتي فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا منَّا رجلًا فخذ لنا بحقنا، فقال: ابغوا لي قاتله ومن يشهد عليه، فلا يستقيم أن يقضي بغير بينة، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مرَّ موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونيًّا فاستغاثه على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطي ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ ظاهر الغواية، قاتلت بالأمس رجلًا فقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟

وقيل: إنما قال موسى للفرعوني: إنك لغوي مبين بظلمك، والأول أصوب، وعليه الأكثرون أنه قال ذلك للإسرائيلي.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وذلك أن موسى أدركته الرقة[1] بالإسرائيلي فمدَّ يده

(١) في «أ»: (الرأفة).

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

ليبطش بالفرعوني، فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضبه وسمع قوله: إنك لغوي مبين ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل ظلمًا ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى.

قال ابن عباس: فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ من شيعة موسى ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: من آخرها، قال أكثر أهل التأويل: اسمه «حزبيل» مؤمن من آل فرعون، وقيل: اسمه «شمعون»، وقيل: «شمعان» ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع في مشيه، فأخذ طريقًا قريبًا حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقًا آخر ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يعني: أشراف قوم فرعون يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال الزجاج: يأمر بعضهم بعضًا بقتلك ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ في الأمر لك بالخروج.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ موسى ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ الكافرين وفي القصة: أن فرعون بعث في طلبه حين أخبر بهربِهِ فقال: اركبوا ثنيات الطريق فإنه لا يعرف كيف الطريق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قصد نحوها ماضيًا إليها، يقال: داره تلقاء دار فلان، إذا كانت محاذيتها، وأصله من اللقاء، قال الزجاج: يعني: سلك الطريق الذي تلقاء مدين فيها، ومدين هو مدين بن إبراهيم، سميت البلدة باسمه، وكان موسى قد خرج خائفًا بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قصد الطريق إلى مدين؛ قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها قبل، فلما دعا جاءه مَلَك بيده عَنَزَة فانطلق به إلى مدين.

قال المفسرون: خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام إلَّا ورق الشجر والبقل، حتى يرى خضرته في بطنه، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه.

قال ابن عباس: وهو أول ابتلاء من الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ وهو بئر يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ﴾ جماعة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ يعني: سوى الجماعة ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ يعني: تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر، قال الحسن: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، وقال قتادة: تكفان الناس عن أغنامهما، وقيل: تمنعان أغنامهما عن أن تشذ وتذهب، والقول الأول أصوبها؛ لما بعده، وهو قوله: ﴿قَالَ﴾ يعني: موسى للمرأتين: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي﴾ أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر «يَصْدُر» بفتح الياء وضم الدال على اللزوم، أي: حتى يرجع الرعاء عن الماء، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال، أي: حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء، و«الرِّعاء» جمع راع، مثل: تاجر وتجار.

ومعنى الآية: لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء؛ لأنا امرأتان لا نطيق أن نسقي، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض.

﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ لا يقدر أن يسقي مواشيه، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم.

واختلفوا في اسم أبيهما، فقال مجاهد والضحاك والسدي / والحسن: هو شعيب النبي عليه السلام. ٦٢/ب

وقال وهب بن منبه وسعيد بن جبير: هو يثرون[1] ابن أخي شعيب، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كُفَّ بصره، فدُفن بين المقام وزمزم. وقيل: رجل ممن آمن بشعيب[2].

---

(١) قال ابن كثير: (إن هذا موجود في كتب بني إسرائيل).

(٢) قال الطبري رحمه الله (٢٠/ ٦٢): (وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه...).

وبعد أن ذكر ابن كثير الآراء السالفة (٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦) قال: (وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة: لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل: إن شعيبًا عاش مدة طويلة إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب: أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده). ولذلك قال الأستاذ سيد قطب في «الظلال» (٥/ ٢٦٨٧) تعليق (١) ـ طبعة دار الشروق ـ: (... وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو شعيب، وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح: أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب النبي بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل! يضاف إلى هذا: أن القرآن لم يذكر شيئًا عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيبًا النبي سمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات).

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

قالوا: فلما سمع موسى قولهما رحمهما، فاقتلع صخرة من رأس بئر أُخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلَّا جماعة من الناس.

وقال ابن إسحاق: إن موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر، فسقى غنم المرأتين.

ويُروى: أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلَّا عشرة نفر، فجاء موسى ورفع الحجر وحده، وسقى غنم المرأتين.

ويقال: إنه نزع ذنوبًا واحدًا ودعا فيه بالبركة، فروَى منه جميع الغنم(١)، فذلك قوله:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل الشجرة، فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ طعام ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ قال أهل اللغة: «اللام» بمعنى «إلى»، يقال: هو فقير له، وفقير إليه، يقول: إني لما أنزلت إليَّ من خير، أي: طعام، فقير محتاج، كان يطلب الطعام لجوعه.

قال ابن عباس: سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه.

قال الباقر: لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لقد قال موسى: «رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»، وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة.

وقال مجاهد: ما سأله إلَّا الخبز(٢).

قالوا: فلما رجعتا إلى أبيهما سريعًا قبل الناس وأغنامُهما حُفَّل بطان، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلًا صالحًا رحمنا فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي.

---

(١) أخرج الفريابي وابن أبي شيبة في «المصنف» وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم ـ وصححه ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثرًا في ذلك، وساقه ابن كثير مختصرًا.

انظر. «المصنف»: (١١/ ٥٣٠ ـ ٥٣١)، «المستدرك»: (٢/ ٤٠٧)، الطبري: (٢٠/ ٦٤)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٠٥)، وابن كثير: (٣/ ٣٨٥)، وليس في شيء من الروايات التي ساقها المفسرون أي حديث مرفوع إلى النبي ﷺ في دلائل قوة موسى عليه السلام، كرفع الحجر الذي يغطي البئر، وكان لا يرفعه ـ فيما قالوا ـ إلَّا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . . . إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم موسى وسقى للمرأتين أو سقى لهما مع الرعاء.

ولا حاجة لما رواه كثير من المفسرين عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودلّيني على الطريق خوف أن يراها . . . فهذا كله تكلف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها، وموسى عليه السلام عفيف النظر، نظيف الحس، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف، فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع!.

انظر: «في ظلال القرآن»: (٥/ ٢٦٨٧ـ٢٦٨٨).

(٢) انظر هذه الروايات في: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٠٦ـ٤٠٧)، والله أعلم بهذا كله، فليس في شيء منها خبر عن النبي ﷺ.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ليست بسَلْفَعٍ من النساء[١] خَرَّاجة ولاجة، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كُمَّ درعها على وجهها استحياءً ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قال أبو حازم سلمة بن دينار: لما سمع ذلك موسى أراد أن لا يذهب، ولكن كان جائعًا فلم يجد بُدًّا من الذهاب، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها: امشي خلفي ودلِّيني على الطريق إن أخطأتُ، ففعلت ذلك، فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيأ، فقال: اجلس يا شاب فتعشَّ، فقال موسى: أعوذ بالله، فقال شعيب: ولِمَ ذاكَ ألستَ بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما، وإنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضًا من الدنيا، فقال له شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى وأكل[٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ يعني: أمره أجمع، مِنْ قتلِه القبطي وقَصْدِ فرعون قتله ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: فرعون وقومه، وإنما قال هذا؛ لأنه لم يكن لفرعون سلطان على مدين.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيرًا؛ ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ يعني: خير من استعملت مَن قَوِيَ على العمل وأدى الأمانة، فقال لها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: أمَّا قوته: فإنه رفع حجرًا من رأس البئر لا يرفعه إلَّا عشرة، وقيل: إلَّا أربعون رجلًا، وأمَّا أمانته: فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك.

---

(١) السَّلْفَع من النساء: الجريئة على الرجال، السليطة.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٤٠٧) لابن عساكر عن أبي حازم.
وما انفرد به ابن عساكر من الرواية فهو ضعيف.
قال السيوطي في مقدمة «زوائد الجامع الصغير»: (كل ما عزي لابن عدي في «الكامل»، والخطيب في «التاريخ»، والعقيلي في «الضعفاء»، وابن عساكر . . . فهو ضعيف).

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾

﴿قَالَ﴾ شعيب عند ذلك ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ واسمهما «صفورة» و«ليا» في قول شعيب الجبائي، وقال ابن إسحاق: «صفورة» و«شرقا»، وقال غيرهما: الكبرى «صفراء» والصغرى «صفيراء»، وقيل: زوَّجه الكبرى، وذهب أكثرهم إلى أنه زوَّجه الصغرى منهما واسمها «صفورة»، وهي التي ذهبت لطلب موسى[1] ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ يعني: أن تكون أجيرًا لي ثمان سنين، قال الفراء: تجعل ثوابي من تزويجها أن ترعى غنمي ثماني حجج، تقول العرب: آجرك الله بأجرك، أي: أثابك، والحجج: السنون، واحدتها حجة ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أي: إن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع، ليس بواجب عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ أي: ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال عمر: يعني: في حسن الصحبة، والوفاء بما قلت

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ يعني: هذا الشرط بيني وبينك، فما شرطت عليَّ فلك وما شرطتَ من تزويج إحداهما فلي[2]، والأمر بيننا، تم الكلام، ثم قال:

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ يعني: أي الأجلين، و«ما» صلة، «قضيت»: أتممت وفرغت منه، الثمان أو العشر ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لا ظلم عليَّ بأن أطالَب بأكثر منهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾ قال ابن عباس ومقاتل: شهيد فيما بيني وبينك، وقيل: حفيظ.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن عبد الرحيم، أخبرنا سعيد بن سليمان، أخبرنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب[3] فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس قال:

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٦/٤٠٨)، «زاد المسير»: (٦/٢١٦ ـ ٢١٧)، ابن كثير: (٣/٣٨٦)، وليس في شيء من الأحاديث تعيين اسم الصغرى والكبرى. وسيأتي حديث أبي ذر مرفوعًا في أنه تزوج الصغرى.

(٢) في «أ»: (عليَّ).

(٣) في البخاري: (حَبْر العرب).

قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل[١].

وروي عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما، وإذا سئلت: فأي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت: يا أبتِ استأجره، فتزوج أصغرهما وقضى أوفاهما[٢].

وقال وهب: أنكحه الكبرى[٣].

وروي عن شداد بن أوس مرفوعًا: بكى شعيب النبي ﷺ (من حب الله عزَّ وجلَّ)[٤] حتى عمي فردَّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردَّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردَّ الله عليه بصره، فقال الله: ما هذا البكاء؟ أشوقًا إلى الجنة أم خوفًا من النار؟ قال: لا يا رب، ولكن شوقًا إلى لقائك، فأوحى الله إليه / إن يكن ذلك فهنيئًا لك لقائي (يا شعيب)[٥]، لذلك أخدمتك موسى كليمي[٦]. ١/٦٣

ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصًا يدفع بها السباع عن غنمه، واختلفوا في تلك العصا، قال عكرمة: خرج آدم بها من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلًا فدفعها إليه[٧].

وقال آخرون: كانت من آس الجنة، حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء، وكان لا يأخذها غير نبي إلَّا أكلته، فصارت من آدم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب، فكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد: (٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠)، والمراد بقوله: «رسول الله ﷺ» من اتصف بذلك ولم يرد شخصًا بعينه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٢/ ١٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٢/ ١٢٨).
قال الهيثمي (٨/ ٢٠٣): (رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» والبزار باختصار، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران الجوني ضعَّفه ابن معين وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني ثقات). وانظر: (٧/ ٨٨) أيضًا، وساقه ابن كثير: (٣/ ٣٨٧) من رواية البزار الذي قال: (لا نعلم يروى عن أبي ذر إلَّا بهذا الإسناد) وفي إسناده: (عويد . . .) ومن حديثه رواه ابن أبي حاتم وفيه زيادة غريبة.

(٣) لم يصح عن النبي ﷺ حديث في أيهما تزوج: الصغرى أم الكبرى، وحسبنا ما جاء في كتاب الله تعالى من أنه أراد أن ينكحه إحدى ابنتيه، ولو كان في معرفة اسمها فائدة لسمَّاها الله تعالى في كتابه، والله أعلم.

(٤) ليست في المخطوطتين، وأثبتها من «تاريخ بغداد» حيث ساق الخطيب الحديث بسنده عن شداد بن أوس مرفوعًا.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد»: (٦/ ٣١٥). وعزاه المتقي في «كنز العمال»: (١١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩) للخطيب وابن عساكر عن شداد بن أوس، وقال: (وفيه إسماعيل بن علي بن الحسن ابن بندار بن المثنى الإستراباذي الواعظ، أبو سعيد، قال الخطيب: لم يكن موثوقًا به في الرواية، والحديث منكر)، وقال الذهبي في «الميزان» (١/ ٣٢٩): (هذا حديث باطل لا أصل له، وقال ابن عساكر: (رواه الواحدي عن ابن الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسين بن بندار كما رواه ابنه إسماعيل عنه، فقد برىء من عهدته، والخطيب إنما ذكره؛ لأنه حمل فيه على إسماعيل). وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (١/ ٤٩)، والألباني في «الضعيفة»: (٢/ ٤٢٥)، وقال: (ضعيف جدًا).

(٧) أخرجه الطبري عن عكرمة: (٢٠/ ٦٧).

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وقال السدي: كانت تلك العصا استودعها إياه مَلَك في صورة رجل، فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت فأخذت العصا فأتته بها، فلما رآها شعيب قال لها: ردي هذه العصا، واتيه بغيرها، فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها إلَّا هي، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى فأخرجها موسى معه، ثم إن الشيخ ندم وقال: كانت وديعة، فذهب في أثره، وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه، وقال: هي عصاي، فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما، فلقيهما مَلَك في صورة رجل فحكم أن يطرح العصا فمن حملها فهي له، فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ ليأخذها فلم يطقها، فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ[1].

ثم إن موسى لما أتمَّ الأجل وسلم شعيبُ ابنته إليه، قال موسى للمرأة: اطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم، فطلبت من أبيها، فقال شعيب: لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها[2].

وقيل: أراد شعيب أن يجازي موسى على حسن رعيته إكرامًا له وصلةً لابنته، فقال له: إني قد وهبت لك من الجدايا التي تضعها أغنامي هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستقى الأغنام قال: فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلَّا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله عزَّ وجلَّ إلى موسى وامرأته فوفَّى له شرطه وسلم الأغنام إليه[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ يعني: أتمه وفرغ منه ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قال مجاهد: لما قضى موسى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشرًا أخرى فأقام عنده عشرين سنة[4]، ثم استأذنه في العود إلى مصر، فأذن له، فخرج بأهله إلى جانب مصر ﴿ءَانَسَ﴾ يعني: أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾

---

(١) أخرجه الطبري عن السدي: (٢٠/ ٦٦ ـ ٦٧)، وليس في شيء من الروايات خبر عن النبي ﷺ في بيان هذه العصا، ولا فائدة من البحث في مثل هذه الأمور.

(٢) ذكر الهيثمي في ذلك حديثًا رواه البزار والطبراني وقال: (في إسناده ابن لهيعة وفيه ضعف، وقد يحسّن حديثه).
انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٨٧ ـ ٨٨)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، وقال: (مدار هذا الحديث على ابن لهيعة المصري، وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم).

(٣) انظر: التعليق السابق.

(٤) قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٣٨٨): (وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن أبي حاتم وابن جرير، فالله أعلم).
وانظر: الطبري: (٢٠/ ٦٩)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤١١).

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

وكان في البرية في ليلة مظلمة، شديدة البرد وأخذ امرأته الطلقُ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق؛ لأنه كان قد أخطأ الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يعني: قطعة وشعلة من النار، وفيها ثلاث لغات، قرأ عاصم «جَذْوة» بفتح الجيم، وقرأ حمزة بضمها، وقرأ الآخرون بكسرها، قال قتادة ومقاتل: هي العود الذي قد احترق بعضه، وجمعها «جِذًى»[1] ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تستدفئون.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ من جانب الوادي الذي عن يمين موسى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لموسى، جعلها مباركة؛ لأن الله كلَّم موسى هناك وبعثه نبيًا، وقال عطاء: يريد المقدسة ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ من ناحية الشجرة، قال ابن مسعود: كانت سَمُرة خضراء تبرق[2]، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: كانت عَوْسَجَة[3]، قال وهب من العُلَّيق[4]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها العنّاب[5] ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هاربًا منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ٱسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص، فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام بضم الراء وسكون الهاء، وبفتح الراء حفص، وقرأ الآخرون بفتحهما، وكلها لغات بمعنى الخوف.

ومعنى الآية: إذا هَالَكَ أمرُ يدك وما ترى من شعاعها فأدخِلْها في جيبك تعدْ إلى حالتها الأولى.

---

(١) وانظر: «لسان العرب»، مادة: (جذا)، الطبري: (٢٠/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) في الطبري: (شجرة سَمْراء خضراء ترفّ، والسمرة: شجرة من العضاه، جيّد الخشب).

(٣) شجرة من فصيلة الباذنجانيات، شائكة الأغصان.

(٤) نبات شائك معرش من فصيلة الورديات، ثمره أحمر وربما كان أصفر، وله نوى صلب مستدير.

(٥) وكأن تحديد جنس الشجرة مأخوذ من أهل الكتاب. انظر: الطبري: (٢٠/ ٧١)، ابن كثير: (٣/ ٣٨٩).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾

و«الجناح»: اليد كلها، وقيل: هو العضد، وقال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: أمره الله أن يضم يده إلى صدره[1] فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية، وقال: ما من خائف بعد موسى إلَّا إذا وضع يده على صدره زال خوفه.

قال مجاهد: كل من فزع فضم جناحية إليه ذهب عنه الفزع.

وقيل: المراد من ضم الجناح: السكون، أي: سكن روعك واخفض عليك جانبك؛ لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه، ومثله قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[الإسراء: ٢٤]، يريد: الرفق، وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٢١٥]، أي: ارفق بهم وألِنْ جانبك لهم.

قال الفراء: أراد بالجناح العصا، معناه: اضمم إليك عصاك.

وقيل: «الرَّهْب» الكُمّ بلغة حمير، قال الأصمعي: سمعت بعض الأعراب يقول: أعطني ما في رهبك، أي: في كمك، معناه: اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم؛ لأن تناول العصا ويده في كمه.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ يعني: العصا، واليد البيضاء ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ آيتان ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣﴾.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه[2] ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ عونًا، يقال ردأته، أي: أعنته، قرأ نافع «ردًا» بفتح الدال من غير همز طلبًا للخفة، وقرأ الباقون بسكون الدال مهموزًا ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ قرأ عاصم وحمزة برفع القاف على الحال، أي: ردءًا مصدقًا، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والتصديق لهارون في قول الجميع، قال مقاتل:
٦٣/ب لكي يصدقني / فرعون ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ يعني: فرعون وقومه.

---

(١) في «أ»: (عضده).

(٢) تقدم ذلك في حديث الفتون في سوره «طه»، وفي هذه السورة، وهو في «الدر المنثور»: (٥/٥٦٩ ـ ٥٧٩)، وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»: (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٧)، وقال: (هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن كثير وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» من حديث يزيد بن هارون، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنه موقوف، وكونه مرفوعًا فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، وفيه شيء يسير مصرّح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك، والله أعلم).

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ
ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى
وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ
مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى
صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نقويك بأخيك، وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ حجّةً وبرهانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا بما نعطيكما من المعجزات فلا يصلون إليكما ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مختلق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ بالذي تدعونا إليه ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قرأ أهل مكة بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ بالمحقّ من المبطل ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ العقبى المحمودة في الدار الآخرة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: الكافرون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فاطبخ لي الآجر، وقيل: إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا، وقيل: منارة، قال أهل التفسير[1]: لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء، ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير، فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعًا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، أراد الله عزَّ وجلَّ أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي ملطخة دمًا، فقال: قد قتلتُ إلهَ موسى، وكان فرعون يصعد على البراذين، فبعث الله جبريل جنح غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب،

(١) في «ب»: (السِّيَر).

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولم يبق أحد ممن عمل فيه بشيء إلّا هلك[1]، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أنظر إليه، وأقف على حاله ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ يعني: موسى ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في زعمه أن للأرض والخلق إلهًا غيري، وأنه رسوله.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي ويعقوب: «يَرْجِعون» بفتح الياء وكسر الجيم، (والباقون بضم الياء وفتح الجيم)[2].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ فالقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ورؤساء ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ لا يمنعون من العذاب.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خزيًا وعذابًا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ من المبعدين[3] الملعونين، وقال أبو عبيدة: من المهلكين، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون، يقال: قَبَحه الله، وقبَّحه: إذا جعله قبيحًا، ويقال: قبحه قبحًا، وقبوحًا: إذا أبعده من كل خير.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بما فيه من المواعظ والبصائر.

---

(١) ذكره الطبري مختصرًا عن السدي: (٢٠/ ٧٨)، والقرطبي: (١٣/ ٢٨٩)، وقال مشيرًا إلى تضعيف هذا القول: (والله أعلم بصحة ذلك).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) في «أ»: (المعذبين).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد[1] ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ يعني: بجانب الجبل الغربي، قاله قتادة والسدي، وقال الكلبي: بجانب الوادي الغربي، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: حيث ناجى موسى ربَّه ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ يعني: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ خلقنا أممًا بعد موسى عليه السلام ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وتركوا أمره، وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهودًا في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تذكرهم بالوعد والوعيد، قال مقاتل: يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أرسلناك رسولًا وأنزلنا عليك كتابًا فيه هذه الأخبار، فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بناحية الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ قيل: إذ نادَيْنا موسى: خذِ الكتاب بقوَّة[2].

وقال وهب: قال موسى: يا ربِّ أرني محمدًا، قال: إنك لن تصل إلى ذلك، وإن شئت ناديت أُمته وأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا رب، قال الله تعالى: يا أُمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم[3].

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ونادى يا أمة محمد، قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني[4].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) قال ابن الجوزي في «زاد المسير»: (إذ نادينا) موسى وكلَّمناه، هذا قول الأكثرين: (٦/ ٢٢٦).

(٣) ذكره القرطبي: (١٣/ ٢٩٢)، وتقدم في موضع سابق أن هذا من الأخبار الملقاة عن أهل الكتاب مما أدخله وهب وغيره في مرويات التفسير، والله أعلم.

(٤) أخرجه النسائي في التفسير من «سننه» عن أبي زرعة عن أبي هريرة.

=

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ورفعه بعضهم: قال الله: يا أمة محمد، فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، قال الله تعالى: يا أمة محمد، إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي سبق عقابي، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصوني، من جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا عبدي ورسولي دخل الجنة، وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن رحمناك رحمة بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك
٦٤/أ على الأخبار الغائبة عنك / ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعصية ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وجواب «لولا» محذوف، أي: لعاجلناهم بالعقوبة، يعني: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، وقيل: معناه: لما بعثناك إليهم رسولًا ولكن بعثناك إليهم؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿قَالُوا۟﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ هلَّا ﴿أُوتِىَ﴾ محمدٌ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ (من الآيات كاليد البيضاء والعصا، وقيل: مثل ما أُوتي موسى)[(٢)] كتابًا جملة واحدة.

= قال ابن كثير (٣/ ٣٩٢). (وهكذا رواه ابن جرير: ٢٠/ ٨١، وابن أبي حاتم من حديث جماعة عن حمزة، وهو ابن حبيب الزيات عن الأعمش، ورواه ابن جرير: ٢٠/ ٨١ من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه، والله أعلم).

وزاد السيوطي في «الدر»: (٦/ ٤١٨) نسبه للفريابي والحاكم ـ وصححه ـ، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معًا في «الدلائل» عن أبي هريرة.

(١) عزاه السيوطي لابن مردويه عن ابن عباس. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤١٨).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: فقد كفروا بايات موسى كما كفروا بآيات محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قرأ أهل الكوفة «سحران»، أي: التوراة والقرآن، «تظاهرا» يعني: كل سحر يقوي الآخر، نسب التظاهر إلى السحرين على الاتساع، قال الكلبي: كانت مقالتهم تلك حين بعثوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا: سِحْرَان تظاهرا. وقرأ الآخرون «ساحران» يعنون: محمدًا وموسى عليهما السلام؛ لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالكتب ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ يعني: التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: لم يأتوا بما طلبت ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بيَّنَّا، قال الفرَّاء: أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضًا، قال قتادة: وصل لهم القول في هذا القرآن، يعني: كيف صنع بمن مضى، قال مقاتل: بيَّنَّا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا[1] بتكذيبهم، وقال ابن زيد: وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة[2] حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل محمد ﷺ، وقيل: من قبل القرآن ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه[3].

وقال مقاتل: بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي ﷺ[4].

(١) في «أ»: (كيف عذوا).
(٢) في «ب»: (خبر الدنيا بخبر الآخرة).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. انظر: «الدر المنثور»: (٦/٤٢٦)، «زاد المسير»: (٦/٢٢٩)، «البحر المحيط»: (٧/١٢٥).
(٤) انظر فيما سبق: (١/٤٠٧).

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(وقال سعيد بن جبير: هم أربعون رجلًا قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي ﷺ)[1]، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا: يا نبي الله، إن لنا أموالًا (فإن أذنت لنا انصرفنا)[1] وجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها (فأذن لهم، فانصرفوا فأتوا بأموالهم، فواسوا بها المسلمين)[1]، فنزل فيهم: «ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ»، إلى قوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ»[2].

وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب: أربعون من نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من الشام[3]، ثم وصفهم الله فقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ وذلك أن ذكر النبي ﷺ كان مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي حق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على دينهم.

قال مجاهد: نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا[4].

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حفص الجويني، أخبرنا أحمد بن سعيد الدارمي، أخبرنا عثمان، أخبرنا شعبة، عن صالح، عن الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبدٌ أحسن عبادةَ الله ونصحَ سيِّده»[5].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٢٧). وأخرج الطبراني نحوه مطولًا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بسندٍ فيه مَن لا يعرف. انظر: «أسباب النزول» للسيوطي بهامش «تفسير الجلالين»: ص٧٢١، في أسباب نزول سورة الحديد.

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٢٢٩)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)، وراجع فيما سبق: (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧)، والله أعلم أي ذلك كان. (وأيًّا كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه، كي يقفهم وجهًا لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق، وتعلق مطابقته لما بين أيديها من الكتاب، ولا يصدها عنه صادّ من هوًى ولا من كبرياء، وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء). انظر: «في ظلال القرآن»: (٥/ ٢٧٠٠ ـ ٢٧٠١).

(٤) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٤٢٧) لابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٥) أخرجه البخاري في العلم، باب تعليم الرجل أمَته وأهله: (١/ ٩٠)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس برقم٩٧: (١/ ١٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٥٣).

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يدفعون بشهادة أن لا إله إلَّا الله الشركَ، قال مقاتل: يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو[١] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ في الطاعة.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ القبيح من القول ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يسبُّون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبًّا لكم تركتم دينكم، فيعرضون عنهم ولا يردُّون عليهم ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ليس المراد منه سلام التحية، ولكنه سلام المتاركة، معناه: سلمتمْ منَّا لا نُعارضكم بالشتم والقبيح من القول ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: دين الجاهلين، يعني: لا نحب دينكم الذي أنتم عليه، وقيل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: أحببت هدايته، وقيل: أحببته لقرابته ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال مجاهد ومقاتل: لمن قُدِّر له الهدى، نزلت في أبي طالب قال له النبي ﷺ: قل لا إله إلَّا الله، أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ مكة، نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكنَّا إن اتبعناك على دينك خفنا أن تُخرِجنا العرب من أرضنا مكة[٤]، وهو معنى قوله: «نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا»، / والاختطاف: الانتزاع بسرعة. ٦٤/ب

(١) انظر فيما سبق: (٢/ ٥٢٦)، سورة الرعد، الآية (٢٢).

(٢) راجع فيما سبق: (١/ ٦٥٣)، تعليق (١).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت . . . برقم ٢٤: (١/ ٥٥)، وأخرجه البخاري مطولًا بلفظ آخر في التفسير: (٨/ ٥٠٦).

وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٢٨)، «أسباب النزول» للواحدي: ص ٣٩٠.

(٤) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٤٣٠) للنسائي وابن المنذر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وانظر: «المحرر الوجيز»: (١٢/ ١٧٧).

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تُغير بعضُهم على بعض، ويقتل بعضُهم بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا؛ لحرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب «تجبى» بالتاء لأجل الثمرات، والآخرون بالياء للحائل بين الاسم المؤنث والفعل، أي: يجلب ويجمع ﴿إِلَيْهِ﴾ يقال: جبيت الماء في الحوض، أي: جمعته، قال مقاتل: يحمل إلى الحرم ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أنَّ ما يقوله حق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ﴾ [أي: من أهل قرية][1] ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: في معيشتها، أي: أشرت وطغت، قال عطاء: عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يسكنها إلَّا المسافرون ومارُّ الطريق، يومًا أو ساعة، معناه: لم تسكن من بعدهم إلَّا سكونًا قليلًا، وقيل: معناه: لم يعمر منها إلَّا أقلها وأكثرها خراب ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ كقوله: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا»[مريم: ٤٠].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: القرى الكافرة أهلها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ يعني: في أكبرها وأعظمها رسولًا ينذرهم، وخص الأعظم ببعثة الرسول فيها؛ لأن الرسول يبعث إلى الأشراف، والأشراف يسكنون المدائن، والمواضع التي هي أُمُّ ما حولها ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ قال مقاتل: يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ مشركون، يريد: أهلكتهم بظلمهم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أن الباقي خير من الفاني.

قرأ عامة القراء: «تعقلون» بالتاء، وأبو عمرو بالخيار بين التاء والياء.

---

(١) ساقط من «أ».

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ
مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنة ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مصيبه ومدركه وصائر إليه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ النار، قال قتادة: يعني: المؤمن والكافر، قال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل[(١)].

وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعلي، وأبي جهل[(٢)].

وقال السدي: نزلت في عمار والوليد بن المغيرة[(٣)].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ في الدنيا أنهم شركائي.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب عليهم العذاب، وهم رؤوس الضلالة ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغي، وهم الأتباع ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أضللناهم كما ضللنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ برىء بعضهم من بعض وصاروا أعداء، كما قال تعالى: «ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» [الزخرف: ٦٧].

﴿وَقِيلَ﴾ للكفار: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: الأصنام؛ لتخلصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وجواب «لو» محذوف على تقدير: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٠/ ٩٧)، وذكره الواحدي في «الأسباب»: ص٣٩١ دون سند ولم ينسبه لأحد، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ١٧٨).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٠/ ٩٧)، والواحدي: ص٣٩١، عن مجاهد.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٩١.

ونقل القرطبي عن القشيري قال: (والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم، وقال الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر متّع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله، وله في الآخرة الجنة). «تفسير القرطبي»: (١٣/ ٣٠٣).

وكذلك ذهب ابن كثير: (٣/ ٣٩٧) إلى أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات، وذاك في الدركات فقال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: يسأل الله الكفار ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾.

﴿فَعَمِيَتْ﴾ خفيت واشتبهت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي: الأخبار والأعذار، قال مجاهد: الحجج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فلا يكون لهم عذر ولا حجة ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ لا يجيبون، وقال قتادة: لا يحتجون، وقيل: يسكتون لا يسأل بعضهم بعضًا.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾ من السعداء الناجين.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ نزلت هذه الآية جوابًا للمشركين حين قالوا: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»، يعني: الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود الثقفي(١)، أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ قيل: «ما» للإثبات، معناه: ويختار الله ما كان لهم الخيرة، أي: يختار ما هو الأصلح والخير(٢)، وقيل: هو للنفي(٣)، أي: ليس إليهم الاختيار، وليس لهم أن يختاروا على الله، كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ»[الأحزاب: ٣٦]، و«الخيرة»: اسم من الاختيار يقام مقام المصدر، وهي اسم للمختار أيضًا كما يُقال: محمدٌ خيرةُ الله من خلقه، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ يظهرون.

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للسيوطي بهامش الجلالين: ص٢٨٨ـ٢٨٩.

(٢) وهو ترجيح الطبري: (٢٠/ ١٠٠ـ١٠١).
وانظر: «البحر المحيط»: (٧/ ١٢٩).

(٣) ورجح هذا: النحاس في «معاني القرآن»: (٥/ ١٩٤).
قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٣٩٨): (والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضًا، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا).

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ
أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة في الجنة ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ فصل القضاء بين الخلق، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني[(١)] يا أهل مكة ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ دائمًا ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لا نهار معه ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ بنهار تطلبون فيه المعيشة ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ سماعَ فهمٍ وقَبول.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لا ليل فيه ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ.

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي: في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بالنهار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ نعم الله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ كرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ.

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ أخرجنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يعني: رسولهم الذي أُرسل إليهم، كما قال: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ»[النساء: ٤١] ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ حجتكم بأن معي شريكًا ﴿ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ ﴾ التوحيد ﴿ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ في الدنيا.

---

(١) ساقط من «أ».

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

١/٦٥ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابن عمه؛ لأن قارون بن يصهر / بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وموسى بن عمران بن قاهث، وقال ابن إسحاق: كان قارون عم موسى، كان أخا عمران، وهما ابنا يصهر، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون، ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: كان عاملًا لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم ويظلمهم، وقال قتادة: بغى عليهم بكثرة المال، وقال الضحاك: بغى عليهم بالشرك، وقال شهر بن حوشب: زاد في طول ثيابه شبرًا، وروينا عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ ثوبه خيلاء»(١)، وقيل: بغى عليهم بالكبر والعلو ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ هي جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب، هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل: مفاتحه: خزائنه، كما قال: «۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ»[الأنعام: ٥٩]، أي: خزائنه ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: لَتُثْقِلُهم، وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، قال أبو عبيدة: هذا من المقلوب، تقديره: ما إن العصبة لتنوء بها، يقال: ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلًا.

واختلفوا في عدد العصبة، قال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين، وقيل: أربعون رجلًا، وقيل: سبعون، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان يحمل مفاتحه أربعون رجلًا أقوى ما يكون من الرجال، وقال جرير عن منصور عن خيثمة، قال: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلًا ما يزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز(٢).

ويقال: كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه، وكانت من حديد، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب، فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلًا(٣).

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ قال لقارون قومه من بني إسرائيل: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب من جرَّ إزاره: (١٠/ ٢٥٤)، ومسلم في اللباس، باب تحريم جرِّ الثوب... برقم ٢٠٨٥: (٣/ ١٦٥٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٩).

(٢) «المحرر الوجيز» لابن عطية: (١٢/ ١٨٦).

(٣) انظر الأقوال السالفة كلها في: الطبري: (٢٠/ ١٠٥ ـ ١١٠)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨)، وهي أقوال كثيرة متضاربة ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، والله أعلم أي ذلك كان.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة والجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله تعالى ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال مجاهد وابن زيد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة، وقال السدي: بالصدقة وصلة الرحم.

وقال علي: لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن شاذان، أخبرنا أبو يزيد حاتم بن محبوب الشامي، أخبرنا حسين المروزي، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا جعفر بن برقان، عن زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» الحديث مرسل[1].

قال الحسن: أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه، قال منصور بن زاذان في قوله: «ولا تنس نصيبك من الدنيا»، قال: قُوتك وقُوت أهلك.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (أي: أحسن بطاعة الله)[2] كما أحسن الله إليك بنعمته.

وقيل: أحسنْ إلى الناس كما أحسنَ الله إليك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلُّ من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعني: قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على فضل وخير علِمَه الله عندي فرآني أهلًا لذلك، ففضَّلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره، قيل: هو علم الكيمياء، قال سعيد بن المسيب: كان

---

(١) أخرجه مرسلًا ـ كما قال المصنف ـ: أبو نعيم في «حلية الأولياء»: (٤/ ١٤٨)، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل»: ص٢١٨ بتحقيق الألباني، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٣/ ٢٢٣)، ووصله الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي: (٤/ ٣٠٦)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٢٤)، وابن المبارك في «الزهد»: ص٢ بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون. انظر: «فتح الباري»: (١١/ ٢٣٥).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

موسى يعلم الكيمياء، فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم، وعلم كالب بن يوقنا ثلثه، وعلم قارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه، وكان ذلك سبب أمواله[1].

وقيل: «على علم عندي» بالتصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكافرة ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للأموال ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقال مجاهد: يعني: لا يسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم، وقال الحسن: لا يُسألون سؤال استعلام، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ قال إبراهيم النخعي: خرج هو وقومه في ثياب حمر وصفر، قال ابن زيد: في سبعين ألفًا عليهم المصفرات، (قال مجاهد: على براذين بيض عليها سرج الأرجوان)[2]، قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان، ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان، ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر، وهنَّ على البغال الشهب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ من المال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: الأحبار من بني إسرائيل، وقال مقاتل: أُوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة، قالوا للذين تمنوا مثل ما أُوتي قارون في الدنيا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني: ما عند الله من الثواب والجزاء خير ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ صدق بتوحيد الله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما أُوتي قارون في الدنيا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ قال مقاتل: لا يؤتاها، يعني: الأعمال الصالحة.

وقال الكلبي: لا يعطاها في الآخرة، وقيل: لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله: «ويلكم ثواب الله خير» إلَّا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الدنيا.

---

(١) وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر عليها أحد إلَّا الله عزَّ وجلَّ.
انظر بالتفصيل: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤٠٠).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال أهل العلم بالأخبار: كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم / وكان حسن الصوت فبغى وطغى، وكان ٦٥/ب أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطًا أربعة في كل طرف خيطًا أزرق كَلَوْنِ السماء، يذكرون به إذا نظروا إليها، ويعلمون أني منزل منها كلامي، فقال موسى: يا رب، أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرًا فإن بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط، فقال له ربه: يا موسى، إن الصغير من أمري ليس بصغير، فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، (فدعاهم موسى عليه السلام)[1]، وقال: إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطًا زرقًا كَلَوْنِ السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها، ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى، واستكبر قارون فلم يطعه، وقال: إنما يفعل هذا الأربابُ بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم، فكان هذا بدء عصيانه وبغيه، فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون، وهي رياسة المذبح، فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجد قارون من ذلك في نفسه وأتى موسى فقال: يا موسى، لك الرسالة ولهارون الحبورة، ولستُ في شيء من ذلك، وأنا أقرأ التوراة، لا صبر لي على هذا، فقال له موسى: ما أنا جعلتها في هارون بل الله جعلها له، فقال قارون: والله لا أصدقك حتى تريني بيانه، فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل فقال: هاتوا عصيكم، فحزمها وألقاها في قبته التي كان يعبد الله فيها، فجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا، فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون ترى هذا؟ فقال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارونُ موسى بأتباعه، وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلَّا عتوًّا وتجبرًا ومعاداةً لموسى، حتى بنى دارًا وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة على شاة، وعن كل ألف شيء على شيء، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيرًا فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بني إسرائيل فقال لهم: يا بني إسرائيل،

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت، فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغيّ، فنجعل لها جُعْلًا حتى تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج بنو إسرائيل عليه ورفضوه، فدعوها فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل: ألف دينار، وقيل: طستًا من ذهب، وقيل: قال لها إني أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غدًا إذا حضر بنو إسرائيل، فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال: إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض، فقام فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنا وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة، ومن زنا وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون: وإن كنت أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، قال: ادعوها فإن قالت فهو كما قالت، فلما أن جاءت قال لها موسى: يا فلانة، أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظَّم عليها، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلَّا صدقت، فتداركها الله تعالى بالتوفيق فقالت في نفسها: أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذي رسول الله ﷺ، فقالتْ: لَا، كذبوا ولكن جعل لي قارون جعلًا على أن أقذفك بنفسي، فخرَّ موسى ساجدًا يبكي ويقول: اللهم إن كنتُ رسولك فاغضبْ لي، فأوحى الله تعالى إليه: إني أمرتُ الأرض أن تطيعك، فمرها بما شئت، فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا ولم يبق مع قارون إلَّا رجلان، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم.

وفي رواية: كان على سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: يا أرض[(١)] خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرعون[(١)] إلى موسى، ويناشده قارون الله والرحم، حتى رُوي أنه ناشده سبعين مرة وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه، ثم قال: يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الأرض، وأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم تغثه، أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته، وفي بعض الآثار: لا أجعل الأرض بعدك طوعًا لأحد[(٢)].

قال قتادة: خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة.

قال: وأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون؛ ليستبد بداره وكنوزه

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) ذكر الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: (٣/ ٤٠٢)، وفي «البداية والنهاية»: (١/ ٣٠٩ ـ ٣١١) هلاك قارون بسبب دعوة موسى واختلاف العلماء في سبب ذلك، ثم قال: (وقد ذكر هنا كثير من المفسرين إسرائيليات كثيرة غريبة ضربنا عنها صفحًا وتركناها قصدًا)، وفي هذا إشارة إلى مصدر الروايات التي ساقها البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

وأمواله فدعا الله تعالى موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من المال والزينة يتندمون على ذلك التمني، والعرب تعبر عن الصيرورة بأضحى وأمسى وأصبح، تقول: أصبح فلان عالمًا[1]، وأضحى معدمًا، وأمسى حزينًا ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ اختلفوا في معنى هذه اللفظة، قال مجاهد: ألم تعلم، وقال قتادة: ألم ترَ، قال الفراء: هي كلمة تقرير / كقول الرجل: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه، وذكر أنه أخبره مَن سمع أعرابية تقول لزوجها: أين ابنك؟ فقال: ويكأنه وراء البيت، يعني: أما ترينه وراء البيت، وعن الحسن: أنه كلمة ابتداء، تقديره: أن الله يبسط الرزق، وقيل: هو تنبيه بمنزلة ألا، وقال قطرب: «ويك» بمعنى ويلك، حذفت منه اللام، كما قال عنترة: ٦٦/أ

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وأَبْرَأَ سُقْمَهَا قَوْلُ الفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ[2]

أي: ويلك، و«أن» منصوب بإضمار اعلم أن الله، وقال الخليل: «وي» مفصولة من «كأن» ومعناه التعجب، كما تقول: وي لم فعلت ذلك! وذلك أن القوم تندموا فقالوا: وي! متندمين على ما سلف منهم، وكأن معناها أظن ذلك وأقدره، كما تقول: كأن الفرج قد أتاك، أي: أظن ذلك وأقدره ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع ويضيق ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين، وقرأ العامة بضم الخاء وكسر السين ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الكلبي ومقاتل: استكبارًا عن الإيمان، وقال عطاء: «علوًّا» استطالةً على الناس وتهاونًا بهم، وقال الحسن: لم يطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطان، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل القدرة[3]

---

(١) في «ب»: (غانمًا).

(٢) البيت لعنترة من شواهد الفرّاء والطبري.

(٣) أخرجه ابن مردويه وابن عساكر عن علي رضي الله عنه. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٤٤).

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَلَا فَسَادًا﴾ قال الكلبي: هو الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة: أخذ أموال الناس بغير حق، وقال ابن جريج ومقاتل: العمل بالمعاصي.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب معاصيه، وقال قتادة: الجنة للمتقين.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أنزل عليك القرآن على قول أكثر المفسرين، وقال عطاء: أوجب عليك العمل بالقرآن ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مكة، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما[(١)] ـ، وهو قول مجاهد، قال القتيبي: معاد الرجل: بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده[(٢)]، وذلك أن النبي ﷺ لما خرج من الغار مهاجرًا إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب، فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها، فأتاه جبريل عليه السلام وقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى يقول: «﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾»[(٣)]، وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية[(٤)].

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لرادُّك إلى معاد» إلى الموت[(٥)]، وقال الزهري وعكرمة: إلى القيامة[(٦)]، وقيل: إلى الجنة[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ٥٠٩ ـ ٥١٠).

(٢) (إلى بلده) ساقط من «ب»، وعبارة ابن قتيبة في «المشكل»: ص٤٢٥: (... لأنه يتصرف في البلاد، ويضرب في الأرض ثم يعود إلى بلده ...)، وهي أوضح مما نقله المصنف رحمه الله.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) قال ابن كثير (٣/ ٤٠٤): (وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكيًا، والله أعلم).

(٥) أخرجه الطبري: (٢٠/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم، قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٥١٠): (وإسناده لا بأس به).

(٦) أخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد قال: «يحييك يوم القيامة»، وأما الحسن والزهري فقالا: هو يوم القيامة، وروى ابن أبي يعلى من طريق أبي جعفر محمد بن علي قال: سألت أبا سعيد عن هذه الآية؟ فقال: معاده آخرته، وفي إسناده جابر الجعفي وهو ضعيف.
انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥١٠).

(٧) رواه الطبري: (٢٠/ ١٢٤)، وإسناده ضعيف كما في الموضع السابق من «الفتح».

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ (أي: يعلم من جاء بالهدى)[1]، وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، فقال الله عزَّ وجلَّ: قل لهم ربي أعلم من جاء بالهدى، يعني: نفسه ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ يعني: المشركين، ومعناه: أعلم بالفريقين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: يوحى إليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء: هذا من الاستثناء المنقطع، معناه: لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: مُعِينًا لهم على دينهم، قال مقاتل: وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فذكَّره الله نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى معرفته وتوحيده ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلَّا هو، وقيل: إلَّا ملكه، قال أبو العالية: إلَّا ما أريد به وجهه ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: فصل القضاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ تردون[2] في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

* * *

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «أ».

سورة العنكبوت

مكية[(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ (أظنَّ الناسُ)[(٢)] ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ (أي: بأن يقولوا)[(٣)] ﴿ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا لنختبرنهم ليبيِّن المخلص من المنافق والصادق من الكاذب.

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال الشعبي: نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ: أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله هاتين الآيتين[(٤)].

---

(١) سورة العنكبوت مكية كلها، وذلك مروي عن ابن عباس وابن الزبير والحسن وقتادة وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل، وفي رواية عن ابن عباس أنها مدنية. وقال هبة الله بن سلامة: نزل من أولها إلى رأس العشر بمكة، وباقيها بالمدينة، وفي الروايات بالعكس: أن الآيات الأولى مدنية، وذلك لذكر «الجهاد» فيها، وذكر «المنافقين»، والراجح أن السورة كلها مكية، وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص - كما سيجيء - وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال، وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية، لذلك يرجح الأستاذ سيد قطب رحمه الله مكية الآيات كلها، أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير؛ لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة، أي: جهاد النفس لتصبر ولا تفتن، وهذا واضح في السياق، وكذلك ذكر المنافقين، فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس.
والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٤٩)، «زاد المسير»: (٧/ ٢٥٣)، «البحر المحيط»: (٧/ ١٣٩)، «تفسير القرطبي»: (١٣/ ٣٢٣)، «في ظلال القرآن»: (٥/ ٢٧١٨)، فيما سيأتي تفسير الآية (١١) من السورة.

(٢) ساقط من «أ».

(٣) ساقط من «ب».

(٤) عزاه السيوطي في «الدر»: (٦/ ٤٤٩) لعبد بن حميد، وابن جرير الطبري: (٢٠/ ١٢٩)، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وذكره الواحدي في «الأسباب»: ص٣٩٣. قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٩٩): (وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة، فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى والاختبار باقٍ في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك، وإذا اعتبرنا أيضًا كل موضع، ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾

وكأن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أراد بالناس الذين آمنوا بمكة: سلمة بن هشام وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم. وقال ابن جريج: نزلت في عمار بن ياسر، كان يعذب في الله عزَّ وجلَّ[(١)]. وقال مقاتل: نزلت في مِهْجَع بن عبد الله مولى عمر، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، فقال النبي ﷺ: «سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة»، فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله فيهم هذه الآية[(٢)].

وقيل: «وهم لا يفتنون» بالأوامر والنواهي، وذلك أن الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الإيمان، ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع، فشقَّ على بعضهم، فأنزل الله هذه الآية، ثم عزَّاهم فقال:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأنبياء والمؤمنين، فمنهم من نُشِرَ بالمنشار، ومنهم من قتل، وابتلي
٦٦/ب بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب / ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم: آمنَّا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: فليظهرنَّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يُوجِدَ معلومَه، وقال مقاتل: فليرينَّ الله، وقيل: ليميّزن الله كقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[الأنفال: ٣٧].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني: الشرك ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ يُعْجزونا ويفوتونا، فلا نقدر على الانتقام منهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ بئس ما حكموا حين ظنوا ذلك.

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ومقاتل: من كان يخشى البعث والحساب، والرجاء بمعنى الخوف، وقال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: من كان يطمع في ثواب الله ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ يعني: ما وعد الله من الثواب والعقاب، وقال مقاتل: يعني: يوم القيامة لكائن.

ومعنى الآية: أن من يخشى الله أو يأمله فليستعدّ له، وليعمل لذلك اليوم، كما قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الكهف: ١١٠] ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾.

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج عن ابن عمير وغيره، وأخرجه أيضًا ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٥٠)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٥٤).

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب»: ص٣٩٣، وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٢٧: (ذكره الثعلبي عن مقاتل . . .)، ثم قال: (وسنده إلى مقاتل في أول كتابه، وفي «الدلائل» لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: أول من استشهد يوم بدر مِهْجَعُ مولى عمر).

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ له ثوابه، و«الجهاد»: هو الصبر على الشدة، ويكون ذلك في الحرب، وقد يكون على مخالفة النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ عن أعمالهم وعبادتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لنبطلنَّها، يعني: حتى تصير بمنزلة ما لم يُعمل، والتكفير: إذهاب السيئة بالحسنة ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعة، وقيل: نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن، كما قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[الأنعام: ١٦٠].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ أي: برًّا بهما وعطفًا عليهما، معناه: ووصَّينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن.

نزلت هذه الآية، والتي في سورة لقمان (الآية ١٥)، والأحقاف (الآية ١٥)، في سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه: وهو سعد بن مالك أبو إسحاق الزهري، وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس ـ لما أسلم، وكان من السابقين الأولين، وكان بارًّا بأمه، قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتُعيَّر بذلك أبد الدهر، ويقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يومًا وليلة لم تأكل ولم تشرب (ولم تستظل)[1]، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أُماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾[2].

وجاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[3].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ذكره الواحدي: ص٣٩٤، والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند، والقصة في «صحيح مسلم» من حديث سعد بن أبي وقاص بغير هذا السياق، في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه برقم١٧٤٨ : (٤/ ١٨٧٧). وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» للوادعي: ص١١٣.

(٣) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٤٤) من رواية النواس بن سمعان، والطبراني في «الكبير»، وأخرجه الطيالسي: ص١١٥، والإمام أحمد: (٥/ ٦٦)، وصححه الحاكم: (٣/ ٤٤٣)، من رواية عمران بن حصين، وأخرجه الإمام أحمد من رواية ابن مسعود أيضًا.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

ثم أوعد بالمصير إليه فقال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ في زمرة الصالحين، وهم الأنبياء والأولياء، وقيل: في مدخل الصالحين، وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أصابه بلاء من الناس افتتن ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة، أي: جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه، هذا قول السدي وابن زيد، قالا: هو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر.

﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فتح ودولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على عدوكم، وكنَّا مسلمين، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا، فكذَّبهم الله وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ من الإيمان والنفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ بترك الإسلام عند نزول البلاء.

واختلفوا في نزول هذه الآية، قال مجاهد: نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الناس أو مصيبةٌ في أنفسهم افتتنوا[١]. وقال عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في الذين أخرجهم المشركون إلى بدر[٢]، وهم الذين نزلت فيهم: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ»[النساء: ٩٧].

وقال قتادة: نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة[٣].

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب»: ص٣٩٥، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٤٥٢) للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: الطبري: (٢٠/ ١٣٣)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٩٦.

(٣) انظر: الطبري: (٢٠/ ١٣٣).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾

وقال الشعبي: هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هاهنا مدنية، وباقي السورة مكية[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ قال مجاهد: هذا من قول كفار مكة لمن آمن منهم، وقال الكلبي ومقاتل: قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش «ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا»: ديننا وملة آبائنا، ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم، فذلك قوله: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أوزاركم، قال الفرّاء: لفظه أمر، ومعناه جزاء[2]، مجازه: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، كقوله: «فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ»[طه: ٣٩]، وقيل: هو جزم على الأمر، كأنهم أمروا أنفسهم، فأكذبهم الله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢﴾ فيما قالوا من حمل خطاياهم.

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ أي: أوزار مَن أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزارهم، نظيره قوله عزَّ وجلَّ: «لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ»[النحل: ٢٥] ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣﴾ سؤال توبيخ وتقريع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ فغرقوا ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾ قال ابن عباس: مشركون.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ يعني: من الغرق ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ يعني: السفينة ﴿ءَايَةٗ﴾ أي: عبرة ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ فإنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة، وقيل: جعلنا عقوبتهم للغرق عبرة، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: / بعث نوح لأربعين سنة، وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلّا خمسين ١/٦٧
عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا، وكان عمره ألفًا وخمسين سنة.

---

(١) «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٢١٤)، ورواه الطبري أيضًا عن قتادة في الموضع السابق، وراجع فيما سبق تعليق (١) في أول السورة: ص٤٦١.

(٢) قال في «معاني القرآن» (٢/ ٣١٤): هو أمر فيه تأويل الجزاء، وأنشد بيت دثار بن شيبان النمري:

فقلتُ ادعِي وأدعُ فإنَّ أندى ... لصوتٍ أن يُنادي داعيانِ

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وأرسلنا إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أطيعوا الله وخافوه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصنامًا ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تقولون كذبًا، قال مجاهد: تصنعون أصنامًا بأيديكم فتسمونها آلهة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم ﴿فَٱبْتَغُوا﴾ فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ مثل: عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ كيف يخلقهم ابتداء: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ في الآخرة عند البعث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت، فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءًا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدًا.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «النشاءة» بفتح الشين ممدودة حيث وقعت، وقرأ الآخرون بسكون الشين مقصورة، نظيرها: الرَّأفة والرآفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ تردون.

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فإن قيل: ما وجه قوله: «ولا في السماء» والخطاب مع الآدميين، وهم ليسوا في السماء؟

قال الفراء: معناه: ولا مَن في السماء بمعجز، كقول حسان بن ثابت:

فَمَنْ يَهْجُو رسولَ الله مِنكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

أراد: من يمدحه ومن ينصره، فأضمر «من»، يريد: لا يعجزه أهل الأرض في الأرض، ولا أهل السماء في السماء، وقال قطرب: معناه: وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، كقول الرجل: ما يفوتني فلان هاهنا ولا بالبصرة، أي: ولا بالبصرة لو كان بها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: من وليٍّ يمنعكم مني، ولا نصير ينصركم من عذابي.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالقرآن وبالبعث ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ جنتي ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ فهذه الآيات في تذكير أهل مكة وتحذيرهم، وهي معترضة في قصة إبراهيم، فقال جلَّ ذكره: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وجعلها عليه بردًا وسلامًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يصدقون.

﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وأبو عمرو ويعقوب: «مودةُ» رفعًا بلا تنوين، «بينكم» خفضًا بالإضافة على معنى: إن الذين اتخذتم من دون الله أوثانًا هي مودة بينكم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة.

ونصب حمزة وحفص «مودةَ» من غير تنوين على الإضافة بوقوع الاتخاذ عليها.

وقرأ الآخرون «مودةً» منصوبة منونة «بينَكم» بالنصب، معناه: إنكم إنما اتخذتم هذه الأوثان مودةً بينكم في الحياة الدنيا تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها في الدنيا.

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عابديها، وتتبرأ القادة من الأتباع، وتلعن الأتباع القادة ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ جميعًا العابدون والمعبودون ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ يعني: صدقه، وهو أول من صدَّق إبراهيم وكان ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبراهيم: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ﴾ فهاجر من كوثى، وهو من سواد الكوفة، إلى حران ثم إلى الشام، ومعه لوط وامرأته سارة، وهو أول من هاجر، قال مقاتل: هاجر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ يقال: إن الله لم يبعث نبيًّا بعد إبراهيم إلّا من نسله ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ﴾ وهو الثناء، فكل أهل الأديان يتولَّونه، وقال السدي: هو الولد الصالح، وقيل: هو أنه رأى مكانه في الجنة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: في زمرة الصالحين، قال ابن عباس: مثل آدم ونوح.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر «أئنكم» بالاستفهام، وقرأ الباقون بلا استفهام، واتفقوا على استفهام الثانية ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ وهي إتيان الرجال ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فترك الناس الممر بهم، وقيل: تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ﴾ النادي والندى والمنتدى: مجلس القوم ومتحدثهم.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو العباس بن سهل بن محمد المروزي،

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠﴾

أخبرنا جدي لأمي أبو الحسن المحمودي، أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة أن بشر بن معاذ حدثهم: أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا حاتم بن أبي صغيرة، عن سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانيء بنت أبي طالب، (عن أمِّ هانيء)[1] قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾ قلت: ما المنكر الذي كانوا يأتون؟ قال: «كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم»[2].

ويروى أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مرَّ بهم عابر سبيل حذفوه، فأيهم أصابه كان أولى به.

وقيل: إنه كان يأخذ ما معه وينكحه / ويغرمه ثلاثة دراهم، ولهم قاضٍ بذلك. ٦٧/ب

وقال القاسم بن محمد: كانوا يتضارطون في مجالسهم[3].

وقال مجاهد: كان يجامع بعضهم بعضًا في مجالسهم[4].

وعن عبد الله بن سلام قال: كان يبزق بعضهم على بعض.

وعن مكحول قال: كان من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحناء، وحل الإزار، والصفير، والحذف، واللوطية[5] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ له استهزاءً ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ أن العذاب نازل بنا.

فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠﴾ بتحقيق قولي في العذاب.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة العنكبوت: (٩/ ٤٩ ـ ٥٠)، وقال: (هذا حديث حسن، إنما نعرفه من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ٤٠٩)، ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد: (٦/ ٣٤١)، والطبري: (٢٠/ ١٤٥). وقال السيوطي في «الدر» (٦/ ٤٦٠): (أخرجه الفريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي ـ وحسَّنه ـ وابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والشاشي في «مسنده» والطبراني والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» وابن عساكر).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٢٢٣)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦١)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٦٩).

(٤) عزاه السيوطي: (٦/ ٤٦١) للفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في «مساوىء الأخلاق».

(٥) وهو مروي أيضًا عن ابن عباس ومجاهد. وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦١)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٦٩).
وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية (٣/ ٤١٢): (أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك)، ثم ذكر الأقوال في معنى هذا المنكر.
ورجح الطبري (٢٠/ ١٤٦) قول من قال: معناه: وتحذفون في مجالسكم المارَّة بكم، وتسخرون منهم، لما ذكر من الرواية بذلك عن رسول الله ﷺ في حديث أم هانيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ من الله بإسحاق ويعقوب ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: قوم لوط، والقرية: سدوم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم للرسل: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا﴾ يعني: قالت الملائكة[1]: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب «لَنُنْجِينه» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: الباقين في العذاب.

﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ظن أنهم من الإنس ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ﴾ بمجيئهم ﴿ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ﴾ من قومك علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بإهلاكنا إيّاهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «مُنْجُوك» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد، وقرأ الآخرون بالتخفيف ﴿عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال مقاتل: الخسف والحصب ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ من قريات لوط ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ عبرة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول، قال ابن عباس: الآية البينة: آثار منازلهم الخربة، وقال قتادة: هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وقال مجاهد: هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض[2].

---

(١) في «ب»: (الرسل، وهم الملائكة).

(٢) جائز أن تكون هذه الآية هذا أو ذاك، ولا نص في ذلك عن النبي ﷺ، قال الطبري رحمه الله (٢٠/ ١٤٩): (يقول تعالى ذكره: ولقد أبقينا من فَعْلتنا التي فَعَلْنا بهم آيةً، يقول: عبرة بينة وعظة واعظة لقوم يعقلون عن الله حججه، ويتفكرون في مواعظه، وتلك الآية البينة هي عندي: عُفُوّ آثارهم ودروس معالمهم).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وارسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: واخشوا ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي: وأهلكنا عادًا وثمودًا ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ منازلهم بالحجر واليمن ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ قال مقاتل والكلبي وقتادة: كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم، يحسبون أنهم على هدى، وهم على الباطل(١)، والمعنى: أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر(٢).

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي: وأهلكنا هؤلاء ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدَّلالات ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فائتين من عذابنا.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهو قوم لوط، و«الحاصب»: الريح التي تحمل الحصباء، وهي الحصا الصغار ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: قارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني: قوم نوح، وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾(٣).

---

(١) وهو ما رجحه الطبري: (٢٠/ ١٥٠).

(٢) «معاني القرآن»: (٢/ ٣١٣)، ورجحه القرطبي أيضًا: (١٣/ ٣٤٤).

(٣) يقول تعالى ذكره: ولم يكن الله ليهلك هؤلاء الأمم ـ الذين أهلكهم ـ بذنوب غيرهم، فيظلمهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق، بل إنما=

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا
وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام، يرجون نصرها ونفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها تأوي إليه، وإن بيتها في غاية الضعف والوهاء، لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا، وكذلك الأوثان لا تملك لعابديها نفعًا ولا ضرًّا ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ قرأ أهل البصرة وعاصم «يدعون» بالياء لذكر الأمم قبلها، وقرأ الآخرون بالتاء.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ الأشباه، والمَثَلُ: كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول، يريد: أمثال القرآن التي شبه بها أحوال كفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم المتقدمة ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾ قال مقاتل: لكفار مكة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ما يعقل الأمثال إلَّا العلماء الذين يعقلون عن الله.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، أخبرنا ابن برزة، أخبرنا الحارث بن أبي أسامة، أخبرنا داود بن المحبر، أخبرنا عباد بن كثير، عن ابن جريج، عن عطاء وأبي الزبير، عن جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: «وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ»، قال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»(١).

= أهلكهم بذنوبهم، وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتصرفهم في نِعَم ربهم، وتقلبهم في آلائه، وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم. «تفسير الطبري»: (٢٠/ ١٥٢).

(١) أخرجه داود بن المحبر في كتاب «العقل» ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة في مسنده «بغية الباحث»: برقم ١٠٣٠ من حديث جابر والثعلبي والبغوي في «التفسير» والواحدي من طريق الحارث.
وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وابن عرّاق في «تنزيه الشريعة عن الأخبار الشنيعة والموضوعة».
وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية»: (٣/ ٢١٥)، في أحاديث من كتاب العقل لداود بن المحبر، وقال: (أودعها الحارث بن أبي أسامة في «مسنده»، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء).
انظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٧، «المطالب العالية»: (٣/ ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦)، «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ ٨٩٦ ـ ٨٩٧)، «تنزيه الشريعة» لابن عراق: (١/ ٢١٤).

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي: للحق، وإظهارًا للحق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في خلقها ﴿لَءَايَةً﴾ لدلالة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ على قدرته وتوحيده.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ الفحشاء: ما قبح من الأعمال، والمنكر: ما لا يعرف في الشرع. قال ابن مسعود وابن عباس: في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلَّا بعدًا[1]. وقال الحسن وقتادة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه[2].

وروي عن أنس قال: كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئًا من الفواحش إلَّا ركبه، فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال: «إن صلاته تنهاه يومًا»، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله[3].

---

(١) أثر ابن مسعود أخرجه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات، وأخرجه أحمد في «الزهد».
وأما أثر ابن عباس فأخرجه الطبري: (٢٠/ ١٥٥)، والطبراني في «الكبير» من رواية العلاء بن المسيب عن ابن عباس موقوفًا ورواه الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ليث بن أبي سليم عن عطاء عن ابن عباس مرفوعًا، وليث بن أبي سليم ثقة ولكنه مدلس.
قال ابن حجر: (وفي الباب عن ابن عمر، أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك»، وفي إسناده محمد بن الحسن البصري، قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، ويروي عن مالك ما لا أصل له، فالأثر ضعيف مرفوعًا، صحيح موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه).
انظر: «مجمع الزوائد»: (٢/ ٢٥٨)، «الكافي الشاف»: ص١٢٧ ـ ١٢٨، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (٢/ ٤١٤ ـ ٤١٥، برقم ٩٨٥)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦).
هذا، ومن شأن الصلاة عندما يقيمها المسلم ويؤدي فرضها وحدودها كما ينبغي، ويتدبر فيها وفيما يتلوه من القرآن أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغل كل بدن المصلي، فإذا دخل في صلاته وخشع أخبت لربه وادَّكر أنه واقف بين يديه وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيبتها، وإن حصل أو بدر منه شيء يخالف ذلك فصلاته لن تزيده بُعْدًا عن الله ومن يصلي خير ممن لا يصلي. انظر: «تفسير القرطبي»: (١٣/ ٣٤٨).

(٢) أخرجه الطبري عن الحسن موقوفًا: (٢٠/ ١٥٥)، ومن طريق أخرى مرفوعًا مرسلًا، وعن قتادة موقوفًا من كلامه.
قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٢٨: (أخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في «الشعب» من مرسل الحسن). انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦٦).

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٢٨: (لم أجده، وقال الولي العراقي: لم أقف عليه). «الفتح السماوي»: (٢/ ٨٩٧).
وهذه العبارة إذا صدرت وأمثالها من أحد الحفاظ المعروفين، ولم يتعقبه أحدٌ من الحفاظ بعده، فهي كافية في الحكم على الحديث بالوضع.
انظر: مقدمة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة لكتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع»: للقاري: ص٢٥ ـ ٢٧.

وقال ابن عون: معنى الآية أن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها(١).

وقيل: أراد بالصلاة القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾[الإسراء: ١١٠]، أي: بقراءتك، وأراد: أنه يقرأ القرآن في الصلاة، فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر(٢). ١/٦٨

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، أخبرنا علي ابن الجعد، أخبرنا قيس بن الربيع، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن رجلًا يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق، قال: «ستنهاه قراءته»(٣).

وفي رواية قيل: يا رسول الله، إن فلانًا يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه»(٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذكر الله أفضل الطاعات.

أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن بشران ببغداد، أخبرنا أبو علي الحسين بن صفوان البَرْدعي، أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، أخبرنا هارون بن معروف أبو علي الضرير، أخبرنا أنس بن عياض، حدثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش، عن أبي بَحرِيَّة، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وأن تَلْقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»(٥).

---

(١) نقل ابن كثير هذا القول عن حماد بن أبي سليمان: (٣/ ٤١٦)، ونقل معناه مطولًا عن ابن عون، وهو قول الكلبي وابن جريج كما في «البحر المحيط»: (٧/ ١٥٣)، و«المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٢٦).
وردَّ ابن عطية هذا القول فقال: وهذه عجمة، وأين هذا مما رواه أنس بن مالك (كما في التعليق السابق).

(٢) أخرجه الطبري عن ابن عمر: (٢٠/ ١٥٤)، ورجح القول الأول: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إن لم يكن معنيًا بها ما يتلى فيها؟
قيل: تنهى مَنْ كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش؛ لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يطع صلاته لم يزدد من الله إلا بُعْدًا، وذلك أن طاعته لها: إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر.

(٣) رواه البزار من طريق زياد البكائي، وأبو يعلى من طريق أبي إسحاق الفزاري، كلاهما عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر.
قال البزار: (اختلف فيه على الأعمش، فقيل: عنه أيضًا عن أبي سفيان عن جابر)، وقال الهيثمي: (رجاله ثقات). انظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٨، «مجمع الزوائد»: (٢/ ٢٥٨)، «الفتح السماوي»: (٢/ ٨٩٧ـ٨٩٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة: (٢/ ٤٤٧)، بلفظ: «. . . سينهاه ما يقول»، والبزار وإسحاق وأبو يعلى، كلهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح). انظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٨، «المجمع»: (٢/ ٢٥٨)، «الفتح السماوي»: (٢/ ٨٩٧).

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب خير الأعمال: (٩/ ٣١٧ـ٣١٨)، وقال: (وقد روى بعضهم هذا الحديث عن عبد الله بن سعيد مثل هذا بهذا الإسناد، وروى بعضهم عنه فأرسله، وأخرجه ابن ماجه في الأدب، باب فضل الذكر برقم٣٧٩٠: (٢/ ١٢٤٥)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٤٩٦) ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ٢١١) موقوفًا على أبي الدرداء، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٤٤٧)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٦)، وقال: (هذا حديث حسن). وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦٧)، «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٧٣).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أبو الأسود، أخبرنا ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه سُئل أيُّ العباد أفضلُ درجةً عند الله يوم القيامةِ؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا»، قالوا: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ فقال: «لو ضرب بسيفه الكفّار والمشركين حتى ينكسر أو يختضب دمًا، لكان الذاكر لله كثيرًا أفضل منه درجة»[(١)].

وروينا أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، أي: الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[(٢)].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج القشيري، أخبرنا أمية بن بِسْطام العَيْشِيّ، أخبرنا يزيد يعني: (ابن زريع)، أخبرنا رَوْح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له جُمْدَان، فقال: «سيروا، هذا جُمْدان، سبق المُفَرِّدون»، قالوا: وما المُفَرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[(٣)].

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصَّلْت، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، أخبرنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغرَّ قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلّا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٤)].

وقال قوم: معنى قوله: «ولذكر الله أكبر»، أي: ذكر الله إيّاكم أفضل من ذكركم إيّاه.

---

(١) أخرجه الترمذي في الموضع السابق: (٩/ ٣١٥ ـ ٣١٦)، وقال: (هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث درّاج)، والإمام أحمد: (٣/ ٧٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٧)، وأشار المنذري في «الترغيب» إلى تضعيفه، وقال: (ورواه البيهقي مختصرًا: ٢/ ٣٩٦، وفيه ابن لهيعة وقد اختلط، ودراج في حديثه عن أبي الهيثم ضعف).

(٢) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن بُسْر في الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر: (٩/ ٣١٤ـ٣١٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٤٩٥)، ووافقه الذهبي، وابن حبان: ص٥٧٦ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٨٨، ١٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٦/ ١١١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٦)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى برقم١٦٧٦: (٤/ ٢٠٦٢).

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على قراءة القرآن برقم٢٧٠٠: (٤/ ٢٠٧٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٠ ـ ١١).

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

ويروى ذلك عن ابن عباس[1]، وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير[2]، ويروى ذلك مرفوعًا عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ[3]. وقال عطاء في قوله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»، قال: ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ قال عطاء: يريد لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لا تخاصموهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه، وأراد: مَنْ قَبِلَ الجزية منهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب، فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ومجاز الآية: إلّا الذين ظلموكم؛ لأن جميعهم ظالم بالكفر، وقال سعيد بن جبير: هم أهل الحرب ومن لا عهد لهم، قال قتادة ومقاتل: صارت منسوخة[4] بقوله: «قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ»[التوبة: ٢٩].

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يريد: إذا أخبركم واحد منهم من قبل الجزية بشيء مما في كتبهم فلا تجادلوهم عليه، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا محمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن بشار، أخبرنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم»[5].

---

(١) عزاه السيوطي: (٦/ ٤٦٦) للفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي في «شعب الإيمان».
وهو أيضًا قول ابن مسعود وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ ورجح ابن عطية: (١٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) أن المعنى: ولذكر الله أكبر، على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر.
فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ مراقب . . . .

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦٧).

(٣) عزاه السيوطي لابن السني وابن مردويه والديلمي: (٦/ ٤٤٦)، وما عزاه للديلمي مشعر بالضعف.

(٤) انظر فيما سبق: (١/ ٦٥٣) تعليق (١)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٧٧)، ورجح الطبري: (٢١/ ٢ ـ ٣) أن الآية محكمة غير منسوخة، إذ لا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل.

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها: (١٣/ ٥١٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٦٨). وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرنا عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أخبرنا محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، أخبرنا ابن أبي نملة الأنصاري أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره: أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ومرَّ بجنازة، فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم»، فقال اليهودي: إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدقوه وإن حقًّا لم تكذبوه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنزلنا إليهم الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب: عبدَ الله بن سلام وأصحابه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وهم مؤمنو أهل مكة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ / وذلك أن اليهود عرفوا أن محمدًا نبيٌّ، والقرآنَ حقٌّ، فجحدوا، قال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة. ٦٨/ب

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا تكتبه، أي: لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يعني: لو كنت تكتب أو تقرأ الكتب قبل الوحي لشك المبطلون المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها، قاله قتادة، وقال مقاتل: «المبطلون» هم اليهود، ومعناه: إذًا لشكوا فيك واتهموك، وقالوا: إن الذي نجد نعته في التوراة أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت[2].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ١١٠)، وأبو داود في العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب: (٥/ ٢٤٥)، وصححه ابن حبان: ص٥٨ من «موارد الظمآن»، وأخرجه الطبراني في «الكبير»: (٢٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥١)، والبيهقي في «السنن»: (٢/ ١٠)، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٣٦)، وأخرجه ابن سعد وابن أبي شيبة وإسحاق. وأصله في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة (التعليق السابق).
وانظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٨، «الفتح السماوي»: (١/ ٨٩٨ـ ٨٩٩)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٦٩).
هذا، وللإمام الحافظ ابن كثير كلمات بشأن الإسرائيليات والحديث عن أهل الكتاب منثورة في «تفسيره»، وقد جمعها الشيخ أحمد محمد شاكر في مقدمة مختصره «عمدة التفسير»: (١/ ١٤ـ ١٩)، ينبغي مراجعتها.

(٢) قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٤١٨): (أي: قد لبثت في قومك يا محمد ـ من قبل أن تأتي بهذا القرآن ـ عمرًا لا تقرأ كتابًا، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم، يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ الآية. =

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ قال الحسن: يعني: القرآن آيات بينات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: المؤمنين الذين حملوا القرآن.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة: بل هو ـ يعني: محمدًا ﷺ ـ ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب؛ لأنهم يجدونه بنعته وصفته في كتبهم[1] ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما أنزل على الأنبياء من قبل، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر «آية» على التوحيد، وقرأ الآخرون: «آيات من ربه»، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو القادر على إرسالها إذا شاء أرسلها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ أنذر أهل المعصية بالنار، وليس إنزال الآيات بيدي.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ هذا الجواب لقوله: «لولا أنزل عليه آيات من ربه» ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (يعني: أولم يكفهم من الآيات القرآن يتلى عليهم)[2] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في إنزال القرآن ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: تذكيرًا وعظة لمن آمن وعمل به.

= وهكذا كان رسول الله ﷺ دائمًا إلى يوم القيامة لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومَنْ زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومَنْ تابعه: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . . . فإنما حمله على ذلك رواية في «صحيح البخاري»: ثم أخذ فكتب، وهذه محمولة على الرواية الأخرى: ثم أمر فكتب). ولهذا اشتدَّ النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرؤوا منه . . . وإنما أراد الرجل ـ أعني: الباجي ـ فيما يظهر عنه: أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال ﷺ إخبارًا عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر»، وفي رواية: «ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن». وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلَّم الكتابة، فضعيف لا أصل له. وانظر أيضًا: «الرد الشافي الوافر على من نفى أُميَّة سيد الأوائل والأواخر» تأليف أحمد بن حجر آل بن علي.

وراجع فيما سبق: (٢/ ١٥٧)، «المحرر الوجيز» لابن عطية: (١٢/ ٢٣١).

(١) ذكر الطبري القولين: (٢١/ ٥ ـ ٦) ورجح قول من قال: عنى بذلك: بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا، ولا تخطه بيمينك ـ آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ. . .﴾ بين خبرين من إخبار الله عن رسول الله ﷺ، فهو بأن يكون خبرًا عنه أَوْلى من أن يكون خبرًا عن الكتاب الذي قد انقضى الخبر عنه قبل.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي رسول الله وهذا القرآن كتابه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال ابن عباس: بغير الله، وقال مقاتل: بعبادة الشيطان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء[1] ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ قال ابن عباس: ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة كما قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ»[القمر: ٤٦]، وقال الضحاك: مدة أعمارهم؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب، وقيل: يوم بدر ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ يعني: العذاب، وقيل: الأجل ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بإتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أعاده تأكيدًا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ جامعة لهم، لا يبقى أحدٌ إلا دخلها.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم، كما قال: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ»[الأعراف: ٤١] ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة: «ويقول» بالياء، أي: ويقول لهم الموكل بعذابهم: ذوقوا، وقرأ الآخرون بالنون؛ لأنه لما كان بأمره نسب إليه ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: جزاء ما كنتم تعملون.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة، إن أرضي ـ يعني: المدينة ـ واسعة آمنة[2]. قال مجاهد: إنَّ أرضي المدينة واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها[3].

وقال سعيد بن جبير: إذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة.

---

(١) انظر فيما سبق: (٣/ ٣٥١).
(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ١٥٧)، القرطبي: (١٣/ ٣٥٧)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٨١).
(٣) أخرجه الطبري: (٢١/ ٩).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

وقال عطاء: إذا أُمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يُعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة[1].

وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة، وقالوا: نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج.

وقال مطرف بن عبد الله: «أرضي واسعة»، أي: رزقي لكم واسع فاخرجوا[2].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ خوّفهم بالموت ليُهَوِّن عليهم الهجرة، أي: كل واحد ميت أينما كان، فلا تقيموا بدار الشرك خوفًا من الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ فنجزيكم بأعمالكم، وقرأ أبو بكر «يرجعون» بالياء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ قرأ حمزة والكسائي بالثاء ساكنة من غير همز، يقال: ثوى الرجل إذا أقام، وأثويته: إذا أنزلته منزلًا يقيم فيه، وقرأ الآخرون بالباء وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها، أي: لننزلنَّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علالي ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨﴾.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الشدائد، ولم يتركوا دينهم لشدةٍ لحقتهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ يعتمدون.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون: «هاجروا إلى المدينة»، فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا؟ فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾[3] ذات حاجة إلى غذاء ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا ترفع رزقها معها، ولا تدخر شيئًا لغد مثل البهائم والطير ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ حيث كنتم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ السميع لأقوالكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة، العليم بما في قلوبكم.

---

(١) الطبري: (٢١/ ٩)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٧٤)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٨١).

(٢) أخرجه الطبري عنه: (٢١/ ١٠)، ورجح القول الأول، لدلالة قوله تعالى: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ على ذلك، وأن ذلك هو أظهر معنييه، وذلك أن الأرض إذا وصفها بِسَعة، فالغالب من وصفه إياها بذلك أنها لا تضيق جميعها على من ضاق عليه منها موضع، لا أنه وصفها بكثرة الخير والخصب.

(٣) ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس دون سند: (٦/ ٢٨٢)، والقرطبي: (١٣/ ٣٦٠)، وفيه الحديث الضعيف الآتي.

وقال سفيان عن علي بن الأقمر: وكأيّن من دابّة لا تحمل رزقها، قال: لا تدخر شيئًا لغد.

قال سفيان: ليس شيء من خلق الله يخبأ إلّا الإنسان والفأرة والنملة[1].

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني أبو عبد الله الحسين ابن محمد الثقفي، أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق، أخبرنا محمد بن عبد العزيز، أخبرنا إسماعيل بن زرارة الرقي، أخبرنا أبو العطوف الجراح بن منهال، عن الزهري، عن عطاء بن أبي/ رباح، عن ابن عمر قال: ٦٩/أ
دخلت مع رسول الله ﷺ (حائطًا من حوائط الأنصار، فجعل رسول الله ﷺ)[2] يلقط الرطب بيده ويأكل، فقال: كلْ يابن عمر، قلت: لا أشتهيها يا رسول الله، قال: لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعامًا ولم أجده، فقلت: إنا لله، الله المستعان، قال: «يابن عمر لو سألتُ ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافًا مضاعفة، ولكن أجوع يومًا وأشبع يومًا فكيف بك يابن عمر إذا عمّرت وبقيت في حثالة من الناس يخبئون رزق سنة ويضعف اليقين»، فنزلت[3]: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا . . .﴾ الآية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس السراج، أخبرنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ: «كان لا يدخر شيئًا لغد»[4].

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكّلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[5].

---

(١) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (٢١/ ١)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٧٥).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) عزاه السيوطي: (٦/ ٤٧٥) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٩٦ ـ ٣٩٧. قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٤٢١): (هذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف). وقال القرطبي (١٣/ ٣٦٠): (وهذا ضعيف، يضعفه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يدخر لأهله قوت سَنَتِهم (اتفق البخاري ومسلم عليه)، وكانت الصحابة يفعلون ذلك، وهم القدوة وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين). وقال الشوكاني في «فتح القدير» (٤/ ٢١٣): (وهذا الحديث فيه نكارة شديدة؛ لمخالفته لما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة، وفي إسناده أبو العطوف الجزري وهو ضعيف).

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله: (٧/ ٢٦)، وقال: (هذا حديث غريب، وقد روى هذا غير جعفر بن سليمان عن ثابت عن النبي ﷺ مرسلًا)، وصححه ابن حبان برقم٢١٣٩: ص٥٢٥ من «موارد الظمآن»، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٥٣)، وقال المناوي في «فيض القدير» (٥/ ١٨٣): (وسند الحديث جيد).
ولا ينافي هذا الحديث ما سبق من أن النبي ﷺ كان يدخر لعياله قوت سنة، فهو كان لا يدخر لنفسه ﷺ وإنما كان يدخر لغيره كأهله، أو يملّكهم ذلك ويقسمه لهم أسوة بغيرهم فيما كان يقسم للمسلمين مما أفاء الله عليه، والله أعلم.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا: (٧/ ٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه في الزهد، باب التوكل واليقين، برقم٤١٦٤: (٢/ ١٣٩٤)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣١٨)، وأخرجه الإمام أحمد: (١/ ٣٠، ٥٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٠١).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه، أخبرنا أبو نصر بن حمدويه المطوعي، أخبرنا أبو الموجه محمد بن عمرو، أخبرنا عبدان، عن أبي حمزة، عن إسماعيل هو ابن أبي خالد، عن رجلين أحدهما زبيد اليامي، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلَّا وقد أمرتُكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم من الجنة إلَّا وقد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد نفث في رُوْعِي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفيَ رزقها، فاتقوا الله وأجمِلُوا في الطلب ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يدرك ما عند الله إلَّا بطاعته»[1]، وقال هشيم عن إسماعيل عن زبيد عمن أخبره عن ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: كفار مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾[2]. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[3].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله، وقيل: قل الحمد لله على إقرارهم لزوم الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه الخالق لهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ﴾ اللهو هو: الاستمتاع بلذات الدنيا، واللَّعِب: العبث، سميت بهما؛ لأنها فانية ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ أي: الحياة الدائمة الباقية، و«الحيوان» بمعنى: الحياة، أي: فيها الحياة الدائمة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فناء الدنيا وبقاء الآخرة.

---

(١) أخرجه الحاكم: (٢/٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/٣٠٣ ـ ٣٠٤)، وعزاه في «المشكاة» (٣/١٤٥٨) للبيهقي في «شعب الإيمان»، وله شواهد من حديث جابر والمطلب ساقها المصنف في «شرح السنة» والحاكم في «المستدرك»، فيتقوى الحديث بها.

(٢) أي: فأنّى يصرفون عمن صنع ذلك، فيعدلون عن إخلاص العبادة له. الطبري: (٢١/١١).

(٣) يقول تعالى ذكره: الله يوسع من رزقه لمن يشاء من خلقه، ويضيق فيَقْتُر لمن يشاء منهم، يقول: فأرزاقكم وقسمتها بينكم أيها الناس بيدي دون كل أحد سواي، أبسط لمن شئت منها، وأقتر على من شئت ... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن الله عليم بمصالحكم، ومن لا يصلح له إلا البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلا التقتير عليه، وهو عالم بذلك. الطبري: (٢١/١٢).

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا
وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وتركوا الأصنام ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ هذا إخبار عن عنادهم، وأنهم عند الشدائد يقرُّون أن القادر على كشفها هو الله عزَّ وجلَّ وحده، فإذا زالت عادوا إلى كفرهم، قال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا: يا رب يا رب.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هذا لام الأمر، ومعناه: التهديد والوعيد، كقوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»[فصلت: ٤٠]، أي: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إيَّاهم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي ساكنة اللام، وقرأ الباقون بكسرها نسقًا على قوله: «ليكفروا» ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وقيل: مَنْ كسر اللام جعلها لام كي وكذلك في «ليكفروا»، والمعنى: لا فائدة في الإشراك إلَّا الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني: العرب، يسبي بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ بالأصنام والشيطان ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ بمحمد والإسلام ﴿يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن لله شريكًا، وأنه أمر بالفواحش ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ استفهام بمعنى التقرير، معناه: أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنثبتنهم على ما قاتلوا عليه.

وقيل: لنزيدنَّهم هدًى كما قال: «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى»[مريم: ٧٦]، وقيل: لنوفقنَّهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي يوصل بها إلى رضا الله عزَّ وجلَّ.

قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل(١) الثغور، فإن الله قال: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

---

(١) ساقط من «أ».

وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات، قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى.

وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينَّهم سُبل العمل به، وقال سهل بن عبد الله: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينَّهم سبل الجنة، ورُوي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبل ثوابنا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، وبالثواب والمغفرة في عُقْباهم.

* * *

سورة الرُّوم

مكية(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ سبب نزول هذه الآية ـ على ما ذكره المفسرون ـ: أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان(٢) المشركون يودُّون أن تغلب فارس الروم؛ لأن أهل فارس كانوا مجوسًا أميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشًا إلى الروم واستعمل عليه / ٦٩/ب
رجلًا يقال له: شهريراز، وبعث قيصر جيشًا إلى فارس واستعمل عليهم رجلًا يدعى يحفّس، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارسٌ الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة، فشقّ عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا فوالله ليظهرنَّ على فارس (على ما)(٢) أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أُبيُّ بن خلف الجمحي فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلًا أناحِبُك عليه ـ والمناحبة: المراهنة ـ على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ، ففعلوا، وجعل الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، وذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي ﷺ: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايِدْه في الخطر ومادَّه في الأجل، فخرج أبو بكر ولقي أبيًا، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا، فتعال أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص (ومائة قلوص)(٢) إلى تسع سنين، وقيل: إلى سبع سنين، قال: قد فعلت، فلما خشي أُبيُّ بن خلف أن

---

(١) مكية بالإجماع دون خلاف. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٧٨)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٤١)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٨٦)، القرطبي: (١٤/ ١).
(٢) ساقط من «أ».

يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه، وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقِمْ لي كفيلًا، فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر، فلما أراد أُبيُّ بن خلف أن يخرج إلى أُحد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، فقال: لا والله، لا أدعك حتى تعطيني كفيلًا، فأعطاه كفيلًا، ثم خرج إلى أحد ثم رجع أُبيُّ بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم، وقيل: كان يوم بدر.

قال الشعبي: لم تمض تلك المدة التي عقدوا المناحبة بين أهل مكة، وفيها صاحبُ قمارهم أُبي بن خلف، والمسلمون قمارهم أبو بكر، وذلك قبل تحريم القمار، حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنو الرومية فقمر أبو بكر أُبيًا وأخذ مال الخطر من ورثته، وجاء به يحمله إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «تصدَّقْ به».

وكان سبب غلبة الروم فارسًا ـ على ما قال عكرمة وغيره ـ: أن شهريراز بعدما غلبت الروم لم يزل يطؤهم ويخرِّب مدائنهم حتى بلغ الخليج، فبينما أخوه فرخان جالس ذات يوم يشرب فقال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت كلمته كسرى، فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي فابعث إليَّ برأس فرخان، فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، إن له نكاية وصوتًا في العدو، فلا تفعل، فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفًا منه، فعجِّلْ برأسه، فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه، وبعث بريدًا إلى أهل فارس أني قد نزعت عنكم شهريراز واستعملت عليكم فرخان الملك، ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمره فيها بقتل شهريراز، وقال: إذا ولي فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطِه، فلما قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعًا وطاعة، ونزل عن سريره وجلس فرخان ودفع إليه الصحيفة، فقال: ائتوني بشهريراز، فقدَّمه ليضرب عنقه، فقال: لا تعجل عليَّ حتى أكتب وصيتي، قال: نعم، فدعا بالسفط فأعطاه ثلاث صحائف، وقال: كل هذا راجعت فيك كسرى، وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد؟ فرد الملك إلى أخيه، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم إن لي إليك حاجة لا تحملها البُردُ، ولا تبلغها الصحف، فالقَني، ولا تلقني إلّا في خمسين روميًا، فإني ألقاك في خمسين فارسيًا، فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق، وخاف أن يكون قد مكر به، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلّا خمسون رجلًا، ثم بسط لهما فالتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، ومع كل واحد منهما سكين، فدعوا بترجمان بينهما، فقال شهريراز: إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني، فقد خلعناه جميعًا فنحن نقاتله معك، قال: قد أصبتما، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السِّرَّ بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا، فقتلا الترجمان معًا بسكينيهما، فأُدِيلت الروم على فارس عند ذلك، فاتبعوهم يقتلونهم، ومات كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

ومن معه[1]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، قال عكرمة: هي أذرعات وكسكَر، وقال مجاهد: أرض الجزيرة، وقال مقاتل: الأردن وفلسطين ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي: الروم من بعد غلبة فارس إياهم، والغلب والغلبة لغتان ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ فارسًا.

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى السبع، (وقيل: ما بين الثلاثة إلى التسع)[2]، وقيل: ما دون العشرة.

وقرأ عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري والحسن وعيسى بن عمر «غَلَبَت» بفتح الغين واللام، «سيُغْلَبون» بضم الياء وبفتح اللام، وقالوا: نزلت حين أخبر النبي ﷺ عن غلبة الروم فارسًا.

ومعنى الآية: الٓمٓ غلبت الروم فارسًا في أدنى الأرض إليكم، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، يغلبهم المسلمون في بضع سنين، وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم[3].

والأول أصح، وهو قول أكثر المفسرين.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها، فأي الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله / وقضائه وقدره ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾. ١/٧٠

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ الرومَ على فارس، قال السدي: فرح النبي ﷺ والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر، وظهورِ أهل الكتاب على أهل الشرك ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ بالمؤمنين.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: وعد الله وعدًا بظهور الروم على فارس ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

---

(١) هذه السياقات التي ذكرها المفسرون عن الشعبي وعكرمة وعطاء، ذكرها ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥)، قال: (ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود في «تفسيره» حيث قال: . . .) وساق جملة ما نقله البغوي عن المفسرين، ثم قال: (فهذا غريب وبناء عجيب). وجملة القصة وسبب النزول وردا بروايات متعددة ثابتة، فقد أخرجها الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وغيرهم. وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٣)، «أسباب النزول»: ص٣٩٨، الطبري: (٢١/ ١٦ ـ ١٩).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) انظر: الطبري: (٢١/ ٢١)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٤١).

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معاشهم، كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطىء وهو لا يحسن يصلي[1].

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ ساهون عنها جاهلون بها، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق، وقيل: لإقامة الحق ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت، وهو القيامة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أولم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (أي: أكثر مما عمرها)[2] أهل مكة، قيل: قال ذلك لأنه لم يكن لأهل مكة حرث ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بنقص حقوقهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ ببخس حقوقهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أي: أساؤوا العمل ﴿السُّوأَىٰ﴾ يعني: الخلة التي تسوؤهم وهي النار، وقيل: «السوأى» اسم لجهنم، كما أن «الحسنى» اسم للجنة[3] ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ أي: لأن كذبوا.

وقيل: تفسير «السوأى» ما بعده، وهو قوله: «أن كذبوا»، يعني: كان عاقبة المسيئين التكذيب، حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. «الدر المنثور»: (٦/ ٤٨٤).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٢٢)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٤٨).

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾

قرأ أهل الحجاز والبصرة: «عاقبةُ» بالرفع، أي: ثم كان آخر أمرهم السوء، وقرأ الآخرون بالنصب على خبر كان، تقديره: ثم كان السوأى عاقبة الذين أساؤوا.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يخلقهم ابتداءً ثم يعيدهم بعد الموت أحياءً، ولم يقل: يعيدهم، ردَّه إلى الخلق ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ فيجزيهم بأعمالهم، قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يرجعون» بالياء، والآخرون بالتاء.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ قال قتادة والكلبي: ييأس المشركون من كل خير، وقال الفرَّاء: ينقطع كلامهم وحجتهم[1]، وقال مجاهد: يفتضحون.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣﴾ جاحدين متبرئين، يتبرؤون منها، وتتبرأ منهم.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ أي: يتميز أهل الجنة من أهل النار، وقال مقاتل: يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار، فلا يجتمعون أبدًا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ وهي البستان الذي في غاية النضارة ﴿يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ قال ابن عباس: يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون، وقال أبو عبيدة: يسرون، و«الحَبْرَة»: السرور، وقيل: «الحبرة» في اللغة: كل نعمة حسنة، والتحبير التحسين.

وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: «تحبرون» هو السماع في الجنة[2]، وقال الأوزاعي: إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلَّا وردَّدت، وقال: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: البعث يوم القيامة ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

---

(١) في «معاني القرآن»: (٣/ ٣٢٢): (... وحججهم).

(٢) الطبري: (٢١/ ٢٧ ـ ٢٨)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٨٦)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٤٩)، «زاد المسير»: (٦/ ٢٩٣).

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: سبِّحوا الله، ومعناه: صلُّوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي: تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعِشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: صلُّوا لله عشيًا، يعني: صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ تدخلون في الظهيرة، وهو صلاة الظهر. قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت الآية الصلوات الخمس ومواقيتها[(١)].

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن سُمَيٍّ مولى أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[(٢)].

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، حدثنا السَّرِيُّ بن خزيمة الأَبِيوَرْدِي، حدثنا المعلى بن سعد، أخبرنا عبد العزيز بن المختار، عن سهيل، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلّا أحد قال مثل ما قال أو زاد»[(٣)].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا محمد بن فضيل، أخبرنا عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ٢٩)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤١١)، والطبراني في «الكبير»: (١٠/ ٣٠٤)، وزاد السيوطي نسبته لعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم: (٦/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»: (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠)، والبخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح: (١١/ ٢٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح برقم ٢٦٩١: (٤/ ٢٠٧١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٠).

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء برقم ٢٦٩٢: (٤/ ٢٠٧١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم: (١١/ ٥٦٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم في الموضع السابق برقم ٢٦٩٤: (٤/ ٢٠٧٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٢).

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا علي بن المديني، أخبرنا ابن عيينة، عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة قال: سمعت كريبًا أبا رشدين / يحدِّث عن ابن عباس، عن جويرية بنت الحارث بن ٧٠/ب أبي ضرار: أن النبي ﷺ خرج ذات غداة من عندها، وكان اسمها برَّة فحوَّله رسول الله ﷺ وسماها جويرية، وكره أن يقال خرج من عند برة، فخرج وهي في المسجد[1]، ورجع بعدما تعالى النهار، فقال: «مازلتِ في مجلسكِ هذا منذ خرجتُ بعد»؟ قالت: نعم، فقال: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزِنَتْ بكلماتك لوزنتهنَّ: سبحان الله وبحمده عددَ خلقه، ورضاءَ نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومدادَ كلماتِه»[2].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي «تَخْرُجُون» بفتح التاء وضم الراء، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلكم، يعني: آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ تنبسطون في الأرض.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قيل: من جنسكم من بني آدم، وقيل: خلق حواء من ضلع آدم[3] ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادّان ويتراحمان، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ في عظمة الله وقدرته.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أبيض وأسود وأحمر، وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

(١) في «صحيح مسلم»: «مسجدها»: وهو موضع صلاتها.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء برقم ٢٧٢٦: (٤/ ٢٠٩٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٥).

(٣) تقدم فيما سبق أنه ليس هناك نصٌّ صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، والله أعلم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قرأ حفص «للعالِمين»[1] بكسر اللام.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، أي: تصرفكم في طلب المعيشة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ للمسافر من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم في المطر ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ﴾ يعني: بالمطر[2] ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: بعد يبسها وجدوبتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال ابن مسعود: قامتا على غير عمد بأمره، وقيل: يدوم قيامهما بأمره[3] ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: من القبور ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ منها، وأكثر العلماء على أن معنى الآية: ثم إذا دعاكم دعوة إذا أنتم تخرجون من الأرض.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مطيعون، قال الكلبي: هذا خاص لمن كان منهم مطيعًا، وعن ابن عباس: كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة[4].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يخلقهم أولًا، ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال الربيع بن خثيم والحسن وقتادة والكلبي: أي: هو هين عليه، وما شيء عليه بعزيز، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وقد يجيء أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق:

---

(١) في «الأصل» ضبطت بفتح اللام على ما اختاره المصنف.

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أي: تثبت، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ وهذا كثير، قاله ابن عطية: (١٢/ ٢٥٣)، وانظر: «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٢٥٤).

(٤) انظر شرحًا لهذا في: «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٥٤_٢٥٥).

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا ... بَيْتًا دعائِمُهُ أعزُّ وأطْوَلُ[1]

أي: عزيزة طويلة.

وقال مجاهد وعكرمة: «وهو أهون عليه»، أي: أيسر[2]، ووجهه أنه على طريق ضرب المثل، أي: هو أهون عليه على ما يقع في عقولكم، فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء، أي: الابتداء.

وقيل: هو أهون عليه عندكم[3]، وقيل: هو أهون عليه، أي: على الخلق، يقومون بصيحة واحدة، فيكون أهون عليه من أن يكونوا نطفًا، ثم علقًا، ثم مضغًا، إلى أن يصيروا رجالًا ونساءً، وهذا معنى رواية ابن حِبَّان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس[4].

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العليا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: هي أنه ليس كمثله شيء، وقال قتادة: هي أنه لا إله إلَّا هو[5] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ في خلقه.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: بيَّن لكم شبهًا بحالكم، وذلك المثل من أنفسكم، ثم بيَّن المثل فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: عبيدكم وإماؤكم ﴿مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من المال ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحرّ شريكه الحرّ في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمر دونه، وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث، وهو يحب أن ينفرد به.

---

(١) البيت في «ديوان الفرزدق»: ص٧١٤، وهو من شواهد الطبري: (٢١/ ٣٧)، وأبي عبيدة: (٢/ ١٢١)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٥٥)، «معاني القرآن» للنحاس: (٥/ ٢٥٦)، وهو ترجيح الطبري.

(٢) قال الفراء: (٢/ ٣٢٤) تعقيبًا على قوله مجاهد: (ولا أشتهي ذلك، والقول فيه أنه مثل ضربه الله، فقال: أتكفرون بالبعث؟ فابتداء خلقكم من لا شيء أشدّ، فالإنشاءة من شيء عندكم يا أهل الكفر ينبغي أن تكون أهون عليه، ثم قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، فهذا شاهد أنه مثل ضربه الله)، وهذا بمعنى ما فسره المصنف من قول مجاهد. والله أعلم.

(٣) أي: خاطب العباد بما يعقلون، فأعلمهم أنه يجب أن يكون عندهم البعث أسهل من الابتداء في تقديرهم وحكمهم. انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٢٩٨)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٥٦).

(٤) «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٢٤)، والنحاس: (٥/ ٢٥٥).

(٥) انظر: الطبري: (١٩/ ٣٨)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٩١)، ابن كثير: (٣/ ٤٣٢).

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا، فإذا كنتم تخافون هذا من مماليككم، ولم ترضوا ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي(١)؟

ومعنى قوله: «أَنفُسَكُمْ»، أي: أمثالكم من الأحرار، كقوله: «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا» [النور: ١٢]، أي: بأمثالهم.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أشركوا بالله ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جهلًا بما يجب عليهم ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ (أي: أضله الله)(٢) ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٢٩﴾ مانعين، يمنعونهم من عذاب الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أخلص دينك لله، قاله سعيد بن جبير، وإقامة الوجه: إقامة الدين، وقال غيره: سدد عملك، والوجه ما يتوجه إليه الإنسان، ودينه وعمله ما يتوجه إليه لتسديده(٣) ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا مستقيمًا عليه ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ دين الله، وهو نصب على الإغراء، أي: الزمْ فطرة الله ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: خلق الناس عليها، وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين أن المراد بالفطرة: الدين، وهو الإسلام(٤). وذهب قوم إلى أن الآية خاصة في المؤمنين، وهم الذين فطرهم الله على الإسلام:

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يُولد يُولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه
١/٧١ كما تُنتِجُونَ البهيمة، هل تجدون فيها من جَدْعَاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها»؟ قالوا: / يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»(٥).

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٢٩٩)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) «زاد المسير»: (٦/ ٣٠٠)، ابن كثير: (٣/ ٤٣٣).

(٤) انظر: الطبري: (٢١/ ٤٠)، ابن كثير: (٣/ ٤٣٣).

(٥) أخرجه البخاري في القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين: (٧/ ٤٩٣)، وروى جزءًا منه في الجنائز وفي التفسير، ومسلم في القدر، باب معنى «كل مولود يولد على الفطرة...» برقم ٢٦٥٨: (٤/ ٢٠٤٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٥٤). وانظر: «صحيفة همام بن منبه» تحقيق د. رفعت فوزي عبد المطلب: ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

ورواه الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة من غير ذكر من يموت وهو صغير، وزاد: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١).

قوله: «مَن يُولد يُولد على الفطرة» يعني: على العهد الذي أخذ الله عليهم بقول: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وكل مولود في العالم على ذلك الإقرار، وهو الحنيفية التي وقعت الخِلْقة عليها وإنْ عبد غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ولكن لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى أنه يقول: «فأبواه يهوِّدانه» فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكومٌ له بحكم أبويه الكافرين، وهذا معنى قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»(٢)، ويحكى معنى هذا عن الأوزاعي وحماد بن سلمة(٣).

وحكي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: معنى الحديث: إن كل مولود يولد على فطرته، أي: على خلقته التي جُبل عليها في علم الله تعالى من السعادة أو الشقاوة، فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليها، وعاملٌ في الدنيا بالعمل المُشَاكِل لها، فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين، فيحملانه ـ لشقائه ـ على اعتقاد دينهما(٤).

وقيل: معناه: أن كل مولود يُولد في مبدأ الخلقة (على الفطرة، أي: على الجِبِلَّة السليمة)(٥) والطبع المتهيىء لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمرَّ على لزومها؛ لأن هذا الدين موجودٌ حُسْنُه في العقول، وإنما يَعْدل عنه من يعدل إلى غيره لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره . . . ثم يتمثل بأولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم، فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والمحجة المستقيمة. ذكر أبو سليمان الخطابي هذه المعاني في كتابه(٦).

قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فمن حمل الفطرة على الدين قال: معناه: لا تبديل لدين الله، وهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا دين الله، قال مجاهد وإبراهيم: معنى الآية: الزموا فطرة الله، أي: دين الله،

---

(١) البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات: (٣/ ٢١٩).

(٢) قطعة من حديث عياض بن حمار المجاشعي، أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار برقم ٢٨٦٥: (٤/ ٢١٩٧).

(٣) انظر: «شرح السنة»: (١/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، «معالم السنن» للخطابي: (٧/ ٨٣).

(٤) «شرح السنة»: (١/ ١٥٩)، «معالم السنن» للخطابي: (٧/ ٨٤ ـ ٨٥).

(٥) في «معالم السنن» للخطابي: (٧/ ٨٨): (. . . وأصل الجبلَّة على الفطرة السليمة).

(٦) «معالم السنن»: (٧/ ٨٣ ـ ٨٨). وانظر في هذا المبحث: «فتح الباري»: (٣/ ٢٤٨ ـ ٢٥١)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤)، «تفسير القرطبي»: (١٤/ ٢٥ ـ ٣٠)، «شفاء العليل» لابن القيم: ص٥٦٨، وما بعدها، تعليق ابن القيم على «سنن أبي داود» ـ مع «معالم السنن»: (٧/ ٨١ ـ ٨٧)، «صحيفة همام بن منبه»: ص٢٦٠ ـ ٢٦٧، وراجع فيما سبق: (٢/ ١٥٦ ـ ١٥٨).

۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك(١) ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقيل: لا تبديل لخلق الله، أي: ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لا يتبدل، فلا يصير السعيد شقيًا ولا الشقي سعيدًا.

وقال عكرمة ومجاهد: معناه: تحريم إخصاء البهائم(٢).

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه؛ لأن مخاطبة النبي ﷺ يدخل معه فيها الأمة، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١] ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: صاروا فرقًا مختلفة وهم: اليهود والنصارى(٣)، وقيل: هم أهل البدع من هذه الأمة(٤) ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: راضون بما عندهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ قحط وشدة ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مقبلين إليه بالدعاء ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خصبًا ونعمة ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ حالكم في الآخرة.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حجة وعذرًا، وقال قتادة: كتابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ينطق بشركهم ويأمرهم به.

---

(١) «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٥٩)، «الدر»: (٦/ ٤٩٣)، القرطبي: (١٤/ ٣١).

(٢) انظر: الطبري: (٢١/ ٤١ ـ ٤٢)، القرطبي: (١٤/ ٣١).

(٣) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة. انظر: الطبري: (٢١/ ٤٢)، «الدر»: (٦/ ٤٩٥)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٥٩).

(٤) وهو قول عائشة وأبي هريرة وأبي أمامة ـ رضي الله عنهم ـ. القرطبي: (١٤/ ٣٢).

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ أي: الخصب وكثرة المطر ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ يعني: فرح البَطَر ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ أي: الجدب وقلة المطر، ويقال: الخوف والبلاء ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من السيئات ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمن، فإنه يشكر الله عند النعمة، ويرجو ربه عند الشدة.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البر والصلة ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ وحقه: أن يتصدق عليه ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ يعني: المسافر، وقيل: هو الضيف ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ يطلبون ثواب الله بما يعملون ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾ قرأ ابن كثير «أتيتم» مقصورًا، وقرأ الآخرون بالمدِّ، أي: أعطيتم، ومن قصر فمعناه: ما جئتم من ربا، ومجيئوهم ذلك على وجه الإعطاء كما تقول: أتيت خطأ، وأتيت صوابًا، فهو يؤول في المعنى إلى قول مَنْ مَدَّ ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب «لتُرْبُوا» بالتاء وضمها وسكون الواو على الخطاب، أي: لتُرْبُوا أنتم وتصيروا ذوي زيادة من أموال الناس، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها ونصب الواو، وجعلوا الفعل للربا لقوله: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ في أموال الناس، أي: في اختطاف أموال الناس واجتذابها.

واختلفوا في معنى الآية، فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاووس وقتادة والضحاك وأكثر المفسرين: هو الرجل يعطي غيره العطية؛ ليثيب أكثر منها فهذا جائز حلال، ولكن لا يثاب عليه في القيامة، وهو معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، وكان هذا حرامًا على النبي ﷺ خاصة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[المدثر: ٦]، أي: لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت[(١)].

وقال النخعي: هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه؛ ليكثر ماله ولا يريد به وجه الله[(٢)].

(١) انظر: الطبري: (٢١/ ٤٦-٤٧)، «الدر المنثور»: (٦/ ٤٩٥-٤٩٦)، القرطبي: (١٤/ ٣٦-٣٧)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٦٣).

(٢) الطبري: (٢١/ ٤٧)، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

وقال الشعبي: هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه، فيجعل له ربح ماله التماس عونه، لا لوجه الله، ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه لم يرد به وجه الله تعالى[(١)].

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أعطيتم من صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها / فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات، تقول العرب: القوم مهزولون ومسمونون: إذا هزلت أو سمنت إبلهم[(٢)]. ٧١/ب

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني: قحط المطر وقلة النبات، وأراد بالبر البوادي والمفاوز، وبالبحر المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية، قال عكرمة: العرب تسمي المصر بحرًا، تقول أجدب البر وانقطعت مادة البحر[(٤)] ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بشؤم ذنوبهم، وقال عطية وغيره: «البر» ظهر الأرض من الأمصار وغيرها، و«البحر» هو البحر المعروف، وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلو أجواف الأصداف؛ لأن الصدف إذا جاء المطر يرتفع إلى وجه البحر ويفتح فاه فما يقع في فيه من المطر صار لؤلؤًا.

---

(١) «زاد المسير»: (٦/ ٣٠٤)، قال ابن عطية: وهو قريب من التفسير الأول.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٢٥): تقول العرب: أصبحتم مُسْمِنِينَ مُعْطِشِين إذا عطشت إبلهم أو سَمِنَتْ.

(٣) يقول الله تعالى ذكره للمشركين به، معرّفهم قبح فِعْلهم، وخُبْث صنيعهم: الله ـ أيها القوم ـ الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره، هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا، ثم رزقكم وخوّلكم، ولم تكونوا تملكون قبل ذلك، ثم هو يميتكم من بعد أن خلقكم أحياء، ثم يحييكم من بعد مماتكم لبعث القيامة.

وقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم . . .﴾ هل من آلهتكم وأوثانكم ـ التي تجعلونها لله في عبادتكم إياه شركاء ـ من يفعل من ذلكم من شيء فيخلق أو يرزق أو يميت أو ينشر.

وهذا من الله: تقريع لهؤلاء المشركين، وإنما معنى الكلام أن شركاءهم لا تفعل شيئًا من ذلك، فكيف يعبد من دون الله ما لا يفعل شيئًا من ذلك. ثم برّأ نفسه ـ تعالى ذكره ـ عن الفرية التي افتراها هؤلاء المشركون عليه ـ بزعمهم أن آلهتهم له شركاء ـ فقال جل ثناؤه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهًا وتبرئة ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ يقول: وعلوًّا له، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: عن شرك هؤلاء المشركين به. انظر: الطبري: (٢١/ ٤٨).

(٤) «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٢٥).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: الفساد في البر: قتل أحد ابني آدم أخاه، وفي البحر: غصب الملك الجائر السفينة.

قال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابنُ آدم شجرةً إلَّا وجد عليها ثمرة، وكان ماء البحر عذبًا وكان لا يقصد الأسدُ البقرَ والغنم، فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحًا زعافًا وقصد الحيوان بعضها بعضًا[1].

قال قتادة: هذا قبل مبعث النبي ﷺ، امتلأت الأرض ظلمًا وضلالة، فلما بعث الله محمدًا ﷺ رجع راجعون من الناس بما كسبت أيدي الناس من المعاصي، يعني: كفار مكة[2].

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: عقوبة بعض الذي عملوا من الذنوب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ عن الكفر وأعمالهم الخبيثة.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: كانوا مشركين، فأهلكوا بكفرهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المستقيم: وهو دين الإسلام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ يعني: يوم القيامة، لا يقدر أحد على رده من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يتفرقون، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ أي: وبال كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور.

---

(١) قال الطبري (٢١/ ٥٠): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن الله تعالى ذكره، أخبر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر عند العرب في الأرض والقفار، والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب، فهما جميعًا عندهم بحر، ولم يخصص ـ جلَّ ثناؤه ـ الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر، عذبًا كان أو ملحًا، وإذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار).
وقال ابن عطية (١٢/ ٢٦٥): (وظهور الفساد فيما هو بارتفاع البركات ونزول رزايا، وحدوث فتن، وتغلُّب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر . . . وقلما توجد أُمة فاضلة مطيعة، مستقيمة الأعمال، إلَّا يدفع الله عنها هذه، والأمر بالعكس في أهل المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أمر البلاد في وقت مبعث النبي ﷺ، قد كان الظلم عمَّ الأرض برًّا وبحرًا، وقد جعل الله هذه الأشياء؛ ليجازي بها على المعاصي فيذيق الناس عاقبة إذنابهم ـ مصدر أذنب ـ لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالى).

(٢) «البحر المحيط»: (٧/ ١٧٦).

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ تبشر بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ نعمة المطر، وهي: الخصب ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ بهذه الرياح ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا من رزقه بالتجارة في البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ربَّ هذه النعم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات على صدقهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ عذَّبنا الذين كذبوهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وإنجاؤهم من العذاب، ففي هذا تبشير للنبي ﷺ بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء، قال الحسن: أنجاهم مع الرسل من عذاب الأمم.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا أحمد بن زنجويه، أخبرنا أبو شيخ الحراني، أخبرنا أبو موسى بن أعين، عن ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردّ عن عِرض أخيه إلَّا كان حقًّا على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة»، ثم تلا هذه الآية: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ»(١).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: ينشره ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ مسيرة يوم أو يومين

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الذب عن المسلم: (٦/٥٨)، وقال: (هذا حديث حسن)، والطبراني في «الكبير»: (٢٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦). قال ابن حجر: (ورواه إسحاق والطبراني وأبو يعلى وابن عدي من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد نحوه مرفوعًا، وإسناده ضعيف، واختلف فيه على شهر بن حوشب، فقال القداح عنه: هكذا، وقال ليث: عنه عن أبي هريرة، أخرجه ابن مردويه). انظر: «الكافي الشاف»: ص١٢٩، «الفتح السماوي»: (٢/ ٩٠٧ ـ ٩٠٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٥).

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وأكثر على من يشاء ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعًا متفرقة ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ وسطه ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: بالودق ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يفرحون بالمطر.

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ وقد كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: آيسين، وقيل: «وإن كانوا»، أي: وما كانوا إلَّا مبلسين، وأعاد قوله: «من قبله» تأكيدًا[1].

وقيل: الأولى ترجع إلى إنزال المطر، والثانية إلى إنشاء السحاب[2].

وفي حرف عبد الله بن مسعود: «وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين»، غير مكرر.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ هكذا قرأ أهل الحجاز والبصرة وأبو بكر[3]، وقرأ الآخرون «إلى آثار رحمة الله» على الجمع، أراد برحمة الله: المطر، أي: انظر إلى حسن تأثيره في الأرض، وقال مقاتل: أثر رحمة الله، أي: نعمته وهو النبت ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: أن ذلك الذي يحيي الأرض لمحيي الموتى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ باردة مضرة فأفسدت الزرع ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: رأوا النبت والزرع مصفرًا بعد الخضرة ﴿لَّظَلُّوا۟﴾ لصاروا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد إصفرار الزرع ﴿يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يجحدون ما سلف من النعمة، يعني: أنهم يفرحون عند الخصب، ولو أرسلت عذابًا على زرعهم جحدوا سالف نعمتي.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾[4].

---

(١) رجحه الطبري: (٢١/ ٥٤)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٦٩)، «زاد المسير»: (٦/ ٣٠٩).

(٢) قال ابن الأنباري: والمعنى من قبل نزول المطر، من قبل المطر، وهذا مثلما يقول القائل: آتيك من قبل أن تتكلم، من قبل أن تطمئن في مجلسك، فلا تنكر عليه الإعادة، لاختلاف الشيئين. انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٠٩)، الطبري: (٢١/ ٥٤).

(٣) إشارة إلى أن المصنف رحمه الله قدم الإفراد (أثر) وهي المثبتة في المخطوطة، وقد تكرر مثل هذا، وسيأتي أيضًا.

(٤) يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تُسمع الأموات في أجداثها، ولا تُبلغ كلامك الصمّ الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردّهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات=

۞ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ قرىء بضم الضاد وفتحها، فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم، ومعنى «من ضعف»، أي: من نطفة، يريد من ذي ضعف، أي: من ماء ذي ضعف كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[المرسلات: ٢٠] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ من بعد ضعف الطفولية شبابًا، وهو وقت

١/٧٢ القوة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ هرمًا ﴿وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ / من الضعف والقوة والشباب والشيبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ على ما يشاء.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إلا ساعة، استقلُّوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة، وقال مقاتل والكلبي: ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[الأحقاف: ٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا، قال الكلبي ومقاتل: كذبوا في قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا بعث.

والمعنى: أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء تبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه(١)، وكان ذلك بقضاء الله وبقدره، بدليل قوله: «يؤفكون»، أي: يصرفون عن الحق.

ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما كتب الله لكم في سابق علمه من اللبث في القبور(٢)، وقيل: «في كتاب الله»، أي: في حكم الله(٣)، وقال قتادة ومقاتل: فيه تقديم وتأخير معناه: وقال الذين أُوتوا العلم في كتاب الله والإيمان: لقد لبثتم إلى يوم البعث، يعني: الذين يعلمون

= الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحدٍ سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحقَّ ويتبعونه وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين.
انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤٣٩).

(١) «زاد المسير»: (٦/ ٣١١)، «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٢٦).

(٢) الطبري: (٢١/ ٥٨)، «زاد المسير»: (٦/ ٣١٢).

(٣) «البحر المحيط»: (٧/ ١٨٠).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

كتاب الله(١)، وقرءوا قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٠]، أي: قالوا للمنكرين: لقد لبثتم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦﴾ وقوعه في الدنيا، فلا ينفعكم العلم به الآن، بدليل قوله تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يعني: عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ لا يطلب منهم العُتبى والرجوع في الآخرة، قرأ أهل الكوفة «لا ينفع» بالياء هاهنا وفي «حمٓ» المؤمن (ووافق نافع في «حمٓ» المؤمن)(٢)، وقرأ الباقون بالتاء فيهما.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾ ما أنتم إلا على باطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾ توحيد الله.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرتك وإظهارك على عدوك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يستجهلنَّك، معناه: لا يحملنَّك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي، وقيل: لا يستخفن رأيك وحلمك ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ بالبعث والحساب.

* * *

---

(١) نقل الطبري عن قتادة غير هذا فقال: (وتأويلها: وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم: لقد لبثتم في كتاب الله).
وردَّ ذلك ابن عطية فقال: ولا يحتاج إلى هذا، بل ذكر العلم يتضمن الإيمان، ولا يصف الله بعلمٍ من لم يعلم كل ما يوجب الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تنبيهًا عليه وتشريفًا لأمره، فنبَّه على مكان الإيمان وخصَّه بالذكر تشريفًا.
انظر: الطبري: (٢١/ ٥٧)، «المحرر الوجيز»: (١٢/ ٢٧٢).

(٢) ساقط من «ب».

سورة لقمان

مكية[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قرأ حمزة «رحمةٌ» بالرفع على الابتداء، أي: هو هدى ورحمة، وقرأ الآخرون بالنصب على الحال ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ... ﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث ابن كلدة كان يتّجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدث بها قريشًا، ويقول: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملِحُون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية[٢].

---

(١) أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُنزلت سورة لقمان بمكة.
وأخرج النحاس في «تاريخه» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سورة لقمان نزلت بمكة سوى ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث.
وأخرج النسائي وابن ماجه عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر، ونسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٥٠٣).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٤٠٠.

وقال مجاهد: يعني: شراء القيان والمغنين[1]، ووجه الكلام على هذا التأويل: من يشتري (ذات لَهْوِ أو) ذَا لَهْوِ الحديث.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق المزكي، حدثنا جدي محمد بن إسحاق بن خزيمة، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا مشعل بن ملحان الطائي، عن مطرح بن يزيد، عن عبد الله بن زجر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد العزيز، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام»، وفي مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلَّا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالانِ يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت[2].

أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد القفال، أخبرنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجُردي، أخبرنا أبو أحمد بكر ابن محمد بن حمدان الصيرفي، أخبرنا محمد بن غالب بن تمام، أخبرنا خالد بن أبي يزيد، عن هشام هو ابن حسان، عن محمد هو ابن سيرين، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: «نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة»[3].

قال مكحول: من اشترى جارية ضرَّابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيمًا عليه حتى يموت لم أصلِّ عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...﴾ الآية[4].

وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا: «لهو الحديث» هو الغناء، والآية نزلت فيه.

ومعنى قوله: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي: يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن، قال أبو الصباء البكري سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال: هو الغناء، والله الذي لا إله إلَّا هو، يرددها ثلاث مرات[5].

وقال إبراهيم النخعي: الغناء ينبت النفاق في القلب[6]، وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص ٤٠٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب ما لا يحل بيعه برقم ٢١٦٨): (٢/ ٧٣٣)، والإمام أحمد: (٥/ ٢٥٢)، والطبري: (٢١/ ٦٠)، وأخرجه بنحوه الترمذي في التفسير: (٩/ ٥٤ ـ ٥٥)، وقال: (هذا حديث غريب إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة، والقاسم ثقة، وعلي بن يزيد يضعف في الحديث، قاله محمد بن إسماعيل).

(٣) أخرجه البيهقي: (٦/ ١٢٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٧/ ٣٦٩)، (٨/ ٣٠٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٨/ ٢٣).

(٤) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٥٠٥).

(٥) أخرجه الطبري: (٢١/ ٦١).

(٦) أخرجه البيهقي: (١٠/ ٢٢٣)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٠٥) نسبته لابن أبي الدنيا.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ
أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾
هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

الدفوف، وقيل: الغناء رُقيةُ الزنا[١].

وقال ابن جريج: هو الطبل[٢]، وعن الضحاك قال: هو الشرك[٢]، وقال قتادة: هو كل لهو ولعب[٣].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يفعله عن جهل، قال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: يتخذ آيات الله هزوًا.

قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب «ويتخذَها» بنصب الذال عطفًا على قوله: «ليضل»، وقرأ الآخرون بالرفع نسقًا على قوله: «يشتري».

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ / رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ حسن. ٧٢/ب

﴿هَٰذَا﴾ يعني: الذي ذكرت مما تعاينون ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من آلهتكم التي تعبدونها ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٠٦) لابن أبي الدنيا والبيهقي.

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ٦٣).

(٣) وهو ما رجحه الطبري: (٢١/ ٦٣) إذ قال: (عنى به كل ما كان من الحديث ملهيًا عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسولُه؛ لأن الله تعالى عمَّ بقوله: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ولم يخصص بعضًا دون بعض فذلك على عمومه حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور، قال محمد بن إسحاق: وهو لقمان بن ناعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر، وقال وهب: كان ابن أخت أيوب[1]، وقال (مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب)[1][2]، قال الواقدي: كان قاضيًا في بني إسرائيل[1].

واتفق العلماء على أنه كان حكيمًا، ولم يكن نبيًّا، إلَّا عكرمة فإنه قال: كان لقمان نبيًّا، وتفرَّد بهذا القول.

وقال بعضهم: خيرٌ لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة[3].

وروي أنه كان نائمًا نصف النهار فنُودي: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض لتحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوتَ فقال: إن خيرني ربي قبلت العافية، ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليَّ فسمعًا وطاعةً، فإني أعلم إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاها الظلم من كل مكان أن يعدل فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلًا خير من أن يكون شريفًا، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقة، فنام نومة فأُعطي الحكمة، فانتبه وهو يتكلم بها، ثم نُودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان، فهوى في الخطيئة غير مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه، وكان لقمان يؤازره بحكمته[4].

وعن خالد الربعي قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا[5]، وقال سعيد بن المسيب: كان خياطًا[6]،

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ١٨٦).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) قال الحافظ ابن كثير في التفسير (٣/ ٤٤٤): (اختلف السلفُ في لقمان هل كان نبيًّا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني) - يعني: أنه لم يكن نبيًّا - ثم ذكر بعض الآثار، منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيًّا، ومنها ما هو مشعر بذلك، وفي بعضها ما يشعر أنه كان عبدًا قد مسَّه الرق، فقال: (وكونه عبدًا قد مسَّه الرق ينافي كونه نبيًّا؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها)، قال: (ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًّا، قال: وإنما ينقل كونه نبيًّا عن عكرمة إن صح السند إليه قال: فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة، قال: كان لقمان نبيًّا، قال: وجابر هذا، هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم)، ثم قال ابن كثير: (والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبيًّا، ولم يوحَ إليه) اهـ. فهذا يدل على أنه كان عبدًا صالحًا ولم يكن نبيًّا.

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥١٠ - ٥١٤) للحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والعزو إليه مؤذن بالضعف.

(٥) أخرجه الطبري: (٢١/ ٦٧ - ٦٨).

(٦) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥١٠) لابن أبي شيبة وأحمد في «الزهد» وابن المنذر.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقيل: كان راعي غنم، فروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال: ألست فلانًا الراعي فبِمَ بلغتَ ما بلغت؟ قال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني[1]، وقال مجاهد: كان عبدًا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ واسمه «أنعم»، ويقال: مشكم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ قرأ ابن كثير «يابنيْ لا تشرك بالله» بإسكان الياء، وفتحها حفص، والباقون بالكسر، «يا بني إنها» بفتح الياء حفص، والباقون بالكسر، «يا بني أقم الصلاة» بفتح الياء البزي عن ابن كثير وحفص، وبإسكانها القواس، والباقون بكسرها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال ابن عباس: شدة بعد شدة، وقال الضحاك: ضعفًا على ضعف، قال مجاهد: مشقة على مشقة، وقال الزجاج: المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة، ويقال: الحمل ضعف، والطلق ضعف، والوضع ضعف ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامه ﴿فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ المرجع، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ أي: بالمعروف، وهو البر والصلة والعشرة الجميلة ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ أي: دين من أقبل إلى طاعتي، وهو النبي ﷺ وأصحابه.

قال عطاء عن ابن عباس: يريد أبا بكر، وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن

---

(١) انظر: الطبري: (٢١/ ٦٨)، و«الدر المنثور»: (٦/ ٥١٢).

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ٦٧).

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى
ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، فقالوا له: قد صدَّقت هذا الرجل وآمنت به؟ قال: نعم، هو صادق، فآمنوا به، ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا، فهؤلاء لهم سابقة الإسلام، أسلموا بإرشاد أبي بكر[(١)].

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ يعني: أبا بكر ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وقيل: نزلت هاتان الآيتان في سعد بن أبي وقاص وأمه، وقد مضت القصة.

وقيل: الآية عامة في حق كافة الناس.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ الكناية في قوله: «إنها» راجعة إلى الخطيئة، وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ قال قتادة: تكن في جبل، وقال ابن عباس: في صخرة تحت الأرضين السبع، وهي التي تكتب فيها أعمال الفجار[(٢)]، وخضرة السماء منها.

قال السدي: خلق الله الأرض على حوت ـ وهو النون الذي ذكر الله عزَّ وجلَّ في القرآن «نٓ والقلم» ـ والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان، ليست في السماء ولا في الأرض، والصخرة على الريح[(٣)].

﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها ﴿خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ عالم بمكانها، قال الحسن: معنى الآية: هي الإحاطة بالأشياء، صغيرِها وكبيرِها، وفي بعض الكتب إن هذه الكلمة آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يعني: من الأذى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ يريد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما، من الأمور الواجبة التي أمر الله بها، أو من الأمور التي يُعْزَم عليها لوجوبها.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢)، الواحدي في «أسباب النزول»: ص ٤٠١.

(٢) انظر: ابن كثير: (٣/ ٤٤٧)، وقد قال معقبًا: (كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب)، «البحر المحيط»: (٧/ ١٨٨).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ١٨٨)، «الدر المنثور»: (٦/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣).

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب «ولا تصعِّر» بتشديد العين من غير ألف، وقرأ الآخرون: «تصاعر» بالألف، يقال: صعر وجهه وصاعر: إذا مال وأعرض تكبرًا، ورجل أصعر: أي: مائل العنق.

قال ابن عباس: يقول: لا تتكبر فتحقِّر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك.

وقال مجاهد: هو الرجل يكون بينك وبينه إحنة فتلقاه فيعرض عنك بوجهه.

وقال عكرمة: هو الذي إذا سُلِّم عليه لَوَى عنقه تكبرًا.

وقال الربيع بن أنس وقتادة: ولا تحتقر الفقراء ليكن / الفقير والغني عندك سواء ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ خيلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في مشيه ﴿فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ على الناس. ١/٧٣

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: ليكن مشيك قصدًا لا تخيلًا ولا إسراعًا، وقال عطاء: امشِ بالوقار والسكينة، كقوله: «يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا» [الفرقان: ٦٣] ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ انقص من صوتك، وقال مقاتل: اخفض صوتك ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أقبح الأصوات ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ أوله زفير وآخره شهيق، وهما صوت أهل النار.

وقال موسى بن أعين: سمعت سفيان الثوري يقول في قوله: «إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ» قال: صياح كل شيء تسبيح لله إلّا الحمار[١].

وقول جعفر الصادق في قوله: «إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ» قال: هي العطسة القبيحة المنكرة.

قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة، أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم.

وحكمه: قال خالد الربعي: كان لقمان عبدًا حبشيًا فدفع مولاه إليه شاة وقال: اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها، فأتاه باللسان والقلب، ثم دفع إليه شاة أخرى وقال: اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب، فسأله مولاه، فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا[٢].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ٦٧ ـ ٦٨)، والإمام أحمد في «الزهد»: ص٤٩، وابن أبي شيبة: (١٣/ ٢١٤).

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أتم وأكمل ﴿نِعَمَهُ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص «نعمهُ» على الجمع، وقرأ الآخرون منونة على الواحد، ومعناها الجمع أيضًا، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: النعمة الظاهرة: الإسلام والقرآن، والباطنة: ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة[١].

وقال الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة وتسوية الأعضاء، والباطنة: المعرفة.

وقال مقاتل: الظاهرة: تسوية الخلق، والرزق، والإسلام، والباطنة: ما ستر من الذنوب[٢].

وقال الربيع: الظاهرة بالجوارح، والباطنة: بالقلب.

وقيل: الظاهرة: الإقرار باللسان، والباطنة: الاعتقاد بالقلب.

وقيل: الظاهرة: تمام الرزق، والباطنة: حسن الخلق.

وقال عطاء: الظاهرة: تخفيف الشرائع، والباطنة: الشفاعة.

وقال مجاهد: الظاهرة: ظهور الإسلام والنصر على الأعداء، والباطنة: الإمداد بالملائكة.

وقيل: الظاهرة: الإمداد بالملائكة، والباطنة: إلقاء الرعب في قلوب الكفار.

وقال سهل بن عبد الله: الظاهرة: اتباع الرسول، والباطنة: محبته.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وأُبيِّ بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم[٣] ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ وجواب «لو» محذوف، ومجازه: يدعوهم فيتبعونه، يعني: يتبعون الشيطان، وإن كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب»: (٨/ ٤١٩) بإسنادين ضعيفين.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب»: (٨/ ٤١٨)، وابن أبي الدنيا في «الشكر»: ص١٠٩ بإسناد ضعيف.

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٦/ ٣٥١).

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني: لله، أي: يخلص دينه لله، ويفوض أمره إلى الله ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي: اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي: نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلًا إلى انقضاء آجالهم ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ ثم نلجئهم ونردهم في الآخرة ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ وهو عذاب النار.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . . ﴾ الآية، قال المفسرون نزلت بمكة، قوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ»، إلى قوله: «وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»[الإسراء: ٨٥]، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا: يا محمد، بلغنا عنك أنك تقول: «وما أُوتيتم من العلم إلَّا قليلًا» أفعنيتنا أم قومَك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: كُلًّا قد عنيت، قالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا أُوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم»، قالوا: يا محمد، كيف تزعم هذا وأنت تقول: «وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا» [البقرة: ٢٦٩]، فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير؟ فأنزل الله هذه الآية(١).

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ٨١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٢٦) لابن إسحاق وابن أبي حاتم، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠١ ـ ٤٠٢، إذ قال: (قال المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله بمكة ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلَّا قليلا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود . . .).

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قال قتادة: إن المشركين قالوا: إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[1]، أي: بريت أقلامًا ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب «والبحرَ» بالنصب عطفًا على «ما»، والباقون بالرفع على الاستئناف، «يمده» أي: يزيده، وينصبّ فيه ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من خلفه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ وفي الآية اختصار تقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ وهذه الآية على قول عطاء بن يسار مدنية، وعلى قول غيره مكية، وقالوا: إنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعدُ بمكة، والله أعلم.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (يعني: كخلق نفس واحدة)[2]، وبعثها لا يتعذر عليه شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرت؛ لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ يريد: أن ذلك من نعمة الله عليكم ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ عجائبه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على أمر الله / ﴿شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ لنعمه. ٧٣/ب

---

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ٨١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٢٨) لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» ولأبي نصر السجزي في «الإبانة».

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال، وقال الكلبي: كالسحاب، والظلل جمع الظلة، شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها، وجعل الموج - وهو واحد - كالظلل وهي جمع؛ لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: عدل موفٍ في البر بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له، يعني: ثبت على إيمانه.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجاني الله من هذا لأرجعن إلى محمد ﷺ ولأضعن يدي في يده، فسكنت الريح، فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه[1].

وقال مجاهد: فمنهم مقتصد في القول مضمر للكفر، وقال الكلبي: مقتصد في القول، أي: من الكفار؛ لأن بعضهم كان أشد قولًا وأغلى في الافتراء من بعض ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ والختر: أسوأ الغدر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي﴾ لا يقضي ولا يغني ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ مُغْنٍ ﴿عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ قال ابن عباس: كل امرىء يهمه نفسه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ يعني: الشيطان، قال سعيد بن جبير: هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة.

---

(١) قال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٣٨ - ٥٣٩):
(وقد أخرج قصة مجيئه موصولة الدارقطني والحاكم وابن مردويه، من طريق أسباط بن نصر عن السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلَّا أربعة نفر وامرأتين، فذكر الحديث، وفيه: وأما عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم هاهنا شيئًا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلَّا الإخلاص لا ينجني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا حتى أضع يدي في يده، فلا أجدنه إلَّا عفوًا كريمًا، فقال: فجاء فأسلم).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية نزلت في الوارث[1] بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركتُ امرأتي حبلى، فمتى تلد؟ وقد عملتُ أين ولدتُ فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله هذه الآية[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

وقرأ أُبيُّ بن كعب «بآية أرض»، والمشهور «بأيِّ أرض»؛ لأن الأرض ليس فيها من علامات التأنيث شيء.

وقيل: أراد بالأرض المكان، أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله، أخبرنا إبراهيم بن ساعدة، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت»[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

* * *

---

(١) في المخطوطتين: (الوارث بن عمرو)، وفي «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠): (الوارث من بني مازن بن حفصة)، وفي «البحر المحيط» (٧/ ١٩٤): (الحارث بن عمارة المحاربي)، وفي «تفسير الكشاف» (٣/ ٣١٧): (الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب)، وفي «تفسير القرطبي» (١٤/ ٨٣) عن مقاتل: (الوارث بن عمرو بن حارثة).

(٢) الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في الاستسقاء باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله: (٢/ ٥٢٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٢٢).

سورة السَّجْدة

مكية[١]، قال عطاء: إلّا ثلاث آيات من قوله: «أفمن كان مؤمنًا» (إلى آخر ثلاث آيات[٢])[٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ قال مقاتل: لا شك فيه أنه تنزيل من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وقيل: الميم صلة، أي: أيقولون افتراه؟ استفهام توبيخ، وقيل: «أم» بمعنى الواو، أي: ويقولون افتراه، وقيل: فيه إضمار، مجازه: فهل يؤمنون، أم يقولون افتراه، ثم قال: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم﴾ أي: لم يأتهم ﴿مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة: كانوا أُمة أُمية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ[٤]، وقال ابن عباس ومقاتل: ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٣٤) لابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت ﴿الٓمٓ﴾ السجدة بمكة.

(٢) أخرجه النحاس في «معاني القرآن الكريم» عن ابن عباس: ص٢٩٧.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٤) أخرجه الطبري: (٢١/ ٩٠).

(٥) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ١٩٧).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يحكم الأمر، وينزل القضاء والقدر ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ جبريل بالأمر ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ أي: في يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة ألف سنة، خمسمائة نزوله، وخمسمائة صعوده؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، يقول: لو سار فيه أحد من بني آدم لم يقطعه إلَّا في ألف سنة، والملائكة يقطعونه في يوم واحد، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء، وأما قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤]، أراد مدة المسافة بين الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل، يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا، هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك(١)، وقوله: «إليه»، أي: إلى الله، وقيل: على هذا التأويل، أي: إلى مكان الملك الذي أمره الله عزَّ وجلَّ أن يعرج إليه.

وقال بعضهم: ألف سنة (وخمسون ألف)(٢) سنة كلها في القيامة، يكون على بعضهم أطول وعلى بعضهم أقصر، معناه: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا، «ثم يعرج» أي: يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا، وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة، وهو يوم القيامة، وأما قوله: «خمسين ألف سنة» فإنه أراد على الكافر يجعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة، وعلى المؤمن دون ذلك حتى جاء في الحديث: «أنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا»(٣).

وقال إبراهيم التيمي: لا يكون على المؤمن إلَّا كما بين الظهر والعصر(٤).

ويجوز أن يكون هذا إخبارًا عن شدته وهوله ومشقته، وقال ابن أبي مليكة: دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن قوله خمسين ألف سنة؟ فقال

---

(١) انظر: الطبري: (٢١/ ٩١).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرج الإمام أحمد: (٣/ ٧٥) عن أبي سعيد الخدري: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»، وبهذا النص أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٢٩)، وقال الشيخ الأرناؤوط: (وفيه ابن لهيعة سيء الحفظ، ودراج أبو السمح في حديثه عن أبي الهيثم ضعيف، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٣٣٧ على ضعف راويه).

(٤) أورده الحاكم: (١/ ٨٤)، بلفظ: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر».

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾

له ابن عباس: أيام سماها الله لا أدري ما هي، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم[1].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني: ذلك الذي صنع ما ذكره من خلق السموات والأرض / عالم ما غاب عن الخلق وما حضر ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾. ١/٧٤

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة «خلَقه» بفتح اللام على الفعل، وقرأ الآخرون بسكونها، أي: أحسنَ خلْقَ كل شيء، قال ابن عباس: أتقنه وأحكمه، قال قتادة: حسَّنه، وقال مقاتل: علم كيف يخلق كل شيء، من قولك: فلان يحسن كذا إذا كان يعلمه، وقيل: خلق كل حيوان على صورته لم يخلق البعض على صورة البعض، فكل حيوان كامل في خلقه حسن، وكل عضو من أعضائه مقدر بما يصلح به معاشه ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ يعني: آدم.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ يعني: ذريته ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ نطفة، سميت سلالة؛ لأنها تسل من الإنسان ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ أي: ضعيف، وهو نطفة الرجل.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ ثم سوى خلقه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ ثم عاد إلى ذريته، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ بعد أن كنتم نطفًا ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ يعني: لا تشكرون ربَّ هذه النعم فتوحِّدونه.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يعني: منكري البعث ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ هلكنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وصرنا ترابًا، وأصله من قولهم: ضلَّ الماء في اللبن إذا ذهب ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ استفهام إنكار، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبض أرواحكم ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وكل بقبض أرواحكم وهو

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨) لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

عزرائيل، والتوفي استيفاء العدد، معناه: أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت، وروي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة، فهو يقبض أنفس الخلق في مشارق الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب(١).

وقال ابن عباس: إن خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب(٢).

وقال مجاهد: جعلت له الأرض مثل طست يتناول منها حيث يشاء(٣).

وفي بعض الأخبار: أن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فينزع أعوانُه روح الإنسان، فإذا بلغ ثغره نحره قبضه ملك الموت.

وروى خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال: إن لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب، وهو يتصفح وجوه الناس، فما من أهل بيت إلّا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين، فإذا رأى إنسانًا قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة، وقال: الآن يزار بك عسكر الأموات.

قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: تصيرون إليه أحياءً فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ المشركون ﴿ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ ﴾ مطأطئو رؤوسهم ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حياءً وندمًا ﴿ رَبَّنَآ ﴾ أي: يقولون: ربنا ﴿ أَبْصَرْنَا ﴾ ما كنَّا به مكذبين ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ منك تصديق ما أتتنا به رسلك، وقيل: أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ﴿ فَٱرْجِعْنَا ﴾ فارددنا إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ وجواب «لو» مضمر، مجازه: لرأيت العجب.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ رشدها وتوفيقها للإيمان ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ﴾ وجب ﴿ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ وهو قوله لإبليس: « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[ص: ٨٥].

ثم يقال لأهل النار ـ وقال مقاتل: إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ـ:

---

(١) انظر: الطبري: (٢١/ ٥٤١).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٤٣) لأبي الشيخ عن ابن عباس موقوفًا.

(٣) أخرجه الطبري: (٢١/ ٩٧ ـ ٩٨).

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم الإيمان به في الدنيا ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الكفر والتكذيب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ وعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ سقطوا على وجوههم ساجدين ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: صلُّوا بأمر ربهم، وقيل: قالوا سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ عن الإيمان والسجود له.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع وتنبو ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ جمع مضجع، وهو: الموضع الذي يضطجع عليه، يعني: الفرش، وهم المتهجدون بالليل، الذين يقومون للصلاة.

واختلفوا في المراد بهذه الآية، قال أنس: نزلت فينا معشر الأنصار، كنَّا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ[1].

وعن أنس أيضًا قال: نزلت في أُناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء[2]، وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر، وقالا: هي صلاة الأوابين[3].

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوابين.

وقال عطاء: هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة.

وعن أبي الدرداء وأبي ذر وعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهم ـ: هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/٥٤٦) لابن مردويه، وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠٤.

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/١٠٠).
وانظر: «الدر المنثور»: (٦/٥٤٦).

(٣) أخرجه البيهقي: (٣/١٩).
وقد عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/٥٤٦) أيضًا لمحمد بن نصر.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة، (ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة»[1])[2].

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن سمي مولى أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلَّا أن يستهِمُوا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا»[3].

وأشهر الأقاويل أن المراد منه: صلاة الليل، وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أخبرنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم ابن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرنا فأصبحت يومًا قريبًا منه وهو يسير فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني من النار، قال: «قد سألت عن أمر عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيمُ الصلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيتَ»، ثم قال: «ألا أدلُّك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفىء ٧٤/ب الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم قرأ: « تَتَجَافَىٰ/ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ» حتى بلغ: «جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ»، ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ قلت: بلى يا نبي الله، قال: فأخذ بلسانه فقال: «اكفف عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلَّا حصائد ألسنتهم»[4].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة برقم٦٥٦: (١/ ٤٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٣١).

(٣) أخرجه البخاري في الجماعة، باب فضل التهجير إلى الظهر: (٢/ ١٣٩)، ومسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها برقم٤٣٧: (١/ ٣٢٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: (٧/ ٣٦٢ـ٣٦٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في التفسير: (٢/ ١٥٦ ـ ١٥٨)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة برقم٣٩٧٣، وعبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ١٩٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» برقم١١٢: ص٦٨ ـ ٦٩، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة: (١/ ٢٢٠)، وأخرجه الحاكم مطولًا: (٢/ ٤١٢ـ٤١٣)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
قال ابن رجب ص٢٥٥: (وله طرق عن معاذ كلها ضعيفة)، لكن الحديث بمجموع طرقه ورواياته يرتقي إلى درجة الحسن، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للشيخ الألباني: (٣/ ١١٥).

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد المخلدي، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حمد بن زنجويه، أخبرنا أبو عبد الله بن صالح، حدثني معاوية ابن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي أمامة الباهلي، عن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»[(١)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا روح بن أسلم، أخبرنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربُّنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته»، فيقول الله لملائكته: «انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبةً فيما عندي وشفقًا مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم معه أصحابه، فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع، فرجع فقاتل حتى أهريق دمه، (فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقًا مما عندي حتى أهريق دمه)[(٢)]»[(٣)].

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أخبرنا أبو محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن حميد بن عبد الرحمن الحميري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[(٤)].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن معانق،

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ: (٩/ ٥٣٦)، والبيهقي في «السنن»: (٢/ ٥٠٢)، والحاكم: (١/ ٣٠٨) وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٣٤)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥١): (رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال عبد الملك بن شعيب: (ابن الليث ثقة مأمون، وضعفه جماعة من الأئمة، وأخرجه الطبراني في «الكبير» عن سلمان الفارسي، وفيه عبد الرحمن بن سليمان، وثقه دحيم وابن حبان وابن عدي، وضعفه أبو داود وأبو حاتم).
وقد حسّن الألباني الحديث في «إرواء الغليل»: (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٢)، وانظر: «الترغيب والترهيب»: (١/ ٢١٦).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (١/ ٤١٦)، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم٦٤٣: ص١٦٨، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٢ ـ ٤٣)، ولفقرات الحديث شواهد عند أبي داود في فضل الثبات في الغزو، وعند الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٢/ ٢٥٥).

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل صلاة الليل: (٢/ ٥١٦)، وقال: (حديث أبي هريرة حديث حسن)، وأخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم برقم١١٦٣: (٢/ ٨٢١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٣٥).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾

عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»(١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا إصبغ، أخبرني عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، أخبرنا الهيثم بن أبي سنان، أخبرني أنه سمع أبا هريرة في قصصه يذكر عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «إن أخًا لكم لا يقول الرفث» يعني بذلك: عبد الله بن رواحة، قال:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه إذا انشقَّ معروفٌ من الفجرِ ساطعُ
أرانا الهُدَى بعدَ العمى فقلوبُنا به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ
يَبيتُ يجافي جنبَهُ عن فراشِهِ إذا استثقلتْ بالكافرين المضاجعُ(٢)

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال ابن عباس: خوفًا من النار، وطمعًا في الجنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾ قيل: أراد به الصدقة المفروضة، وقيل: عامٌّ في الواجب والتطوع.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ قرأ حمزة ويعقوب «أخفي لهم» ساكنة الياء، أي: أنا أخفي لهم، ومن حجته قراءة ابن مسعود «نخفي» بالنون، وقرأ الآخرون بفتحها ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تقرُّ به أعينهم ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا إسحاق بن نصر، أخبرنا أبو أسامة، عن الأعمش، أخبرنا أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بَلْهَ ما اطلعتم عليه»، ثم قرأ: «﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾»(٣).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا مما لا تفسير له.

وعن بعضهم: أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» كتاب الجامع للإمام معمر: (١١/٤١٨ ـ ٤١٩)، ومن طريقه أخرجه الإمام أحمد: (٥/٣٤٣)، وصححه ابن حبان برقم ٦٤١: ص١٦٨، والطبراني في «الكبير»: (٣/٣٤٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٢/٢٥٤): (رجاله ثقات)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/٤٠ ـ ٤١)، وله شاهد عند الحاكم: (١/٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى: (٣/٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: (٦/٣١٨)، ومسلم في الجنة برقم ٢٨٢٤: (٤/٢١٧٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/٢٠٨).

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي مُعيط أخي عثمان لأمه، وذلك أنه كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد بن عقبة لعلي: اسكت فإنك صبي وأنا والله أبسط منك لسانًا، وأحدُّ منك سنانًا، وأشجع منك جنانًا، وأملأ منك حشوًا في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، فأنزل الله تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ»[(١)]، ولم يقل: لا يستويان؛ لأنه لم يرد مؤمنًا واحدًا وفاسقًا واحدًا، بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ التي يأوي إليها المؤمنون ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: سوى العذاب الأكبر، قال أُبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم: «العذاب الأدنى» مصائب الدنيا وأسقامها، وهو رواية الوالبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما[(٢)] ـ، وقال عكرمة عنه: الحدود[(٢)]، وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب[(٣)]، وقال ابن مسعود: هو القتل بالسيف يوم بدر[(٤)]، وهو قول قتادة والسدي، «دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ» يعني: عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ إلى الإيمان، يعني: من بقي منهم بعد بدر وبعد القحط.

---

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٠٧)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠٥ـ٤٠٦، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٥٣).

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٠٩)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٥٤).

(٣) ذكره القرطبي: (١٤/ ١٠٧).

(٤) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٠٩)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٥٤)، والحاكم: (٢/ ٤١٤).

قال الإمام الطبري بعد أن ساق هذه الأقوال: (وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدة من مجاعة أو قتل أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ يعني: فلا تكن في شك من لقاء موسى ليلة المعراج، قاله ابن عباس وغيره.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن بشار، أخبرنا غندر، عن شعبة، عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: وقال لي خليفة: أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا سعيد، عن قتادة، عن أبي العالية قال: أخبرنا ابن عم نبيكم - يعني ابن عباس - عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا كأنه من رجال شنوءة،
١/٧٥ ورأيت عيسى رجلًا مربوعًا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط / الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار، والدجال، في آيات أراهن الله إيَّاه فلا تكن في مرية من لقائه»[(١)].

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن، أخبرنا عبد الله المحاملي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله ابن إبراهيم البزاز، أخبرنا محمد بن يونس، أخبرنا عمر بن حبيب القاضي، أخبرنا سليمان التيمي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْري بي إلى السماء رأيت موسى يصلي في قبره»[(٢)].

وروينا في المعراج أنه رآه في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة[(٣)].

قال السدي: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾، أي: من تلقي موسى كتاب الله بالرضا والقبول.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ يعني: الكتاب، وهو التوراة، وقال قتادة: موسى ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ يعني: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير، يقتدى بهم، يعني: الأنبياء الذين كانوا فيهم، وقال قتادة: أتباع الأنبياء ﴿يَهْدُونَ﴾ يدعون ﴿بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم، أي: لصبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم، أي: حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب «إذا قال أحدكم آمين»: (٦/ ٣١٤)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم ١٦٥: (١/ ١٥١).

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ برقم ٢٣٧٥: (٤/ ١٨٤٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٥١).

(٣) انظر فيما تقدم: أول سورة الإسراء.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ يقضي ﴿ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ لم يتبين ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون بها.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ أي: اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، قال ابن عباس: هي أرض اليمن، وقال مجاهد: هي أرض باين ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ ﴾ (من العشب والتبن)[1] ﴿ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ من الحبوب والأقوات ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ قيل: أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم بين العباد، قال قتادة: قال أصحاب النبي ﷺ للكفار: إن لنا يومًا نتنعم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم، فقالوا استهزاءً: متى هذا الفتح[2]؟ أي: القضاء والحكم، وقال الكلبي: يعني: فتح مكة[3]، وقال السدي: يوم بدر؛ لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون لهم: إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم، فيقولون: متى هذا الفتح[4].

﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ يوم القيامة ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ ومن حمل الفتح على فتح مكة أو القتل يوم بدر قال: معناه: لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقُتلوا ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ لا يمهلون؛ ليتوبوا ويعتذروا.

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/١١٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/٥٥٧) لابن أبي حاتم.

(٣) انظر: الطبري: (٢١/١١٦).

(٤) قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/٤٦٥): (ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة، فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبًا من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: نسختها آية السيف ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ قيل: انتظر موعدي لك بالنصر، إنهم منتظرون بك حوادث الزمان، وقيل: انتظر عذابنا فيهم، فإنهم منتظرون ذلك.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو نعيم، أخبرنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هرمز، عن أبي هريرة أنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة «الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ»، و«هل أتى على الإنسان»[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أبو نعيم، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: تبارك والٓمٓ تنزيل»[2].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر: (٢/ ٣٧٧)، وفي سجود القرآن، باب سجدة تنزيل السجدة، ومسلم في الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة برقم ٨٨٠: (٢/ ٥٩٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٨١).

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الملك: (٨/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، والدارمي: (٢/ ٤٥٥)، والإمام أحمد: (٣/ ٣٤٠)، والحاكم: (٢/ ٤١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة»: (٢/ ١٢٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٧٢).

سورة الأحزاب

مدنية(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور بن سفيان السُّلَمي، وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أُبي (بن سلول رأس المنافقين)(٢) بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ - وعنده عمر بن الخطاب -: ارفض ذكر آلهتنا: اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشقَّ على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لنا في قتلهم، فقال: إني قد أعطيتُهم الأمان، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾(٣)، أي: دُمْ على التقوى، كالرجل يقول لغيره وهو قائم: قم هاهنا، أي: اثبت قائمًا، وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الأمة(٤)، وقال الضحاك: معناه: اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة، يعني: أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ من أهل المدينة: عبد الله بن أُبي وعبد الله بن سعد وطعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه، قبل أن خلقهم ﴿حَكِيمٗا ١﴾ فيما دبره لهم.

---

(١) قال النحاس في «معاني القرآن الكريم» ص٣١٧: (قال ابن عباس: وهي مدنية)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٥٨) أيضًا لابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) ذكر ذلك الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠٧ دون إسناد، ونقله القرطبي: (١٤/ ١١٤) بصيغة التمريض عن الواحدي والقُشيري والثعلبي والماوردي وغيرهم، وانظر: «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٣٤).

(٤) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢١٠)، «زاد المسير»: (٦/ ٣٤٨).

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ قرأ أبو عمرو «يعملون خبيرًا» و«يعملون بصيرًا» بالياء فيهما، وقرأ غيره بالتاء.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثِق بالله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ حافظًا لك، وقيل: كفيلًا برزقك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ نزلت في أبي معمر جميل بن مَعْمَر الفهري، وكان رجلًا لبيبًا حافظًا لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلَّا وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم، فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما لك إحدى / نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلَّا أنهما ٧٥/ب
في رجلي، فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده[1].

وقال الزهري ومقاتل: هذا مَثَلٌ ضربه الله عزَّ وجلَّ للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره، يقول: فكما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة للمظاهر أمَّه حتى تكون أُمَّان، ولا يكون له ولد واحد ابن رجلين[2].

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ أهل الشام والكوفة «اللائي» هاهنا وفي سورة الطلاق بياء بعد الهمزة، وقرأ قالون عن نافع ويعقوب بغير ياء بعد الهمزة، وقرأ الآخرون بتليين الهمزة، وكلها لغات معروفة، «تظاهرون» قرأ عاصم بالألف وضم التاء وكسر[3] الهاء مخففًا، (وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء والهاء مخففًا)[3]، وقرأ ابن عامر بفتحها وتشديد الظاء، وقرأ الآخرون بفتحها وتشديد الظاء والهاء من غير ألف بينهما.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠٧ـ٤٠٨ دون إسناد، وانظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢١١)، «زاد المسير»: (٦/ ٣٤٩).

(٢) انظر: الطبري: (٢١/ ١١٩)، ثم قال مرجحًا: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك تكذيب من الله تعالى قول من قال لرجل في جوفه قلبان يعقل بهما، على النحو الذي روي عن ابن عباس، وجائز أن يكون ذلك تكذيبًا من الله لمن وصف رسول الله ﷺ بذلك، وأن يكون تكذيبًا لمن سمى القرشي الذي ذكر أنه سمي ذا القلبين من دهيه، وأي الأمرين كان فهو نفي من الله عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة). وانظر: «معاني القرآن الكريم» للنحاس: ص٣١٨ـ٣٢٠.

(٣) ساقط من «أ».

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

وصورة الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أُمِّي، يقول الله تعالى: ما جعل نساءكم اللائي تقولون لهنَّ هذا في التحريم كأُمهاتكم، ولكنه منكر وزور، وفيه كفارة نذكرها (إن شاء الله تعالى)[1] في سورة المجادلة.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ يعني: من تبنيتموه ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ فيه نسخ التبني، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود له، يدعوه الناس إليه، ويرث ميراثه، وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وتبناه قبل الوحي، وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة، قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية ونسخ التبني[2] ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ لا حقيقة له، يعني قولهم: زيد بن محمد ﷺ، وادعاء نسب لا حقيقة له ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: قوله الحق ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ أي: يرشد إلى سبيل الحق.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا معلى بن أسد، أخبرنا عبد العزيز بن المختار، أخبرنا موسى بن عقبة، حدثني سالم، عن عبد الله بن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن «﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾»[3].

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ (أي: فهم إخوانكم)[4] ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن كانوا محررين وليسوا بِبَنِيكُم، أي: سمُّوهم بأسماء إخوانكم في الدين، وقيل: «مواليكم»، أي: أولياءكم في الدين ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ قبل النهي فنسبتموه إلى غير أبيه ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهي.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٠٨ دون إسناد.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب، باب ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: (٨/ ٥١٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة برقم ٢٤٢٥: (٤/ ١٨٨٤).

(٤) ما بين القوسين زيادة من «ب».

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾

وقال قتادة: «فيما أخطأتم به» أن تدعوه لغير أبيه، وهو يظن أنه كذلك، ومحل «ما» في قوله تعالى: «ما تعمدت» خفض ردًا على «ما» التي في قوله: «فيما أخطأتم به» مجازه: ولكن فيما تعمدت قلوبكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن بشار، أخبرنا غندر، أخبرنا شعبة، عن عاصم قال: سمعت أبا عثمان قال: سمعت سعدًا ـ وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ـ وأبا بكرة ـ وكان قد تسور حصن الطائف في أناس ـ فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا: سمعنا النبي ﷺ يقول: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته عليهم، وقال ابن عباس وعطاء: يعني: إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعتهم أنفسهم[(٢)]، وقال ابن زيد: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فيما قضى فيهم، كما أنت أولى بعبدك فيما قضيت عليه، وقيل: هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه.

وقيل: كان النبي ﷺ يخرج إلى الجهاد فيقول قوم: نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن محمد، أخبرنا أبو عامر، أخبرنا فليح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلّا أنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن مات وترك مالًا فليرثه عصبته، ومن ترك دَيْنًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف: (٨/ ٤٥)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم برقم٦٣: (١/ ٨٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ٢٧٢).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب الصلاة على من ترك دينًا: (٥/ ٦١)، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالًا فلورثته برقم١٦١٩: (٣/ ١٢٣٨) بمعناه، والمصنف في «شرح السنة»: (٨/ ٣٢٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وفي حرف أُبي «وأزواجه وأمهاتهم وهو أبٌ لهم» وهن أمهات المؤمنين في تعظيم حقهنَّ وتحريم نكاحهنَّ على التأبيد، لا في النظر إليهنَّ والخلوة بهن، فإنه حرام في حقِّهن كما في حق الأجانب، قال الله تعالى: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ»[الأحزاب: ٥٣]، ولا يقال لبناتهن هنَّ أخوات المؤمنين، ولا لإخوانهنَّ وأخواتهنَّ هم أخوال المؤمنين وخالاتهم[١].

قال الشافعي: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، وهي أخت أم المؤمنين، ولم يقل هي خالة المؤمنين[٢].

واختلفوا في أنهنَّ هل كنَّ أمهات النساء المؤمنات؟ قيل: كنَّ أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعًا.

وقيل: كنَّ أمهات المؤمنين دون النساء، روى الشعبي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها: يا أُمَّه! فقالت: لست لك بأمّ إنما أنا أم رجالكم[٢]، فبان بهذا أن معنى هذه الأمومة تحريم نكاحهنَّ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يعني: في الميراث، قال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، قال الكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين الناس، فكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته، حتى نزلت هذه الآية: «وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ/ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ 1/76
بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ»[٣] في حكم الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يعني: ذوي القرابات، بعضهم أولى بميراث بعض مِن أن يرث بالإيمان والهجرة، فنسخت هذه الآيةَ الموارثةَ بالمؤاخاة والهجرة وصارت بالقرابة.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أراد بالمعروف الوصية (للذين يتولونه من المعاقدين، وذلك أن الله لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلثه)[٤].

وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة لحق الإيمان والهجرة.

وقيل: أراد بالآية إثبات الميراث بالإيمان والهجرة، يعني: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض، أي: لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر إلَّا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا، أي: إلَّا أن توصوا لذوي قرابتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة، وهذا قول قتادة وعطاء وعكرمة[٥].

---

(١) انظر: القرطبي: (١٤/ ١٢٣).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٦٧) لابن سعد وابن المنذر والبيهقي في «سننه»، وانظر: «الكافي الشاف»: ص١٣٢.

(٣) انظر: ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ٤٦٩)، القرطبي: (١٤/ ١٢٣-١٢٤).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) ذكر هذه الأقوال الطبري: (٢١/ ١٢٤)، ثم قال مرجحًا: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: معنى ذلك إلَّا أن تفعلوا إلى أوليائكم الذين كان رسول الله ﷺ آخى بينهم وبينكم من المهاجرين والأنصار، معروفًا من الوصية لهم، والنصرة والعقل عنهم، وما أشبه ذلك؛ لأن كل ذلك من المعروف الذي حث الله عليه عباده، وإنما اخترت هذا القول وقلت: هو أولى بالصواب من قيل من قال: عنى=

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ أي: كان الذي ذكرت من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في اللوح المحفوظ مسطورًا مكتوبًا، وقال القرظي: في التوراة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ على الوفاء بما حملوا، وأن يُصدِّق بعضهم بعضًا، ويبشِّر بعضهم ببعض، قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، ويصدِّق بعضهم بعضًا، وينصحوا لقومهم ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خصَّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين؛ لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأولوا العزم من الرسل، وقدَّم النبي ﷺ بالذكر لِمَا:

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد الحديثي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن يعقوب المقرىء، أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان الساعدي، أخبرنا هارون بن محمد بن بكار بن بلال، أخبرنا أبي، أخبرنا سعيد ـ يعني: ابن بشير ـ عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كنتُ أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث»(١).

قال قتادة: وذلك قول الله عزَّ وجلَّ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ»، فبدأ به ﷺ قبلهم.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ عهدًا شديدًا على الوفاء بما حُمِّلُوا.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يقول: أخذنا ميثاقهم (لكي نسأل الصادقين عن صدقهم، يعني: النبيين عن تبليغهم)(٢) الرسالةَ، والحكمةُ في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون: تبكيتُ(٣) من أرسلوا إليهم.

وقيل: ليسأل الصادقين عن عملهم لله عزَّ وجلَّ، وقيل: ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

= بذلك الوصية للقرابة من أهل الشرك؛ لأن القريب من المشرك، وإن كان ذا نسب فليس بالمولى، وذلك لأن الشرك يقطع ولاية ما بين المؤمن والمشرك وقد نهى الله المؤمنين أن يتخذوا منهم وليًا بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وغير جائز أن ينهاهم عن اتخاذهم أولياء ثم يصفهم جل ثناؤه بأنهم هم أولياء).

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٢٥)، وعزاه ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ٤٧٠) لابن أبي حاتم، وقال: (سعيد بن بشير فيه ضعف، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلًا، وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفًا، والله أعلم).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) في «ب»: (بتكذيب).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك حين حُوصر المسلمون مع رسول الله ﷺ أيام الخندق ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب، وهم: قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي الصَّبَا، قال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي ننصر رسول الله ﷺ، فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري بالليل، وكانت الريح التي أرسلت عليهم الصَّبا[1].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا آدم، أخبرنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[2].

قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ، فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحًا باردةً فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيِّدُ كلِّ حيٍّ يقول: يا بني فلان هلم إليَّ، فإذا اجتمعوا عنده قال: النجاءَ النجاءَ، لِما بعث الله عليهم من الرعب فانهزموا من غير قتال.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ قال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير، عن عروة بن الزبير ومَنْ لَا أَتَّهِم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وعن الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الله بن أبي بكرة بن محمد بن عمرو بن حزم، وعن محمد بن كعب القرظي، وعن غيرهم من علمائنا، دخل حديث بعضهم في بعض: أن نفرًا من اليهود، منهم: سلام بن أبي الحقيق وحُيَي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهودة بن قيس وأبي عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل ـ وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ـ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فديننا خيرٌ أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه،

---

(١) انظر: القرطبي: (١٤/١٤٣ـ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: «نصرت بالصبا»: (٢/٥٢)، ومسلم في الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور برقم ٩٠٠: (٢/٦١٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/٣٨٧).

والصَّبَا: ريح، ومهبها المستوي أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار.

والدَّبور: الريح التي تقابل الصَّبا، وقال النووي: هي الريح الغربية.

وأنتم أولى بالحق منهم، قال: فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[النساء: ٥١-٥٥].

فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ما قالوا، ونشطوا لِما دَعوهم إليه من حرب رسول الله، فأجمعوا لذلك، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس غيلان، فدعوهم إلى ذلك، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، فأجابوهم.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع. / ٧٦/ب

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة.

وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حرّ، فقال: يا رسول الله، إنَّا كنَّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه[١].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامدن الأصبهاني، أخبرنا محمد بن جعفر الطبري، حدثنا حماد بن الحسن، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا كثير بن عبد الله، عن عمرو بن عوف، حدثني أبي، عن أبيه قال: خطَّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، قال: فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلًا قويًا، فقال المهاجرون: سلمان منَّا، وقال الأنصار: سلمان منَّا، فقال النبي ﷺ: «سلمان منَّا أهل البيت»[٢].

قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المازني وستة من الأنصار في أربعين ذراعًا، فحفرنا حتى إذا كنَّا تحت ذي ناب أخرج الله في بطن الخندق صخرة مروة، كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان ارقَ إلى رسول الله ﷺ وأخبِرْه خبر هذه الصخرة، فإما أن يعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيه بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، قال: فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله، خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فإنَّا لا نحب أن نجاوز خطك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق والتسعة على شق الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضربها

---

(١) رواه ابن إسحاق في «السيرة» عن ابن هشام: (٣/ ٢١٤، وما بعدها)، وأخرجه الطبري: (٢١/ ١٢٩ ـ ١٣١).

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، والحاكم: (٣/ ٥٩٨) وسكت عنه، وقال الذهبي: (سنده ضعيف)، والطبراني: (٦/ ٢٦١).
وانظر: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس»: (١/ ٥٥٨)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٣٠): (رواه الطبراني، وفيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسَّن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات).

ضربة صدعها ويرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ـ يعني: المدينة ـ حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتحٍ وكبَّر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية ويرق منها برقٌ أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها، ويرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتحٍ وكبر المسلمون، فأخذ بيد سلمان ورقى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئًا ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: «أرأيتم ما يقول سلمان»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أُمتي ظاهرة عليها، فأبشروا»، فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعدَ صدقٍ، وُعِدْنَا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون: ألا تعجبون من محمد يعدكم ويمنيكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق لا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال فنزل القرآن: «وإذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلَّا غرورًا»، وأنزل الله في هذه القصة: « قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . . »[1] الآيةَ[آل عمران: ٢٦].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن محمد، أخبرنا معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو إسحاق، عن حميد قال: سمعت أنسًا يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غَدَاةٍ باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك عنهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَبِ والجوع، قال: «اللهمَّ إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة، فاغفِرْ للأنصار والمهاجِرَةْ»، فقالوا مجيبين له:

نحنُ الذين بايَعُوا محمدًا على الجهادِ ما بَقِينَا أبدًا[2]

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغْمَرَ بطنَه ـ أو اغبرَّ ـ وهو يقول:

---

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٣٤)، قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٣١): (رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما حيي بن عبد الله وثقه ابن معين وضعفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح)، وانظر: «سيرة ابن هشام»: (٣/ ٢١٤ـ ٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق: (٧/ ٣٩٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤).

والله لـولا الله مـا اهتـدَيْنـا ... ولا تَصَـدَّقْنـا ولا صَلَّيْنَـا
فـأَنْـزِلَـنْ سكينـةً علينـا ... وثَبِّـتِ الأقـدامَ إنْ لاقَيْنَـا
إنَّ الأُلَـى قـد بَغَـوا علينـا ... إذا أرادوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا[1].

رجعنا إلى حديث ابن إسحاق، قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومَة الجُرُفِ والغابة[2] في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نَقْمَى إلى جانب أُحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالنساء والذراري فرُفعوا في الآطام.

وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القُرَظِيّ صاحب عقد بني
1/77 قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ / على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب بِحُيَي بن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: يا كعْب افتح لي، فقال: ويْحَكَ يا حُيَي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلّا وفاءً وصدقًا، قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إنْ أغلقت دوني إلّا على جشيشتك[3] أن آكل معك منها، فأحْفَظَ الرجلَ، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحد، قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه، قال له كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، فدعني ومحمدًا وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلّا صدقًا ووفاءً، فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه من الله عهدًا وميثاقًا: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وتبرأ مما كان عليه فيما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق: (٧/ ٣٩٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب برقم١٨٠٣: (٣/ ١٤٣٠ ـ ١٤٣١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤ ـ ٥).

(٢) في «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٢٠): (زَغَابة)، قال أبو ذر: (كذا وقع هنا بالزاي مفتوحة، ورغابة بالراء المفتوحة هو الجيد، وكذلك رواه الوقشي).

(٣) الجشيشة: جرش الشيء: دقه ولم ينعم دقه، والجشيشة: الحبّ المجروش يلقى عليه لحم أو تمر فيطبخ، ويسمى الدشيشة عند العوام.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبرُ وإلى المسلمين، بعث رسولُ الله ﷺ سعدَ بن معاذ، أحدَ بني عبد الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعدَ بن عبادة أحد بني ساعدة، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج، وخَوَّات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به جهرًا للناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم منهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلًا فيه حدة، فقال له سعد بن معاذ: دعْ عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا: عضَلٌ والقارة ـ لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ، أصحاب الرجيع: خبيب بن عدي وأصحابه ـ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين».

وعظم عند ذلك البلاءُ واشتدَّ الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال: مُعَتِّبُ بن قُشَيْرٍ، أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلَّا غرورًا، وحتى قال أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن قيظي: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك على ملأ من رجال قومه، فائذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة.

فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلَّا الرمي بالنبل والحصى.

فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عمر، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، فذكر ذلك رسولُ الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أشيء أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به أم أمر تحبه فنصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: لا، بل (شيء أصنعه)[1] لكم، والله ما أصنع ذلك إلَّا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكْسِر عنكم شوكتهم، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنَّا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدة إلَّا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزَّنا بك نعطيهم أموالنا؟! مالنا بهذا من

(١) غير وارد في المخطوطتين، وقد أُخذ من السيرة، ولا يتم المعنى إلَّا به.

حاجة، والله لا نعطيهم إلّا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، (فقال رسول الله ﷺ)[1]: فأنت وذاك، فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون، وعدؤهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلّا أن فوارس من قريش، منهم: عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب بن فهر، قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة، فستعلمونُ اليوم مَنِ الفرسانُ، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله، إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

ثم تيمموا مكانًا من الخندق ضيقًا فضربوا خيولهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تُعْنِقُ نحوهم، وكان عمرو بن عبد ودٍّ قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، (فلم يشهد أحدًا)[2]، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَمًا ليُرَى مكانه، فلما وقف هو وخيله، قال له علي: ياعمرو، إنك كنت تعاهد الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلّا أخذت منه إحداهما، قال: أجل، فقال له علي / بن أبي طالب: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: ٧٧/ب
فإني أدعوك إلى البراز[3]، قال: ولِـمَ يابن أخي؟ فوالله ما أُحِبُّ أن أقتلك، قال علي: ولكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علـيّ، فتناولا وتجاولا، فقتله علـيٌ ـ رضي الله عنه ـ، فخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم، فمات منه بمكة، ونوفل ابن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة، فقال: يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه، فنزل إليه علي فقتله، فغلب المسلمون على جسده، فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لنا في جسده وثمنه، فشأنكم به، فخلَّى بينهم وبينه.

قالت عائشة أم المؤمنين: كنَّا يوم الخندق في حصن بني حارثة، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معنا في الحصن، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فمرَّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلَّصَة، قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربة وهو يقول:

لَبِّثْ قليـلًا يـدركِ الهيجـا جَـمَـلْ لا بأسَ بالموتِ إذا حانَ الأجَلْ

فقالت له أمه: الحق يا بني فقدْ والله أجزت، قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد والله لوددت أن درع

---

(١) ساقط من «ب». (٢) ساقط من «أ». (٣) في «ب»: (النزال).

سعد كانت أسبغ مما هي، قالت: وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه، قالت: فرمي سعد يومئذ بسهم، وقُطع منه الأَكْحَلُ، رماه خباب بن قيس بن العَرِقَة، أحد بني عامر بن لؤي، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال سعد: عرَّق الله وجهك في النار، ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ من أن أجاهدهم من قومٍ آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمِتْني حتى تُقِرّ عيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية[1].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عبَّاد قال: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع، حصن حسان بن ثابت، قالت: وكان حسان معنا فيه، مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمرَّ بنا رجل من اليهود فجعل[2] يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، فقطعت ما بيننا وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنَّا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم، إذْ أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودي ـ كما ترى ـ يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شُغل عنَّا رسولُ الله ﷺ وأصحابه[2]، فانزلْ إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئًا اعتجرت ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان، انزلْ إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلَّا أنه رجل، قال: ما لي بِسَلَبِه من حاجة يا بنت عبد المطلب[3].

قالوا: أقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله تعالى من الخوف والشدة؛ لتظاهرِ عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّلْ عنَّا إنِ استطعتَ، فإن الحرب خُدْعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّي إيَّاكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان جاؤوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشًا وغطفان

---

(١) انظر الرواية بتمامها في: «السيرة» لابن هشام: (٣/ ٢١٩ـ٢٢٧).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام»: (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠)، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري في «التاريخ»: (٢/ ٥٧٧)، والبيهقي في «الدلائل»: (٣/ ٤٤٢)، وضعَّف هذه الروايات الإمام السهيلي في «الروض الأنف»: (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤)، وابن عبد البر في «الاستيعاب»: (١/ ٣٤٨) وغيرهما، لما فيها من نكارة واضطراب، ولو كان حسَّان ـ رضي الله عنه ـ بهذه المثابة التي تدل عليها القصة من الجُبن لهجاه خصومه بذلك.

ليسوا كهيئتكم، البلد بلدكم، به أموالكم وأولادكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة، إن رأوا نُهْزَةً وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدًا، حتى تناجزوه، قالوا: لقد أشرت برأي ونصح.

ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: يا معشر قريش قد عرفتم وُدّي إيّاكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أمرٌ رأيت أن حقًّا عليَّ أن أبلغكم نصحًا لكم، فاكتموا عليَّ، قالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد نَدِمُوا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: أنْ قد نَدِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنَّا أن نأخذ من القبيلتين، من قريش وغطفان، رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأرسلَ إليهم: أنْ نَعم، فإن بَعَثَتْ إليكم يهودٌ يلتمسون رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، أنتم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ، ولا أراكم
١/٧٨ تتهموني، قالوا: صدقت، / قال: فاكتموا عليَّ، قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم، فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان مما صنع لرسول الله ﷺ، أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمةَ بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه، فقال بنو قريظة لهم: إن اليوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثًا فأصابه ما لم يخفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضرّستكم الحربُ واشتدَّ عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تعلمُنَّ والله أن الذي حدَّثكم نُعيم بن مسعود لَحَقٌّ، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنَّا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لَحَقٌّ، ما يريد القوم أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلَّوا بينكم وبين الرجل في بلادكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم، وخذَّل الله بينهم[1]، وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٣).

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان، فبعثه إليهم؛ لينظر ما فعل القوم ليلًا.

روى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، وروى غيره، عن إبراهيم التميمي، عن أبيه قالا: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه، قال: نعم يابن أخي، قال: كيف كنتم تصنعون؟ قال: والله، لقد كنّا نجهَد، فقال الفتى: والله، لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه، وفعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: يابن أخي، والله لقد رأيتُني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ، فقال: مَنْ يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة؟ فما قام منّا رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِيًّا من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم، وما قام منّا رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِيًّا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: مَنْ رجل يقوم فينظر ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة، فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال: يا حذيفة، فلم يكن لي بدٌّ من القيام إليه حين دعاني، فقلت: لبيك يا رسول الله، وقمت حتى آتيه، وإن جنبيّ ليضطربان، فمسح رأسي ووجهي، ثم قال: ائت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تُحْدِثَنَّ شيئًا حتى ترجع إليَّ، ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، فأخذتُ سهمي، وشددت عليَّ سلاحي، ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأني أمشي في حمام، فذهبت فدخلت في القوم، وقد أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرّ لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً، وأبو سفيان قاعد يصطلي، فأخذت سهمًا فوضعته في كبد قوسي فأردت أن أرميَه، ولو رميتُه لأصبتُه، فذكرت قول النبي ﷺ لا تحدثنّ حدثًا حتى ترجع إليَّ، فرددت سهمي في كنانتي، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم، لا تقرّ لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً، قام فقال: يا معشر قريش ليأخذْ كل رجل منكم بيد جليسه فلينظر من هو، فأخذت بيد جليسي فقلت من أنت، فقال: سبحان الله أما تعرفني أنا فلان ابن فلان، فإذا هو رجل من هوازن.

فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفَتْنا بنو قريظة، وبلغَنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلّا وهو قام.

وسمعت غطفان بما فعلتْ قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ كأني أمشي في حمام، فأتيته وهو قائم يصلي، فلما سلم أخبرته الخبر، فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، قال: فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عني الدفاء، فأدناني

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾

النبي ﷺ منه، وأنامني عند رجليه، وألقى عليَّ طرف ثوبه، وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائمًا حتى أصبحت قال: قمْ يا نومان[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي من قِبَلِ المشرق، وهم: أسد وغطفان، وعليهم مالك بن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان، ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني: من بطن الوادي من قِبَلِ المغرب، وهم قريش وكنانة، عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومَنْ تبعه، وأبو الأعور عمرو ابن سفيان السلمي من قبل الخندق.

وكان الذي جرَّ غزوة الخندق ـ فيما قيل ـ: إجلاء رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم.

٧٨/ب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت وشخصت / من الرعب، وقيل: مالت عن كل شيء فلمْ تنظر إلَّا إلى عدوها ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ فزالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع، والحَنْجَرة: جوف الحلقوم، وهذا على التمثيل، عبرَّ به عن شدة الخوف، قال الفرَّاء: معناه: أنهم جبنوا، وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رئته فإذا انتفخت الرئة رفعت القلب إلى الحنجرة، ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره.

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠﴾ أي: اختلفت الظنون، فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم. قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر «الظنونا» و«الرسولا» و«السبيلا» بإثبات الألف وصلًا ووقفًا؛ لأنها مثبتة في المصاحف، وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير الألف في الحالين على الأصل، وقرأ الآخرون بالألف في الوقف دون الوصل لموافقة رءوس الآي.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ﴾ أي: عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال، ليتبين المخلص من المنافق ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ حُرِّكوا حركة شديدة.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ معتِّب بن قشير، وقيل: عبد الله بن أُبي وأصحابه ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، وضعف اعتقاد: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ وهو قول أهل النفاق: يَعِدُنا محمد فتح قصور الشام وفارس، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوزَ رحله! هذا والله الغرور.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد، باب غزوة الأحزاب برقم ١٧٨٨: (٣/ ١٤١٤ ـ ١٤١٥).

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين، وهم: أوس بن قيظي وأصحابه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: المدينة، قال أبو عبيدة: «يثرب»: اسم أرضٍ، ومدينةُ الرسول ﷺ في ناحيةٍ منها.

وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال: «هي طابة»، كأنه كره هذه اللفظة[(١)].

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرأ العامة بفتح الميم، أي: لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وحفص: بضم الميم، أي: لا إقامة لكم ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم عن اتّباع محمد ﷺ، وقيل: عن القتال إلى مساكنكم ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ وهم: بنو حارثة وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: خالية ضائعة، وهو مما يلي العدو، ونخشى عليها السُّرَّاق، وقرأ أبو رجاء العطاردي «عَوِرَة» بكسر الواو، أي: قصيرة الجدران، يسهل دخول السراق عليها، فكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ أي: ما يريدون إلّا الفرار.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أي: لو دَخَلَتْ عليهم المدينة، يعني: هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم، وهم الأحزاب ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ جوانبها ونواحيها، جمع قطر ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الشرك ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾ لأعطوها، وقرأ أهل الحجاز «لأتوها» مقصورًا، أي: لجاءوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي: ما احتبسوا عن الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ولأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيّبةً به أنفسُهم، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الحسن والفراء: وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلّا قليلًا حتى يهلكوا[(٢)].

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل غزوة الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ من عدوهم، أي: لا ينهزمون، قال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة، همُّوا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها[(٣)].

---

(١) روى مسلم في الجهاد: (٢/ ١٠٠٧) من حديث جابر بن سمرة مرفوعًا: «إن الله سمى المدينة طابة»، ورواه أبو داود الطيالسي في «مسنده»: ص١٠٤، عن شعبة عن سماك، بلفظ: «كانوا يسمون المدينة يثرب، فسماها النبي ﷺ طيبة»، وأخرجه أبو عوانة، وانظر: «فتح الباري»: (٤/ ٨٨ـ٨٩).

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن»: (٢/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٣٧).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

وقال قتادة: هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر (ورأوا ما أعطى الله أهل بدر)[١] من الكرامة والفضيلة، قالوا: لئن أشهدنا الله قتالًا لنقاتلنَّ، فَسَاقَ الله إليهم ذلك[٢].

وقال مقاتل والكلبي: هم سبعون رجلًا بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وقالوا: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبي ﷺ: أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا رسول الله؟ قال: لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، قالوا: قد فعلنا ذلك، فذلك عهدهم[٣].

وهذا القول ليس بِمَرْضِيٍّ؛ لأنَّ الذين بايعوا ليلة العقبة كانوا سبعين نفرًا، لم يكن فيهم شَاكٌّ ولا من يقولَ مثلَ هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يفروا، فنقضوا العهد.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ عنه.

﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ الذي كتب عليكم؛ لأن من حضر أجله مات أو قتل ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي: لا تمتعون بعد الفرار إلَّا مدة آجالكم وهي قليل.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم من عذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ نصرة ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: قريبًا ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ أي: ناصرًا يمنعهم.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا إلينا ودَعُوا محمدًا، فلا تشهدوا معه الحرب، فإنا نخاف عليكم الهلاك. قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين، كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ، ويقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلَّا أكلة رأس، ولو كان لحمًا لالتهمهم، أي: ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه، دَعُوا الرجلَ فإنه هالك[٤].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٣٧)، وانظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٦٢)، «البحر المحيط»: (٧/ ٢١٩).

(٣) ذكره القرطبي: (١٤/ ١٥٠)، وانظر: «زاد المسير»: «البحر المحيط»: (٧/ ٢١٩).

(٤) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٣٩).

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

وقال مقاتل: نزلت في المنافقين، وذلك أن اليهود أرسلت إلى المنافقين، وقالوا: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرّة لم يَسْتَبْقُوا منكم أحدًا، وإنَّا نشفق عليكم، أنتم إخواننا وجيراننا هلمُّوا إلينا، فأقبل عبد الله بن أُبي وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومَنْ معه، وقالوا: لئن قدروا عليكم لم يَسْتَبْقُوا منكم أحدًا، ما ترجون من محمد؟ ما عنده خير، ما هو إلّا أن يقتلنا هاهنا، انطلقوا بنا إلى إخواننا، يعني: اليهود، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلّا إيمانًا واحتسابًا(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ / الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ رياء وسمعة من غير احتساب، ١/٧٩
ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرًا.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء بالنفقة في سبيل الله والنصرة، وقال قتادة: بخلاء عند الغنيمة، وصفهم الله بالبخل والجبن فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في الرؤوس من الخوف والجبن ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: كدوران الذي يُغشى عليه من الموت، وذلك أن من قرب من الموت وغشيه أسبابه ينهب عقله ويشخص بصره، فلا يطرف ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ آذوكم ورموكم في حالة الأمن ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذَرِبَةٍ، جمع حديد، يقال للخطيب الفصيح الذرِب اللسان: مِسْلَق ومصلق وسَلَّاق وصَلَّاق، قال ابن عباس: سلقوكم، أي: عضدوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة، وقال قتادة: بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطونا فإنا قد شهدنا معكم القتال، فلستم أحق بالغنيمة منّا(٢)، فهم عند الغنيمة أشح قوم، وعند البأس أجبن قوم ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: عند الغنيمة يشاحون المؤمنين ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال مقاتل: أبطل الله جهادهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٦٥).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٦٦).

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿يَحْسَبُونَ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ يعني: قريشًا وغطفان واليهود ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ لم ينصرفوا عن قتالهم جبنًا وفرقًا، وقد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: يتمنوا لو كانوا في بادية الأعراب من الخوف والجبن، يقال: بدا يبدو بداوةً، إذا خرج إلى البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أخباركم، وما آل إليه أمركم، وقرأ يعقوب «يَسَّاءلون» مشددة ممدودة، أي: يتساءلون ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ تعذيرًا، أي: يقاتلون قليلًا يقيمون به عذرهم، فيقولون قد قاتلنا، قال الكلبي: إلَّا قليلا، أي: رميًا بالحجارة، وقال مقاتل: إلَّا رياءً وسمعةً من غير احتساب[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قرأ عاصم «أسوة» حيث كان بضم الهمزة، والباقون بكسرها، وهما لغتان، أي: قدوة صالحة، (وهي فعلة من الائتساء)[2]، كالقدوة من الاقتداء، اسم وضع موضع المصدر، أي: به اقتداء حسن إن تنصروا دين الله وتؤازروا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم، كما فعل هو: إذ كُسِرَتْ رباعيتُه، وجُرِح وجهه، وقُتِل عمُّه، وأوذي بضروب الأذى، فَوَاسَاكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضًا واستنُّوا بسنَّته ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله: «لكم»، وهو تخصيص بعد تعميم للمؤمنين، يعني: أن الأسوة برسول الله ﷺ لمن كان يرجو الله، قال ابن عباس: يرجو ثواب الله، وقال مقاتل: يخشى الله[3] ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ أي: يخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ في جميع المواطن على السراء والضراء.

ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟﴾ تسليمًا لأمر الله وتصديقًا لوعده: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وعد الله إيَّاهم ما ذكر في سورة البقرة: « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٦٧). (٢) في «أ»: (والأسوة من الائتساء). (٣) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٦٨).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)﴾

﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾، إلى قوله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤]، فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء، فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ (أي: تصديقًا لله، وتسليمًا لأمر الله)[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: فرغ من نذره، ووفَّى بعهده، فصبر على الجهاد حتى استشهد، والنَّحْبُ: النذر، والنحب: الموت أيضًا، قال مقاتل: «قضى نحبه»، يعني: أَجَلَهُ، فقتل على الوفاء، (يعني: حمزة وأصحابه، وقيل: «قضى نحبه»، أي: بذل جهده في الوفاء)[2] بالعهد، من قول العرب: نَحَبَ فلان في سَيْرِه يومه وليلته أجمع، إذ مدَّ فلم ينزل ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة.

وقال محمد بن إسحاق: «فمنهم من قضى نحبه» من استشهد يوم بدر وأحد[3]، «ومنهم من ينتظر»، يعني: مَن بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين: إمَّا الشهادة أو النصر[4] ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ عهدهم ﴿تَبْدِيلًا (٢٣)﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن سعيد الخزاعي، أخبرنا عبد الأعلى، عن حميد قال: سألت أنسًا /ح/ وحدثني عمرو بن زرارة، أخبرنا زياد، حدثني حميد الطويل، عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني: المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعتُ يا رسول اللهَ ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلَّا أُخته ببنانه، قال أنس: كنا نظن أو نُرَى أن هذه الآيَة نزلت فيه

---

(١) زيادة من «ب».
(٢) ساقط من «أ».
(٣) في «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٤٨): (من قضى نحبه)، أي: فرغ من عمله، ورجع إلى ربه، كمن استشهد يوم بدر وأُحد.
(٤) انظر: «سيرة ابن هشام»: (٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩).

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

وفي أشباهه: «﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾» إلى آخر الآية[١].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا محمد بن حماد، أخبرنا معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن خباب بن الأرت قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنَّا مَن مضى لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، قُتل يوم أُحد، فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلَّا نمرة، فكنَّا إذا وضعناها على ٧٩/ب رأسه خرجتْ رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه / خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر»، قال: «ومن أينعت له ثمرته فهو يهد بها»[٢].

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي نصر، أخبرنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابُلسي، أخبرنا محمد بن سليمان الجوهري بأنطاكية، أخبرنا مسلم ابن إبراهيم، أخبرنا الصلت بن دينار، عن أبي نصرة، عن جابر بن عبد الله قال: نظر النبي ﷺ إلى طلحة بن عبيد الله فقال: «مَن أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى هذا»[٣].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن أبي شيبة، أخبرنا وكيع بن إسماعيل، عن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد[٤].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: جزاءَ صدقِهم، وصدقُهم هو الوفاءُ بالعهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيهديهم إلى الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾: (٦/ ٢١)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد برقم١٩٠٣: (٣/ ١٥١٢).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أُحد: (٧/ ٣٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٣١٩).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب: (١٠/ ٢٤٢)، وقال: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث الصلت بن دينار، وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وضعفه، وتكلموا في صالح بن موسى)، وابن ماجه في المقدمة برقم١٢٥: (١/ ٤٦)، لكن بلفظ: أن طلحة مر على النبي ﷺ فقال: «شهيد يمشي على وجه الأرض».
والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ١٢٠).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾: (٧/ ٣٥٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ١٢١).

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قريش وغطفان ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ لم يشفِ صدورَهم بنيلِ ما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ ظفرًا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالملائكة والريح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ (قويًّا في ملكه، عزيزًا)(١) في انتقامه.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ والمسلمين وهم بنو قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم ومعاقلهم، واحدها: صيصية، (ومنه قيل للقرن ولشوكة الديك والحاكة: صيصية)(١)، وذلك أن رسول الله ﷺ لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب راجعين إلى بلادهم وانصرف النبي ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فلما كان الظهر أتى جبريل رسولَ الله معتجرًا بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة(٢) وعليها قطيفة من ديباج، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه، فقال: قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: عفا الله عنك، ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم.

وروي أنه كان الغبار على وجه جبريل عليه السلام وفرسه فجعل النبي ﷺ يمسح الغبار عن وجهه وعن فرسه، فقال: إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة فانْهَدْ(٣) إليهم(٤)، فإني قد قطعت أوتارهم، وفتحت أبوابهم، وتركتهم في زلزال وبلبال، فأمر النبي ﷺ مناديًا فأذن: «أن مَن كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلَّا في بني قريظة»، وقدَّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ برايته إليهم، وابتدرها الناس فسار علي ـ رضي الله عنه ـ حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخباث، قال: «لِمَ، أظنك سمعت لي منهم أذًى»؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا».

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٢) الرحالة: السَّرْج.

(٣) انهض إليهم، ونَهَد القوم لعدوهم إذا صمدوا له وشرعوا في قتاله.

(٤) انظر البخاري: (٧/ ٤٠٧)، «شرح السنة»: (١٤/ ١٠ ـ ١١).

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة والخنازير، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته»؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولًا.

ومرَّ رسول الله ﷺ على أصحابه بالصَّوْرَين[1] قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: «هل مرَّ بكم أحد»؟ فقالوا: نعم يا رسول الله، مرَّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال عليه السلام: «ذاك جبريل، بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم».

فلما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم، فتلاحق به الناس، فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ: «لا يصلِّين أحد العصر إلَّا في بني قريظة»، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك، ولا عنفهم به رسول الله ﷺ، قال: وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وكان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب ابن أسد بما كان عاهده.

فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود، إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثًا فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هنَّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد رجالًا مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلًا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئًا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتخذنَّ النساء والأبناء، فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير في العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنُوا فيها فانزِلُوا لعلَّنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه مَن كان قبلنا؟ أما من قد علمت فأصابهم من المسخ ما لم يخف عليك؟ فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أُمه ليلة واحدة في الدهر حازمًا؟ قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقَّ لهم، فقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، (قالوا: ماذا يفعل بنا إذا نزلنا)[2]؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي

(١) موضع قرب المدينة.
(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابه على وجهه ولم يأت / رسول الله ﷺ حتى ارتبط ٨٠/أ
في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله لا يطأ بني قريظة أبدًا، ولا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه[1]، قال: أما لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، ثم إن الله تعالى أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يضحك، فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله، أضحك الله سنك؟ قال: «تيب على أبي لبابة»، فقلت: ألا أبشره بذلك يا رسول الله؟ فقال: «بلى إن شئت»، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا، والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه، ثم قال: إن ثعلبة بن شعبة وأسيد بن شعبة وأسيد بن عبيد، وهم نفر من بني هذيل ليسوا من قريظة ولا النضير نسبهم، فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ، وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعْدي القرظي فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ وعليها محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة، فلما رآه قال: مَن هذا؟ قال: عمرو بن سُعدي، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، فقال: لا أغدر بمحمد أبدًا، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني عثرات الكرام ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله، فذُكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: «ذاك رجل قد نجاه الله بوفائه»[2].

وبعض الناس يزعم أنه كان قد أوثق برمة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رمته ملقاة لا يدرى أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ فيه تلك المقالة، والله أعلم.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه فسألهم إيَّاه عبد الله بن أُبي بن سلول، فوهبهم له، فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم»؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده، وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَن كانت به ضيعة من المسلمين،

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٥٢)، وانظر: ابن هشام: (٣/ ٢٣٨-٢٣٩).

وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة؛ حتى أعوده من قريب، فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فاحتملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم، وكان رجلًا جسيمًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنَّما ولَّاك ذلك؛ لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض مَن كان معه من قومه إلى دار بني الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ابن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولَّاك مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنَّ الحكم فيها ما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، (وهو معرض عن رسول الله ﷺ)[1] إجلالًا له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[2]، ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث امرأة مِن بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خندقًا ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالًا وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رئيس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: كانوا ثمانمائة إلى تسعمائة، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالًا: يا كعب، ما ترى ما يصنع بنا؟ فقال كعب: أفي كل موطن لا تعقلون ألا ترون الداعي لا ينزع وإن من يذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم النبي ﷺ وأتى حيي بن أخطب عدو الله عليه حلة تفاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة أنملة لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه مَن يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضرب عنقه.

وروى عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لم يقتل من نساء بني قريظة إلَّا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي وتضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف إذ
هتف هاتف باسمها: أين فلانة، قالت: / أنا والله، قلت: ويلك مالك؟ قالت: أُقتل، قلت: ولِمَ؟ ٨٠/ب

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٥٣)، وأخرجه الشيخان في «صحيحيهما» بلفظ: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»، وبهذا اللفظ المصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٩١ ـ ٩٢)، وانظر: «الكافي الشاف»: ص١٣٣، ابن هشام: (٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، فقد أورده عن علقمة بن وقاص الليثي مرسلًا.

قالت: حدثٌ أحدثتُه؟ قالت: فانطلق بها فضُرب عنقُها، وكانت عائشة تقول: ما أنس عجبًا منها طيب نفس وكثرة ضحك، وقد عرفت أنها تقتل، قال الواقدي: وكان اسم تلك المرأة شبابة، امرأة الحكم القرظي وكانت قتلت خلاد بن سويد، رمتْ عليه رحًى، فدعا رسول الله ﷺ بها فضرب عنقها بخلاد بن سويد[١]، قال: وكان علي والزبير يضربان أعناق بني قريظة، ورسول الله ﷺ جالس هنالك.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنَّى أبا عبد الرحمن، كان قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعاث، أخذه فجز ناصيته، ثم خلى سبيله، فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم، قال: ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد كانت للزبير عندي يدٌ وله عليَّ منة، وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: «هو لك» فأتاه فقال له: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أهله وماله؟ قال: «هم لك»، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: مالُه يا رسول الله؟ قال: «هو لك»، قال: فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك، فقال: أيْ ثابت، ما فعل الله بمن كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد، قال: قُتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قُتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحامينا إذا كررنا عزَّال بن شموئيل؟ قال: قُتل، قال: فما فعل المجلسان، يعني: بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا وقُتلوا، قال: فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلَّا ما ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء خير، فما أنا بصابر لله فترة دلو نضح حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضُرب عنقُهُ، فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله: ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا فيها مخلدًا أبدًا[٢].

قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل من أنبت منهم[٣]، ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سُهمان الخيل وسُهمان الرجال وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ولفارسه سهم وللراجل ممن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل ستة

---

(١) أخرجه الطبري: (٢١/ ١٥٣ ـ ١٥٤)، وابن إسحاق: (٣/ ٢٤٢).

(٢) انظر: ابن هشام: (٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (٢/ ٧٦ ـ ٧٧) عن عطية بن سعد القرظي.

وثلاثين فرسًا، وكان أول فيء وقع فيه السهمان، ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم بها خيلًا وسلاحًا، وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنانة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركني في ملكك فهو أخف عليَّ وعليك، فتركها وقد كانت حين سباها كرهت الإسلام وأبت إلَّا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه بذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرني بإسلام ريحانه، فجاءه فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة، فسره ذلك[(١)].

فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، وذلك أنه دعا بعد أن حكم في بني قريظة ما حكم فقال: اللهم إنك قد علمت أنه لم يكن قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك، فانفجر كَلْمُهُ فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضُربت عليه في المسجد، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني لفي حجرتي، قالت: وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩][(٢)]، وكان فتح بني قريظة في آخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن محمد، أخبرنا يحيى بن آدم، أخبرنا إسرائيل سمعت أبا إسحاق يقول: سمعت سليمان بن صرد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»[(٣)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا قتيبة، أخبرنا الليث، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلاَّ الله وحده، أعزَّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[(٤)].

---

(١) انظر: ابن هشام: (٣/ ٢٤٢_٢٤٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد: (٦/ ١٤١_١٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق: (٧/ ٤٠٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٧_٨).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب عزوة الخندق: (٧/ ٤٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل برقم ٢٧٢٤: (٤/ ٢٠٨٩) عن قتيبة. والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٨)

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

قال الله تعالى في قصة قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال، يقال: كانوا ستمائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ وهم النساء والذراري، يقال: كانوا سبعمائة وخمسين، ويقال: تسعمائة[١].

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بعد، قال ابن زيد ومقاتل: يعني: خيبر، قال قتادة: كنا نحدث أنها مكة، وقال الحسن: فارس والروم، وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة[٢] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي ﷺ سألنه شيئًا / من عَرَض الدنيا، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهنَّ على بعض، فهجرهنَّ رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهنَّ شهرًا ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا: ما شأنه؟ وكانوا يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر: لأعلمنَّ لكم شأنه، قال: فدخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أطلقتهنَّ؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهنَّ؟ قال: «نعم، إن شئت»، فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فكنت أنا استنبطت ذاك الأمر، وأنزل الله آية التخيير، وكانت تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وغير القرشيات: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية، وجويرية بنت الحارث

١/٨١

(١) انظر سياق القصة في: «سيرة ابن هشام»: (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٤٣).
(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٢٥).

المصطلقيّة ـ رضوان الله عليهنَّ ـ فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، وكانت أحبهنَّ إليه فخيَّرها وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعنها على ذلك(١).

قال قتادة: فلما اخترن الله ورسوله شكرهنَّ الله على ذلك وقصره عليهن فقال: «لا يحلّ لك النساء من بعد».

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغفار بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا زهير بن حرب، أخبرنا روح بن عُبادة، أخبرنا زكريا بن إسحاق، أخبرنا أبو الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن له فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، فقال: لأقولنَّ شيئًا أُضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: هُنَّ حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: لا تسألي رسول الله ﷺ شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهنَّ شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾، حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويَّ؟ بل أختار الله ورسولَه والدارَ الآخرة، وأسألك أن لا تخبرَ امرأةً من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأةٌ منهنَّ إلَّا أخبرتُها، إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا»(٢).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري أن النبي ﷺ أقسم أنْ لا يدخل على أزواجه شهرًا، قال الزهري: فأخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: فلما مضت تسع وعشرون أعدُّهن دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فقالت: بدأ بي فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت ألَّا تدخل علينا شهرًا، وإنك دخلت في تسع وعشرين أعدهنَّ؟ فقال: «إن الشهر تسع وعشرون»(٣).

---

(١) انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥١٩)، مسلم برقم١٤٧٥: (٢/ ١١٠٥ ـ ١١٠٨)، الطبري: (٢١/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، «شرح السنة»: (٩/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، «الصحيح المسند من أسباب النزول»: ص١١٧ ـ ١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلَّا بالنية برقم١٤٧٨: (٢/ ١١٠٤ ـ ١١٠٥).

(٣) أخرجه معمر بن راشد في كتاب «الجامع» رواية عبد الرزاق في «المصنف»: (١٠/ ٤٠١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٩٦) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

واختلف العلماء في هذا الخيار أنه هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهنَّ حتى يقع بنفس الاختيار أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم: إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق، وإنما خيرهنَّ على أنهنَّ إذا اخترن الدنيا فارقهنَّ، لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور، فإنه قال لعائشة: «لا تعجلي حتى تستشيري أبويك»، وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور.

وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقًا.

واختلف أهل العلم في حكم التخيير: فقال عمر وابن مسعود وابن عباس: إذا خيرَّ الرجلُ امرأته فاختارت زوجَها لا يقع شيء، وإن اختارت نفسها يقع طلقة واحدة، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي وأصحاب الرأي، إلَّا عند أصحاب الرأي تقع طلقة بائنة إذا اختارت نفسها، وعند الآخرين رجعية. وقال زيد بن ثابت: إذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة، وإذا اختارت نفسها فثلاث، وهو قول الحسن، وبه قال مالك.

وروي عن علي أيضًا أنها إذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة، وإن اختارت نفسها فطلقة بائنة.

وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها لا يقع شيء.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عمر ابن حفص، أخبرنا أبي، أخبرنا الأعمش، أخبرنا مسلم، عن مسروق، عن عائشة قالت: «خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترنا الله ورسولَه فلم يعدّ ذلك علينا شيئًا»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بمعصية ظاهرة، قيل: هو كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر: ٦٥]، لا أن منهنَّ من أتت بفاحشة.

وقال ابن عباس: المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عمر «نضعف» بالنون وكسر العين وتشديدها، «العذاب» نصب، وقرأ الآخرون بالياء وفتح العين، «العَذاب» / رفع، ويشددها أبو جعفر وأهل البصرة، وشدد أبو عمرو هذه وحدها لقوله: «ضعفين»، ٨١/ب وقرأ الآخرون «يضاعَف» بالألف وفتح العين، «العذاب» رفع، وهما لغتان، مثل: بعَّد وباعد، قال أبو عمرو وأبو عبيدة: ضعفت الشيء إذا جعلته مثليه، وضاعفته إذا جعلته أمثاله ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من خير أزواجه: (٩/ ٣٦٧)، ومسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير المرأة لا يكون طلاقًا برقم ١٤٧٧: (٢/ ١١٠٣).

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قال مقاتل: كان عذابها على الله هينًا، وتضعيف عقوبتهنَّ على المعصية لشرفهنَّ كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة، وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهنَّ، وفيه إشارة إلى أنهنَّ أشرف نساء العالمين.

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ ﴾ يطع ﴿ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ قرأ يعقوب: «من تأت منكن» و«تقنت» بالتاء فيهما، وقرأ العامة بالياء؛ لأنَّ «مَنْ» أداةٌ تقوم مقام الاسم يعبرّ به عن الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ أي: مثلي أجر غيرها، قال مقاتل: مكان كل حسنة عشرين حسنة.

وقرأ حمزة والكسائي: «يعمل» «يؤتها» بالياء فيهما نسقًا على قوله: «ومن يأت» و«يقنت»، وقرأ الآخرون بالتاء ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ حسنًا، يعني: الجنة.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال ابن عباس: يريد ليس قَدْرُكنَّ عندي مثل قدر غيركنَّ من النساء الصالحات، أنتن أكرم عليَّ، وثوابُكنَّ أعظمُ لديَّ، ولم يقل: كواحدة؛ لأنَّ الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، قال الله تعالى: « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ »[البقرة: ٢٨٥]، وقال: « فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ »[الحاقة: ٤٧].

﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ الله فأطعتُنَّه ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ لا تَلِنَّ بالقول للرجال، ولا ترققن الكلام ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ أي: فجور وشهوة، وقيل: نفاق، والمعنى: لا تقلن قولًا يجد منافق أو فاجر به سبيلًا إلى الطمع فيكُنّ. والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع.

﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ لوجه الدين والإسلام، بتصريح وبيان من غير خضوع.

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم و«قَرن» بفتح القاف، وقرأ الآخرون بكسرها، فمن فتح القاف فمعناه: اقررن، أي: الزمن بيوتكُن، من قولهم: قررت بالمكان أقرُّ قرارًا، يقال: قررت أقر وقررت أقِر، وهما لغتان، فحذفت الراء الأولى التي هي عين الفعل لثقل التضعيف ونقلت حركتها إلى القاف، كقولهم في ظللت: ظلت، قال الله تعالى: « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ »[الواقعة: ٦٥]، « ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا »[طه: ٩٧].

ومن كسر القاف فقد قيل: هو من قررت أقِر، معناه: اقررن ـ بكسر الراء ـ فحذفت الأولى ونقلت

حركتها إلى القاف كما ذكرنا، وقيل - وهو الأصح -: أنه أمر من الوقار، كقولهم من الوعد: عدن، ومن الوصل: صلن، أي: كُنَّ أهل وقار وسكون، من قولهم: وقر فلان يقر وقورًا إذا سكن واطمأن.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ قال مجاهد وقتادة: التبرج هو التكسر والتغنج، وقال ابن أبي نجيح: هو التبختر، وقيل: هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ (اختلفوا في الجاهلية الأولى)[١]، قال الشعبي: هي ما بين عيسى ومحمد ﷺ[٢].

وقال أبو العالية: هي في زمن داود وسليمان عليهما السلام، كانت المرأة تلبس قميصًا من الدر غير مخيط من الجانبين فيُرى خلقها فيه[٣].

وقال الكلبي: كان ذلك في زمن نمرود الجبار، كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال[٤].

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وأن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحًا وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صِباحًا وفي الرجال دمامة، وأن إبليس أتى رجلًا من أهل السهل وأجَّر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ شيئًا مثل الذي يزمر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حولهم فانتابوهم يستمعون إليه، واتخذوا عيدًا يجتمعون إليه في السنة، فتتبرج النساء للرجال ويتزين الرجال لهنَّ، وإن رجلًا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهنَّ فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك (فتحولوا إليهم)[٥] فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهم[٦]، فذلك قوله تعالى: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ».

وقال قتادة: هي ما قبل الإسلام[٧].

وقيل: الجاهلية الأولى: ما ذكرنا، والجاهلية الأخرى: قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان.

وقيل: قد تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى، كقوله تعالى: «وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ»[النجم: ٥٠]، ولم يكن لها أخرى.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٢) انظر: الطبري: (٢٢/ ٤)، «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣١).
(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣١).
(٤) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٠).
(٥) زيادة من «ب».
(٦) انظر: الطبري: (٢٢/ ٤).
(٧) انظر: الطبري: (٢٢/ ٤ - ٥)، «الدر المنثور»: (٦/ ٦٠١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ أراد بالرجس: الإثم الذي نهى الله النساء عنه، قاله مقاتل، وقال ابن عباس: يعني: عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضى، وقال قتادة: يعني: السوء، وقال مجاهد: الرجس: الشك.

وأراد بأهل البيت: نساء النبي ﷺ لأنهنَّ في بيته، وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وتلا قوله: «وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ»، وهو قول عكرمة ومقاتل.

وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين، منهم: مجاهد وقتادة وغيرهما: إلى أنهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين[(١)].

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعدي، أخبرنا أبو همام الوليد بن شجاع، أخبرنا يحيى بن زكريا بن زائدة، أخبرنا أبي، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة الحجبية، عن عائشة أم المؤمنين قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، (ثم جاء عليٌّ فأدخله فيه)[(٢)]، ثم جاء حسن فأدخله فيه، ثم جاء حسين فأدخله فيه، ثم قال: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»[(٣)].

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد الحميدي، أخبرنا عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا الحسن بن مكرم، أخبرنا عثمان بن عمر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن شريك بن
١/٨٢ أبي نمر، عن / عطاء بن يسار، عن أم سلمة قالت: في بيتي أنزلت: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ»، قالت: فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين، فقال: «هؤلاء أهل بيتي»، قالت: فقلت: يا رسول الله، أمَا أنا من أهل البيت؟ قال: «بلى، إن شاء الله»[(٤)].

قال زيد بن أرقم: أهل بيته مَنْ حَرُمَ الصدقةُ عليه بعده: آلُ علي وآلُ عقيل وآلُ جعفر وآلُ عباس[(٥)].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٨١).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل أهل البيت برقم ٢٤٢٤: (٤/ ١٨٨٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ١١٦).

(٤) أخرجه الحاكم: (٣/ ١٤٦) دون قوله: (قالت: فقلت يا رسول الله، أما أنا من أهل البيت؟ قال: بلى إن شاء الله)، وهو في «المسند»: (٦/ ٤٩٢)، من طريق آخر بنحوه، وسنده ضعيف، وانظر: ابن كثير: (٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦)، «شرح السنة»: (١٤/ ١١٧)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد).

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ برقم ٢٤٠٨: (٤/ ١٨٧٣).

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال قتادة: يعني: السنة، وقال مقاتل: أحكام القرآن ومواعظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: لطيفًا بأوليائه، خبيرًا بجميع خلقه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ الآية، وذلك أن أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله، ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير، فما فينا خير نُذكر به، إنا نخاف أن لا يقبل منّا طاعةً، فأنزل الله هذه الآية[١].

قال مقاتل: قالت أم سلمة بنت أبي أمية ونيسة[٢] بنت كعب الأنصارية للنبي ﷺ: ما بال ربّنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه، نخشى أن لا يكون فيهن خير؟ فنزلت هذه الآية[٣].

وروي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لَفِي خيبة وخسار، قال: ومِمَّ ذاك؟ قالت: لأنهنَّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾[٤] المطيعين ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في إيمانهم، وفيما ساءهم وسرهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على ما أمر الله به ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين، وقيل: أراد به الخشوع في الصلاة، ومن الخشوع: أن لا يلتفت ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾

---

(١) رواه الطبري: (٢٢/ ١٠)، وفي سنده قابوس بن أبي ظبيان، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: (فيه لين)، وزاد السيوطي نسبته للطبراني. انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٨٣) مع حاشية المحقق، «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٣).

(٢) في «ب»: (أنيسة).

(٣) انظر الروايات عن أم سلمة في: الطبري: (٢٢/ ١٠).

(٤) ذكره الواحدي: ص٤١٣، وصاحب «زاد المسير»: (٦/ ٣٨٤).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

ممَّا رزقهم الله ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عمَّا لا يحل ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا[(١)].

وروينا أن النبي ﷺ قال: «قد سبق المفرِّدون»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[(٢)].

قال عطاء بن أبي رباح: من فوض أمره إلى الله عزَّ وجلَّ فهو داخل في قوله: «إن المسلمين والمسلمات»، ومن أقرَّ بأن الله ربُّه ومحمدًا رسولُه، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: «المؤمنين والمؤمنات»، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة: فهو داخل في قوله: «والقانتين والقانتات»، ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله: «الصادقين والصادقات»، ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزية: فهو داخل في قوله: «والصابرين والصابرات»، ومن صلى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: «والخاشعين والخشعات»، ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: «والمتصدقين والمتصدقات»، ومن صام في كل شهر أيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله: «والصائمين والصائمات»، ومن حفظ فرجه عمَّا لا يحل فهو داخل في قوله: و«الحافظين فروجهم والحافظات»، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله: «والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات».

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ نزلت الآية في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، خطب رسول الله لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيدًا في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت، وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت، وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾[(٣)] يعني: عبد الله بن جحش ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني:

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٠٩) لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى برقم ٢٦٧٦: (٤/ ٢٠٦٢).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١١)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص ٦١٠.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

اخته زينب ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا أراد الله ورسوله أمرًا: وهو نكاح زينب لزيد ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ أهل الكوفة: «أن يكون» بالياء، للحائل بين التأنيث والفعل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث «الخيرة» من أمرهم، والخيرة: الاختيار.

والمعنى: أن يريد غير ما أراد الله، أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ أخطأ خطأ ظاهرًا، فلما سمعا ذلك رضيا بذلك وسلَّما، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيدًا، فدخل بها وساق رسولُ الله ﷺ إليها عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخمارًا، ودرعًا وإزارًا[1]، وملحفة، وخمسين مدًّا من طعام، وثلاثين صاعًا من تمر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ...﴾ الآية، نزلت في زينب[2]، وذلك أن رسول الله ﷺ لما زوج زينب من زيد مكثت عنده حينًا، ثم إن رسول الله ﷺ أتى زيدًا ذات يوم لحاجة، فأبصر زينب قائمة في درع وخمار، وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش، فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها، فقال: سبحان الله مقلب القلوب وانصرف، فلما جاء زيد ذكرت ذلك له، ففطن زيد، فألقي في نفس زيد كراهيتها في الوقت[3]، فأتى رسولَ الله فقال: إني أُريد أن أُفارق صاحبتي،

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾: (٨/ ٥٢٣).

(٣) هذه الرواية وإن ساقها عدد من المفسرين إلَّا أن المحققين من أهل العلم ردوها، قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٥٢٤): (وردت آثار أُخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته هو المعتمد) وهذه شهادة لها قيمتها، وقد ذكر رحمه الله قبل هذا روايات في الموضوع وعلق عليها إذ قال: (وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقًا واضحًا حسنًا، ولفظه: «بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أُميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ بعدُ أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدًا». وعنده من طريق علي بن زيد عن علي بن الحسين بن علي قال: أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها=

قال: «ما لك أرابكَ منها شيء»؟ قال: لا والله يا رسول الله، ما رأيت منها إلّا خيرًا، ولكنها تتعظم عليَّ لشرفها، وتؤذيني بلسانها، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك»، يعني: زينب بنت جحش، «وَٱتَّقِ ٱللَّهَ» في أمرها، ثم طلَّقها زيد(١)، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق، وهو زيد بن حارثة: / ٨٢/ب
﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيها ولا تفارقها ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تسرّ في نفسك ما الله مظهره، أي: كان في قلبه لو فارقها لتزوجها، وقال ابن عباس: حبها، وقال قتادة: ودَّ أنه طلقها.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس والحسن: تستحييهم.

وقيل: تخاف لائمة الناس أن يقولوا: أمر رجلًا بطلاق امرأته ثم نكحها(٢).

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسولت الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية(٣).

وروي عن مسروق قال: قالت عائشة: لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ»(٤).

وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين زين العابدين: ما يقول الحسن في قوله: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ»؟ قلت: يقول: لما جاء زيد إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إني أريد أن أطلق زينب فأعجبه ذلك، فقال: «أمسك عليك زوجك

= إليه قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه).

هذا، واعلم ـ حفظك الله ـ أن:

١ ـ الروايات في هذه القصة ضعيفة من حيث السند.

٢ ـ تتنافى مع عصمة النبي ﷺ ومكانته.

٣ ـ لو كان الذي أخفاه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو محبته لها؛ لأظهره الله تعالى ـ كما ذكر البغوي ـ ولكن الله تعالى أظهر أنه سيتزوجها.

٤ ـ وقد كان ﷺ هو الذي خطبها على زيد بن حارثة، وكانت ابنة عمته، وهو يراها مذ كانت طفلة حتى كبرت فلِمَ لم يقع حبها في قلبه؟ وكيف يقع هذا الحب في قلبه بعد أن يتزوجها مولاه؟ وإن أردت أن تتوسع فانظر: «الشفا» للقاضي عياض: (٢/ ٨٧٨ ـ ٨٨٠)، «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل: (٢٢/ ٢٤ ـ ٢٥)، «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، «في ظلال القرآن»: (٥/ ٢٨٦٥ ـ ٢٨٦٩)، وللدكتور زاهر عواض الألمعي كتاب: «مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش».

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٤).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٨٧).

(٣) انظر: الطبري: (٢٢/ ١٣)، وراجع التعليق الآتي.

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأحزاب: (٩/ ٧١ ـ ٧٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والطبري: (٢٢/ ١٣)، وانظر: البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء: (١٣/ ٤٠٤)، لكن عن أنس، مسلم في الإيمان، باب معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟ برقم ١٧٧: (١/ ١٦٠).

واتق الله»، فقال علي بن الحسين: ليس كذلك، كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدًا سيطلقها، فلما جاء زيد وقال: إني أريد أن أطلقها قال له: «أمسك عليك زوجك»، فعاتبه الله وقال: لِمَ قلتَ: أمسِكْ عليك زوجك وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك(١)؟

وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة؛ لأن الله علم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال: «زوجناكها»، فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدل على أنه إنَّما عُوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له، وإنما أخفاه استحياءً أن يقول لزيد: التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي، وهذا قول حسن مُرْضٍ، وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الأنبياء؛ لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه في مثل هذه الأشياء ما لم يقصد فيه المأثم؛ لأن الود وميل النفس من طبع البشر.

وقوله: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله» أمر بالمعروف، وهو خشيةٌ لا إثم فيه.

وقوله تعالى: «والله أحق أن تخشاه» لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه عليه السلام قد قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له»، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجة من نكاحها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنى تحلُّ بعد الدخول بها.

قال أنس: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجَكُنَّ أهالِيكُنَّ وزوجني الله من فوق سبع سموات(٢).

وقال الشعبي: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهنَّ: جدي وجدك واحد، إني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام(٣).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغفار بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج، حدثني محمد بن حاتم بن ميمون، أخبرنا بهز، أخبرنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد:

---

(١) انظر: ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء: (١٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٤)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤١٢): (أخرجه الطبري وأبو القاسم الطحاوي في كتاب «الحجة والتبيان» من مرسل الشعبي).

«فاذكرها عليّ»، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمِّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها؛ لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتُها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك.

قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

قال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم، حتى امتد النهار، (فخرج الناس)[1]، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ فاتبعته فجعل يتتبع حُجَرَ نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني.

قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب[2].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سليمان بن حرب، أخبرنا حماد، عن ثابت، عن أنس قال: ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، أَوْلَمَ بشاة[3].

أخبرنا محمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا محمد بن هشام بن ملاس النمري، أخبرنا مَرْوَان الفزاري، أخبرنا حميد، عن أنس قال: أَوْلَمَ رسولُ الله ﷺ حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزًا ولحمًا[4].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إثم ﴿حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ و«الأدعياء»: جمع الدَّعِيّ، وهو المتبنى، يقول: زوجناك زينب، وهي امرأة زيد الذي تبنَّيته، ليعلم أن زوجة المتبنَّى حلال للمتبنِّي (وإن كان قد دخل بها المُتَبَنَّى)[5]، بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ أي: كان قضاء الله ماضيًا وحكمه نافذًا، وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب برقم ١٤٢٨: (٢/ ١٠٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب الوليمة بشاة: (٩/ ٢٣٢)، ومسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب برقم ١٤٢٨: (٢/ ١٠٤٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ١٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الأحزاب: (٨/ ٥٢٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ١٣٧).

(٥) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما أحل الله له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي:
١/٨٣ كسنَّة الله، / نصب بنزع الخافض، وقيل: نصب على الإغراء، أي: الزموا سنَّة الله ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الأنبياء الماضين، أن لا يؤاخذهم بما أحل لهم.

قال الكلبي ومقاتل: أراد: داودَ، حين جمع بينه وبين المرأة التي هويها، فكذلك جمع بين محمد ﷺ وبين زينب.

وقيل: أشار بالسنَّة إلى النكاح، فإنه من سنة الأنبياء عليهم السلام[١].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ قضاءً مقضيًّا كائنًا ماضيًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ (يعني: سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله)[٢] ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ حافظًا لأعمال خلقه ومحاسبهم.

ثم إن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب قال الناس: إن محمدًا تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[٣]، يعني: زيد بن حارثة، أي: ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إيَّاها.

فإن قيل: أليس أنه كان له أبناء: القاسم، والطيب والطاهر، وإبراهيم، وكذلك: الحسن والحسين، فإن النبي ﷺ قال للحسن: إن ابني هذا سيد؟

قيل: هؤلاء كانوا صغارًا لم يكونوا رجالًا.

والصحيح ما قلنا: إنه أراد أبا أحد من رجالكم[٤].

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٥ - ٢٣٦)، وفيه: أن اليهود عابوه، أي: النبي ﷺ بكثرة النكاح وكثرة الأزواج، فرد الله عليهم بقوله: «سنة الله».

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٣) انظر: الطبري: (٢٢/ ١٦).

(٤) انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص٢٨٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ختم الله به النبوة، وقرأ عاصم «خاتم» بفتح التاء على الاسم، وقرأ الآخرون بكسر التاء على الفاعل؛ لأنه ختم به النبيين فهو خاتمهم.

قال ابن عباس: يريد: لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنًا يكون بعد نبيًّا[1].

وروي عن عطاء عن ابن عباس: أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولدًا ذكرًا يصير رجلًا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أخبرنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد الخذاشاهي، أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم، حدثنا أبكر الجوربذي، أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمَثَلِ قصر أحسن بنيانُه، تُرِكَ منه موضع لَبِنَةٍ فطاف به النُّظَّارُ يتعجبون من حسنِ بنيانِه إلَّا موضعُ تلك اللَّبنةِ لا يعيبون سواها فكنت أنا سددتُ موضع تلك اللبنة، خُتم بي البنيانُ وخُتم بي الرسلُ»[2].

أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا علي بن أحمد الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب الشاشي، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد قالوا: أخبرنا سفيان، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ قال ابن عباس. لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة[4] إلَّا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإنه لم يجعل له حدًّا يُنتهَى إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلَّا مغلوبًا على عقله[5]، وأمرهم به في كل الأحوال، فقال:

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٠١)، وأخرج البخاري: (٦/ ٥٥٨) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلَّا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»، ومسلم: (٤/ ١٧٩١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلَّا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ: (٨/ ١٢٨ ـ ١٣٠)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأخرجه البخاري في المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ: (٦/ ٥٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢١١).

(٤) ساقط من «أ». (٥) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٧)، وابن كثير: (٣/ ٤٩٦).

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، أي: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي الصحة والسقم، في السر والعلانية، وقال مجاهد: الذكر الكثير أن لا تنساه أبدًا.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي: صَلُّوا له ﴿بُكْرَةً﴾ يعني: صلاة الصبح ﴿وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ يعني: صلاة العصر، وقال الكلبي: «وأصيلًا» صلاة الظهر والعصر والعشاءين. وقال مجاهد: يعني: قولوا سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، فعبَّر بالتسبيح عن أخواته.

وقيل: المراد من قوله: «ذكرًا كثيرًا» هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث[(١)].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فالصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار للمؤمنين.

قال السدي: قالت بنو إسرائيل لموسى: أيصلي ربنا؟ فكبر هذا الكلام على موسى، فأوحى الله إليه: أنْ قل لهم: إني أُصلي، وأن صلاتي رحمتي، وقد وسعت رحمتي كلَّ شيء[(٢)].

وقيل: الصلاة من الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل له في عباده، وقيل: الثناء عليه.

قال أنس: لما نزلت: «إن الله وملائكته يصلونَ على النبي»، قال أبو بكر: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلَّا وقد أُشركنا فيه، فأنزل الله هذه الآية[(٣)].

قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، يعني: أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: تحية المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يرون الله ﴿سَلَامٌ﴾ أي: يسلم الله عليهم، ويسلمهم من جميع الآفات. وروي عن البراء بن عازب قال: «تحيتهم يوم يلقونه»، يعني: يلقون ملك الموت، لا يقبض روح مؤمن إلَّا يسلم عليه[(٤)].

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٧)، «زاد المسير»: (٦/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٢٢).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٢٢) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٥١-٣٥٢)، وقال: (صحيح)، قلت - الذهبي -: (عبد الله قال ابن عدي: مظلم الحديث، ومحمد قال ابن حبان: لا يحتج به)، وعزاه السيوطي أيضًا في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٢٣) لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا
مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ
وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ
تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾

وعن ابن مسعود قال: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام[1]، وقيل: تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حين يخرجون من قبورهم[2] ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾ يعني: الجنة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ أي: شاهدًا للرسل بالتبليغ، ومبشرًا لمن آمن بالجنة، ونذيرًا لمن كذب بآياتنا بالنار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ سماه سراجًا؛ لأنه يهتدى به كالسراج يستضاء به في الظلمة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ ذكرنا تفسيره في أول السورة ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ قال ابن عباس وقتادة:
٨٣/ب اصبر على أذاهم، وقال الزجاج: لا تجازهم عليه، وهذا منسوخ بآية القتال. /

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ حافظًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع؛ لأن الله تعالى رتَّب الطلاق على النكاح، حتى لو قال لامرأة أجنبية: إذا نكحتك فأنت طالق، وقال: كل امرأة أنكِحُها فهي طالق، فنكح، لا يقع الطلاق، وهو قول علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاووس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان ابن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم ـ رضي الله عنهم ـ، وبه قال الشافعي.

وروي عن ابن مسعود: أنه يقع الطلاق، وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي.

وقال ربيعة ومالك والأوزاعي: إن عيَّن امرأة يقع، وإن عمَّ فلا يقع.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كذبوا على ابن مسعود، إن كان قالها فزلة من عالم، في الرجل

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٢٣) للمروزي في الجنائز وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ، وذكره صاحب «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٧).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٣٧).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، يقول الله تعالى: «إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ»، ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهنّ[١].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا الحسين بن محمد الديموري، أخبرنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي، أخبرنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري بمكة، أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا أيوب بن سويد، أخبرنا ابن أبي ذئب، عن عطاء، عن جابر قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهنَّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ تحصونها بالأقراء والأشهر ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهنَّ ما يستمتعن به، قال ابن عباس: هذا إذا لم يكن سمى لها صداقًا فلها المتعة، فإن كان قد فرض لها صداقًا فلها نصف الصداق ولا متعة لها، وقال قتادة: هذه الآية منسوخة بقوله: «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ»[البقرة: ٢٣٧]، وقيل: هذا أمر ندب، فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر.

وذهب بعضُهم إلى أنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ خلوا سبيلهنَّ بالمعروف من غير ضرار.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ردَّ عليك من الكفار بأن تسبي فتملك مثل: صفية وجويرية، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولـدت له إبراهيم ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ﴾ يعني: نساء قريش

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٢٣٢_٢٣٦).

(٢) أخرجه الحاكم: (٢/ ٤٢٠)، وقال: (مدار سند هذا الحديث على إسنادين واهيين: جرير عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي، وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، فلذلك لم يقع الاستقصاء من الشيخين في طلب هذه الأسانيد الصحيحة، والله أعلم).
وللحديث طرق أخرى عن عدد من الصحابة يتقوى بها. انظر بالتفصيل في: «نصب الراية»: (٣/ ٢٣٠ _ ٢٣٣)، «تلخيص الحبير»: (٣/ ٢١٠_٢١٢)، «إرواء الغليل»: (٦/ ١٧٣ _ ١٧٤)، و(٧/ ١٥٢ _ ١٥٣).

﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ يعني: نساء بني زهرة ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إلى المدينة، فمن لم تهاجر منهنَّ معه لم يجز له نكاحها.

وروى أبو صالح عن أم هانىء أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل[1].

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق، فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه.

واختلفوا في أنه هل كان يحل للنبي ﷺ نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر؟

فذهب جماعة إلى أنه كان لا يحل له ذلك، لقوله: «وامرأة مؤمنة»، وأوَّل بعضهم الهجرة في قوله: «اللاتي هاجرن معك» على الإسلام، أي: أسلمن معك، فيدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة، وكان النكاح ينعقد (في حقه)[2] بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر، وكان ذلك من خصائصه ﷺ في النكاح لقوله تعالى: «خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، كالزيادة على الأربع، ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه ولا مشاركة لأحد معه فيه.

واختلف أهل العلم في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة؟ فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلَّا بلفظ الإنكاح والتزويج، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي.

وذهب قوم إلى أنه ينعقد بلفظ الهبة والتمليك، وهو قول إبراهيم النخعي وأهل الكوفة.

ومَنْ قال لا ينعقد إلَّا بلفظ الإنكاح أو التزويج اختلفوا في نكاح النبي ﷺ، فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد بلفظ الهبة، لقوله تعالى: «خالصة لك من دون المؤمنين».

وذهب آخرون إلى أنه لا ينعقد إلَّا بلفظ النكاح أو التزويج كما في حق الأمة لقوله عزَّ وجلَّ: «إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا»، وكان اختصاصه ﷺ في ترك المهر لا في لفظ النكاح[3].

واختلفوا في التي وهبتْ نفسَها لرسول الله ﷺ وهل كانت عنده امرأة منهنَّ؟

فقال عبد الله بن عباس ومجاهد: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها منه، ولم يكن عنده امرأة إلَّا بعقد نكاح أو ملك يمين، (وقوله: «إن وهبت نفسها» على طريق الشرط والجزاء.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير: (٩/ ٧٤ ـ ٧٦)، وقال: (هذا حديث حسن، لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه من حديث السدي)، والطبري: (٢٢/ ٢٠ ـ ٢١)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٠) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «السنن»: (٧/ ٥٤)، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٢٨) لابن سعد وعبد بن حميد وابن راهويه وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) زيادة من «ب».

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨).

۞ ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾

وقال آخرون: بل كانت عنده موهوبة، واختلفوا فيها)[١]، فقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الهلالية، يقال لها: أم المساكين، وقال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي أم شريك بنت جابر من بني أسد، وقال عروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم من بني سليم[٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أوجبنا على المؤمنين ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من الأحكام أن لا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلَّا بولي وشهود ومهر ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا يرجع إلى أول الآية، أي: أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لك لكي لا يكون عليك حرج وضيق.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠)﴾.

﴿۞ تُرْجِى﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ﴾ أي: تضم ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

اختلف المفسرون في معنى الآية: فأشهر الأقاويل أنه في القسم بينهن، وذلك أن التسوية بينهن في القسم كان واجبًا عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهنَّ.

٨٤/أ قال أبو رزين وابن زيد: / نزلت هذه الآية حين غار بعض أُمهات المؤمنين على النبي ﷺ وطلب بعضهنَّ زيادة النفقة، فهجرهنَّ النبيُّ ﷺ شهرًا حتى نزلت آية التخيير، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يخيرهنَّ بين الدنيا والآخرة، وأن يخلي سبيل من اختارت الدنيا، ويمسك من اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، على أنهنَّ أُمهات المؤمنين ولا ينكحن أبدًا، وعلى أنه يؤوي إليه من يشاء منهنَّ، ويرجي من يشاء، فيرضين به قسم لهنَّ أو لم يقسم، أو قسم لبعضهنَّ دون بعض، أو فضل بعضهنَّ في النفقة والقسمة، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء، وكان ذلك من خصائصه، فَرَضين بذلك واخترنه على هذا الشرط[٣].

واختلفوا في أنه هل أخرج أحدًا منهنَّ عن القسم؟ فقال بعضهم: لم يخرج أحدًا، بل كان رسول الله ﷺ ـ مع ما جعله الله له من ذلك ـ يسوي بينهنَّ في القسم إلَّا سودة فإنها رضيت بترك حقها من القسم، وجعلت يومها لعائشة.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٢٣٩).

(٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٤١٣ عازيًا للمفسرين.

وقيل: أخرج بعضهنَّ.

روى جرير، عن منصور، عن أبي رزين قال: لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقهنَّ، فقلن: يا نبي الله، اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودَعْنا على حالنا، فنزلت هذه الآية، فأرجى رسولُ الله ﷺ بعضهن وآوى إليه بعضهنَّ، وكان ممن آوى إليه: عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة، فكان يقسم بينهنَّ سواء، وأرجى منهنَّ خمسًا: أم حبيبة وميمونة وسودة وصفية وجويرية، فكان يقسم لهنَّ ما شاء[1].

وقال مجاهد: «ترجي من تشاء منهنَّ»، يعني: تعزل من تشاء منهنَّ بغير طلاق، وترد إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد.

وقال ابن عباس: تطلق من تشاء منهنَّ وتمسك من تشاء.

وقال الحسن: تترك نكاح من شئت، وتنكح من شئت من نساء أُمتك.

وقال: كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله ﷺ.

وقيل: تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبنَ أنفسهنَّ لك فتؤويها إليك وتترك من تشاء فلا تقبلها.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا محمد بن سلام، أخبرنا ابن فضيل، أخبرنا هشام، عن أبيه قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهنَّ للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت: «﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾»، قلت: يا رسول الله، ما أرى ربك إلّا يسارع في هواك[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: طلبت وأردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن القسم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ لا إثم عليك، فأباح الله له ترك القسم لهنَّ حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن في نوبتها ويطأ من يشاء منهنَّ في غير نوبتها، ويرد إلى فراشه من عزلها تفضيلًا له على سائر الرجال ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أي: التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أقرب إلى رضاهنَّ وأطيب لأنفسهنَّ وأقل لحزنهنَّ إذا علمن ذلك من الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ أعطيتهن ﴿كُلُّهُنَّ﴾ من تقرير وإرجاء وعزل وإيواء ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من أمر النساء، والميل إلى بعضهنَّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٢/ ٢٦)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد: (٩/ ١٦٤)، ومسلم في الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها برقم١٤٦٤: (٢/ ١٠٨٥ـ١٠٨٦).

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب «لا تحل» بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، «من بعد»، يعني: من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن فاخترنك، وذلك أن النبي ﷺ لما خيرهنَّ فاخترن الله ورسوله شكر الله لهنَّ وحرم عليه النساء سواهنَّ، ونهاه عن تطليقهنَّ وعن الاستبدال بهن، هذا قول ابن عباس وقتادة(١).

واختلفوا في أنه هل أبيح له النساء من بعد؟

قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له النساءُ سواهن(٢).

وقال أنس: مات على التحريم.

وقال عكرمة والضحاك: معنى الآية: لا يحل لك النساء إلَّا اللاتي أحللنا لك وهو قوله: «إنا أحللنا لك أزواجك . . .» الآية، ثم قال: «لا يحل لك النساء من بعد» إلَّا التي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها.

وقيل لأبي بن كعب: لو مات نساء النبي ﷺ أكان يحل له أن يتزوج؟ قال: وما يمنعه من ذلك؟ قيل: قوله عزَّ وجلَّ: «لا يحل لك النساء من بعد»، قال: إنما أحل الله له ضربًا من النساء، فقال: «يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك»، ثم قال: «لا يحل لك النساء من بعد».

قال أبو صالح: أُمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية، ويتزوج من نساء قومه من بنات العم والعمة والخالة إن شاء ثلاثمائة، وقال مجاهد: معناه: لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بهنَّ، يقول: ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهنَّ من اليهود والنصارى، يقول: لا تكون أُم المؤمنين يهودية ولا نصرانية، إلَّا ما ملكت يمينك، أحل له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرَّى بهنَّ.

وروي عن الضحاك: يعني: ولا أن تبدل بهنَّ ولا أن تبدل بأزواجك اللاتي هنَّ في حيالك أزواجًا غيرهنَّ بأن تطلقهنَّ فتنكح غيرهنَّ، فحرم عليه طلاق النساء اللواتي كن عنده إذ جعلهن أُمهات المؤمنين، وحرمهنَّ على غيره حين اخترنه، فأما نكاح غيرهنَّ فلم يمنع عنه.

---

(١) راجع «فتح الباري»: (٨/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير: (٩/ ٧٨ـ٧٩)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في النكاح، باب ما افترض الله عزَّ وجلَّ على رسوله عليه السلام وحرمه على خلقه: (٦/ ٥٦)، والدارمي في النكاح، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾: (٢/ ١٥٣)، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم٢١٢٦: ص٥٢٣، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٣٧) ووافقه الذهبي، والبيهقي: (٧/ ٥٤)، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٤١، ١٨٠)، وانظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥٢٦)، «التلخيص الحبير»: (٣/ ١٢٣).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم، يقول الرجل للرجل: بادلني بامرأتك، وأُبادلك بامرأتي، تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾(1)، يعني: لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجك وتأخذ زوجته،
٨٤/ب إلّا ما ملكت يمينك لا بأس أن تبدل بجاريتك / ما شئت، فأما الحرائر فلا.

وروي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: دخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ بغير إذن، وعنده عائشة، فقال له النبي ﷺ: «يا عيينة، فأين الاستئذان»؟ قال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت، ثم قال: مَن هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال: هذه عائشة أم المؤمنين، فقال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد حرَّم ذلك»، فلما خرج قالت عائشة: مَن هذا يا رسول الله؟ فقال: «هذا أحمقٌ مطاعٌ، وإنه على ما تَرَيْنَ لَسَيِّدُ قومِه»(2).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ يعني: ليس لك أن تطلق أحدًا من نسائك، وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها.

قال ابن عباس: يعني: أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنهي عن ذلك(3).

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ملك بعد هؤلاء مارية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ حافظًا.

وفي الآية دليل على جواز النظر إلى مَن يريد نكاحها من النساء، روي عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدُكم المرأةَ فإن استطاعَ أن ينظرَ إلى ما يدعوه إلى نكاحِها فلْيفعل»(4).

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أخبرنا أبو محمد محمد بن علي بن شريك الشافعي، أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم، أخبرنا أبو بكر الجوربذي قال: أخبرنا أحمد بن حرب، أخبرنا أبو معاوية، عن عاصم هو ابن سليمان، عن بكر بن عبد الله، عن المغيرة بن شعبة قال: خطبتُ امرأةً، فقال لي النبي ﷺ:

---

(1) ذكر هذه الأقوال الطبري: (٢٢/ ٢٩ - ٣٣) مع ترجيحات تراجع.

(2) أخرجه الدارقطني في النكاح: (٣/ ٢١٨ - ٢١٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٣٨) للبزار وابن مردويه، قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٢): (رواه البزار، وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (حديث أبي هريرة في نكاح البدل ضعيف جدًّا).

(3) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٢٤٤).

(4) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزوجها: (٣/ ٢٥ - ٢٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»: (٢/ ٨)، والبيهقي: (٧/ ٨٤)، والحاكم: (٢/ ١٦٥)، وقال: (صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، والإمام أحمد: (٣/ ٣٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ١٧)، وانظر: «نصب الراية»: (٤/ ٢٤١)، «التلخيص الحبير»: (٣/ ١٤٧)، «إرواء الغليل»: (٦/ ٢٠٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾

«هل نظرتَ إليها»؟ قلت: لا، قال: «فانظرْ إليها فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما»(١).

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا حامد بن محمد، أخبرنا بشر بن موسى، أخبرنا الحميدي، أخبرنا سفيان، أخبرنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة أن رجلًا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «انظرْ إليها فإن في أعينِ نساءِ الأنصار شيئًا»(٢) قال الحميدي: يعني: الصغر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ الآية، قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا يحيى بن بكير، أخبرنا الليث بن عقيل، عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين مَقدَم رسولِ الله ﷺ المدينة، قال: وكانت أم هانيء تواظبني على خدمة النبي ﷺ، فخدمته عشر سنين، وتوفي النبي ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل، فكان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبي ﷺ بها عروسًا فدعا القوم فأصابوا من

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة: (٤/ ٢٠٦)، وقال: (هذا حديث حسن)، والنسائي في النكاح، باب إباحة النظر قبل التزويج: (٦/ ٦٩ - ٧٠)، وابن ماجه في النكاح، باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها: (١/ ٦٠٠)، وصححه ابن حبان في «موارد الظمآن» برقم١٢٣٦: ص٣٠٣، والحاكم: (٢/ ١٦٥) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٤/ ٣٥٥)، والدارمي في النكاح، باب الرخصة في النظر للمرأة عند الخطبة: (٢/ ٥٩)، والبيهقي في «السنن»: (٧/ ٨٤ - ٨٥)، والإمام أحمد: (٤/ ٢٤٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ١٧)، وانظر: «تلخيص الحبير»: (٣/ ١٤٦ - ١٥٢)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم٩٦: (١/ ١٥٠ - ١٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريدها تزوجها برقم١٤٢٤: (٢/ ١٠٤٠).

الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجتُ معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت حتى جاء حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يخرجوا، فرجع النبي ﷺ ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة، وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر، وأنزل الحجاب[١].

وقال أبو عثمان ـ واسمه: الجعد ـ عن أنس قال: فدخل ـ يعني: رسول الله ﷺ ـ البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة، وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٢].

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يُدرَك ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم، فنزلت[٣]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يقول: إلا أن تُدعَوا ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فيؤذن لكم فتأكلونه ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ غير منتظرين إدراكه ووقت نضجه، يقال: أَنَى الحميم: إذا انتهى حره، وإنَى أن يفعل ذلك: إذا حان، إِنَى بكسر الهمزة مقصورة، فإذا فتحتَها مددتَ فقلتَ: الإناء، وفيه لغتان: إني يأنى، وآن يئين، مثل: حان يحين.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ أكلتم الطعام ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ تفرقوا واخرجوا من منزله ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولا طالبين الأنس للحديث، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون طويلًا، فنُهوا عن ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياءً.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: من وراء ستر، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الريب.

وقد صح في سبب نزول آية الحجاب ما أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا يحيى بن بكير، أخبرنا الليث، حدثني عقيل،

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب الوليمة حق: (٩/ ٢٣٠)، وفي الاستئذان، باب آية الحجاب: (١١/ ٢٢)، وفي مواضع أخرى.
(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الهدية للعرس: (٩/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٤١).

عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ كنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع، وهو صعيد أفيح، وكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة ـ حرصًا على أن ينزل الحجاب ـ، فأنزل الله تعالى آية الحجاب[(١)].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا عبد الرحيم بن منيب، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حميد، عن أنس قال: قال عمر: وافقني ربي في ثلاث، / قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: «واتخذوا من ١/٨٥
مقام إبراهيم مصلى»، وقلت: يا رسول الله، إنه يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني بعض ما آذى به رسولَ الله ﷺ نساؤه، قال: فدخلت عليهنَّ استقربهنَّ واحدة واحدة، قلت: والله لتنتهُنَّ أو ليبدلنَّه الله أزواجًا خيرًا منكنَّ، حتى أتيت على زينب فقالت: يا عمر، ما كان في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهنَّ أنت، قال: فخرجت فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ»[التحريم: ٥] إلى آخر الآية[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ نزلت في رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال: لئن قُبِضَ رسولُ الله لأنكحنَّ عائشة[(٣)].

قال مقاتل بن سليمان: هو طلحة بن عبيد الله، فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن ذلك محرَّم[(٤)]، وقال ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ أي: ذنبًا عظيمًا.

وروى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلق النبيُّ ﷺ تزوجت رجلًا وولدت له، وذلك قبل تحريم أزواج النبي ﷺ على الناس[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب خروج النساء إلى البراز: (١/ ٢٤٨)، وفي تفسير سورة الأحزاب وفي الاستئذان.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾: (٨/ ١٦٨)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عمر برقم ٢٣٩٩: (٤/ ١٨٦٥) مختصرًا، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٩٣ ـ ٩٤)، وللسيوطي رسالة في موافقات عمر منشورة في «الحاوي للفتاوى»: (١/ ٣٧٧) بعنوان: «قطف الثمر في موافقات عمر»، وانظر فيما سبق: (١/ ١٠٣)، تعليق (١، ٢).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤١٧ ـ ٤١٨ بدون إسناد، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٤٣) لابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي بلاغًا، وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٤٣).

(٥) أخرجه البيهقي في «السنن»: (٧/ ٧٣) عن يونس عن ابن شهاب بلاغًا، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٤٤) لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله ﷺ[(١)].

وقيل: قال رجل من الصحابة: ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا؟ فنزلت هذه الآية.

ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضًا نكلمهنَّ من وراء حجاب؟ فأنزل الله[(٢)]:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أي: لا إثم عليهن في ترك الاحتجاب من هؤلاء ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ قيل: أراد به النساءَ المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول عليهن، وقيل: هو عام في المسلمات والكتابيات، وإنما قال: «ولا نسائهنَّ» لأنهُنَّ من أجناسهنَّ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾.

واختلفوا في أن عبد المرأة هل يكون محرمًا لها أم لا؟

فقال قوم: يكون محرمًا لقوله عزَّ وجلَّ: «ولا ما ملكت أيمانهنَّ».

وقال قوم: هو كالأجانب، والمراد من الآية الإماء دون العبيد.

﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أن يراكن غير هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمال العباد ﴿شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال ابن عباس: أراد: إن الله يرحم النبي، والملائكة يدعون له، وعن ابن عباس أيضًا: «يصلون» يتبركون.

وقيل: الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ ادعوا له بالرحمة ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: حيّوه بتحية الإسلام.

وقال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ببغداد، أخبرنا أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب، أخبرنا موسى بن

(١) أخرجه ابن جرير: (٢٢/ ٤٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٤٤) للبيهقي وابن سعد.

(٢) انظر: الطبري: (٢٢/ ٤١_٤٢).

إسماعيل، أخبرنا أبو سلمة، أخبرنا عبد الواحد بن زياد، أخبرنا أبو فروة، حدثني عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (سمع عبد الرحمن بن أبي ليلى)(١) يقول: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ فقلت: بلى فاهدها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(٢).

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن عبد الله بن أبي بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن عمرو بن سليمان الزرقي أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما بارت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(٣).

أخبرنا أبو عمرو ومحمد بن عبد الرحمن النسوي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا محمد ابن يعقوب، أخبرنا العباس بن محمد الدوري، أخبرنا خالد بن مخالد القطواني، أخبرنا موسى بن يعقوب الزمعي، عن عبد الله بن كيسان، أخبرني عبد الله بن شداد، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرُهُم عليَّ صلاةً»(٤).

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ...﴾ الآية: (٨/ ٥٣٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب هل يصلي على غير النبي ﷺ: (١١/ ١٦٩)، ومسلم في الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد برقم٤٠٧: (١/ ٣٠٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩١).

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ: (٢/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم٢٣٨٩: ص٥٩٤، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٧)، وقال السخاوي في «القول البديع: ص١٩١ ـ ١٩٢: (وفي سنده موسى بن يعقوب الزمعي)، قال الدارقطني: إنه تفرد، قلت: وقد اختلف عليه فيه، فقيل: عن عبد الله بن شداد عن ابن مسعود بلا واسطة، هذه رواية الترمذي والبخاري في «تاريخه الكبير» وابن أبي عاصم، وكذا هي عند أبي الحسين النَّرسي في «مشيخته» من الطريق التي أخرجها الترمذي، وقيل: عن عبد الله بن شداد عن أبيه عن ابن مسعود، هكذا أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة، ومن طريقه رواه ابن حبان في «صحيحه» وأبو نعيم وابن بشكوال، وهكذا رواه ابن أبي عاصم أيضًا في «فضل الصلاة» له، وابن عدي في «كامله»، والدينوري في «مجالسه»، والدارقطني في «الأفراد»، والتيمي في «الترغيب»، وابن الجراح في «أماليه»، وأبو اليمن ابن عساكر من طريق أبي الطاهر اللعلي وغيرهم، وهذه الرواية أكثر وأشهر. والزَّمَعي: قال فيه النسائي: ليس بالقوي، لكن وثقه يحيى بن معين فحسبك به، وكذا وثقه أبو داود وابن حبان وابن عدي وجماعة، وأشار البخاري في «التاريخ» أيضًا أن الزَّمعي رواه عن ابن كيسان عن عتبة بن عبد الله عن ابن مسعود، والله أعلم.

أخبرنا أبو عبد الله بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله ابن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حُجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن صلى عليَّ واحدةً صلى الله عليه عشرًا»[1].

أخبرنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، (أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال)[2]، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه جاء ذات يوم والبشرى في وجهه، فقال: إنه جاءني جبريل فقال: (إن ربك يقول)[2]: أما يرضيك يا محمد أن لا يُصَلِّي عليك أحدٌ من أُمتك إلَّا صلَّيتُ عليه عشرًا (ولا يسلم عليك أحد من أُمتك إلَّا سلمت عليه عشرًا)[2]»[3].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن عاصم هو ابن عبيد الله قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّتْ عليه الملائكة ما صلى عليَّ فَلْيُقِلَّ العبدُ من ذلك أو ليكثر»[4].

حدثنا أبو القاسم يحيى بن علي الكشميهني، أخبرنا جناح بن يزيد المحاربي بالكوفة، أخبرنا أبو جعفر
٨٥/ب محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم، أخبرنا عبد الله بن موسى / وأبو نعيم، عن سفيان، عن عبيد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكةً سيَّاحين في الأرضِ يبلغوني عن أُمَّتي السلام»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد برقم٤٠٨: (١/ ٣٠٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٥).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه النسائي في السهو، باب الفضل في الصلاة على النبي ﷺ: (٣/ ٥٠)، والإمام أحمد: (٤/ ٢٩ـ ٣٠)، والحاكم: (٢/ ٤٢٠)، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم٢٣٩١: ص٥٩٤، وإسماعيل القاضي في الصلاة على النبي ﷺ برقم١، و٢، وهو حديث صحيح بطرقه، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٦)، وانظر: «جلاء الأفهام» لابن القيم: ص٦٣ـ ٩٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ برقم٩٠٧: (١/ ٢٩٤)، قال في «الزوائد»: (إسناده ضعيف؛ لأن عاصم بن عبيد الله قال فيه البخاري وغيره: منكر الحديث)، وأبو نعيم في «الحلية»: (١/ ١٨٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٨)، قال السخاوي في «القول البديع» ص١٦٩: (رواه سعيد بن منصور وأحمد وأبو بكر بن أبي شيبة والبزار وابن ماجه والطيالسي وأبو نعيم وابن أبي عاصم والتيمي والرشيد العطار، وفي سنده عاصم بن عبيد الله، وهو وإن كان واهي الحديث فقد مشَّاه بعضهم، وصحح له الترمذي، وحديثه هذا حسن في المتابعات، قاله المنذري وكذا حسَّن شيخنا هذا الحديث على أنه قد اختلف على عاصم فيه كما سلف في حديث عمر، ولكن قال رواه الطبراني من غير طريقه بسند لين، وبالله التوفيق).

(٥) أخرجه النسائي في السهو، باب السلام على النبي ﷺ: (٣/ ٤٣)، والدارمي: (٢/ ٢٢٥)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢١)، ووافقه الذهبي=

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى والمشركون، فأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، ويد الله مغلولة، وقالوا: إن الله فقير، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وأما المشركون فقالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «يقول الله سبحانه وتعالى: شتمني عبدي، يقول: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد»(١).

وروينا عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يؤذيني ابنُ آدم يسبُّ الدهرَ وأنا الدهرَ، بيدي الأمرُ أُقلِّبُ الليلَ والنهار»(٢).

وقيل: معنى «يؤذون الله» يلحدون في أسمائه وصفاته، وقال عكرمة: هم أصحاب التصاوير.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا محمد بن العلاء، أخبرنا ابن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة سمع أبا هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبّة أو شعيرة»(٣).

وقال بعضهم: «يؤذون الله»، أي: يؤذون أولياء الله، كقوله تعالى: «وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ»[يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

وروينا عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وقال: من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة»(٤).

= والإمام أحمد: (١/ ٣٨٧، ٤٤١)، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم٢٣٩٣: ص٥٩٥، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» برقم٢٢: ص١١، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٧)، قال ابن القيم في «جلاء الأفهام» ص٦٠: (وهذا إسناد صحيح).

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: (٨/ ٦٣٩) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، و. . . وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجاثية: (٨/ ٥٧٤)، ومسلم في الألفاظ، باب النهي عن سب الدهر برقم٢٢٤٦: (٤/ ١٧٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾: (١٣/ ٥٢٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان برقم٢١١١: (٣/ ١٦٧١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ١٢٩).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع: (١١/ ٣٤٠ـ٣٤١).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا
وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن
جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

ومعنى الأذى: هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم، والله عزَّ وجلَّ منزَّه عن أن يلحقه أذى من أحد، وإيذاء الرسول: قال ابن عباس: هو أنه شُجَّ في وجهه وكُسرت رباعيته، وقيل: شاعر، ساحر، معلم، مجنون.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم، وقال مجاهد: يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

وقال مقاتل: نزلت في علي بن أبي طالب، (وذلك أن ناسًا من المنافقين) كانوا يؤذونه ويشتمونه[(١)].

وقيل: نزلت في شأن عائشة[(٢)].

وقال الضحاك والكلبي: نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلَّا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة؛ لأن زي الكل كان واحدًا، يخرجن في درع وخمار، الحرةُ والأمة، فشكون ذلك إلى أزواجهنَّ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...» الآية[(٣)].

ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء، فقال جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ جمع الجلباب، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار. وقال ابن عباس وأبو عبيدة: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهنَّ ووجوههن بالجلابيب إلَّا عينًا واحدة ليعلم أنهنَّ حرائر.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهنَّ حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فلا يتعرض لهنَّ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة، وقال: يا لكاع أتتشبهين بالحرائر، ألقي القناع[(٤)].

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٢٠، وما بين القوسين استدركناه منه، وانظر: القرطبي: (١٤/ ٤٢٠).

(٢) راجع فيما سبق تفسير سورة النور، الآية: ١١، وما بعدها.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٢٠، وقال: (الدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية، وساق بإسناده عن هشيم عن حصين عن أبي مالك قال: كانت النساء المؤمنات يخرجن بالليل إلى حاجتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهنَّ ويؤذونهن، فنزلت هذه الآية، وانظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٥٩)، ابن كثير: (٣/ ٥١٩ـ ٥٢٠).

(٤) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٦٠).

﴿۞ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟
تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾
يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ
إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فجور، يعني: الزناة ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بالكذب، وذلك أن ناسًا منهم كانوا إذا خرجتْ سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس أنهم قتلوا وهزموا، ويقولون: قد أتاكم العدو، ونحوها[1].

وقال الكلبي: كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويفشون الأخبار.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنحرشنَّك بهم، ولنسلطنَّك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ لا يساكنونك في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ حتى يخرجوا منها، وقيل: لنسلطنَّك عليهم حتى تقتلهم وتخلي منهم المدينة.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مطرودين، نصب على الحال ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ أي: الحكم فيهم هذا على وجه الأمر به ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: كسنة الله ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ من المنافقين، والذين فعلوا مثل فعل هؤلاء ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيُّ شيء يعلمك أمر الساعة، ومتى يكون قيامها؟ أي: أنت لا تعرفه ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ ظهر لبطن حين يسحبون عليها ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ في الدنيا.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» بكسر التاء والألف قبلها على جمع الجمع، وقرأ الآخرون بفتح التاء بلا ألف قبلها ﴿وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٦٢)، الطبري: (٢٢/ ٤٨).

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ۝٦٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: ضعفي عذاب غيرهم ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ۝٦٨﴾ قرأ عاصم «كبيرًا» بالباء، قال الكلبي: أي: عذابًا كثيرًا، وقرأ الآخرون بالثاء لقوله تعالى: «أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ»[البقرة: ١٦١]، وهذا يشهد للكثرة، أي: مرة بعد مرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ فطهَّره الله مما قالوا: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾ كريمًا ذا جاهٍ، يقال: وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه، إذا كان ذا جاه وقدر. قال ابن عباس: كان حظيًا عند الله لا يسأل شيئًا إلّا أعطاه، وقال الحسن: كان مستجاب الدعوة، وقيل: كان محبَّبًا مقبولًا.

واختلفوا فيما أُوذي به موسى:

فأخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا رَوْح بن عبادة، أخبرنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء؛ استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلّا من عيب بجلده، إمَّا برص أو أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجرَ عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا»[1]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا». / ٨٦/أ

وقال قوم: إيذاؤهم إيَّاه أنه لما مات هارون في التيه ادعوا على موسى أنه قتله، فأمر الله الملائكة حتى مروا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله، فبرأه الله مما قالوا[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء: (٦/ ٤٣٦).

(٢) انظر: الطبري: (٢٢/ ٥٢)، «الدر المنثور»: (٦/ ٦٦٦)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٣٨): (وقد روى أحمد بن منيع في «مسنده»، والطبري وابن أبي حاتم بإسناد قوي عن ابن عباس عن علي قال: «صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون، فقال بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، كان ألين لنا منك وأشد حبًا فآذوه بذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمرت به على مجالس بني إسرائيل فعلموا بموته».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾

وقال أبو العالية: هو أن قارون استأجر مومسة؛ لتقذف موسى بنفسها على رأس الملإ، فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك، وأهلك قارون[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو الوليد، أخبرنا شعبة، عن الأعمش قال: سمعت أبا وائل قال: سمعت عبد الله قال: قَسَمَ النبي ﷺ قَسْمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ قال ابن عباس: صوابًا، وقال قتادة: عدلًا، وقال الحسن صدقًا، وقيل: مستقيمًا، وقال عكرمة هو: قول لا إله إلَّا الله.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم، وقال مقاتل: يزكِّ أعمالكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ أي: ظفر بالخير كله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ...﴾ الآية، أراد بالأمانة: الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده، عرضها على السموات والأرض والجبال على أنهم إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، وهذا قول ابن عباس.

وقال ابن مسعود: أداء الصلوات، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وصدق الحديث، وقضاء الدين، والعدل في المكيال والميزان، وأشد من هذا كله الودائع.

وقال مجاهد: الأمانة: الفراض، وحدود الدِّين.

وقال أبو العالية: ما أمروا به ونهوا عنه.

وقال زيد بن أسلم: هو الصوم، والغسل من الجنابة، وما يخفى من الشرائع.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعتكها، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واليد أمانة، والرِّجْل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٤٤١ ـ ٤٤٢)، «زاد المسير»: (٦/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب الصبر على الأذى: (١٠/ ٥١١)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام برقم ١٠٦٢: (٢/ ٧٣٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٣٩).

وقال بعضهم: هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنًا، ولا معاهدًا في شيء قليل ولا كثير، وهي رواية الضحاك عن ابن عباس، فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال، هذا قول ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن، فقلن: لا يا رب، نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابًا ولا عقابًا، وقلن ذلك خوفًا وخشية وتعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة، وكان العرض عليهنَّ تخييرًا لا إلزامًا، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلها خاضعة لله عزَّ وجلَّ مطيعة ساجدة له كما قال جلَّ ذكره للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١]، وقال للحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ. . .﴾ الآية[الحج: ١٨].

وقال بعض أهل العلم: المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهل السموات والأرض، وعرضها على مَن فيها من الملائكة. وقيل: على أهلها كلها دون أعيانها، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية. والأول: أصح، وهو قول العلماء.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهنَّ العقاب ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال الله لآدم: إني عرضت الأمانة على السمواتِ والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت، وإن أسأت عوقبت، فتحملها آدم، وقال: بين أذني وعاتقي، قال الله تعالى: أمَّا إذا تحملت فسأعينك، أجعل لبصرك حجابًا فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فارخ عليه حجابه، وأجعل للسانك لحيين غلقًا فإذا غشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباسًا فلا تكشفه على ما حرمت عليك.

قال مجاهد: فما كان بين أن تحمَّلها وبين أن خرج من الجنة إلَّا مقدار ما بين الظهر والعصر(١).

وحكى النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه قال: مُثِّلَتِ الأمانة كصخرة ملقاة، ودُعيت السمواتُ والأرض والجبال إليها فلم يقربوا منها، وقالوا: لا نطيق حملها، وجاء آدم من غير أن يُدعى، وحرَّك الصخرة، وقال: لو أُمرت بحملها لحملتُها، فقلن له: احملها، فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها، وقال: والله لو أردت أن أزداد لزدت، فقلن له: احملها، فحملها إلى حقوه، ثم وضعها، وقال: والله لو أردت أن
٨٦/ب أزداد لزدت، فقلن له: / احمل، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها فقال الله: مكانك، فإنها في عنقك وعنق ذريتك إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤).

﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ قال ابن عباس: ظلومًا لنفسه، جهولًا بأمر الله وما احتمل من الأمانة.

وقال الكلبي: ظلومًا حين عصى ربه، جُهولًا لا يدري ما العقاب في ترك الأمانة.

وقال مقاتل: ظلومًا لنفسه، جهولًا بعاقبة ما تحمَّل.

وذكر الزجاج وغيره من أهل المعاني في قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قولان، فقالوا: إن الله ائتمن آدم وأولاده على شيء، وائتمن السموات والأرض والجبال على شيء، فالأمانة في حق بني آدم ما ذكرنا في الطاعة والقيام بالفرائض، والأمانة في حق السموات والأرض والجبال هي الخضوع والطاعة لما خلقهن له، وقيل: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أدّينَ الأمانة، يقال: فلان لم يتحمل الأمانة، أي: لم يخن فيها، وحملها الإنسان، أي: خان فيها، يقال: فلان حمل الأمانة، أي: أثِمَ فيها بالخيانة، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾[العنكبوت: ١٣]، إنه كان ظلومًا جهولًا.

حكي عن الحسن على هذا التأويل: إنه قال: وحملها الإنسان، يعني: الكافر والمنافق، حملَا الأمانة، أي: خانا.

وقول السلف ما ذكرنا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ قال مقاتل: ليعذبهم بما خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ يهديهم ويرحمهم بما أدَّوْا من الأمانة.

وقال ابن قتيبة: أي: عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه، أي: يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات.

* * *

سورة سَبَأ

مكية(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وخلقًا ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ لأن النعم في الدارين كلها منه. وقيل: الحمد لله في الآخرة هو حمد أهل الجنة، كما قال الله تعالى: «وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ» [فاطر: ٣٤]، و«ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ» [الزمر: ٧٤] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يدخل فيها من الماء والأموات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأموات إذا حشروا ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ قرأ أهل المدينة والشام «عالمُ» بالرفع على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالجر على نعت الرب، أي: وربي عالم الغيب، وقرأ حمزة والكسائي «علّام» على وزن فعال، وجر الميم ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب(٢) ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرّة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذرّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة سبأ بمكة. وأخرج ابن المنذر عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة سبأ مكية. انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٦٧٣).

(٢) زيادة من «ب».

لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: الذين آمنوا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ حسن، يعني: في الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ يحسبون أنهم يفوتوننا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب «أليمٌ» بالرفع هاهنا وفي الجاثية على نعت العذاب، (وقرأ الآخرون بالخفض على نعت الرجز، وقال قتادة: الرجز سوء العذاب)[(١)].

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ﴾ (أي: ويرى الذين)[(١)] ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: أنه من عند الله ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ وهو الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منكرين للبعث، متعجبين منه: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم، يعنون: محمدًا ﷺ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ قُطّعتم كل تقطيع، وفُرّقتم كل تفريق، وصرتم ترابًا ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ يقول لكم: إنكم لفي خلق جديد.

﴿أَفْتَرَىٰ﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ولذلك نصبت ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقولون: أزعم كذبًا أم به جنون؟

قال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ من الحق في الدنيا.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)﴾

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها، وأنا القادر عليهم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ قرأ الكسائي «نخسف بهم» بإدغام الفاء في الباء ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قرأ حمزة والكسائي «إن يشأ يخسف» «أو يسقط» بالياء فيهنَّ لذكر الله من قبل، وقرأ الآخرون بالنون فيهنَّ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ترون من السماء والأرض ﴿لَآيَةً﴾ تدل على قدرتنا على البعث ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾ تائب راجع إلى الله بقلبه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ يعني: النبوة والكتاب، وقيل: الملك، وقيل: جميع ما أُوتي من حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خُصَّ به ﴿يَا جِبَالُ﴾ أي: وقلنا: يا جبال ﴿أَوِّبِي﴾ أي: سبحي ﴿مَعَهُ﴾ إذا سبح، وقيل: هو تفعيل من الإياب وهو الرجوع، أي: رجِّعي معه، وقال القتيبي: أصله من التأويب في السير، وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلًا، كأنه قال أوبي النهار كله بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحي معه.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على موضع الجبال؛ لأن كلَّ منادًى في موضع النصب، وقيل: معناه: وسخرنا وأمرنا الطير أن تسبح معه، وقرأ يعقوب «والطيرُ» بالرفع ردًّا على الجبال، أي: أوِّبي أنت والطيرُ، وكان داود إذا نادى بالناحية أجابته الجبال بصداها وعكف الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم من ذلك.

وقيل: كان داود إذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح.

وقيل: كان داود عليه السلام إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطًا له(١).

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)﴾ حتى / كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة. ٨٧/أ

وكان سبب ذلك على ما رُوي من الأخبار: أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكرًا، فإذا رأى رجلًا لا يعرفه تقدم إليه وسأله عن داود ويقول له: ما تقول في داود واليكم هذا، أي رجل هو؟ فيثنون عليه، ويقولون خيرًا، فقيض الله له مَلَكًا في صورة آدمي، فلما رآه داود تقدم

---

(١) انظر: القرطبي: (١٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

إليه على عادته فسأله، فقال المَلَكُ: نِعم الرجل هو لولا خصلة فيه، فراع داود ذلك، وقال: ما هي يا عبد الله؟ قال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال، قال: فتنبه لذلك وسأل الله أن يسبب له سببًا يستغني به عن بيت المال، فيتقوَّت منه ويطعم عياله، فألان الله تعالى له الحديد وعلمه صنعة الدرع، وإنه أول من اتخذها[1].

ويقال: إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم، فيأكل ويطعم منها عياله، ويتصدق منها على الفقراء والمساكين.

ويقال: إنه كان يعمل كل يوم درعًا يبيعها بستة آلاف درهم، فينفق ألفين منها على نفسه وعياله، ويتصدق بأربعة آلاف على فقراء بني إسرائيل[2]، قال رسول الله ﷺ: «كان داود عليه السلام لا يأكل إلّا من عمل يده»[3].

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ دروعًا كوامل واسعات طوالًا تسحب في الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ والسرد: نسج الدروع، يقال لصانعه: السراد والزراد، يقول: قدر المسامير في حلق الدرع، أي: لا تجعل المسامير دقاقًا فتفلت، ولا غلاظًا فتكسر الحلق، ويقال: «السرد»: المسمار في الحلقة، يقال: درع مسرودة، أي: مسمورة الحلق، «وقدر في السرد»: اجعله على القصدِ وقدرِ الحاجة ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ يريد: داودَ وآله ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح، وقرأ أبو بكر عن عاصم «الريحُ» بالرفع، أي: له تسخير الريح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: سير غُدوّ تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر، وسير رواحها مسيرة شهر، وكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين.

قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر، ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وقيل: إنه كان يتغذى بالري ويتعشى بسمرقند[4].

---

(١) ذكره ابن كثير: (٣/ ٥٢٨).

(٢) أخرجه ابن كثير: (٣/ ٥٢٨)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٧٦) وهو ضعيف.

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري في البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده: (٤/ ٣٠٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٨/ ٦).

(٤) انظر فيما سبق: تفسير سورة الأنبياء.

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾

﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ أي: أذبْنا له عين النحاس، و«القِطْرُ»: النحاس.

قال أهل التفسير: أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء، وكان بأرض اليمن، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان[1].

﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ بأمر ربه، قال ابن عباس: سخر الله الجنَّ لسليمان، وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به ﴿وَمَن يَزِغۡ﴾ أي: يعدل ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من الجن ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي أمرنا به من طاعة سليمان ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ في الآخرة، وقال بعضهم: في الدنيا، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ وكَّل بهم ملكًا بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته.

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: مساجد، والأبنية المرتفعة، وكان مما عملوا له بيت المقدس، ابتدأه داود ورفعه قدر قامة رجل، فأوحى الله إليه: إني لم أقض ذلك على يدك، ولكن ابنٌ لك أُملِّكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده، فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بناء بيت المقدس، فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال فخصَّ كل طائفة منهم بعمل يستخلصها له، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الأبيض من معادنه، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح، وجعلها اثني عشر ربضًا، وأنزل كل ربض منها سبطًا من الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطًا، فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه[2] الشياطين فرقًا فرقًا يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر، وفرقًا يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها، وفرقًا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها، فأتى من ذلك بشيء لا يحصيه إلَّا الله عزَّ وجلَّ، ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحًا وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلىء، فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمده بأساطين المها الصافي وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروز، فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله عزَّ وجلَّ، وأن كل شيء فيه خالص لله، واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيدًا.

---

(١) هذا القول ملفق من روايتين، ذكرهما ابن كثير: (٣/ ٥٢٩)، والسيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٧٨).

(٢) في «ب»: (مفرّق).

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثًا فأعطاه اثنين، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة، سأل حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه إيَّاه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأعطاه إيَّاه، وسأله أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلَّا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»[1].

قالوا: فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد، وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر، فحمله إلى دار مملكته من أرض العراق، وبنى الشياطين لسليمان باليمن حصونًا كثيرة عجيبة[2] من الصخر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: كانوا يعملون له تماثيل، أي: صورًا من نحاس وصُفْر وشبة وزجاج ورخام، وقيل: كانوا يصورون السباع والطيور، وقيل: كانوا يتخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة، ولعلها كانت مباحة في شريعتهم، كما أن عيسى كان يتخذ صورًا من الطين فينفخ فيها فتكون طيرًا (بإذن الله)[3].

٨٧/ب ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي: قصاع، واحدتها: جفنة / ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحياض التي يجبى فيها الماء، أي: يجمع، واحدتها: جابية، يقال: كان يعقد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات، لها قوائم لا يحركن عن أماكنها لعظمهنَّ، ولا ينزلن ولا يعطَّلن، وكان يصعد عليها بالسلالم، وكانت باليمن.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا: اعملوا آل داود شكرًا، مجازه: اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرًا له على نعمه.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ أي: العامل بطاعتي شكرًا لنعمتي.

قيل: المراد من «آل داود» هو داود نفسه، وقيل: داود وسليمان وأهل بيته.

وقال جعفر بن سليمان: سمعت ثابتًا يقول: كان داود نبي الله عليه السلام قد جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلَّا وإنسان من آل داود قائم يصلي[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس: (١/ ٤٥٢)، قال: (وأن لا يأتي هذا المسجد) في «الزوائد»: اقتصر أبو داود على طرفه الأول من هذا الوجه دون هذه الزيادة، ورواه النسائي في «الصغرى» من هذا الوجه عن عمرو بن منصور عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن بريد عن أبي إدريس الخولاني عن ابن الديلمي به، وإسناد طريق ابن ماجه ضعيف؛ لأن عبيد الله بن الجهم لا يعرف حاله، وأيوب بن سويد متفق على ضعفه.

(٢) زيادة من «ب».

(٣) زيادة ليست في «الأصل».

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٨٠) لابن أبي شيبة وأحمد في «الزهد» وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ثابت البناني.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان.

قال أهل العلم: كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي مات فيها، وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يومًا إلَّا نبتت في محراب بيت المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع، فإن كانت نبتت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كتب، حتى نبتت الخروبة، فقال لها: ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: لأي شيء نَبَتِّ؟ قالت: لخراب مسجدك، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس! وغرسها في حائط له، ثم قال: اللهم عمِّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ويعلمون ما في غد، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئًا على عصاه فمات قائمًا وكان للمحراب كُوَى بين يديه وخلفه، فكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياته، وينظرون إليه يحسبون أنه حي، ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولًا كاملًا حتى أكلت الأَرَضَةُ عصا سليمان، فخرَّ ميتًا فعلموا بموته[١].

قال ابن عباس: فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب[٢]، فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأَرَضَة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ يعني: عصاه، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو «منساته» بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز، وهما لغتان، ويسكن ابن عامر الهمز، وأصلها من: نسأت الغنم، أي: زجرتها وسقتها، ومنه نسأ الله في أجله، أي: أخَّره.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: علمت الجنُّ وأيقنت ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أي: في التعب والشقاء مسخَّرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيًا، أراد الله بذلك أن يُعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، لغلبة الجهل،

(١) أخرجه الطبري: (٢٢/ ٧٥)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٨٢ ـ ٦٨٣) لابن أبي حاتم، قال ابن كثير (٣/ ٥٣٠): (وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفًا، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات، وفي بعض حديثه نكارة).

(٢) ذكره ابن كثير: (٣/ ٥٣١)، وقال: (وهذا الأثر والله أعلم إنما هو مما تلقي من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدق منه إلَّا ما وافق الحق ولا يكذب منها إلَّا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾

وذكر الأزهري: أن معنى «تبينت الجن»، أي: ظهرت وانكشفت الجن للإنسان، أي: ظهر أمرهم أنهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم كانوا قد شبهوا على الإنس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين»، أي: علمت الإنس وأيقنت ذلك.

وقرأ يعقوب: «تُبيِّنت» بضم التاء وكسر الياء، (أي: أُعلمت الإنس الجن، ذكر بلفظ ما لم يسم فاعله، و«تبيَّن» لازم ومتعد)[1].

وذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثًا وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك الغُطيفي، قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ، كان رجلًا أو امرأة أو أرضًا؟ قال: «كان رجلًا من العرب له عشرة من الولد، تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فكندة، والأشعريون، وأزد، ومذحج، وأنمار، وحمير»، فقال رجل: وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا: فعاملة وجذام، ولخم، وغسان، وسبأ هو: ابن يشجب بن يعرب بن قحطان»[2].

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ قرأ حمزة وحفص «مسكنهم» بفتح الكاف على الواحد، وقرأ الكسائي بكسر الكاف، وقرأ الآخرون: «مساكنهم» على الجمع، وكانت مساكنهم بمأرب من اليمن ﴿ءَايَةٌ﴾ دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ثم فسر الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: هي جنتان بستانان ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: عن يمين الوادي وشماله، وقيل: عن يمين من أتاهم وشماله، وكان لهم وادٍ، قيل: أحاطت الجنتان بذلك الوادي ﴿كُلُوا﴾ أي: وقيل لهم: كلوا ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني: من ثمار الجنتين، قال السديُّ ومقاتل: كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلىء مكتلها من أنواع الفواكه من غير أن تمس شيئًا بيدها[3] ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: على ما رزقكم من النعمة، والمعنى: اعملوا بطاعته ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: أرض سبأ بلدة طيبة

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه أبو داود في الحروف: (٦/ ٨) مختصرًا، والترمذي في التفسير: (٩/ ٨٨ ـ ٨٩)، وقال: (هذا حديث غريب حسن)، والحاكم: (٢/ ٤٢٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٨٦ ـ ٦٨٧) أيضًا لعبد بن حميد والبخاري في «التاريخ» وابن المنذر وابن مردويه. وانظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٩٤).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٢/ ٧٧)، لكن عن قتادة، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٨٧) لعبد بن حميد عن قتادة أيضًا.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

ليست بسبخة، قال ابن زيد: لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وكان الرجل يمرُّ ببلدهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل كله من طيب الهواء[1]، فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: طيبة الهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ قال مقاتل: وربُّكم إنْ شكرتموه فيما رزقكم ربٌّ غفور للذنوب.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ قال وهب: فأرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيًّا، فدعوهم إلى الله وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله عزَّ وجلَّ علينا نعمة، فقولوا لربِّكم: فليحبس هذه النعم عنَّا إن استطاع[2]، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ / و«العرم»: جمع عرمة، وهي 88/أ
السُّكر الذي يحبس به الماء.

وقال ابن الأعرابي: «العرم» السيل الذي لا يطاق، وقيل: كان ماء أحمر، أرسله الله عليهم من حيث شاء، وقيل: «العرم» الوادي، وأصله من العرامة، وهي الشدة والقوة.

وقال ابن عباس ووهب وغيرهما: كان ذلك السدّ بنته بلقيس، وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم، فأمرت بواديهم فسدّ بالعرم، وهو المُسنَّاة بلغة حمير، فسدت بين الجبلين بالصخر والقار، وجعلت له أبوابًا ثلاثة بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجًا على عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا سدوها، فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السدِّ، فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث الأسفل فلا ينفذ الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا؛ سلط الله عليهم جرذًا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فغرَّق الماء جناتهم وخرب أرضهم[3].

قال وهب: وكان مما يزعمون ويجدون في علمهم وكهانتهم أن يخرب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلَّا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمانه، وما أراد الله عزَّ وجلَّ بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٢/ ٧٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٦٨٧) لابن أبي حاتم.
(٢) ذكره الطبري: (٢٢/ ٧٨).
(٣) ذكره الطبري: (٢٢/ ٧٩).

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

عندها فتغلغلت في السد فنقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل، وهم لا يدرون بذلك، فلما جاء السيل وجد خللًا فدخل فيه حتى قطع السد، وفاض على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم الرمل، ففرقوا وتمزقوا حتى صاروا مثلًا عند العرب، يقولون: صار بنو فلان أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي: تفرقوا وتبددوا، فذلك قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ»[1].

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قرأ العامة بالتنوين، وقرأ أهل البصرة «أكلِ خمطٍ» بالإضافة، الأُكُلُ: الثمر، والخمط: الأراك، وثمره يقال له: البرير، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال المبرد والزجاج: كل نبت قد أخذ طعمًا من المرارة حتى لا يمكن أكله فهو خمط[2].

وقال ابن الأعرابي: الخمط: ثمر شجرة يقال له: فسوة الضبع، على صورة الخشخاش يَتَفَرَّكُ ولا يُنتفعُ به، فمن جعل الخمط اسمًا للمأكول فالتنوين في «أُكُلٍ» حسن، ومن جعله أصلًا وجعل الأُكل ثمرة فالإضافة فيه ظاهرة، والتنوين سائغ، تقول العرب: في بستان فلان أعناب كرم، يترجم الأعناب بالكرم؛ لأنها منه.

﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ فالأثل هو: الطرفاء، وقيل: هو شجر يشبه الطرفاء، إلَّا أنه أعظم منه، والسِّدر: شجر معروف، وهو شجر النبق ينتفع بورقه؛ لغسل الرأس، ويغرس في البساتين، ولم يكن هذا من ذلك، بل كان سدرًا بريًّا لا ينتفع به، ولا يصلح ورقه لشيء.

قال قتادة: كان شجر القوم من خير الشجر، فصيرّه الله من شر الشجر بأعمالهم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: ذلك الذي فعلنا بهم جزيناهم بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب «وهل نجازي» بالنون وكسر الزاي، «إلَّا الكفورَ» نصب لقوله: «ذلك جزيناهم»، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الزاي، «الكفورُ» رفع، أي: وهل يجازى مثل هذا الجزاء إلَّا الكفور.

وقال مجاهد: يجازي، أي: يعاقب، ويقال في العقوبة: يجازي، وفي المثوبة يجزي.

قال مقاتل: هل يكافأ بعمله السيء إلَّا الكفور لله في نعمه.

قال الفراء: المؤمن يُجزى ولا يجازى، أي: يجزى للثواب بعمله ولا يكافأ بسيئاته.

---

(١) أخرج الطبري جزءًا منه: (٢٢/ ٧٩).

(٢) انظر: «لسان العرب»، مادة: (خمط): (٧/ ٢٩٦).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝١٨ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر، هي قرى الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها، وكان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى، وكانوا لا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام.

وقيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: قدرنا سيرهم بين هذه القرى، وكان مسيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم، (فإذا ساروا نصف يوم)[1] وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار.

وقال قتادة: كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها، وعلى رأسها مكتلها، فتمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلىء مكتلها من الثمار، وكان ما بين اليمن والشام كذلك[2].

﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، وقيل: هو أمر بمعنى الخبر، أي: مكناهم من السير، فكانوا يسيرون فيها ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: بالليالي والأيام، أيّ وقت شئتم ﴿آمِنِينَ ۝١٨﴾ لا تخافون عدوًا ولا جوعًا ولا عطشًا، فبطروا وطغوا ولم يصبروا على العافية، وقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز؛ لنركب فيها الرواحل ونتزوَّد الأزواد، فعجل الله لهم الإجابة، وقال مجاهد: بطروا النعمة وسئموا الراحة.

﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالبطر والطغيان ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، قال الشعبي: لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة، ومرَّ آل خزيمة إلى العراق، والأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر، وهو جدُّ الأوس والخزرج.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لعبرًا ودلالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن معاصي الله ﴿شَكُورٍ ۝١٩﴾ لأنعمه، قال مقاتل: يعني: / المؤمن من هذه الأمة صبورٌ على البلاء شاكرٌ للنعماء، قال مطرف: هو المؤمن إذا أُعطِيَ ٨٨/ب شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر.

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».
(٢) انظر فيما سبق: قوله تعالى: ﴿كلوا من رزق ربكم﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ قرأ أهل الكوفة: «صدَّق» بالتشديد، أي: ظن فيهم ظنًّا حيث قال: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»[ص: ٨٢]، «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ»[الأعراف: ١٧]، فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: صدق عليهم في ظنه بهم، أي: على أهل سبأ، وقال مجاهد: على الناس كلهم إلَّا من أطاع الله ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قال السدي عن ابن عباس: يعني: المؤمنين كلهم؛ لأن المؤمنين لم يتبعوه في أصل الدين، وقد قال الله تعالى: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ»[الحجر: ٤٢]، يعني: المؤمنين، وقيل: هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه.

قال ابن قتيبة: إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره الله، قال: لأغوينَّهم ولأضلنَّهم، لم يكن مستيقنًا وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم، وإنما قاله ظنًّا، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم.

قال الحسن: إنه لم يسلَّ عليهم سيفًا ولا ضربهم بسوط، وإنما وعدهم ومنَّاهم فاغتروا[١].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان تسليطنا إياه عليهم ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: إلَّا لنعلم: لنرى ونميز المؤمن من الكافر، وأراد علم الوقوع والظهور، وقد كان معلومًا عنده بالغيب ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ رقيب.

﴿قُلِ﴾ يا محمد، لكفار مكة ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية حذف، أي: ادعوهم؛ ليكشفوا الضرَّ الذي نزل بكم في سني الجوع، ثم وصفها فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خيرٍ وشرٍّ ونفعٍ وضرٍّ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: للآلهة ﴿فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ شركة ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: وما لله ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ عون.

---

(١) انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٣٦)، «الدر المنثور»: (٦/ ٦٩٥ _ ٦٩٦).

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الله في الشفاعة، قاله تكذيبًا لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويجوز أن يكون المعنى: إلّا لمن أذن الله في أن يشفع له، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «أُذن» بضم الهمزة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء والزاي، وقرأ الآخرون بضم الفاء وكسر الزاي، أي: كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم، فالتفزيع: إزالة الفزع، كالتمريض والتفريد.

واختلفوا في الموصوفين بهذه الصفة، فقال قوم: هم الملائكة، ثم اختلفوا في ذلك السبب فقال بعضهم: إنما يفزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عزَّ وجلَّ، وروينا عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾»[(١)].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي قال: أنبأني محمد بن الفضل بن محمد، أخبرنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، أخبرنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري، أخبرنا نعيم بن حماد، أخبرنا أبو الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة، أو قال: رعدة شديدة خوفًا من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صُعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله»[(٢)].

وقال بعضهم: إنما يفزعون حذرًا من قيام الساعة.

قال مقاتل والكلبي والسدي: كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمسمائة وخمسين سنة، وقيل: ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحيًا، فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالرسالة فلما سمعت الملائكة ظنُّوا أنها

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الحجر: (٨/ ٣٨٠).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٢/ ٩١)، وابن خزيمة في «التوحيد وإثبات الصفات»: ص٩٥ الطبعة المنيرية، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: (١/ ٣٢٦)، وابن أبي عاصم في «السنة»: (١/ ٢٢٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥): (رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح، وقد وُثق، وتكلم فيه من لم يسم بغير قادح معين، وبقية رجاله ثقات)، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة»: (١/ ٢٢٧).

﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

الساعة؛ لأن محمدًا ﷺ عند أهل السموات من أشراط الساعة، فصعقوا مما سمعوا خوفًا من قيام الساعة، فلما انحدر جبريل جعل يمرّ بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الحق[1]، يعني: الوحي، وهو العلي الكبير.

وقال جماعة: الموصوفون بذلك المشركون.

قال الحسن وابن زيد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار[2].

قوله تعالى: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالرزق من السموات: المطر، ومن الأرض: النبات ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: إن لم يقولوا: رازقنا الله، فقل أنت: إن رازقكم هو الله ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ ليس هذا على طريق الشك، ولكن على جهة الإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل للآخر: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب.

والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال، فالنبي ﷺ ومن اتبعه على الهدى، ومن خالفه في ضلال، فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب.

وقال بعضهم: «أو» بمعنى الواو، والألف فيه صلة، كأنه قال: وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، يعني: نحن على الهدى وأنتم في الضلال.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أعلموني الذين ألحقتموهم به، أي: بالله، شركاء في العبادة معه، هل يخلقون وهل يرزقون ﴿كَلَّا﴾ لا يخلقون ولا يرزقون ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ في تدبيره لخلقه، فأنّى يكون له شريك في ملكه.

---

(١) انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٣٨)، «زاد المسير»: (٦/ ٤٥٣).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٤٥٣).

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ
عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ
كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: للناس عامة: أحمرهم وأسودهم ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشرًا ومنذرًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وروينا عن جابر أن النبي ﷺ
قال: «كان النبي يبعث إلى قومه / خاصَّة، وبُعثت إلى الناس عامة»[1]. 1/89

وقيل: كافة، أي: كافًّا يكفهم عمَّا هم عليه من الكفر، والهاء للمبالغة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ يعني: القيامة.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: لا تتقدمون عليه، يعني: يوم القيامة، وقال الضحاك: يوم الموت لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون، بأن يزاد في أجلكم أو ينقص منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يرد بعضُهم إلى بعضٍ القول في الجدال ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ استحقروا: وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم القادة والأشراف ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أجابهم المتبوعون في الكفر ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ بترك الإيمان.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري في التيمم: (١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦)، وفي المساجد، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة برقم ٥٢١: (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٩٦).

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكركم بِنَا في الليل والنهار، والعرب تضيف الفعل إلى الليل والنهار على توسع الكلام، كما قال الشاعر:

وَنِمْتُ ومَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ(١)

وقيل: مكر الليل والنهار: هو طول السلامة وطول الأمل فيهما، كقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ﴾ اظهروا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ وقيل: أخفوا، وهو من الأضداد ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ في النار، الأتباع والمتبوعين جميعًا ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ من الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ رؤساؤها وأغنياؤها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ يعني: قال المترفون للفقراء الذين آمنوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ ولو لم يكن الله راضيًا بما نحن عليه من الدين والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: إن الله أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ يعني: أن الله يبسط الرزق ويقدر ابتلاءً وامتحانًا، لا يدل البسط على رضا الله عنه ولا التضييق على سخطه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أنها كذلك.

---

(١) هذا عجز بيت لجرير بن عطية الخطفي، الشاعر الإسلامي، وصدره: لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت . . .

وهو من شواهد الطبري أيضًا: (٢٢/ ٩٨)، استشهد به على أنك تقول: يا فلان نهارك صائم، وليلك قائم، فتسند الصيام والقيام إلى الليل والنهار، إسنادًا مجازيًا عقليًا، والأصل فيه أن يسند الصيام والقيام للرجل لا للزمان، ذلك من باب التوسع المجازي، فالعلاقة هنا الزمانية . . . (من تعليق المحقق على الطبري).

قال الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٣): (المكر ليس لليل ولا للنهار، إنما المعنى: بل مكركم بالليل والنهار، وقد يجوز أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارك صائم وليلك قائم، ثم تضيف الفعل إلى الليل والنهار، وهو في المعنى للآدميين، كما تقول العرب: نام ليلك، وعزم الأمر، إنما عَزَمَهُ القوم، فهذا مما يعرف معناه، فتتسع به العرب).

وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ
وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: قربى، قال الأخفش: «قربى» اسم مصدر، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا تقريبًا ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾ يعني: لكن من آمن ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ قال ابن عباس: يريد: إيمانه وعمله يقربه مني ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشرًا إلى سبعمائة، قرأ يعقوب «جزاءً» منصوبًا منونًا، «الضعفُ» رفع، تقديره: فأولئك لهم الضعف جزاء، وقرأ العامة بالإضافة ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ قرأ حمزة «في الغُرفة» على واحدة، وقرأ الآخرون بالجمع لقوله: «لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا»[العنكبوت: ٥٨].

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ﴾ يعملون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطال حجتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ معاندين، يحسبون أنهم يُعجزوننا ويفوتوننا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ أي: يعطي خَلَفَه، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه، وقال الكلبي: ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم في الخير من نفقة فهو يخلفه على المنفق، إمّا أن يعجله في الدنيا، وإمّا أن يدخره له في الآخرة.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ خير من يعطي ويرزق.

وروينا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أنفِقْ أُنفِقْ عليك»(١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا إسماعيل، حدثنا أبي عن سليمان هو ابن بلال، عن معاوية بن أبي مزرد، عن أبي الحبحاب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾: (١٣/ ٤٦٤)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف برقم ٩٩٣: (٢/ ٦٩٠ ـ ٦٩١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾: (٣/ ٣٠٤)، ومسلم في الزكاة، باب في المنفق والممسك برقم ١٠١٠: (٢/ ٧٠٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا ابن أبي أويس، أخبرنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلّا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله»[١].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أبو الربيع، أخبرنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي، أخبرنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وقى الرجل به عرضه كتب له بها صدقة»، قلت: ما يعني: وقى الرجل عرضه؟ قال: «ما أعطى الشاعر وذا اللسان، وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خَلَفُها ضامنًا إلّا ما كان من نفقة في بنيان أو في معصية الله عزَّ وجلَّ»[٢].

قوله: «قلت: ما يعني»: يقول عبد الحميد لمحمد بن المنكدر.

قال مجاهد: إذا كان في يَدِ أحدكم شيء فليقتصد، ولا يتأول هذه الآية: «وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ»، فإن الرزق مقسوم[٣] لعلَّ رزقه قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه، ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ يعقوب وحفص «يحشرهم»، وقرأ الآخرون بالنون ﴿جَمِيعًا﴾ يعني: هؤلاء الكفار ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ في الدنيا، قال قتادة: هذا استفهام تقرير، كقوله تعالى لعيسى: «ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ»[المائدة: ١١٦]، فتتبرأ منهم الملائكة.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعني: الشياطين، فإن قيل لهم: كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله: «يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ»، قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع برقم٢٥٨٨: (٤/ ٢٠٠١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ١٣٣).

(٢) أخرجه الدارقطني: (٣/ ٢٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» برقم١٠٨٣: ص٣٢٧، وصححه الحاكم: (٢/ ٥٠) فتعقبه الذهبي بقوله: (عبد الحميد بن الحسن الهلالي ضعفه الجمهور)، وابن عدي في «الكامل»: (٣/ ١٢٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ١٤٦)، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم٨٩٨: (٢/ ٣٠١)، وقال: (لكن الجملتان الأوليان من الحديث صحيحتان؛ لأن لهما شواهد كثيرة في الصحيحة وغيرها).

(٣) ذكره ابن كثير: (٣/ ٥٤٣).

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾

٨٩/ب أراد الشياطين / زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة، فقوله: «يَعۡبُدُونَ»، أي: يطيعون الجن ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ يعني: مصدقون للشياطين.

ثم يقول الله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ بالشفاعة ﴿وَلَا ضَرّٗا﴾ بالعذاب، يريد: أنهم عاجزون، لا نفع عندهم ولا ضر ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾ يعنون: القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾ أي: بيِّن.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ يعني: هؤلاء المشركين ﴿مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا﴾ يقرؤونها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ أي: لم يأت العرب قبلك نبي، ولا نزل عليهم كتاب.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم رسلنا، وهم: عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ يعني: هؤلاء المشركين ﴿مِعۡشَارَ﴾ أي: عُشر ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ أي: إنكاري وتغييري عليهم، يُحذِّر كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية.

﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ آمركم وأُوصيكم ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: بخصلة واحدة، ثم بيَّن تلك الخصلة فقال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ لأجل الله ﴿مَثۡنَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: واحدًا واحدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ جميعًا، أي: تجتمعون فتنظرون وتتحاورون وتنفردون، فتفكرون في حال محمد ﷺ، فتعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون، وليس المراد من القيامِ القيامَ الذي هو ضد الجلوس، وإنما هو قيام بالأمر الذي هو في

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

طلب الحق، كقوله: «وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ»[النساء: ١٢٧] ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ قال مقاتل: تم الكلام عند قوله: «ثم تتفكروا»، أي: في خلق السموات والأرض فتعلموا أن خالقها واحد لا شريك له، ثم ابتدأ فقال: «ما بصاحبكم من جنة».

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرٍ﴾ جُعْل ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يقول: قل: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا فتتهموني، ومعنى قوله: «فهو لكم»، أي: لم أسألكم شيئًا، كقول القائل: ما لي من هذا فقد وهبته لك، يريد: ليس لي فيه شيء ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ والقذف: الرمي بالسهم والحصى والكلام، ومعناه: يأتي بالحق وبالوحي ينزله من السماء فيقذفه إلى الأنبياء ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ رفع بخبر «أن»، أي: وهو علام الغيوب.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن والإسلام ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ذهب الباطل وزهق، فلم يبق منه بقية يبدىء شيئًا أو يعيد، كما قال تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ»[الأنبياء: ١٨]، وقال قتادة: «الباطل» هو إبليس، وهو قول مقاتل والكلبي، وقيل: «الباطل»: الأصنام.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أي: إثم ضلالتي على نفسي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ مِنَ القرآن والحكمة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ قال قتادة: عند البعث حين يخرجون من قبورهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا يفوتونني، كما قال: «وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ»[ص: ٣]، وقيل: إذ فزعوا فلا فوت ولا نجاة ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ (قال الكلبي: من تحت أقدامهم، وقيل: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها، وحيثما كانوا فهم من الله قريب)[١]، لا يفوتونه، وقيل: من مكان قريب، يعني: عذاب الدنيا، وقال الضحاك: يوم بدر، وقال ابن أبزي: خسف[٢] بالبيداء، وفي الآية حذف تقديره: ولو ترى إذ فزعوا لرأيتَ أمرًا تعتبرُ به.

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ». (٢) انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٤٥).

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حين عاينوا العذاب، قيل: عند اليأس، وقيل: عند البعث ﴿وَأَنَّىٰ﴾ من أين ﴿لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر: التناوش بالمد والهمزة، وقرأ الآخرون بواو صافية من غير مدٍّ ولا همز، ومعناه: التناول، أي: كيف لهم تناول ما بَعُدَ عنهم، وهو الإيمان والتوبة، وقد كان قريبًا في الدنيا فضيعوه، ومَنْ همز قيل: معناه هذا أيضًا.

وقيل: التناوش بالهمز من النبش وهو حركة في إبطاء، يقال: جاء نبشًا، أي: مبطئًا متأخرًا، والمعنى: من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم فيه، وعن ابن عباس قال: يسألون الرد إلى الدنيا فيقال: وأنى لهم الرد إلى الدنيا[1].

﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢﴾ أي: من الآخرة إلى الدنيا.

﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ قال مجاهد: يرمون محمدًا بالظن لا باليقين، وهو قولهم: ساحر وشاعر وكاهن، ومعنى الغيب: هو الظن؛ لأنه غاب علمه عنهم، والمكان البعيد: بعدهم عن علم ما يقولون، والمعنى: يرمون محمدًا بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون، وقال قتادة: يرجمون بالظن، يقولون: لا بعث ولا جنة ولا نار.

﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا، وقيل: نعيم الدنيا وزهرتها ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم﴾ أي: بنظرائهم، ومَنْ كان على مثلِ حالهم من الكفار ﴿مِّن قَبۡلُۚ﴾ أي: لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت اليأس ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾ موقع لهم الريبة والتهمة.

* * *

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٦/ ٧١٥).

سورة فاطر

مكية[١].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقها ومبدعها على غير مثال سبق ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ ذوي أجنحة ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ قال قتادة ومقاتل: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة أجنحة[٢]، ويزيد فيها ما يشاء وهو قوله ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾.

وقال ابن مسعود في قوله عزَّ وجلَّ: «لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ»[النجم: ١٨]، قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[٣].

وقال ابن شهاب في قوله: «يزيد في الخلق ما يشاء»، قال: حسن الصوت[٤]. / ١/٩٠

وعن قتادة قال: هي الملاحة في العينين[٥]، وقيل: هو العقل والتمييز.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾﴾.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ (قيل: من مطر ورزق)[٦] ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ لا يستطيع أحد على

---

(١) أخرج ابن الضريس والبخاري وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُنزلت سورة فاطر بمكة، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الملائكة مكية. انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٣).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١١٤)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٤) أيضًا لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين . . . : (٦/ ٣١٣)، ومسلم في الإيمان، باب ذكر سدرة المنتهى برقم ١٧٤: (١/ ١٥٨).

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٤) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٤) للبيهقي.

(٦) ما بين القوسين زيادة من «ب».

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

حبسها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فيما أمسك ﴿الْحَكِيمُ ۝٢﴾ فيما أرسل.

أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا عبيد الله بن أسباط، أخبرنا أبي، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن ورَّادٍ، عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي «غيرِ» بجر الراء، وقرأ الآخرون برفعها على معنى هل خالق غير الله؛ لأن «مِنْ» زيادة، وهذا استفهام على طريق التقرير كأنه قال: لا خالق غير الله ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من السماء: المطر، ومن الأرض: النبات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يُعزي نبيه ﷺ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: وعد يوم القيامة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥﴾ وهو الشيطان.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: عادوه بطاعة الله، ولا تطيعوه ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ أي: أشياعه وأولياءه ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ أي: ليكونوا في السعير، ثم بيَّن حال موافقيه ومخالفيه فقال:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب الذكر بعد الصلاة: (٢/ ٣٢٥)، ومسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩٣: (١/ ٤١٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٢٢٥).

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة.

وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع[1].

وقال قتادة: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فأما أهل الكبائر فليسوا منهم؛ لأنهم لا يستحلون الكبائر.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾ شُبِّه ومُوِّه عليه وحُسِّنَ ﴿لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: قبيح عمله ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ زيَّن له الشيطان ذلك بالوسواس.

وفي الآية حذف مجازه: أفمن زُيِّن له سوء عمله فرأى الباطل حقًّا كمن هداه الله فرأى الحق حقًّا والباطل باطلًا؟ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾.

وقيل: جوابه تحت قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ فيكون معناه: أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة، أي: تتحسر عليه فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازه: أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر، ومعنى الآية: لا تغتم بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا.

وقرأ أبو جعفر: «فلا تُذْهِب» بضم التاء وكسر الهاء، «نَفْسَك» نصب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ قال الفراء: معنى الآية: مَن كان يريد أن يعلم لِمَن العزة، فلله العِزَّة جميعًا[2].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/ ٤٧٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٦٧).

وقال قتادة: مَن كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله معناه الدعاء إلى طاعة من له العزة، أي: فليطلب العزة من عند الله بطاعته[١]، كما يقال: من كان يريد المال فالمال لفلان، أي: فليطلبه من عنده، وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا به التعزيز كما قال الله: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا»[مريم: ٨١ - ٨٢]، وقال: «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا»[النساء: ١٣٩].

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله ﴿يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وهو قوله: لا إله إلَّا الله، وقيل: هو قول الرجل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا الحجاج بن نصر، أخبرنا المسعودي، عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه، عن ابن مسعود قال: إذا حدثتكم حديثًا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ: «ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، وتبارك الله، إلَّا أخذهنَّ ملك فجعلهنَّ تحت جناحه ثم صعد بهنَّ فلا يمر بهنَّ على جمع من الملائكة إلَّا استغفروا لقائلهنَّ حتى يجيء بها وجه رب العالمين، ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ»، ذكره ابن مسعود[٢].

وقيل: «الكلم الطيب»: ذكر الله، وعن قتادة: «إليه يصعد الكلم الطيب»، أي: يقبل الله الكلم الطيب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفع العمل الصالح الكلم الطيب، فالهاء في قوله: «يرفعه» راجعة إلى الكلم الطيب، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسرين.

وقال الحسن وقتادة: الكلم الطيب ذكر الله، والعمل الصالح أداء فرائضه، فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُدَّ كلامُه على عمله[٣]، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال حسنًا وعمل غير صالح رَدَّ الله عليه قوله، ومن قال حسنًا وعمل صالحًا يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»[٤]، وجاء في الحديث: «لا يقبل الله قولًا إلَّا بعمل، ولا قولًا ولا عملًا إلَّا بنية»[٥].

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٢٠)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٥) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: (٢/ ٣٤)، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني، انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٨-٩).

(٣) هذا الجزء أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٢١) عن ابن عباس.

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٠) لعبد بن حميد والبيهقي عن الحسن.

(٥) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٣٨ - ١٣٩: (أخرجه الخطيب في «الجامع» من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعًا، وأبان متروك، وله طريق أخرى عن أبي هريرة مرفوعًا، أخرجه ابن عدي وابن حبان، كلاهما في الضعفاء عن=

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

وقال قوم: الهاء في قوله: «يرفعه» راجعة إلى العمل الصالح، (أي: الكلم الطيب يرفع العمل الصالح)[1]، فلا يقبل عمل إلَّا أن يكون صادرًا عن التوحيد، وهذا معنى قول الكلبي ومقاتل.

وقيل: الرفع من صفة الله عزَّ وجلَّ / معناه: العمل الصالح يرفعه الله عزَّ وجلَّ. ٩٠/ب

وقال سفيان بن عيينة: العمل الصالح هو الخالص، يعني: أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال، دليله قوله عزَّ وجلَّ: «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا»[الكهف: ١١٠]، فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال الكلبي: أي: الذين يعملون السيئات، وقال مقاتل: يعني: الشرك، وقال أبو العالية: يعني: الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، كما قال الله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ»[الأنفال: ٣٠]. وقال مجاهد وشهر بن حوشب: هم أصحاب الرياء[2].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ يبطل ويهلك في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: نسله ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكرانًا وإناثًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لا يطول عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ يعني: من عمر آخر، كما يقال لفلان عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وقيل: قوله: «ولا ينقص من عمره» منصرف إلى الأول، قال سعيد بن جبير: مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره[3].

وقال كعب الأحبار حين حضر عمر ـ رضي الله عنه ـ الوفاة: والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر، فقيل له: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: «فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»[الأعراف: ٣٤]، فقال: هذا إذا حضر الأجل، فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص، وقرأ الآية[4] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أي: كتابة الآجال والأعمال على الله هيِّن.

= خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه، بلفظ: «قرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة» الحديث، وفيه: ولا قوة إلَّا بعمل إلى آخره، ورواه ابن حبان أيضًا من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود، وفيه أحمد بن الحسن المصري، وهو كذاب.

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) انظر في هذه الأقوال: ابن كثير: (٣/ ٥٥٠)، «البحر المحيط»: (٧/ ٣٠٤)، «الدر المنثور»: (٧/ ١٠).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١١) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة».

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٣٩: (رواه إسحاق في آخر مسند ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد).

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟
دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ
مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ يعني: العذب والمالح، ثم ذكرهما فقال: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ طيب ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: جائز في الحلق هنيء ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، وقال الضحاك: هو المر ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: الحيتان من العذب والمالح جميعًا ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ أي: من المالح دون العذب ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ، وقيل: نسب اللؤلؤ إليهما؛ لأنه يكون في البحر الأجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من بين ذلك ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ جواري مقبلة ومدبرة بريح واحد ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ الله على نعمه.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ وهو لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ يعني: إن تدعوا الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ ما أجابوا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها، يقولون: ما كنتم إيانا تعبدون ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ يعني: نفسه، أي: لا ينبئك أحد مثلي خبير عالم بالأشياء.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى فضل الله، والفقير: المحتاج ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ الغني عن خلقه، المحمود في إحسانه إليهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ شديد.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا
يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ
وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن
يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بذنوبها غيرها ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: حمل ما عليه من الذنوب ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان المدعو ذا قرابة له ابنه أو أباه أو أمه أو أخاه، قال ابن عباس: يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع حسبي ما عليّ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون ﴿رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ ولم يروه، وقال الأخفش: تأويله أي: إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم بالغيب ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ صلح وعمل خيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ لها ثوابه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ يعني: الجاهل والعالم، وقيل: الأعمى عن الهدى، والبصير بالهدى، أي: المؤمن والمشرك.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ يعني: الكفر والإيمان ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ يعني: الجنة والنار، قال ابن عباس: «الحرور»: الريح الحارة بالليل، و«السموم» بالنهار، وقيل: «الحرور» يكون بالنهار مع الشمس.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ يعني: المؤمنين والكفار، وقيل: العلماء والجهال.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ حتى يتعظ ويجيب ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: الكفار، شبههم بالأموات في القبور حين لم يجيبوا ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ما أنت إلا منذرٌ تخوّفهم بالنار.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ ما من أمة فيما مضى ﴿إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ نبي منذر.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ الواضح كرر ذلك الكتاب بعد ذكر الزبر على طريق التأكيد.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ طرق وخطط، واحدتها: جدة، مثل: مدة ومدد ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ يعني: سود غرابيب على التقديم والتأخير، يقال: أسود غربيب، أي: شديد السواد تشبيهًا بلون الغراب، أي: طرائق سود.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ذكر الكناية لأجل «من»، وقيل: رد الكناية إلى ما في الإضمار، مجازه: ومن الناس والدواب والأنعام ما هو مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: كما اختلف ألوان الثمار والجبال، وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال ابن عباس: يريد: إنما يخافني من خلقي من عَلِمَ جبروتي وعزتي وسلطاني.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن
١/٩١ إسماعيل، أخبرنا عمر بن حفص، أخبرنا الأعمش، أخبرنا مسلم، عن مسروق، / عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع رسول الله ﷺ شيئًا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»(١).

وقال النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»(٢).

وقال مسروق: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا، وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم، فقال الشعبي: إنما العالم مَن خشي الله عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: عزيز في ملكه، غفور لذنوب عباده.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع: (١٣/ ٢٧٦)، ومسلم في الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته برقم٢٣٥٦: (٤/ ١٨٢٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة المائدة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾: (٨/ ٢٨٠)، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له برقم٢٣٥٩: (٤/ ١٨٢٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ
إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ
عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني: قرأوا[1] القرآن ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ لن تفسد ولن تهلك، والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب.

قال الفراء: قوله: «يرجون» جواب لقوله: «إن الذين يتلون كتاب الله».

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم بالثواب ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: يعني: سوى الثواب مما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ قال ابن عباس: يغفر العظيم من ذنوبهم، ويشكر اليسير من أعمالهم.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: الكتاب الذي أنزلناه إليك الذي ذكر في الآية الأولى: وهو القرآن، جعلناه ينتهي إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

ويجوز أن يكون «ثم» بمعنى الواو، أي: وأورثنا، كقوله: «ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟»[البلد: ١٧]، أي: وكان من الذين آمنوا، ومعنى «أورثنا»: أعطينا؛ لأن الميراث عطاء، قاله مجاهد.

وقيل: «أورثنا»، أي: أخَّرنا، ومنه الميراث؛ لأنه أُخِّر عن الميت، ومعناه: أخَّرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناكموه، وأهَّلْناكم له.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال ابن عباس: يريد: أمة محمد ﷺ، ثم قسمهم ورتبهم فقال:

(١) زيادة من «ب».

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ روي عن أسامة بن زيد في قوله عزَّ وجلَّ: «فمنهم ظالم لنفسه . . . » الآية، قال: قال النبي ﷺ: «كلهم من هذه الأمة»[١].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، أخبرنا محمد بن علي بن الحسين القاضي، أخبرنا بكر بن محمد المروزي، أخبرنا أبو قلابة، حدثنا عمرو بن الحصين، عن الفضل بن عميرة، عن ميمون الكردي، عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ . . . » الآية، فقال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»[٢]، قال أبو قلابة: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

واختلف المفسرون في معنى الظالم والمقتصد والسابق.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن عيسى الصيرفي، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي، حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت أن رجلًا دخل المسجد فقال: اللهم ارحم غربتي، وآنس وحشتي، وسُقْ إليَّ جليسًا صالحًا، فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقًا لأنا أعد بك منك، سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيـة: « ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ »، فقال: «أمَّا السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب، وأمَّا المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا، وأمَّا الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم، ثم يدخل الجنة»، ثم قرأ هذه الآية: «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن إنَّ ربنا لغفور شكور»[٣].

وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عزَّ وجلَّ: « ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»: (١/ ١٣١)، والبيهقي في البعث، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ. انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٢٤)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٩٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٣٩: (رواه البيهقي في «الشعب» من رواية ميمون بن سياه عن عمر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا وهذا منقطع، وأخرجه الثعلبي وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون ابن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر، فيه الفضل بن عميرة: وهو ضعيف، ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي عمن سمع عمر فذكره موقوفًا، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في «البعث» موقوفًا على عمر ـ رضي الله عنه ـ، وللعقيلي وابن لال وابن مردويه والبيهقي من وجه آخر مرفوعًا، وأخرجه ابن النجار عن أنس مرفوعًا. انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٢٥).

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥): (رواه الطبراني وأحمد باختصار إلَّا أنه قال: عن الأعمش عن ثابت أو أبي ثابت أن رجلًا . . . وثابت بن عبيد ومَنْ قبله من رجال الصحيح، وفي إسناده الطبراني غير مسمى)، وأخرجه الحاكم: (٢/ ٤٢٦)، وقال: (وقد اختلفت الروايات عن الأعمش في إسناد هذا الحديث، فروي عن الثوري عن الأعمش عن أبي ثابت عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ، وقيل: عن شعبة عن الأعمش عن رجل من ثقيف عن أبي الدرداء، وقيل: عن الثوري أيضًا عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت عن أبي الدرداء، وإذا كثرت الروايات في الحديث ظهر أن للحديث أصلًا). وانظر: الطبري: (٢٢/ ١٣٧).

عِبَادِنَا . . .﴾ الآية، فقالت: يا بني، كلهم في الجنة، أمَّا السابق بالخيرات فمَن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وأمَّا المقتصد فمَن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأمَّا الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا[١].

وقال مجاهد والحسن وقتادة: فمنهم ظالم لنفسه وهو أصحاب المشئمة، ومنهم مقتصد وهم أصحاب الميمنة، ومنهم سابق بالخيرات (بإذن الله)[٢] هم السابقون المقربون من الناس كلهم[٣].

وعن ابن عباس قال: السابق: المؤمن المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر نعمة الله غير الجاحد لها؛ لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة، فقال: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾.

وقال بعضهم: يذكر ذلك عن الحسن، قال: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من رجحت سيئاته على حسناته[٤].

وقيل: الظالم من كان ظاهره خيرًا من باطنه، والمقتصد الذي يستوي ظاهره وباطنه، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره.

وقيل: الظالم من وحَّد الله بلسانه، ولم يوافق فعله قوله، والمقتصد من وحَّد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه، والسابق من وحَّد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه وأخلص له عمله.

وقيل: الظالم التالي للقرآن، والمقتصد القارىء له العالم به، والسابق القارىء له العالم به العامل بما فيه.

وقيل: الظالم أصحاب الكبائر، والمقتصد أصحاب الصغائر، والسابق الذي لم يرتكب كبيرة ولا صغيرة.

وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل.

قال جعفر الصادق: بدأ بالظالمين إخبارًا أنه لا يتقرب إليه إلَّا بكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء، ثم ثنَّى بالمقتصدين؛ لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين؛ لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة.

وقال أبو بكر الوراق: رتَّبهم هذا الترتيب على مقامات الناس؛ لأن أحوال العبد ثلاثة: معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة، فإذا عصى دخل في حيز الظالمين، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين، وإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين.

وقال بعضهم: المراد بالظالم: الكافر، ذكره الكلبي.

وقيل: المراد منه: المنافق، فعلى هذا لا يدخل الظالم في قوله: ﴿جناتُ / عدنٍ يدخلونها﴾، وحمل هذا ٩١/ب

---

(١) أخرجه الطيالسي في «المسند»: ص٢٠٩، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه. وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٦) وتعقبه الذهبي فقال: (الصلت قال النسائي: ليس ثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي). وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٥٧).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٣) انظر: الطبري: (٢٢/ ١٣٥).

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٧/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠).

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾

القائل الاصطفاء على الاصطفاء في الخلقة وإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتاب، والأول هو المشهور أن المراد من جميعهم المؤمنون، وعليه عامة أهل العلم.

قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: سابق إلى الجنة، أو إلى رحمة الله بالخيرات، أي: بالأعمال الصالحات ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أمر الله وإرادته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ يعني: إيراثهم الكتاب.

ثم أخبر بثوابهم فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ يعني: الأصناف الثلاثة، قرأ أبو عمرو «يُدْخَلونها» بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: ويقولون إذا دخلوا الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ والحَزَنُ واحد كالبَخل والبُخل، قال ابن عباس: حزن النار، وقال قتادة: حزن الموت، وقال مقاتل: حزنوا[1]؛ لأنهم كانوا لا يدرون ما يصنع الله بهم، وقال عكرمة: حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، وقال القاسم: حزن زوال النعم وتقليب القلب، وخوف العاقبة، وقيل: حزن أهوال يوم القيامة، وقال الكلبي: ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة، وقال سعيد بن جبير: هَمّ الخبز في الدنيا، وقيل: هَمّ المعيشة، وقال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاشٍ أو لمعادٍ.

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن الضحاك الخطيب، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد الترابي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس على أهل لا إله إلّا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل لا إله إلّا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنّا الحَزَنَ»[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٣٩: (رواه أبو يعلى وابن أبي حاتم والبيهقي في أول «الشعب» والطبراني في «الأوسط» من حديث ابن عمر، وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف، وله طرق أخرى عند الطبراني والنسائي في «الكنى» عن ابن عمر، وأخرى عند البيهقي في «الشعب»، وفي الباب عن ابن عباس أخرجه تمّام في «فوائده»، والخطيب في ترجمة محمد بن سعيد الطائفي وعن أنس عند ابن مردويه. وانظر: ابن كثير: (٣/ ٥٥٨).

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أنزلنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبنا فيها عناء ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ إعياء من التعب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ أي: لا يهلكون فيستريحوا كقوله عزَّ وجلَّ: «فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» [القصص: ١٥]، أي: قتله، وقيل: لا يقضي عليهم الموت فيموتوا، كقوله: «وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» [الزخرف: ٧٧]، أي: ليقض علينا الموت فنستريح ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب النار ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ كافر، قرأ أبو عمرو «يجزى» بالياء وضمها وفتح الزاي، «كلُّ» رفع على غير تسمية الفاعل، وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الزاي، «كلَّ» نصب.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون ويصيحون، وهو: يفتعلون، من الصراخ، وهو الصياح، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من النار ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا من الشرك والسيئات، فيقول الله لهم توبيخًا:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قيل: هو البلوغ، وقال عطاء وقتادة والكلبي: ثمان عشرة سنة، وقال الحسن: أربعون سنة، وقال ابن عباس: ستون سنة، يروي ذلك عن علي، وهو العمر الذي أعذر الله تعالى إلى ابن آدم.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد ابن إسماعيل، أخبرنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا عمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد ابن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله تعالى إلى امرىء أخر أجله حتى بلَّغه ستين سنة»[1].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه، حدثنا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: (١١/٢٣٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهاويه، حدثنا الحسن بن عرفة، أخبرنا المحاربي، عن محمد ابن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»(1).

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: القرآن، وقال عكرمة وسفيان ابن عيينة ووكيع: هو الشيب، معناه: أوَلم نعمركم حتى شبتم، ويقال: الشيب نذير الموت، وفي الأثر: ما من شعرة تبيضُّ إلّا قالت لأختها: استعدي فقد قرب الموت ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضًا، وقيل: جعلكم أمة خلفت من قبلها، ورأت فيمن قبلها، ما ينبغي أن تعتبرَ به ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: عليه وبال كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ غضبًا ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: جعلتموهم شركائي بزعمكم، يعني: الأصنام ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا﴾ قال مقاتل: هل أعطينا كفار مكة كتابًا ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص «بينة» على التوحيد، وقرأ الآخرون «بينات» على الجمع، يعني: دلائل واضحة منه مما في ذلك الكتاب من ضروب البيان.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾ أي: ما يَعِدُ ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ والغرور ما يغر الإنسان مما لا أصل له، قال مقاتل: يعني: ما يَعِدُ الشيطان كفار بني آدم من شفاعة الآلهة لهم في الآخرة غرور وباطل.

---

(1) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في أعمار هذه الأمة: (٦/٦)، وقال: (هذا حديث حسن غريب) من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد رُوي من غير وجه عن أبي هريرة، وابن ماجه في الزهد، باب الأمل والأجل: (٢/ ١٤١٥)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٧) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم ٢٤٦٧: ص ٦١١، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ٣٧٠)، وحسن الحافظ إسناده في «الفتح»: (١١/ ٢٤٠). انظر: «فيض القدير» للمناوي: (٢/ ١١)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٢/ ٣٩٧).

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: كيلا تزولا ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: ما يمسكهما أحد من بعده، أي: أحد سواه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ فإن قيل: فما معنى ذكر الحلم هاهنا؟

قيل: لأن السموات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار، فأمسكهما الله تعالى عن الزوال بحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني: كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، وأقسموا بالله وقالوا: لو أتانا رسول لنكوننَّ أهدى دينًا منهم، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بُعث محمدٌ كذبوه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾(١) رسول ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يعني: من اليهود والنصارى / ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: ما زادهم مجيئه إلَّا تباعدًا عن الهدى. ١/٩٢

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نصب «استكبارًا» على البدل من النفور ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ يعني: العمل القبيح، أضيف المكر إلى صفته، قال الكلبي: هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبي ﷺ، وقرأ حمزة: «مكر السيىء» ساكنة الهمزة تخفيفًا، وهي قراءة الأعمش.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: لا يحل ولا يحيط المكر السيىء ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فقتلوا يوم بدر، وقال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحل إلَّا بمن أشرك، والمعنى: وبال مكرهم راجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلَّا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣١٨).

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ يعني: ليفوت عنه ﴿مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الجرائم ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ يعني: على ظهر الأرض، كناية عن غير مذكور ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ كما كان في زمان نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض إلَّا مَن كان في سفينة نوح ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: أهل طاعته وأهل معصيته.

* * *

سورة يسٓ

مكية[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ و«نٓ» قرأ بإخفاء النون فيهما: ابن عامر والكسائي وأبو بكر، قالون: يخفي النون من «يسٓ» ويظهر من «نٓ»، والباقون يظهرون فيهما.

واختلفوا في تأويل «يسٓ» حسب اختلافهم في حروف التهجي[2]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو قسم[3]، ويروى عنه أن معناه: يا إنسان[4]، بلغة طيء، يعني: محمدًا ﷺ، وهو قول الحسن وسعيد ابن جبير وجماعة، وقال أبو العالية: يا رجل[5]، وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ أقسم بالقرآن أن محمدًا ﷺ من المرسلين، وهو ردٌّ على الكفار حيث قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾[الرعد: ٤٣].

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وهو خبر بعد خبر، أي: أنه من المرسلين وأنه على صراط مستقيم، وقيل: معناه: إنك لمن المرسلين الذين هم على صراط مستقيم.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص «تنزيلَ» بنصب اللام كأنه قال: نزل تنزيلًا، وقرأ الآخرون بالرفع، أي: هو تنزيل العزيز الرحيم.

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة يسٓ بمكة. وأخرجه ابن مردويه عن عائشة. انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٣٧).

(٢) انظر: الطبري: (١/ ٢٠٥ـ٢٢٤)، وانظر: فيما سبق: (١/ ٥٨ـ٥٩).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٤٨).

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٤١) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وانظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٢٣).

(٥) نقله الفراء في «معاني القرآن»: (٢/ ٢/ ٣٧١) عن الحسن قال: «يسٓ»: يا رجل. وهو في العربية بمنزلة حرف الهجاء كقولك: حمٓ وأشباهها.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قيل: «ما» للنفي، أي: لم ينذر آباؤهم؛ لأن قريش لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ، وقيل: «ما» بمعنى: «الذي»، أي: لتنذر قومًا بالذي أُنذر آباؤهم ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ عن الإيمان والرشد.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب العذاب ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ هذا كقوله: «وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ»[الزمر: ٧١].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدًا يصلي ليرضخنَّ رأسه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه، فلما رفعه أُثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه فأخبرهم بما رأى سقط الحجر، فقال رجل من بني مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر، فأعمى الله تعالى بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: ما رأيته، ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر[1] بذنبه، لو دنوت منه لأكلني، فأنزل الله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا»[2].

قال أهل المعاني: هذا على طريق المثل، ولم يكن هناك غل، أراد: مَنَعْنَاهم عن الإيمان بموانع، فجعل الأغلال مثلًا لذلك، قال الفراء: معناه إنَّا حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله، كقوله تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ»[الإسراء: ٢٩]، معناه: لا تمسكها عن النفقة.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ «هي» كناية عن الأيدي - وإن لم يَجْرِ لها ذكر - لأن الغل يجمع اليد إلى العنق، معناه: إنا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالًا فهي إلى الأذقان ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ والمقمح: الذي رفع رأسه وغض بصره، يقال: بعيرٌ قامح إذا روى من الماء، فأقمح إذا رفع رأسه وغض بصره، وقال الأزهري: أراد أن أيديهم لما غُلَّتْ إلى أعناقهم رَفَعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها.

(١) يخطر البعير، أي: يرفع ذنبه مرة بعد أخرى ويضرب به فخذيه.
(٢) أخرجه الطبري مختصرًا: (٢٢/ ١٥٢)، قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٣٩: (رواه ابن إسحاق في «السيرة»، وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس إلى قوله قد يبست يداه على الحجر . . . وأصله في البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما).
وانظر: ابن كثير: (٣/ ٥٦٥)، «البحر المحيط»: (٧/ ٣٢٤).

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ
ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: «سَدًّا» بفتح السين، وقرأ الآخرون بضمها ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ فأعميناهم، من التغشية وهي التغطية ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ سبيل الهدى.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: إنما ينفع إنذارك مَن اتَّبع الذكر، يعني: القرآن، فعمل بما فيه ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ حسن، وهو الجنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عند البعث ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ من الأعمال من خيرٍ وشرٍّ ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: ما سنُّوا من سُنة حسنة أو سيئة.

قال النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً يعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر مَن عمل بها مِن بعده، مِن غير أن ينقص من أُجورهم شيئًا، ومن سَنَّ في الإسلام سنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»[١].

وقال قوم: قوله: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ»، أي: خطاهم إلى المسجد[٢].

رُوي عن أبي سعيد الخدري قال: شكت بنو سلمة بُعْدَ منازلهم من المسجد فأنزل الله تعالى: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ»[٣].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة . . . برقم١٠١٧: (٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ١٥٩).

(٢) قال ابن كثير رحمه الله (٣/ ٥٦٧): (وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم).

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة يس: (٩/ ٩٤ ـ ٩٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري، وأبو سفيان هو طريف السعدي)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٢٨) وأقره الذهبي، والطبري: (٢٢/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم، كلهم من طريق الثوري، ورواه البزار من طريق الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد.
قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (٣/ ٥٦٧): (وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكية، فالله أعلم)، وقارن بـ«الصحيح المسند من أسباب النزول»: ص١٢٤.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣﴾

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، حدثنا أبو سعيد محمد بن عيسى الصيرفي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن هشام بن ملّاس النميري، حدثنا مروان الفزاري، حدثنا حميد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أرادت بنو سَلِمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة، فقال: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم»؟ فأقاموا[1].

٩١/ب وأخبرنا / عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: «أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدُهم فأبعدُهم ممشًى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يصلي ثم ينام»[2].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ حفظناه وعددناه وبيّناه ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾ وهو اللوح المحفوظ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ يعني: اذكر لهم شبهًا مثل حالهم من قصة أصحاب القرية وهي أنطاكية ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣﴾ يعني: رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال العلماء بأخبار الأنبياء: بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى أهل مدينة أنطاكية[3]، فلما قربا من المدينة رأيا شيخًا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار، صاحب يسٓ[4] فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية؟ قالا:

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة: (٤/ ٩٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب فضل صلاة الفجر في جماعة: (٢/ ١٣٧)، ومسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد برقم٦٦٢: (١/ ٤٦٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٠٣).

(٣) قال ابن كثير (٣/ ٥٧٠): (وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلًا عند المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:
أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ إلى أن قالوا: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾.
الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة، وهنَّ: «القدس» لأنها بلد المسيح، و«أنطاكية» لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، و«الاسكندرية» لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين، ثم «رومية» لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم ووطّده . . .
الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة). وانظر: «المحرر الوجيز»: (١٣/ ١٩٣).

(٤) في «ب»: (عيسى).

نعم نحن نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ: إن لي ابنًا مريضًا منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نطلع على حاله، فأتى بهما إلى منزله، فمسحا ابنه، فقام في الوقت ـ بإذن الله ـ صحيحًا، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيرًا من المرضى، وكان لهم ملك ـ قال وهب: اسمه انطيخس ـ وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام، قالوا: فانتهى الخبر إليه فدعاهما، فقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، قال: وفيمَ جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، فقال: ولكما إله دون آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك، قال: قومًا حتى أنظر في أمركما، فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

قال وهب: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية، فأتياها فلم يصلا إلى ملكها، وطال مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبَّرا وذكرا الله، فغضب الملك وأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، قالوا: فلمَّا كُذِّبَ الرسولان وضُربا، بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على إثرِهما لينصرهما، فدخل شمعون البلد متنكرًا، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أَنِسُوا به، فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه فرضي عِشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دَعَواكَ إلى غيرِ دينك، فهل كلَّمتَهُما وسَمِعْتَ قولَهما؟ فقال الملك: حالَ الغضبُ بيني وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما؛ حتى نطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: مَن أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون: (فصفاه وأوجزا، فقالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فقال شمعون)[١]: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمناه، فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين[٢] من الطين، فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: إن أنت سألت إلٰهك حتى يصنع صنعًا مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلٰهك، فقال الملك: ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلي كثيرًا، ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم، فقال الملك للرسولين: إنْ قدر إلٰهكم الذي تعبدانه على إحياء ميتٍ آمنَّا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن هاهنا ميتًا مات منذ سبعة أيام ابنٌ لدهقان وأنا أخَّرته فلم أدفنه، حتى يرجع أبوه، وكان غائبًا، فجاؤوا بالميت وقد تغير وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانيةً، وجعل شمعون يدعو ربه سرًّا، فقام الميت وقال: إني قدمت منذ سبعة أيام مشركًا فَأُدْخِلْتُ في سبعةِ أودية من النار، وأنا أُحذِّرُكم ما أنتم فيه فآمِنوا بالله، ثم قال: فتحت لي أبواب

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) البندقية: ما يكون مدوّرًا من الطين.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

السماء فنظرتُ فرأيتُ شابًا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه، فتعجب الملك، فلما علم شمعون أن قوله أثّر في الملك أخبرَه بالحال، ودعاه فآمن الملك وآمن قوم، وكفر آخرون.

وقيل: إن ابنةً للملك كانت قد توفيت ودُفنت، فقال شمعون للملك: اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك، فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصليا ودعوا وشمعون معهما في السر، فأحيا الله المرأة وانشق القبر عنها فخرجت، وقالت: أسلموا فإنهما صادقان، قالت: ولا أظنكم تسلمون، ثم طلبت من الرسولين أن يردّاها إلى مكانها فذرّا ترابًا على رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهبٍ: بل كفر الملكُ، وأجمع هو وقومُهُ على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبًا، وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم يُذَكِّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله عزَّ وجلّ:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ قال وهب: اسمهما يوحنا وبولس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ يعني: فقوّينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ برسول ثالث وهو شمعون، وقرأ أبو بكر عن عاصم «فعزَزْنا» بالتخفيف وهو بمعنى الأول كقولك: شدَدْنا وشدَّدْنا، بالتخفيف والتثقيل، وقيل: أي: فغلبنا، من قولهم: من عزَّ بزَّ.

وقال كعب: الرسولان: صادق وصدوق، والثالث: شلوم، وإنما أضاف الله الإرسال إليه؛ لأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما بعثهم بأمره تعالى ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ جميعًا لأهل أنطاكية: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ما أنتم إلا كاذبون فيما تزعمون.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أن المطر حبس عنهم، فقالوا: أصابنا هذا بشؤمكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلنكم، وقال قتادة: بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ يعني: شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبهم، يعني: أصابكم الشؤم من قبلكم،

١/٩٢ وقال ابن عباس / والضحاك: حظكم من الخير والشر ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ يعني: وعظتم بالله، وهذا استفهام

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾

محذوف الجواب، مجازه: إن ذكرتم ووعظتم بالله تطيرتم بنا، وقرأ أبو جعفر: «أن» بفتح الهمزة الملينة «ذكرتم» بالتخفيف ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ مشركون مجاوزون الحد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ وهو حبيب النجار[(١)]، وقال السدي: كان قصّارًا[(٢)]، وقال وهب: كان رجلًا يعمل الحرير[(٣)]، وكان سقيمًا قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان مؤمنًا ذا صدقة، يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين، فيطعم نصفًا لعياله ويتصدق بنصف[(٤)]، فلما بلغه أن قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ قال قتادة: كان حبيب في غار يعبد ربه[(٥)]، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم فأظهر دينه، فلما انتهى حبيب إلى الرسل قال لهم: تسألون على هذا أجرًا؟ قالوا: لا، فأقبل على قومه فقال: «قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ»، فلما قال ذلك قالوا له: وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم؟ فقال:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ قرأ حمزة ويعقوب «مالي» بإسكان الياء، والآخرون بفتحها، قيل: أضاف الفطرةَ إلى نفسه والرجوعَ إليهم؛ لأن الفطرة أثر النعمة، وكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر وكان بهم أليق.

وقيل: إنه لما قال: اتبعوا المرسلين، أخذوه فرفعوه إلى الملك، فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: «وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي» وأي شيء لي إذا لم أعبد الخالق «وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ» تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم.

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٥٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٥١) لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٦٩).

(٢) ذكره ابن كثير: (٣/ ٥٦٩).
والقصار: الذي يعمل بالقصارة، يقال: قصر الثوب قصارة، وقصره قصّارة: بيّضه ودقّه بالقَصرة وهي قطعة من الخشب.

(٣) ذكره ابن كثير: (٣/ ٥٦٩) عن ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه.
والجرير: الحبال.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٦٩).

(٥) «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٦٩).

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾
إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ
يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي: لا أتخذ من دونه آلهة ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ بسوء ومكروه ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي﴾ لا تدفع عني ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا شفاعة لها أصلًا فتغني ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ من ذلك المكروه، وقيل: لا ينقذون من العذاب لو عذبني الله إن فعلت ذلك.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ خطأ ظاهر.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: فاسمعوا مني، فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبةَ رجل واحد فقتلوه[1].

قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دُبُره[2].

وقال السدي: كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهدِ قومي، حتى قطعوه وقتلوه[3].

وقال الحسن: خرقوا خرقًا في حلقه فعلقوه بسور من سور المدينة، وقبره بأنطاكية، فأدخله الله الجنة، وهو حي فيها يرزق، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فلما أفضى إلى الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ يعني: بغفران ربي لي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ تمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه، ليرغبوا في دين الرسل.

فلما قُتِلَ حبيبٌ غضب اللهُ له وعجل لهم النِّقمة، فأمر جبريل عليه السلام فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وما كنا نفعل هذا، بل الأمر في إهلاكهم كان أيسر مما يظنون.

وقيل: معناه: وما أنزلنا على قومه من بعده، أي: على قوم حبيب النجار من بعد قتله من جند، وما كنَّا نزلهم على الأمم إذا أهلكناهم، كالطوفان والصاعقة والريح، ثم بيَّن عقوبتهم فقال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن إسحاق بلاغًا عن ابن عباس وكعب ووهب. انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٦٩).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٦١)، وابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود، انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٦٩).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٢/ ١٦١) لكن عن قتادة، وكذلك عند ابن كثير: (٣/ ٥٦٩).

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ (وقرأ أبو جعفر «صيحةٌ واحدةٌ»)[1] بالرفع، جعل الكون بمعنى الوقوع. قال المفسرون: أخذ جبريل بعَضَادَتَي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحةً واحدة[2] ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ميتون.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ قال عكرمة: يعني: يا حسرتهم على أنفسهم، والحسرة: شدة الندامة، وفيه قولان:

أحدهما: يقول الله تعالى: يا حسرة وندامة وكآبة على العباد يوم القيامة حين لم يؤمنوا بالرسل.

والآخر: أنه من قول الهالكين، قال أبو العالية: لما عاينوا العذاب قالوا: يا حسرة، أي: ندامة على العباد، يعني: على الرسل الثلاثة حيث لم يؤمنوا بهم، فتمنوا الإيمان حين لا ينفعهم.

قال الأزهري: الحسرة لا تدعى، ودعاؤها تنبيه للمخاطبين، وقيل: العرب تقول: يا حسرتي! ويا عجبًا! على طريق المبالغة، والنداء عندهم بمعنى التنبيه، فكأنه يقول: أيها العجب هذا وقتك؟ وأيتها الحسرة هذا أوانك؟

حقيقة المعنى: أن هذا زمان الحسرة والتعجب، ثم بيَّن الحسرة والندامة، فقال:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يخبروا، يعني: أهل مكة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ والقرن: أهل كل عصر، سموا بذلك؛ لاقترانهم في الوجود ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: لا يعودون إلى الدنيا، فلا يعتبرون بهم.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ قرأ عاصم وحمزة «لمَّا» بالتشديد هاهنا وفي الزخرف والطارق، ووافق ابن عامر إلَّا في الزخرف، ووافق أبو جعفر في الطارق، وقرأ الآخرون بالتخفيف، فمن شدَّد جعل «إن» بمعنى الجحد، و«لما» بمعنى إلَّا، تقديره: وما كل إلَّا جميعٌ، ومن خفف جعل «إن» للتحقيق، و«ما» صلة، مجازه: وكلٌّ جميعٌ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ يعني: الحنطة والشعير وما أشبههما ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: من الحب.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) ذكره ابن كثير: (٣/ ٥٧٠). وعضادتا الباب: ناحيتاه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥ سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ ۝٣٤﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي: من الثمر الحاصل بالماء ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «عملت» بغير هاء، وقرأ الآخرون «عملته» بالهاء، أي: يأكلون من الذي عملته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من الزرع والغرس، فالهاء عائدة إلى «ما» التي معنى «الذي»، وقيل: «ما» للنفي في قوله: «ما عملته»، أي: وجدوها معمولة ولم تعملها أيديهم، ولا صنع لهم فيها، وهذا معنى قول الضحاك ومقاتل.

وقيل: أراد العيون والأنهار التي تعملها يد خلق مثل دجلة والفرات والنيل ونحوها.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ نعمة الله.

﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الثمار والحبوب ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ مما خلق من الأشياء من دواب البر والبحر.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ تدل على قدرتنا ﴿الَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ نتزع ونكشط ﴿مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾
٩٢/ب داخلون في الظلمة، ومعناه: نذهب بالنهار ونجيء بالليل، وذلك أن الأصل هي الظلمة، والنهار / داخل عليها، فإذا غربت الشمس سُلِخَ النهارُ من الليل، فتظهر الظلمة.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: إلى مستقر لها، أي: إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة، وقيل: إنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها، ثم ترجع فذلك مستقرها؛ لأنها لا تجاوزه، وقيل: مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مستقرها تحت العرش».

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا»، قال: «مستقرها تحت العرش»[1].

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة يس، باب ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: (٨/ ٥٤١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان برقم ٢٥١: (١/ ١٣٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٩٥).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي، أخبرنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس، «أتدري أين تذهب»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيُقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»»[1].

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس: «والشمس تجري لا مستقر لها»، وهي قراءة ابن مسعود، أي: لا قرار لها ولا وقوف فهي جارية أبدًا ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدرنا له منازل، قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة: «القمرُ» برفع الراء لقوله: «وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ»، وقرأ الآخرون بالنصب لقوله: «قَدَّرْنَاهُ»، أي: قدرنا القمر «مَنَازِلَ»، وقد ذكرنا أسامي المنازل في سورة يونس[2]، فإذا صار القمر إلى آخر المنازل دقَّ، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ والعرجون: (عود العذق)[3] الذي عليه الشماريخ، فإذا قدم وعتق يبس وتقوس واصفرَّ، فشبّه القمر في دقته وصفرته في آخر المنازل به.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه، وهو قول تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل: لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، لا تطلع الشمس بالليل، ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء، فإذا اجتمعا وأدرك كل واحد منهما صاحبه قامت القيامة.

وقيل: «لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ»، أي: لا تجتمع معه في فلك واحد، «وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ»، أي: لا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما نهار فاصل.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ يجرون.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر: (٦/ ٢٩٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان برقم ٢٥١: (١/ ١٣٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٩٤).

(٢) انظر: فيما سبق: (٤/ ١٢١).

(٣) في «أ»: (العرق).

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾
وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب «ذرياتهم» جمع، وقرأ الآخرون «ذريتهم» على التوحيد، فمن جمع كسر التاء، ومن لم يجمع نصبها، والمراد بالذرية: الآباء والأجداد، واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ أي: المملوء، وأراد سفينة نوح عليه السلام، وهؤلاء من نسل من حُمل مع نوح، وكانوا في أصلابهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قيل: أراد به: السفن الصغار التي عملت بعد سفينة نوح على هيئتها، وقيل: أراد به السفن التي تجري في الأنهار، فهي في الأنهار كالفلك الكبار في البحار، وهذا قول قتادة والضحاك وغيرهما، وروي عن ابن عباس أنه قال: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون»، يعني: الإبل، فالإبل في البر كالسفن في البحر.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ﴾ أي: لا مغيث ﴿لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ينجون من الغرق، وقال ابن عباس: ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى انقضاء آجالهم، يعني: إلا أن يرحمهم ويمتعهم إلى آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال ابن عباس: «ما بين أيديكم»، يعني: الآخرة، فاعملوا لها، «وما خلفكم» يعني: الدنيا، فاحذروها، ولا تغتروا بها، وقيل: «ما بين أيديكم» وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم، «وما خلفكم» عذاب الآخرة، وهو قول قتادة ومقاتل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والجواب محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا عنه، دليله ما بعده:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: دلالة على صدق محمد ﷺ ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أعطاكم الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ﴾ أنرزق ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله، وهو ما جعلوا لله من حروثهم وأنعامهم، قالوا: أنطعم، أنرزق من لو يشاء الله رزقه، ثم لم يرزقه مع قدرته

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

عليه، فنحن نوافق مشيئة الله فلا نُطْعِمُ مَن لم يُطعمه الله، وهذا مما يتمسك به البخلاء، يقولون: لا نعطي من حرمه الله، وهذا الذي يزعمون باطل؛ لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاءً، فمنع الدنيا من الفقير لا بُخلًا، وأمر الغنيَّ بالإنفاق لا حاجةً إلى ماله، ولكن ليبلوَ الغنيَّ بالفقير فيما فرض له في مال الغني، ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ يقول الكفار للمؤمنين: ما أنتم إلّا في خطأ بيّن في اتّباعكم محمدًا ﷺ وترك ما نحن عليه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: القيامة والبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال ابن عباس: يريد: النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يعني: يختصمون في أمر الدنيا من البيع والشراء، ويتكلمون في المجالس والأسواق.

قرأ حمزة «يخْصِمون» بسكون الخاء وتخفيف الصاد، أي: يغلب بعضهم بعضًا بالخصام، وقرأ الآخرون بتشديد الصاد، أي: يختصمون، أُدغمت التاء في الصاد، ثم ابن كثير ويعقوب وورش يفتحون الخاء بنقل حركة التاء المدغمة إليها، ويجزمها أبو جعفر وقالون، ويروم فتحة الخاء / أبو عمرو، وقرأ الباقون ١/٩٣ بكسر الخاء.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد رفع الرجل(١) أُكلَتَهُ إلى فيه فلا يَطْعَمُها»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يقدرون على الإيصاء، قال مقاتل: عجلوا عن الوصية فماتوا ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ينقلبون، والمعنى: أن الساعة لا تمهلهم لشيء.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهي النفخة الأخيرة نفخة البعث، وبين النفختين أربعون سنة ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ يعني: القبور، واحدها: جدث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يخرجون من القبور أحياء، ومنه قيل للولد: نسل لخروجه من بطن أمه.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الفتن: (١٣/ ٨١ـ ٨٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٦ـ ٢٧).

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ قال أُبيُّ بن كعب وابن عباس وقتادة: إنما يقولون هذا؛ لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين، فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل[1].

وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها صار عذاب القبر في جنبها كالنوم، فقالوا: ياويلنا[2] من بعثنا من مرقدنا؟! ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (أقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار، وقيل: قالت الملائكة لهم: «هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون»)[2]، قال مجاهد: يقول الكفار: «من بعثنا من مرقدنا»؟ فيقول المؤمنون: «هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون».

﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانت ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: النفخة الآخرة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «في شغْل» بسكون الغين، والباقون بضمها، وهما لغتان، مثل: السُّحْت والسُّحُت.

واختلفوا في معنى الشغل، قال ابن عباس: في افتضاض الأبكار[3]، وقال وكيع بن الجراح: في السماع.

وقال الكلبي: في شغل عن أهل النار وعمَّا هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم.

وقال الحسن: شُغلوا بما في الجنة من النعيم عمَّا فيه أهل النار من العذاب.

وقال ابن كيسان: في زيارة بعضهم بعضًا، وقيل: في ضيافة الله تعالى[4].

﴿فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قرأ أبو جعفر «فكهون» حيث كان، وافقه حفص في المطففين، وهما لغتان مثل: الحاذر والحَذِر، أي: ناعمون.

قال مجاهد والضحاك: معجبون بما هم فيه، وعن ابن عباس قال: فرحون.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٦٤) أيضًا لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) انظر هذه الأقوال في: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٤٢).

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ أي: حلائلهم ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي «ظُلَل» بضم الظاء من غير ألف، جمع ظلة، وقرأ العامة «في ظِلال» بالألف وكسر الظاء على جمع ظل ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني: السرر في الحِجَال[1]، واحدتها: أريكة، قال ثعلب: لا تكون أريكة حتى يكون عليها حجلة ﴿مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ ذوو اتكاء.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يتمنون ويشتهون.

﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يسلم الله عليهم قولًا، أي: يقول الله لهم قولًا.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الخالق بن علي بن عبد الخالق المؤذن، حدثني أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الملحمي الأصفهاني، أخبرنا الحسن بن أبي علي الزعفراني، أخبرنا ابن أبي الشوارب، أخبرنا أبو عاصم العبادَاني، أخبرنا الفضل الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذْ سطع نورٌ فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربُّ عزَّ وجلَّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: «سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ»، فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نورُه وبركتُه عليهم في ديارهم»[2].

وقيل: تسلم عليهم الملائكة من ربهم.

قال مقاتل: تدخل الملائكة على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم.

وقيل: يعطيهم السلامة، يقول: اسلموا السلامة الأبدية.

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال مقاتل: اعتزلوا اليوم من الصالحين، قال أبو العالية: تميزوا، وقال السدي: كونوا على حِدة، وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين، قال الضحاك: إن لكل كافر في النار بيتًا يدخل ذلك البيت ويُردمُ بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين، لا يَرى ولا يُرى[3].

---

(١) الحِجال: جمع حَجَلَة، وهو بيت للعروس يزين بالثياب والأسِرَّة والستور، قال في «اللسان»: والحَجَلَة مثل القُبَّة، وحجلة العروس معروفة، وهي بيت يُستر بالثياب والأسِرَّة.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية برقم١٨٤: (١/ ٦٦-٦٧)، وعزاه السيوطي - أيضًا - في «الدر المنثور»: (٧/ ٦٥-٦٦) لابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن أبي حاتم والآجري في الرؤية وابن مردويه، قال السيوطي في «مصباح الزجاجة»: (والذي رأيته أنا في كتاب العقيلي ما نصه: عبد الله بن عبيد الله أبو عاصم العباداني منكر الحديث، وكان الفضل يرى القدر، كاد أن يغلب على حديثه الوهم). وانظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٩٨)، و«ضعيف الجامع الصغير»: رقم الحديث (٢٣٦٢).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٤٣).

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ألم آمركم يا بني آدم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تطيعوا الشيطان في معصية الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ ظاهر العداوة.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ أطيعوني ووحدوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم: «جِبِلًّا» بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ يعقوب: «جُبُلًّا» بضم الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة، وقرأ الآخرون بضم الجيم والباء خفيفة، وكلها لغات، ومعناها: الخلق والجماعة، أي: خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس، ويقال لهم لمّا دنوا من النار:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بها في الدنيا ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها ﴿ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ هذا حين ينكر الكفار كفرهم وتكذيبهم الرسل، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عمرو بن حفصويه السرخسي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، أخبرنا أبو يزيد حاتم بن محبوب، أخبرنا عبد الجبار بن العلاء، أخبرنا سفيان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحاب»؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة»؟ قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم كما لا تضارون في رؤية أحدهما»، قال: «فيلقى العبد فيقول: أي عبدي ألم أكرمك؟ ألم أسوّدك، ألم أزوجك، ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك تترأس وتتربع؟ قال: بلى يا رب، قال: فظننت أنك ملاقيّ؟ قال: لا، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني»، قال: «فيلقى الثاني فيقول: ألم أكرمك، ألم أسوّدك، ألم أزوجك، ألم أسخر لك الخيل والإبل وأتركك تترأس وتتربع»؟ ـ وقال غيره عن
٩٣/ب سفيان: «ترأس وتربع»، في الموضعين ـ قال: «فيقول: بلى / يا رب، فيقول: ظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا يا رب، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنتُ بك

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وبنبيك وبكتابك وصليتُ وصمتُ وتصدقتُ ويثني بخير ما استطاع، قال: فيقال له: ألم نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيتفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ، فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، قال: فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذي سَخِطَ الله عليه»(١).

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أخبرنا محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبْري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر عن بهز بن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تدعون فيفدم على أفواهكم بالفدام، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكفه»(٢).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو بكر بن أبي النضر، حدثني هاشم بن القاسم، أخبرنا عبد الله الأشجعي، عن سفيان الثوري، عن عبيد المكتب، عن فضيل، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك»؟ قال: قلنا اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: فيقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلّا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فَعَنكُنَّ كنتُ أناضل»(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ (أي: أذهبنا أعينهم)(٤) الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق، وهو معنى الطمس، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[البقرة: ٢٠]، يقال: كما أعمينا قلوبهم لو شئنا أعمينا أبصارهم الظاهرة ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فتبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فكيف يبصرون (وقد أعمينا أعينهم؟ يعني: لو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عميًا يترددون، فكيف يبصرون)(٥) الطريق حينئذ؟ هذا قول الحسن والسدي، وقال ابن عباس

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في الزهد برقم٢٩٦٨: (٤/ ٢٢٧٩ـ٢٢٨٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٤٦ـ١٤٨).

(٢) حديث حسن أخرجه عبد الرزاق في التفسير: (٢/ ١٨٥)، والنسائي في «التفسير»: (٢/ ٢٦٠)، والطبراني في «الكبير»: (١٩/ ٤٠٨)، والإمام أحمد: (٤/ ٤٤٧)، (٥/ ٤ ـ ٥)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٣١٩) نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم: (٢/ ٤٤٠) وصححه، والبيهقي في البعث وللحديث شواهد ساقها الحافظ ابن كثير في «التفسير»: (٣/ ٥٧٨).

(٣) أخرجه مسلم في الزهد برقم٢٩٦٩: (٤/ ٢٢٨٠ـ٢٢٨١).

(٤) ما بين القوسين زيادة من «ب». (٥) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾

وقتادة ومقاتل وعطاء: معناه: لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم، فأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم «فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ»، ولم أفعل ذلك بهم؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يعني: مكانهم، يريد: لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير في منازلهم، وقيل: لجعلناهم حجارة، وهم قعود في منازلهم لا أرواح لهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧﴾ إلى ما كانوا عليه، وقيل: لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ قرأ عاصم وحمزة «ننكّسه» بالتشديد، وقرأ الآخرون بفتح النون الأولى وضم الكاف مخففًا، أي: نرده إلى أرذل العمر شبه الصبي في أول الخلق.

وقيل: «ننكسه في الخلق»، أي: نضعف جوارحه بعد قوتها ونردها إلى نقصانها بعد زيادتها ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ فيعتبروا ويعلموا أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان يقدر على البعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ قال الكلبي: إن كفار مكة قالوا: إن محمدًا شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيبًا لهم: «وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ»، أي: ما يتسهل له ذلك، وما كان يتزن له بيت من شعر، حتى إذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسرًا.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد الثقفي، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا يوسف بن عبد الله بن ماهان، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي ابن زيد، عن الحسن أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيًا

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر:

كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيًا[1]

---

(١) البيت لسحيم عبد الحسحاس، وصدره:

عميرة ودِّع إن تجهزت غازيًا

انظره في: «البيان والتبين» للجاحظ: (١/ ٧١)، «الكامل» للمبرد: ص٥٨٥، عن «تفسير ابن كثير»: (٧/ ٥٧٤) طبع الشعب.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾

(ورسول الله ﷺ يقول: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيًا)، فقال أبو بكر وعمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ»(١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، أخبرنا علي ابن الجعد، حدثنا شريك، عن المقدام بن شريح، عن أبيه قال: قلتُ لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة. قالت: وربما قال:

ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ(٢)

وقال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سئلت: هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان الشعر أبغض الحديث إليه، قالت: ولم يتمثل بشيء من الشعر إلّا ببيت أخي بن قيس، طرفة:

سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فجعل يقول: «ويأتيك مَن لم تزود بالأخبار» فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إني لستُ بشاعر ولا ينبغي لي»(٣).

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ فيه الفرائض والحدود والأحكام ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب «لتنذر» بالتاء وكذلك في الأحقاف، (ووافق ابن كثير في الأحقاف)(٤)، أي: لتنذر يا محمد، وقرأ الآخرون بالياء، أي: لينذر القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ يعني: مؤمنًا حي القلب؛ لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ ويجب حجة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ تولينا خلقه بإبداعنا من غير إعانة أحد ﴿أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ ضابطون قاهرون، أي: لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها، بل هي مسخرة لهم.

---

(١) أخرجه ابن سعد: (١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، وما بين القوسين استدركناه منه، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٧١) لابن أبي حاتم، والمرزباني في «معجم الشعراء»، وعلي بن زيد ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في إنشاء الشعر: (٨/ ١٤٠ ـ ١٤١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والإمام أحمد: (٦/ ١٥٦)، وابن سعد: (١/ ٣٨٣)، وعزاه ابن كثير: (٣/ ٥٧٩) أيضًا للنسائي.

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٢٧)، وعبد الرزاق في التفسير: (٢/ ١٤٥)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ٧١) أيضًا لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وراجع: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٨٠).

(٤) ما بين القوسين زيادة من «ب».

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ
جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ
الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

وهي قوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ سخرناها لهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: ما يركبون وهي الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ من لحمانها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونسلها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ رب[1] هذه النعم.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يعني: لتمنعهم من عذاب الله، ولا يكون ذلك قط.

١/٩٤ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ / قال ابن عباس: لا تقدر الأصنام على نصرهم ومنعهم من العذاب ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: الكفار جندٌ للأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيرًا، ولا تستطيع لهم نصرًا، وقيل: هذا في الآخرة، يُؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه أتباعه الذين عبدوه كأنهم جند محضرون في النار.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: قول كفار مكة في تكذيبك ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من التكذيب ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ من عبادة الأصنام أو ما يعلنون بألستهم من الأذى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ جدل بالباطل ﴿مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ بيّنُ الخصومة، يعني: إنه مخلوق من نطفة ثم يخاصم، فكيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع الخصومة.

نزلت في أُبي بن خلف الجمحي خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد بَلِيَ ففتته بيده، وقال: أترى يحيي اللهُ هذا بعد ما رمَّ؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك النار»، فأنزل الله هذه الآيات[2].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٢٣.
وأخرجه الحاكم: (٢/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم أن الآية نزلت في العاص بن وائل.
وقد ذكر الحافظ ابن كثير الروايتين: (٣/ ٥٨٢)، ثم قال: (وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآية قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص ابن وائل أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث).

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ
نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن
يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ بَدْءَ أمره، ثم ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ بالية، ولم يقل رميمة؛ لأنه معدول عن فاعلة، وكل ما كان معدولًا عن وجهه ووزنه كان مصروفًا عن أخواته[1]، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[مريم: ٢٨]، أسقط الهاء؛ لأنها كانت مصروفة عن باغية.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ خلقها[2] ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قال ابن عباس: هما شجرتان يقال لأحدهما: المَرْخ، وللأخرى: العَفَار، فمن أراد منهم النار قطع منها غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فيخرج منهما النار بإذن الله عزَّ وجل[3].

تقول العرب: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار، وقال الحكماء: في كل شجرٍ نارٌ إلّا العناب ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: تقدحون وتوقدون النار من ذلك الشجر، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾ قرأ يعقوب «يقدر» بالياء على الفعل ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ أي: قل: بلى، هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ (يخلق خلقًا بعد خلق)[4] ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ بجميع ما خلق.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

---

(١) في «أ»: (إعرابه).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٨٣)، «البحر المحيط»: (٧/ ٣٤٨).

(٤) ما بين القوسين زيادة من «ب».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو الطاهر الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا علي بن الحسين الدارابجردي، حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان ـ وليس بالنهدي ـ، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا على موتاكم سورة يسٓ»(١)، ورواه محمد بن العلاء عن ابن المبارك، وقال: عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب القراءة عند الميت: (٤/ ٢٨٧)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حُضر برقم١٤٤٨: (١/ ٤٦٥ـ٤٦٦)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ٣٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٥٨١، والإمام أحمد: (٥/ ٢٦)، وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم٧٢٠: ص١٨٤، والحاكم: (١/ ٥٦٥)، وقال: أوقفه يحيى بن سعيد وغيره، والقول فيه قول ابن المبارك إذ الزيادة من الثقة مقبولة.
وأبو عثمان وأبوه مجهولان، فالحديث ضعيف.
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٢٩٥)، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح»: أن ابن القطان قد أعله بالاضطراب والوقف وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه، ونقل أبو بكر بن العربي عن الدارقطني أنه قال: هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث. انظر: «تلخيص الحبير»: (٢/ ١٠٤)، «إرواء الغليل»: (٣/ ١٥٠ ـ ١٥٢).

سورة الصَّافَّات

مكية[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة.

أخبرنا عمر بن عبد العزيز القاشاني، أخبرنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي، أخبرنا أبو علي محمد ابن أحمد اللؤلؤي، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا عبد الله بن محمد النُّفَيْلي، حدثنا زهير قال: سألت سليمان الأعمش عن حديث جابر بن سمرة في الصفوف المقدمة فحدثنا عن المسيب بن رافع، عن تميم بن طرفة، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألَا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم»؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يتمون الصفوف المقدمة ويتراصون في الصف»[٢].

وقيل: هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد.

وقيل: هي الطيور[٣]، دليله قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[النور: ٤١].

قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾ يعني: الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبائح.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾ هم الملائكة يتلون ذكر الله عزَّ وجلَّ، وقيل: هم جماعة قراء القرآن[٣]، وهذا كله قسم أقسم الله تعالى به، وموضع القسم قوله:

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة الصافات بمكة. انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود في تسوية الصفوف: (١/ ٣٣٢)، ومسلم في الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة وإتمام الصفوف برقم ٤٣٠: (١/ ٣٢٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٣٦٦).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٥١).

إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ وقيل: فيه إضمار، أي: وربِّ الصافات والزاجرات والتاليات، وذلك أن كفار مكة قالوا: «أجعلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا»؟ فأقسم الله بهؤلاء: «إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ».

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ أي: مطالع الشمس، (قيل: أراد به المشارق والمغارب، كما قال في موضع آخر: «فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ»[المعارج: ٤٠]) (١).

فإن قيل: قد قال في موضع: «برب المشارق والمغارب»، وقال في موضع: «رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ»[الرحمن: ١٧]، وقال في موضع: «رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ»[المزمل: ٩]، فكيف وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

قيل: أما قوله: «رب المشرق والمغرب»، أراد به الجهة، فالمشرق جهة، والمغرب جهة.

وقوله: «ربُّ المشرقين ورب المغربين»، أراد: مشرق الشتاء ومشرق الصيف، وأراد بالمغربين: مغرب الشتاء ومغرب الصيف.

وقوله: «بربِّ المشارق والمغارب»، أراد: أن الله تعالى خلق للشمس ثلاثمائة وستين كوة في المشرق، وثلاثمائة وستين كوة في المغرب، على عدد أيام السنة، تطلع الشمس كل يوم من كوة منها، وتغرب في كوة منها، لا ترجع إلى الكوة التي تطلع منها إلى ذلك اليوم من العام المقبل، فهي المشارق والمغارب، وقيل: كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق، وكل موضع غربت عليه الشمس فهو مغرب، كأنه أراد: ربَّ جميع ما أشرقت عليه الشمس وغربت.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ قرأ عاصم برواية أبي بكر «بزينة» منونة(٢)، «الكواكبَ» نصب، أي: بتزييننا الكواكب، وقرأ حمزة وحفص «بزينةٍ» منونة، «الكواكبِ» خفضًا على البدل، أي: بزينة بالكواكب، أي: زيناها بالكواكب، وقرأ الآخرون: «بزينةِ الكواكبِ»، بلا تنوين على الإضافة.

قال ابن عباس: بضوء الكواكب.

٩٤/ب ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحفظناها حفظًا / ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ متمرد، يرمون بها.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «يسَّمَّعون» بتشديد السين والميم، أي: لا يتسمعون، فأدغمت التاء في السين، وقرأ الآخرون بسكون السين خفيف الميم ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: إلى الكتبة من الملائكة.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».
(٢) زيادة من «ب».

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾

و«الملأ الأعلى» هم الملائكة؛ لأنهم في السماء، ومعناه: أنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ من آفاق السماء بالشهب.

﴿دُحُورًا﴾ يبعدونهم عن مجالس الملائكة، يقال: دحره دحرًا ودحورًا، إذا طرده وأبعده ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ دائم، قال مقاتل: دائم إلى النفخة الأولى؛ لأنهم يحرقون ويتخبلون.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ كوكب مضيء قوي لا يخطئه، يقتله أو يحرقه أو يُخبله، وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه طمعًا في السلامة ونيل المراد، كراكب البحر، قال عطاء: سمي النجم الذي يرمى به الشياطين ثاقبًا؛ لأنه يثقبهم.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم، يعني: أهل مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ يعني: من السموات والأرض والجبال، وهذا استفهام بمعنى التقرير، أي: هذه الأشياء أشد خلقًا كما قال: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ»[غافر: ٥٧]، وقال: «ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا»[النازعات: ٢٧].

وقيل: «أمَّن خلقنا» يعني: من الأمم الخالية؛ لأن «من» يذكر فيمن يعقل، يقول: إن هؤلاء ليسوا بأحكم خلقًا من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بذنوبهم، فما الذي يؤمن هؤلاء من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ يعني: جيد حُرٍّ لاصق يعلق باليد، ومعناه: اللازم، أبدل الميم باءً كأنه يلزم اليد، وقال مجاهد والضحاك: منتن.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم التاء، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس.

والعجب من الله عزَّ وجلَّ ليس كالتعجب من الآدميين، كما قال: «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ»[التوبة: ٧٩]، وقال عزَّ وجلَّ: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»[التوبة: ٦٧]، فالعجب من الآدميين: إنكاره وتعظيمه، والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار والذم، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا، كما جاء في الحديث: «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٤/ ١٥١)، قال ابن الديبع الشيباني في «تمييز الطيب من الخبيث» ص٥١: (رواه القضاعي في «مسنده» من حديث ابن لهيعة بسنده عن عقبة بن عامر مرفوعًا، وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى، وإسناده حسن، وضعفه ابن حجر لأجل ابن لهيعة).
وانظر: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس»: (١/ ٢٨٦)، «الكامل» لابن عدي: (٤/ ١٤٦٥).

وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾
فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾

وجاء في الحديث: «عجب ربكم من سؤالكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم»(١).

وسئل الجنيد عن هذه الآية، فقال: إن الله لا يعجب من شيء، ولكن الله وافق رسوله لما عجب رسوله، فقال: «﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾[الرعد: ٥]»، أي: هو كما تقوله.

وقرأ الآخرون بفتح التاء على خطاب النبي ﷺ، أي: عجبتَ من تكذيبهم إياك ﴿وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ من تعجبك.

قال قتادة: عجب النبي ﷺ من هذا القرآن حين أُنزل وضلال بني آدم(٢)، وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به، فعجب من ذلك النبي ﷺ، فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ».

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: إذا وُعِظوا بالقرآن لا يتعظون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ قال ابن عباس ومقاتل: يعني: انشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ يسخرون ويستهزئون، وقيل: يستدعي بعضهم عن بعض السخرية.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (يعني: سحر بيّن)(٣).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: وآباؤنا الأولون.

﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ صاغرون، والدخور أشد الصَّغار.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي: قصة البعث أو القيامة ﴿زَجْرَةٌ﴾ أي: صيحة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أحياء.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يوم الحساب ويوم الجزاء.

---

(١) في المطبوع: «عجب ربكم من آلكم ...» رواه أبو عبيد في «الغريب» عن محمد بن عمر يرفعه، ثم قال: («الأل»: رفع الصوت بالدعاء، وقل بعضهم: يرويه «الأول»: وهو الشدة). انظر: «الكافي الشاف»: ص١٤١.

(٢) انظر: الطبري: (٢٣/ ٤٤)، «الدر المنثور»: (٧/ ٨٣)، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٥).

(٣) زيادة من «ب».

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القضاء، وقيل: يوم الفصل بين المحسن والمسيء ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أشركوا، اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أشباههم وأتباعهم وأمثالهم.

قال قتادة والكلبي: كل من عمل مثل عملهم، فأهل الخمر مع أهل الخمر، وأهل الزنا مع أهل الزنا.

وقال الضحاك ومقاتل: قرناءهم من الشياطين، كل كافر مع شياطنه في سلسلة.

وقال الحسن: وأزواجهم المشركات.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا، يعني: الأوثان والطواغيت، وقال مقاتل: يعني: إبليس وجنوده، واحتج بقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[يس: ٦٠].

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس: دلوهم إلى طريق النار، وقال ابن كيسان: قدِّموهم، والعرب تسمي السابق هاديًا.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم، يقال: وقفته وقفًا فوقف وقوفًا.

قال المفسرون: لما سيقوا إلى النار حُبِسُوا عند الصراط؛ لأن السؤال عند الصراط، فقيل: وَقِفُوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: عن جميع أقوالهم وأفعالهم. ورُوي عنه: عن لا إله إلَّا الله.

وفي الخبر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربعة أشياء: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»(١).

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا تتناصرون، يقال لهم توبيخًا: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا، يقول لهم خزنة النار هذا، جواب لأبي جهل حين قال يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[القمر: ٤٤].

فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قال ابن عباس: خاضعون، وقال الحسن: منقادون، يقال: استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع له، والمعنى: هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة، باب ما جاء في شأن القيامة الحساب والقصاص: (٧/ ١٠١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأقره المنذري في «الترغيب والترهيب»، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٣٤٦) للطبراني والبزار بنحوه، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير صامت بن معاذ وعدي بن عدي الكندي وهما ثقتان.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يتخاصمون.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الأتباع للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: من قبل الدين فتضلوننا عنه، (وتُروننا أن الدين ما تضلوننا به)[1]، قاله الضحاك، وقال مجاهد: عن الصراط الحق، واليمين عبارة عن الدين والحق، كما أخبر الله تعالى عن إبليس: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ»[الأعراف: ١٧]، فمن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبَّس عليه الحق.

١/٩٥ وقال بعضهم: كان الرؤساء / يحلفون لهم أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فمعنى قوله: «تأتوننا عن اليمين»، أي: من ناحية الأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها. وقيل: «عن اليمين»، أي: عن القوة والقدرة، كقوله: «لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ»[الحاقة: ٤٥]، والمفسرون على القول الأول.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: الرؤساء[2] للأتباع ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لم تكونوا على الحق فنضلكم عنه، أي: إنما الكفر من قِبَلِكم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ من قوة وقدرة فنقهركم على متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ضالين.

﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جميعًا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ يعني: كلمة العذاب، وهي قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[السجدة: ١٣] ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ العذاب، أي: أن الضالَّ والمُضِل جميعًا في النار.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ضالين.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الرؤساء والأتباع.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عباس: الذين جعلوا لله شركاء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يتكبرون عن كلمة التوحيد، ويمتنعون منها.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون: النبي ﷺ.

---

(١) في «ب»: (وتردوننا إلى الذي تضلوننا به).	(٢) في «ب»: (الرسل).

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

قال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد ﴿بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ في الدنيا من الشرك.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الموحدين.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ يعني: بكرة وعشيًا، (كما قال: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[مريم: ٦٢])(١).

﴿فَوَاكِهُ﴾ جمع الفاكهة، وهي الثمار كلها رطبها ويابسها، وهي كل طعام يؤكل للتلذذِ لا للقوت ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ بثواب الله ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لا يرى بعضهم قفَا بعضٍ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ إناء فيه شراب، ولا يكون كأسًا حتى يكون فيه شراب، وإلَّا فهو إناء ﴿مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ خمر جارية في الأنهار، ظاهرة تراها العيون.

﴿بَيْضَاءَ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن ﴿لَذَّةٍ﴾ أي: لذيذة ﴿لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قال الشعبي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها، قال الكلبي: إثم، وقال قتادة: وَجَعُ البطن، وقال الحسن: صداع.

وقال أهل المعاني: «الغَوْل» فساد يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالًا إذا أفسد عليه أمره في خفية، وخمرة الدنيا يحصل منها أنواع من الفساد، منها السُّكْر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول، ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي: «ينزِفون» بكسر الزاي، وافقهما عاصم في الواقعة، وقرأ الآخرون بفتح الزاي فيهما، فمن فتح الزاي فمعناه: لا يغلبهم على عقولهم ولا يسكرون، يقال: نزف الرجل فهو منزوف ونزيف، إذا سكر، ومن كسر الزاي فمعناه: لا ينفد شرابهم، يقال: أنزف الرجل فهو منزوف، إذا فنيت خمره.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حابسات الأعين غاضات الجفون، قصرن أعينهن على أزواجهنَّ لا ينظرن إلى غيرهم ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: حسان الأعين، يقال: رجل أعين وامرأة عيناء ونساءٌ عِين.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ (جمع البيضة)[١] ﴿مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ مصون مستور، وإنما ذكَّر «المكنون والبيض» جمع؛ لأنه رده إلى اللفظ.

قال الحسن: شبههنَّ ببيض النعامة تكنها بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة، ويقال: هذا أحسن ألوان النساء أن تكون المرأة بيضاء مشرّبة صفرة، والعرب تشبهها ببيضة النعامة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يعني: أهل الجنة في الجنة يسأل بعضُهم بعضًا عن حاله في الدنيا.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: من أهل الجنة: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ في الدنيا، ينكر البعث.

قال مجاهد: كان شيطانًا، وقال الآخرون: كان من الإنس[٢]، وقال مقاتل: كانا أخوين، وقال الباقون: كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا، وهما اللذان قصَّ الله تعالى خبرهما في سورة الكهف[٣] في قوله تعالى: «﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾»[الكهف: ٣٢].

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ بالبعث.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مجزيون ومحاسبون، وهذا استفهام إنكار.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إلى النار، وقيل: يقول المؤمن لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف منزلة أخي، فيقول أهل الجنة: أنت أعرف به منا.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ قال ابن عباس: إن في الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار[٤]، فاطلع هذا المؤمن ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ فرأى قرينه في وسط النار، وإنما سُمِّي وسط الشيء سواءً لاستواء الجوانب منه.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) انظر: الطبري: (٢٣/ ٥٨).

(٣) انظر فيما سبق: (٥/ ١٧٠) تعليق (٤).

(٤) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٩٤)، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٩)، والقول فيهما منسوب إلى كعب الأحبار.

قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾

﴿قَالَ﴾ له: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ والله، لقد كدت أن تهلكني، قال مقاتل: والله، لقد كدت أن تغويني، ومن أغوى إنسانًا فقد أهلكه.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ رحمته وإنعامه عليَّ بالإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك في النار.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ قال بعضهم: يقول هذا أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت: أفما نحن بميتين؟ فتقول لهم الملائكة: لا.

فيقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ وقيل: إنما يقولونه على جهة الحديث بنعمة الله عليهم في أنهم لا يموتون ولا يعذبون، وقيل: يقوله المؤمن لقرينه على جهة التوبيخ بما كان ينكره[1].

قال الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لمثل هذا المنزل، ولمثل هذا النعيم الذي ذكره من قوله: «أولئك لهم رزق معلوم» إلى «فليعمل العاملون».

﴿أَذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي ذكر لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ التي هي نزل أهل النار، والزقوم: ثمرة شجرة خبيثة مُرَّة كريهة الطعم، يُكره أهلُ النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ومنه قولهم: تزقّم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ الكافرين، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وقال ابن الزبعري لصناديد قريش: إنَّ محمدًا يخوِّفنا بالزقوم، والزقوم بلسان بربر: / الزبد والتمر، ٩٥/ب
فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال: يا جارية زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد[2].

فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ قعر النار، قال الحسن: أصلها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

---

(١) ذكر هذا القول صاحب «البحر المحيط»: (٧/ ٣٦٢).

(٢) انظر: الطبري: (٢٣/ ٦٣).

طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ
عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾
وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾

﴿طَلۡعُهَا﴾ ثمرها، سمي طلعًا؛ لطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الشياطين بأعيانهم شبه بها لقبحها؛ لأن الناس إذا وصفوا شيئًا بغاية القبح، قالوا: كأنه شيطان، وإن كانت الشياطين لا ترى؛ لأن قبح صورتها متصور في النفس، وهذا معنى قول ابن عباس والقرظي، وقال بعضهم: أراد بالشياطين الحيّات، والعرب تُسمي الحية القبيحة المنظر شيطانًا، وقيل: هي شجرة قبيحة مرّة منتنة تكون في البادية، تسميها العرب رؤوس الشياطين.

﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ والملء: حشو الوعاء لا يحتمل الزيادة عليه.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا﴾ خلطًا ومزاجًا ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾﴾ من ماء حار شديد الحرارة، يقال: لهم إذا أكلوا الزقوم: اشربوا عليه الحميم، فيشوب الحميم في بطونهم الزقوم فيصير شوبًا لهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ﴾ بعد شرب الحميم (﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ وذلك أنهم يوردون الحميم)[1] لشربه وهو خارج من الحميم كما تورد الإبل الماء، ثم يردون إلى الجحيم، دلَّ عليه قوله تعالى: «يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ»[الرحمن: ٤٤]، وقرأ ابن مسعود: «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم».

﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ﴾ وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ يسرعون، قال الكلبي: يعملون مثل أعمالهم.

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ من الأمم الخالية.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الكافرين، أي: كان عاقبتهم العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الموحدين، نجوا من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ دعا ربه على قومه، فقال: «فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ»[القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ نحن، يعني: أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾
فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الغم العظيم)[1] الذي لحق قومه وهو الغرق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وأراد: أن الناس كلهم من نسل نوح.

روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلَّا ولده ونساءهم[2].

قال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك[3].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: أبقينا له ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (أي: سلام عليه منَّا في العالمين)[1]، وقيل: أي: تركنا عليه في الآخرين أن يصلى عليه إلى يوم القيامة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (يعني: الكفار)[1].

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ (أي: أهل دينه وسنته)[1] ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ مخلص من الشرك والشك.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ استفهام توبيخ.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ يعني: أتأفكون إفكًا: وهو أسوأ الكذب، وتعبدون آلهة سوى الله.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره، أنه يصنع بكم.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (ونساؤه).

(٣) ذكره ابن كثير في «التفسير»: (٤/ ١٣).

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس: كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم؛ ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم (ويقربون لهم القرابين)[1]، ويصنعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم - زعموا - للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج غدًا معنا إلى عيدنا؟ فنظر إلى النجوم فقال: إني سقيم، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرون من الطاعون فرارًا عظيمًا، قال الحسن: مريض، وقال مقاتل: وجع، وقال الضحاك: سأسقم.

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم، فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها، كما قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ مال إليها ميلة في خفية، ولا يقال: «راغ» حتى يكون صاحبه مخفيًا لذهابه ومجيئه ﴿فَقَالَ﴾ استهزاءً بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ يعني: الطعام الذي بين أيديكم.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ مال عليهم ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: كان يضربهم بيده اليمنى؛ لأنها أقوى على العمل من الشمال، وقيل: باليمين، أي: بالقوة، وقيل: أراد به القسم الذي سبق منه، وهو قوله: «وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم»[الأنبياء: ٥٧].

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ يعني: إلى إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ يسرعون، وذلك أنهم أخبروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه. قرأ الأعمش وحمزة: «يُزفون» بضم الياء، وقرأ الآخرون بفتحها، وهما لغتان، وقيل: بضم الياء، أي: يحملون دوابهم على الجد والإسراع.

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم - على وجه الحجاج -: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يعني: ما تنحتون بأيديكم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بأيديكم من الأصنام، وفيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ معظم النار، قال مقاتل: بنوا له حائطًا من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعًا، وملؤوه من الحطب وأوقدوا فيه النار وطرحوه فيها.

---

(١) في «ب»: (ويفرشون لهم الفراش).

فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾ شرًّا، وهو أن يحرقوه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: المقهورين، حيث سلَّم الله تعالى إبراهيم وردَّ كيدهم.

﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: مهاجر إلى ربي، والمعنى: أهجر دار الكفر وأذهب إلى مرضاة ربي، قاله بعد الخروج من النار، كما قال: «إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ»[العنكبوت: ٢٦] ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى حيث أمرني بالمصير إليه، وهو الشام.

قال مقاتل: فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يعني: هب لي ولدًا صالحًا من الصالحين.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ قيل: غلام في صغره، حليم في كبره، ففيه بشارة أنه ابن، وأنه يعيش فينتهي في السن حتى يوصف بالحلم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ قال/ ابن عباس وقتادة: يعني: المشي معه إلى الجبل، وقال مجاهد عن ابن عباس: ٩٦/أ
لمَّا شبَّ حتى بلغ سعيُه سعي إبراهيم(١)، والمعنى: بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله، قال الكلبي: يعني: العمل لله تعالى، وهو قول الحسن ومقاتل بن حيان وابن زيد، قالوا: هو العبادة لله تعالى.

واختلفوا في سنه، قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: كان ابن سبع سنين.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أُمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق، وإليه ذهب من الصحابة: عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي، وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير (عن ابن عباس، وقالوا: كانت هذه القصة بالشام)(٢).

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٧٧).
(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

وروي عن سعيد بن جبير قال: أُرِيَ إبراهيم ذبح إسحاق في المنام[1]، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى، فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش، ذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة وطويت له الأودية والجبال.

وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي، وهي رواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل.

وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، ومن ذهب إلى أن الذبيح إسحاق احتج من القرآن بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾[الصافات: ١٠١-١٠٢]، أمره بذبح من بَشَّره به، وليس في القرآن أنه بُشِّر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾[هود: ٧١].

ومن ذهب إلى أنه إسماعيل احتج بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١١٢]، دلَّ على أن المذبوح غيره، وأيضًا قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١]، فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه.

قال القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز رجلًا كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أيُّ ابني إبراهيم أُمِرَ بذبحِه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله تعالى بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق.

ومن الدليل عليه: أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج.

قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة.

وعن ابن عباس قال: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة، قد وحش، يعني: يبس.

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا صميع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

وأما قصة الذبح قال السدي: لما دعا إبراهيم فقال: ربِّ هب لي من الصالحين، وبُشِّرَ به، قال: هو إذًا لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك، هذا هو السبب في أمر الله تعالى إيَّاه بذبح ابنه،

---

(١) انظر فيما سبق: (٤/ ٢١٥) تعليق (١).

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾

فقال عند ذلك لإسحاق: انطلق فقرب قرباناً لله تعالى فأخذ سكيناً وحبلًا وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال له الغلام: يا أبت، أين قربانك؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كان إبراهيم إذا زار هاجرَ وإسماعيلَ حُمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أُمِر في المنام أن يذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلًا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح رَوي في نفسه، أي: فكَّر من الصباح إلى الرواح، أمِنَ الله هذا الحلم أمْ من الشيطان؟ فمن ثَمَّ سُمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانيًا، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله عزَّ وجلَّ، فمن ثَمَّ سُمي يوم عرفة.

قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متواليات، فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

قال حمزة والكسائي: «تُرِي» بضم التاء وكسر الراء: ماذا تشير، وإنما أمره ليعلم صبره على أمر الله تعالى، وعزيمته على طاعته. وقرأ العامة بفتح التاء والراء إلَّا أبا عمرو فإنه يُميلُ الراء.

قال له ابنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أُمِرَ إبراهيم بذلك، قال لابنه: يا بني خذِ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثَبِيْر أخبره بما أُمِر ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ أي: صرعه على الأرض، قال ابن عباس: أضجعه على جبينه على الأرض والجبهة بين الجبينين، قالوا: فقال له ابنه الذي أراد ذبحه: يا أبت اشددْ رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أُمي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرعْ مرَّ السكين على حلقي ليكون أهون عليَّ، فإن الموت شديد، وإذا أتيت أُمي فاقرأ عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد قميصي على أُمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: نِعْمَ العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبّله وقد ربطه وهو يبكي / (والابن أيضًا يبكي)[1]، ثم إنه ٩٦/ب
وضع السكين على حلقه فلم تُحَك السكين.

---

(١) زيادة من «ب».

ويروى أنه كان يجر الشفرة في حلقه فلا تقطع، فشحذها مرتين أو ثلاثًا بالحجر، كل ذلك لا تستطيع.

قال السدي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه[(١)]، قالوا: فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقَّةٌ تحول بينك وبين أمر الله تعالى، وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكين، ونُودي: أنْ يا إبراهيم قدْ صدَّقت الرؤيا.

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فتمثل له الشيطان رجلًا، وأتى أم الغلام، فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلّا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به، وأشد حبًا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربُّه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال له: يا غلام، هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلّا أن يذبحك، قال: ولِمَ؟ قال: زعم أن ربَّه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربُّه فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدو الله، فوالله لأمضينَّ لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئًا مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى[(٢)].

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عَرَضَ له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله عزَّ وجلَّ[(٣)].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾.

---

(١) انظر: الطبري: (٢٣/ ٧٨)، «الدر المنثور»: (٧/ ١١٠).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٨٢).
وانظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١١٠ ـ ١١١)، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ١٦ ـ ١٧).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٨٠).

وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾ الواو في «وناديناه» مقحمة صلة، مجازه: ناديناه كقوله: «فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ»[يوسف: ١٥]، أي: أوحينا إليه، فنودي من الجبل ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ تمَّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ والمعنى: إنا كما عفونا إبراهيم عن ذبح ولده نجزي من أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ الاختبار الظاهر، حيث اختبره بذبح ابنه، وقال مقاتل: البلاء هاهنا: النعمة، وهي أن فدي ابنه بالكبش.

فإن قيل: كيف قال: قد صدقت الرؤيا، وكان قد رأى الذبح ولم يذبح؟

قيل: جعله مصدقًا؛ لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب إسلامهما لأمر الله تعالى، وقد فعلا.

وقيل: (كان قد)[١] رأى في النوم معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم، فلذلك قال له: «قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ».

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبَّر جبريل، وكبَّر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه.

قال أكثر المفسرين: كان ذلك الكبش رعى في الجنة أربعين خريفًا[٢].

وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم هابيل[٣].

قال سعيد بن جبير: حقٌّ له أن يكون عظيمًا، قال مجاهد: سماه عظيمًا؛ لأنه متقبل[٤]، وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله، وقيل: عظيم في الشخص، وقيل: في الثواب.

وقال الحسن: ما فدي إسماعيل إلَّا بتيس من الأروى أُهبط عليه من ثبير[٥].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي: تركنا له في الآخرين ثناءً حسنًا.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٨٧) عن ابن عباس.

وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١١٣) أيضًا لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٨٦).

(٤) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٨٨).

(٥) أخرجه الطبري: (٢٣/ ٨٧)، وابن كثير في «التفسير»: (٤/ ١٧).

سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ
بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ
ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فمن جعل الذبيح إسماعيل قال: بشره بعد هذه القصة بإسحاق نبيًّا جزاءً لطاعته، ومن جعل الذبيح إسحاق قال: بُشِّرَ إبراهيم بنبوة إسحاق، رواه عكرمة عن ابن عباس، قال: بشر به مرتين حين ولد وحين نبيء.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بكون أكثر الأنبياء من نسله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ أي: مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: كافر ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ أي: الغم العظيم، وهو الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم، وقيل: من الغرق.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ يعني: موسى وهارون وقومهما ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ على القبط.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: المستنير وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ روي عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس، وفي مصحفه: «وإن إدريس لمن المرسلين»، وهذا قول عكرمة، وقال الآخرون: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، قال ابن عباس: هو ابن عم اليسع.

قال محمد بن إسحاق: هو إلياس بن بشر بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

وقال أيضًا محمد بن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار: لما قبض الله عزَّ وجلَّ حزقيل النبي ﷺ، عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر فيهم الفساد والشرك، ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله، فبعث الله عزَّ وجلَّ إليهم إلياس نبيًّا، وكانت الأنبياء / من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا ١/٩٧
من التوراة، وبنو إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام، وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطًا منهم ببعلبك ونواحيها، وهم السبط الذين كان منهم إلياس، فبعثه الله تعالى إليهم نبيًّا، وعليهم يومئذ ملك يقال له: آجب، قد أضل قومه وأجبرهم على عبادة الأصنام، وكان يعبد هو وقومه صنمًا يقال له: بعل، وكان طوله عشرين ذراعًا وله أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وهم لا يسمعون منه شيئًا إلَّا ما كان من أمر الملك فإنه صدقه وآمن به، فكان إلياس يُقَوِّمُ أمره ويسدده ويرشده، وكان لآجب الملك هذا امرأة يقال لها: أزبيل، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها، وكانت تَبْرُزُ للناس وتقضي بين الناس، وكانت قتالة للأنبياء، يقال: هي التي قتلت يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه، وكان قد خلّص من يدها ثلاثمائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم، وكانت في نفسها غير محصنة، وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل، وقتلت كلهم بالاغتيال، وكانت معمرة يقال: أنها ولدت سبعين ولدًا، وكان لآجب هذا جار رجل صالح يقال له: مزدكي، وكانت له جنينة يعيش منها، ويقبل على عمارتها ومرمتها، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها، وكان آجب الملك يحسن جوار صاحبها مزدكي، ويحسن إليه، وامرأته أزبيل تحسده لأجل تلك الجنينة، وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها، وتحتال أن تقتله والملك ينهاها عن ذلك ولا تجد عليه سبيلًا، ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد وطالت غيبته فاغتنمت امرأته أزبيل ذلك فجمعت جمعًا من الناس، وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي أنه سب زوجها آجب فأجابوها إليه، وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على مَن سبَّ الملك إذا قامت عليه البينة، فأحضرت مزدكي وقالت له: بلغني أنك شتمت الملك فأنكر مزدكي، فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور، فأمرت بقتله وأخذت جنينته، فغضب الله عليهم للعبد الصالح، فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر، فقال لها: ما أصبتِ، ولا أرانا نفلح بعده، فقد جاورنا منذ زمان فأحسنَّا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا، فختمتِ أمره بأسوأ الجوار، فقالت: إنما غضبت لك وحكمت بحكمك، فقال لها: أو ما كان يسعه حلمك فتحفظين له جواره؟ قالت: قد كان ما كان، فبعث الله تعالى إلياس إلى آجب الملك وقومه، وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب لوليّه حين قتلوه ظلمًا، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يردَّا الجنينة على ورثة مزدكي أن يهلكهما، يعني: آجب وامرأته في جوف الجنينة، ثم يدعهما جيفتين مُلقاتين فيها حتى

تتعرى عظامهما من لحومهما، ولا يتمتعان بها إلَّا قليلًا، قال: فجاء إلياس وأخبره بما أوحى الله تعالى إليه في أمره وأمر امرأته ورد الجنينة، فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه عليه، ثم قال له: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعو إليه إلَّا باطلًا، وما أرى فلانًا وفلانًا ـ سمَّى مُلوكًا منهم قد عبدوا الأصنام ـ إلَّا على ما مثل ما نحن عليه يأكلون ويتمتعون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرُهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل، قال: وهمَّ الملك بتعذيب إلياس وقتله، فلما أحس إلياس بالشر (والمكر به)[1] رفضه وخرج عنه، فلحق بشواهق الجبال، وعاد الملك إلى عبادة بعل، وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه.

ويقال: إنه بقي سبع سنين شريدًا خائفًا يأوي إلى الشعاب والكهوف، يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر، وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون والله يستره، فلما مضى سبع سنين أذن الله في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله عزَّ وجلَّ ابنًا لآجب وكان أحب ولده إليه وأشبههم به، فأدنف حتى يئس منه، فدعا صنمه بعلًا ـ وكانوا قد فتنوا ببعل وعظَّموه حتى جعلوا له أربعمائة سادن، فوكلوهم به وجعلوهم أنبياءه[2] ـ، وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم، والأربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلال فيبثونها للناس، فيعملون بها ويسمونهم أنبياء.

فلما اشتد مرض ابن الملك طلب إليهم الملك أن يتشفعوا إلى بعل، ويطلبوا لابنه من قبله الشفاء فدعوه فلم يجبهم، ومنع الله الشيطان فلم يمكنه الولوج في جوفه، وهم مجتهدون في التضرع إليه، فلما طال عليهم ذلك قالوا لآجب: إن في ناحية الشام آلهة أخرى فابعث إليها أنبياءك فلعلَّها تشفع لك إلى إلهك بعل، فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لأجابك، قال آجب: ومن أجل ماذا غضب عليَّ وأنا أطيعه؟ قالوا: من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطت فيه حتى نجا سليمًا وهو كافر بإلهك، قال آجب: وكيف لي أن أقتل إلياس وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني، وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد، فلو عُوفي ابني لفرغت لطلبه حتى أجده فأقتله فأرضي إلهي، ثم إنه بعث أنبياءه الأربعمائة إلى الآلهة التي بالشام يسألونها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفي ابنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويكلمهم، وقال له: لا تخف فإني سأصرف عنك شرهم وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل، فلما لقيهم استوقفهم، فلما وقفوا قال لهم: إن الله تعالى أرسلني إليكم وإلى من وراءكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم، فارجعوا إليه وقولوا له:
٩٧/ب إنَّ الله تعالى يقول لك: ألستَ / تعلم يا آجب أني أنا الله لا إله إلَّا أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم، ورزقهم وأحياهم وأماتهم، فجهلك وقلة علمك حملك على أن تشرك بي، وتطلب الشفاء لابنك من غيري

(١) زيادة من «ب».
(٢) ساقط من «ب».

ممن لا يملكون لأنفسهم شيئًا إلّا ما شئت، إني حلفت باسمي لأغيظنَّك في ابنك ولأميته في فوره هذا حتى تعلم أن أحدًا لا يملك له شيئًا دوني.

فلما قال لهم هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رعبًا، فلما صاروا إلى الملك فأخبروه بأن إلياس قد انحط عليهم، وهو رجل نحيف طوال قد نحل وتمعط شعره وتقشر جلده، عليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا، فلما صار معنا قذف له في قلوبنا الهيبة والرعب، فانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير فلم نقدر على أن نكلمه ونراجعه حتى رجعنا إليك، وقصوا عليك كلام إلياس، فقال آجب: لا ننتفع بالحياة ما كان إلياس حيًّا وما يطاق إلّا بالمكر والخديعة، فقيض له خمسين رجلًا من قومه ذوي القوة والبأس، وعهد إليهم عهده، وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال به، وأن يطمعوه في أنهم قد آمنوا به، هم ومن وراءهم (ليستنهم إليهم)[1] ويغتر بهم فيمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس، ثم تفرقوا فيه ينادونه بأعلى أصواتهم، ويقولون: يا نبي الله، ابرز لنا وامنن علينا بنفسك، فإنا قد آمنَّا بك وصدقناك، وملكنا آجب وجميع قومنا، وأنت آمن على نفسك وجميع بني إسرائيل، يقرؤون عليك السلام ويقولون: قد بَلَغَتنا رسالتك وعرفنا ما قلت، (فآمنَّا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا فهلمَّ إلينا وأقم بين أظهرنا واحكم فينا)، فإنا ننقاد لما أمرتنا، وننتهي عما نهيتنا وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا وطاعتنا، فارجع إلينا، وكل هذا منهم مُمَاكَرةٌ وخديعة.

فلما سمع إلياس مقالتهم وقعت في قلبه وطمع في إيمانهم، وخاف الله إنْ هو لم يظهر لهم، فألهمه الله التوقف والدعاء، فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم، فما استتم قوله حتى حُصبوا بالنار من فوقهم فاحترقوا أجمعين، قال: وبلغ آجب الخبر فلم يرتدع من همه بالسوء، واحتال ثانيًا في أمر إلياس، وقيض له فئة أُخرى مثل عدد أُولئك أقوى منهم وأمكن من الحيلة والرأي، فأقبلوا ـ أي: حتى توقَّلوا ـ أي: صعدوا قلل تلك الجبال متفرقين، وجعلوا ينادون: يا نبي الله، إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطواته، إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا، وإن أولئك نافقوا فصاروا إليك ليكيدوا بك في غير رأينا، ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم، فالآن قد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم وانتقم لنا ولك منهم، فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم النار، فاحترقوا عن آخرهم، وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه، فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيًا ازداد غضبًا على غضب، وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه، إلّا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه فلم يمكنه، فوجه نحو إلياس المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه،

---

(١) في «أ»: (ليستقيم أن يسكن بهم).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءًا، وإنما أظهر له لما اطلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضيًا عنه؛ لما هو عليه من الكفاية والأمانة وسداد الرأي، فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه، وأوعز إلى الفئة ـ دون الكاتب ـ أن يوثقوا إلياس ويأتوا به إن أراد التخلف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقًا به لم يروعوه، ثم أظهر مع الكاتب الإنابة وقال له: قد آن لي أن أتوب وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس، ولست آمن أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته، فانطلق إليه وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضاء ربنا وخلع أصنامنا إلَّا أن يكون إلياس بين أظهرنا، يأمرنا وينهانا، ويخبرنا بما يرضي ربنا، وأمر قومه فاعتزلوا الأصنام، وقال له: أخبر إلياس أنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد، وأرجينا أمرها حتى ينزل إلياس فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها، وكان ذلك مكرًا من الملك.

فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس ثم ناداه، فعرف إلياس صوته، فتاقت نفسه إليه وكان مشتاقًا إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إليه أن ابرز إلى أخيك الصالح فالقه، وجدد العهد به، فبرز إليه وسلم عليه وصافحه، وقال له: ما الخبر؟ فقال المؤمن: إنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغية وقومه، ثم قص عليه ما قالوا، ثم قال له: وإني لخائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني فمرني بما شئت أفعله، إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته، وإن شئتَ جاهدته معك، وإن شئت ترسلني إليه بما تحب فأبلغه رسالتك، وإن شئتَ دعوتَ ربَّك يجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا، فأوحى الله تعالى إلى إلياس: أن كل شيء جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك، وإن آجب إن أخبرته رسلُهُ أنك قد لقيتَ هذا الرجل، ولم يأت بك اتهمه وعرف أنه قد داهن في أمرك، فلم يأمن أن يقتله، فانطلق معه فإني سأشغل عنكما آجب فأضاعف على ابنه البلاء، حتى لا يكون له همٌّ غيره، ثم أميته على شرِّ حال، فإذا مات فارجع عنه، قال: فانطلق معهم حتى قدموا على آجب، فلما قدموا شدَّد الله تعالى الوجع على ابنه وأخذ الموت يكظمه، فشغل الله تعالى بذلك آجب وأصحابه عن إلياس، فرجع إلياس سالمًا إلى مكانه، فلما مات ابن آجب وفرغوا من أمره وقلَّ جزعه انتبه لإلياس، وسأل عنه الكاتب الذي جاء به، فقال: ليس لي به علم شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه، ولم أكن أحسبك إلَّا قد استوثقت منه، فانصرف عنه آجب وتركه لما فيه من الحزن على ابنه.

فلما طال الأمر على إلياس ملَّ السكون في الجبال واشتاق إلى الناس نزل من الجبل فانطلق حتى نزل
١/٩٨ بامرأة، وهي أم يونس بن متَّى ذي النون / استخفى عندها ستة أشهر ويونُس بن متَّى يومئذ مولود يرضع، فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال، فأحب اللحوق بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه، فجزعت أم يونس لفراقه فأوحشها فقده، ثم لم تلبث إلَّا يسيرًا حتى مات ابنها يونس حين فطمته، فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل ترقى الجبال

وتطوف فيها حتى عثرت عليه، فوجدته وقالت له: إني قد فجعت بعدك لموت ابني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي، وليس لي ولد غيره، فارحمني وادع لي ربك جل جلاله ليحيي لي ابني وإني قد تركته مسجًى لم أدفنه، وقد أخفيت مكانه، فقال لها إلياس: ليس هذا مما أُمرتُ به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربي، فجزعت المرأة وتضرعت فأعطف الله تعالى قلب إلياس لها، فقال لها: متى مات ابنك؟ قالت: منذ سبعة أيام فانطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أُخرى حتى انتهى إلى منزلها، فوجد ابنها ميتًا له أربعة عشر يومًا، فتوضأ وصلى ودعا، فأحيا الله تعالى يونس بن متى، فلما عاش وجلس وثب إلياس وتركه وعاد إلى موضعه.

فلما طال عصيان قومه ضاق بذلك إلياس ذرعًا فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود: يا إلياس، ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه؟ ألستَ أميني على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي من خلقي؟ فسلني أعطك، فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، قال: تميتني وتلحقني بآبائي فإني مللتُ بني إسرائيل وملوني، فأوحى الله تعالى إليه: يا إلياس، ما هذا باليوم الذي أُعري عنك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحها بك وبأشباهك، وإن كنت قليلًا ولكن سلني فأعطك، فقال إلياس: إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله تعالى: فأيّ شيء تريد أن أعطيك؟ قال تمكنني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشر عليهم سحابة إلَّا بدعوتي، ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلَّا بشفاعتي، فإنه لا يذلهم إلَّا ذلك، قال الله تعالى: يا إلياس، أنا أرحم بخلقي من ذلك، وإن كانوا ظالمين، قال: فست سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، قال: فخمس سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، ولكني أعطيك ثأرك ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس: فبأي شيء أعيش؟ قال: أسخر لك جيشًا من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط، قال إلياس: قد رضيت، قال: فأمسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهدًا شديدًا، وإلياس على حالته مستخفٍ من قومه، يوضع له الرزق حيث ما كان، وقد عرف ذلك قومه، وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا: لقد دخل إلياس هذا المكان، وطلبوه ولقي من أهل ذلك المنزل شرًّا.

قال ابن عباس: أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط، فمرَّ إلياس بعجوز فقال لها: هل عندك طعام؟ قالت: نعم، شيء من دقيق وزيت قليل، قال: فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسَّه حتى ملأ جرابها دقيقًا، وملأ خوابيها زيتًا، فلما رأوا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مرَّ بي رجل حاله كذا وكذا فوصفته بوصفه فعرفوه، فقالوا: ذلك إلياس، فطلبوه فوجدوه فهرب منهم، ثم إنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له: اليسع بن أخطوب به ضَرٌّ، فآوته وأخفت أمره، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسعُ إلياس فآمن به وصدقه ولزمه، وكان يذهب حيث ما ذهب، وكان إلياس قد أسنَّ فكبر واليسع شابٌّ،

ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس: أنك قد أهلكت كثيرًا من الخلق ممن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام بحبس المطر، فيزعمون ـ والله أعلم ـ أن إلياس قال: يا رب، دعني أكن أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء، لعلَّهم أن يرجعوا وينزعوا عمَّا هم عليه من عبادة غيرك، فقيل له: نعم، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال: إنكم قد هلكتم جوعًا وجهدًا، وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم، وإنكم على باطل، فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل، فنزعتم ودعوت الله تعالى ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا: أنصفت، فخرجوا بأوثانهم فدعوها، فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، ثم قالوا لإلياس: إنا قد هلكنا فادع الله تعالى لنا، فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبَّقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم، وأحييت بلادهم، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد، ولم ينزعوا عن كفرهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه، فلما رأى ذلك إلياس دعا ربه عزَّ وجلَّ أن يريحه منهم، فقيل له ـ فيما يزعمون ـ: انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كانا بالموضع الذي أُمر أقبل فرس من نار، وقيل: لونه كلون النار، حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس، فانطلق به الفرس فناداه اليسع: يا إلياس، ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، فكان ذلك آخر العهد به، فرفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش فكان إنسيًا ملكيًا أرضيًا سماويًا، وسلَّط الله تعالى على آجب الملك وقومه عدوًّا لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم، فقتل آجب وامرأته أزبيل في بستان مزدكي، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين[1] في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما،
٩٨/ب ونبَّأ الله تعالى اليسع وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إليه وأيده، فآمنت به بنو إسرائيل / فكانوا يعظِّمونه، وحُكْمُ الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع[2].

وروى السري بن يحيى عن عبد العزيز بن أبي روّاد قال: الخضر وإلياس يصومان شهر رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسم في كل عام.

وقيل: إن إلياس موكَّل بالفيافي، والخضر موكل بالبحار[3]، فذلك قوله تعالى: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) أخرج الطبري القصة من طريق ابن إسحاق في «التاريخ»: (١/ ٤٦١ ـ ٤٦٤)، واختصرها في «التفسير»: (٢٣/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١١٨).

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون[1] ﴿بَعْلًا﴾ وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه، ولذلك سميت مدينتهم بعلبك، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: «البعل»: الربُّ بلغة أهل اليمن ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا تعبدونه.

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب: «الله ربَّكم وربَّ» بنصب الهاء والباءين على البدل، وقرأ الآخرون برفعهن على الاستئناف.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ من قومه، فإنهم نَجَوْا من العذاب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قرأ نافع وابن عامر «آل ياسين» بفتح الهمزة مشبعة، وكسر اللام مقطوعة؛ لأنها في المصحف مفصولة، (وقرأ الآخرون بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة)[1].

فمن قرأ «آل يس» مقطوعة، قيل: أراد آل محمد ﷺ، وهذا القول بعيد؛ لأنه لم يُسْبَق له ذكر.

وقيل: أراد آل إلياس.

والقراءة المعروفة بالوصل، واختلفوا فيه، فقد قيل: إلياسين لغة في إلياس، مثل: إسماعيل وإسماعين وميكائيل وميكائين.

وقال الفراء: هو جمع أراد: إلياس وأتباعه من المؤمنين، فيكون بمنزلة الأشعرين والأعجمين بالتخفيف، وفي حرف عبد الله بن مسعود: «سلامٌ على إدراسين»، يعني: إدريس وأتباعه؛ لأنه يقرأ «وإن إدريس لمن المرسلين»[2].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: الباقين في العذاب.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٩١، ٣٩٢).

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ والتدمير: الإهلاك.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على آثارهم ومنازلهم ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وقت الصباح.

﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ يريد: تمرون بالنهار والليل عليهم إذا ذهبتم إلى أسفاركم ورجعتم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ فتعتبرون بهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ من جملة رسل الله.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ يعني: هرب.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ووهب: كان يونس وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمَشْور[١] منهم، فقصد البحر فركب السفينة، فاحتبست السفينة فقال الملاحون: هاهنا عبد آبق من سيده، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فاقترعوا ثلاثًا فوقعت على يونس، فقال يونس: أنا الآبق، وزجَّ نفسه في الماء.

ورُوي في القصة: أنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له، فجاء مركب فأراد أن يركب معهم فقدَّم امرأته ليركب بعدها، فحال الموج بينه وبين المركب ومرَّ المركب، ثم جاءت موجة أُخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب فأخذ الابن الأصغر، فبقي فريدًا، فجاء مركب آخر فركبه فقعد ناحية من القوم، فلما مرت السفينة في البحر ركدت، فاقترعوا، وقد ذكرنا القصة في سورة يونس[٢].

فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع، والمساهمة: إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ المقروعين.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ آتٍ بما يلام عليه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ من الذاكرين لله قبل ذلك، وكان كثير الذكر، وقال ابن عباس: من المصلين، وقال وهب: من العابدين، وقال الحسن: ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملًا صالحًا، وقال الضحاك: شكرَ اللهُ له طاعتَه القديمة.

---

(١) المَشْور: الخَجِل، وفي «أ»: (كالمشوَّر).

(٢) انظر فيما سبق: (٤/ ١٥١ ـ ١٥٢).

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

وقيل: «فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ» في بطن الحوت، قال سعيد بن جبير: يعني قوله: «لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ»[الأنبياء: ٨٧].

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لصار بطن الحوت له قبرًا إلى يوم القيامة ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ﴾ طرحناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ يعني: على وجه الأرض، قال السدي: بالساحل، والعراء: الأرض الخالية عن الشجر والنبات ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ عليل، كالفرخ الممعَّط، وقيل: كان قد بليَ لحمه ورقَّ عظمه ولم يبق له قوة.

واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت، فقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقال عطاء: سبعة أيام، وقال الضحاك: عشرين يومًا، وقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يومًا، وقال الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية(١).

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: له، وقيل: عنده ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ يعني: القرع، على قول جميع المفسرين.

قال الحسن ومقاتل: كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء، نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين.

قال مقاتل بن حيان: فكان يونس يستظل بالشجرة، وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي، فنام نومة فاستيقظ وقد يبست الشجرة فحزن حزنًا شديدًا وأصابه أذى الشمس فجعل يبكي، فبعث الله تعالى إليه جبريل وقال: أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك وقد أسلموا وتابوا(٢).

فإن قيل: قال هاهنا: «۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ»، وقال في موضع آخر: «لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ»[القلم: ٤٩] فهذا يدل على أنه لم ينبذ؟

قيل: «لولا» هناك يرجع إلى الذم، معناه: لولا نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، ولكن تداركه النعمة فنبذ، وهو غير مذموم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه، وقوله: «وأرسلناه»، أي: وقد أرسلناه، وقيل: كان إرساله بعد خروجه من بطن الحوت إليهم، وقيل: إلى قوم آخرين ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ قال ابن عباس: معناه: ويزيدون، «أو» بمعنى

---

(١) ذكر هذه الأقوال السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٢٧).

(٢) انظر: الطبري: (٢٣/ ١٠٣-١٠٤).

فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثٗا وَهُمۡ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾

«الواو»، كقوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾[المرسلات: ٦]، وقال مقاتل والكلبي: معناه: بل يزيدون، وقال الزجاج: «أو» هاهنا على أصله، ومعناه: أو يزيدون على تقديركم وظنكم، كالرجل يرى قومًا فيقول: هؤلاء ألف أو يزيدون، فالشك على تقدير المخلوقين، والأكثرون على أن معناه: ويزيدون.

١/٩٩ واختلفوا في مبلغ تلك الزيادة / فقال ابن عباس ومقاتل: كانوا عشرين ألفًا، ورواه أُبيُّ بن كعب عن رسول الله ﷺ[١]، وقال الحسن: بضعًا وثلاثين ألفًا، وقال سعيد بن جبير: سبعين ألفًا[٢].

﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ يعني: الذين أرسل إليهم يونس بعد معاينة العذاب ﴿فَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾ إلى انقضاء آجالهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ فاسأل يا محمد أهل مكة، وهو سؤال توبيخ ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله[٣]، يقول: جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين.

﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثٗا﴾ معناه: أخلقنا الملائكة إناثًا ﴿وَهُمۡ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ حاضرون خلْقَنا إيَّاهم، نظيره قوله: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلۡقَهُمۡۚ﴾[الزخرف: ١٩].

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿أَصۡطَفَى﴾ قرأ أبو جعفر «الكاذبون اصطفى» موصولًا، على الخبر من قول المشركين، وعند الوقف يبتدىء «اصطفى» بكسر الألف، وقراءة العامة بقطع الألف؛ لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة، مثل: استكبر ونحوها ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ لله بالبنات، ولكم بالبنين؟! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أفلا تتعظون.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير: (٩/ ٩٧)، وقال: (هذا حديث غريب)، قال المباركفوري: (وفي سنده مجهول)، والطبري: (٢٣/ ١٠٤)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٣٢) أيضًا لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٠٤)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٣٢) لابن أبي حاتم.

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١٣٣).

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ برهان بيّن على أن لله ولدًا.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذي لكم فيه حجة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ في قولكم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد وقتادة: أراد بالجِنَّة: الملائكة، سُمّوا جِنَّة؛ لاجتنانهم عن الأبصار، وقال ابن عباس: حي من الملائكة يقال لهم: الجن، ومنهم إبليس، قالوا: هم بنات الله، وقال الكلبي: قالوا ـ لعنهم الله ـ بل تزوج من الجن فخرج منها الملائكة[1]، تعالى الله عن ذلك، وقد كان زعم بعض قريش أن الملائكة بنات الله، تعالى الله، فقال أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن[2].

وقال الحسن: معنى النسب أنهم أشركوا الشياطين في عبادة الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ يعني: قائلي هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ في النار، ثم نزه نفسه عمّا قالوا فقال:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ هذا استثناء من المحضرين، أي: أنهم لا يحضرون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يقول لأهل مكة: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من الأصنام.

﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما تعبدون ﴿بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ بمضلين أحدًا.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ إلّا من قدّر الله أنه سيدخل النار، أي: سبق له في علم الله الشقاوة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ يقول جبرائيل للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة إلّا له مقام معلوم، أي: ما منّا ملك إلّا له مقام معلوم في السموات يعبد الله فيه.

قال ابن عباس: ما في السموات موضع شبر إلّا وعليه ملك يصلي أو يسبح.

وروينا عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «أطّت السماءُ، وحقَّ لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلّا وملك واضع جبهته ساجدًا لله»[3].

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٣/١٠٨).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/١٠٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/١٣٣) أيضًا لآدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا»: (٦/٦٠١ ـ ٦٠٣)، وقال: (حسن غريب)، =

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾

قال السدي: إلّا له مقام معلوم في القربة والمشاهدة.

وقال أبو بكر الوراق: إلّا له مقام معلوم يعبد الله عليه، كالخوف والرجاء والمحبة والرضا.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥﴾ قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم، وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء للعبادة كصفوف الناس في الأرض.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ أي: المصلّون المنزهون الله عن السوء، يخبر جبريل عليه السلام (النبي ﷺ)[1] أنهم يعبدون الله بالصلاة والتسبيح، وأنهم ليسوا بمعبودين، كما زعمت الكفار، ثم أعاد الكلام إلى الإخبار عن المشركين فقال: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ وقد كانوا، يعني: أهل مكة ﴿لَيَقُولُونَ ۝١٦٧﴾ لام التأكيد.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٦٨﴾ أي: كتابًا مثل كتاب الأولين.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أتاهم ذلك الكتاب كفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾ هذا تهديد لهم.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ وهي قوله: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي»[المجادلة: ٢١].

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣﴾ أي: حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة في العاقبة.

﴿فَتَوَلَّ﴾ أعرض ﴿عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤﴾ قال ابن عباس: يعني: الموت، وقال مجاهد: يوم بدر، وقال السدي: حتى نأمرك بالقتال، وقيل: إلى أن يأتيهم عذاب الله، قال مقاتل بن حيان: نسختها آية القتال[2].

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ إذا نزل بهم العذاب ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥﴾ ذلك، فقالوا: متى هذا العذاب؟

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ﴾ يعني: العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ قال مقاتل: بحضرتهم،

= وابن ماجه مطولًا في الزهد، باب الحزن والبكاء برقم٤١٩٠: (٢/ ١٤٠٢)، والإمام أحمد: (٥/ ١٧٣)، وصححه الحاكم: (٢/ ٥١٠)، وفي (٤/ ٥٧٩)، وقال: (صحيح الإسناد على شرط الشيخين) وأقره الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة»: برقم١٧٢٢.

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) انظر فيما سبق: (٣/ ٣٢) تعليق (١)، (٣/ ٢٧٣) تعليق (٢).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

وقيل: بفنائهم، وقال الفراء[1]: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا بالعذاب.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، أخبرنا مالك، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر، أتاها ليلًا، وكان إذا جاء قومًا بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد، والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[2].

ثم كرر ما ذكرنا تأكيدًا لوعيد العذاب فقال:

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ ثم نزه نفسه فقال:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الغلبة والقوة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ من اتخاذ الصاحبة والأولاد.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء عليهم السلام.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، أخبرنا أحمد ابن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم / بن سهلويه، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، عن ٩٩/ب
ثابت بن أبي صفية، عن أصبغ بن نباتة، عن علي قال: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين»[3][4].

---

(١) «معاني القرآن»: (٢/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، باب ما جاء في الخيل: (٢/ ٤٦٨)، البخاري في الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء: (٢/ ٨٩ ـ ٩٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة خيبر برقم ١٣٦٥: (٣/ ١٤٢٦ ـ ١٤٢٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٥٩).

(٣) ذكره ابن كثير في «التفسير»: (٤/ ٢٦) من رواية ابن أبي حاتم مرسلًا، وقال: (روي من وجه آخر متصلًا موقوفًا على عليّ ـ رضي الله عنه ـ وساقه من رواية المصنف، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٤١) لحميد بن زنجويه في «ترغيبه»، والحديث فيه أصبغ بن نباتة، قال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٢٠): (ليِّن الحديث)، وقال ابن معين: (ليس بشيء).

(٤) في «أ»: (تم المجلد الثالث بحمد الله وحسن توفيقه).

سورة صٓ

مكية[(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾

﴿صٓ﴾ قيل: هو قسم، وقيل: اسم السورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي في أوائل السور.

وقال محمد بن كعب القرظي: «صٓ» مفتاح اسم الصمد، وصادق الوعد[(٢)].

وقال الضحاك: معناه: صدق الله[(٣)].

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: صدق محمد ﷺ.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ أي: ذي البيان، قاله ابن عباس ومقاتل، وقال الضحاك: ذي الشرف، دليله قوله تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ»[الزخرف: ٤٤]، وهو قسم.

واختلفوا في جواب القسم، قيل: جوابه قد تقدم، وهو قول: «صٓ»، أقسم الله تعالى بالقرآن أنَّ محمدًا قد صدق، وقال الفراء: «صٓ» معناها: وجب وحق، وهو جواب قوله: «وَٱلْقُرْءَانِ»، كما تقول: نزل واللهِ[(٤)]، وقيل: جواب القسم محذوف، تقديره: والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار، ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

قال قتادة: موضع القسم قوله: «بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟»، كما قال: «وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓا۟»[ق: ٢].

وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: بل الذي كفروا ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ والقرآن ذي الذكر.

وقال الأخفش: جوابه قوله (تعالى: «إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ»[ص: ١٤]، كقوله: «تَٱللَّهِ إِن كُنَّا»[الشعراء: ٩٧]، وقوله: «وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ» ـ «إِن كُلُّ نَفْسٍ»[الطارق: ١ ـ ٤].

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة «صٓ» بمكة.
انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١٤٢).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٧/ ٩٧).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١١٨).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٣٩٦).

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

وقيل)[1]: جوابه قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾[ص: ٥٤].

وقال الكسائي: قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[ص: ٦٤] وهذا ضعيف؛ لأنه تخلل بين هذا القسم وبين الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة.

وقال القتيبي: بل لتدارك كلام ونفي آخر، ومجاز الآية: إن الله أقسم بـ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أن الذين كفروا من أهل مكة في عزة حمية جاهلية وتكبر عن الحق وشقاق وخلاف وعداوة لمحمد ﷺ.

وقال مجاهد: ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ معازّين[2].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني: من الأمم الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ قوة ولا فرار[3]، و«المناص» مصدر ناص ينوص، وهو الفوت والتأخر، يقال: ناص ينوص إذا تأخر، وباص يبوص إذا تقدم، و«لات» بمعنى «ليس» بلغة أهل اليمن[4].

وقال النحويون: هي «لا» زِيدَتْ فيها التاء، كقولهم: رُبَّ ورُبَّتْ، وثُمَّ وثُمَّتْ، وأصلها هاء وصلت بـ«لا»، فقالوا: «لَاة» كما قالوا: ثمة، فجعلوها في الوصل تاء، والوقف عليها بالتاء عند الزجاج، وعند الكسائي بالهاء: ولاه. ذهب جماعة إلى أن التاء زيدت في «حين»، والوقف على «ولا»، ثم يبتدىء: «تَحِينَ»، وهو اختيار أبي عبيدة، وقال: كذلك وجدت في مصحف عثمان، وهذا كقول أبي وَجْزَةَ السعديِّ:

«العَاطِفُونَ تَحِينُ ما من عاطفٍ والمُطْعِمُونَ زمانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ»[5]

وفي حديث ابن عمر، وسأله رجل عن عثمان، فذكر مناقبه ثم قال: اذهب بها تلان إلى أصحابك، يريد: الآن.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب، قال بعضهم لبعض: مناص، أي: اهربوا وخذوا حذركم، فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا: مناص، فأنزل الله تعالى:

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (متعازين).

(٣) في «ب»: (ليس حين نزو ولا فرار).

(٤) في هامش «أ»: (يقال: ناصَ يَنُوصُ نَوْصًا ومناصًا، أي: فرّ وراغ، وقال تعالى: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس وقت تأخر وفرارٍ، والمناص أيضًا: الملجأ والمفرّ).

(٥) البيت من شواهد ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن»: ص٥٣٠، والجوهري في «الصحاح»: (٥/٢١٠٦)، مادة: «حين»، و«اللسان»: (١٣/١٣٤)، مادة: «حين»، والطبري: (٢٣/١٢٣)، قال ابن بري: (صوابه . . . : والمطعمون زمان أين المطعم).
انظر: «القرطين»: (٢/٩٨) تعليق (١).

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾

«وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ»[(١)]، (أي: ليس)[(٢)] حين هذا القول.

﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ يعني: الكفار الذين ذكرهم الله عزَّ وجلَّ في قوله: «بل الذين كفروا» ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: رسولًا من أنفسهم ينذرهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وذلك أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أسلم، فشقَّ ذلك على قريش، وفرح به المؤمنون، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش، وهم الصناديد والأشراف، وكانوا خمسة وعشرين رجلًا أكبرهم سنًّا الوليد بن المغيرة، قال لهم: امشوا إلى أبي طالب، فأتَوْا أبا طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنَّا قد أتيناك؛ لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فدعاه، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كلَّ الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «وماذا يسألوني»؟ قالوا: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهكَ، فقال النبي ﷺ: «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»؟ فقال أبو جهل: لله أبوكَ لَنُعْطِيكَها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلَّا الله»، فنفروا[(٣)] من ذلك وقاموا، وقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد[(٤)] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ أي: عجيب، والعَجَبُ والعُجَابُ واحد، كقولهم: رجل كريم وكُرام، وكبير وكُبار، وطويل وطُوال، وعريض وعُراض.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ أي: لأمر يراد بنا، وذلك أن عمر لما أسلم وحصل للمسلمين قوة بمكانه، قالوا: إنَّ هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد ﷺ لشيء يراد بنا. وقيل: يراد بأهل الأرض، وقيل: يراد بمحمد أن يملك علينا.

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٨٤).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) في «ب»: (فتفرقوا).

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٤١: (ذكره الثعلبي بغير سند)، ورواه الترمذي: (٩/ ٩٩ ـ ١٠١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في «التفسير»: (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، وابن حبان برقم ١٧٥٧: ص٤٣٥ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد: (١/ ٢٢٧)، وإسحاق وأبو يعلى، والطبري: (٢٣/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي ﷺ ـ الحديث ـ نحوه، وليس فيه أوله. وأخرجه أيضًا: البيهقي في «السنن»: (٩/ ١٨٨)، وصححه الحاكم: (٢/ ٤٣٢)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٤٢٤، وانظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي
شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾
أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ
مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والكلبي ومقاتل: يعنون النصرانية؛ لأنها آخر الملل، وهم لا يوحِّدون، بل يقولون: ثالث ثلاثة.

وقال مجاهد وقتادة: يعنون ملة قريش، ودينهم الذي هم عليه.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ كذب وافتعال.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وليس بأكبرنا ولا أشرفنا، يقوله أهل مكة، قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: وحيي، وما أنزلتُ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول.

﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ أعندهم ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: نعمة ربك، يعني: مفاتيح النبوة يعطونها مَن شاءوا،
1/100 نظيره: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ/ رَبِّكَ»[الزخرف: ٣٢]، أي: نبوة ربك ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ العزيز في ملكه، الوهاب[(١)] وهب النبوة لمحمد ﷺ.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ليس لهم ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ أي: إن ادعوا شيئًا من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، وليأتوا منها بالوحي إلى مَن يختارون، قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب: أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ أي: هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند هنالك، و«ما» صلة» ﴿مَهْزُومٌ﴾ مغلوب ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ أي: من جملة الأجناد، يعني: قريشًا.

قال قتادة: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ وهو بمكة أنه سيهزمُ جندَ المشركين، فقال: «سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ»[القمر: ٤٥]، فجاء تأويلها يوم بدر[(٢)]، و«هنالك» إشارة إلى بدر ومصارعهم، «من الأحزاب»، أي: من جملة الأحزاب، أي: هم من القرون الماضية الذين تحزبوا وتجمعوا على الأنبياء بالتكذيب، فقهروا وأهلكوا، ثم قال معزِّيًا لنبيه ﷺ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب:

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٣٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٤٧) أيضًا لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

ذو البناء المحكم، وقيل: أراد ذو الملك الشديد الثابت.

وقال القتيبي: تقول العرب: هم في عز ثابت الأوتاد، يريدون: أنه دائم شديد.

وقال الأسود بن يعفُر:

وَلَقَدْ غَنَوا فيهَا بأَنْعَمِ عيشَةٍ … في ظِلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأَوْتَادِ[1]

فأصل هذا أن بيوتهم كانت تثبت بالأوتاد.

وقال الضحاك: ذو القوة والبطش، وقال عطية: ذو الجنود والجموع الكثيرة، يعني: أنهم كانوا يقوون أمره، ويشدون ملكه، كما يقوي الوتد الشيء، وسميت الأجناد أوتادًا لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم، وهو رواية عطية عن ابن عباس.

وقال الكلبي ومقاتل: «الأوتاد»: جمع الوتد، وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها، وكان إذا غضب على أحد مدَّة مستلقيًا بين أربعة أوتاد، وشد كل يد ورجل منه إلى سارية، ويتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت.

وقال مجاهد ومقاتل بن حيان: كان يمدّ الرجل مستلقيًا على الأرض، يشد يديه ورجليه ورأسه على الأرض بالأوتاد.

وقال السدي: كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات[2].

وقال قتادة وعطاء: كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب عليها بين يديه[3].

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء، فأعلم أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب.

﴿إِن كُلٌّ﴾ ما كل ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ وجب عليهم ونزل بهم عذابي.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ ينتظر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخة الصور ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي «فُواق» بضم الفاء، وقرأ الآخرون بفتحها وهما لغتان، فالفتح لغة قريش، والضم لغة تميم.

---

(١) البيت في «غريب القرآن» لابن قتيبة: (٢/ ١٠٠) من «القرطين»، «معاني القرآن» للنحاس: (٦٠/ ٨٥)، «البحر المحيط»: (٧/ ٣٦٧).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٣٠).

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس وقتادة: من رجوع، أي: ما يرد ذلك الصوت فيكون له رجوع.

وقال مجاهد: نظرة، وقال الضحاك: مثنوية، أي: صَرْفٌ ورَدٌّ.

والمعنى: أن تلك الصيحة التي هي ميعاد عذابهم إذا جاءت لم ترد ولم تصرف.

وفرَّق بعضهم بين الفتح والضم، فقال الفرَّاء وأبو عبيدة: الفتح بمعنى الراحة والإفاقة، كالجواب من الإجابة، ذهبا بها إلى إفاقة المريض من علته، والفُواق بالضم ما بين الحَلْبَتين، وهو أن تحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن، فما بين الحَلْبَتَين فُواق، أي: أن العذاب لا يمهلهم بذلك القدر[(١)].

وقيل: هما أيضًا مستعارتان من الرجوع؛ لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين، وإفاقة المريض: رجوعه إلى الصحة.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ قال سعيد بن جبير (عن ابن عباس)[(٢)]: يعني: كتابنا، و«القِطّ» الصحيفة التي أحصت كل شيء.

قال الكلبي: لما نزلت في الحاقة: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ»[الحاقة: ١٩]، «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ»[الحاقة: ٢٥]، قالوا استهزاءً: عجِّل لنا كتابنا في الدنيا قبل يوم الحساب، (وقال سعيد بن جبير)[(٣)]: يعنون: حظنا ونصيبنا من الجنة التي تقول.

وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: يعني: عقوبتنا ونصيبنا من العذاب.

(قال عطاء: قاله)[(٢)] النضر بن الحارث، وهو قوله: «ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ»[الأنفال: ٣٢] [(٤)].

وعن مجاهد قال: «قطنا» حسابنا، يقال لكتاب الحساب: قِطّ.

وقال أبو عبيدة والكسائي: «القِطّ»: الكتاب بالجوائز[(٥)].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء: (٣/ ٤٠٠)، «مجاز القرآن» لأبي عبيدة: (٢/ ١٧٩).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٤٨) لعبد بن حميد.

(٥) ذكر الطبري أكثر هذه الأقوال: (٢٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، ثم قال مرجحًا: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صِكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر ـ الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة ـ قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاءً بوعيد الله).

اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

قال الله تعالى: ﴿اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ (أي: على ما يقوله)(١) الكفار من تكذيبك ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ قال ابن عباس: أي: القوة في العبادة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود، وأحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان ينام نصف الليل ويقومِ ثلثه، وينام سدسه»(٢).

وقيل: ذو القوة في الملك.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ رجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالتوبة عن كل ما يكره، قال ابن عباس: مطيع، قال سعيد ابن جبير: مسبِّح بلغة الحبش.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ كما قال: «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ الْجِبَالَ»[الأنبياء: ٧٩] ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ قال الكلبي: غدوة وعشية، والإشراق: هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها، وفسره ابن عباس: بصلاة الضحى.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا أبو أمية محمد بن إبراهيم، حدثنا الحجاج بن نصير، أخبرنا أبو بكر الهذلي، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس في قوله: «بالعشي والإشراق»، قال: كنت أمرّ بهذه الآية لا أدري ما هي / حتى حدثتني أم هانيء ١٠٠/ب
بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوَضُوءٍ فتوضأ، ثم صلى الضحى، فقال: «يا أم هانيء هذه صلاة الإشراق»(٣).

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب من نام عند السحر: (١٦/٣)، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر برقم١١٥٩: (٨١٦/٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦٠/٤).

(٣) رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي والطبراني، كلهم من رواية أبي بكر الهذلي عند عطاء عن ابن عباس حدثتني أم هانيء، ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد الله بن الحارث موقوفًا على ابن عباس: (٣٥/٤)، وفيه: ثم قال ابن عباس: هذه صلاة الإشراق.
قال ابن حجر: (هذا موقوف وهو أصح)، قال الهيثمي: (فيه حجاج بن نصير، ضعفه ابن المديني وجماعة، ووثقه ابن معين وابن حبان).
انظر: «الكافي الشاف»: ص١٤٢، «مجمع الزوائد»: (٢٣٨/٢).

﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ أي: وسخرنا له الطير ﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾ مجموعة إليه تسبح معه ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾ مطيع رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح، وقيل: أوَّاب معه، أي: مسبح.

﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي: قويناه بالحرس والجنود، قال ابن عباس: كان أشد ملوك الأرض سلطانًا، كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن خالد ابن الحسن، حدثنا داود بن سليمان، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا محمد بن الفضل، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن علي بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس[1]: أن رجلًا من بني إسرائيل استعدى[2] على رجل من عظمائهم عند عند داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا غصبني بقرًا، فسأله داود فجحد، فقال للآخر: البينة؟ فلم يكن له بينة، فقال لهما داود: قُومَا حتى أنظر في أمركما، فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى[2] عليه، فقال: هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت، فأوحى الله إليه مرة أخرى فلم يفعل، فأوحى الله إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة، فأرسل داود إليه، فقال: إن الله أوحى إليَّ أن أقتلك، فقال: تقتلني بغير بيِّنة؟ فقال داود: نعم، والله أنفذنَّ أمر الله فيك، فلما عرف الرجل أنه قاتله، قال: لا تعجل حتى أخبرك، إني والله ما أُخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته، فلذلك أُخذتُ، فأمر به داود فقتل، فاشتدتْ هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود، واشتد به ملكه فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ»[3].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعني: النبوة، والإصابة في الأمور ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ قال ابن عباس: بيان الكلام.

وقال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل: علم الحكم، والتبصر في القضاء.

وقال علي بن أبي طالب: هو أن البينة على المدعي واليمين على مَن أنكر؛ لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٣٢): (ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عن الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عزَّ وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضًا).

راجع: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لأبي شهبة: ص٢٦٤ ـ ٢٧٠.

وهو في «الصحيحين» بغير هذا السياق، انظر: البخاري، كتاب التهجد: (٣/ ٥١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين: (١/ ٤٩٨).

(٢) في «ب»: (ادعى).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٥٣) أيضًا لعبد بن حميد والحاكم.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾

ويُروى ذلك عن أُبَيّ بن كعب قال: «فصل الخطاب»: الشهود والأيمان[(١)]، وهو قول مجاهد وعطاء ابن أبي رباح.

وروي عن الشعبي: أن فصل الخطاب: هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه: «أما بعد»[(٢)] إذا أراد الشروع في كلام آخر، وأول (من قاله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾)[(٣)]، هذه الآية من قصة امتحان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلف العلماء بأخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في سببه:

فقال قوم: سبب ذلك أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ تمنَّى يومًا من الأيام منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأل ربَّه أن يمتحنه كما امتحنهم، ويعطيه من الفضل مثل ما أعطاهم.

فروى السدي والكلبي ومقاتل عن أشياخهم قد دخل حديث بعضهم في بعض، قالوا: كان داود قد قَسَّمَ الدهر ثلاثة أيام: يومًا يقضي فيه بين الناس، ويومًا يخلو فيه لعبادة ربه، ويومًا لنسائه وأشغاله، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: يا رب، أرى الخير كله وقد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأوحى الله إليه: أنهم ابتُلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها، ابتُلي إبراهيم بنمرود وبذبح ابنه، وابتُلي إسحاق[(٤)] بالذبح وبذهاب بصره، وابتُلي يعقوب بالحزن على يوسف، فقال: رب لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضًا، فأوحى الله إليه إنك مبتلى في شهر كذا وفي يوم كذا فاحترس، فلما كان ذلك اليوم الذي وعده الله دخل داود محرابه وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن - وقيل: كان جناحاها من الدر والزبرجد - فوقعت بين رجليه فأعجبه حسنها، فمد يده ليأخذها ويريها بني إسرائيل فينظروا إلى قدرة الله تعالى، فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها، فطارت حتى وقعت في كوة، فذهب ليأخذها، فطارت من الكوة، فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها، فأبصر امرأة في بستان على شط بركة لها تغتسل، هذا قول الكلبي[(٥)].

---

(١) انظر: الطبري: (٢٣/ ١٤٠)، «معاني القرآن»: (٢/ ٤٠١).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٤٠)، وانظر: «معاني القرآن»: (٢/ ٤٠١).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٥) هذه الروايات ضعيفة، راجع ما نقله السيوطي عن ابن حجر في «الدر المنثور»: (٨/ ٧٠٠ - ٧٠١).

وقال السدي: رآها تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقًا، فعجب داود من حسنها، وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها، فزاده ذلك إعجابًا بها فسأل عنها، فقيل: هي تيشايع بنت شايع امرأة أوريا بن حنانا، وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود.

وذكر بعضهم أنه أحب أن يقتل أوريا ويتزوج امرأته، فكان ذنبه هذا القدر.

وذكر بعضهم أنه كتب داود إلى ابن أُخته أيوب أن ابعث أوريا إلى موضع كذا، وقدِّمه قبل التابوت، وكان من قُدِّم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد، فبعثه وقدمه ففُتِحَ له، فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أيضًا أن يبعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه ففُتِحَ له، فكتب إلى داود بذلك، فكتب له أيضًا أن يبعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأسًا، فبعثه فقُتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود، فهي أم سليمان عليه السلام [1].

وروي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كان ذلك ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته.

قال أهل التفسير: كان ذلك مباحًا لهم، غير أن الله تعالى لم يرض له ذلك؛ لأنه كان ذا رغبة في الدنيا، وازديادًا للنساء، وقد أغناه الله عنها بما أعطاه من غيرها.

وروي عن الحسن في سبب امتحان داود عليه السلام: أنه كان قد جزأ الدهر أجزاءً، يومًا لنسائه، ويومًا للعبادة، ويومًا للقضاء بين بني إسرائيل، ويومًا لبني إسرائيل، يُذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل ذكروه فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا، فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك[2].

1/101 وقيل: إنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه / أنه إن ابتلي اعتصم، فلما كان يوم عبادته أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على التوراة، فبينما هو يقرأ إذْ دخلت عليه حمامة من ذهب كما ذكرنا، قال: وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه، فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا إذا سار إليه قتل، ففعل فأصيب، فتزوج امرأته.

قالوا: فلما دخل داود بامرأة أوريا لم يلبث إلَّا يسيرًا حتى بعث الله إليه ملكين في صورة رجلين في يوم عبادته، فطلبا أن يدخلا عليه، فمنعهما الحرس فتسوروا المحراب عليه، فلما شعر وهو يصلي إلَّا وهما بين يديه جالسين، يقال: كانا جبريل وميكائيل، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

---

(١) انظر: الطبري: (٢٣/ ١٤٧).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٤٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٥٨ ـ ١٥٩) أيضًا لعبد بن حميد وابن المنذر.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ خبر الخصم ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ صعدوا وعلوا، يقال: تسورت الحائط والسور إذا علوته، وإنما جمع الفعل وهما اثنان؛ لأن الخصم اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، ومعنى الجمع في الاثنين موجود؛ لأن معنى الجمع ضم شيء إلى شيء، هذا كما قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم: ٤].

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ خاف منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، فقال: ما أدخلكما عليَّ ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ (أي: نحن خصمان)[١] ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جئناك لتقضي بيننا، فإن قيل: كيف قالا: «بغى بعضنا على بعض» وهما ملكان لا يبغيان؟ قيل: معناه: أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر، وهذا من معاريض الكلام لا على تحقيق البغي من أحدهما.

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجُرْ، يقال: شَطَّ الرجل شَطَطًا وأَشَطَّ إشطاطًا[٢] إذا جار في حكمه، ومعناه: مجاوزة الحد، وأصل الكلمة من شطَّت الدار وأشطَّت، إذا بَعُدت ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ أرشدنا إلى طريق الصواب والعدل، فقال داود لهما: تكلَّما.

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ أي: على ديني وطريقتي ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ (يعني: امرأة)[١] ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: امرأة واحدة، والعرب تكني بالنعجة عن المرأة[٣]، قال الحسين بن الفضل: هذا تعريض للتنبيه والتفهيم؛ لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغي فهو كقولهم: ضرب زيد عمرًا، أو اشترى بكرٌ دارًا، ولا ضرب هنالك ولا شراء.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ قال ابن عباس: أعطنيها، قال مجاهد: انزل لي عنها، وحقيقته: ضمها إليَّ فاجعلني كافلها، وهو الذي يعولها وينفق عليها، والمعنى: طلقها لأتزوجها.

﴿وَعَزَّنِي﴾ غلبني ﴿فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: في القول، وقيل: قهرني لقوة ملكه، قال الضحاك: يقول: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني.

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

(٢) في «أ»: (شطاطًا).

(٣) راجع: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» لأبي شهبة: ص٢٦٦ ـ ٢٧٠.

وحقيقة المعنى: أن الغلبة كانت له لضعفي في يده، وإن كان الحق معي، وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود حيث كان لداود تسع وتسعون امرأة ولأوريا امرأة واحدة فضمها إلى نسائه.

﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي: بسؤاله نعجتك؛ ليضمها إلى نعاجه.

فإن قيل: كيف قال: لقد ظلمك ولم يكن سمع قول صاحبه؟

قيل: معناه: إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك، وقيل: قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يظلم بعضهم بعضًا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدًا ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: قليلٌ هم، و«ما» صلة، يعني: الصالحين الذين لا يظلمون قليل.

قالوا: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعد إلى السماء، فعلم داود أن الله تعالى قد ابتلاه، وذلك قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أيقن وعلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ إنما ابتليناه.

وقال السدي بإسناده: أن أحدهما لما قال: «هذا أخي» الآية، قال داود للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعًا وتسعين نعجة ولأخي نعجة واحدة وأنا أريد أن آخذها منه فأكمل نعاجي مائة، قال: وهو كاره، إذًا لا ندعك وإن رُمتَ ذلك ضربت منك هذا وهذا وهذا، يعني: طرف الأنف وأصله والجبهة، فقال: يا داود، أنت أحق بذلك حيث لم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، ولك تسع وتسعون امرأة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته، فنظر داود فلم يرَ أحدًا، فعرف ما وقع فيه[1].

وقال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة: إن ذنب داود إنما كان أنه تمنى أن تكون امرأة أوريا حلالًا له، فاتفق غزو أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكه، فلما بلغ قتله داود لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده إذا هلك، ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله.

وقيل: كان ذنب داود أن أوريا كان خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها، فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوجت منه لجلالته، فاغتمَّ لذلك أوريا، فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي قال: ومما يصدق ما ذكرنا عن المتقدمين ما أخبرني عقيل بن محمد بن أحمد الفقيه: أن المعافى بن زكريا القاضي ببغداد أخبره عن محمد بن جرير الطبري قال: حدثني يونس بن عبد الأعلى الصيرفي، أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة، عن أبي صخر، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن داود النبي عليه السلام

---

(١) انظر: الطبري: (٢٣/١٤٧).

حين نظر إلى المرأة فهمَّ أن يُجْمِع على بني إسرائيل وأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حضر العدو فقرِّبْ فلانًا بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ويمن قدم بين يدي التابوت، فلم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة، ونزل الملكان يقصان عليه قصته، ففطن داود فسجد ومكث أربعين ليلة ساجدًا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول / في سجوده: ١٠١/ب
ربِّ زلَّ داود زلةً أبعدَ مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه، جعلت ذنبه حديثًا في الخلق من بعده، فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود، إن الله قد غفر لك الهم الذي هممت به، فقال داود: إن الرب قادر على أن يغفر لي الهمَّ الذي هممت به، وقد عرفت أن الله عدل لا يميل، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة، فقال: يا رب دمي الذي عند داود، فقال جبريل: ما سألتُ ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، فقال: نعم، فعرج جبريل وسجد داود، فمكث ما شاء الله ثم نزل جبريل، فقال: سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه، فقال: قل لداود: إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له: هَبْ لي دمك الذي عند داود، فيقول: هو لك يا رب، فيقول: إن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضًا عنه[(١)].

وروي عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا جميعًا: إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه، فتحولا في صورتهما فعرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، وعلم داود إنما عني به فخرَّ ساجدًا أربعين يومًا، لا يرفع رأسه إلَّا لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة، ثم يعود ساجدًا تمام أربعين يومًا، لا يأكل ولا يشرب، وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عزَّ وجلَّ، ويسأله التوبة، وكان من دعائه في سجوده: سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء، سبحان خالق النور، سبحان الحائل بين القلوب، سبحان خالق النور، إلهي أنت خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذْ نزلت بي، سبحان خالق النور، إلهي أنت خلقتني وكان من سابق علمك ما أنا إليه صائر، سبحان خالق النور، إلهي، الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء، فيقال: هذا داود الخاطىء، سبحان خالق النور، إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي، (سبحان خالق النور)[(٢)]، إلهي بأي قدم أمشي أمامك وأقوم بين يديك يوم القيامة يوم تزول أقدام الخاطئين، سبحان خالق النور، إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلَّا من عند سيده؟ سبحان خالق النور، إلهي أنا الذي لا أطيق حرَّ شمسك، فكيف أطيق حرَّ نارك؟ سبحان خالق النور، إلهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك؟ فكيف أطيق سوط جهنم؟ سبحان خالق النور، إلهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصاب، سبحان خالق النور، إلهي قد تعلم

---

(١) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٥٠ ـ ١٥١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» للحكيم الترمذي وابن أبي حاتم بسند ضعيف، وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف، وابن لهيعة اختلط، وراجع: «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٣٢)، و«الإسرائيليات والموضوعات» لأبي شهبة: ص٢٦٥ ـ ٢٦٨.

(٢) ساقط من «أ».

سري وعلانيتي فاقبل عذري، سبحان خالق النور، إلهي برحمتك اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهوَاي، سبحان خالق النور، إلهي أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أَوْبَقَتْني، سبحان خالق النور، فررت إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين، ولا تخزني يوم الدين، سبحان خالق النور(١).

وقال مجاهد: مكث أربعين يومًا ساجدًا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينه حتى غطى رأسه، فنودي: يا داود أجائعٌ فتطعم؟ أو ظمآن فتسقى؟ أو عارٍ فتُكسى؟ فأجيب في غير ما طلب، قال: فَنَحَبَ نحبةً هاج لها العود فاحترق من حرِّ جوفه، ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة(٢).

قال وهب: إن داود أتاه نداء: أني قد غفرت لك، قال: يا رب، كيف وأنت لا تظلم أحدًا؟ قال: اذهب إلى قبر أوريا فنادِه، فأنا أُسمِعُهُ نداءك فتحلل منه، قال: فانطلق وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبره، ثم نادى أوريا فقال: لبيك من هذا الذي قطع عليَّ لذتي وأيقظني؟ قال: أنا داود، قال: ما جاء بك يا نبي الله، قال: أسألك أن تجعلني في حِلٍّ مما كان مني إليك، قال: وما كان منك إليَّ؟ قال: عرَّضْتُك للقتل، قال: عرضتني للجنة فأنت في حل، فأوحى الله إليه: يا داود، ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالعنت، ألا أعلمته أنك قد تزوجت امرأته؟ قال: فرجع إليه فناداه فأجابه فقال: مَن هذا الذي قطع عليَّ لذتي؟ قال: أنا داود، قال: يا نبي الله، أليس قد عفوتُ عنك؟ قال: نعم، ولكن إنما فعلتُ ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتها، قال: فسكت ولم يجبه، ودعاه فلم يجبه، وعاوده فلم يجبه، فقام على قبره وجعل التراب على رأسه، ثم نادى: الويل لداود، ثم الويل الطويل لداود، سبحان خالق النور، والويل لداود إذا نصبت الموازين بالقسط، سبحان خالق النور، الويل لداود، ثم الويل الطويل له حين يؤخذ بذقنه فيدفع إلى المظلوم، سبحان خالق النور، الويل ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء: يا داود، قد غفرت لك ذنبك ورحمتُ بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك، قال: يا رب، كيف وصاحبي لم يعفُ عني؟ قال: يا داود أعطيه من الثواب يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أُذناه، فأقول له: رضي عبدي؟ فيقول: يا رب، من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول: هذا عوض من عبدي داود، فأستوهبك منه فيهبك لي، قال: يا رب، الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي(٣)، فذلك قوله تعالى:

﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا﴾ أي: ساجدًا، عبَّر بالركوع عن السجود؛ لأن كل واحد فيه انحناء.

قال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر عن قوله: «وَخَرَّۤ رَاكِعٗا»، هل يقال للراكع: خرَّ؟ قلت: لا، ومعناه: فخرَّ بعدما كان راكعًا، أي: سجد ﴿وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾﴾ أي: رجع وتاب.

---

(١) ليس في الآيات الكريمة شيء من هذه الروايات، ولا في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وهي التي عليها المعول.

(٢) انظر: الطبري: (٢٣/ ١٥٠). (٣) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١٦٠ـ ١٦١).

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ذلك الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ بعد المغفرة ﴿عِندَنَا﴾ يوم القيامة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة ومكانة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: حسن مرجع ومنقلب.

قال وهب بن منبه(١): إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا يرقأ دمعه ليلًا ولا نهارًا، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام: يوم للقضاء بين بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يسبِّح في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه، فيساعدونه على ذلك، فإذا كان يوم نياحته يخرج في / الفيافي ١٠٢/أ فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وَيُبْكِي معه (الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويُبْكي معه)(٢) الجبال والحجارة والدواب والطير، حتى تسيل من بكائهم الأودية، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتَبْكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء والسِّباع، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه أن اليوم يوم نَوح داود على نفسه فليحضر من يساعده، فيدخل الدار التي فيها المحاريب، فيبسَط له ثلاثة فرش مسوح حشوها ليف، فيجلس عليها ويجيء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصى، فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان معه أصواتهم، فلا يزال يبكي حتى تغرق الفُرُش من دموعه، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه، ثم يمسح بها وجهه، ويقول: يا رب اغفر لي ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله.

وقال وهب: ما رفع داود رأسه حتى قال له الملك: أول أمرك ذنب وآخره معصية، ارفع رأسك فرفع رأسه فمكث حياته لا يشرب ماءً إلَّا مزجه بدموعه، ولا يأكل طعامًا إلَّا بلَّه بدموعه.

وذكر الأوزاعي مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ: «إنَّ مثل عيني داود كقربتين تنطفان ماءً، ولقد خدَّت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض»(٣).

قال وهب: لما تاب الله على داود قال: يا رب، غفرتَ لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة؟ قال: فوسم الله خطيئته في يده اليمنى، فما رفع فيها طعامًا ولا شرابًا إلَّا بكى

---

(١) وخبر وهب أيضًا من الإسرائيليات في هذه القصة كما سبق.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) ضعيف، أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول». انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ١٦٣).

إذا رأها، وما قام خطيبًا في الناس إلَّا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا وسم خطيئته، وكان يبدأ إذا دعا فاستغفر للخاطئين قبل نفسه.

وقال قتادة عن الحسن: كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلَّا الخاطئين، يقول: تعالوا إلى داود الخاطىء، فلا يشرب شرابًا إلَّا مزجه بدموع عينه، وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة فلا يزال يبكي عليه حتى يبتل بدموع عينيه، وكان يذرُّ عليه الملح والرماد فيأكل ويقول: هذا أكل الخاطئين، قال: وكان داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، فلما كان من خطيئته ما كان، صام الدهر كله وقام الليل كله.

وقال ثابت: كان داود إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله، فلا يشدها إلَّا الأسر، وإذا ذكر رحمة الله تراجعت.

وفي القصة: أن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته، فلما فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته، فروي أنها قالت: يا داود، ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك[(١)].

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا سليمان بن حرب وأبو النعمان قالا: حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «سجدة صٓ ليست من عزائم السجود، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها»[(٢)].

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوام قال: سألت مجاهدًا عن سجدة صٓ، فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ قال: أوَما تقرأ: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ» إلى «أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ»[الأنعام: ٨٤ - ٩٠]، وكان داود ممن أُمِرَ نبيكم أن يَقْتَدِيَ به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ[(٣)].

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا قتيبة محمد بن زيد بن خنيس، حدثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن أبي يزيد قال: قال لي جريج: أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله، إنِّي رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي

---

(١) قال القاضي عياض في كتابه «الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى» (٢/ ٨٢٧ ـ ٨٢٨): (لا تلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله المفسرون، ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك في كتابه، ولا ورد في حديث صحيح، والذي نص الله عليه في قصة داود قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت . . . وقال الداوودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم).

(٢) أخرجه البخاري في سجود القرآن، باب سجدة «صٓ»: (٢/ ٥٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة «صٓ»: (٨/ ٥٤٤).

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

خلف شجرة، فسجدتُ فسجدتِ الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال الحسن: قال ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول (مثل ذلك)(١)، ما أخبره الرجل عن قول الشجرة(٢).

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تدبر أمور العباد بأمرنا ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: بأن تركوا الإيمان بيوم الحساب، وقال الزجاج: بتركهم العمل لذلك اليوم، وقال عكرمة والسدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، أي: تركوا القضاء بالعدل.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ﴾ قال ابن عباس: لا لثواب ولا لعقاب ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ يعني: أهل مكة هم الذين ظنوا أنهم خلقوا خلقًا لغير شيء، وأنه لا بعث ولا حساب ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نُعْطَى في الآخرةِ من الخير ما يُعْطَوْنَ، فنزلت هذه الآية(٣): ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ (أي: المؤمنين كالكفار)(٤)، وقيل: أراد بالمتقين أصحاب محمد ﷺ، أي: لا نجعل ذلك.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الترمذي في الجمعة، أبواب السفر، باب ما جاء في ما يقول في سجود القرآن: (٣/ ١٨١)، قال أبو عيسى: (هذا حديث غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة، باب سجود القرآن برقم١٠٥٣: (١/ ٣٣٤)، والحاكم: (١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) وصححه ووافقه الذهبي، قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ٨): (رواه الشافعي في «الأم» عن ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا. ورواه في القديم عن سفيان عن عمر بن ذر عن أبيه قال: سجدها داود، قال البيهقي: وروي من وجه آخر عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موصولًا وليس بالقوي.
قلت ـ ابن حجر ـ: رواه النسائي من حديث حجاج بن محمد عن عمر بن ذر موصولًا، ورواه الدارقطني من حديث عبد الله بن بزيع عن عمر بن ذر بنحوه، وأعله ابن الجوزي به، وقد توبع، وصححه ابن السكن، وفي البخاري عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «صٓ» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها)، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: برقم٢٧١٠.

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٩٥).

(٤) زيادة من «ب».

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا الكتاب أنزلناه إليك ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ كثير خيره ونفعه ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ أي: ليتدبروا ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وليتفكروا فيها، قرأ أبو جعفر «لتدبروا» بتاء واحدة وتخفيف الدال، قال الحسن: تدبر آياته: اتباعه ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ليتعظ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

١٠٢/ب قوله عزّ وجلّ: / ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين، فأصاب منهم ألف فرس.

وقال مقاتل: وورث من أبيه داود ألف فرس[(١)].

وقال عوف عن الحسن: بلغني أنها كانت خيلًا أُخرجت من البحر لها أجنحة[(٢)].

قالوا[(٣)]: فصلى سليمان الصلاة الأولى، وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه، فعرضت عليه تسعمائة، فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت، وفاتته الصلاة، ولم يعلم بذلك، فاغتم لذلك هيبةً لله، فقال: ردُّوها عليَّ، فردوها عليه، فأقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف تقربًا إلى الله عزَّ وجلَّ وطلبًا لمرضاته، حيث اشتغل بها عن طاعته، وكان ذلك مباحًا له وإن كان حرامًا علينا، كما أبيح لنا ذبح بهيمة الأنعام، وبقي منها مائة فرس، فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل يقال من نسل تلك المائة.

قال الحسن: فلما عقر الخيل أبدله الله عزَّ وجلَّ خيرًا منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء.

(وقال إبراهيم التيمي: كانت عشرين فرسًا، وعن عكرمة: كانت عشرين ألف فرس، لها أجنحة)[(٣)].

قال الله تعالى: «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ»، و«الصافنات»: هي الخيل القائمة على ثلاث قوائم وأقامت واحدة على طرف الحافر من يدٍ أو رجلٍ، يقال: صفن الفرس يصفن صفونًا: إذا قام على ثلاثة قوائم، وقلب أحد حوافره، وقيل: الصافن في اللغة القائم، وجاء في الحديث: «من سرَّه أن يقوم له الرجال صفونًا فليتبوأ مقعده من النار»[(٤)]، أي: قيامًا، والجياد: الخيار السراع، واحدها جواد.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: الخيل السوابق.

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٩٦).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٧٧) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) زيادة من «ب».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في قيام الرجل للرجل: (٨/ ٩٢ ـ ٩٣)، والترمذي في الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل: (٨/ ٣٠)، وقال: (هذا حديث حسن)، والإمام أحمد: (٤/ ١٠٠)، والطبراني في «الكبير»: (١٩/ ٣٥١ ـ ٣٥٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٨/ ٥٨٦)، وصححه الألباني في «تعليقه على المشكاة»: (٣/ ١٣٣٢).

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣﴾

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: آثرت حب الخير، وأراد بالخير الخيلَ، والعرب تعاقب بين الراء واللام، فتقول: ختلتُ الرجل وخترته، أي: خدعته، وسميت الخيل خيرًا؛ لأنه معقود بنواصيها الخير: الأجر والمغنم[1]، قال مقاتل: حب الخير، يعني: المال، فهي الخيل التي عرضت عليه ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يعني: عن الصلاة، وهي صلاة العصر ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢﴾ أي: توارت الشمس بالحجاب[2]: استترت بما يحجبها عن الأبصار، يقال: الحاجب جبل دون قاف، بمسيرة سنة، والشمس تغرب من ورائه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: ردوا الخيل عليَّ، فردُّوها ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣﴾ قال أبو عبيدة: طفق يفعل، مثل: مازال يفعل، والمراد بالمسح: القطع، فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسرين[3]، وكان ذلك مباحًا له؛ لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر.

وقال محمد بن إسحاق: لم يعنِّفه الله على عقر الخيل إذا كان ذلك أسفًا على ما فاته من فريضة ربِّه عزَّ وجلَّ.

وقال بعضهم: إنه ذبحها ذبحًا وتصدق بلحومها، وكان الذبح على ذلك الوجه مباحًا في شريعته[4].

وقال قوم: معناه: أنه حبسها في سبيل الله، وكوى سوقها وأعناقها بكيِّ الصدقة[5].

وقال الزهري وابن كيسان: إنه كان يمسح سوقها وأعناقها بيده، يكشف الغبار عنها حبًّا لها وشفقة عليها، وهذا قول ضعيف[6]، والمشهور هو الأول.

---

(١) أخرج البخاري: (٦/ ٥٤)، ومسلم: (٣/ ١٤٩٤) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «البركة في نواصي الخيل»، وأخرج مسلم: (٣/ ١٩٤٣) عن جرير ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة».

(٢) قال الحافظ ابن حجر: (الثابت عن جمهور أهل العلم بالتفسير من الصحابة ومن بعدهم أن الضمير المؤنث في قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ للخيل، والله أعلم.

(٣) انظر: الطبري: (٢٣/ ١٥٦)، و«زاد المسير»: (٧/ ١٣١)، «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٤٠٥)، «القرطين» لابن مطرف: (٢/ ١٠٢)، «معاني القرآن» للنحاس: (٦/ ١١٢)، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٣٥).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للنحاس: (٦/ ١١٣).

(٥) رجحه أبو حيان في «البحر المحيط»: (٧/ ٣٩٦)، وقال: (هذا القول هو الذي يناسب مناصب الأنبياء، لا القول المنسوب للجمهور، فإن في قصته ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء).

(٦) رواه الطبري: (٢٣/ ١٥٦) عن ابن عباس، ورجحه قائلًا: (وهذا القول أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله ﷺ لم يكن ـ إن شاء الله ـ ليعذب حيوانًا بالعرقبة ويهلك مالًا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليه، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها.
وانظر: «البحر المحيط»: (٧/ ٣٩٦)، «معاني القرآن» للنحاس: (٦/ ١١٢).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

وحكي عن علي أنه قال في معنى قوله: «ردُّوها عليَّ» يقول سليمان بأمر الله عزَّ وجلَّ للملائكة الموكلين بالشمس: «ردُّوها عليَّ» يعني: الشمس، فردوها عليه حتى صلى العصر في وقتها، وذلك أنه كان يعرض عليه الخيل لجهاد عدو، حتى توارت بالحجاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه.

وكان سبب ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه قال: سمع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون، بها ملك عظيم الشأن، لم يكن للناس إليه سبيلًا لمكانه في البحر، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطانًا لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر، إنما يركب إليه الريح، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستولى واستفاء وسَبى ما فيها، وأصاب فيما أصاب بنتًا لذلك الملك، يقال لها: جرادة، لم ير مثلها حسنًا وجمالًا، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه، وأحبها حبًّا لم يحبه شيئًا من نسائه، وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها، فشق ذلك على سليمان فقال لها: ويحك، ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك، قال سليمان: فقد أبدلك الله به مُلْكًا هو أعظم من مُلكه، وسلطانًا هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله، قالت: إن ذلك كذلك، ولكني إذا ذكرتُهُ أصابني ما ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشيًّا لرجوت أن يُذْهِبَ ذلك حزني، وأن يُسلي عني بعض ما أجد في نفسي، فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئًا، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلَّا أنه لا روح فيها، فعمدت إليه حين صنعوه فأَزّرتهُ وقمّصتهُ وعمَّمته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبس، ثم كانت إذا خرج سليمان (من دارها)[1] تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له، ويسجدن له كما كانت تصنع به في ملكه، وتروح كل عشية بمثل ذلك وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحًا، وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقًا، وكان لا يُرد عن أبواب سليمان، أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل، حاضرًا كان سليمان أو غائبًا، فأتاه فقال: يا نبي الله، كبر سني، ورق عظمي، ونفد عمري، وقد حان مني الذهاب، فقد أحببت أن أقوم مقامًا قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأُعَلِّمُ الناسَ بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل، فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيبًا فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى،

(١) زيادة من «ب».

فأثنى على كل نبي بما فيه، فذكر ما فضله الله حتى انتهى إلى سليمان، فقال: ما أحلمك في صغرك، / ١/١٠٣
وأورعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعدك من كل ما تكره في صغرك، ثم انصرف، فوجد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفسه من ذلك حتى ملأه غضبًا، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه، فقال: يا آصف، ذكرتَ مَنْ مضى مِن أنبياء الله، فأثنيت عليهم خيرًا في كل زمانهم، وعلى كل حال من أمرهم، فلما ذكرتني جعلت تثني عليَّ بخير في صغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري؟ فما الذي أحدثت في آخر أمري؟ فقال: إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحًا في هوى امرأة، فقال: في داري؟ فقال: في دارِكَ، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلَّا عن شيء بلغك، ثم رجع سليمان إلى داره وكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها، ثم أمر بثياب الطهرة فأتى بها وهي ثياب لا يغزلها إلَّا الأبكار، ولا ينسجها إلَّا الأبكار، ولا يغسلها إلَّا الأبكار، لم تمسسها امرأة قد رأت الدم، فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد ففرش له، ثم أقبل تائبًا إلى الله عزَّ وجلَّ، حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللًا لله تعالى وتضرعًا إليه، يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره، فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره، وكانت له أم ولد يقال لها: الأمينة، كان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلَّا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه فوضعه يومًا عندها، ثم دخل مذهبه فأتاها الشيطان صاحب البحر، واسمه: صخر، على صورة سليمان لا تنكر منه شيئًا، فقال: خاتمي أمينه! فناولته إيَّاه، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سليمان فأتى الأمينة وقد غيرت حاله، وهيئته عند كل من رآه، فقال: يا أمينة خاتمي، قالت: مَن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود، قالت: كذبت فقد جاء سليمان فأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه، فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول: أنا سليمان بن داود، فيحثون عليه التراب ويسبونه، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون، أي: شيء يقول، يزعم أنه سليمان، فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأخرى فأكلها، فمكث بذلك أربعين صباحًا عدة ما كان عُبِدَ الوثن في داره، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم اختلاف حكم ابن داود ما رأيت؟ قالوا: نعم، قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهنَّ هل أنكرتن منه في خاصة أمره ما أنكرناه في عامة الناس وعلانيته، فدخل على نسائه، فقال: ويحكن هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن: أشَدّه ما يدع منا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة، فقال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين، ثم خرج على بني إسرائيل فقال: ما في الخاصة أعظم مما في العامة،

فلما مضى أربعون صباحًا طار الشيطان عن مجلسه، ثم مرَّ بالبحر فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك، حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم، وخرج سليمان بسمكتيه، فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذه فجعله في يده، ووقع ساجدًا، وعكفت عليه الطير والجن، وأقبل عليه الناس، وعرف الذي كان قد دخل عليه لما كان حدث في داره، فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين فقال: ائتوني بصخر فطلبته الشياطين حتى أخذته، فأُتي به وجاؤوا له بصخرة فنقرها فأدخله فيها ثم شدَّ عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقذف في البحر. هذا حديث وهب[1].

وقال الحسن: ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه.

وقال السدي: كان سبب فتنة سليمان أنه كان له مائة امرأة، وكانت امرأة منهنَّ يقال لها: جرادة، هي آثر نسائه وآمنهن عنده، وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته، فقالت له يومًا: إن أخي كان بينه وبين فلان خصومه، وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال: نعم، ولم يفعل فابتلي بقوله، فأعطاه خاتمه ودخل المخرج، فجاء الشيطان في صورته[2] فأخذه وجلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان عليه السلام فسألها خاتمه فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا، وخرج مكانه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يومًا، فأنكر الناس حكمه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله، فبكى النساء عند ذلك فأقبلوا حتى أحْدَقُوا به، ونشروا التوراة فقرؤوها فطار من بين أيديهم، حتى وقع على شرفة، والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت، وأقبل سليمان حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع قد اشتد جوعه، فاستطعمه من صيده، وقال: إني أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجه، فجعل يغسل دمه على شاطىء البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه، وأعطوه سمكتين مما قد مذر[3] عندهم، فشق

---

(١) قال الحافظ ابن كثير (٤/ ٣٧) بعد أن أورد عدة روايات، ومنها عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله عزَّ وجلَّ منه تشريفًا وتكريمًا لنبيه عليه السلام، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ـ رضي الله عنهم ـ كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب).
وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»: ص٢٧٠ ـ ٢٧٤.

(٢) وقال القاضي عياض في «الشفاء» (٢/ ٨٣٦): (ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبُّه الشيطان به، وتسلطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يسلَّطون على مثل هذا، وقد عُصم الأنبياء من مثله).

(٣) في «القاموس»: مَذَرَتِ البيضةُ فهي مَذِرَة: فسدت، والمَذِرَة: القذرة، وفي «أ» جاءت الكلمة هكذا: (مذلْ).

بطونهما وجعل يغسلهما، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فلبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه.

وحامت عليه الطير فعرف القوم أنه سليمان، فقاموا يعتذرون مما صنعوا، فقال: ما أحمدكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم، هذا أمر كائن لابد منه، ثم جاء حتى أتى مملكته وأمر حتى أُتي بالشيطان الذي أخذ خاتمه وجعله في صندوق من حديد، وأطبق عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، وأمر به فألقي في البحر وهو حي كذلك حتى الساعة[١].

وفي بعض / الروايات: أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده، وكان فيه ملكه فأعاده سليمان إلى يده فسقط فأيقن سليمان بالفتنة، فأتى آصف فقال لسليمان: إنك مفتون بذنبك، والخاتم لا يتماسك في يدك (أربعة عشر يومًا)[٢]، ففرَّ إلى الله تائبًا، فإني أقوم مقامك، وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك، ففرَّ سليمان هاربًا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم، فوضعه في أصبعه فثبت، فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، فأقام آصف في ملكه يسير بسيرته أربعة عشر يومًا إلى أن ردَّ الله على سليمان ملكه، فجلس على كرسيه وأعاد الخاتم في يده فثبت[٣]. ١٠٣/ب

ورُوي عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام؟ فلم تنظر في أمور عبادي؟ فابتلاه الله عزَّ وجلَّ، فذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما روينا.

وقيل: قال سليمان يومًا لأطوفنَّ الليلة على نسائي كلهن، فتأتي كل واحدة بابن يجاهد في سبيل الله، ولم يستثن، فجامعهنَّ فما خرج له منهن إلَّا شق مولود، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سُليمان: لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلَّا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الله الذي نفس محمد بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسَانًا أجمعون»[٤].

---

(١) راجع التعليق السابق.

(٢)

(٣) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ١٣٣): (وهذا لا يصح، ولا ذكره من يوثق به).

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ: (١١/ ٥٢٤)، ومسلم في الأيمان، باب الاستثناء برقم ١٦٥٤: (٣/ ١٢٧٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٤٧).

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾

وقال طاووس عن أبي هريرة: لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة، قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي.

وأشهر الأقاويل أن الجسد الذي أُلقي على كرسيه هو صخر الجني[1]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ»، أي: رجع إلى ملكه بعد أربعين يومًا، فلما رجع ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ قال مقاتل وابن كيسان: لا يكون لأحدٍ من بعدي، قال عطاء بن أبي رباح: يريد: هبْ لي ملكًا لا تسلبنيه في آخر عمري، وتعطيه غيري كما استلبته في ما مضى من عمري.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ قيل: سأل ذلك ليكون آية لنبوته، ودلالة على رسالته، ومعجزةً.

وقيل: سأل ذلك ليكون عَلَمًا على قبول توبته حيث أجاب الله دعاءه ورد إليه ملكه وزاد فيه.

وقال مقاتل بن حيان: كان لسليمان ملكًا ولكنه أراد بقول: «لا ينبغي لأحد من بعدي» تسخير الرياح والطير والشياطين، بدليل ما بعده.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتًا من الجنِّ تفلت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ربِّ هبْ لي ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، فرددته خاسئًا»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ لينة ليست بعاصفة ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ (حيث أراد)[3]، تقول العرب: أصاب الصواب (فأخطأ الجواب، تريد: أراد الصواب)[4].

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبنون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ يستخرجون له اللآلىء من البحر، وهو أول مَن استخرج اللؤلؤ من البحر.

---

(١) راجع تعليق (١) المتقدم، وما قاله ابن الجوزي فيه.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: (٦/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨)، ومسلم في المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه، وجواز العمل القليل برقم ٥٤١: (١/ ٣٨٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٣٦٩).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) زيادة من «ب».

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا
لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١
ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ
لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ مشدودين في القيود، أي: وسخرنا له آخرين، يعني: مردة الشياطين، سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ (أي: قلنا له: هذا عطاؤنا)[1] ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ المنُّ: هو الإحسان إلى مَن لا يستثنيه، معناه: أعطِ من شئت وأمسك عمن شئت «بِغَيْرِ حِسَابٍ» لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت، قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلّا عليه تبعة، إلّا سليمان فإنه إن أعطى أجر، وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة، وقال مقاتل: هذا في أمر الشياطين، يعني: خلِّ من شئت منهم، وأمسك من شئت في وثاقك، لا تبعة عليك فيما تتعاطاه.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ بمشقة وضر.

قرأ أبو جعفر «بنُصُب» بضم النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحهما، وقرأ الآخرون بضم النون وسكون الصاد، ومعنى الكل واحد.

قال قتادة ومقاتل: بنصب في الجسد، وعذاب في المال، وقد ذكرنا قصة أيوب ومدة بلائه في سورة الأنبياء عليه السلام[2].

فلما انقضت مدة بلائه قيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب برجلك الأرض، ففعل فنبعت عين ماء ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ فأمره الله أن يغتسل منها، ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة، فركض الأرض برجله الأخرى، فنبعت عين أُخرى، ماء عذب بارد، فشرب منه، فذهب كل داء كان بباطنه، فقوله: «هذا مُغْتَسَلٌ بارد»، يعني: الذي اغتسل منه ﴿وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ أراد: الذي شرب منه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) راجع فيما سبق تفسير الآيتين: ٨٣ ـ ٨٤ من سورة الأنبياء: (٥/ ٢٣٨، وما بعدها).

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو ملء الكف من الشجر أو الحشيش ﴿فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ ضغثًا يشتمل على مائة عود صغار، ويضربها به ضربة واحدة ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ قرأ ابن كثير «عبدنا» على التوحيد، وقرأ الآخرون «عبادنا» بالجمع ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله تعالى[1] ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ في المعرفة بالله، أي: البصائر في الدين، قال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة، وبصرًا في الدين[2].

١/١٠٤ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾ اصطفيناهم ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ قرأ / أهل المدينة: «بخالصةِ» مضافًا، وقرأ الآخرون بالتنوين، فمن أضاف فمعناه: أخلصناهم بذكر الدار الآخرة، وأن يعملوا لها، والذكرى: بمعنى الذكر، قال مالك بن دينار: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها، وقال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله عزَّ وجلَّ، وقال السدي: أخلصوا بخوف الآخرة، وقيل: معناه: أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة[3].

قال ابن زيد: ومن قرأ بالتنوين فمعناه: بخلة خالصة، وهي ذكر الدار، فيكون «ذكرى» بدلًا عن الخالصة.

وقيل: «أخلصناهم»: جعلناهم مخلصين، بما أخبرنا عنهم من ذكر الآخرة.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا الذي يتلى عليكم ذكر، أي: شرف، وذكر جميل تُذكرون به ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أبوابها (مفتحة لهم)[4].

---

(١) انظر: الطبري: (٢٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الطبري: (٢٣/ ١٧٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/ ١٩٨) أيضًا لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ذكر هذه الأقوال ابن كثير في «تفسيره»: (٤/ ٤١).

(٤) زيادة من «ب».

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾
هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ
لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ
مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ مستويات الأسنان، بنات ثلاث وثلاثين سنة، واحدها ترْب، وعن مجاهد قال: متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن[1].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير «يوعدون» بالياء هاهنا وفي «قٓ»، أي: ما يوعد المتقون، وافق أبو عمرو هاهنا، وقرأ الباقون بالتاء فيهما، أي: قل للمؤمنين: هذا ما توعدون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ (أي: في يوم الحساب)[2] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ فناء وانقطاع.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الأمر هذا ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ للكافرين ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ مرجع.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها[2] ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا العذاب ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ قال الفراء: أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميم: الماء الحار الذي انتهى حره.

«وغساق» قرأ حمزة والكسائي وحفص «وغسَّاق»[3] حيث كان بالتشديد، وخففها الآخرون، فمن شدد جعله اسمًا على فعَّال، نحو: الخباز والطباخ، ومن خفف جعله اسمًا على فَعَال نحو العذاب.

واختلفوا في معنى الغساق، قال ابن عباس: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرِّها.

وقال مقاتل ومجاهد: هو الذي انتهى برده، وقيل: هو المنتن بلغة الترك.

وقال قتادة: هو ما يغسق، أي: ما يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة، من قوله: غَسِقَتْ عينه إذا انصبَّت، والغسقان الانصباب.

﴿وَءَاخَرُ﴾ قرأ أهل البصرة «وأُخر» بضم الألف على جمع أُخرى، مثل الكبرى والكبر، واختاره أبو عبيدة؛ لأنه نعته بالجمع، فقال: أزواج، وقرأ الآخرون بفتح الهمزة مشبعة على الواحد ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مثله، أي: مثل الحميم والغساق ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أصناف أُخر من العذاب.

---

(١) ذكره الطبري: (٢٣/ ١٧٥) دون إسناد.

(٢) زيادة من «ب».

(٣) ساقط من «أ».

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس: «هذا» هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة(١): هذا، يعني: الأتباع، فوج: جماعة، مقتحم معكم النار، أي: داخلوها كما أنتم دخلتموها، والفوج: القطيع من الناس وجمعه أفواج، والاقتحام الدخول في الشيء رميًا بنفسه فيه، قال الكلبي: إنهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار، خوفًا من تلك المقامع، فقالت القادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ يعني: بالأتباع ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ أي: داخلوها كما صلينا.

﴿قَالُوا﴾ فقال الأتباع للقادة: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ والمرحب والرحب: السعة، تقول العرب: مرحبًا وأهلًا وسهلًا، أي: أتيت رحبًا وسعة، وتقول: لا مرحبًا بك، أي: لا رحبت عليك الأرض ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتم بالكفر قبلنا، وشرعتم وسننتموه لنا، وقيل: أنتم هذا العذاب لنا، بدعائكم إيَّانا إلى الكفر ﴿لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: فبئس دار القرار جهنم(٢).

﴿قَالُوا﴾ يعني: الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: شرعه وسنَّه لنا ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ أي: ضعِّف عليه العذاب في النار، قال ابن مسعود: يعني: حيَّات وأفاعي.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: صناديد قريش وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ يعنون: فقراء المؤمنون: عمارًا وخبابًا وصهيبًا وبلالًا وسلمان ـ رضي الله عنهم ـ ثم ذكروا أنهم كانوا يسخرون من هؤلاء، فقالوا: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي «من الأشرار اتخذناهم» وَصْلٌ، ويكسرون الألف عند الابتداء، وقرأ الآخرون بقطع الألف وفتحها على الاستفهام(٣).

قال أهل المعاني: القراءة الأولى أولى؛ لأنهم علموا أنهم اتخذوهم سخريًا فلا يستقيم الاستفهام، وتكون «أم» على هذه القراءة بمعنى «بل»، ومن فتح الألف قال: هو على اللفظ لا على المعنى ليعادل «أم» في قوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ قال الفراء: هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب، «أم زاغت»،

---

(١) في «ب»: (للكفار).
(٢) زيادة من «ب».
(٣) تتمة العبارة في «معاني القرآن»: (٢/ ٤١١)، فهو يجوز بالاستفهام وبطرحه.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾
مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

أي: مالت «عنهم الأبصار»، ومجاز الآية: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخريًا لم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا، فلم نرهم حين دخلوها.

وقيل: أم هم في النار ولكن احتجبوا عن أبصارنا؟

وقال ابن كيسان: أم كانوا خيرًا منَّا ولكن نحن لا نعلم، فكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئًا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَحَقٌّ﴾ ثم بيَّن فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مخوف[1] ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقيل: يعني: القيامة، كقوله: «عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ»[النبأ: ١-٢].

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ يعني: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يعني: في شأن آدم عليه السلام، حين قال الله تعالى: «إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا»[البقرة: ٣٠].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ قال الفراء: إن شئت جعلت «أنَّما» في موضع رفع، أي: ما يوحى إليَّ إلَّا الإنذار، وإن شئت جعلت المعنى: ما يُوحى إليَّ إلَّا أني نذير مبين[2].

وقرأ أبو جعفر «إنَّما» بكسر الألف؛ لأن الوحيَ قولٌ.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال:
مرَّ بنا خالد بن اللجلاج، فدعاه مكحول / فقال: يا إبراهيم، حدثنا حديث عبد الرحمن بن عائش، قال: ١٠٤/ب
سمعت عبد الرحمن بن عائش الحضرمي يقول: قال النبي ﷺ:

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «معاني القرآن» للفراء: (٢/ ٤١٢): (... إلَّا لأني نذير ونبي).

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠
خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

«رأيتُ ربي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة، فقال: فِيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أيْ ربِّ ـ مرتين ـ قال: فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماء والأرض، قال: ثم تلا هذه الآية «وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ»[الأنعام: ٧٥]، ثم قال: فِيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: في الكفارات، قال: وما هنَّ؟ قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد خلف الصلوات، وإبلاغ الوضوء أماكنه في المكاره، قال: ومَنْ يفعلْ ذلك يعشْ بخير ويمتْ بخير، ويكنْ من خطيئته كيومٍ ولدته أمه، ومن الدرجات: إطعام الطعام، وبذل السلام، وأن يقوم بالليل والناس نيام، قال: قل اللهمَّ إني أسألك الطيباتِ، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي، وترحمني، وتتوب عليَّ، وإذا أردت فتنةً في قوم فتوفني غير مفتون، فقال رسول الله ﷺ: تعلّموهنَّ، فوالذي نفسي محمد بيده إنهنَّ لحق»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ المتكبرين، استفهام توبيخ وإنكار، يقول: أستكبرت بنفسك حتى أبيت السجود؟ أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود؛ لكونك منهم؟

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، وقيل: من السموات، وقال الحسن وأبو العالية: أي: من الخلقة التي أنت فيها، قال الحسين بن الفضل: هذا تأويل صحيح؛ لأن إبليس تجبَّر وافتخر بالخلقة، فغيَّر الله خلقته، فاسود وقبح بعد حسنه ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ مطرود.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه الدارمي: (٢/ ١٢٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٣٥، ٣٧)، وأشار إليه الترمذي: (٩/ ١٠٦).
وانظر: «مجمع الزوائد»: (١/ ٢٣٨)، «اختيار الأولى في حديث اختصام الملأ الأعلى»: ص٥ ـ ٧، «مسند الإمام أحمد»: (١/ ٣٦٨).

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾
قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ
أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وهو النفخة الأولى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ قرأ عاصم وحمزة ويعقوب: «فالحقُّ» برفع القاف على الابتداء، وخبره محذوف تقديره: الحق مني، ونصب الثانية، أي: وأنا أقول الحق، قاله مجاهد، وقرأ الآخرون بنصبهما، واختلفوا في وجههما، قيل: نصب الأول على الإغراء، كأنه قال: الزم الحق، والثاني بإيقاع القول عليه، أي: أقول الحق، وقيل: الأول قسم، أي: فبالحق وهو الله عزَّ وجلَّ، فانتصب بنزع (الخافض، وهو)[1] حرف الصفة، وانتصاب الثاني بإيقاع القول عليه، وقيل: الثاني تكرار القسم، أقسم الله بنفسه.

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جعل ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المتقوّلين القرآن من تلقاء نفسي، وكل من قال شيئًا من تلقاء نفسه فقد تكلّف له.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه: « قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ »[2].

قوله: ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو، يعني: القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ موعظة ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ للخلق أجمعين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ أنتم يا كفار مكة ﴿ نَبَأَهُۥ ﴾ خبر صدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة: بعد الموت، وقال عكرمة: يعني: يوم القيامة، وقال الكلبي: من بقي علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا، ومن ماتَ عَلِمَهُ بعدَ موتِه، قال الحسن: ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين[3].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة «ص»، باب: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾: (٨/٥٤٧)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان برقم ٢٧٩٨: (٤/٢١٥٦ـ٢١٥٧).

(٣) أخرجه الطبري: (٢٣/١٨٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٧/٢٠٩).

الفهرس